الإمام محمد أبو زهرة

المعجزة الكبرى

القرآن

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الإمام محمد أبو زهرة

المعجزة الكبرى



القرآن

نزوله - كتابته - جمعه - إعجازه

جدله - علومه - تفسيره - حكم الغناء به

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي



الافتتاحية :

« الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه ابدا ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ، ما لهم بـه من عـلم ولا لآبـائهم ، كبرت كلمة تخـرج مـن أفواههم ، ان يقـولون الا كذبا (١) » ٠

والصلاة والسلام على محمد الذى أرسل للعـالمين بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليه الكتاب المبين حجة باقية شامخة الى يوم الدين ، ورضى الله عن صحابته الأكرمين ، الذين بلغوا من بعده شريعة القـرآن ، ومعه العـدل والقسطاس المستقيم ٠

١ ـــ أما بعد فقد اتجهت النفس متسامية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتعرف سيرته الطاهرة العطرة لأقتبس من نور هديه ، وأتنسم نسيم عرفه ، ولأشاهد ارهاصات النبوة ، بل الاعجاز فى حياته الأولى كما أيده الله تعالى بالمعجزات فى حياته الثانية بعد أن بعث رحمة للعالمين ، وقـد تابعنا حياته عليه السلام الأولى ثم تسامينا الى متابعة حياته الثانية بعـد أن نادى فى الجزيرة العربية بصوته القوى العميق يدعو الى التوحيـد فى وسط الوثنية ، وهو يصبر ويصابر ، ويجـاهد ويناضل ، ويلاقى الأذى ، والمؤمنون الصادقون الذين آمنوا معه يعذبون ، وقلوبهم مطمئنـة بالايمـان لا ينطقون بالكفر ، ولو مزق الأذى أجسـامهم ، وطواغيت الشرك يتمتعون بالايذاء ، بينما أهل الايمان يرضون بالعذاب عن الكفران ، وقد أخذ النبى من بعد ذلك يعرض نفسه على القبائل ، تمهيدا لبناء دولة الاسلام الفاضلة ،

---

(١) الكهف : ١ ـ ٥ ٠

في غير مكة وأخذ النور يسرى فى ظلمات الجاهلية ، منبثقا من مكة ، وان لم يستضىء أهلها بنوره لعمى البصائر ، « **انهـا لا تعمى الأبصـار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » ·

والمعجزة الخالدة التى يتحدى بها قريشا وسائر العرب هى « القرآن الكريم » ، ورأينا من مساوقة الحوادث أن نتكلم فى هذه المعجزة الكبرى ، على أن يكون كلامنا فيها تبعيا وليس أصليا ، وبالعرض ، لا بالذات ·

٢ ـــ ولكن ما ان قاربنا نوره ، حتى بهرنا ضياؤه ، واستغرق نفوسنا سناؤه ، وانتقلت نفوسنا الى الاتجاه اليه قاصدين ذاته أصلا ، لا تبعـا للسيرة ، ولو كانت سيرة من نزل عليه القرآن ، وخاطب فى ظله الأجيال ، سيدنا الهادى رسول الله رب العالمين ·

وقد حاولنـا أن نملأ نفوسنا من ينابيع الهداية فيـه ، وأن نشـفى أمراض قلوبنا بما فيه من دواء ، وأن نكشف الغمة بما فيه من حكم وعبر ·

لذلك صار القرآن وعلم القرآن ، وكل ما يتعلق به هدفا لنا مقصودا ، وأملا منشودا لا نبغى سواه ، ولا نطلب غيره ·

فكان لزاما علينا أن نخص كتاب الله ببحث ودراسة ، وأن نخرج من ذلك البحث كتابا نرجو أن يكون قيما فى ذاته ، وان كان لا يعلو الى حيث يكون مناسبا لموضوعه ، فموضوعه أعلى من أن تناهده همتنـا ، وأن تتسامى اليه عزيمتنا ، لأنه كتاب الله تعالى ، وانى لضعيف مثلى أن يصل الى وصفه أو التعريف به ، انه فوق منـال أعلى القوى ادراكا ، وأعظم النفـوس اشراقا ·

(أ) وقد اتجهت ابتداء الى بيان نزول القرآن منجما ، وحكمته مستمدا هذه الحكمة من نص القرآن ، وما أحاط بالتنزيل ووجوب حفظه فى الصدور ، ثم بينت انه كتب فى حياة الرسول ، وأن النبى عليه السلام كان يملى الآيـة أو الآيات التى تنزل عليه على كتاب الوحى ، حتى اذا تم نزوله ، كانت كتابته قد تمت ، وقراءته بهذا الترتيب الذى نراه فى الآيات والسور ، قد كملت ·

وقد تكلمت من بعد ذلك فى جمع المكتوب فى عهد الصديقين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، ثم فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه ٠

(ب) وقد اتجهت الى الحق فى وسط ما أثاره بعض العلماء منخلافات حول أحرف القرآن الكريم ، وقراءاته ونزوله ، وقد أسرف بعض العلماء على أنفسهم وعلى الحق ، فأثاروا أقوالا باطلة ما كان من المعقول اثارتها ، حتى ان بعض المغرمين بالجمع ، ونقل الخلاف قالوا أمورا تخالف نص القرآن الكريم ، فيما ذكر من نزوله ، وتهافتت الأقوال ، حتى وجدنا الذين لا يرجون للاسلام وقارا يتعلقون بأقوال ذكرت لهؤلاء ، كقول بعضهم ان هناك رأيا يقول ان القرآن نزل على قلب النبى عليه الصلاة والسلام بالمعنى واللفظ للنبى ، ونسوا قوله تعالى معلما للنبى عليه السلام القراءة والنطق بها : « لا تحرك به لسانك ، لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (١) ، فان ذلك صريح فى أن القرآن نزل على النبى عليه السلام باللفظ والمعنى والقراءة ، وان ذلك عليه اجماع المسلمين ، والعلم به علم ضرورى ومن يخالفه يخرج من اطار الاسلام ٠ وقد صرح القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذى رتل القرآن ٠ فقال تعالى « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » (٢) ٠

(ج) ولقد تكلمنا من بعد ذلك فى اعجاز القرآن ، وبينا وجوه الاعجاز ، ودفعنا القول بالصرفة دفعا ، ثم تكلمنا فى علم الكتاب ، وجدل القرآن ، وتفسير القرآن ، ومناهج التفسير ، وبينا التفسير بالأثر ، ومقامه من التفسير بالرأى ، وأن الرأى يجب ألا يناقض المأثور وأن التفسير باللغة والأثر مفتاح التفسير بالرأى ٠

(د) وتكلمنا فى الغناء بالقرآن وتحريمه ، والتغنى الجائز المأثور ، وابطال ما سواه ، وسرنا فى طريق الحق الذى لا عوج فيه ، ولا أمت ٠

---

(١) القيامة : ١٦ ـ ١٩ ٠

(٢) الفرقان : ٣٢ ٠

٣ ـــ وانا نحمد الله تعالى على ما اختبرنا به فى أثناء كتابة ما كتبناه لقد اختبرنا الله تعالى فى أول كتابة ما كتبنا عن القرآن فانقطعنا عن الاتصال بالصحف السيارة ، نخاطب المسلمين من فوق منبرها ، وقطعنا عن المجلات العلمية نوجه الفكر الاسلامى من طريقها ، ومن كل طرق الاعلام فلا نصل اليها ، وكان الهم الأكبر أن انقطعنا عن دروسنا ، وعن المحاضرات العامة ٠

ولكن القرآن آنسنا فى وحدتنا ، وأزال غربتنا ، فكان العزاء النفسى والجلاء الروحى ، واختبرنا الله تعالى بالضر كما اختبر نبيه أيوب اذ قال « **انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** » (١) وانه وان تشابه المرض فانه يختلف المقام فهذا نبى يوحى اليه ، ونحن من الأتباع ، ونرجو أن نكون من الأبرار فى اتباع النبيين ، لزمنا المرض المقعد نحو شهرين ، فكان ألم الابتعاد عن القرآن أكبر من ألم المرض الممض ، ولقد من الله تعالى بالشفاء ، فخرجنا من الداء العقام ، وما منعتنا وعثاء المرض فعدنا الى القرآن ، نقبس من نوره ، ونعبق من عرفه ، فهو أنس المستوحش ، وسمير المستغرب ، فآنسنا بعد طول الغياب ٠ ومنحنا الله تعالى به العافية ، فوفقنا لأن نقطع كل ما أردنا عرضه فى مدة المرض ، وكأنا فى مجموع ما بلينا فى طول المدة أصحاء فى أبداننا ، لأنه سلمت نفوسنا من السقام ، بفضل القرآن ٠

واختبرنا الله تعالى من بعد بهم واصب بأن أصاب رفيقة حياتى كسر اقعدها ، واقعدنى بالغم الشديد والكرب البعيد الأثر ، العميق فى النفس ٠

ولكن انس القرآن خفف همى ، وكشف غمى ، لأنه ملأها ايمانا بقضاء الله وقدره ، ووضع فى نفوسنا الصبر الجميل ، من غير أنين ، ولا ضجر ، ولكن برضا لما أراد ، وهو اللطيف الخبير ، وهو الشافى فى المرض والجابر فى الكسر ، والمعين فى الشدة ، ولا رجاء فى غيره ٠

هذه أمور جرت لنا ، ونحن نكتب فى المعجزة الكبرى ، فما عوقت ، وما منعت ، وما أيئست ٠

---

(١) الأنبياء : ٨٣ ٠

اللهم احفظفنا بالقرآن ، وآنسنا بنـوره ، ووفقنا للقيام بحقـه آحادا وجماعات ، وانك وحـدك القائم على كل شىء ، اللهم قنـا شر نفوسنا ، واحفظ الأمـة ، مـن فسـاد يعم ، وشر يطم ، اللهم انـك عفـو قـدير فـاعف عنـا ، ولا تؤاخذنا بما تكسب أيدينا ، وارفع عنا المقت الـذى حـل بنا ، انك عوننا ، وأنت نعم المعين ٠

أول رمضان سنة ١٣٩٠ هـ

٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٠ م

محمد أبو زهـرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المعجــزة الكبرى

تمهيــد :

١ ـــ يسير الكون على سنن قد سنت ، ونظم قد أحكمت ، وارتبـاط بين الأسباب والمسببات العــادية لا يتخلف ، وان تخلفت المسببات عن أسبابها ووجدت الأمور منفـكة عن علتها ، كالولد يولد من غير أب ، وكالحركة تجىء من جامد لا يتحرك كعصا ، ونار تنكفىء وقد أوقدت ، اذا كان ذلك الانقطـاع بين الأسباب العادية ومسبباتها ٠ حكم العقل بأن الذى فعـل ذلك فوق الأسباب العادية ومسبباتها ، ولو ساير العقل منطقه الى أقصى مداه ، (وليس بعيـدا فى حكم المنطق العقلى المستقيم الذى يصل الى المدى من أقرب ه) فانه لابد واصل الى أن الذى خرق العـادات وخالف أسـبابها ومسـبباتها ، لابـد أن يكون خالقها وموجدها ٠ واذا كان القصـور العقلى لا يصل الى هذه الغاية ، فـانه لابد واصل الى أن خـرق هذه العادات لابد أن يكون لغاية ، وانه اذا وجـدت هذه الغاية وبينت مقاصدها ، وعلم أن ذلك الخرق لهذه الغاية تبين معه صـدق ما يدعى ، وانه يعلم من وراء ذلك الخــالق الحكيم ، المسيطر على كل شىء الذى يفعل ما يريد ، ولا يقيـده نظام خلقـه ، ولا عادات أوجدها ٠

لذلك كان الأمر الخــارق للعادة حجة الصدق لمن يدعى أنـه يتـكلم عن الخالق الحكيم الفعــال لما يريد ، لأنـه لا يغير العادات سواه وان الصادق يعلن دعـواه ، ويقيم ذلك برهانا عليهـا ، ويتحـدى الناس أن يفعلوا مثلها ، ويسمى فى هذه الحال انه معجزة ٠

ولذلك عرفوها بأنها الأمر الخــارق للعادة الذى يدعى به من جـرى على يديه انه نبى من عند الله تعالى ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ان كانوا صادقين

وان المعجزة المادية تتحدى بنفسها مع ادعاء الرسالة ، فان النار لا تنطفىء من تلقاء نفسها ، اذ يلقى فيها ابراهيم عليه السلام فتكون بردا وسلاما عليه ، فلا يحترق ، وكالعصا التى تتحرك وتتلوى كأنها ثعبان مبين وليست سحرا ، كما أدرك الساحرون ، وكانوا أول المؤمنين ، وكابراء عيسى للأكمه والأبرص باذن الله ، وكاحيائه الموتى باذن الله ، فما كان له أن يطلب منهم أن ياتوا بمثلها ، والقصور بين ، والعجز واضح ، ومع ذلك فالتحدى قائم ، والعجز ثابت ، والحجة قائمة ، وكان عليهم أن يؤمنوا بالحق اذ جاءهم .

وهناك بجوار المعجزة المادية معجزة هى شىء قائم بذاته ثابت ، ولكن الاعجاز فيه أمر لا يدرك بالحس ، ولكن يدرك بالدراسة والفحص ، وقد يدعى بعض من لا يسبر غوره ، ويعرف أمره أنه يستطيع أن يأتى بمثله وما هو بمستطيع ، وأنه فى قدرته ، وليس بقادر عليه ، وهو من غرور النفس ، أو ادعاء القدرة أو اللجاجة فى الأفكار ، والمباهتة المناهضة للحقائق .

وان ذلك يكون فى المعجزة التى تكون من نوع الكلام ، وهى معجزة القرآن الكريم فقد كان الغرور يوهم بعض المخاطبين به أن عندهم القدرة على الاتيان ، بمثله ، فكان لابد من كشف هذا الغرور ، وازالة تلك الغشية الباطلة ، ليتبين وضح الحق ، ولذلك طالبهم الله تعالى بأن ياتوا بمثله ان كانوا صادقين فى مثل قوله تعالى : « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين** » (١) . وتحداهم أن ياتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وقرر سبحانه أن البشر يعجزون عن أن ياتوا بمثله ، فقال تعالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله . ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » (٢) .

٢ — وهنا يسأل سائل لماذا كانت معجزة ابراهيم نارا موقدة صارت

---

(١) البقرة : ٣٢ .
(٢) الاسراء : ٨٨ .

بردا وسلاما ، ومعجزة موسى عليه السلام كانت عصا صارت حية تسعى ، وغيرها أيده الله به الى تسع آيات كلها كانت مادية حسية ، وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام ابراء الأكمه والأبرص واحيـاء الموتى باذن الله ، وانزال مائدة من السماء ، بل كانت ولادته ذاتها معجزة حسية اذ ولد من غير أب ، وتكلم فى المهد صبيا ، اذ قال : **« انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (١) ٠**

لماذا كانت معجزات الأنبياء السابقة حسية على ذلك النحو ، ومعجـزة محمد صلى الله عليه وسلم معنوية فقد كانت بيانا يتلى ، وذكرا حكيما ، يحفظ فيه بيان الشرائع المحكمة الخالدة ٠

قبل أن نخوض فى الاجابة عن السؤال الوارد فى موضعه ، نقرر أن كون المعجزة مادية حسية تبهر الأعين بادىء الرأى لا يدل على علو المنزلة ، أو عكسها ، ولكنها حكمة الله تعالى العليم بكل شىء ، القادر على كل شىء ، والله تعالى فضل بعض الرسل على بعض ، فمنهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، ولكن ليست الرفعة بكون الآيات مادية أو حسية ، بل بأمور قدرها الحكيم العليم الذى له وحده حق نوع التفضيل والرفعة ٠

ونعود بعد ذلك الى الاجابة عن السؤال الوارد ، فنقول : ان العلماء قـالوا ان كـل معجـزة مناسـبة للعصر الـذى أرسـل فيـه كل نبى اذ تكون هادية ومرشدة ، وخرقها للعادات الجارية يكون أوضح ، ومناسبتها لرسالة النبى المبعوث يكون دليلا على كمال الرسالة وعموم شمولها لـكل الأزمنـة ٠

وقد نخالفهم فى بعض ما ذكروا أو نوافقهم ، فنرى أن ابراهيم جاء فى

---

(١) مريم : ٣٠ ـ ٣٣ ٠

قوم كانوا على مقربة من عبدة النار ، فكان فى اطفاء الله تعالى للنار من غير سبب ظاهر بيان بعجز النار التى تعبد ٠

ونوافقهم فى أن معجزات موسى عليه السلام كانت مناسبة لأهل مصر لأن السحر والكهانة كانا فيهم ، وقد كان للسحرة مكانة عندهم . وبقيت المعجزات كانت متعلقة بالزرع وآفاته . وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور ، كما قال تعالى : « **فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون** » (١) وهكذا كانت تسع آيات حسية مناسبة لأهل مصر ، وبنى اسرائيل ، فكانوا يقولون انه سحر . واقرأ قوله تعالى : « **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم ، فقال له فرعون ، انى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض ، بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا** » (٢) ٠

٣ ـــ هذه معجزات ابراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام وهى مناسبة لزمنهما ، وكذلك معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت مناسبة لعصره ، لا لأن عصره شاع فيه علم الطب كما يقول بعض علماء الكلام ، لأن علم الطب لم يكن رائجا بين بنى اسرائيل ، فلم يكن بينهم علم أبقراط . كما قرر رينان فى كتابه « حياة يسوع » بل ان معجزاته كانت من ذلك النوع لسبب آخر يجب أن نتلمسه من غضون التاريخ ، ومن حال بنى اسرائيل ، ذلك أن العصر كان عصرا ماديا يؤمن بالمادة ولا يؤمن بالغيب ، بل كان من اليهود من لا يؤمن باليوم الآخر ، وانك لترى أن التوراة التى بأيدينا ، وهى ميراثهم من التوراة التى حرفت ، تقرر أن نفس الانسان هى دمه ٠

---

(١) الأعراف : ١٣٣ ـ ١٣٥ ٠

(٢) الاسراء : ١٠١ ـ ١٠٢ ٠

وكان بجوار هذه الروح المادية التى سادت بنى اسرائيل استجابة لما هو سائد فى عصرهم الرومانى الذى كان يؤمن بالمادة ، كان بجوار هذا ايمان بالأسباب العادية والمسببات ، بحيث يعتقدون أنه لا يمكن أن ينفك السبب عن مسببه ، واللازم عن ملزومه ، فلا توجد نتائج من غير سبب عادى ، فلا ولد من غير والد ، ولا حياة تكون بعد موت من يموت . فلا يرتد حيا ، وقد عجزت الأسباب عن أن يرتد حيا من يموت ، وعجزت الأسباب عن أن يرتد بصيرا من يولد أعمى ·

لقد سادت الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى تقرر لزوم الأسباب العادية ، حتى لقد فرضوا أن الأشياء نشأت عن الخالق لها بقانون السببية ، فقالوا ان الكون نشأ عن المنشىء الأول نشوء المسبب عن سببه بلا ارادة مختارة منشئة · لقد قرروا أن قانون الأسباب هو الذى يحكم كل شيء ·

لذلك كانت معجزات عيسى عليه السلام متضمنة الرد والتنبيه فى أمرين أولهما ـ بيان سلطان الروح ، فقد ظهرت الروح مسيطرة موجهة مرشدة فى أنه كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، وفى أنه عليه السلام أحيا الموتى باذن الله ، وأخرجهم من قبورهم باذن الله ، وأنزل عليه مائدة من السماء باذن الله تعالى ·

وثانيهما أنه كانت معجزاته عليه السلام هادمة لارتباط الأسباب العادية بمسبباتها ، لقد ولد من غير اب ، والأسباب العادية تقرر أنه لا مولود من غير والد ، وتكلم فى المهد صبيا ، وذلك غير المقرر فى الأسباب والمسببات ، وأخبر عن بعض المغيب عنه ، وذلك غير الأسباب العادية التى توجب المعاينة فىصدق الاخبار · وأحيا الموتى باذن الله ، وذلك ما لا يتحقق فى الأسباب العادية ·

وهكذا نجد معجزات عيسى عليه السلام ورسالته كانت ايقاظا شديدا لعصره ، وتنبيها لمكان الروح ، وسلطانها ، وبيانا لقدرة الله تعالى ، وأنه الفعال لما يريد ، فكانت رسالته ومعجزاته مناسبة لعصره ·

معجــزة القرآن

وكل معجزات الأنبيـــاء ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم سواء أكانت مادية فى كونها ، أم كانت متضمنة معانى روحية ـ كانت من النوع الذى يحس بالرؤية • ويكون من بعدها التأمل ، وليس من النـوع الذى يكون بالتأمل ، ولا يدرك الا بالتأمل ، وان كان قائما ثابتا فى الوجود من غير ريب ، وكانت حوادث تقع ، ولا تبقى ، ولا يبقى منها الا الاخبار بها ، فلا يعرفها على اليقين الا من عاينها •

٤ ـــ ولكن معجزة محمد عليـه السـلام كانت من نوع آخـر ، لم تـكن حادثة تقع ، وتزول من غير بقــاء لها الا بالخبر ، بل كانت قائمــة تخـاطب الأجيال ، يراها ويقرؤها الناس فى كل عصر ، ونقول انها منـــاسبة لرسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، لعمومها فى الأجيال ، ولمكانته بين الرسل ، ومقامه فى هذا الوجود الانسانى الى يوم القيامة •

ان معجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعها على وجه اليقين الا من القرآن ، فهـو الذى سـجل معجـزات نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ولولا انه سجلها ما علمها الناس ، واذا كانت بعض الكتب القائمة اليوم ذكرت بعضها فقد ذكرته مشوبا بأمور غير صادقة كاخبـارهم بأن لوطا كان مخمورا فوقع على ابنتيه ، وما يكتب فيه مثل هـــذا عن بعض النبيين لا يمكن أن يكون مقبول الخبر عن سائرهم ومعجزاتهم •

ونقول : ان معجزة محمــد عليه السلام كانت القرآن ، لقــد أجرى الله تعالى على يديه خوارق عادات أخـــرى مثل اخباره عن بعض مـا يغيب عن حسه ، ومثل حنين الجذع اليه ، ومثل بكاء النـــاقة عنده ، ومثل الاسراء والمعراج ، ولكن لم يتحد الا بالقرآن الكريم ، ولم ير المشركون صرحا شامخا يتحداهم به سوى القرآن الكريم •

ولماذا كانت معجزة محمد عليه السلام القرآن ، وما كان يرجو الاتبـاع الا به ، ولقد روى انه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من نبى الا أوتى ،

ما مثله آمن به البشر ، وانما كان الـذى أوتيته وحيـا أوحى به الى ، وانى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » ومن هذا يتبين جواب ذلك السؤال ، وهذا لأن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم خالدة ، لأنه صلى الله تعـالى عليه وسلم خاتم النبيين ، ولا نبى بعده ، فيجب أن تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التى لا يحدها زمان فى المستقبل ، بل تبقى الى يوم القيامة ولا تكون معجزته واقعة تنقضى ، وتنتهى بانتهـاء الزمن الذى وجدت فيه بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة ، وذلك محقق فى القرآن فهو حجة قائمة على العرب والعجم الى يوم الدين ، وهو معجز لكل الخلائق ، وذلك ماتتصدى لبعضه ، والله هو المعين ٠

المعجزة الخـالدة

٥ ـــ تلك المعجزة الخالدة هى القرآن الذى يتحـدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله ، ولو اجتمعت الجن والانس على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو حجة الله على خلقه ، وحجة النبى فى رسالته ، وسجل الشريعة المحكم فى بيانه ، وهو المرجع عندالاختلاف والحكم العدل عند الافتراق ، وهو الطريق المستقيم المرشد عند الاعوجاج ، من سلكه وصل ، ومن لجأ اليه اهتدى ٠

روى الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكرم وجهه فى الجنــة أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم يقول « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ٠ وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهـــدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقيـاء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنتــه الجن اذ سمعته أن قالوا انا

سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم ، خذها اليك يا أعور » ٠

وقد رواه الحارث الهمذانى برواية الترمذى ، وقد حسن رواية الحارث كثيرون من المحدثين ، منهم الفقيه المحدث ابن عبد البر ، وان الذين اتهموا حارثا فيهم نزعة أموية ، ومنهم الشعبى ، وقد قال فيه ابن عبد البر : « أظن الشعبى عوقب لقول فى الحارث الهمذانى » « حدثنى الحارث وكان أحد الكذابين » ٠

وأنه فى معنى هذا الحديث ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ، اذ جاء أنه فيما روى عنه « ان هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، فاتلوه فان الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات » ٠

وان هذه الأخبار ومثلها كثير تدل على منزلة القرآن فى الاسلام ، وأنه العصمة من الزيغ ، وأنه المرجع المتبع ، وأنه يشتمل على شرائع الاسلام كلها ، وأنه بذلك هو الحكم بين الناس الذى لا يضل حكمه ، وأن من تركه من جبار قصم الله تعالى ظهره ، وأنه لا تتشعب الآراء فى حقيقته اذا استقامت الأفهام ، ولم تضل المدارك ٠

والعلماء يجدون فيه المعين الذى لا ينضب ، والثروة الاسلامية التى لا تنفد فيه حكم الأمور كلها ما وقع ، وما لم يقع ، وأن كل ما فيه حق ، وأنه مصلحة الدنيا والأخرى ، ما من خبر الا له فى القرآن أصل معتمد ، ونص يمكن الحمل عليه ، فما ترك الله الانسان سدى ٠ وقد قال تعالى وقوله الحق : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ٠ وفيه عبر الماضين وأخبار كل النبيين ، فهو كتاب الله الكامل ، فيه معانى كل الكتب المنزلة على الرسل ، وفيه أخبار أولئك الرسل مع أقوامهم ، وفيه المثلات المرشدة ، والعظات الموجهة ، وفيه

أعلى الآداب الانسانية وأقوم السلوك الكامل للخلق أجمعين ، وفيه تعـليم الانسان الاتجـاه الى الكون وتعرف ما فيـه ، والأخذ بالعلم من قوادمه وخوافيه وفيه الدعوة الى العلم بكل ضروبه ، علم الانسان ، وعلم النفس ، وعلم الكون ، والى العلم بالنجوم فى مسالكها ، والسموات فى أفلاكها ، والأرض فى طبقاتها ، فيه الدعوة الى العلم بما لم يعلم ، وطلب فى كل مداركه ·

خاطب الله تعـالى به أولياءه فعرفوه ، وأصحاب العقول المستقيمة فأدركوه ، وكان حقا كما قال تعالى « **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا** » (١) ذلك هو كتاب الله تعالى بما حمل من معان وتكليف ، وما كساه الله تعالى به من روعة وتشريف ، وهو كما وصفه الله تعالى بقوله : « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله** » (٢) ·

---

(١) الرعد : ٣١ ·

(٢) الزمر : ٢٣ ·

القِسمُ الأولُ

نزول القرآن

نزول القرآن

٦ ــ من وقت أن من الله تعالى على الانسانية بالبعث المحمدى ابتدأ نزول القرآن ، فأول آية نزلت كانت الخطاب من الله تعالى بالتكليف الذى كلفه تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بحمل الرسالة الى خلقه ، فقد نزلت أول آية ، وهى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » (١) ، فكان هذا ايذانا بأن دين العلم قد وجب تبليغه ، وأن كتاب العلم قد ثبت تنزيله ، وأن اعلاء شأن الفكر قد جاء به خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وفيه ايماء الى أن الاسلام والعلم يجتمعان ، ولا يتناقضان أبدا ٠

توالى نزول القرآن منجما فى مدة الرسالة المحمدية التى استمرت ثلاثا وعشرين سنة يدعو فيها بالحق ، والى صراط مستقيم ، ينير السبيل ، ويهدى للتى هى أقوم ٠

فكانت الآيات القرآنية تنزل وقتا بعد آخر ، وكان التحدى بما نزل وان لم يكن ما نزل كل القرآن ، لأن كل جزء منه ينطبق عليه اسم الكتاب ، بل القرآن ، اذ أن التحدى يقع به ، والمعجزة تتحقق فيه ، فقد تحدى أهل مكة أن يأتوا بمثله ، ولم يكن قد نزل كله ، فقد قال تعالى فى سورة يونس ، وهى مكية : « **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون** » (٢) وجاء التحدى فى هذه السورة أيضا فقال تعالى : « **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه ، من رب العالمين ، أم يقولون افتراه ، قل فأتوا**

---

(١) العلق : ١ ــ ٥ ٠

(٢) الآيتان : ١٦ ، ١٧ ٠

بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، ان كنتم صادقين » (١)
وجاء في سورة هود ، وهي مكية : « أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، ان كنتم صادقين » (٢) ٠

ومن هذا كله يتبين أن بعض القرآن قرآن يتحدى فيه ، فهو الكتاب الكامل في كله ، والكامل في جزئه ، وهو معجز في أجزائه ، كما هو معجز في ذاته ، وان شئت فقل انه معجزات متضافرة . واذا كان لموسى تسع آيات بينات فلمحمد مئات من المعجزات البينات ٠

حكمة نزوله منجما

٧ ـــ وقد يسال سائل لماذا نزل القرآن منجما ، ولم ينزل دفعة واحدة، كما نزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام ، وكما نزل الزبور على داوود ؟ وان مثل هذا السؤال جاء على السنة المشركين معترضين ، متخذين منه سبيلا للجاجتهم ، وقد نقل القرآن الكريم عنهم ذلك ورده ، فقد قال تعالى: « وقال الذين كفروا لولا انزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » (٣) ٠

ونرى أن النص الكريم قد نقل اعتراض المشركين ، ورده سبحانه وتعالى عليهم ، وقد تضمن الرد ثلاثة أمور تومىء الى السبب في نزوله منجما :

أولها : تثبيت فؤاد الرسول بموالاة الوحي بالقرآن فان موالاته فيها أنس للنبي عليه الصلاة والسلام ، وتثبيت لعزيمته ، وتأييد مستمر له ، فيقوم بحق الدعوة بالجهاد في سبيلها ، واذا كان المرء يستأنس بوليه اذا والى الاتصال به فكيف لا يستأنس رسول الله تعالى بلقاء الروح الأمين الذي يجيئه بكلام رب العالمين ، في موالاة مستمرة ٠

---

(١) الآيتان : ٣٧ ، ٣٨ ٠
(٢) الآية : ١٣ ٠
(٣) الفرقان : ٣٢ ٠

ثانيها : **أن تثبيت الفؤاد بنزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءا جزءا ، ذلك أن هذا القرآن نزل ليحفظ فى الأجيال كلها جيلا بعد** جيل ، وما يحفظ فى الصدور لا يعتريه التغيير ولا التبديل ، وما يكتب فى السطور قد يعتريه المحو والاثبات والتحريف والتصحيف ، ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ ، كان يحفظ جزءا جزءا ، وكان ينزل مجزءا ليسهل ذلك الحفظ ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن يحفظه عند نزوله ، فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه فى ذلك : « **لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه (١)** » وترى من هذا النص حرص النبى صلى الله عليه وسلم على أن يحفظ ما يوحى اليه ، فيحرك به لسانه ، مستعجلا الحفظ فينبهه الله تعالى الى أنه يتولى جمعه واقراءه له ، وأنه مبينه ، وحافظه ، كما قال تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » (٢) ٠

الأمر الثالث : هو ترتيل القرآن ، بتعليم تلاوته وان هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريق ترتيله هى من تعليم الله تعالى ، اذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل اليه تعالت قدرته وكلماته ، وعظم بيانه ، فنحن بقراءتنا وترتيلنا ان أحكمناه ، انما نتبع ما علم الله تعالى نبيه من ترتيل محكم ، جاء به التنزيل ، وأمر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى : « **ورتل القرآن ترتيلا (٣)** » وما كان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتوافر اذا لم ينزل القرآن منجما ، فلو نزل جملة واحدة ما تمكن النبى عليه السلام من تعلم الترتيل ، ولو علمه الله تعالى بغير تنجيمه ما كان فى الامكان أن يعلمه قومه وهم حملته الى الأجيال من بعده ٠

هذا ما يستفاد من النص الكريم المتلو ، وعبارته السامية فيه واضحة بينة تشرق بمعانيه العالية الهادية الموجهة المرشدة ٠

---

(١) القيامة : ١٦ ـ ١٩ (٢) الحجر : ٩ (٣) المزمل : ٤ ٠

وهناك سبب آخر لنزول القرآن منجما نلمسه من حال العرب . ومن شئونهم ، ذلك أن العرب كانوا أمة أمية . والكتابة فيهم ليست رائجة ، بل يندر فيهم من يعرفها ، وأندر منه من يتقنها ، فما كان فى استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله اذا نزل جملة واحدة . اذ يكون بسوره وآياته عسير عليهم أن يكتبوه ، وان كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيف والتحريف .

ولقد كان من فائدة انزال القرآن منجما أنه كان ينزل لمناسبات ولأحداث فيكون فى هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه والمبين الاول هو النبى صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم (١) » .

المكى والمدنى

٨ ـــ كان نزول القرآن منجما ، سببا فى أن بعضه نزل بمكة وبعضه نزل بالمدينة ، فكان منه المكى ومنه المدنى ، فالمكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة ، فما نزل بعد الهجرة ، ولو بمكة يسمى مدنيا ، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكيا ، فالتقسيم زمانى ، وليس بمكانى . ليست العبرة بمكان النزول ، انما العبرة فيه بزمانه .

والآيات المكية فيها بيان العقيدة الاسلامية . وبطلان عبادة الأوثان . ومجادلة المشركين والدعوة الى التوحيد ، ومخاطبة العرب . وفيها قصص الأنبياء الذين جاءوا الى بلاد العرب ولهم آثار فى أجزائها تنادى بما صنع أقوامهم ، وما أصابهم الله تعالى بكفرهم من حاصب ، ومن خسف جعل عالى ديارهم سافلها ، ومن ريح صرصر عاتية .

ولم يكن فى الآيات المكية أحكام للمعاملات . وان كان فيها اشارات الى المحرمات كالخمر والربا فقد قال تعالى مشيرا الى أن الخمر أمر غير حسن :

---

(١) النحل : ٤٤ .

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون » (١) • فان هذا النص الكريم يشير الى أن الخمر ليست أمرا حسنا ، لأنه سبحانه وتعالى جعلها مقابلة للأمر الحسن ، ولا يقابل الحسن الا القبيح ، أو على الأقل الأمر غير الحسن •

ولقد جاء أيضا فى سورة الروم ما يشير الى أن الربا أمر غير مستحسن فقد قال تعالى فى سورة الروم : « **وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال النـاس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** »(٢) •

وان عدم وجود أحكام للمعاملات فى مكة سـببه أن الدولة التى كانت قائمة كانت دولة شرك ، وان من المستحيل أن تنفذ أحكام المعـاملات الاسلامية فى ظلها ، وكان الاتجاه الأول الى اخراجها من الشرك وادخالها فى التوحيد أولا ، ثم من بعـد ذلك تكون الدولة الاسـلامية المنفـذة ، ولكن المحـرمات كانت ثابتة من أول تشريع الاسلام ، وان كان مسـكوتا عنهـا • فلم تـكن موضع اباحة ، بل كانت موضع سكوت وعفو حتى ينزل التشريع بتحريمها تحريما قاطعا ، فما كانت الخمر مباحة ، ولكن كان مسكوتا عنها ، أو كانت فى مرتبة العفو كما يقول علماء الأصول ، حتى اذا كان المنـع الصريح فى المدينة ، كان معه العقـاب ، وهـكذا كل ما كان مسكوتا عنه لم يكن موضـع ابـاحة •

ولما انتقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات لأنه وجـدت دولة اسلامية فاضلة ، تنظم العلاقات بين الناس ، وتقوم على تنفيذها ، والقضاء بها ، فنظم التعامل ، وابتدأ بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الاخاء الذى آخى فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، والأنصار بعضهم مع بعض ، والمهاجرين بعضهم مـع بعض ، وشرعت النظم الاجتماعية ، والمعاملات الانسانية • من أحكام للبيوع والمزارعات ، وتحريم للربويات وغيرها ، وفرضـية الصـدقات وتنظيمها ، واعطـاء الفقير حقـه ، والتنظيم الاجتمـاعى الكامل ، وشرعت الزواجـر

---

(١) النحل : ٦٧ •
(٢) الآية : ٣٨ •

الاجتماعية من حدود وقصاص · وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق ، وفتح باب الجهاد ، ووضعت نظم الحرب ، وقامت العلاقات الدولية على أسس متينة محكمة ، يراعى فيها حق العدو ، كما يلاحظ حق الولى على سواء لأن المبادىء المدنية فى الاسلام قامت على اعطاء كل ذى حق حقه من غير بخس ولا شطط ، ولا مجاوزة للحد ولا اعتداء ·

ويلاحظ ان مبادىء العدالة جاءت مع وجود الشريعة الاسلامية ، وقد دعا اليها القرآن الكريم فى مكة والمدينة ؛ لأن العدالة حق ابتدائى لا يختلف فى دولة عن دولة ، فهو يتعلق بالنفس الانسانية فى ذاتها ·

فالأمر بالعدالة والاحسان والوفاء بالعهد جاء فى سورة النحل ، وهى مكية عند نظر الأكثرين ، لأن الله تعالى يقول فيها وهو أحكم القائلين : **« ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ، وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة »** (١) ·

ولقد أحصى القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن السور المدنية ، فقال : « عن قتادة نزل بالمدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، ويأيها النبى لم تحرم الى رأس العشر ، واذا زلزلت ، واذا جاء نصر الله ــ هذه السور نزلت بالمدينة · وسائر القرآن نزل بمكة ·

ويلاحظ أنه جعل سورة النحل من الصور المدنية · ولكن المذكور فى المصاحف التى بين أيدينا أنها مكية ، ولعل فيها روايتين ·

---

(١) الآيات : ٩ ــ ٩٢ ·

كتابة القرآن وجمعـه

٩ ـــ منذ ابتدأ نزول القرآن الكريم عــلى الرســول الأمين ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحفظه ، ويأمر من حــوله ممن يحسنون الكتابة أن يكتبوه ، وقد سمى أولئــك الذين كتبــوا القــرآن بكتــاب الوحى ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم كثير ممن كانوا يحضرون الى النبى صــلى الله تعــالى عليه وســلم غب نــزول الوحى بالقــرآن عليــه ، فيمـــلى عليهم مــا نــزل ، ويعــلمن مــا حفظــه فيحفظـه الكثيرون من الصحابة وخصوصا من كانوا له عليه الصلاة والسلام ملازمين ، وعلى مقربة منه صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكان نزول القرآن عــلى غير الترتيب الــذى نقــرؤه الآن فى الســور الكريمة ، بل كان ذلك الترتيب من بعد النزول بعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بوحى من الله تعالى ، فكان يقول عليه الصلاة والسلام ضعوا آيــة كذا فى موضع كذا من سورة كذا ، فتــكون بجوارها متسقة متلاحقة المعنى مترابطة ٠ متناسقة اللفظ ، تلتقى بهــا كأنها تقف معهــا ، وكأنهما كلام واحــد قيل فى زمن واحد ، أحدهما لاحق ، والآخر سابق ، وكأن المتكلم قالهمــا فى نفس واحد ، من غير زمــن بينهمــا يتراخى ، أو يتباعد ، وذلك مــن سر الاعجاز ، ولا غرابة فى ذلك ، لأن القائل واحد ، وهو الله سبحانه وتعــالى العليم الخبير الذى لا تجرى عليه الأزمان ولا يحد قوله بالأوقات والازمــان لأنه هو خالق الازمان والمحيط بكل شىء علما ٠

ولذلك كان ترتيب القرآن الكريم فى كل سورة بتنزيل من الله تعــالى ٠

وكان من الصــحابة من يحفظــه كله ، فكان عبد الله بن مسعود يحفظ المكى ، ويحفظ المدنى ، ولكن الرواة قالوا انــه عــرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المكى فقط ، وكذلك جمــع أبى المدنى ، وقالوا انه عرض على النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ما جمعه بعد الهجرة وأكبر العــرض هو عرض زيد بن ثابت رضى الله تبــارك وتعالى عنه ، فقد كان سنة وفــاة

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد كان بعد أن قرأ الرسول الأمين على روح القدس جبريل القرآن مرتبا ذلك الترتيب الموحى به الذى نقرأ به القرآن الكريم ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل الى الرفيق الأعلى الا وقد جمع القرآن فى صدر طائفة من الصحابة . قيل ان عددهم مائة أو يزيدون . ونحن نرى أنهم كانوا أكثر من ذلك عددا . فانه قتل من القراء فى احدى مواقع الردة عدد يزيد على السبعين . وقيل على سبعمائة . وربما كان الأول أدق ، فاذا كان ذلك العدد مقتولا فالباقى بحمد الله تعالى أكثر . وان كان قتل سبعين قد هال المؤمن الثاقب النظر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجزاه عن الاسلام خيرا ٠

واذا كان بعض الكاتبين ذكر أن الحفاظ للقرآن من الصحابة أربعة هم على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، فذلك ليس من قبيل الاحصاء ولا من قبيل التعيين العددى فان العدد أكبر من ذلك ٠

والأمر الآخر الذى يجب التنبيه اليه هو أن القرآن كله كان مكتوبا عند الصحابة ، واذا كان لم يكن كله مكتوبا عند بعضهم ، أو عند واحد منهم بعينه ، فان ذلك لم يكن منفيا عن جميعهم ، فهو مكتوب كله عند جميعهم . وما ينقص من عند واحد يكمله ما عند الآخرين . وهكذا تضافروا جميعا على نقله مكتوبا ، وان تقاصر بعضهم عن كتابته كمل الآخر ، وكان الكمال النقلى جماعيا وليس آحاديا ٠

وقد يسأل سائل ، لماذا كان الجامعون له فى الصدور كثيرين . وقد حفظوه كاملا غير منقوص ، ولم يوجد من جمعه فى السطور جمعا كاملا . ونجيب عن ذلك بجوابين — أحدهما — من واقع حياة العرب . فقد كانوا أميين ، والمجيد منهم للكتابة قليل ، وأدوات الكتابة غير موفورة ، وما يكتب عليه غير معد لها . فكانوا يكتبون على الأديم ، وعلى لخاف الأحجار ، وعلى العسف ، وغير ذلك مما لا يعد للكتابة . فكان الغريب أن تكون

كتابة ، فضلا عن أن تكون كتابة كاملة للقرآن عند الواحد من الصحابة ، وكتابته كاملة عند الجميع كانت بتوفيق الله تعالى ومن عنايته بكتابه الكريم ٠

والجواب الثانى : أن ذلك من عمل الله تعالى ، لأن الله تعالى العليم الحكيم جعل حفظ القرآن الكريم فى الصدور ابتداء وانتهاء ، وفى السطور احتياطا ولتكون كتابته من بعد ذلك صحيحة من كل وجوهها ، لا يعتريها تصحيف ، ولا تحريف ، وان تواتر القرآن الكريم عن رسول الله يكون كما تلقاه عن ربه العليم الحكيم ، والتواتر يكون بالتلقى فى الصدور لا فى السطور ، ولا يكون تواتر فى مكتوب الا اذا قرىء المكتوب على من أخذ عنه وأجازه ، فالمكتوب يحتاج فى نقله الى الاجازة القولية ، والاجازة القولية لا تحتاج الى كتابة الا بمقدار تسجيل الاجازة ٠

★ ★ ★

ترك محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيا والأمة على بينة من أمر القرآن ، قد استحفظوه ، وحفظوه ، وكتبوه وحمله رسول الحقيقة أمانة الخليقة ، وهو القرآن الحكم فى هذا الوجود الانسانى ، فماذا كان من بعده ٠

جمع القرآن الكريم بعد الرسول

١٠ — انتقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وقد حفظ عدد كبير من الصحابة يبلغ حد التواتر القرآن كله كاملا غير منقوص لم يتركوا منه كلمة الا حفظوها ، وعلموا أين نزلت ، ومتى نزلت ، وعلموا معناها من صاحب الرسالة عليه السلام ، حتى انه ليروى عن عثمان بن عفان أنه كان يقول كنا اذا حفظنا عشر آيات من القرآن سألنا الرسول عليه السلام عن معناها فيبينها لنا ٠

ترك الرسول لصحابته القرآن ، وهو أعظم ثروة انسانية مثرية فى هذا الوجود ، وقد أدركوا حق الأمانة وأنهم حاملوها الى الأخلاف من بعدهم

كاملة ، كما تسلموها ، فكان حرصهم عليها أشد من حرصهم على أنفسهم ، لأنهم فانون ، وهى الباقية ، وهى تراث النبوة ، وسجل الرسالات الالهية ، لذلك كانوا يحافظون عليها ، وعلى الذين حملوها فى صدورهم ٠

ولقد هال عمر بن الخطاب أنه قد استحر القتال بين المؤمنين الأولين (وكثير منهم من حفظة القرآن الكريم) ، وبين أهل الردة فى موقعة اليمامة وقتل منهم فيما قيل سبعمائة كما جاء فى الجامع الكبير للقرطبى ، فأشار عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه على أبى بكر بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبى وابن مسعود وزيد ، فندبا زيد بن ثابت الى ذلك فجمعه بعد تعب شديد » ٠

روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل الى أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقال أبو بكر : ان عمر أتانى فقال ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها ، فيذهب كثير من القرآن الا أن تجمعوه ، وانى لأرى أن يجمع القرآن قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى ، حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيت الذى رأى عمر ٠ قال زيد ، وعنده عمر جالس لا يتكلم فقال لى أبو بكر انك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ٠ فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم !! ٠ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر » ٠

اختار أبو بكر كما ترى فى رواية البخارى ورواية غيره من أصحاب الصحاح زيدا ليقوم مع من يستعين به من حفظة القرآن ، وكان اختياره لزيد لأسباب جمة ــ أولها ــ ما اشتهر به بين الصحابة من العلم والفقه ، وثانيها ــ لأنه من كتبة الوحى الملازمين ، لا الذين كتبوا مرة أو مرتين ،

وأخذوا لقب كاتب الوحى شرفا ، وثالثها ــ أنه ممن حفظوا القرآن وجمعــوه فى صدورهم ، فكان حقيقا أن يجمعه مسطورا بعــد أن جمعــه محفوظا ، ورابعهــا ــ أنه عرض القرآن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى السنة التى انتقل فيها النبى عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى كما قدمنا ٠

١١ ــــ حمل زيد ما هو أشد حملا من الجبال ؛ لأنه يحمل أثقل موازين الهداية فى هذا الوجود الانسانى ، وهــو وديعــة الله تعــالى الى الوجــود الانسانى الى أن تزول السموات والأرض ٠

وما كان لمن يحمل مثل هذا الحمل أن ينفرد بالعبء فقد استعان بالحفظة الكرام من صحابة النبى الأعلام ، وسلك فى سبيل الجمع الخطة المثلى ، فما كان ليعتمد على حفظه ، وانه لحافظ ، ولا على حفظ من استعان بهم ، وانهم لحفاظ أمناء ولكنه كان لابد أن يعتمد على أمر مادى ، يرى بالحس لا يحفظ بالقلب وحده ، فكان لابد ان يرى ما حفظه مكتوبا فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يشهد شاهدان بأنهما هكذا رأوا ذلك المكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم،وباملائه عليه الصلاة والسلام،وقد تتبع القرآن بذلك آية آية ، لا يكتب الا ما رآه مكتوبا عن النبى عليه السلام فى عهده ، ويشهد شاهدان أنهما هكذا رأيا ذلك المكتوب فى عهد النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ونقلاه ، أويرى ذلك المكتوب عند اثنين ، فهو شهادة كاملة منهما ، وقد حصل على القرآن كله مكتوبا بنصاب الشهادة فى عصر النبى عليه السلام ، فما كان الا أن نقل المكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه وجد آيتين لم يشهد اثنان بأنهما كتبتا فىعصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بل شهد واحد فقط ، وهو خزيمه بن ثابت الأنصارى وهو قوله تعالى: «لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » لم يجدهما الا عند خزيمة ، وقد قال له النبى صلى الله تعالى عليه وســلم تكريما له شهادتك باثنين ٠

وروى أنه لم يجد آية أخرى الا عند خزيمة ، وهى قولى تعالى: « مــن

المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ؛ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » ٠

هذا هو المسلك الذى سلكه المؤمن الحافظ الذى اختاره ابو بكر لحمل التبعة مع من اختار ولنترك الكلمة له ، اى لزيد فهو يشير الى ما سلكه فهو يقول فيما رواه البخارى : « قمت فتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع والاكتاف والعسف وصدور الرجال ، حتى وجدت آيتين من سورة التوبة مع خزيمة الأنصارى ، لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »٠

والآية الأخرى التى لم يجدها الا عند خزيمة أيضا جاء فيها عنه فى رواية البخارى أيضا : وعن زيد بن ثابت لما نسختا فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل الله تعالى شهادته بشهادة رجلين «**من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه** (١)» وقد علق على ذلك القرطبى فكانت الأولى من سورة براءة فى الجمع الأول على ما قاله البخارى والترمذى وفى الجمع الثانى فقدت آية من سورة الأحزاب ٠

وهذا يدل على ان الجمع الثانى اتبع فيه ما اتبع فى الجمع الأول بالبحث عن الآيات مكتوبة فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يشهد اثنان بكتابتها فى عصره ، أو توجد عند اثنين ، فوجودها عندهما شهادتان ، والجمع الثانى كان فى عهد عثمان ٠

ولكن قد يسأل سائل ، لماذا كان نصاب الشهادة كاملا فى الجمع الذى حدث فى عهد أبى بكر ، ثم لم يوجد النصاب فى بعض الآى عند الجمع الثانى ؟ نقول ان فرض ذلك يتحقق بغياب أحد ركنى النصاب عن المدينة ، أو موته ولكن الله تعالى حافظ كتابه فى هذا الوجود كوعده بحفظه وانه منجز ما وعد : « **انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون** (٢) » ولذلك كان الشاهد فى الثانى هو الشاهد فى الأول ، وهو خزيمة الأنصارى الذى جعل النبى صلى الله عليه وسلم شهادته باثنين ، فالنصاب كان كاملا ٠

---

(١) الأحزاب : ٢٣ ٠ (٢) الحجر : ٩ ٠

١٢ ـــ ولا نترك الكلام فى هذا العمل الجليل الذى اشترك فيه أبو بكر وعمر ، وحمل عبئه زيد بن ثابت مع جمع من المهاجرين والأنصـــار · مـــن غير أن نقرر حقيقتين ثابتتين ، تدلان عـــلى اجماع الأمـــة كلهـــا على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل وأنه مصون بصيانة الله سبحانه وتعـــالى له ، ومحفوظ بحفظه ، والهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته ·

الأولى ـ أن عمل زيد رضى الله عنه لم يكن كتابة مبتـــدأة ، ولكنـــه اعادة لمكتـــوب ، فقد كتب كله فى عصر النبى صلى الله تعـــالى عليه وسلم ، وعمل زيد الابتدائى هو البحث عن الرقاع والعظام التى كان قد كتب عليهـــا والتأكد من سلامتها ، بأمرين بشهادة اثنين على الرقعـــة التى توجد فيها الآية أو الآيتـــان أو الآيات ، وبحفظ زيد نفسه وبالحافظين من الصحابة ، وقد كانوا الجم الغفير والعدد الكبير ، فمـــا كان لأحـــد أن يقـــول ان زيـــدا كتب من غير أصل مادى قائم ، بل انه أخذ من أصـــل قائم ثابت مادى ·

وبذلك نقرر أن ما كتبه زيد هو تماما ما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ليس كتابة زيد ، بل هو ما كتب فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وما أملاه ، وما حفظه الروح القدس ·

واذا كان ما كتبه عثمان من بعـــد ذلك قد قوبل بما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالمصحف العثمانى الذى بقى بخطه الى اليوم هو مطابق تمام المطابقة لما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه يجب الا يخرج عنه قارىء فى قراءة بزيادة حرف أو نقص ، قـــد تكون القراءات متغيرة فى أصوات المقروء وأشـــكال النطق ، ولكن لا يمـــكن أن تكون متغيرة بزيادة أو نقص ، فذلك هو الخروج عن الرسم الذى وضع فى عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم باقراره عليه الصلاة والسلام ·

الأمر الثانى ـ أن عمل زيد لم يكن عملا أحاديا ، بل كان عملا جماعيا من مشيخة صحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أن زيـــدا بطبيعة عمله أعلن بين الناس ما يريد ، ليأتيه كل من عنـــده من القرآن ما هو مكتوب بما عنده ، وقد علموا مقدار ما ينبغى لكتاب الله من عناية ، فذهبوا

اليه وذهب اليهم ، وتضافر معه من كانوا يعاونونه غير مدخرين جهدا الا يبذلوه فى عناية المؤمن بكتاب الله تعالى الذى يؤمن به ٠

ولما أتم زيد ما كتب ، تذاكره الناس ، وتعرفوه واقــروه ، فكان المكتوب متواترا بالكتابة ومتواترا بالحفظ فى الصدور ، وما تم هذا لكتاب فى الوجود غير القرآن ؛ ولا يهمنا ان يقر ذلك المعاندون أم لا يقروه فذلك ايماننا ، والحجة القاطعة لا يضيرها ارتياب فى غير موضعه ، بل الحقائق ناصعة ، والبينات قائمة ثابتة ، وهى فى حكم البدهيات القــاطعة ، ومن يرتاب فى أمــر عقلى لا ريب فيه ، فهو يضل نفسه ، ولا يضر غيره ، والحق ابلج ، والباطل لجلج ، اذن فلا عجب فى أمر المعاندين الضالين ٠

انما العجب كل العجب فى أمر الذين يضلون فى طلب الحق ، فيتيهون فى ظلمات الروايات المدسوسة المكذوبة ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

جمع القرآن فى عهد عثمان أو الأحرف السبع

١٣ ـــ جمع القرآن كله فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر ، وقد أودعه عمر حفصة أم المؤمنين ، ليكون مصونا يرجع اليه لا ليتــلى منه ، فالتــلاوة استمرت كما كانت فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تتلقى من أفواه الرجال مرتلة ، كما تلقوها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليبقى القرآن محفوظا فى صدور المؤمنين بنصه وتلاوته ٠

وان النص المكتوب واحد ، لا تغير فيه ، وهو يحتمل عدة قــراءات ، وقد ذكروا أن القــراءة المتواترة لا تكون مقبــولة الا اذا كانت موافقة للنص المكتوب غير زائدة ، ولا ناقصة ، فهى شاملة للقراءات كلها ٠

ولقد أجيز فى أول نزول القرآن أن يقرأ على لغــات سبع من لهجــات العرب كلها يمنيها ونزارها ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجهل شيئا منها ، ولذلك روى البخارى أن القرآن نزل على سبعة أحرف نسخت ست وبقيت واحدة ، ويروى مسلم عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله تعــالى

عليه وسلم كان عند أضاءة بنى غفار (وهو غدير صغير عندهم) فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : ان الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف ، فقال : اسأل معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيق ذلك ، ثم أتــاه الثانية فقال ان الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرفين ، فقال : اسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاء الثالثة فقال : ان الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . فقال اسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيـــق ذلك ، ثـــم جــــاء الرابعـــة ، فقـــال : ان الله تعـــالى يأمرك أن تقرىء أمتك على سبعة أحـــرف ، فأيما حـــرف قد قرءوا عليه فقـــد أصابوا ، وروى الترمذى عن أبى بن كعب ، قال : « لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل فقال : يا جبريل انى بعثت لأمة أميـــة منهـــا العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط ، فقال لى : يا محمد ان القرآن انزل على سبعة أحرف » وهذا حديث صحيح .

وقد قال القرطبى فى كتابه الجامع الكبير لأحكام القــرآن : « ثبت فى الأمهات البخارى ومسلم والموطأ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم » وهو الذى صرح فيـــه بأن عمـــر سمع هشاما يقرأ بحروف لم يسمعها ، فأخذه الى رسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم فاقر ما قرأ هشـــام ، واقر ما قرأ عمر ثم قـــال : « ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف » .

١٤ ـــ واننا اذا تأملنا ما جاء فى هذه الأخبـــار الصحاح ننتهى الى أن العرب ما كانت تطاوع ألسنتهم حرف القرآن ، ففيهم الرجل الشيخ والمرأة العجوز اللذان جمد لسانهما على لهجتهما فلا يطاوعهما على النطق الصحيح بلهجة لم يعرفوها ؛ ولم يلوكوها من قبل ، فكان لابـــد أن تمـــرن ألســـنتهم أمدا عـــلى لغـــة القرآن حتى تلين وتألف النطق بكلماته على اللغة التى بقيت .

وتفسير الأحرف باللهجـــات أو لغـــات العرب ما بين مضرية وربعيـــة ونزارية وقرشية وغيرها هو التفســـير الـــذى اختـــاره ابن جرير الطبرى ، وكثيرون من الرواة ، وهو الذى يتفق مع النســـق التاريخى فى الجمع الذى

اضطر ذو النورين عثمان رضى الله تعالى عنه لأن يقوم به ، وارتضاه الصحابة ، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لو كنت مكانه ما عملت الا ما عمل ٠

ولقد ذكر القرطبى أن هذه الأحرف باقية فى القرآن لم ينسخ منها حرف ، ولكنى أرى أن النسق التاريخى الذى أشرنا اليه من قبل يوجب أن يكون حرف واحد قد بقى ، وهو لغة قريش ، وهو الذى كتب عثمان مصحفه عليه ، وكان من قبل مكتوبا عليه كما سنبين انه لم يأت قط بما يخالف المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة عندما قابله به ٠

وقبل أن ننتقل الى ما فعل الامام عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه لابد أن نذكر حقيقتين دل عليهما المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والسياق التاريخى :

أولهما ـ أن الذى كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعتره تغيير ، ولم تجر عليه الحروف السبعة ، وأن الحروف السبعة كانت فى قراءة القرآن ، لا فى كتابته ٠ وأن استئذان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى القراءة لا فى الكتابة ٠

ثانيهما ـ أن استئذان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان ليسهل على أمته حتى تلين ألسنتهم ، وتستقيم على النطق باللغة التى اختارها الله تعالى لقرآنه المنزل من عنده وهو العليم ، وهى لغة قريش فى جل ما أنزل الله تعالت كلماته ، فكانت لغة قريش لغة الأدب فى الجاهلية والاسلام فكان من منطق الحوادث أن يكون أعلى الكلام ينزل فى ثوب أعلى اللغات العربية اذ كانت لغة الشعر والأدب ٠

١٥ ـــ ولننتقل بعد ذلك الى جمع ذى النورين عثمان رضى الله عنه ، ومكانه من جمع الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، وجزاهما عن الاسلام خيرا ٠

تفرق الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وقد كان عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه آخذا بحجزات الصحابة وخصوصا كبارهم يمنعهم من مغادرة

الحرمين ، فاختلف الناس فى القراءة ، ومنهم من كان يقـرأ بالقراءات أو اللغات المختلفة التى ما كانت القراءة بهـا الا ترخيصـا مؤقتـا حتى تلين الألسنة الى لغة القرآن ، وانها لواحدة ، وان اختلفت القراءات المتـواترة فى ظلها ما بين حذف للهمزة فى النطق ، وان كانت باقية فى مصحف عثمان تقرأ فيه مثبتة وغير مثبتة كالأرض ، والأرض ومن اختـلاف فى الشـكل يدل فى كل شكل على معنى صحيح يصـلح أن يكون مقصـودا فى القرآن ، ويكون الجمع صحيحا ، مثل أنفسكم « بضم الفاء » ، وأنفسكم « بفتحها » ، ومثل فتبينوا بالباء بعد التاء ، والثاء بعد التاء وبعدها باء ثم تاء ٠

وما كان اختلاف القراء فى الأمصار فى عهد عثمان فى هذه القراءات المشهورة بيننا الآن انما كان الاختلاف فى اللغات التى كان مرخصا بها ، فمنهم من لم يعلم نسخها ، عند قراءة جبريل للنبى صـلى الله تعالى عليه وسلم فى العرضات الأخيرة ٠

لقد اشتد الأمر فى ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبث كل فريق بما يقرأ ، زاعما أن غيره هو الباطل الذى لاريب فيه ، ووقـع الخلاف بين أهل العـراق وأهل الشام عندما اجتمعوا فى غزوة أرمينية ، فقـرأت كل طائفـة بما روى لهـا ، وتنازعوا أمرهم بينهم ، وأظهر بعضهم تكفير بعض ، وتبرأ بعضهم ، وكان معهم حذيفة بن اليمان كما ذكر البخارى والترمذى وقد ذكرا أن حذيفة عندما آب من هذه الغزوة دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى أهله فقـال : أدرك هذه الأمة قبـل أن تهلك ٠ قال عثمان : فيماذا ؟ قال فى كتـاب الله ، انى حضرت هذه الغزوة ، وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز ، ووصف له ما كان من الاختلاف والتكفير ، وقال انى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم ، كما اختلف اليهود ٠

أفزع هذا الأمر عثمان التقى ، كما أفزع المؤمنين الذى علموا ذلك النبأ الخطير ، ولكن الفزع لم يوهن العزيمة بل شحذها ، ولم يضـعف الارادة بل حفزها ، وكانت عزمة ذى النورين عثمان ٠

لقد أحضر النسخة المحفوظة عند أم المؤمنين حفصـة لتـكون الامـام

الذى يحتكم اليه فيما هو مقدم عليه ، وجمع من الصحابة الحافظين الكرام بضعة على رأسهم زيد بن ثابت الجامع الأول ، والثقة الثبت الذى كان له فضل التثبت فى كل كلمة وآية ·

وقد قال له عثمان رضى الله تعالى عنه عندما ندبه لذلك العمل الجليل انى مدخل معك رجلا فصيحا لبيبا فاكتباه ، وما اختلفتما فيه فارفعاه الى فجعل معه ابان وسعيد بن العاص ، فلما بلغا فى الكتابة قوله تعالى « ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم (١) » · قال زيد فقلت التابوه وقال سعيد بن العاص التابوت فرفعنا الأمر الى عثمان ، فكتب التابوت ·

وكان جملة من ضمهم الى زيد ثلاثة هم عبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص الذى ذكرناه وعبد الرحمن بن الحارث ، وقال لهذا الرهط من قريش ما اختلفتم فيه انتم وزيد ، فاكتبوه بلسان قريش ، فانه نزل بلسانهم ·

ويظهر ان سيدنا عثمان لم يكتف بهؤلاء الأربعة ، بل كان يضم الى معاونتهم من يكون عنده علم بالقرآن يعاونهم فى كتابته ، ولقد روى ابن عساكر أن عثمان دعا الى هذه المعاونة فقال ان عثمان خطب يومئذ فى الناس وعزم على كل رجل عنده شىء من كتاب الله لما جاء به ، ويقول ابن عساكر فكان الرجل يجىء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دعاهم رجلا رجلا ، فناشدهم : أسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أملاه عليك ، وهكذا كان يتثبت فى الرواية ، كما كان التثبت من زيد ومن معه ، والذى كتب المصحف الأول الذى أودع أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها وعن أبيها فاروق الاسلام ·

وقد أتم زيد ومن معه جمع القرآن ، ولكن عثمان لا يكتفى ، بل انه يسير فى الاستيثاق الى اقصى مداه ، فيحضر مصحف أم المؤمنين حفصه ، ويعرض المصحف الجديد ، فيجدهما يتوافقان تمام التوافق ، لا يزيد أحدهما عن الآخر حرفا ولا ينقص عنه ، حتى لقد فهم بعض العلماء أن جمع عثمان

---

(١) البقرة : ٢٤٨ ·

كان نسخا لما جاء فى الصحف المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها وعن أبيها الفاروق ، وجاء ذكر ذلك فى بعض الروايات تسامحا ، ولكن الحقيقة أنه ما كان نسخا ، بل قام بالتحريات كلها ، حتى جمع ما جمع ، وكان التوافق الكامل الذى بذل دلالة قاطعة على صدق الجمعين ، وعلى تواتر القرآن الكريم مكتوبا ، ومحفوظا وبذلك حفظه الله تعالى وصانه ٠

ولقد قال الطبرى ان الصحف التى كانت عند حفصة جعلت اماما فى هذا الجمع الأخير ، ويقول القرطبى « هذا صحيح » ومعنى صحته أنه بعد الجمع قام به زيد بأمر عثمان ، وعاونه المؤمنون الحافظون قد روجع على مصحف حفصة ، رضى الله عنها وكانت هى المقياس لصحته ، فبالمقابلة بينهما بعد الجمع تبينت صحتهما بصفة قاطعة ، لا ريب فيها ٠ فكانت هذه الامامة ، حتى ظن أنه نسخ منها ٠

١٦ ــ ويلاحظ أمران ــ أولهما : أن عثمان رضى الله عنه كان غرضه من اعادة جمع المصحف هو أن يكتبه على حرف واحد من الحروف السبعة أى اللهجات واللغات السبع فما كان جمعه الا لاثبات الحرف الباقى الذى روى مكتوبا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليجتمع عليه المسلمون ، ولا يكونوا متفرقين ، وأن يكون ذلك موافقا للمكتوب فى عهد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

جاء فى القرطبى « قال كثير من علمائنا كالداودى ، وابن أبى صفرة هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وانما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان ، ذكره ابن النحاس وغيره » ٠

الأمر الثانى : أن عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه حسم مادة الفتنة بذلك الجمع ، وعمل ما كان ينبغى أن يعمل ٠ ولذلك نسخ من هذا الذى جمعه نسخا على قدر الأقاليم العربية ، فأرسل الى كل اقليم نسخة كانت هى الأصل لهذا الاقليم . فأرسل الى مصر ، والى الشام ٠ والى مكة واليمن والبحرين

والبصرة ، والكوفة ، وحبس بالمدينة مصحفا كان هو الامام لكل هذه النسخ ، وهو المرجع الأول فى الدولة ، ترجع اليه كل المصاحف ، وهو الحاكم عليها ٠

واذا كان هو الأصل لكل هذه المصاحف فيجب القول بأنه لا اختلاف بينها لأنه الحكم ، وأنها صور لنسخة واحدة ، ويلاحظ أن الامام العظيم عثمان قد كتب المصحف خاليا من النقط والشكل ، كما كان المصحف الموجود عند حفصة خاليا من النقط والشكل ، ولم يكن نقط وشكل الا بعد ذلك ٠

ولكن لماذا خلا من ذلك ؟ والجواب عن ذلك أن القرآن له قراءات مختلفة هى سبع قراءات ، وليست هى الحروف كما ذكرنا من قبل ، ولكى يكون المكتوب محتملا لهذه القراءات المروية بطرق متواترة كلها كان لابد أن يكون غير منقوط ولا مشكول ، كما ذكرنا فى اختلاف القراءة فى « انفسكم » وكما ذكرنا فى اختلاف القراءة فى « فتبينوا » ٠ وما كان يمكن أن يحتمل النص القراءتين اذا كان منقوطا ومشكولا ٠

ومن جهة أخرى أن الأساس فى تواتر القرآن هو الحفظ فى الصدور لا فى السطور ، حتى لا يعتريه المحو والاثبات فلو كان القرآن منقوطا ومشكولا لاستغنى طالب القرآن عن أن يقرئه مقرىء ، فلا يكون التواتر الصحيح الذى يقتضى الاجازة ممن اقرأه ، ولقد جاء التحريف فى الكتب الأخرى لاعتمادها على المكتوب فى السطور ٠ لا المحفوظ فى الصدور ٠

ومن جهة ثالثة ان ترتيل القرآن ، كما اثر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لابد منه كما قال تعالى : « **ورتلناه ترتيلا** » (١) ٠ وان ذلك لا يتم الا اذا كان القرآن يقرأ على مقرىء يجيزه حفظا وقراءة وترتيلا ٠

١٧ ــ وان الرواية الصحيحة بينة مستقيمة لا مجال للشك فيها ، وهى تدل على أمور ثلاثة قطعية فى ثبوتها وهى :

أولا ــ على أن النص الذى كان عند حفصة ، هو النص المكتوب فى

---

(١) الفرقان : ٣٢ ٠

عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو ذاته النص المكتوب فى مصحف عثمان رضى الله عنه ، فلا يصح الزيادة عليه ولا يصح النقص ٠

ثانيا ـ على أن القرآن كتب بلغة قريش ، وهى الحرف الذى استقرت القراءة عليه ، وما كان الترخيص بالقراءة بالحروف الأخرى الا مؤقتا حتى تطوع الألسنة لحرف قريش ، ولقد جاء فى القرطبى : « ان القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله اعلم ؛ لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزة ونحوها ، وقريش لا تهمز » ٠

ومؤدى هذا الكلام ان الألفاظ والأساليب والمنهج القرآنى انزل على لغة قريش ، ولكن الحركات التى تعترى بنية الكلمة من همز أو امالة أو نحو ذلك جاء على لهجات من غير قريش ورويت كلها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ثالثها ـ أن مصحف عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه يجب أن تكون كل قراءة قرآنية متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه لاتجوز ، وانه القرآن المتواتر الخالد الى يوم القيامة ٠

١٨ ـ اذا كانت هذه حقائق ثابتة تواترت فى الأجيال ، فلماذا كانت الروايات الغريبة البعيدة عن معنى تواتر القرآن الكريم التى احتوتها بطون بعض الكتب كالبرهان للزركشى ، والاتقان للسيوطى التى تجمع كما تجمع حاطب ليل يجمع الحطب والأفاعى مع أن القرآن كالبناء الشامخ الأملس الذى لا يعلق به غبار ؟

قد أجاب عن ذلك الكاتب الكبير المسلم المرحوم مصطفى صادق الرافعى (١) ، فقال فى كتابه اعجاز القرآن « ونحن ما رأينا الروايات تختلف فى شىء من الأشياء فضل اختلاف ، وتتسم فى الرد والتاويل كل طريق وعر ، كما رأينا من امرها فيما عدا نصوص الفاظ القرآن ، فان هذه الألفاظ متواترة اجماعا ، لا يتدارأ فيها الرواة من علا منهم ، ومن نزل ،

---

(١) توفى سنة ١٩٣٧ م ٠

وانمـا كان ذلك لأن القرآن اصـل الدين ، وما اختلفوا فيه الا مـن بعـد اتساع الفتن ، وحين تالب الأحداث ، وحين رجع بعض النـاس من النفـاق الى أشـد من الأعـرابية الأولى ، وزاغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسـه فاجترءوا على حدود الله تعالى ، وضربتهم الفتن ، والمشبهات ، مقبلا بمدبر ، ومدبرا بمقبل ، فصار كل من نزع الى الخلاف يريد أن يجـد من القرآن ، ما يختلف معه ، أو يختـلف بـه ، وهيهـات ذلك ، الا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التاويل والأباطيل ، والا أن يفتـح الكلمة السيئة ، ويبالغ فى الحمـل على ذمتـه ، والعنف بهـا فى أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ، ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق ، بل لا يعرفون لها فى الحق وجها ٠٠ ونحسب أن أكثر هـذا ممـا افترته الملحـدة ، وتزيدت به الفئـة الغالبة ، وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغيا بينهم ، وكلهم يرجـع الى القرآن بزعمه ، ويرى فيه حجتـه على مذهبه ، وبينتـه على دعواه ، ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم بالحق والباطل ، ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون ، أو ممن تعارضهم الغفـلة فى التمييز ٠٠ وذلك سواد كله ظلمـات بعضها فوق بعض ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (١) ٠

وان ذلك الذى ذكره الكاتب الاسـلامى الكبير حق لاريب فيـه ، فـان هذه الروايات التى جمعها من لا يفـرق بين الحابل والنابل ، وبين الحطب والأفعى ، انما كانت بعد الفتن ، ولعل للاسرائيليات دورهـا الخفى المسـموم وأن الذين تولوها غلاة الفرق ، والرواة الذين لا يميزون أو يغفلون مـا لا يدركـون ٠

الم تر الى أولئك الغـلاة يطعنون فى عثمان رضى الله عنه ، ويجعلون من أسباب الطعن ، أنه جمع المصحف وجعل له اماما ، عندما رأى الاختـلاف قد تفاقم ، وأنه جمعهم على ما كتب فى عهـد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم ٠

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٤٢ ٠

ورأى على رضى الله عنه مثيرى الفتنــة بعد مقتل الشهيد عثمان ، فقال رضى الله عنــه وكرم الله وجهه : « يا معشر النــاس اتقوا الله ، واياكم والغلو فى عثمان وقولكم حرق المصاحف ، فوالله ما حرقهــا الا على ملأ منا أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم — وروى عن عمر بن سعيد أنه قال : « قال على بن أبى طالب : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت مثــل الذى فعل عثمان ٠

تحريق غير المصحف الامام وغير ما نسخ منــه

١٩ — كانت الفتنــة قد بلغت ذروتها وخب فيها الذين يريدونهــا ، ووضعوا ، وكان قد دخل فى الاسلام الذين يريدون أن ينتقمــوا منه لدولهم التى غزاها نــور الاســلام ، وانفتــح فى قــلوب الأكثرين بــاب الهــداية ، ووجدوا فى القرآن السبيل الى ما أرادوا أن يهدموه وهو الاسلام ، ليقتلعوه من جذوره ، ويأتوه من قواعده ، فجاءوا من القــرآن عمــاده ، ونــور الله المبين ، وحبله المتين ٠

وكان السبيل احياء الأحرف التى نسخت ، فاندسوا بين المسلمين يحيون المقبور ، ويروجون المهجــور ، ويبثــون روح الشك والريب فيمــا هو متواتر ثابت ٠

وقــد انبرى لهم ذو النورين ، واجتث شرهم ، فجمــع المصحف الامــام على الطريق المأمون الذى كان مستوثقا غير متظنن ، ومتأكدا غير متشــكك فكان ما كتب فى عهده هو عين ما كتب فى عهد الشيخين أبى بكر وعمــر ، وما كتب فى عهد الشيخين هو عين ما أملى فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما حفظه أصحابه فى صدورهم ٠

حتى اذا تم له ما احتسبه عند الله على ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم الذين شاهدوا وعاينوا واتبعوا عن بينة ، وفيهم الكثيرون ممن حفظوا القرآن كله كعلى كرم الله وجهه ، ومعاذ بن جبل ، فكان التواتر الكامل والصيانة الكاملة والاستحفاظ على كتاب الله تعالى ٠

فلم يبق الا أن يزيلوا غيره من المصاحف ، لأنهـــا كتبت بغير حــرف قريش أو به وبحروف أخرى ، فأحرقها جميعــا ، ولم يبق الا المصحف الامام وما نسخ منه ، فلا يرجع الى سواه ، ولا يعتمد عــلى غيره . ولو بقيت مصاحف غيره ، لكان الاحتجاج بهــا ، ولعادت الفتنــه جذعا ، وكان التشكيك والريب ، وقد حفظ الله تعألى كتابه ٠

حرق عثمــان المكتــوب كله ، ولم يبــق منه شــيئا ، ورد الى الســيدة أم المؤمنين حفصة المصحف الذى كان مودعــا عندها ، والذى كان امــاما لمصحف عثمان ، كما قرر بحق ابن جرير الطبرى ، وقد رده اليهــا لموعدة وعدها اياها فوفى بوعده ، ولكنها لما توفيت أمر عبد الله بن عمر أن يحرق المصحف الذى كان عندها ، وروى أنها توفيت رضى الله عنهــا فى عهد معاوية ابن أبى سفيان ، وأن الذى حرق المصحف الــذى عنــدها والى المدينــة مروان ابن الحكم ، ومهما يكن اختلاف الروايــة فى تاريخ وفاتها ، فــان عثمان رضى الله عنه قد قرر أن يحرق بعد وفاتها ٠

وهنا يسأل المؤرخ اذا حرق عثمان المصاحف الأخرى لما أشارته مــن فتنــة ، ولأنه كان فيها حروف أخــرى غير حرف قريش فلمــاذا قرر حــرق المصحف الذى عند حفصة ، وقد كان امام مصحفه ، والمرجع الذى وزن بــه صحة ما كتب فى عهــده ، حتى انه قيــل ان المصحف الذى كتب فى عهده قد نسخ منه نسخا ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك ان المصحف أودع حفصــة رضى الله عنهــا وعن أبيها لأنها كانت حريصة على أن يبقى عنــدها وما أراد الرجل الطيب عثمان أن يحرمها مما أرادت ، فأعــاده اليها ، ولكنه الحريص على القرآن خشى أن يقــع فى يد أحد ، فيمحــو فيه ويثبت ، ويقــول قد غير مــا عندكم ، وها هــو ذا الأصــل ، فاحتــكموا اليه ، ويكون صــالحا للاحتكام ، فأمر أن يحرق بعد وفاتها ، وما أبقاه عندها فى حيــاتها الا مرضــاة لها . فاحتــاط للقرآن ، وما أعنتها ، رضى الله تعالى عن ذى النورين بما صــنع ، وأكرمه فى مثواه ، ورضى عنــه وأرضاه ٠

ترتيب الآيات والســور

٢٠ ـــ أجمــع العلماء على أن الآيات رتبت بتنزيل من الله تعــالى ، فكانت الآية اذا نزلت يقــول عليه الســلام لكاتبه ولصــحابته ضــعوها فى موضع كذا من سورة كذا ، وتكون لقفــا مع التى وضعت بجوارها ، وتكونان نسقا بيانيا ، هو الاعجــاز ، وانــه يدل على وحــدة المنزل وهو الله ســبحانه وتعالى ، وان الآيات المكية كانت توضع فى الســور المكيــة ، والمدنية كانت كذلك توضع فى المدنية ، الا بعض آيات مدنية وضــعت فى سور مكية ونبــه اليهــا ٠

على ذلك انعقد الاجماع ، وكانت العرضة الأخيرة التى قرأ فيها النبى على جبريل بترتيب الآيات ذلك الترتيب ، ومن أنــكر ذلك أو حاول تغييره فقــد أنكر ما عرف من الدين بالضرورة ، وخرج عن اطار الاسلام ، وحــاول التغيير والتبديل ، فتلك الدعوات المنحرفة التى تدعو الى ترتيب القرآن عــلى حسب النزول ، أو على حسب الموضوعات هى خروج على الاسلام ، يبثه بعض الذين لا يرجون للاسلام وقارا ، اذ يجعلون القرآن عضين ، ويخالفون التنزيل ، ويعارضون الوحى ، وذلك خروج عن الاسلام ٠

هذا ترتيب الآيات ، أما ترتيب السور فانه من الثابت أن المصحف الامام كان على هذا الترتيب ، وقالوا انه ما ارتضــاه زيد بن ثابت ، ووافقه عليــه الشيخان أبو بكر وعمر وصحابة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وذو النورين عثمــان وهو المتبــع ، فــلا يغير ولا يبــدل ، وقــد قيــل ان بعض الصــحابة كان له مصحف بغير هذا الترتيب ، فكان لأبى مصحف ، وكان لعلى كرم الله وجهه مصحف ، وقد نقل ابن النديم فى الفهرس أنه كان على حسب ترتيب النزول ، وأنه ابتدأ بقوله تعالى « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ٠ خلق الانسان من علق** » وهى أول آية نزلت ٠

ولكن العرضة الأخيرة من جبريل كان على هذا الترتيب ، البقرة ثم آل عمران على ما والاها ٠

ولقـد جـاء فى الجامع الكبير للقـرطبى ما نصـه : « ذكر ابن وهب فى جامعه ؛ قال سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل ، لم قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وانما نزلتـا بالمدينة . فقال ربيعـة ، قد قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفـه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ينتهى اليه » .

قال ابن مسعود : « من منكم كان متأسيا ، فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسـنها حالا ، اختـارهم الله لصحبة نبيـه صلى الله تعالى عليه وسلم ، واقامة دينه ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم » .

ولقد قال الامام مالك رضى الله تعالى عنه : انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكر أبو بكر الأنبارى كما نقل عنه القرطبى : « أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ، ثم فرق عـلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل ، والآية جوابا لمستجيب يسأل ، ويقف جبريل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام من رب العالمين ، فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى ، فهـو كمن أفسـد نظم الآيـات ، وغير الحـروف والكلمات ، ولا اعتراض على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن . وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات » .

ومن هذه الروايات المختلفة المؤتلفة المجمعة على ان ترتيب السـور بتوقيف يتبين أن المصحف الامام هو الذى يصور العرضة الأخيرة للقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولكن ماذا يقال عن الروايات التى جاءت بأنه كان لأبى مصحف بغير

هذا الترتيب ، ولعلى رضى الله عنه وكرم الله وجهه مصحف كان بترتيب النزول ؟ لنا فى الاجابة عن ذلك السؤال طريقان :

أولهما ــ أن نعتبر ما عليه الكثرة التى تكاد تكون اجماعا يؤخذ به ، ويكون ذلك الاجماع دليلا على ضعف ما عداه وأنه لا يؤخذ به لعدم صحة السند ٠

ثانيهما ــ أننا نقول ان ذلك كان قبل العرضة الأخيرة ، وفى العرضة الأخيرة وضعت السور فى مواضعها ، وهذا ما اختاره القرطبى وغيره ، فقد قال : « أما ما روى من اختلاف مصحف أبى وعلى وعبد الله بن مسعود فانما كان قبل العرض الأخير ، وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رتب لهم ترتيب السور بعد ، ان لم يكن فعل ذلك من قبل ٠

وننتهى من هذا الى أن ترتيب السور كترتيب الآيات كان بوحى من الله العلى الحكيم ٠

قراءات القرآن

٢١ ــ يقرأ القرآن الكريم بقراءات مختلفة ؛ مختلفة فى حركات أواخر الكلمات أو فى بناء الكلمة ، أو فى الوقوف فى أواخر الكلمات ، أو فى الهمزات قطعا ووصلا ، كهمزة الأرض ، فهى تقرأ موصولة ومقطوعة ، وهكذا ، وانه يجب التنبيه فى هذا الى أمرين :

أولهما ــ أن قراءات القرآن المتواترة ليست هى الأحرف السبعة كما ذكرنا ، بل ان الرأى القويم الذى انتهى اليه الباحثون كابن جرير (١) الطبرى وغيره الى أن القراءات كلها تنتهى الى حرف واحد ، وهو الذى كتب به المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة وهو الذى جمعه عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠ وألزم به الأقاليم الاسلامية ، وهو مطابق تمام المطابقة

---

(١) توفى سنة ٣١٠ هـ ٠

للمصحف الذى كتب فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، وهو الذى حفظ فى بيت أم المؤمنين حفصة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها الفاروق ٠

الأمر الثانى ــ أن هذه القراءات تنتهى فى نهايتها الى انهـا من ترتيل القرآن الذى رتله الله سبحانه وتعالى ، وتفضل بنسبته الى ذاته الكريمة العلية فقال تبارك وتعالى : « **ورتلناه ترتيلا** » (١) فهى الأصـوات التى اثـرت عـن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا كان فيها موسيقى ، ان صح لنا أن نقول عنها هذا التعبير ، فهى الأصوات القرآنية التى اتبعناها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهى فى مدهـا وغنها ، واهمـازها ، واهمال همزاتها ، وامالتها واقامتها ، أصوات القرآن المأثورة ، اذ أن القراءة سنة متبعة وان اختلاف القراءات الصحيحة وكلها متواترة عن الصحابة الذين اقرأهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعلمهم طرق الأداء التى تعلمها عـن ربـه ، كما يشير الى ذلك ما تلونا من قبل ، وهو قوله تعالى : « **لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيـانه** » (٢) ٠

فكانت القراءة التى وعد الله تعالى ، نبيه عليه السلام ، هى الترتيل ، وهى تلك القراءات المأثورة عن صحابة النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم الذين تلقوها عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت أنه تلقـاها عن ربه ٠

وهذه القراءات نجد الاختلاف فيها ، مع أنها تنتهى جميعهـا الى المورد العذب ، والمنهل السائغ وهو تلاوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى تلقاها عن ربه ــ ليس اختلاف تضاد فى المعانى ، أو اختلاف تباين فى الألفاظ بل يكون الاختلاف :

أولا ــ فى شكل آخر الكلمات أو بنيتها ، مما يجعلها جميعـا فى دائرة العربية الفصحى ، بل أفصح هذه اللغة المتسقة فى ألفاظها ، وتآخى عباراتها ورنة موسيقاها ، والتوائم بين ألفاظها ومعانيها ٠

---

(١) الفرقان : ٣٢ ٠ (٢) القيامة : ١٦ ــ ١٩ ٠

وثانيها ـ فى المد فى الحروف ، من حيث الطول والقصر ، وكون المـد لازما أو غير لازم ، وكل ذلك مع التآخى فى النطق فى القراءة الواحدة فـكل قراءة متناسقة فى ألفاظها من حيث البنيـة للكلمة ، ومن حيث طـول المـد أو قصره ٠

وثالثها ـ من حيث الامالة ، والاقامة فى الحروف ، كالوقوف بالامـالة فى التاء المربوطة وعدم الامالة فيها ٠

ورابعها ـ من حيث النقط ومن حيث شكل البنية فى مثـل قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا ان جـاءكم فاسـق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهـالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** » (١) فقـد وردت فيهـا قراءتـان متواترتان ، فتبينوا وقراءة أخرى « فتثبتـوا » وهمـا متلاقيتـان ، فالأولى طالبت بالتبين المطلق ، والأخرى بينت طريق التبين ، وهو التثبت بتحرى الاثبات ، فان لم تكن طرق الاثبات ، ولا دليل على القول ، فانه يرد الكلام ، ولا يتمسك بمـا قيـل متظننا فيها من غير دليل ، وكلتا القراءتين مروية بسـند متواتر ٠ لا مجـال للريب فيه ، فكانت احدى القراءتين مفسرة للأخرى ٠

وخامسها ـ زيادة بعض الحروف ، فى قراءة ، ونقصها فى أخرى ، مثل زيادة الواو فى قراءة ٠ وزيادة من فى أخرى ، وهذه نادرة لم أرها الا فى حالتين اثنتين ، فقط ، فقد ذكر ابن الجزرى امام القراء المتأخرين المتوفى فى سنة ٨٢٣ هـ ٠ ان ابن عامر ، وهو من القراء السبعة يقرأ « **قالوا اتخـذ الله ولـدا** » (٢) وقـرأ غيره : « **وقالوا اتخـذ الله ولدا** » وان حـذف الواو ثابت فى المصحف الشامى ، وكان ابن كثير يقرأ « **تجرى من تحتها الأنهار** » وقراءة غيرها **تجرى تحتها الانهار** ، ومفهوم كلام ابن الحزرى أن القراءتين متواترتان وان هذا يؤدى الى أمر جوهرى ، وهو أن المصاحف فى هذا الموضـع ليست نسخا متحدة اتحادا كاملا منسوخة كلها من المصحف الامام وهو المصحف الذى احتفظ به الامام عثمان فى دار الخلافة ، وقد اتفقت الروايات على أنه

---

(١) الحجرات : ٦ (٢) يونس : ٦٨

لم يكن كالمصحف الشامى الذى كان على قراءة ابن عامر ، لأن مصحف الشام خالف كل المصاحف فى نقص الواو ـ ومنها المصحف الامام مصحف عثمان وبذلك يكون الرجوع لمصحف عثمان وما نقل عنه من المصاحف ، وهو المصحف المجموع فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر وحفظ عند حفصه وهو أيضا المتطابق مع المكتوب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكذلك الأمر فى زيادة (من) فى قراءة ابن كثير المتفق مع المصحف المكى وغيره من المصاحف ، ومنه المصحف الامام على عدم زيادة من فى الآية التى زيدت فيها فى المصحف المكى ٠

وان النتيجة لهذا أن نقول ان الأصل هو المصحف الامام مصحف المدينة يقبل ما يتفق معه ، وينعقد الاجماع عليه وما لا يتفق معه ينظر فيه ، وربما كان رده أظهر ، لولا ما يقال من أن القراءة بالزيادة ليست آحادا ولا شاذة ، بل متواترة ٠

ومن أجل ذلك حاول القرطبى التوفيق بين الزيادة ، وحذفها ، فقال : « وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم ، فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، اذ كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ، ولم يكتبها فى بعض اشعارا بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة ٠

رواة القراءات :

٢٢ ـــ كانت القراءات معروفة فى عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وقد تلقوها جميعا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ذكرنا أن مصحف الامام عثمان والامامين من قبله ، وما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان غير منقوط ولا مشكول لكى يحتمل القراءات كلها ، ولكيلا يعتمد القارىء على المكتوب ، بل يتلقى المقروء بالتلقى ليصل السند الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قال بعضهم ان الخط فى عصر النبى عليه السلام كان غير منقوط ولا مشكول ، لأن العربية

لغة بيان وافصاح وتعبير ، وانسجام بين الفاظها ، وتآخ بين أساليبها ، فلا تعتمد على المكتوب بل على المقروء ونغماته ، وتآخى عباراته من غير تجافى اللفظ عن المعنى ، ولا المعنى عن اللفظ ٠

ولما أخذت العجمة تغزو اللسان العربى ابتدءوا بنقط القرآن وشكله فى عهد عبد الملك بن مروان من غير بعد عن القراءات ، ومن غير اعتماد على المكتوب ، بل يكون مع المكتوب ضرورة الاقراء من حافظ ، وبذلك أمكن اجتماع الشكل والنقط مع الرواية وتواتر القراءة ، وتعرف أوجه القراءات المنقولة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان فى الصحابة من يقرىء الناس ، ويعلمهم وجوه القراءات ٠

وقد اشتهر باقراء الناس للقرآن ، وتعريفهم أوجه قراءاته طائفة من الصحابة قد احتجزوا عن الخروج الى ميادين الفتح ، ليعلموا الناس ويفقهوهم فى دينهم ، ويقرئوهم القرآن الكريم ٠

ومن هؤلاء عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب فارس الاسلام احتجز عن الجهاد بالسيف ، ليكون له جهاد العلم والقرآن ٠ وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ٠

وعن هؤلاء اخذ كثيرون من الصحابة والتابعون وأقرءوهم القرآن بوجوه القراءات ، وكلها يتفق مع المكتوب عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولما أخذ المقرئون للقرآن من الصحابة ينقرضون حمل التابعون ذلك العبء الكريم ، فقاموا بحقه ، ويظهر أن المقرىء كان يقرىء طالب القرآن القراءات كلها ، ويختار منها ما يطوع له لسانه ، من غير اعوجاج ، فكان الصحابة وكبار التابعين يقرئون بالأوجه كلها ولكن يختار المستحفظ ما يقوى عليه لسانه ٠

وفى آخر عصر التابعين خلف من بعد قراء الصحابة والتابعين خلف طيب ، وجد التخصص فى قراءة من القراءات أولى من حفظ جميعها ، فانه

اذا كان ذلك فى طاقة الصحابة ومن داناهم من كبار التابعين ، فمن وراءهم دون ذلك ، اذ اخذت الطبيعة العربية تضعف عن حمل العبء كاملا ، فعنى من افاضل القراء من صغار التابعين ، وتابعى التابعين برواية كل واحد منهم قراءة واحدة ليسهل عليه نطقها ورووها متواترة فكانت الرحال تشد اليهم يتلقون عنهم ، ويأخذون بما يقرئه كل واحد ٠

واشتهر من هؤلاء الذين خلفوا عهد الحفاظ من الصحابة الذين كانوا يقرئون الناس من صحابة وتابعين ـ اشتهر سبعة كانوا من بعد أئمة القراء ٠

وهم عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ هـ ، وعبد الله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ ـ وعاصم بن مهدله الأسدى المتوفى سنة ١٢٨ هـ ، وأبو عمرو ابن العلاء شيخ الرواة المتوفى سنة ١٥٤ هـ ، وحمزة بن حبيب الزيات العجلى المتوفى سنة ١٥٦ هـ ، ونافع بن نعيم المتوفى سنة ١٦٩ هـ ، وعلى بن حمزة الكسائى امام الكوفيين المتوفى سنة ١٥٩ هـ وقراءات هؤلاء السبعة هى المتفق عليها التى نالت الاجماع ، ولكل واحدة منها سندها المتصل المتواتر ، وطريقه وهو محفوظ فى علم القراءات ، وأجمع المسلمون على التواتر فيها ٠

وقد الحق علماء القراءات وأهل الخبرة فيها ثلاثة غيرهم صحت قراءاتهم ، وثبت تواترها وهم أبو جعفر يزيد بن القعاع المتوفى سنة ١٣٢ هـ ، ويعقوب بن اسحق الحضرى المتوفى سنة ١٨٥ هـ وخلف بن هشام ٠

وقراءات هؤلاء باضافتها الى القراءات السبع تكون عشرة كاملة ٠

اقسام القراءات :

٢٢ ــ لا عبرة الا بالقراءات المتواترة لانها هى التى تتناسب مع تواتر القرآن ، وحفظه فى الأجيال الى يوم القيامة ، وسد السبيل للريب ، فلا يأتيه فى أى ناحية من نواحيه ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولأن الله تعالى قد وعد بحفظه فقال :« **انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون** (١) » والله تعالى لا يخلف الميعاد ٠

---

(١) الحجر : ٩ ٠

ولكن مع ذلك قرر علماء القراءات أن هناك ماروى بطريق الآحاد ، وهناك الشاذ ، وان كان الاثنان لم يبلغا درجة أن تكون معتبرة أو لائقة بالقرآن ٠

ولذلك قسموا القراءات الى أقسام ثلاثة :

أولها ـ القراءات المتواترة ، وهى حجة فى التلاوة ، وليس لمؤمن بالقرآن أن ينكرها ، واذا كان قد روى عن الزمخشرى (١) انكار بعض القراءات أوردها مستنكرا لها ، فان ذلك النوع ليس من القراءات المتواترة ، وما كان لمثل الزمخشرى فى علمه ومكانته وايمانه أن ينكر متواترا ، والذين يستمسكون بمثل قوله ، لا يأخذون الا بحبل واه ، يهوى بهم الى نار جهنم ، لأنه رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ما أنكر متواترا ، ولكنهم يطيرون وراء كل ريح يحسبونها هادمة ، ولكن ما هم ببالغيه ، ودون ذلك دق أعناقهم ٠

وشروط القراءة المتواترة ثلاثة :

أولها ـ أن تكون موافقة للمصحف الامام ، لأنه الأصل المعتمد عليه ، وهو المرجع ، وهو صورة صادقة للمكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون بالتزامه القرآن متواترا قراءة ، وكتابة ، والله سبحانه وتعالى هو الحافظ له الى يوم الدين ٠

الشرط الثانى : التواتر فى السند بأن يرويه جمع عن جمع حتى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

الشرط الثالث : أن يكون موافقا للمنهاج العربى الثابت فى اللغة ، وليس معنى ذلك أن تكون أقوال النحويين حاكمة على القرآن بالصحة ، فانه هو الحاكم عليه ، وهو أقوى حجج النحويين فى اثبات ما يثبتون ، ونفى ما ينفون ، ولكن معنى ذلك الا يكون فيه ما يخالف الأسلوب العربى فى مفرداته وفى جمله وعباراته ٠

---

(١) توفى سنة ٣٨٥ هـ ٠

القسم الثانى : القراءة غير المتواترة ، وقد رويت بطريق الآحاد ، ولم تبلغ فى رواياتها حد التواتر ، وهذه يكون رواتهـا عدولا ، لم يثبت عليهم ريبة اتهـام فى قـول أو عمل ، وهذه يقرأ القرآن بها ، وخصوصا اذا وافقت التواتر بشرط موافقتهـا للمصحف الامـام وهـو متواتر فتـكون فى معنى المتواترة ، وموافقتها للمنهاج العـربى ، فلا يكون فيهـا ما يخالف المنهـاج العـربى ٠

والقسم الثالث : الشاذة وهى المخالفة للمصحف الامام ، ولم تثبت بسند صحيح ، ولو بطريق الآحاد ٠

وانى أرى الا يقبل الا المتواتر ٠

ويجب التنبيه الى امر وهو أن القراءات السبع المنسـوبة للقراء السبعة قيـل انها لا تخلو من شاذ مرفوض ، وان كانت فى جملتهـا مشهورة ، جاء فى كتاب اعجاز القرآن للمرحوم الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعى رضى الله عنه نقلا ما نصه :

« لا تخلو احدى القراءات من شواذ فيها حتى السبع المشهورة ، فان فيها من ذلك اشياء » ٠

وازن بين هذا ، وبين القراءتين اللتين زيدت فى احداهما (واو) ، وقيل انها موافقة للمصحف الشامى ٠

وفى الأخرى (من) وقيل انها موافقة للمصحف المكى ٠

فائدة وجـوه القراءات :

٢٣ — ان القراءات كما ذكرنا هى ترتيل القرآن الذى علمنا الله اياه على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم اذ علمه ربه ونسب الترتيل الى ذاته العلية ، فقال تعالى : « **ورتلناه ترتيلا** » (١) وأمر نبيه بهذا الترتيل هـو

---

(١) الفرقان : ٣٢ ٠

ومن اتبعه فقال تعالت كلماته : « **ورتل القرآن ترتيلا** » (١) فكانت القراءات التى نزل بها القرآن هى تصريف ذلك الترتيل وتنويعه وكما أن المعانى القرآنية صرفها الله تعالى من الاستفهام الى التقرير ، ومن الاستنكار والتوبيخ الى التهذيب والتأديب ، وكما صرف الله آياته كما قال تعالى : « **وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون** (٢) » فقد صرف تلاوته وترتيله ، فكان الترتيل فى التأليف الصوتى ، والتناسق فى النطق ، وتنوع ذلك التناسق من ارتفاع ومد طويل ، الى خفض ومد قصير ، مما يشبه التأليف الموسيقى ، وان كان أعلى لأنه ليس من صنع البشر ، ويجد القارىء فى ذلك التنويع ما يجعله يترنم بالقرآن فى اجلاله ، وروعة بيانه ودقة معانيه ٠

وأمر ثان يبدو فى تنويع القراءات مع ثبوت تواترها وأنها عن الله العلى القدير ، نجد أن اختيار قراءة من القراءات فى المقام الذى تناسبه يكون توضيحا للمعنى ، ومناسبا للمؤدى ، فمثلا قراءة الامالة تكون فى الموضع اللين والخطاب الرفيق ، ويتركها القارىء الفاهم فى موضع التهديد والانذار الى قراءة أخرى تناسب التهديد والانذار الشديد ، فمثلا فى سورة الحاقة لا يعمد المرتل المدرك الى اللين فى الوقوف على التاء ، لأنه لا يتناسب مع موضوع التهديد الذى اشتملت عليه السورة كلها ، وقد نبهنا بعض القراء الذى كان يختار اللين ، فتنبه ، وما عاود أمامنا ما كان يفعل ٠

وأمر ثالث فى تعدد القراءات فوق ما فيها من مراعاة مقتضى المعانى ٠ وفوق ما فيها من ترتيل هو موسيقى القرآن ، ان صح لنا هذا التعبير مع أن القرآن فى مقام أعلى وأسمى ، ذلك الأمر أن تنوع القراءات فيه تسهيل على القارىء العربى ، فقد تصعب عليه قراءة ، اذ لا تطاوعها طبيعته أو سليقته اللغوية ٠

وهناك أمر رابع فى تنوع القراءات ، وهو أن يكون مجموع القراءتين ـ وكلتاهما قرآن ـ دالا على معنيين فى لفظ واحد متلاقيين غير

---

(١) المزمل : ٤ ٠
(٢) الأنعام : ١٠٥ ٠

متضادين ، فمثلا قراءة « **لقد جاءكم رسول من انفسكم** (١) » بضم الفاء يدل على انه من العرب ، والعرب قومه ، وذوو رحمه القريبة ، أو البعيدة ، واذا اجتمعت معها القراءة بفتح الفاء كانت الآية دالة بهذه القراءة على انه من أوسط القوم وأعلاهم ، فالقراءتان والكلمة واحدة تدلان بالنص على معنيين غير متضادين ، وكلاهما صحيح صادق ، فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان من العرب ، وكان من أنفسهم ترتبط مشاعره بمشاعرهم يحس بما يحسون ، وهو مندمج فيهم ، وقريب منهم ، ثم كان مع هذا القرب النفسى من أعلى العرب منزلة ، واكرمهم ، وكذلك يكون الأنبياء من اوساط الأقوام الذى يتسامون عن سفساف الأمور ، ويتجهون الى معاليها ٠

وقد يقول قائل ان قراءة انفسكم بفتح الفاء تدل على الأمرين ، فهى تدل على أنه من أعلى قريش وسطا ، وتدل على أنه منهم ، ونقول فى الجواب عن ذلك انها تدل بالنص على الشرف ، وانه من أعلى القوم ، ولا يفيد بالقصد والذات انه من نفس العرب ، ومن ذاتيتهم ، وانه يحس باحساسهم ، لا تدل قراءة الفتح على ذلك بالنص ، وبيان امتزاج نفسه عليه السلام بانفسهم ، وان هذا لابد منه ليشعر بشعورهم ، ويشاركهم بوجدانه واحساسه ، ويجذبهم اليه بقوة الامتزاج النفسى ، كما يعينهم بالدليل ، وبالحق فى ذاته ، وبما اتاه الله تعالى من بينات باهرات ٠

وقد يكون اختلاف القراءة فيه كمال التوضيح البيانى من غير قصور فى احداهما ، ولكن بالقراءتين يكون البيان كاملا ، مثل قراءة قوله تعالى : « **يايها الذين آمنو ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** (١) » فان قوله تعالى : « فتبينوا » تقرأ « فتثبتوا » ولا شك أن المعنى فى القراءتين هو ألا يؤخذ الساعى بالنميمة أو الساعى بالأذى ، أو المفسد بين الناس لا يصدق قوله ابتداء والا ينساق وراء ما يثيره القول من عاطفة جامحة أحيانا قد تدفع الى الشر عن غير بينة ، فالله تعالت اياته ينبه الى انه لا يجوز التصديق الا بعد

---

(١) التوبة : ١٢٨ ٠

(٢) الحجرات : ٦ ٠

التبين ، والتبين يكون بطرائق مختلفة منها ما يكون بطرق الاثبات من بينات ، ومنها ما يكون بالقرائن ، ومنها ما يكون بربط الأمور الواقعة بالأمر المخبر عنه ، وهكذا ، فالقراءتان : تبين احداهما التبين بالطرق المختلفة والثانية تبين أن أسلم الطرق هو تعرف الأمر بما يثبت من أقوال الصادقين المؤمنين ·

وانه قد يكون اختلاف القراءات مؤديا الى بيان حكم بقراءة ، وحكم متمم له بقراءة أخرى فتستفاد الأحكام فى أوجز تعبير على ما فيه فى تغيير القراءة من اختلاف فى نغم الترتيل ، وموسيقا البيان القرآنى الذى يساميه ·

وقد قال فى هذا المعنى الكاتب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى « وثالثة تلحق بمعانى الاعجاز ، وهى أن تكون الألفاظ فى اختلاف بعض صورها مما يتهيأ معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معانى الشريعة ، ولذا كانت القراءات من حجة الفقهاء فى الاستنباط والاجتهاد ، وهذا المعنى مما انفراد به القرآن الكريم ، ثم هو مما لا يستطيعه لغوى أو بيانى فى تصوير خيال فضلا عن تقرير شريعة » ·

ولذلك تجد الفقهاء فى استدلالاتهم الفقهية يقولون الحجة فيه قراءة كذا ، وهى لا تكون مناقضة للقراءة الأخرى وربما تكون القراءة دالة على حكم آخر غير مناقض للحكم الذى دلت عليه القراءة المستشهد بها ، فتكون الآية بالقراءتين دالة على حكمين متلاقيين غير متناقضين ، وذلك من الايجاز المعجز الذى لا يوجد فى كلام الناس ، ولكنه موجود فى كلام خالق الناس ·

٢٤ — هذا ونختم الكلام فى القراءات بكلمة مأثورة للصحابى الفقيه عبد الله بن مسعود ، فهو يقول :

« لا تنازعوا فى القرآن فانه لا يختلف ، ولا يتلاشى ، ولا ينفد لكثرة الرد وانه شريعة الاسلام وحدوده وفرائضه ولو كان شىء من الحرفين (أى القراءتين) ينهى عن شىء يأمر به الآخر ، كان ذلك الاختلاف ، ولكنه جامع ذلك كله لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ، ولا شىء من شرائع الاسلام ، ولقد رأيتنا نتنازع عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيأمرنا فنقرأ عليه ، فيخبرنا أن كلنا محسن ، ولو أن أحدا أعلم بما أنزل الله على رسوله

منى لطلبته ، حتى ازداد علما الى علمى ، ولقد قــرأت من لســـان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن فى رمضان ، حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين ، فكنت اذا فرغ أقرأ عليه ، فيخبرنى انى محسن » ٠

اللهم احفظنا بالقرآن واجعله محفوظا بيننا كما وعدت انك لا تخــلف الميعاد ، ووفقنا للعمل به ٠

القسم الثاني

اعجـــاز القرآن

اعجـــاز القرآن

٢٥ ـــ ذكر المؤرخون ما كان عليـه العـرب من تلق لديانات النبيين السابقين ، حتى قال قائل المؤرخين وأهل السير : ان نوحا عليه السلام كان بعثـه فيهم ، وكذلك كان ادريس ، وصـالح ، وشـعيب ، وهـود ، وابراهيم واسماعيل ، فكانت مهدا للرسالة الالهية ٠

واذا كان لذلك أثر أو دلالة ، فهو أن العرب قوم فيهم ثقـافة وأديان ، وقد وضحنا ذلك عند الكلام فى حكمة اختيـار العرب لأن يكونوا موضـع الرسالة الخالدة رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (فيما كتبنا فى سيرة الرسول عليه السلام) ٠

واذا كان العرب فى عصر الرسالة المحمدية كانت فيهم بداوة سـائدة ، وحضارة قليلة ، فأكثر العرب ، أو الصحراء العربية ان اسـتثنينا اليمـن والحيرة ، وما يصاقب الفرس ، والشام ، وما يصاقب الرومان ــ كانت البداوة فيهم غالبة ولكنهم فى بدوهم وحضرهم ، فى مدرهم ووبرهم امتازوا من بين معاصريهم بالنزوع الى الكلام الطيب ، وكانت سيادة الأمية فيهم سـببا فى أن أرهفوا كلمـات لغتهم ، وأسـلوب خطابهم ، وملاحظـة جرس الكلمات ، وموسيقى العبارات وانسجام الحروف ، ومؤاخاة المعـانى للألفاظ ، حتى ان النطق يدل على المعنى ، وفى مترادف الكلمات ما يدل عـلى أن المعـانى كانت ملاحظة فى كل لفظ ، فالأسد يقال له أسـد ، وليث وغضنفر ، وغير ذلك من المترادفات لمعنى السبع ، فكلمة غضنفر تقال له فى حـال عنفـه وفتكه ، وكلمة ليث تقال فى حال ثباته ورباطة جاشـه ، وهكذا تجد النطق متلاقيا مع المعنى ، فهما متساوقان المعنى ، ملاحظ فى النطق ، والنطـق لابس للمعنى ، وكلاهما يحيط بصاحبه ويؤاخيه ولا ينفصل عنه ٠

وفى الأسلوب الذى يصوره الاعراب تجد الانقطاع عن النسق الاعرابى فى القول يتغير بتغيير وجه الاعراب ، من غير خطأ ، بل يقصد معنى من معانى

التخصيص يكون النطق فى الانقطاع قائما مقام وضع خطوط تحت الكلمات ، كما يفعل الكاتبون غير الأميين ، وهكذا كان النطق قائما مقام خطوط الكاتبين فى تنبيهها ، وشدة الاختصاص فى دقة المعانى ، فهى بحق لغة افصاح ، وذلك لقوة المدارك ، وعلو الأفكار ، والنزوع الى السمو والمعالى مع الأمية ، وغلبة البدوية ٠

وقد ظهر ذلك فى أمرين : أحدهما أن الجزء الذى دخلته حضارة من البلاد العربية كاليمن والحيرة والبحرين لم تكن عندهم فصاحة كالذين لم تسيطر عليهم الحضارة فى قوة الافصاح والبيان وسلامة التعبير ، فلم تكن اليمنية كالعدنانية ٠ ولا لغة أهل البادية كلغة قريش ، لأن قريشا قد قاربت ، وذاقت بعض الحضارة ، وبقيت أميتها ٠

الأمر الثانى ــ فى المسابقات البيانية التى كانت تعقد فى الأسواق فى موسم الحج فى عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ، فقد كانت فيها تجارة المادة ، وتجارة البيان معا ، فقد كان فى الأولى زاد الجسم ، وفى الثانية زاد النفس ، كما ظهر ذلك فى الشعر ومسابقاته ، فمن معلقات تعلق فى أستار الكعبة ، وحوليات يقطع الحول فى نسج خيالها ، وصوغ عباراتها التى تصغى اليها الأفئدة ٠

ولو أنك وازنت بين العرب وغيرهم ممن هم فى مثل حالهم من البداوة الغالبة ، لوجدتهم فى السماك الأعزل وغيرهم فى الحضيض الأوهد ، فلا يزال الحاضرون من غير العرب يجدون فى شعر زهير بن أبى سلمى حكمة البيان الشعرى ، وفى شعر امرىء القيس قوة الوصف وفورة الشباب ، وفى شعر عنترة قوة البأس ولطف التشبيب والغزل ، وفى شعر طرفة قوة النفس الثائرة ، وهكذا لو وازنت بين هذه الآثار ، وما بقى من شعر اليونان والرومان لوجدتها لا تقل عنها فى احكام الفكرة ، وسلامة التفكير ، ولكن تزيد عليها فى حلاوة النغم ، وتساوق الفكر ، وتآخى الألفاظ مع المعانى ٠

نعم ان الأدب القصصى فى اليونان كثير ، وهو خلاصة ما عندهم ولبه ، وهو عند العرب قليل أو أقل من القليل ، والسبب فى ذلك هو أن هذا ثمرة

الكتابة التى تتيح للكاتب فرصة التاليف وتلفيق الوقائع ، بحيث تكون كل واقعة لفق الأخرى مسلسلة معها ، فى خيال متسق ، وهكذا ٠

أما العرب الذين غلبت عليهم الأمية مع تذوق القول ، وتخير خيره ، واستهجان هجينة ، فان أدبهم يكون باللمح السريع ، والنظر الخاطف أحيانا والمستبصر المتدبر فى أكثر الأحيان عند الذين أوتوا فكرا وعقلا وادراكا ، وفى الجملة لا وسط بين كلامهم وجنانهم ، ولازمن مستغرق بين خاطرهم وقولهم فتكون خيالاتهم فيها جمال اللمح ، وقوة اللحظ ، وسرعة الادراك ٠

٢٦ — ولذلك أجمع المؤرخون فى القديم والحديث على أن العرب لهم ماثر فى البيان ، وذوق الكلام ، والتفريق بين كريمة وسقيمه ، وجميله وهجينه ٠

ولنترك الكلمة للقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ يصف بيانهم فى كتابه الشفاء ، فهو يقول : « خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت انسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، وجعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به الى كل سبب ، فيخطبون بديها فى المقامات ، وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل ، فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب ، ويذهبون الاحن ويهيجون الدمن ، ويجرئون الجبان ٠٠٠ منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل ، والكلام الفخم والطبع الجوهرى ، والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى (أى ساكن المدن) ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية » الى آخر ما ذكره عياض فى بيان بلاغة العرب ، ومقدار ادراكهم لجمال الكلمات فى رنينها ، كما يدرك الصيرفى رنين الحلى الكريمة غير الزائفة ، من بين ما يعرض له ٠

تلك كانت حال العرب فى جاهليتهم ، كانت جهلا بالدين مع بقـايا ملة ابراهيم ، وليسوا جهالا فى البيان ومعـرفة أسرار البـلاغة يدركونه بلحظ الحال ، لا بامعان عقل وطـول تفـكير يدركونه بنغماته ومعانيه فى لمـح الفكر ، من غير طول المكث ٠

لذلك كان المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخاطبهم القرآن الكريم ابتداء أن تكون المعجـزة من النوع الذى يحسنونه ، ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة ، فالمعجزة بلاشك تناسبهم فوق مناسبتها لموضوع الرسالة وعموم أزماتها وخلودها الى يوم القيامة ، وقد بينا ذلك فى أول الكلام ، فاذا كانت معجزة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من نوع الكلام السامى فوق طاقة الناس فانها تكون مناسبة لمن تلقوها فى أول أمرها ومناسبة لخلودها ٠

اننا لا ننفى الآن ، ولم ننف من قبل أنها مناسـبة لعصر نزولها ، ولكننا نقول أيضا انها أشد مناسبة لموضوع الرسالة وخلودها ، وبقائها الى يـوم القيـامة ٠

ان القرآن فى أعلى درجات البيان من حيث لفظه ، ومن حيث نغماته ، ومن حيث مغازية ومن حيث الصور البيانية التى تكون فى الفاظه وعباراته ، حتى ان كل عبارة تلقى فى الفكر والخيال بصورة بيـانية كاملة فى روعتها ، ودقة تصويرها ، بل ان كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة ؛ وبتآخيها مع أخواتها فى العبارة تتكون صورة بيانية أخرى ، فوق أن الرنين الموسيقى تنفعل به الأسماع الى القلوب فى معان محكمة ، وحقـائق بينـة ، وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الانسانى القويم ، الهادى الى الصراط المستقيم ٠

التقى فى المعجزة الكبرى للنبى صلى الله عليه وسـلم وهى القـرآن المبين ـ معنيان ، أصيب بهما هدفان :

أولهما ـ أنه المناسب الذى يعرف به العرب معنى الشىء الخـارق لما

عرف ، الخارج عن طاقتهم ، فانه لا يدرك أثر ذلك الا هم ، ولا يعرف مقامه الا من على شاكلتهم من معرفة مقام القول ، ومنزلة البيان ٠

وثانيهما ــ أن كونه من نوع الكلام الموحى به الباقى الخالد الذى حفظه الله تعالى ، ووعد بحفظه الى يوم القيامة كما تلونا من قبل « « **انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون** » (١) وذلك يناسب رسالته التى هى خاتم الرسائل الالهية التى جاء بها محمد رسول الله تعالى خاتم النبيين ، بصريح القرآن الكريم ، فلا نبوة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ٠

فكان المناسب أن تكون المعجزة من نوع الكلام الخالد الباقى ، كما روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من نبى الا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وكان الذى أوتيته وحيا أوحى به الى ، وانى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا الى يوم القيامة » كما روينا من قبل ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ٠

وانه معجزة للخليقة كلها ، وفيه الدليل على أنه من عند الله للناس أجمعين ، فهو ان جاء بلسان العرب ، وفيه أعلى درجات البيان العربى ، يشتمل فى ثناياه على ما يعجز الناس أجمعين ، فاذا كان قد أعجز العرب ببيانه فقد أعجز الناس أجمعين بمعانيه ، وشرائعه وما اشتمل عليه من علوم ، بل بمبانيه أيضا ٠ قال منزله عز من قائل « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » (٢) تعالت كلمات الله تعالى ٠

---

(١) الحجر : ٩

(٢) الاسراء : ٨٨ ٠

تلقى العرب للقرآن

٢٧ ــ كلف محمد عليه الصلاة والسلام أن يستعد للقاء الرســالة الالهية لينشر التوحيد والخلق المستقيم والعبــادة الخالصة لله تعالى بين الناس . وكان تكليفه بالقرآن وأول نزوله : فقال له جل جلاله : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » (١) ٠

تقدم محمد للدعوة الى ربه معتمدا على امرين بعد تأييد الله تعالى له واعزازه ، ومصابرته وأخذهم بالحسنى ٠

اعتمد أولا على الحق الذى يدعو اليه ، فالحق ذاته قوة لا تعدلها قوة عند النفوس التى لم تتعوج بمفاسد العصبية ، أو التقليد المصم عن الحــق ، فذكر لهم التوحيد ، وقد كانوا عــلى ادراك له فى الجملة كما بينا عند الكلام فى القسم التاريخى عن بقاء فى بعض المأثورات عن ابراهيم عليه وعلى نبينا افضل الصلاة ، واتم التسليم ٠

وكان التنبيه الى أن الأوثان لا يعقل أن تعبــد ، وازالة ما حولها من أوهام ، وما علق بها من خرافات ما انزل الله بها من سلطان ، وقد بين ذلك محمد عليه السلام على اكمل وجه ٠

واعتمد مع نور الحق فى ذاته على نور القرآن المبين الــذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو فى هداة الداعى الرشيد يدعوهم الى هجر عبادة الأوثان ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ، ففى دعوة الحــق ، وفى القرآن البرهان القاطع والضوء اللامع ٠

كانوا ينفرون من الحق المجرد ، لأنه يخالف ما الفوا ، وما وجــدوا عليه آباءهم : « **واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ، قالوا : بل نتبــع ما الفينــا عليه آباءنا ، او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ، ولا يهتدون** » (٢) ٠

---

(١) العلق : ١ ــ ٥ ٠
(٢) البقرة : ١٧٠ ٠

ولكنهم اذا استمعوا الى القرآن تحيرت الأفهام ، واضطربت أحوالهم بين قديم الفوه ، وحق فى القرآن عرفوه ، فهم يحـاورون فى الحق ، ولكن لا يدرون ماذا يدفعون به القرآن الذى يحمله ، ويدعو اليه والى ما جاء به ، وانهم بذوقهم البيانى يجدون أنه فوق كل كلام ، ولا يمـكن أن يجرى بـه لسان من ألسنتهم وأمثالهم بل لا يمكن أن يأتى به محمد من عنـده ، لأنهم من قبل عرفوا كلامه ، وقد رأوه عاليا فى جوامع كلمه ، ولكن القرآن أعلى من طاقة الانسان ومن طاقة محمد ذاته .

ماذا يقولون فيه ؟ أيقولون انه باطل وقد كبروا ما هو دونـه من قصيد ورجز ، ان فى ذلك كانت الحيرة ، وهم من النـاحية البيـانية لم يتهافتوا ، ولم يسفوا فى القول ؛ واذا كان فيهم حمقى حاولوا أن يجاروه ، أو ادعوا أنهم يجارونه ، وعرضوا ما قـالوا ، فنـال الاستضحاك والسخرية ، وزاد القـرآن الكريم مكانة وتقديرا ، ومـا كان لأمثـال أبى سفيان والوليد بن المغيرة ، أن يسفوا بأنفسهم ذلك الاسفاف ، بل انه لم يسف الى هذا عمرو ابن هشام (أبو جهل) لأنه يعلم مقدار علوه ، فلا يتهافت الى انكار مكانته فى البيان ، فهـو يستبيح اذى النبى صـلى الله تعـالى عليه وسـلم وأذى أصحابه ، ولا يستبيح الطعن فى مقام القرآن البيانى ؛ لأنه يلحقه الطعـن بالأذى والتصغير ، ولا يلحق محمدا الذى نزل القرآن عليه وخاطب به الناس أجمعين ، ولنذكر لك أخبار من سمع القرآن ، وخر بين يديه صاغرا مع شـدة العداوة والملاحاة واللدد والخصومة ، والبقاء على الكفر ، والاصرار عـلى الشرك .

٢٨ ــ (أ) سمعه الوليد بن المغيرة فرق له رقـة لم تعرف فيه نحو الاسلام فخشى أبو جهل (عمرو بن هشام) أن يسير فى الطريق القـويم الى الاسلام ، فأنكر عليه أبو جهـل حاله ، ولكنه لم يستطع أن يقـول فى القرآن شيئا ، فقال له الوليد :

« والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار منى ، أعرف رجزها وقصيدها ، والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من ذلك ، ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان

أعلاه لمثمر ، وان أسـفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر » ٠

ولقد اجتمعت قريش عند الوليد يتذاكرون ماذا يقولون فى القرآن ، وقد رأوا العرب يفدون ، ويستمعون الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم ، فكيف يصدونهم عن ذكر الله وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فأتمروا ، واجتمعوا حول الوليد ، ليتعلموا ماذا هم قائلون لمنع الحق ، وقد قال لهم أولا الحق على ريب فى نفسه :

قال لهم الوليد العارف الضال : ان وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضا ٠

قالوا نقول « كاهن » ٠

قال والله ما هو بكاهن ، ما هو برمزمته ، ولا سجعه ٠

قالوا : « مجنون » ، قال ما هو بمجنون ، ولا بخنقه ، ولا بوسوسته ٠

قالوا فنقول « شاعر » ٠

قال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ، ومبسوطه ومقبوضه ما هو بشاعر ٠

قالوا فنقول « ساحر » ٠

قال ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده ٠

قالوا فما تقول أنت ؟

قال ما أنتم بقائلين فى هذا شيئا ، الا وأنا أعرف أنه باطل ، وان كان أقرب القول انه ساحر فانه سحر يفرق بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته ، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس ٠

(ب) ولنذكر خبر عتبة بن أبى ربيعة ، فقد سمع القرآن وهو على الشرك ، ومن كبراء قريش ، فادرك بذوقه البيانى مقام القران ، وقال مقالة الحق « والله قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا بالكهانة » ٠

(جـ) وقد ورد فى حديث اسلام أبى ذر الغفارى أنه قال : « ما سمعت بأشعر من أخى أنيس ، لقد ناقض اثنى عشر شاعرا فى الجاهلية ، أنا أجدهم ، وقد انطلق الى مكة ، وجاء أنيس الى أبى ذر بخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبو ذر فما يقول الناس ؟ قال يقولون شاعر كاهن ساحر ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أوزان الشعر ، فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد ، وانه لصادق وانهم لكاذبون ٠

(د) ان كبار المعارضين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم خافوا على أنفسهم من أن يؤثر القرآن فيهم واستحبوا الكفر على الايمان واستحبوا العمى على الهدى ، ولذلك تفاهموا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن ؛ لأن الذين يسمعونه يتأثرون بما فيه من علو بيان ، وأنه فوق طاقة البشر ، ووجدوا الناس يؤمنون به فرادى ، ومنهم كبراء كانوا ذوى مقام وجبروت ٠ فوجدوا الايمان يقوى ويكثر أهله ، والشرك يضعف وينقص عدده ، تفاهموا على ألا يسمعوا لهذا القرآن كما أشرنا ٠ وان يهرجوا بالقول عند سماعه ، ولقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك ، فقال تعالى « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون** » (١) ٠

(هـ) ولقد كانوا اذا تلى عليهم القرآن لا ينقده كبراؤهم ، وان كان السفهاء السفسافون منهم يتطاولون لحمقهم ، أما الذين أوتوا حظا من الادراك ، ولو أعمتهم العصبية وأبعدتهم عن الايمان ، فانهم يفرون من مواجهة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويقولون « **قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب** » (٢) ٠

(و) وان الله سبحانه وتعالى لم يتركهم فى هذا العجز الصامت الذى يفرون فيه من المواجهة ، ولا يريدون المناصبة ، بل يكتفون بالسكوت العاجز ، ويحاولون التمويه على غيرهم ، كما كفروا فى أنفسهم بالحق ، وقد

---

(١) فصلت : ٢٦ ٠
(٢) فصلت : ٥ ٠

عرفوه بل تحداهم أن ياتوا بمثله ، ليثير حميتهم او يؤمنوا به . وليبين ضعفهم أو يستسلموا ، فقال تعالى : « **أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين (١)** » أى أنه اذا كان قد نسبه لله تعالى افتراء وهو منه ، فمحمد منكم ، فأتوا بمثله ان كنتم صادقين ، وادعوا شهداء ليشهدوا لكم أو عليكم .

وادعوا أن ما فيه غير صادق فتحداهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بمفترى يكون فى مثل بيانه ، فقال تعالى : « **أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين** » (٢) .

٢٩ ــ وننتهى من ذلك الى حقيقتين ثابتتين نشير اليهما بالاجمال ، وسنتعرض ببعض التفصيل عند الكلام عن وجوه الاعجاز .

الحقيقة الأولى : أن قريشا مع شدة ملاحاتها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون ، وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون لم يتحركوا لأن يقولوا مثله ، وأذعنوا لبلاغته وقوته . وما أسلم عمر بن الخطاب الا بعد أن قرأ فيه ، وكذلك جبير بن مطعم ، وان القرآن تحداهم ، أن ياتوا بمثله ، فما فعلوا ، بل ما تحرك العقلاء منهم لأن يفعلوا حتى لا يسفوا فى تفكيرهم وهم امام رجل كبير فى قومه وعقله . ومعه آيات الله تعالى البينات ، فدل هذا على عجز مطلق .

الحقيقة الثانية : أن القرآن جذب العرب الى الايمان بما فيه من روعة ، وقوة بيان ، وايجاز معجز وأقوال محكمة ، وقصص تطول وتقصر ، وهى مملوءة بالعبر فى طولها وقصرها ، واطنابها الرائع وايجازها الذى لا يدع صغيرة ولا كبيرة الا أوفاها بالعبارة الناصعة ، والاشارة الواضحة فما كان الايمان نتيجة تحد للمقاويل منهم وعجز . وان كان العجز ثابتا . وانما كان الايمان ثابتا بالقرآن فهو الذى جذب الى الايمان بما فيه من بيان

---

(١) يونس : ٣٩ .
(٢) هود : ١٣ .

أدركوا أنه فوق طاقة البشر ، وأنه حقائق ثابتة كما قال تعالى : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز** » (١) ٠

وان الثابت مع ذلك أنه لم يحاول أحد من أهل البيان أن يأتى بمثله ، ولم يعرف ذلك ، واذا كان التاريخ قد ذكر شيئا من هذه المحاولة ، فانه كان فى أيام الردة من مسيلمة الكذاب وأشباهه ، وان هذا الجزء الذى رواه التاريخ الذى روى تلك الكلمات التى حاول بها مسيلمة الكذاب أن يجارى فيها القرآن ، يبين مقدار ادراك المشركين ، اذ لم يحاولوا المجاراة ، حتى لا يسفوا ، ويكونوا أضحوكة بين العرب ، وموضع سخرية ، يسخرون بعقولهم ، ولننقل لك ما نقله الباقلانى (٢) فى أعجاز القرآن ، ليتعجب وليتبصر الناظر ، كما قال الباقلانى ، فانه على سخافته قد أضل ، وعلى ركاكته قد أزل ، لأن الزلل سابق على سماعه ، والكفر سابق على ابتداعه وميدان الجهل واسع ، والحماقة لها أهل ، وميدانها عندهم ، ونحن اذا قلنا ان المشركين ضلوا ، فهم فى عقولهم كانوا أوسع ادراكا ، وان جحدوا ٠

انظر ما قال المجهول يحاكى القرآن « والليل الأطقم ، والذئب الأدلم ، والجذع الأزلم ما انتهكت أسيد من أحرم » لقد قال هذا لفض خلاف وقع فى قوم أصحابه : انه ليس جديرا بأن يسمى كلاما فضلا عن أن يكون له فصاحة أو بلاغة أو أى نوع من الادراك البيانى ٠

وهو يقول فى الحكم فى هذا الخلاف أيضا :

« والليل الدامس ، والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس »

وكان يقول : « ضفدع بنت ضفدعين نقى ما تنقين أعلاك فى الماء واسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها » ٠

---

(١) الحديد : ٢٥ ٠ (٢) توفى سنة ٤٠٣ هـ ٠

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان ، وكانت تتنبأ ، فاجتمع مسيلمة معها ، فقالت له ما أوحى اليك قال أوحى الى « ان الله خلق النساء أفواجا ، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنولج فيهن فقسا ايلاجا ثم نخرجها اذا شئنا اخراجا ، فينتجن سخالا نتاجا » فقالت أشهد أنك نبى » (١) ٠

● ٣ — هذه تفاهات القول التى نقلت عن الذين حاولوا معارضة القرآن ، وقد أسفوا فى القول ، وهبطوا فى التفكير ، مما لم يرد ان ينحدر اليه أرباب البيان من قريش ، لأنهم يعرفون مقام ما يسمعون من كلام رب العالمين ، استطاعوا أن يجحدوا الحق وقد عرفوه ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا بمقامهم من الادراك البيانى فيفندوا بيانهم وذوقهم الكلامى ، وان ارتضوا أن يفسدوا عقائدهم ، ويكابروا فى دينهم ، ويكذبوا رسالة ربهم ٠

وقد يقول قائل : ان التاريخ الاسلامى لم يرو غير الذين صدقوا وآمنوا فحذفوا ما كانت فيه معارضة للقرآن الكريم ، وذلك كلام قيل من الأفاكين ، ويرده أمران :

أولهما — أنه ما كان يمكن ان يعم الايمان ، وثمة معارضون للقرآن فى جد لا لهو فيه ، ولا عبث ٠

ثانيهما — ان أعداء الاسلام كانوا فى كل زمان منذ ظهر محمد الى أن قبضه الله تعالى ، ودخل الناس فى دين الله تعالى أفواجا أفواجا ، فالزنادقة كانوا منبثين فى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يألون المسلمين وبالا ، وكان أعداء الاسلام فى أوساط المسلمين وبين ظهرانيهم فبثوا فيهم الأفكار المنحرفة ، والأقوال الهادمة ، والمذاهب المخربة ، وأولئك ما كانوا ليستروا الكلام الذى عورض به القرآن ، اذ يرون فيه هدم الأصل ، وأقصى ما استطاع أولئك الزنادقة أن يفعلوه هو أن يدعوا أن عبد الله بن المقفع (٢) اتجه

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٤٠ (طبع دار المعارف تحقيق أحمد صقر) ٠

(٢) توفى سنة ١٥٨ هـ ٠

الى أن يكتب كتابا يعارض به القرآن ، وهو ان صح كلامهم فيه يدل على أنه نوى ولم يفعل ، ولو فعل لنظرنا الى ما أتى به ٠ واننا نشك فى أصل صحته ، ولكنهم يريدون أن يثيروا الغبار ، والغبار قد يغشى الأعين المريضة ، وان كان قد أراد هذا فهو دليل على حمقه ، ويثبت زندقته التى اتهم بها ، وأنه أشاع ذلك توهينا . وان علم أن المحاولة فوق طاقة البشر ٠

سر الاعجاز

٣١ ـ عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ثابت ثبوتا لا مجال للريب فيه ، لا يرتاب فيه مؤمن ، ولا يجحده ، ولا يمارى فيه الا من يهمل عقله ، ويسقط من حساب المفكرين ، فعلى ذلك تواترت الأخبار ، واتفقت الأمصار ، لا فرق بين عدو وولى ٠

وانه واضح من سياق الأخبار المتواترة أن عجزهم اقترن بثلاثة أمور :

أولها ـ اعجابهم بعلوه عن أن يصل اليه أحد من البشر ، ولم يحاول أحد من عقلاء المشركين أن يسف فيحاول المحاكاة الا من اتصف بالحماقة فكانت حماقته ضعفين أحدهما فى محاولته ، وثانيهما فى نتائج هذه المحاولة اذ جاء بلغو من القول لا يحتسب فى عداد الكلام ، فضلا عن أن يناهد أبلغ كلام أنزله الله تعالى فى البشر ٠

ولقد سببوا عجزهم بأنه يعلو ولا يعلى عليه ، وأن له حلاوة ، وعليه طلاوة ، وأن أعلاه مثمر ، وأسفله مغدق ٠ وقد قال ذلك المغيرة فى جمعهم ، فما أنكروا عليه حكمه على القرآن الذى سمعه ، ولكن انكروا عليه أنه تحت تأثير هذا ترك جماعتهم ، وكأنهم أقروه على الوصف الذى وصف به القرآن ، ولكن أنكروا عليه الايمان ، وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم كما وصفهم القرآن الكريم ٠

ثانيها ـ أنهم كانوا مع شركهم ، واستكراه نفوسهم لعدم الاقرار به ينجذبون اليه ، ويريدون أن يسمعوه ، استطابة لما فيه من لفظ ذى نغم يجذب ،

وعبارات مشرقة ــ ونظم منفرد أجمل من سمط اللآلىء ، ولأنهم عرفوا ميلهم الى استماعه ، وأثره فى نفوسهم ، تواصوا الا يسمعوه ، وأن يلغوا عند سماعه ، ولكن الذين تواصوا ذلك التواصى ذهب كل واحد منهم منفردا ، ولكن الاستخفاء استعلن عندما التقوا جميعا ، ورأوا أنفسهم مجتمعين ، وليس كل منهم منفردا ، وقد علموا أن التواصى على عدم الاستماع لا جدوى فيه ، فتواصوا على الجحود والانكار ، فلم يكن تواصيهم على الحق ، ولكن كان على الباطل ٠

ثالثها ــ أن أشدهم عنادا كان أقربهم ايمانا اذا قرأ القرآن صغى قلبه الى الايمان ، والى الاستجابة لداعيه ، فقد سمع أبو ذر الغفارى القرآن ، فآمن ، وسمعه أخوه أنيس ، فأذعن لعلو بلاغته عن مستوى البشر ، وسمعه جبير بن مطعم فآمن ، وقرأه عمر بن الخطاب ، فانخلع قلبه من الشرك وطغيانه ، الى الايمان ، وأن يكون فاروق الاسلام الذى كان ايمانه فارقا بين الاستخفاء والاعلان ، بين ظهور الحق وخفوته ٠

ان هذه الأمور التى اقترنت بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله دلت على أمرين بدهيين :

أولهما أن الأساس فى عجزهم هو ما فيه من بلاغة ورنة قول ، ونغمة بيان أدركوها بذوقهم البيانى ، وهم الذين يذوقون بأسماعهم ، كما يذوق الطعام بفمه ، وأنه لم يكن عجزهم سلبيا ، بل كان من كثيرين منهم ايجابيا يتبعه العمل ويقترن بالايمان بانه من عند الله تعالى اى أن وجه الاعجاز فيه أمر ذاتى فيه ، وليس منعا سلبيا ٠

الأمر الثانى الذى تدل ليه هذه الأمور التى اقترنت بالعجز عن محاكاته ، هو أن القرآن مع بيانه العالى الذى لا يعالى ، فيه من العلوم ما لم يكونوا يعرفونه ، فيه الشرائع المحكمة التى تنظم العلاقات بين الآحاد الأقربين ٠ وغيرهم ، فيه علم الميراث ، وفيه علم الأحكام المختصة بالأسر ، وفيه بيان خلق الانسان من سلالة من طين ، وفيه توجيه النظر الى الكون

وما يشتمل عليه ، وفيه من حقائق مالا يعلمه الا اللطيف الخبير ، الذى خلق فسوى ، والذى أحاط بكل شيء علما ٠

وفيه القصص والعبرة ، وما كانوا يعلمون شيئا من ذلك من قبله ، فيه قصة أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، وقصة بناء الكعبة ٠ « **اذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل** » ، وفيه أنبياء البلاد العربية التى تعلن آثار الأقوام وما أنزله الله تعالى بهم ، وفيه قصة موسى عليه السلام ، وفيه قصة مريم ، وتربيتها ، وكيف اختصموا فى كفالتها ، وكيف يستخدمون القرعة بالسهام لتكون كفالتها لمن تكون السهام له : « **وما كنت لديهم ، اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم ، اذ يختصمون** » (١) ٠

قرءوا ذلك وسمعوه ، فكان العجز لهذه الأمور الذاتية ، لا لأمور أخرى ليست من القرآن ٠

الصرفة

٣٢ — عرف العرب أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، وعللوا عجزهم بما استرعاهم ما فيه من حلاوة اللفظ ، وطلاوة المعنى والتركيب ٠ وعمق ما اشتمل حتى انه مغدق فى جذوره كلما تكشف القارىء عن عمقه رأى ما لا يصل اليه البشر ، وكلما اتجه الى أعلاه وجد ثمرا شهيا ٠

هذا أمر ظاهر ، ولكن الفلسفة التى تسيطر على عقول بعض الناس ، ولا تكون فيها ثمرة ناضجة قد يتجهون بها الى كل ما يرونه بديئا فى التفكير سواء أكان متصلا بالحق المجرد أم لم يكن متصلا ، وسواء أكان متفقا مع الايمان والواقع أم لم يكن ، بل ان المتفلسفين ربما اتجهوا الى الفكرة ، لا لأصالتها ، ولكن لغرابتها ، ولا لأنها لابد منها لتحقيق الحق وابطال الباطل ، ولكن للترف العقلى لا يفرقون بين أمر يتصل بالايمان ، وأمر لا صلة له بالايمان ٠

---

(١) آل عمران : ٤٤

وان بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على أقوال البراهمة فى كتابهم « الفيدا » وهو الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم ، ويقول جمهور علمائهم أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها ٠

يقول فى ذلك أبو الريحان (١) البيرونى فى كتابه « ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ما نصه :

« ان خاصتهم يقولون ان فى مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها » ٠

ولم يبين البيرونى وجه المنع أهو منع تكليفى يسبقه الايمان بهذه الكتب وتكون دلائل وجوب الايمان من نواح أخرى ، أم هو منع تكوينى بمعنى أن براهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها ، والأخير هو الظاهر لانه هو الذى يتفق مع قول جمهور علمائهم ، وما اشتهروا من أن القول بالصرفة نبع فى واديهم ٠

٣٣ ــ وعندما دخلت الأفكار الهندية فى عهد أبى جعفر (٢) المنصور ، ومن والاه من حكام بنى العباس ، تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركنون الى الاستغراب فى أقوالهم فدفعتهم الفلسفة الى أن يعتنقوا ذلك القول ، ويطبقوه على القرآن ، وان كان لا ينطبق ، فقال قائلهم ، ان العرب اذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله ٠

وان رواج تلك الفكرة يؤدى الى أمرين : أولهما ــ أن القرآن الكريم ليس فى درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته ، وتعجز القدرة البشرية عن أن تأتى بمثله ، فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية ٠

---

(١) توفى سنة ٤٣٠ هـ ٠

(٢) ثانى خلفاء بنى العباس توفى سنة ١٥٦ هـ ٠

وثانيهما ـ الحكم بأنه ككلام الناس لا يزيد عليه شيء فى بلاغته ، أو فى معانيه ٠

وان مذهب الصرفة قد وجد من يقوله من علماء الفلسفة الكلامية وغيرها بل وجد من يقوله من بين الذين أنكروا الرأى فى الفقه ، وهو مع جموده فى الفقه ، من أبلغ الكتاب والشعراء ٠

ولنترك الكلمة للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فى كتابه اعجاز القرآن ، قال رضى الله تبارك وتعالى عنه :

« فان قيل فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم فى أجناس الفصاحات ، وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه بوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادرا ، وانما يصرفه الله عنه ضرب من الصرف ، أو يمنعه من الاتيان بمثله ضرب من المنع ، أو تقصر دواعيه اليه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله تعالى من الدلالة ، ويحصل ما قصده من ايجاب الحجة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الأولى ، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة » (١) ٠

ونرى من هذا أن القائلين بهذا القول يشككون فى مرتبة القرآن وكونه من عند الله تعالى من غير أن يقدموا دليلا ، بل ان القصد الذى يبدو من لحن القول والدعوى هو التشكيك المجرد فى علو البلاغة القرآنية ، ومن وراء ذلك التشكيك ما يريدون من توهين ثم دعاوى بأنه من صنع محمد عليه السلام وهكذا يسير الخط من احتمالات تنافى الواقع الى توهين لأمر القرآن ، الى ادعاء أنه ليس من عند الله ٠

٣٤ ــ وان القول بالصرفة ثبت أول نبت فى رواق الفلسفة الكلامية ، قاله شيخ من شيوخهم ٠ وهو ابراهيم بن سيار الشهير بالنظام المتوفى سنة

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٤١ طبع المعارف ٠

٢٢٤ هـ ، فهو أول من جاهر به ، وأعلنه ودعا اليه ، ولاحى عنه كأنه مسألة من مسائل علم الكلام ، ونقول انه أول من جهر به ، ولا نقول انه أول من فكر فيه ، أو أول من ابتدأ القول به ، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهى تتكون فى خلاياها ، بل لا تعرف الا بعد أن تظهر ، ويجاهر بها ٠

جاهر بها ، وكان ذا فصح وبيان وحجة وبرهان ، وان لم يكن مستقيم الفكر ، بل انه يظن الظن ، فيحسبه يقينا ثم يبنى عليه ويقايس ، ويصحح القياس ، والتنظير بين الأشياء ، بينما الأصل ذاته يحتاج الى قياس صحيح ٠

ولقد نقده تلميذه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ الذى كان معجبا بشخصه ، غير آخذ برأيه ، وقال فيه ذاكرا عيبه ، فقال :

« انما عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر ، والسابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظنا ، فاذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت ، وكان كلامه خرج مخرج الشهادة القاطعة فلم يشك السامع أنه انما حكاه عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » ٠

لم يوافق التلميذ استاذه ، لم يوافق الجاحظ شيخ الكتاب المسلمين ، وأكبر ناقد بين الناقدين شيخه ، واذا كان ابراهيم بن سيار قد اشتهر بالبيان ، وسرعة الجواب ، ولسن القول ، فقد اشتهر الجاحظ بأنه ذواق الكلام وصيرفى البيان ، فان خالف من يتسرع فى الخبر ، ويبنى عليه ، فهى مخالفة الخبير العارف بتصريف القول ، وأفانين التعبير والتفكير ٠

ولم يكن رد الجاحظ على شيخه رد المجادل المحاور ، ولكنه كان بالعمل ، فقد كان أول من كتب فى اعجاز القرآن من الناحية البيانية ، ليكون الرد على الصرفة ببيان الاعجاز الذاتى ٠

ولقد أشار الى رد الجاحظ الذين كتبوا فى الاعجاز ومنهم الباقلانى ، وممن نسب اليه القول بالصرفة الشريف المرتضى من الشيعة ، وفسر الصرفة

بأن الله تعالى سلبهم العلوم التى يحتاج اليها فى معارضة القرآن والاتيان بمثله ، ومؤدى كلامه أنهم أوتوا المقدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة ، فهم قادرون على النظم ، والعبارات ، ولكن ليست عندهم المقدرة بسبب أنهم لم يعطوا العلم الذى يستطيعون به محاكاة القرآن فى معناه ٠

وان هذا القول ينافيه أن الله سبحانه وتعالى طالب بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأعفاهم من أن يكون كلامهم مشتملا على مافى القرآن من علم ، واقتصر على التحدى بالنظم والعبارة واللفظ ٠

فهذا القول نوع من الصرفة ، ونفى للاعجاز الذاتى ، ويختلف مع ما اشتمل عليه القرآن ٠

وممن قالوا بالصرفة الفقيه البليغ العنيف المتشدد ابن حزم (١) الأندلسى، فقد قال فى كتاب الفصل فى سبب الاعجاز : «لم يقل أحد ان كلام غير الله تعالى معجز ، لكن لما قاله الله تعالى ، وجعله كلاما له ، أصاره معجزا ، ومنع من مماثلته » ثم قال : وهذا برهان كان لا يحتاج الى غيره ٠

وان ذلك الكلام يبدو بادىء الرأى غريبا من ابن حزم ، ولكن المتأمل فيه يجده سائرا على مذهبه فى نفى الرأى ٠ والحكم بظاهر القول من غير تعليل ، فالاتجاه الى تعليل الاعجاز بأن السبب فيه بلاغته التى علت عن طاقة العرب ، والتى جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مراء ولا جدال يعد تعليلا ، وهو من باب الرأى الذى ينفيه ، والتعليل الذى يجافيه ، فلابد أن يبحث عن سبب غير ما ذكر الله تعالى ٠

٣٤ ــ واننا نرى أنه بعد كلام النظام صارت فكرة الاعجاز بالصرفة مجال اختلاف بين العلماء ما بين مقرر لها وما بين مستنكر ٠ وقد آن لنا أن نبين بطلان هذه الفكرة من أساسها ، وان دلائل البطلان قائمة ثابتة مأخوذة من الوقائع التاريخية والموازنات الحقيقية الثابتة ٠

---

(١) توفى سنة ٤٥٦ هـ ٠

(أ) منها ، ما ذكرنا من قبل أن العرب عندما تلقوا القرآن راعهم بيانه ، وأثار اعجابهم أسلوبه وعباراته ، وقالوا ما رأينا مثله شعرا ولا نثرا ، فكان العجز لذاته ، لا لشيء خارج عنه ، وما لنا نفترض ما لم يقولوا وما لم يفعلوا ، وما لم يقدروا ، الا أن يكون ذلك تمويها ، وانكارا للواقع المستقر ، بفرض وهمى ٠

(ب) وأيضا فانه لو كان العجز لأمر خارجى لا لأمر ذاتى فيه بأن تكون عندهم القدرة على أن يأتوا بمثله ولكن صرفوا ، فان ذلك يقتضى أن يثبت أولا أنهم قادرون على مثله ، وهم أولا قد نفوا ذلك عن قدرهم ، وليس لنا أن نفرض لهم قدرة قد نفوها عن أنفسهم ، ولو كانوا قادرين لكان من كلامهم قبل نزول القرآن عليهم ما يكون متماثلا فى نسقه ونسجه ، وله مثل رنينه وصوره البيانية فى شعر أو نثر ، ولكن المتتبع للمأثورات العربية ، فى الجاهلية والاسلام لا يجد فيها ما يقارب القرآن فى الفاظه أو معانيه أو صوره البيانية ٠

ولذا لجأ الباقلانى (١) فى كتابه اعجاز القرآن الى الموازنة بين القرآن ، وبين المعروف من أبلغ الكلام فى الجاهلية ، ويقول فى ذلك « ولو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة ، وحسن النظم ، وعجيب التاليف ، لأنهم لم يتحدوا به ، ولم تلزمهم حجته ، فاذا لم يوجد فى كلام قبله مثله علم أنه ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان ٠٠٠ » ٠

(ج) واننا لو قلنا ان الذى منع العرب من الاتيان بمثله هو الصرفة ما كان القرآن هو المعجز ، انما يكون العجز منهم ، ولم يكونوا عاجزين ، وانما يكونون قد أعجزهم الله ، ولم يعجزهم القرآن ذاته ، وقد كان القرآن هو معجزة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والقول بالصرفة ينفى عنه خواص الاعجاز ٠

وان معجزات النبيين السابقين ما كان فى طاقة الناس أن يأتوا بمثلها

---

(١) توفى سنة ٤٠٣ هـ ٠

فى ذاتها ، ولم يكن بصرف الناس ان ياتوا بمثلها ، فمعجزة العصا ، وتسع الآيات التى لموسى عليه السلام ما كان العجز من الناس بالصرف ولكن بالعجز الحقيقى · فلماذا لا تكون معجزة النبى محمد عليه السلام كسائر المعجزات ، وهى أجل وأعظم ·

(د) وان الله تعالى قد وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله فى منزلة لا تصل اليها معجزات اخرى ، فكانت هذه توجب أن يكون أعجازه ذاتيا ولقد قال تعالت كلماته : « **ولو ان قرآنا سيرت بـه الجبال او قطعت بـه الأرض ، أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا** » (١) ·

ويقول جل من قائل : « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد** » (٢) ·

واذا كان القرآن بهذه الأوصاف التى وصفه بها منزله سبحانه وتعالى ، أفيقال بعد ذلك ان الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله ؟ اللهم ان ذلك بهتان عظيم ·

(هـ) وان مثل الذين يقولون ان اعجاز القرآن بالصرفة كمثل الذين قالوا ان القرآن سحر يؤثر ·

وقد اثبت ذلك الرافعى فى كتابه اعجاز القرآن ، فقال : « وعلى الجملة فان القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب، ان هذا الا سحر يؤثر ، وهذا زعم رده الله تعالى على أهله ، وأكذبهم فيه ، وجعل القول فيه ضربا من العمى « **أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون** » (٣) ·

وان التشابه بين القول بالصرفة والقول بأنه سحر أن الامتناع عن المماثلة فى كليهما من خارج الشىء لا من ذاته فالقول بالصرفة يفيد أن العرب

---

(١) الرعد : ٣١ · (٢) الزمر : ٢٣ ·
(٣) الطور : ١٥ ·

لم يكونوا عاجزين ، ولكن حيل بينهم وبين العمل على المماثلة وكذلك الأمر فى السحر يشدههم ، حتى يعجزوا ٠

ولقد سبق أن علل المشركون عجزهم بعد التفكير والتقدير بأنه سحر يؤثر :

قال تعالت كلماته فى شأن الوليد بن المغيرة : « **ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر** » (١) ٠

هذا ما وصل اليه الوليد بن المغيرة بعد أن قدر ودبر فى ملأ من قومه ، يجىء كاتب متفلسف فيأتى بهذا القول من غير تقدير ولا تدبير ٠

٣٥ ـــ ومهما يكن من بطلان هذه الفكرة ، فقد أدت الى انشاء علوم البلاغة فى ظل القرآن ، فاتجه الكاتبون الى بيان أسرار البلاغة فى هذا الكتاب المبين ، المنزل من عند الله الحكيم ، قرآنا عربيا ، فكان هذا الباطل سببا فى خير كثير ، وكما يقول المثل السائل « رب ضارة نافعة » ، فقد تولد عن هذا الباطل دفاع حكيم ، ولدت منه علوم البلاغة العربية ، وكما تولد عن الخطأ فى تلاوة آية « علم النحو » تولدت علوم البلاغة العربية ٠ وان أكثر ما كتب الأولون فى البلاغة والفصاحة كان فى ظل القرآن ، ومحاولة لبيان اعجازه ٠

وان أول ما كتب فى اعجاز القرآن من ناحية البيان كان فى الوقت الذى جاء فيه القول بالصرفة ، بين نفى واثبات كما أشرنا ، وأول من عرف أنه تصدى للكلام فى الاعجاز فى نظم القرآن هو الجاحظ ، تلميذ النظام ، الذى أنكر عليه قوله ، وعابه فى منهاجه الفكرى من أنه يظن الظن ، ثم يجعله أصلا يجرى عليه القياس مصححا لقياسه بالمنطق ، والعيب فى أصل القول الذى

---

(١) المدثر : ١١ ــ ٢٥ ٠

بنى عليه ، لا فى الأقيسة التى أجرى بها مشابهاته ، وقد أشرنا الى ذلك مـن قبـل ٠

وقـد كتب فى ذلك كتـابه النظم ، وقد عـابه الباقلانى ، ليدفـع بذلك التسليم له بالسبق ، ولأنه معتزلى ٠ ولكن الجاحظ فى كتابات له كثيرة غير كتابه النظم ، كان يذكر مواضع من اعجاز القرآن فى آيات يتعرض للقـول فيها ، ليبين مقامها من البيان ، فهو فى كتاب الحيـوان يذكر أنه جمـع آيات من القرآن يعرف مقامها فى البيان ، فهـو يقول : « ولى كتاب جمعت فيـه آيا من القرآن ليعرف بها ما بين الايجاز والحـذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها فى الايجاز والجمع للمعانى الكثيرة ، والألفاظ القليلة ، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة « **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** » (١) وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة « **لا مقطـوعة ولا ممنـوعة** » (٢) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى ٠

وهذا الكتاب الذى أشار اليه لم يكشف فى التراث الاسلامى ، ولكنـه يدل على أن الجاحظ كان يتعرض لأسرار الاعجاز ، كلما لمح بريق الاعجاز فى آيـاته ٠

ولكن التعصب المذهبى يستهين بكلام الجاحظ فى اعجاز القرآن بـل انه يتحامل عليـه فى كتابته كلهـا فيقول فى ذلك الباقلانى الأشـعرى عـن الجاحظ أحـد شـيوخ المعتزلة : « كذلك يزعم زاعمـون أن كلام الجـاحظ من السمت الذى لا يؤخذ فيه ، والباب الذى لا يذهب عنه ، وأنت تجـد قوما يرون كلامه قريبا ، ومنهاجه معيبا ، ونطاق قوله ضيقا ، حتى يستعين بكلام غيره ، ويفزع الى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر أو مثـل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه فى أثنـاء ذلك ، فسـطور قليلة وألفاظ يسيرة ٠٠ فاذا أردت أن تحقق ذلك فانظر فى كتبـه فى نظم

---

(١) الواقعة : ١٩ ٠ (٢) الواقعة : ٣٣ ٠

القرآن وفى الرد على النصارى وفى خبر الواحد ، وغير ذلك مما يجرى هـذا المجرى » (١) ٠

ولقد جاء من بعد نظم القرآن للجاحظ الذى كان ردا عمليا على كلام النظام الذى ادخله من الهند ، وهو مذهب الصرفة جاء بعده أول كلام واجه الصرفة فى اعجاز القرآن ، وهو كتاب اعجاز القرآن لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦ هجرية اى بعد موت الجاحظ بنحو ستين سنة ، وهو صورة المجاوبة التى كانت دفعا لمذهب الصرفة الذى بلبل الأفكار ، وكان بين ممانعة من الاكثرين ، ومجاوبة من القلة ، حتى صارت نادرة ، وحتى طواه التاريخ وهو فى هذا قد طرق باب البلاغة طرقا قويا ، واصل الأصول المشتقة من كلام العرب ونظمها وطبقها على القرآن ، وثبت من التطبيق انه اعلاها ٠

وهذا الكتاب يعد اصلا بنى عليه ، فقد شرحه عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ شرحا مطولا ، واودع ذلك الشرح كتابا سماه المعتضد ، وله شرح آخر اصغر منه ٠

وهكذا كل كاتب يقيم بناء يكمله من يجىء بعده ، فالواسطى اكمل البناء الذى وضعه الجاحظ ، او بنى عليه ، وترك لغيره أن يكمل البناء ٠

وجاء عبد القاهر الجرجانى فبنى على ما وضع الواسطى ، وكان كتابه دلائل الاعجاز قد أوفى على ما وضع الجاحظ والواسطى ٠

وفى الزمن الذى سار فيه الجاحظ والواسطى من بعده ، والجرجانى من بعدهما ، وانتهى الى تلك الثروة المثرية فى باب الاعجاز البلاغى للقرآن ، كانت هناك محاولة اخرى ، فى طريق مواز لذلك الطريق ٠

فقد وضع أبو عيسى الرمانى المتوفى فى سنة ٣٨٢ هـ كتابه فى الاعجاز ، فوضع بناء ثالثا ، غير بناء الجاحظ والواسطى ثم جاء الباقلانى المتوفى

---

(١) اعجاز القرآن ص ٣٧٧ ٠

سنة ٤٠٣ هـ فوضع كتابه اعجاز القرآن ، ويلاحظ أن تاريخه سابق على دلائل الاعجاز ، وأحسب أن من الحق علينا أن نقول أن دلائل الاعجاز ، لم يبن على الواسطى فقط ، بل انه أخذ من كل الينابيع التى سبقته وان القارىء له يجد فيه كل مزايا من سبقه ، وفيه زيادة جديرة بالأخذ ، بل أساس لعلوم البلاغة كلها مستقاة من القرآن ، وموضحة لأوجه البلاغة فيه أولا ، وعلوه على كل كلام ثانيا ، ثم فيه وضع مقاييس ضابطة لكل كلام بليغ ثالثا ٠

فكتاب الباقلانى ، قد تعرض للاعجاز بالمواجهة ابتداء ، ولم يسبق علم البلاغة ، ابتداء ، ثم يتعرض للاعجاز انتهاء ولكنه جعل الأصل فى الكلام الاعجاز ، ثم البلاغة تابعة له تبعية الدليل للمدلول ، والبرهان للدعوى ، والمقدمة للنتيجة ٠

ويلاحظ على هذا الكتاب أنه لم يشر الى ما سبقه الا الجاحظ ، فقد أشار اليه اشارة لا تكريم فيها ، ولكن فيها استهجان واستصغار لما كتبه ، ولم يشر أى اشارة الى ما كتبه الواسطى ، وما كتبه الرمانى ، وقد سبقاه وكان ثانيهما على مقربة من زمانه ، مع أنه أخذ من الرمانى قطعا ولم يذكر اسمه ٠

ومهما يكن الأمر بالنسبة لمن سبقوه فى القول ، واهمال ذكرهم فهو الكتاب الذى اختص بأن يكون فى الاعجاز ابتداء ، كما أشرنا ، وقد وفى فيه بأمهات المسائل ٠

ويقول فيه الرافعى المتوفى سنة ١٩٣٧ م فى كتابه اعجاز القرآن « على أن كتاب الباقلانى ، وان كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هذبه وصفاه ، وتصنع له ، الا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ، ولم يتحاش وجها من التأفف لم يرضه من سواه ، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجاحظ ، لم يكشف عما يلتبس فى اكثر من هذا ٠٠٠ وقد حشر اليه

أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر ، ذهبت باكثره ، وغمـــرت جمـــلته ، وعدها فى محاسنه ، وهى من عيـــوبه ثم يقول : « وكان الباقلانى ، رحمه الله واثابه ، واسع الحيـلة فى العبارة مبسـوط اللســان الى مدى بعيد : يـذهب فى ذلك مذهب الجـاحظ . ومهـذب مقـلده . عـلى بعـد وتمـكن : وحسـن تصرف ، فجاء كتـابه ؛ وكأنه فى غير ما وضع له لما فيـه من الاغـراق فى الحشد ، والمبالغة فى الاستعانة : والاستراحة الى النقل » ٠

والرافعى بهذا ينقد الباقلانى ، ويصفه بمثل ما وصف هو به الجـاحظ ٠

ومن حق العلم على العالم الا يتنقص غيره ؛ وأن يعـرف اللاحـق ؛ انه متمم لما بدأ السابق ؛ غير ناكر لفضل ، ولا باخس لحظ ٠

وهكذا فى عصر الباقلانى ومن بعده ؛ حتى كان اخرها تاليفـا من حيث القيمة العـلمية ، والدرجة البيانية كتـاب اعجاز القرآن للرافعى رحمه الله تعـالى ؛ وأثابه ، وجزاه عن الاسلام خيرا ٠

وجوه الاعجـــاز

٣٧ ـــ نقصد بوجوه الاعجاز الأمور التى اشتمل عليهـا القـرآن ، وهى تدل على انه من عند الله ، وما كان فى استطاعة احد ان ياتى ، بمثله ، وما كان فى استطاعة الجـن والانس أن ياتوا بمثله ، ولنتجـه الى اقـوال العلماء فى هذه الوجوه ؛ ثم نتجـه بعد ذلك الى بيـان ما نقصد الى بيـانه من بحثنا هذا الذى نضرع الى الله ان يمن علينا بالتوفيق فيه كما من علينا من قبل ، فنحن نعيش فيما نكتب ونبحث تحت فيض الله تعالى وتوفيقه ، ولولا توفيقـه سبحانه وتعالى ما وصلنا الى شىء ٠

يعد صاحب الشفاء أوجه الاعجاز فى القرآن فيحصرها فى اربعة :

أولها ـ حسن تاليفه ؛ والتئام كلمه وفصاحته وبلاغتـه الخارقة لـما عند العرب ٠٠

وثانيها ـ صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأسـاليب

كلام العرب ، ومناهج نظمهـا ونثرها الذى جـاء عليه ، ووقفته عند مقـاطع آية ، وانتهت فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة منه ٠

وثالثها ــ ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقـع فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر كقوله تعـالى : « **لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين** » (١) ، وكقوله : « **غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين** » (٢) ٠ الى آخر ذلك من الأمور المغيبة التى أخبر القرآن عنها قبل وقوعها ، فوقعت كما أخبر ٠

ورابعها ــ ما أخبر بـه من أخبـار القـرون والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة الا الفذ من أحبار أهـل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك فيورده النبى صلى الله عليه وسلم على وجهـه ويأتى به على نصه ، فيعترف العالم بذلك بصحته وصـدقه ، وأن مثله عليـه السلام لم ينله بتعليم ، وقد علموا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمى لا يقـرأ ولا اشتغل بمدارسة ٠

هذا ما ذكره القاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ فى وجوه الاعجاز ، ونجد الأمرين الأولين يتعلقان بالناحية البيـانية فى القرآن وان كان أولهمـا يتعـلق بتأليف كلمـاته ، وتناسـقها مع فصاحتها وسـلامتها وخـلوها مـن الحواشى ، والثانى بصورة النظم ومع تخالف حقيقتهما نجـد كلا منهما ينتهى الى الناحية البيانية ٠

أما الأمران الآخران ٠ فانهما يتعلقان بصدق الأخبـار التى اشـتمل عليها القرآن الكريم ، بيد أن الأول يتعلق بالاخبار عن الغيب فى المسـتقبل الذى لا يعلمه الا الله تعالى ، والثانى يتعلق بالاخبار عن الماضى ٠

٣٨ ــ وذكر القرطبى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ فى تفسيره أن أوجـه اعجاز القرآن عشرة ٠

---

(١) الفتح : ٢٧ ٠ (٢) الروم : ٢ ــ ٣ ٠

١ ـ منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وغيرهم لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء ، ولذلك قال رب العزة : « **وما علمناه الشعر . وما ينبغى له** » (١) .

٢ ـ ومنها الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

٣ ـ ومنها الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال من الأحوال . وتأمل ذلك فى سورة « **ق والقرآن المجيد** » .. الى آخرها (٢) .

وقوله تعالى : « **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة** » (٣) الى آخر السورة وقد ضرب على ذلك الأمثلة الكثيرة .

وهذه الأمور الثلاثة كما نقل القرطبى عن ابن الحصار من النظم والجزالة لازمة فى كل سورة بعيدة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدى والتعجيز .

٤ ـ ومنها التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ، حتى يقع منها الاتفاق من جميعهم على اصابته فى وضع كل كلمة وكل حرف فى موضعه (باعتبار أن القرآن الكريم فيه الكلمات من لهجات العرب ، أو لغاتهم) .

٥ ـ ومنها الاخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله على أمى ، ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذى القرنين فجاءهم وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب وليس له بذلك علم بما عرفوا من الكتب السالفة صحته قال القاضى ابن الطيب (٤) ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه الا عن

---

(١) يس : ٦٩ .
(٢) ق : ١ ـ ٤٥ .
(٣) الزمر : ٦٧ .
(٤) المتوفى سنة ٤٣٥ هـ .

العلم واذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ، ولا مترددا الى المتعلم منهم ، وما كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه ـ علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحى ٠

٦ ـ ومنها الوفاء بالوعد المدرك بالحس فى العيان ، فى كل ما وعد الله سبحانه ، وينقسم : الى أخباره المطلقة كوعد الله بنصر رسوله عليه السلام ، واخراج الذين أخرجوا ٠ والقسم الثانى وعد مقيد بشرط ٠ كقوله تعالى « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** » (١) ٠

٧ ـ ومنها الاخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها الا بالوحى ، فمن ذلك ما وعد الله به نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على كل الأديان ، بقوله تعالى : « **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** » (٢) ففعل ذلك ٠

٨ ـ ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام الأنام فى الحلال والحرام وسائر الأحكام ٠

٩ ـ ومنها الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى ٠

١٠ ـ ومنها التناسب فى جميع ما تضمنته ظاهرا وباطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » (٣) ٠ بعد أن ذكر القرطبى هذه العشرة قال :

« قلت فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله تعالى عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القدرية ان وجه الاعجاز هو المنع من معارضته والصرفة عند التحدى بمثله ، وأن المنع والصرفة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، ذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا

---

(١) الطلاق : ٣ ٠
(٢) التوبة : ٣٣ ٠
(٣) النساء : ٨٢ ٠

بسورة من مثله ، وهذا فاسد ، لأن الاجماع قبل حدوث المخالف أن القـران هو المعجز ، فلو قلنا ان المنع والصرفة هو المعجـز لخرج القرآن عـن أن يكون معجزا وذلك خلاف الاجماع ، واذا كان كذلك عـلم أن نفس القـرآن هو المعجز ، وأن فصـاحته وبلاغته أمر خارق للعـادة اذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه ، فلما لم يكن كذلك مألوفا معتـادا منهم دل عـلى أن المنـع والصرفة لم يكن معجزا ٠

٣٨ ـــ ومن هذا نرى أن القرطبى قد أتى بوجوه كثيرة عـدها مـن اعجاز القرآن ، وقد ذكر عشرة ، وانه لكى يكون استقراؤه كاملا لا نقص فيه أتى بالصرفة ، وعدها وجها من الوجـوه عند بعضهم ، وقد رددناها كمـا ردها هو ، وانتهى الى أن اعجاز القرآن ذاتى ، وليس من أمـر خـارج ٠ وأقمنا كما أقام الدليل عـلى ذلك ، مما لا يجعـل موضعا لهذا القول ، وبينـا مصدرها الهندى ، وأنها فكرة دخيلة على المسلمين ، والحقائق تخـالفها ، والوقائع تجافيها ٠

ولكن يجب أن يلاحظ فيمـا أحصـاه القرطبى ، والقـاضى عيـاض أمران :

١ ــ أولهما ــ أن الأقسام التى ذكـراها يتداخـل بعضـها فى بعض ، أو انهما جعلا ما يتعلق بالنظم جزءا منه خاصا بفصاحة القول وجـزءا يتعلق بالنظم وجزءا يتعلق بالأسلوب ، وجزءا يتعلق بالجزالة ، وجـزءا يتعـلق بالتصرف فى القول وكل ذلك يتعلق بالمنهج البيانى القرآنى ، وهذه الكلمـة تجمع تلك الأقسام كلها ، فلا تخرج من عمومها خارجة ٠

والأمر الثانى ــ أن بعض هذه الوجوه تحدى بها القرآن الكريم ، فقـد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله ولو عشر سور مفتريات والوجوه الأخـرى لم يتحد بها القرآن الكريم ، وان كانت من عند الله تعالى العـليم الحـكيم ، مثل اخباره عن أمور مغيبة فى المستقبل ، ثم وقوعها ، كما أخبر الله سـبحانه وتعالى فى كتابه ٠

واخباره عن الأمم السابقة ، واخباره عن شأن عبد الله الصـالح مـع

موسى نبى الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ومثل قصة أهل الكهف ، وذى القرنين ، فذكر هذا فى القرآن الذى نزل على أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس الى معلم ، دليل على أنه من عند الله سبحانه وتعالى ٠

ومن هذه الأحكام الشرعية التى اشتمل عليها القرآن ، فانها لا يمكن أن تكون من عند محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بل هى من عند الله ٠

وقد كتبنا فى هذه عدة بحوث فى احدى المجلات (١) الاسلامية ، بعنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله) جمعتها احدى الهيئات الاسلامية فى رسالة ، ونشرتها ، وترجمتها الى الفرنسية والانجليزية ، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتى بها أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ فى بلد أمى ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة ، وهى فى احكامها ، لا يمكن أن تكون الا من عند الله تعالى ٠

وكتبنا بحثا وازنا فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان فى الملكية بالخلافة ، وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون فى نحو ثلاثة عشر قرنا ، ومع ذلك هو فى الملكية بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن الا اذا وازنا بين عصا هشة وسيف بتار ، فلا يمكن أن يأتى به محمد من عنده ، بل هو من عند الله تعالى ٠

والأوروبيون القانونيون يرون فى قانون الميراث فى القرآن أن العقل البشرى لم يصل الى الآن الى خير منه ، ونحن لهذا نقرر أن ما ذكره القرطبى غير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلا هو من عند الله سبحانه وتعالى العليم الخبير ٠

ولكن نرى أن الله تعالى تحدى العرب أن يأتوا بمثله ولو مفترى ، فكان التحدى للعرب ابتداء بالمنهج البيانى للقرآن ، وهو الذى استرعى ألبابهم ٠ ولعله لم تكن بلغت مداركهم العقلية والقانونية أن يعرفوا مدى ما فى أحكام القرآن من تنظيم سليم للمجتمع ، فيه المصلحة الانسانية العالية التى تعلو على تفكير البشر ، وان كان فيهم ذوق بيانى يذوقون به الألفاظ الفخمة

---

(١) مجلة « المسلمون » ومجلس الشئون الاسلامية هو الذى جمع البحوث؛ وترجمها الى الانجليزية والفرنسية ٠

القوية فى رنينها ، المصورة للمعانى فى أحوالها الصوتية وتكوين حروفها ، ومرامى عباراتها ، ويدركون فى ذلك المعنى السليم من غير اجهاد فيدركون ما هو جيد المعنى فى ذاته من غير أن يتعرفوا فلسفة قانونية أو عقلية أو كونية . وفى القرآن ما يرضيهم ويملأ نفوسهم ، ويعجزون عن أن يأتوا بمثله ٠

وان القرآن فيه الشريعة الباقية الخالدة ، وهو يخاطب الأجيال كلها ، والأجناس كلها العرب والعجم ، والبيض والسود والأحمر والأصفر ، فليس ما فيه من الاعجاز خاصا بالعرب ، وانما اعجازه يعم الجنس البشرى كله لأنه يخاطب الجميع ، ويطالب الناس قاطبة بأحكامه ٠ وفيه البينات المثبتة لكل جنس ٠

وعلى ذلك نقسم وجوه الاعجاز التى اشتمل عليها القرآن الى قسمين :

أولهما : ما يتعلق بالمنهاج البيانى ؛ وهذا النوع من الاعجاز أول من يخاطب به العرب ، لما ذكرنا فى صدر كلامنا من أنه جاء بلغتهم ، ولأنهم كانوا بمقتضى بداوتهم مع استقامة تفكيرهم ، ومع وجود نبوات سابقة فيهم أبقت بعض العلم ، وبمقتضى ثقافتهم اللسانية وعنايتهم بلغتهم كانوا أكثر الناس ادراكا لمعنى الاعجاز فى القرآن من ناحية بيانه ، ونغمه ، وجزالته ، وكذلك كان الأمر منهم ، وكانوا هم المخاطبين أولا به ، وبعجزهم قام البرهان الأول ٠

القسم الثانى : الاعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين ، ولأخبار مستقبلة ، وقعت كما ذكر ، واشتماله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة فى عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أتى بها القرآن ، وتقررت حقائقها من بعد . وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع اثبت الوجود الانسانى أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة ، وان هذا النوع معجزة للأجيال كلها ، وهو يحتاج فى بيانه الى مجلدات ضخام ، ولذلك نتجه ابتداء الى القسم الخاص بالبلاغة ، وهو الأول ٠

الاعجـــاز البلاغى

٣٩ ـــ أخذنا أولاً من أسباب الاعجاز ذلك السبب ، لأنه الواضـــح بالنسبة للعرب ، ولأنه هو الذى شده به العرب عند أول نزوله فحيرهم ، وهم المدركون لأســاليبه ، العــارفون لمنــاهجه ، الذين يذوقون القول بأسماعهم ، ويدركونه بعقــولهم ، ويعرفون مواضــع الكمــال ، ومواضع النقص فى كل مـا يسمعون من شعر ، حتى انهم يتجهون الى مواضع الحسن ، والمآخذ التى تؤخذ بلقانة فطروا عليها ، ولباقة عرفوا بها .

ولنسق لك مثلا من نقدهم ، فلقد عرض بيتــان فى سوق عكاظ عــلى الخنساء لحسان بن ثابت رضى الله عنهما ، فلمحت بقوة الملاحظة النــاقدة ما فيهما من عيــوب تخفى الا على من يذوق الكلام ذوقــا ، ويدرك معــانيه وألفاظه بأرب وفكر مستقيم :

قال حسان رضى الله عنه :

لنا الجفنــات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دمــا
ولدنا بنى العنقـــــاء وابنى محرق   فأكرم بنا خالا ، وأكرم بنا ابنا

فقالت الخنساء ضعفت افتخارك ، وأنزرته فى ثمــانية مواضع ، قالت : قلت لنا الجفنات ، والجفنات ما دون العشر ولو قلت الجفــان لكان أكثر ، وقلت : الغر ، والغــرة البيــاض فى الجبهــة ، ولو قلت البيض ، لكان أكثر اتساعا . وقلت يلمعن ، واللمعان شىء يأتى بعــد الشىء ، ولو قلت : يشرقن لكان أكثر ، لأن الاشراق أدوم من اللمعــان ، وقلت بالضــحى ، ولــو قلت بالدجى ، لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف أكثر طروقا بالليــل ، وقــلت اســيافنا ، والأســياف دون العشرة ، ولــو قلت ســيوفنا لكان أكثر ، وقلت يقطرن ، فدللت على قلة القتــل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصــباب الدم ، وقلت دما ، والدماء أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت . ولم تفتخــر بمــن ولدوك اهـ (١) .

---

(١) هامش اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٥٥ .

سقنا ذلك الخبر ، وهو صورة لما كان عليه الذوق البيانى . وان كان هنالك شك فى روايته ، فانه يدل على أن روح النقد بالذوق المرهف كان مشهورا بين العرب وكثيرا ٠

وأذكر أن نقاد العرب كانوا يستنكرون بيت امرىء القيس الذى يقول فيه فى معلقته :

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

فقد قالوا ان البيت لا يصدر من عاشق برح به الحب ، واحس بلطف العشق ، وقالوا ان الغانية اذا لم تغتر بالحب ففيم تغتر ، كانه يقول لها ان كنت مغرورة بحبى فانى تاركك ، وهكذا ، وما ذلك شان المحب اللهج ٠

٤٠ ـــ هؤلاء الذواقون للبيان الذين مرنت أسماعهم ، والسنتهم على القول البليغ وادراك مراميه يستوى فى ذلك أهل المدر ، وأهل الوبر ، فأهل الوبر استفرغوا ذكاءهم فى تعرف الكلام البليغ ، والترنم بالشعر رجزه وقصيده ولم يكن عندهم ما يزجون فيه وقتهم الا سماع الكلام الطيب ، وترديده، وروايته ونقله ، يرطبون به السنتهم فى حلهم وترحالهم ، وانتجاعهم الى مواطن الكلأ ، وينابيع المياه ، قد صفت نفوسهم صفاء السماء التى تظلهم مع قوة الشكيمة التى اكتسبوها من وعورة الصحراء ولأوائها ، وقسوة الحياة وغلظتها ، ومع الرضا والقناعة التى اتسمت بها النفس العربية ٠

وأهل المدر وهم سكان القرى كأهل مكة والطائف ويثرب . وقد كانوا قوما تجرا ، من غير أن يخلوا من الشكيمة العربية ، وقد كانت القبائل تجىء اليهم ، أو يلتقون بهم فى مواسم الحج وأسواقه التى كانت تعقد لتبادل السلع ، وتبادل الفكر ، والكلم المحكم ، ويكون التبارى بين الشعراء والخطباء وكانت مكة ، وما حولها تشبه بعض الحدائق العامة فى البلاد الأوربية تلقى فيها الخطب ، ويتبارى فيها المتكلمون وحسبك أن تعلم أن قس بن ساعدة الايادى ألقى خطبته التى ذكر فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عكاظ فى موسم الحج ٠

هؤلاء الذين كانت الكلمة البليغة تقع من نفوسهم موقع الموسيقى فتطربهم ، والقصيدة الطويلة فتهزهم ، وكان حداؤهم لابلهم رجزا ، وتدليلهم لأبنائهم أنماطا من البيان ، هؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن فرأوا فيه نوعا من البيان لم يعرفوه من قبل ، فانجذبوا اليه ، وأقروا بتأثيره ، ولم يستطيعوا أن يماروا فيه ، بل خروا صاغرين أمام بلاغته ، معترفين بأنه يسمو على قدرهم ، ويعلو على طاقاتهم ، كفروا بما يدعو اليه ، ولم ينكروا تأثيره ، لاحوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعوته الى التوحيد ، وتماروا فيه ، مع بداهته ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن ، ولما دبروا وقدروا فى أمره ، قالوا انه سحر يؤثر وذلك يتضمن الاقرار باستيلائه على نفوسهم وعلوه على كلامهم ، وان كان من نوعه ، وسمو معانيه ، وان كانت حروفه فى صياغة من حروفهم ، وكلماتهم ٠

وجوه الاعجاز البلاغى

٤١ — ان كل شىء فى القرآن معجز من حيث قوة الموسيقى فى حروفه ، وتآخيها فى كلماته ، وتلاقى الكلمات فى عباراته ونظمه المحكم فى رنينه ، وما وصل اليه من تأليف بين الكلمات ، وكون كل كلمة لفقا مع أختها ، وكأنما نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته ، وتوحد غايته ، ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه ، وكأن المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ وكأن الألفاظ قطعت لها ، وسويت على حجمها ٠

ثم هو الذى يدركه كل ذى قوة فكرية بمقدار ادراكه والمعنى صحيح فى كل ادراك صحيح ، وفى كل ذى طاقة سليم ، بلا تخالف ، يسمعه المؤمن فيقر به ، ويؤمن بما جاء فيه ، ويسمعه المخالف ، فيدرك الحق من ثنايا كلماته ومعانيه ان أخلص فى جانب الحق ، وان لم يؤمن فانه يدرك ما فى القرآن من خواص لا يصل اليها كلام كائنا من كان قائله ٠

جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض : « حكى أن عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه كان يوما نائما فى المسجد فاذا هو برجل قائم على رأسه

يتشهد شهادة الحق ، فاستخبره ، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها ، فاذا قد جمع فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهى ، « **ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه** » الآية (١)

وحكى الأصمعى انه سمع كلام جارية ، فقال لها قاتلك الله ما افصحك ! فقالت أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : « **وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين** » (٢) ، فجمع فى آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين • فهذا نوع من اعجازه منفرد بذاته غير مضاف الى غيره على التحقيق » (٣) •

وهكذا نرى كل اعجاز القرآن من نواح شتى ، ربما تعز على الاستقراء ، ففى موسيقاه لا يسع سامعه الا أن يصغى بقلبه ، وقد رأيت كيف كان العرب يتفقون على الا يسمعوا لهذا القرآن ويلغوا فيه ثم يذهب اليه المتفقون فرادى ، فيلتقون جماعة •

ولقد كان لموسيقى القرآن ونظمه روعة عند كل سامع ، حتى من لا يفهم العربية ، فان لكلماته ونظمه ، ومده وغنه ، ونهاية فواصله ، ووقفه ـ ما يسترعى من لا يفهم العربية ، واذا كان لا يفهم معنى الكلمات ، فان النغم يعطيه صورا رائعة •

وان كل كلمة من كلماته تعطى صورة بيانية ، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة بيانية رائعة تصور المعانى كالصورة الكاملة فى تصويرها ، التى تتكون أجزاؤها من صور ، وتتجمع من الصور صورة متناسقة •

وانه لأجل هذا يصعب على الكاتب أن يأتى بكل وجوه الاعجاز البيانى ولكنه يقارب ولا يباعد •

---

(١) النور : ٥٢ •
(٢) القصص : ٧ •
(٣) الشفاء للقاضى عياض جـ ١ ص ١٦٩ •

ولنذكر ستة وجوه نتكلم فيها عسانا نصل الى تقريب معانى الاعجان من غير حد ولا استقراء كامل وهى :

١ ـ الألفاظ والحروف ·

٢ ـ الأسلوب ، وما يكون من صور بيانية ·

٣ ـ التصريف فى القول والمعانى ·

٤ ـ النظم وفواصل الكلم ·

٥ ـ الايجاز المعجز والحكم والأمثال والاخبار عن الغيب ·

٦ ـ جدل القرآن ·

١ ـ ألفاظ القرآن وحروفه

٤٢ ـ قبل أن نخوض فيما اختصت به ألفاظ القرآن من جمال ودقة واحكام ، وما اشتملت كل كلمة مع أخواتها وجاراتها من صور بيانية لكل واحدة منفردة ، ثم ما اشتملت عليه مجتمعة من معنى ذلك ، نذكر أن العلماء اختلفوا قديما وامتد خلافهم الى المتأخرين تكلموا واختلفوا فى أساس الفصاحة أو البلاغة ، وهما غير مختلفين فى الماصدق ، وان اختلفوا فى التعريف اللفظى لحقيقة الفصاحة وحقيقة البلاغة ·

قال بعض علماء البيان وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ · ان اللفظ والحروف ليس لهما أثر فى كون الكلام بليغا أو غير بليغ ، انما الأثر فى مجموع ما يدل عليه النظم ، وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده ، انما تساوق المعانى وتلاقى الألفاظ وتآخيها فى تكوين هذا المعنى المؤثر ، فيقول رضى الله عنه فى كتابه دلائل الاعجاز ما نصه :

« ينبغى أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها فى التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التى بها يكون الكلم اخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا ، وتؤدى فى الجملة معنى من المعانى التى لا سبيل الى افادتها الا بضم كلمة الى

كلمة ، وبناء لفظة على لفظة . هل يتصور ان يكون بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة ، حتى تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبتها علـى ما هى مرسومة به ثم يقول رضى الله عنه :

« هل يقع فى وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظـر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم باكثر من أن تكون هذه مالوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ، أو أن تـكون حـروف هذه أخف ، وامتزاجهـا أحسن وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة ، الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسـن ملاءمة معنـاها لمعانى جاراتها وفضـل مؤانسـتها لأخواتهـا ، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفى خلافها قلقـة ونابية ومستكرهة الا وغرضـهم أن يعبروا بالتمـكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهـة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلتق بالثانية فى معناها ، وأن الثانية لم تصلح أن تكون لفقا للتـالية فى مؤداها • وهـل تشك اذا فكرت فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء اقلعى ، وغيض المـاء ، وقضى الأمـر واستوت عـلى الجودى ، وقيـل بعـدا للقـوم الظالمين (١) » فتجلى لك منها الاعجاز ، وبهرك الذى تـرى وتسمع ، انك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضـيلة القاهرة الا لأمـر يرجـع الى ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض ، وانه لم يعرض لها الشرف الا مـن حيث لاقت الأولى الثانية ، والثالثة الرابعة ، وهكذا الى أن تستقر بها الى آخرها ، وأن الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها • ان شككت فتأمل : هـل تـرى لفظـة بحيث لو أخـذت من بين أخواتهـا وأفردت أدت من الفصـاحة ما تؤديه ، وهى فى مكانها من الآية ، « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر الى ما قبلها ، والى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ••• ومعلوم أن مبدأ العظمة فى الآية فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت • ثم كان النداء بيـا دون أى •• ثم اضافة الماء الى الكاف دون أن يقال ابلعى الماء ••• الى آخر ما قال •

---

(١) هود : ٤٤ •

ويستدل على أن الكلمة ليس لها فصاحة ولا بلاغة فى ذاتها أن الكلمة تروق فى موضع ولا تروق فى آخر فى كلام الناس ، فلو كانت الكلمة اذا حسنت كان حسنها من ذاتها ، لاستحسنت دائما ، وما استهجنت ابدا ٠

وينتهى من هذا الى أن جمال الكلام ليس فى توالى ألفاظه فى النطق ، بل ان تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل ٠

ويسترسل الجرجانى فى اثبات أن الكلمات ليست لها فصاحة ذاتية ، انما بلاغتها فى اجتماعها مع غيرها فى تلاقى المعانى ، وأنه ليس للألفاظ ولا للحروف حسن ذاتى منفرد ، ولا قبح ذاتى منفرد ، انما حسنها فى تلاقيها مع أخواتها فى الدلالة وتساوق المعانى وما تنتجه من صور بيانية ، ومراتب أهل البيان فى مقدار قدرتهم على اختيار الألفاظ المتآخية فى معانيها ، ويفهم من كلامه أن النظم لا يلتفت اليه وحده انما يلتفت الى معانيه أيضا وأنه يريد من النظم الكلمات لا ذات الكلام كله برناته القوية ، أو الهادئة التى تنساب فى النفس ، وتتغلغل فيها حتى تصل الى أعماقها ٠

٤٣ — هذا رأى الجرجانى ، وله مقامه ، يقصر البلاغة والفصاحة ، على الأسلوب ومجموع العبارات التى تتضافر فى الدلالة على معان متآخية ، وتتآخى الألفاظ فى الدلالة على هذه المعانى ٠

وهناك فريق آخر ، ومن هؤلاء الجاحظ يرون للحروف ، وللكلمات فصاحة ، عندما تتلاءم حروفها ولا تتجافى مخارجها ولا يكون فيها تكرار فلا فصاحة فى مثل ما رواه الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

فان تكرار الحروف جعلها غير متلائمة ، وغير سهلة فى النطق ٠

وقد عقد ابن الأثير فى كتابه المثل السائر فصلا فيما ذكر فيه فصاحة الكلمات ، وقبحها فى رنينها وفى تآخى حروفها وقال ان من الكلمات ماله نغمة أوتار ، ومنها ماله صوت حمار ، وضرب على ذلك الأمثال ، فقال ان كلمة السيف لها مرادف ، وهو الخنشليل ، فهل هما متماثلتان فى الفصاحة

والنغمة الصوتية ، ومثل كلمة غصن ، وكلمة عسلوج بمعنى الغصن ، فهل هما متماثلتان فى النغمة وسهولة النطق ٠

ويبدو من كتاب اعجاز القرآن للباقلانى انه يرى ان للكلمات ذاتها فصاحة خاصة ، وأن تخيرها يدل على قدرة قائلها ، وعلو بيانه ، فاذا كانت المعانى البلاغية لجملة القول ، ففى اختيار الألفاظ المتناسبة فى موسيقاها ، وفى نغمتها وفى رنتها قوية أو هادئة على حسب المقام ، فللفظ دخل فى الاختيار ويقول فى ذلك الباقلانى :

« قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فاذا برع اللفظ فى المعنى البارع كان الطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر ، والأمر المتقرر المتصور ثم انضاف الى ذلك المتصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه بأن التفاضل فى البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الألفاظ وفق المعانى والمعانى وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر » ٠
ثم يقول :

« وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن يتمثل فى تضاعيف كلام كثير ، وهى غرة جبينه ، وواسطة عقده ، والمنادى على نفسه بتميزه ، وتخصصه ، برونقه وجماله ، واعتراضه فى حسنه ومائه » (١) ٠

ومن هذا النقل يتبين أن الباقلانى يرى أن ألفاظ القرآن غرة فى كل كلام ، وأن لها رونقا ، وان لها دخلا فى اعجازه ، وأن صورة الكلمة ومخارج حروفها لها روعة ذاتية ، لأن ذلك من عند العزيز الحكيم ٠

وان المتأخرين ممن كتبوا فى اعجاز القرآن رأوا أن فى الكلمة فى القرآن بلاغة خاصة بأدائها ، بمدها وغنها ، وبأصواتها الموسيقية ، وبنغماتها الحلوة ، فلا يمكن أن يكون التآخى بينها وبين أخواتها فى المعانى فقط ، بل

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٤ ٠

ان التآخى ، كما هو ثابت فى المعـانى ثابت فى الموسيقى ، واذا كان الله تعالى قد اختـار للقـرآن ترتيلا يبدو فيه نغمه ومـده ، ورنين ألفـاظه ، فلابد أن تـكون ألفـاظه قد اختيرت لمزية فى كل كلمة لا فى مجمـوعها فقط ، ومـن أنصار الرأى الذى نظر الى فصاحة الكلمة الرافعى رحمه الله تعالى ، ورضى عنه ، فى كتابه اعجاز القرآن ، فقد قال :

« لما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جمـله الحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى ان من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته الى ما حسبه نظمـا موسيقيا أو بابا منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبهـا ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى ، كأنه فطن الى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، انما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب ، الا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع ، وهو بهذا لا يرى رأى الجرجانى فى أن الكلمات ليس لهـا مزايا خاصة ، والله أعلم ٠

٤٤ ـــ هذان رأيان يبدو أنهما متعارضان فى كون فصاحة الكلمـة جزءا من البلاغة أو الفصاحة ، وان لم يكن بينهما فرق ، فالأول لا ينظر الى الجزء وهو الكلمة ، بل لا ينظر الا الى المجمـوع المؤتلف ، والآخـر ينظـر الى الأجزاء والى المجموع معا ، بل لا يرى المجموع يكون بليغا الا اذا انتهى الى ألحان مؤتلفة ، من حروف فى كلمات ، متآلفة ، وكلمـات فى أسـلوب مؤتلف فى نغماته وترتيله ، وتناسق بيانه ٠

ولا شك ان الكلمة وحدها من غير أن تكون فى مجموعة ، ليس لهـا بلاغة ولا مؤدى ، فكلمة شجر من غير أن تكون فى كلام ليس لهـا مؤدى الا ان تـكون فى جمـلة مفيدة ، تـؤدى معنى ، وتكون بحروفها وقوتهـا أو لينهـا متآخيـة مع اخواتها من الكلام ، ولكن لابد للكلمـة مـع الكلمـات الأخرى من أن تكون متلاقية فى لحن القول والمراد منـه ، وتحقيقـه ، فهى

وحـدها لا تؤدى منفردة ، ولكن بضـمها الى أخـرى يكون المعنى القوى ، ويـكون النغم الجميـل ويـكون الترتيـل الـذى يملأ النفـوس ، وتطمئن به ، وتقشعر منه الأبدان ان أنذر ، وتهـدأ ان بشر ، وتتفكر العقـول ان دعا الى التأمل ٠

ومن انصار هذا المذهب الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، فهـو يقـول فى رسالته :

« واعلم أن القرآن انما صار معجزا ، لأنه جـاء بافصح الألفاظ فى احسن نظوم التأليف ، متضمنا أصح المعانى من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء الى طاعته ، وبيان بمنهاج عبـادته من تحليـل وتحريم ، وحظر واباحة ، ومن وعظ وتقـويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منـكر ، وارشاد الى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شيء ، ومنها فى موضعه الذى لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل اليـق منه » (١) ٠

وفى الحقيقة ـ أن الخطابى ينظر الى الأسلوب على اساس أن الألفـاظ قوامه ، وهى دعامة بنيانه ، حتى ان القرآن الكريم لو حاولت أن تنزع كلمـة من جملة لتضع غيرها المرادفة لها ، لاختل البناء ، واضطرب ، وهو يقـول فى ذلك « اعـلم أن عمـود هذه البـلاغة التى تجمـع لها هذه الصـفات هو وضع كل نـوع من الألفـاظ التى تشـتمل عليها فصول الكلام موضـعه الأخص الأشكل به الذى اذا أبدل مكانه غيره جـاء منـه اما تبـدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، واما ذهاب الرونق الـذى يكون معـه سـقوط البـلاغة ، ذلك أن فى الكلام الفـاظا متقاربة فى المعـانى ٠ ويحسب اكثر الناس انها متساوية فى افادة بيان مراد الخطاب » ٠

وبهذا انتهى الى أن الألفاظ فى الكلام البليـغ لهـا مقصـد خاص مـن

---

(١) رسالة الخطابى ص ٩ فى ضمن رسائل ثلاث فى اعجاز القـرآن والخطابى توفى سنة ٣٨٨ هـ ٠

المتكلم ، اما لنغمتها واما لمعناها او هما معا ٠ ولا يكون مرادفهـا صالحا ٠ لأن يحل محلها ٠

٥ ٤ ـــ وكون كل كلمة لها لحن قـائم بذاته لا نحسب أن الجرجانى ينكره ٠ ولكن مذهبه البلاغى باعتباره من علمـاء البيان يجعـله يتجـه الى العبارة المتآلفة ٠ والأسلوب الذى تتلاقى معانيه ٠ ولا يتجـه ابتـداء الى الألفاظ ٠ ولعله أيضا يقبل أن تـكون الألفاظ متآخية النغم مؤتلفـة الألحان متلاقية فى الترتيل ٠ وهو يقـرره على أنـه فرض مقبول فيقـول رضى الله عنه فى تلاؤم الحروف فى الكلمات :

« ان أخذنا بأن يكون تلاؤم الحروف فى الكلمات وجها من وجوه البلاغة وداخلا فى عداد ما يفاضل به بين كـلام وكـلام على الجملة لم يكن لهـذا ضرر علينا ، لأنه ليس بأكثر من ان يعمد الى الفصاحة فيخرجها مـن حيز البلاغة والبيان ، وان تكون نظيرة لها ، وفى عداد ما هو شـبيههما مـن البراعة والجزالة واشباه ذلك مما ينبىء عن شرف النظم ، وعن المزايا التى شرحت لك أمرها ، واعلمتك جنسها ، او بجعلها اسما مشتركا ، يقـع تارة لما تقع عليه تلك ، واخرى لما يرجـع الى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان ، وليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصـدده ، وان تعسف متعسف فى تلازم الحروف ، فبلغ به أن يكون الأصـل فى الاعجاز ، واخـرج سـائر ما ذكروه فى اقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو تأثير فيمـا له كـان القرآن معجزا ، كان الوجـه ان يقال له : انه يلزمك على قيـاس قولك أن تجـوز أن يكون هنا نظم للألفاظ ، وترتيب لا على نسق المعانى ، لا على وجـه يقصد به الفائدة ، ثم يكون مع ذلك معجزا وكفى فسادا » ٠

وينتهى القـول فى هـذا الى أن الخـلاف بين الجرجانى والخطـابى والجاحظ وغيرهما يكون فى أمرين غير جوهريين :

أولهما ـ أن الجرجانى لا يعتبر للألفاظ منفردة فصاحة أو بلاغة الا فى ضمن كلام مجتمع ، وحينئذ يكون التآخى أولا وبالذات فى المعانى ، وكون الألفاظ واضحة الدلالة على هذه المعانى ، والتآخى يكون فى المعانى ابتداء ٠

ثانيهما ــ انه لا يعتبر الفصاحة غير البلاغة ؛ لأن الفصاحة عنــد من يفرقون بين الفصاحة والبلاغة تكون فى تلاؤم الحروف وتلاؤم الكلمــات ، وللألفاظ كما قال ابن الأثير جمال أوتار أحيانا ، وغير ذلك أحيانا ٠

وان ذلك اختلاف اصطلاح ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، انما المشاحة تكون فى المعانى الجوهرية ، لا فى الاصطلاح ولا فى الأمور الشكلية ٠

ويسلم الجرجانى بان للألفاظ جمالا ، وأنها فى النظم تكون لنغماتها ، والحانها مساعدات للمعانى ، ولكنه يمنع منعــا مطلقا ، ونحــن معه أن تكون الألفاظ وحدها والكلمات منفردة سببا للاعجاز ، انما الاعجاز يــكون فى أمور كثيرة منها تناسق الكلمات ، وما تشعه من معان وأخيلة بيانية فى وسط أسلوب مكتمل البنان يلتقى بنغمه وفواصله ، وصوره البيانية ٠ مــع الألفاظ المحكمة ٠ والمعانى السليمة التى لم يكن للناس عهد بها من قبل ٠

نظرات فى ألفاظ القرآن

٤٦ ــ ان الألفاظ فى ضمن الأسلوب البيانى الرائع ، ونعتقد مؤمنين أن كل لفظ فى القرآن له معنى قائم بذاته وفيه اشعاع نورانى يتضــافر مــع جملته ، ويســاعد بعضــه بعضا فى المعانى العامة للأسلوب والعبــارات الجامعة ٠ وان العبارات مجتمعة يساعد بعضها بعضا ٠

ولسنا نستطيع احصاء تلك النواحى فى جمال ألفــاظ القرآن احصاء ، ولكنا نضرب من الأمثال على مقدار طاقتنا ، ومن غير أن نصل الى أقصى الغاية وانما نسدد ونقارب ، بل المقاربة فوق طاقتنا ، وقد سبقنا الى تــلك المحاولة فحول البيان ٠

اقرأ قوله تعالى : « **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنــة يأتيهــا رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقهــا الله لبــاس الجــوع والخوف بما كانوا يصنعون** » (١) ٠

---

(١) النحل : ١١٢ ٠

اذا قـرأنا « **ووددنـا البصر كرتين** » وجـدنا كل كلمـة فى حـيزها ، لا تفارقه ، ولو فارقته لوجدناه فارغا لا يملؤه غيرها ، ولنبتد بالاشـارة الى ما فى كل كلمة مما اختصت به ٠

الأولى ــ كلمة ــ آمنة ــ ، فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم ، أوعدو يساورهم ، ولعل ذلك اشارة الى مكة أو أن هـذه القرية هى هى ، كما قـال تعالى : « **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنـا ، ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنـون وبنعمة الله يكفـرون** » (١) فتجد فى هذه الكلمـة اشـارة الى نعمة ليست لغيرهم ، واختصوا بها دون الناس أجمعين ٠

الثانية ــ كلمة ــ مطمئنة ــ فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفس ٠فهى قد منحها الله تعالى القرار ، والسكون والدعة من غير ضعف ، ومع هذه الدعـة كان هو يقويها ويثبتها ، مع ما أعطاهم الله من سلطان أدبى على العرب ، وهم ملتقى اجتماعهم ومستقر شعائرهم الدينية ، ومقامهم الكريم الطيب ، فكل هذا يشع من كلمة مطمئنة ٠

الثالثة ــ يأتيها رزقها ــ فان هذا يشير الى سهولة الحيـاة ٠ وأنه لا يأتيهم كسائر العرب بانتجاع الكلأ ٠ والتنقـل فى الصحراء لا ينـالون الحياة الا بشق الأنفس ٠ وبذوقهم فى طلبهم الرزق حر الحياة وقرها ٠

الرابعة ــ كلمة ــ رغـدا ــ فالرغد هو الرزق الطيب المـذاق المـرئ ٠ غير الوبئ وهو الواسع الكثير ، فهم فى رزق يأتيهم سـهلا طيبا ، واسعا مرئيا ، لا وباء فيه ٠

ولكنهم كفروا بهذه الأنعم كلها فأى صـورة بيانية أروع مـن هـذه الصورة ، وتجد الكلمات الأربع متآخية فى معانيها ، متـلاقية فى ألحانها منسجمة فى نغماتها ، وكل كلمة منها تعطى صورة بيانية ، فآمنة فيها صورة البلد الذى لا يساوره عدو فى وسط موطن فيه يتخطف الناس ، ومطمئنـة يشير الى الاطمئنان النفسى الساكن القار كالماء السـاكن الذى لا تعبث بـه

---

(١) العنكبوت : ٦٧ ٠

الرياح ، ويأتيها رزقها طيبا من كل مكان تشير الى المكانة التجـارية التى يأتيها الخير من كل بلد قاص ودان ، وأن لهم رحلة الشتاء ٠

وان مجموع الكلمات مع ما تشمه كل واحدة من معان وصور ، يصور حال جماعة من الناس على هذه الأمور المجتمعة غير المفترقة ، وكلها فيوض من انعم الله تعالى ، ومع ذلك تكفر هذه النعم ، فلا تشكر ، بل تجحد الحـق ولا تؤمن ، وهنا تجىء الصـورة الثانية من عقـاب ، ومؤاخـذة عـلى ما ارتكبوا من كفر بانعم الله ، ونجـد ان كلمة أنعم فيها فصـاحة وصـورة بيانية ، اذ انهم لم يكفروا بواحدة ، بل كفروا بها كلها ، فكان الجحود اشد ، والضلال ابعد ، ولكلمة انعم نغمة هادئة مع سعة المعنى فى الكلمة ، اذ انهـا نعم متضافرة ، وفيوض خير من الله تعالى متكاثرة ٠

هذه حال ما افاض الله تعالى به عليهم ، كانت فيهـا صور النعم واضحة كلا وجزءا فى كل كلمة سيقت لذلك ٠

فلننتقل من الآية الكريمة الى الصورة التى حلت محل الأولى ، ولننظر الى الكلمات السامية كلمة كلمة ثم ننظر الى الصورة التى تتكون من هـذه الكلمات التى كانت كل منها صورة قائمة بذاتها ، وهى ايضا جـزء مـن الصورة الكبرى التى يكونها المثل القرآنى السامى ٠

الكلمة الأولى : أذاقها الله ؛ فى التعبير باذاق اشـارة الى أن الايلام مس نفوسهم ، وبعد أن كانوا فى ترف صاروا يذوقون الضر ٠

يقول الزمخشرى (١) فى معنى الاذاقة : « الاذاقة قد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس ، والضرر ، واذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من اثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر » ونرى من التعبير والتقابل ، أنهم بعدما سـكن قلوبهم

---

(١) هو محمود بن عمر الزمخشرى امام عصره فى اللغـة والتفسير والحديث توفى سنة ٥٣٨ هـ ٠

من اطمئنان ، وما كان من العيش الرغد ذاقوا الجوع ، وبما منحوا من أمن ، ذاقوا الخوف ، وهكذا تجد التقابل ٠

والكلمة الثانية : لباس الجوع والخوف ، فيها صورة بيانية رائعة ، فهى تصور الجوع والخوف كأنه لباس لبسهم وأحاط بهم احاطة الدائرة بقطرها ، لا يخرجون منه الا اليه ، ولا يدورون الا فى دائرته ، وان ذلك بلا ريب يفيد الاحاطة الشاملة الكاملة التى لا يستطيعون منها فكاكا ، وهذا يفيد استمراره وتجدده آنا بعد آن ، ولقد قال الزمخشرى « وان اللباس قد شبه به لاشتماله على اللابس ، ما غشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، كأنه قيل ما غشيهم من الجوع والخوف » ٠

ومهما يكن تصوير امام البلاغة الزمخشرى من أن التعبير باللباس يفيد أنه غشيهم وأحاط بهم فان فى الكلام صورة بيانية تصور حالهم بعد الأنعم التى أنعم بها عليهم ، وكفروا بها من أنهم فى صورة من كان لابسا للجوع والخوف ، وهم يذوقونه ، كمن يلبس ملبسا كله قتاد ، يجرح أجسامهم ، ويدمى جلدهم ، بيد أن هذا لا يدمى الجلد ، ولكن يمس الحشا بالجوع ، والنفس بذهاب الأمن والاستقرار ، وانا نجد أن هذه الصورة البيانية التى يصورها القرآن قد تضافرت الكلمات فى تكوينها فاشترك فيها التعبير بأذاقهم ، والتعبير باللباس ، وكون اللباس جوعا وخوفا ، ولباس الجوع والخوف أشد ايلاما من لباس الشوك ، لأن الشوك يؤذى الجلد حسا ، ولباس الجوع والخوف يؤذى الجسم ، ويؤذى النفس واذا قوبلت هذه الصورة عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان ، ورخاء فى العيش وطيبه واتساعه ، وجدت الفارق بين صورة النعمة التى كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر ٠

ومن ذلك يتبين مقام كل كلمة فى تكوين الصورة العامة ، فوق النغمة الهادئة ، والتصور الحكيم ٠

٤٧ ــ ولننتقل الى مثال آخر ، لا نختاره من القرآن اختيارا ، ولكن

ناخذه من غير تخير ؛ لأن التخير يكون فيما يكون فيه المختار ، وغير المختار ، وكتاب الله تعالى كله خيار ، وكله فوق طاقة البشر ، ولأن الذى يختار يفرض من نفسه حكما ، ومن يكون حاكما على كتاب الله تعالى ؟ انما يحكم على الكتاب من أنزل الكتاب ، الذى تعهد بحفظه ، وانما نحن نتلمسه ونطلبه من الكتاب من غير تخير ، لأنه فوق طاقتنا ، وفوق التخير ·

اقرأ قوله تعالى « **واذا أنعمنا على الانسان أعرض ، ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر كان يئوسا ، قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا** » (١) ·

اقرأ هذه الآية ، وقف عند كلماتها وتأمل فى تآخى نغمها ، وتآخى معانيها وتصويرها فى جملتها للنفس الانسانية ــ الكلمة الأولى ــ أنعمنا ، فقد اضافها الله تعالى اليه وانعام الله تعالى فيض ، واسباغ يغمر صاحبه ، والانعام من الله تعالى يقتضى الشكر كما قال تعالى : « **لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابى لشديد** » (٢) · وكان هذا يقتضى اقبال الانسان عليه سبحانه ، والاقبال بالطاعة ، ولكنه لم يقبل بل كفر وطغى أن رآه استغنى ·

الكلمة الثانية ــ أعرض ، وهى كناية عن البعد عن الله تعالى وعدم الاقبال عليه تعالى الله علوا كبيرا وأصل أعرض فى المعنى الحسى أن يولى عرض وجهه بالا يقبل على الله تعالى ، ويطلب المزيد من النعم بالطاعات يقدمها ، ويحب الله تعالى ويخلص له اذ أنعم ، ولكنه يظن أنه استغنى ، وعند ظن الاستغناء يكون الطغيان ، ويكون ظلم الانسان لأخيه الانسان ، ووراء ذلك الفساد الكبير ، والشر المستطير ·

الكلمة الثالثة : نأى بجانبه ــ النأى هو البعد ، وكلمة بجانبه ، مؤداها اتخاذ جانب آخر غير جانب الله تعالى فيسير فى ضلاله البعيد ، ويقول الزمخشرى : ان كلمة ــ نأى بجانبه ــ تأكيد لمعنى ــ أعرض ــ ونقول انها تأكيد

---

(١) الاسراء : ٨٣ ــ ٨٤ ·

(٢) ابراهيم : ٧ ·

لمعنى الاعراض من حيث انه الخطوة التالية بعد الاعراض ، فالاعـراض عن الكلام عدم الاصاخة اليه ، وعدم الالتفات الى دعـوة الحق ، وان هـذه خطوة يكون من بعد أن يبتعد عن الله تعالى ، ويجـافيه وترى من هـذا أن الكلمات من حيث السياق يأخذ بعضها بحجز بعض فى نغم مؤتلف من حيث ان كل معنى يعقبه أخ له مترتب عليه متناسق معه ٠

ومن مجموع هذه الكلمات يتبين كيف كان أثر النعمة كفـرا بها ، وكيف يتدرج الكفر بها ، حتى يكون البعد التام عن الله ، فتـكون الطاعة فى جانب ونفس المنعم عليه فى جانب آخر ، وهو جانب العصـيان والضلال البعيد ، ثم الطغيان من وراء ذلك ٠

والصورة البيانية من هذا الكلام قد تضافرت فى تكوينهـا الألفـاظ كلها مجتمعة ، وكل كلمة صـورة بيانية فى ذاتها ، فانعام الله تعـالى يعطى صورة بيانية للمنعم وفيض نعمه تعالى ، والاعراض بتلقيهـا بجانب الوجه صورة حسية ، ثم النأى من بعد ذلك ٠

هذه صورة المنعم عليه فى جحود نفسه ، وعدم التفاتها الى الاعتراف بالنعم وشكرها ، مع أن شكر المنعم واجب عقـلا ، وهو منبعث الضمير الطيب الطـاهر ٠

لننتقل من هذه الصورة التى تصورها الكلمـات منفردة اذ كل كلمـة صورة بيانية رائعـة ثم هى بتضامنها وتلاؤمها تعطى صـورة كاملة لنفس كفرت بأنعم الله وبطرت معيشـتها واتخـذتها سبيلا لظـلم العباد ، والكفـر برب الناس ملك الناس ٠

ثم نتجه الى صورة تلك النفس ، وقد أصابها الشر ، ولم تنل النعمة ، وهنا كلمتـان كلتاهما تصور صـورة من نزول الضر ، وأعقـابه فى النفس الجاحدة ، الكلمتان هما ، مسه الشر . وكان يئوسا ٠ ان المس وهو الاصابة بالشر ، وان التعبير بمس يفيد أن الاصابة بالشر ولو خفيفة تصيب من النفس ما تجعلها يائسة ، والشر كل ما لا يرغب فيه ، ويطلق على الأمور الضـارة حسيا ونفسيا ، وعـلى الأمـور القبيحة خلقيـا والتعبير بالشر هنا يشمل

الضـــار ، كقوله « **واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كان لم يدعنا الى ضر مســه** » (١) ويشــمل نتــائج الطغيان والعصيان فيكبه الله تعالى على وجهه ، ويشمل العقاب الذى ينزله جزاء لما ارتكب ، واذا كان قد جحد بنعمة الله تعالى ، اذ أنعم بها ، وأعرض . ونأى بجانبه ، فان النفس التى تطغى بالنعمــة تذل وتهون وتضعف بســلبها ويصيبها اليأس المطلق اذا نزلت بها النقمة ٠

الكلمة الثانية **كان يئوســا** وهنـــا نجــد كلمــة كان الدالة على اللزوم والاستمرار ككان فى قوله تعالى : « **وكان الله غفورا رحيما** » (٢) وكلمــة يئوسا بصيغة المبالغة الدالة على لزوم اليأس وايغاله فى النفس وعدم افتراقه عنها ، فيكون فى حال بؤس مستمر ، ويأس دائم ، يكفر ــ اذا أنعم الله عليه ويصاب بالطغيان ، ويكفر اذا اختبره الله تعالى بالشر يصيبه ٠

ولا شك أن هذه الجمل السامية ، والكلمات تصور حال انســان غــير قار ، ولا ثابت تبطره النعمة ، ويوئسه الاختبــار ، وكل ذلك فى ألفــاظ منسجمة فى نغماتها ، متضافرة فى معانيها ، تــدل على النفس المنحــرفة ، وتصورها ٠

ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقــوله تعــالى : « **قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلا** » (٣) وهنــا نجــد النص الكريم يفيد ما يدل على أن الناس جميعــا ليســوا سواء فى ذلك ، فمنهم شقى على الصــورة التى ذكــرها ســبحانه ومنهم سعيد ، وهم الصـــابرون الذين لا تضطرب نفوســـهم بنــازلة تنزل ، ولا يطغــون بنعمة تسبغ وكان هــذه الجملة فى موضع التخصيص من عموم الانسان المذكورة أولا كالاستثناء فى قوله تعالى : « **ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه انــه ليئــوس كفور ، ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انــه**

---

(١) يونس : ١٢ ٠

(٢) النساء : ٩٦

(٣) الاسراء : ٨٤ ٠

لفرح فخور ، الا الذين صبروا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة واجر كبير » (١) ٠

والكلمة السامية «قل كل يعمل على شاكلته» ، نجد فيها ثلاث كلمات منها ينبثق نور ، فالأمر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقول ذلك فيه ما يصور أن بعض الناس كذلك وأن فى الناس من ليسوا كذلك ، فدلت كلمة « قل » التى تتضمن الرد على هذا الاعتراض المفروض ، وانتقل الكلام من ضمير المتكلم من الذات العلية الى الخطاب الذى أمر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن الأمر تنبيه ، يتولاه صاحب الرسالة المتكلم عن الله نازلا الى مرتبة المعترضين ليواجههم بالرد ، وفى ذلك فضل تنبيه وتقريب ، وذات الانتقال من المتكلم الى المخاطب فيه تجديد بيانى ، وتصوير بلاغى ، والشاكلة ــ الهيئة والصورة والسجية ، والمنهج الذى يخطه لنفسه ، ويسير عليه من الضلالة كالأولين والهدى للمهتدين ، والشاكلة تطلق على الطريقة ، ويقول الزمخشرى انها من قولهم : طريق ذو شواكل ، الطرق التى تتشعب منها ٠

وفى هذا الكلام معان دقيقة تنبعث من صور الكلمات ، ومرامى العبارات ، وحسن المقابلات . ان الناس قسمان : قسم شاكلته ، تلقى النعمة بالاعراض ، ووراء الاعراض الظلم والطغيان والفساد فى الأرض ، وقسم صابر ضابط لنفسه لا تبطره النعمة ، بل يصبر عليها فيطيع الله ، ويقوم بحق شكرها ، والأول مضطرب النفس غير منضبط القلب تطغيه النعمة فيستكبر ، وتوئسه النقمة ، فيكفر باليأس من رحمة الله ٠

وان لله تعالى العلم الكامل بالصنفين ، وهو مجاز للفريقين ، وقد ختم النص الكريم بقوله تعالت كلمته « فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » وهنا نجد المعانى تشع بنورها من هذه الكلمات ٠

فأولا ــ الفاء التى تفيد ترتب الجزاء على الأعمال ، وثانيا التعبير بربكم الذى فيه الاشارة الى انه هو الذى خلق فسوى وهو المربى المكمل ــ

---

(١) هود : ٩ ــ ١١ ٠

الهادى كلا الى غايته ، وثالثا ــ ترتب العلم الكامل عــلى كونه الخالق ، ورابعا ــ ذكر العلم الكامل بأفعل التفضيل الذى يدل على انه لا علم فــوقه ان كان ثمة تفاضل ، وخامسا ــ التعبير عن الجزاء بأنه اثر للهداية ، وأن الله تعالى أعلم بالمهتدين ، وسادسا ــ التعبير بأفعل التفضــيل فى أهــدى · أى أنه العالم بمن اهتدى بعد أن يغفر الله ، وسابعا ــ فى التمييز بكلمة سبيلا ، وفيه بيان بعد نوع من الابهام ، وبذلك يكون العلم متمكنا فضل تمكين ، علم بالهداية وعلم بمنهاجها ، وهو السبيل القويم ·

٤٨ ــ بعد هذا النظر السريع الى تلك الاية نتجــه الى آية اخــرى نجد فيها الكلمة تدل على معنى لو غيرت بغيرها مما يكون فى معناها ظاهرا ، مرادفا لها بادى الرأى ، لا يمكن أن يؤدى المعنى الذى يشرق منها ، ويجتمع به فى الدلالة صورة اللفظ ، واشراق المدلول ·

اقرأ قوله تعالى : « **والصبح اذا تنفس** » (١) فاننا لو أردنا تغيير كلمــة من هاتين الكلمتين لتغيرت الصورة البيانية ، ولننظر فيهما ·

الكلمة الأولى ، وهى الصبح ، فانها تدل على النور الذى يتخــلل الظلمة ، ويسرى فيها شيئا فشيئا وينبعث فى هذا الوجود ، فيملؤه نورا ، وتنبعث من بعده الحيــاة ، ويخــرج النــاس الى معايشهم بعد سبات الليل وسكنه ، وما يغشى به الكون من لباس الظلمة ·

ولا شك أن كلمة الفجــر قد تدل عــلى بعض معانى كلمة الصــبح ، والعلماء يعدونهما من المترادفين ، ولكن عند التحقيق نجــد كلمة الفجــر تدل على معنى شق الظلمة ، وعلى مجرد ابتداء نهاية الظلمة ، ولذلك يقترن بها ذكر الليالى ، كما قال تعالى : « **والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر** » (٢) فقد كان ذكر الليالى مع الفجر متناسبا ، لأن الليل متآخ مع الفجر فى معناه ، وقصد به مجرد نهاية الليالى ·

---

(١) التكوير : ١٨ ·

(٢) الفجر : ١ ــ ٣

ولكن كلمة الصبح لوحظ فيها الاشارة الى ابتداء النهار ، فاذا كان وقت الفجر والصبح واحدا ، فان الفجـر فيه بيان انهاء الليل ، والصـبح ابتداء النهار ، ولذا يستحسن الناس أن يقال طلع الفجر ، ولا يقـال طـلع الصبح ، بل يقال أشرق الصبح ، وهنا نجد المعنى واحدا فى الجمـلة ، ولكن الدلالة اللغوية الدقيقة مختلفة ، فهذا اشراق ، وذاك انهاء ٠

والكلمة الثانية ـ كلمة ـ تنفس ـ فان كلمة التنفس فى ذاتهـا تدل على بدء مظاهر الحياة شيئا فشيئا ، ذلك لأن أصل التنفس من النفس ، وهى الحياة ، وهى ايضا الريح ، وهى الحركة الدائمة المستمرة ، فى الداخـل والخارج ، فهى تشمل ما يدخل فى النفس من أسباب الحيـاة ، وما يخرج منها لتستمر الحياة ، ويقـال نفس عنى أى فرج عنى ، وبذلك يكون كلمـة التنفس يندرج فيها ثلاثة معان تتصل بالحياة الدائمة المستمرة أولها التنفس بمعنى الحياة ، وثانيها حركتها واستمرارها ، وثالثها تدرجها فى الظهور شيئا فشيئا ، ولو انك وضعت كلمة أشرق بدل تنفس ، كان يقال ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى : « والصبح اذا أشرق ، أو أصبح أو انار أو أضاء ، فان كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفس ، ولا تغنى غناءها ٠

ولو اننا تركنا لفظ تنفس بانفرادها ، وتابعناها مقترنة بكلمة الصبح ، وهو النور الذى يبتدىء به النهار ونظرنا ما يصوره قوله تعالى : **(والصـبح اذا تنفس)** ورأينا كل حى فى الوجود ، يفيض عليه الاصباح بالعمل والحركة فالندى يصيب الزهور ، والضوء يضىء الحـدائق الغناء ، والطيور تزقـزق بموسيقاها ، وينبعث كل من فى الوجود خارجا من لباس الليـل الى معـاش النهار ، فالزارع يخرج الى حقله ، والماشية تنبعث من مرابضها ناعقة ، فرحة ، سائرة الى المراعى ترعاها ، والكلأ تنتجعـه ، والصبيان يخرجون مـن اكنانهم كما تخرج الطير من اكنانها ، وكل ما فى الوجود يخرج مما يخفيه الظلام ٠

وهكذا نجد كل مظاهر الحيـاة تتـدرج فى الظهور ، حتى يصل الى الضحا فيكون المعترك القوى الصاخب اللاغب ، فهل ترى كلمة تدل عـلى

هذه المعانى ابلغ من كلمة : والمصبح اذا تنفس ، وبهذا يتبين ان الفاظ القرآن الكريم كل كلمة فى حيزها ، لا يملأ غيرها فى موضعها فراغها ·

٤٩ ــ بعد هذا البيان الذى حاولنا فيه ان نتسامى الى ان نذكر مواضع البلاغة او الفصاحة فى كل الكلمات التى سقناها وتلونا آياتها ، وكون كل كلمة فى موضعها ذات بلاغة خاصة تصور صورة بيانية رائعة ، وهى مع اخواتها تتلاقى فى صورة كاملة ، لها اطياف تروع القارىء ، وتستولى على لب المتفهم ·

ولننتقل الآن من الالفاظ الى عبارات لها معان لا يحل محلها فى نسجها ولا فى مدلولها ما يقوم مقامها ، ولنذكر منها اربع آيات ·

اولاها ــ قوله تعالى « **واتل عليهم نبا الذى اتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولوشئنا لرفعناه بها ، ولكنه اخلد الى الأرض، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث ، او تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا باياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** » (١) ·

وان هاتين الآيتين الكريمتين تصوران رجلا آتاه الله تعالى العلم بالآيات الموجبة التصديق بالحق ، وأن هذه الآيات أحاطت بقلبه ونفسه ، حتى لا مناص من انكارها كما يحيط الاهاب بالجسم ولكنه ترك الأخذ بالهدى استجابة لداعى الشيطان وصار من الضالين الذى اغواهم ابليس اللعين ، فكان مثله كمثل من ينسلخ عن الاهاب الذى لبسه ولصق بجسمه ، ولو شاء الله تعالى لرفعه من كبوة الضلال بما اتاه الله تعالى من علم ، ولكنه هو الذى انحط الى الأرض ونزل اليها ، بسبب هواه فصار مثله كمثل الكلب يلهث دائما ، ان ترك يلهث ، وان حمل عليه يلهث ، ولننظر فى الكلمات التى تشتمل عليها هذه الآيات :

الكلمة الأولى ــ انسلخ ــ والسلخ نزع جلد الحيوان يقال سلخته فانسلخ ، ووضع هذه الكلمة · فى ذلك النص الكريم له معنى لا يوجد فى

---

(١) الأعراف : ١٧٥ ــ ١٧٦ ·

لفظ غيره ، وهو يشير الى ان البينات والآية المعلمة للحق أحاطت بـه ، ولصـقت بنفسـه واتصلت بعقله اتصـال اهاب الحيوان بلحمه ، ولكنـه انسلخ من هذه البينات فكلمة انسلخ فيها استعارة ، فشبه الكفر والفساد ، بالانسلاخ فى الاهاب لكمال الملازمة . ولأن الانسـلاخ يكون بمعاناة وعنف ، اذ ان مادة المطاوعة لا تكون الا للأفعال التى تحتاج الى معالجة ، فلا يقـال كسرت القلم فانكسر ، ولا يقال كسرت الزجاج فانكسر ، ولكن يقال كسرت الباب فانكسر ، ويقال طويت الحديد فانطوى ، فكان هذا تصـويرا لاثبات أن الكفر ضد الفطرة ، وانـه يحتـاج الى معـاناة للنفس ، ومقاومة لدواعى الهدى ، ولكنها لا تكون الا اتباعا لهوى الشيطان ٠

الكلمة الثانية ــ اتبعه الشيطان : أى لحقه الشيطان ، فانه يقال اتبعـه اذا لحقه ، ومن ذلك قوله تعالى : « **فاتبعوهم مشرقين** » (١) وقوله تعالى : « **فاتبع سببا** » (٢) ، وقوله تعالى : « **واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويـوم القيامة هم من المقبوحين** » (٣) ، وان وضع هذه الكلمة فى هذا الموضع لهو وضع بلاغى عميق ، ففيه اشارة الى أن الشيطان انما يلاحق الذين يتركون الآيات ، ولا يعملون على الأخذ بموجب البينات ، فاول دركات الضلال هـو ترك الدلالة المعلمة للحق مع قوة سلطانها ، واذا تركها فان الشيطان يلحقه ، ويأخذ به الى آخر غايات الضلال ، واذا وصل الى هذه الدرجة صار مـن الغاوين ، والغواية معناها الجهل المردى ، الذى يصحبه اعتقاد فاسد مردود وكأنه بهذا الانسلاخ من موجبات المعرفة ، ودواعى الحقيقة ينقلب مـن عالم بالبينات مدرك لها الى جاهل أرداه جهله فى الفساد ٠

الكلمة الثالثة ــ « أخلد الى الأرض » ومعنى أخلد الى الأرض ركن اليها يحسب أن الركون اليها يجعله خالدا ، ويجعله باقيا مستمرا ، وهـو يريد البقاء على أى صورة وان مقابلة هذه الكلمة بقوله تعالى « ولو شئنا

---

(١) الشعراء : ٦٠ ٠

(٢) الكهف : ٨٥ ٠

(٣) القصص : ٤٢ ٠

لرفعناه بها » أى بالبينات يفيد أنه اختـار الاستفال بدل الارتفاع ، والضعة بدل الرفعة ، ويكون فى هذا اثبات أن الرفعة تكون بطلب الحق والايمـان والاستجابة لبيناته ، وعدم الانخلاع من موجبها ٠

وكل هذه المعانى تشرق من مقابلة الارتفاع بالاخلاد الى الأرض ٠

وهنا نجد صورة رائعـة تلتقى فيها أطياف مميزة بالفـاظ مصـورة ، فهى تصور شخصا أفاض الله تعالى عليه بأسباب الايمان بالحق ، والتصقت به ، حتى صارت كأنها جزء من كيانه ، وقد اتصلت ببنائه ، ولكنه بسبب أنه أخلد الى الأرض وكان نزوعه متصلا بأعلاقه قد سلخ البيـنات الملتصقة بها بانغماس فى الضلال متكرر مستمر ، حتى انسـلخ من الهداية ، وفى ذلك اشارة بيانية الى أنه ترك الهداية بعد عمل مستمر قام به ، فهو قـد ابتدأ فى الشر متبعا هواه ثم كرره حتى كون له خطوطا فى نفسه ، وتـكرر حتى صـارت الخطوط مجارى ، فكان الانسلاخ وبعد الانسلاخ وجد الشيطان طريقه فاتبعـه بغيـة الضـلال ، وقد مثـله تعـالى بمثال آخـر ، وذكر لـه صورة أخرى ٠

وذكر فى الكلمة الرابعـة : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » ؛ واللهث كما يقول علماء اللغة أن يخرج الحيوان لسانه مرطبا بلعـابه فى حال عطشه أو جـوعه أو اعيـائه ، أو اهاجتـه ، وذعـره ، ويقولون ان أخس أحوال الكلب أن يكون منـه اللهث فى كل أحـواله ، فانه يكون مكروبا دائما ؛ وقد ذكر القرآن الكريم حـال من ينسلخ من الهداية الى الغواية بأنه يكون فى حال هياج نفسى مستمر لا يسـتقر على قرار ، ولا يسكن على حال ؛ اذ أن الهداية ايمـان ، والايمـان اطمئنـان وقرار ، ومن يكفر بالله ، وينسلخ على هدايته اتباعا لهواه يكون فى لهج مسـتمر ، فيكون كالكلب فى أخس أحواله وأذلها ، ان هيج لهث ، وبدت صورته شوهاء ، وان سكت عنه بدا على هذه الصورة ٠

وان هذا تصوير واضح لمن غلب عليه هواه ، اذ تغـلب عليه شقوته ،

ويكون فى اضطراب ، وشعور بحرمان دائم يستقر فى نفســه ؛ لأن الهوى يجعل النفس طلعة تتطلع ولا تهدأ ولا تستقر ، ولا تطمئن ٠

ونرى من هذه الآية وما سبقتها كيف يكون كل لفظ مؤديا معنى خاصا يقصــد ، ويعطى صورة من البيــان لها أطياف كأطياف صورة التصــور الحسية التى تصورها يد صناع لمصور ماهر ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى ، ومن مجموع هذه الصور المتكونة من الكلمات تــكون صورة كلية يتمثــل فيها أعلى صور البيان ٠

٥٠ ـــ ولننتقل من هذه الصورة الرائعة التى تتــكون من مجموع صور بيانية للعبارات الى صورة بيانية لبيــان حال ، ما ينزل بالكفار يــوم القيامة ، ولا يصح أن يجول بخاطر أحــد أننا نبحث فى الفاظ القرآن الكريم متخيرين ، بل نفتح فنجــد الأمثال الواضحة من غير تحر ولا تخير ٠

لقد قال تعالى فى سورة الدخان فى تصوير غذاء المشركين يوم القيامة، وترى كل كلمة من النص تبين صورة مؤلمة مزعجة لما يتناولون ، ويشترك فى الصورة نغمة الكلمات ونسقها ، وتآخيها ٠

اقرأ قوله تعالى : **« ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ، ثم صــبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ٠ ذق انك أنت العزيز الكريم »** (١) ٠

ولننظر اليها ، ونبين ما فيها من صورة بيانية ، تتخــذ منها ومن أخواتها صور بيانية لأغلظ عيش وأقسى حيــاة ، وكيف يكون الغــذاء كلــه ايلاما لا اشباع فيــه ، وايذاء لا متعة معه ثم يختم القول بتهكم على من كان يحسب نفســه عزيزا كريما ، والمؤمنين أراذل منبوذين ٠

أول هذه الكلمات شجرة الزقوم ـ وهذا استعمال قرآنى لم يكن كثيرا عند العرب ، وان كان أصل اشتقاقه من لغتهم ، والزقوم صيغة مبالغة مــن

---

(١) الدخان : ٤٣ ـ ٤٩ ٠

الزقم ، والزقم اعطاء الطعام الكريه أو الأمر الكريه ، ويقال تزقم اذا ابتلع شيئا كريها غير مرغوب فيه ، بل تنفر عنه الطباع وتستكرهه ٠

فشجرة الزقوم الشجرة التى لا تثمر الا ثمرا كريها تعافه النفوس ، ولا ينساله المتناول الا مكرها باكراه من ذى جبروت ، أو من جوع ، أو من يكون فى حال من يريد تناول اى شيء مهما يكن ذلك الشيء ، ومهما يكن مذاقه ، ومهما تكن وباءته ، والتعبير بشجرة الزقوم فيه اشارة الى انه طعام مثمر مستمر ، لأن ثمراته الوبيئة الكريهة لا تنقطع ، فهى فى شجرة دائمة الاثمار ٠

وفى هذه الآية يذكرها ، وفى آية اخرى يذكر سبحانه انها تنبت فى أصل الجحيم ، فهى من ثمرات شجر جهنم ، وفى ذلك تصوير لحال الطعام ، وتصوير لحال المقام ، وكيف أن المترف فى الدنيا يتنقل من واد نيرانى الى واد مثله وكل حياته منها ، فاقامته فيها وغذاؤه من ثمار اشجارها ، وبئس مثوى الكافرين ٠

الكلمة الثانية : طعام الأثيم — يقول الذين تكلموا فى الفاظ القرآن ان الاثم الأمر المبطيء عن الخير ، المعوق عنه أو المؤخر له وعبر عنها بكلمة اثيم ، وهى صيغة مبالغة من أثم وصفة مشبهة تدل على حال دائمة مستمرة ، فهى تدل على انه فعل الاثم كثيرا ، ولذلك وصف بصيغة الصفة المشبهة ، وهو حال دائمة عنده ، اذ الصفة المشبهة تقتضى أن يكون الموصوف بها فى حال دائمة فى صفتها لا تفارقه ولا يفارقها ، وهنا معنيان كلاهما يدل على بلاغة اللفظ ، وعظم مؤداه —

أول المعنيين ٠ ذكر الوصف الذى يشير الى أن سبب ذلك الجزاء هو الاثم الدائم الكثير الذى كان منه فى الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، والعدل يقتضى الا يتساوى المسيء بالمحسن ، فهل يستوى الأعمى والبصير ؟ —

ثانيهما ، ان لذلك الثمر الكريه الذى تثمره شجرة من نار جهنم هو الطعام الدائم المستمر الذى لا يقدم للطغاة الا هو ، فلا يذوقون طيبا ، لأنهم لم يذيقوا الناس فى الدنيا طيبا ، وهل يكون جزاء الخبيث الا خبثا ٠

الكلمة الثالثة : كالمهل يغلى فى البطون ـ والمهـل دردى الزيت أى الراسب أو بقايا الزيت ، وتكون عادة سوداء معتمة ، ثم هى فى ذاتها شىء ردىء وأعطاه القرآن وصفا ، وهو أنه يغلى فى البطون ، فهو بقايا رديئـة أصابها العطن ، لغليانها ، اما لحموضـتها ، اذ تغـلى كالأشـياء العطنة التى تتخمر ، وتغلى بالزبد ، واما لأنها تكون ذات حرارة شديدة تغلى من شـدة هذه الحرارة ، ولعل غليانها من الأمرين فهى متعفنة تغلى بالزبد من الحموضة، أو هى حارة تغلى منها البطون لشدة الحرارة ، وفى كلتا الصورتين تدخل على البطون غذاء وبيئا ، ان كان فيه مادة الغذاء ، وليس غذاء مريئا ، فهـو ان يمنع غائلة الموت ، ويبقى ، فانما يبقى لتستمر الآلام ، وتكون حياته نكدا ، فطعام كريه فى مذاقه ، وبىء فى مآله ، مؤلم فى كل أحواله ٠

وقد يقال ان الأظهر هنا أن الغليان من العفونة التى تكون من بقـايا هذا الزيت ، لأن التشبيه جاء بعد ذلك فى قوله تعالى « **كغلى الحميم** » ، وهو الماء الحار اذا بلغ أقصى درجة الحرارة ، فغلا واشتد غليانه ، والجـواب أن الزيت يغلى من شدة الحرارة كغليان الماء ، وهو فى هذه الحال يكون أشد ، لأنه يكون فى درجة حرارة أعلى ، وكان تشبيهه بالمـاء للتصوير والتقريب ، وكثير من تشبيهات القرآن للتقريب والتصوير ، فالغليان يكون بالعفـونة ، وبالحرارة معا ٠

الكلمتان الثـالثة والرابعة : « **خـذوه فاعتلوه الى سـواء الجحيم** » فان كل كلمة من هذه الكلمات تصور صورة عنيفة لهذا الذى عصى وغوى ، وضل اذ حسب أنه استغنى ٠

فكلمة الأخذ تنبىء عن القبض بعنف ، وقد كان فى القرآن الكريم ما يدل على العنف فيها كما قال تعالى : « **وكذلك أخـذ ربـك اذا أخـذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه أليم شديد** » (١) ، وكان الأخذ بأمر الله لملائكة غلاظ شداد ،

---

(١) هود : ١٠٢ ٠

فكان الأخـــذ فى ذاتــه شــديدا ، وكان الآخــذون أشــداء ، وتجميــلهم هنا مع وصفهم فى آية أخرى بأنهم غلاظ شداد ، فيه ارهاب وبيان لعظم الأخذ بالآخذين ٠

وقد فسر سبحانه فى الآية بما يدل عــلى شدة الأخذ ، وبيان أنه نــوع خاص منه ، اذ قال سبحانه « فاعتلوه » اذ العتل هو الأخــذ بمجامع الشىء والاحاطة به وجره بالقهر والعنف ، فاذا كان الأخذ فى ذاته عنيفــا ، فهــو فى هذا النص أشد عنفا ، اذ هو جر واحاطة قوية بالمأخوذ ، وان الأخــذ بهذه الصورة من جر عنيف واحاطة فيه ما يدل على الاهانة ، والتحقير ، وخصوصا اذا كانوا يحسبون أنهم وحــدهم الكرام ، وغير أراذل دونهم فان الأخذ بطريق العتل يعطى صورة للمهانة التى يكون عليهــا من يســتكبرون على الحق أن يتبعوه ، ويتبع الحق أهواءهم ، وفى هذا بيــان أن هــذا العنف جزاء وفاق ، لما كان منهم من غطرسة مقيتة ، فانهم سيعاملون بمثلهــا يــوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ٠

الكلمتان الخامسة والسادسة : « **الى سواء الجحيم** » فكلمــة ســواء معنــاها المكان المتوسط ، والجحيم النــار المتأججــة التى تكون فى مهواة ، والصورة التى توضحها كل كلمة من هذه أنه يؤخذ عنوة ويوضــع فى وسط النيران المتأججة التى تشتعل وتتأجج مرتفعــة من وهدة جهنم الى أعلى ، ويلقى فى المكان المتوسط بحيث لا يكون قادرا على الخروج منها ، اذ لا يــكون فى طرف من أطرافها ليستطيع أن يخرج منها ، بل هو فى وسطها لا ينتقل الا اليها ، وليته يستمر على حاله لم يجىء له عذاب من خارجها ، بــل انه يجيئه العذاب من الخارج ، فيلتقى عذاب الداخل والخارج معــا بل يجىء ما تدل عليه العبارات التالية :

الكلمات السابعة والثامنة والتاسعة : « **ثم صبوا فوق رأســه من عذاب الحميم** » والصب هو نزول الماء من أعلى الى أسفل . ويكون متدفقا مندفعا ، وهو مرتفع من فوق رأس الأثيم من عــذاب الحميم ، فالصب فى ذاته من عــل

يؤلم ولو كان ماء باردا • فكيف الحال اذا كان عذابا ، فهـو صب لا لأجـل التبريد ، ولكن لأجل التعذيب ، والاضافة هنا بيانية أى عـذاب هو الحميم وهو السائل الحر الشديد الحرارة ، فهو عذاب ينزل فوق الرأس ، فيذيب أديمه ، ويصهره دهنا •

وباجتماع الآيات من أولها يكون العذاب المهين فى غـذاء من المهل من الزيت الردىء يغلى فى البطن من شدة العفن ، ويغلى من شدة الحرارة ، ويساق فى هذه الحال مأخوذا أخذا عنيفا محيطا بمجـامعه الى وسط جهنم ، ثم ينزل من فوق رأسه عذاب هو سائل شديد الحرارة ، يصب على رأسـه صبا عنيفا يذيب كل ما يقع عليه •

ومع هذا العذاب المهين المؤلم الشديد يوجد عذاب معنوى بالتهكم عليـه فيقول لسان الحال « **ذق انك انت العزيز الكريم** » ليعلم انه كان طاغيا •

٥١ ـــ هذه جمل من الآيات الكريمة تسامينا فحاولنا ان نسمو الى الفاظ قرانية مشرقة بمعان ، وكل كلمة منها لها طيف خاص بها ، وتدل عـلى معان عميقة تصور ناحية بيانية تبدو واضحة فى انضمامها لغيرها ، وتتكون من مجموع الصور البيانية للكلمات صورة بيانية رائعة ، واذا كان لـكل صورة حسية أطياف تعطى الصورة حيوية ، فالصور البيانية لها أطيـاف عالية ، تعطى الصـور روعة عـالية ، لا توجـد فى أى كلام غير القرآن الكريم •

وان الصور البيانية القرآنية تبدو أوضح ما تكون فى القصص القرآنى وان كان كل البيان القرآنى رائعا واضحا ، فان القرآن فى وصف الحـوار والأجواء الفكرية والاعتقادية يصورها تصويرا واضحا ، فـاذا وصف حالا لرجل تجده يصور قلبه وخواطره •

اقرأ قوله تعالى : « **وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى : ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخـرج انى لك من الناصحين ، فخرج منهـا**

خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين » (١) هذه القصة بسياقها كل لفظ منها ينبىء عن معنى اللهفة والحذر فهذا الرجل الناصح الأمين تجده يسعى من اقصى المدينة ، والتعبير باقصى يدل على المحبة الخالصة الطيبة ، ثم كلمة يسعى تدل على أنه جاء عدوا لا قرار عنده ، ولا اطمئنان ، وقوله « ان الملأ » وهم كبار القوم يدبرون الأمر ليقتلوك ٠

واستجاب موسى لنصيحة الرجل الأمين ، فخرج خائفا يترقب « انظر الى كلمة يترقب » ، فهو ينظر يمينا وشمالا وأماما وخلفا يترقب من ياتيه من امامه ، ومن ياتيه من ورائه ومن ياتيه من شماله ومن يمينه ، وكلمة يترقب تصور تلك الحال ، وتصور النفس المحترسة الآخذة تجدها فى اطمئنان نفسى ، واحتراس من غير اضطراب ، فالمترقب الخائف غير المضطرب الخائف ؛ لأن الخائف المضطرب لا يحسن الترقب ولا الحذر ، فيصيبه الهلع فيخاف من غير مخوف ، ويقع بهلعه وفزعه فيما يخشاه ، ولفظ القرآن الكريم ينبىء عن هذه المعانى السامية ٠ والكلمات صور لمعان حسية ومعنوية ، ظاهرة وباطنة والله سبحانه السميع العليم ، الحكيم الذى أنزل كتابه المبين الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠

الكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها

٥٢ ــ قلنا ان للكلمة اشراقا خاصا ، فكل كلمة لها اشعاع فكرى ، ولكنها لا يبدو منها ذلك الاشعاع ، والبلاغة البيانية الا مع أخت لها تناسبها ، وتتلاقى فكريا معها ، فمثلا كلمة ــ تنفس ــ التى ذكرناها فى قوله تعالى : « **والصبح اذا تنفس** » لا ينبعث منها ذلك الاشعاع الفكرى الا اذا كانت كلمة الصبح معها ، فلابد لكى يكون ذلك الاشعاع المعنوى مع صحيحا واضحا مؤديا الى غايته من أنه يكون مقترنا بالصبح ، ومع أن الاشعاع منها وحدها ، الا أنه لا يضىء الا مع كلمة الصبح ، وكلمة الصبح لا تفترق

---

(١) القصص : ٢٠ ــ ٢١ ٠

عن كلمة الفجـر ، الا اذا كان يتبعـه التنفس ؛ والاسفار ، فالصبح والتنفس متلازمان ، وان كان كل منهما مؤديا معنى مستقلا ، والتـلازم كان بالا يتبين ذلك المعنى الاستقلالى الا بضم الأخرى الى الأولى ٠

وذلك ما أشرنا اليه فى ابتداء الكلام فى بلاغة الكلمـة القـرآنية ، وما ارتضاه الجرجانى الذى حمل عبء القول عن نفى بلاغة اللفظ المنفـرد ، فقيد نفيه بأن يكون مسـتقلا منفردا ، فـاذا انضم الى غـيره بـدت بـلاغة الكلمة فى أنه يكون لها صورة بيانية ، وبانضمامها تكون لها صورة بيانية من الهيئة المجتمعة ٠

وقد راجعنا من بعد ذلك القاضى عبد الجبار (١) فى كتـابه اعجـاز القرآن ، فوجدناه يقرر فصاحة الكلمة منفردة ، ولكن لا تبـدو بلاغة معانيها الا اذا تضامت مع غيرها فهو يقول :

« اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى افراد الكلام ، وانما تظهـر فى الكلام بالضم عـلى طريقة مخصوصة ، ولابد مـع الضم من أن يكون لكل كلمـة ابتداء ، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقـد تكون بالاعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهـذه الأقسام رابع ، لأنه اما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولابد مـن هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثـله فى الكلمات اذا انضـم بعضها الى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفيـة اعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه انما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عاداها ٠

هذا كلام من ذلك الامام المعتزلى ، نهج فيه نهجا فلسفيا ، ولكنه يؤدى الى ما قصدنا الى بيانه ، ولعله يريد من المواضعة الوضع اللغوى للكلمة ، ويشمل ذلك الأصـل اللغـوى ، والحقيقة العـرفية ، والمجـاز والاسـتعارة والتشبيه ، وغير ذلك ، ويريد من الموقع موقع الكلمة من أخـواتها من غير

---

(١) هو القاضى ابو الحسن عبد الجبار توفى سنة ٤١٥ هـ ٠

تنافر بينهما ، بحيث تكون الكلمة لقف أختها ، متناسقة متناسـبة ولعـله يريد من موقع اختيار الكلمة فى وضعها بأن تكون فاعلا أو مفعولا أو حـالا ، أو فيها اختصاص ، اذ عبر بالاشارة القريبة ، وهكذا ، فهو لم ينظر الى بنيـة الكلمة وحدها بل نظر الى موقعها من الاعراب ٠

وعلى ذلك نـرى أن الكلمة البـليغة تظهر بلاغتها مع أخـواتها ، وأن الكلمة قد تكون بليغـة فى موضـع ، ولا تكون بليغـة فى موضـع آخر فى كلام الناس ، أما القرآن فالكلمة تـكون بليغـة دائما ، لأن منزل القرآن وهو الله تعالى يضع الكلمات فى مواضعها ، وفى الكلام الذى ينسب الى النـاس قـد تكون اللفظـة فى موضـع بليغـة ، وفى غيره غير ذلك ، ولذلك يقـول عبد الجبار فى تفاوت كلام الناس « لابد فى الكلامين اللذين احـدهما يـكون أفصح من الآخر أن يكون انما زاد وعليه بكل ذلك او بعضه (أى بالأمور السابقة) ولا يمنع فى اللفظـة الواحدة أن تكون اذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها اذا استعملت فى غيره » والله اعلم ٠

٢ ـ الأسلوب القرآنى

٥٣ — قد تكلمنا فى سابق قولنا فى ألفاظ القرآن المفردة ، أن اللفظ المفرد له بلاغة خاصة فى ضمن الأسلوب وأن كل كلمة فى جملة من الكلام تدل بمفردها على معان تتساوق مع المعنى الجملى للكلام ، وأن كل كلمة تكون بمفردها صورة بيانية تكون جزءا من الصورة العامة للقول وقلنا ان ذلك ليس معناه أن الكلمة لو جردت من الكلام تعطى وحدها ذلك الاشراق ، ولكن ينبثق نورها بالتضام مع غيرها من غير أن يفنى ضوؤها فى ضـوئه ، ولا تنمحى صورتها البيانية التى اشرقت بهذا التضام ٠

وقلنا ان ذلك لم ينكره أحد حتى الجرجانى (١) الذى تشدد فى اعتبار الأسلوب وحده هو سر الاعجاز ، من غير التفات الى معانى المفردات ٠

---

(١) هو عبد القاهر الجرجانى توفى سنة ٤٧١ هـ ٠

واذا أردنا أن نحرر القول الذى رآه الأكثرون ، وخالف فيه الجرجانى ومن لف لفه ، فاننا نقول ان كلمات القرآن لها فى تناسق حروفها ، وتلاقى مخارجها اشراق بلاغى ، ولكن لا ينكشف ذلك الاشراق الا بالتضام ، أى أن الاشراق ذاتى ، وهو الأصل ، ولكن شرط ظهوره ، تضام الكلمة مع غيرها ٠

وفى هذا المقام نتكلم على الأسلوب والصور البيانية التى تتكون منه والتآخى بين ألفاظه فى النغم وفى تناسق القول ، بحيث تكون كل كلمة فى موضعها الذى وضعت لا تنفر من أختها ، ولا يمكن تغييرها ، وكأن الكلمات فى الأسلوب نجوم السماء وأبراجها ، لا تزايل أماكنها ، ولا تخرج من مواطنها ، ويقول فى ذلك القاضى عياض فى الشفاء :

« الوجه الثانى من اعجازه صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ٠ ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شىء منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتدلهت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا الى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر (١) ٠

وان الاسلوب هو الصورة البيانية التى تظهر فى معنى رائع ، وكلام مشرق ، يثير فى النفس أخيلة الحقيقة يصورها ويبينها ، ويحس الانسان فيها بأطياف المعانى ، كما يحس بأطياف الصورة على حسب تثقيف الصور ، وحسن الاختيار فى ألوان الصور ، فللأساليب ألوان تحسن ، وتنسق ، وتصريف فى أوضاعها كما قال تعالى : « **انظر كيف نصرف الآيات لقوم يفقهون** » (٢) ٠

ولقد قال فى هذا المعنى الخطابى (٣) فى رسالة اعجاز القرآن : « وأما

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ١٧٦ ٠

(٢) الأنعام : ٦٥ ٠

(٣) أديب لغوى محدث توفى سنة ٣٨٨ هـ ٠

رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحـذق فيهـا اكثر لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعانى ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعضه ، فتقوم لـه صورة فى النفس فيتكلم بها البيان » واذا كان الأمر فى ذلك على ما وصفناه ، فقد علم انه ليس المغرد بذرب اللسان وطلاقته كافيا فى هذا الشـأن ، ولا كل من أوتى حظا من بديهة حاضرة ، وعارضة كان ناهضـا بحمله ومضطلعا بعبئه ، ما لم يجمع اليهـا سائر الشروط التى ذكرناها عـلى الوجه الذى حددناه ، وأنى لهم ذلك ، ومن لهم به : « **قل لئن اجتمعت الانس والجـن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » (١) ٠

وان الشروط التى ذكرها فى آنف قوله هو اختيار الألفـاظ من ناحيـة معانيها ، وقوة تماسكها بعضها ببعض وأشار الى أن الألفاظ قـد تـكون مترادفة فى الظاهر ، ولكن عند التحقق فى مرماها يـكون الاختـلاف ، وان كان المعنى الجملى واحدا ٠

وان الناظر الى أسلوب القرآن الكريم فى الخطاب والبيان ، يجـده مختلفا ، فمثلا أحيانا يكون بالاستفهام والاستفهام احيانا للتوبيخ ، وأحيانا للتقرير وأحيانا يكون للتنبيه ، والكلام يكون باطناب لا حشو فيه قط ومعاذ الله أن يكون فى كلامه تعالى ما يشبهه ، وفى الاطناب يكون تكرار القـول ، وأحيانا يكون الكلام ايجاز ليس فيه اخلال ، وأحيانا يكون الكلام تهـديدا تضطرب له القلوب وتفزع ، وأحيانا يكون توجيها يدعو الى التامل والفـكر وأحيانا ببيان أحكام الحلال والحرام وتوجيه أنظار المكلفين الى حكمها ، وكل ذلك فى أسلوب متناسب مؤتلفة ألفاظه ، ومؤتلفة معانيه ، بحيث يتكون مـن الجميع صورة بيانية متناسقة فى معانيها مؤتلفة فى الفاظها لا ينبو واحـد منها فى لفظ أو معنى بل يتآخى الجميع ٠

---

(١) رسالة الخطابى ص ٣٧ ــ الاسراء : ٨٨ ٠

التآلف فى الألفـاظ والمعانى :

٥٤ — التآلف فى الألفـاظ ، بألا تكون بينهـا نفرة فى المخـارج ، ولا نفرة فى النغم ، بل يتلاقى نغمها ، وتسهل مخارجها فلا تـكون واحـدة نابية عن أختها ، بل تتآلف وتتآخى فى نسـق واحـد ، بحيث لا تبدو واحـدة بنطق غير مؤتلف مع نطق تاليتها ، أو كما قال الجرجانى فى دلائل الاعجاز ، كل كلمة لقف مع أختها ، ولو حاولت أن تنزع كلمة لتضع مكانها اخـرى فى معناها ، ما ائتلف السياق ولا انسجم الأسلوب ، ويقول فى هذا الباقلانى فى كتابه (اعجاز القرآن) :

« واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان قليـل الطلاب ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل بيت ، عصمة تفطـن لما فيه ، وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ٠٠ وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضـع الصبح ، فى موضـع الفجـر يحسن فى كل كلام ، الا أن يـكون شعرا أو سجعا ، وليس كذلك ، فان احدى اللفظتين قـد تنفر فى موضع ، وتزل عن مكان لا تـزل فيه اللفظـة الأخـرى ، بـل تتمكن فيـه ، وتضرب بجرانها ، وتراها فى مظانها ، وتجدها فى غير منازعة فى أوطانها ، وتجـد الأخرى لو وضعت فى موضـعها لكانت فى محـل نفـار ، ومرمى شرار ، ونابية عن استقرار (١) ٠

هذا ما ذكره الباقلانى فى كتابه ٠ واذا اطرحنا ما فيه من سجع لم يجىء على رسله ، واتجهنا الى ما يرمى اليه . وجدناه سليما دقيقا ، وانه لا ينطبق على كلام كما ينطبق على القرآن ، ومقام القرآن الكريم فيه مقـام الذروة والسنام ٠

وان التاليف ليس فقط فى نسق الألفـاظ ونغمها ، بـل انـه يشـمل التآخى فى المعانى كالتآخى فى المبانى ، فلا يكون معنى لفظ نافرا من المعنى الذى يجاوره ، ويتالف من الألفاظ والمعانى وما توعـزه من أخيـلة ، ومـا

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٨٠ طبع المعارف ٠

تثيره من معان متداعية يدعو بعضها بعضا • ويتألف منهـا علم زاخـر ، كثير خصب ، وقد عبر عن هذا المعنى الوليد بن المغيرة بقوله : « ان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق » •

ولنذكر لك شاهدا على ما نقول • هو قصة الأعرابى الذى سـمع قـوله تعـالى : « **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم** » (١) فأخطأ القارىء وقـال غفور رحيم ، فقـال الأعرابى ، انه يقطع الأيدى نكالا ، فلا يتفق القول ، فراجـع القارىء نفسـه وأدرك المعنى •

٥٥ — وان التآخى فى المعانى والألفاظ ونسقها ونغمها ومعانيها ، واضح فى كل آيـات القـرآن ، لا فى آيـة دون أخـرى ولا فى سـورة دون سورة • فلا تجد فى لفظ معنى يوجه الخاطر الى ناحية ، ويليه آخر يوجهه الى ناحية أخرى ، بل تجد النواحى متحـدة اما بالتقابل واما بالتـلاصق والمجاورة ، وفى كلتا الحالين ، تجد معنى كل لفظ يمهد لمعنى اللفظ الآخـر فلا تنافر فى المعانى ، كما لا تنافر فى الألفاظ وهما فى مجموعهما ينسابان فى النفس غذاء رطيبا مريئا ، ونميرا عذبا سلسبيلا •

وقد ساق الباقلانى آيات ليست مختارة اختيارا ، لأن آيات القرآن كلها لا نظير لها ، فليس اختيار من ينتقى ، لأن كله خير وسنذكر آيات ممـا ذكر وأخرى لم يذكر ، كنا نفتـح الكتاب ، فيبدو نوره فنقبس منه قبسـة •

اقـرأ قـوله تعالى : « **وكذلك أوحينـا اليك روحـا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتـاب ، ولا الايمان ، ولكن جعلنـاه نورا نهـدى به من نشـاء من عبادنا ، وانك لتهـدى الى صراط مسـتقيم ، صراط الله الـذى له مـا فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور** » (٢) •

هذه الآيات الكريمة بعباراتها واشاراتها البيـانية ، وسياقها تدل عـلى

---

(١) المائدة : ٣٨ •
(٢) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ •

ابتداء الرسالة المحمدية ، وانتهاء أمر الناس فى الأخذ بها ، وعاقبة من اهتدى ومن ضل وعصى وغوى ·

واذا نظرت الآيات الكريمات مع ما سبقها ، ، وجدتها كلاما متآخيا ، يندمج بعضه فى بعضه فى ائتلاف ، لا نفرة فيه ، فالآية قبلها تبين طرق كلام الله تعالى لخلقه ، لقد قال تعالى قبل هذه الآيات : « **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ، فيوحى باذنه ما يشاء ، انه على حكيم** » (١) ·

ولنبتدىء بالاشارات البيانية التى وعدنا أن ننبه الى بعضها ، فليست لنا الطاقة الى ادراك كلها ، ولعل غيرنا يدرك بعضا آخر ، ولا أحسب أننا جميعا نصل الى كنه اشاراتها ·

فهنا نجد كلمة كذلك تربط هذه الآيات بما فيها ، فهى تدل على المؤاخاة بينهما ، وهى تشير الى علو الله فى المعنى الذى قرره « انه على حكيم » وتشير الى حكمة اختيار الطريقة فى الرسالة المحمدية ·

ولننظر فى الألفاظ نجد التآلف بينها فى النطق والنغم ، أفلا نجد ائتلافا بين كلمة أوحينا ، وكلمة روحا ، وكلمة من أمرنا ، لا انبه الى ما فيه من تآلف فى النطق ، وتآخى فى المخارج والنغم فذلك بين لا يحتاج الى بيان ، وهو يتصل بالذوق والجرس فى السمع ، فهو يدرك بالحس ، ولا ينبه اليه بالمعنى ·

ولكن نريد أن ننبه الى التآخى فى المعنى لكل كلمة سيقت ؛ وما تتسع له كل واحدة من معان تتلاقى مع أخواتها ، وتأتلف ، فتعطى صورة بيانية رائعة ·

فكلمة أوحينا تدل على أن خطاب الله تعالى لرسله لا يكون جهرا يعلمه كل واحد ، ويسمعه كل انسان ، فهو خطاب لرسول ، والرسالة

---

(١) الشورى : ٥١ ·

بمجرى الأمور تكون بين المرسل ، وبين من يرسله ، والتعبير بأوحينا ابطال لقول من يقولون « أرنا الله جهرة » ، أو قول من يقولون عن جهل بالله ورسالاته الذين يقولون « لولا أنزل عليه ملك » أى نراه ونحسه ولهذا رد الله تعالى قولهم بقوله : « **وقالوا لولا انزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ، ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون** » (١) ٠

فكلمة أوحينا مع حلاوة لفظها فيها اشارة الى هذه المعانى وفى عمومها ، ولم يبين نوع الوحى ، اذ هو على ضروب مختلفة متعددة بالنسبة لخطاب الله تعالى لأنبيائه عامة وبالنسبة لمحمد خاتم النبيين خاصة ٠ وذلك اما برسول يشاهد يرى ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبى (يراها النبى عليه السلام وحده) واما بالقاء فى الروع كما قال عليه السلام : « ان روح القدس نفث فى روعى » واما بمخاطبة لله تعالى وسماع كلامه سبحانه من غير حس ، كما كان فى المعراج وفرض الصلوات ٠

وبكل تلك الأنواع والطرق كان وحى الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ونجد فى اضافة الايحاء الى الله تعالى بيان عظمة الوحى ، وكون الايحاء الى النبى مخاطبا له جل جلاله اعلاء لشأنه وبذلك تتآخى فى رفع شأن الرسالة والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقوله تعالى « روحا من أمرنا » والروح هنا قال أكثر المفسرين للقرآن جبريل ، ونرى أنها تشمل جبريل عليه السلام فقد سماه الله تعالى روح القدس ، ويكون معنى الايحاء الارسال ، ويشمل القرآن ، ويشمل الشريعة نفسها ، وتسميتها بالروح لما فيها من معنى البقاء والحياة الى يوم القيامة واضافتها الى من أمر الله تعالى لتشريفها وتشريف من جاءت اليه وبعث باسمها وهكذا نجد مع ائتلاف الألفاظ فى النسق والنغم وجرس

---

(١) الأنعام ٨ ، ٩ ٠

الكلام تآخيا فى المعانى ، فانها كلها تدل على شرفها بعظم مصدرها وهو الله تعالى ، وكبر المعانى فى ذاتها ، فكان لها شرف المعانى ، وكان لها شرف أنها من الله تعالى فأى كلام بليغ يصل الى كل هذا فى التآلف بين المعانى والألفاظ ٠

٥٦ ـ والآية السامية تحوى فى سياقها ، دليل الرسالة ، فيقول تعالى :

« **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان** » وان هذا النص الكريم مع ايجازه يرمى الى ثلاث حقائق :

الأولى : أنه ما كان يعلم علم الكتابة فلم يكن قارئا ، ولا كاتبا ، وعبر هنا عن العلم بالدراية ، لأن الدراية علم يأتى بالتعلم والممارسة ، فهو علم كسبى ، وأنه ما كان يعلم بالدراية ، ونفى الدراية فى الايمان ، لأنه لم يكن هناك من يلقنه علم الايمان الا أن يكون الهاما من الله ، تعاونه الفطرة المستقيمة ، وقد يقال ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان مؤمنا منذ بلغ التمييز وقبل ذلك ٠ فكيف كان لا يدى الايمان ، والجواب عن ذلك أنه كان موحدا ، ولكن بقية ما يقتضيه الايمان من صلوات وزكوات وتنظيم للمجتمع ، وطرق التعامل السليم ، ما كان يدريه ، وبهذا يفسر قوله تعالى : « **ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى** » (١) ٠

الثانية : أن فى هذا الكلام السامى حجة على أن القرآن من عند الله تعالى ، وأن محمدا لم يأت به من عنده ، لأنه ما كان يقرأ ولا يكتب ، وهذا كما قال الله تعالى فى سورة أخرى ، « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذن لارتاب المبطلون** » (٢) ٠

الثالثة : أن قوله « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » الدراية داخلة على الاستفهام ، فنفى الدراية متجه الى الحقيقة أى أنه ما كان

(١) الضحى : ٦ ، ٧ ٠

(٢) العنكبوت : ٤٨ ٠

يدرى حقيقة الكتاب ، ولا تفصيل الايمان ، وهذه تأكيد لنفى العلم بالكتاب علم دراية ، ونفى العلم بتفاصيل الايمان علم دراية ٠

ولا شك أن كل كلمة من هذا النص وماسبقه تتآخى مع ما بعدها وما قبلها فى تقرير حقيقة ثابتة ، وهى أن القرآن روح من عند الله ، وكل روح فيها حياة ، وحياته فى الشريعة التى أنزلها ، والتوحيد الذى دعا اليه ، والحق الذى اثبته ، والصلاح الذى بثه ، ودفع الفساد فى الأرض ، ولكن القرآن نور هذا الوجود « ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا »٠

٥٧ ــ وننظر فى النص ، وانسجام الفاظه ، وتلاقى معانيه ، وانك تجد للاستدراك هنا موضعا طيبا ، اذ أن النص الكريم السابق كان فيه نفى الدراية عن حقيقة الكتاب وعن حقيقة الايمان والاستدراك هنا لا يفيد أن نفى الدراية دائم ، بل انه ينتهى بعلم الكتاب الذى هو النور الذى يهدى به الله تعالى ٠

ولنترك الكلمة للباقلانى فى الاعجاز فهو يقول :

« جعله سبحانه وتعالى روحا لأنه يحيى الخلق ، فله فضل الأرواح فى الاحياء ، وجعله نورا ، لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق ، ثم أضاف وقوع الهداية الى مشيئته ، ووقف وقوع الاسترشاد به على ارادته ٠ وبين أنه لم يكن ليهتدى اليه ٠ لولا توفيقه ، ولم يكن ليعلم ما فى الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه ، وأنه لم يكن ليهتدى لولا هداه فقد صار يهتدى ، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدى » أى أن القرآن الكريم قبل نزوله ما كان النبى يدرى ما الكتاب ولا الايمان وبعد نزوله اهتدى ، وعلم ، وبلغ مرتبة أن يحمل الهداية والارشاد للناس بعد أن كان لا يدرى الكتاب ولا تفصيل الايمان وهذا يفيد أن القرآن تعليم الله للنبى ، وللناس من بعده » ٠

وأن الكلام السامى « ولكن جعلناه نورا » فى هذا استعارة تمثيلية أى انه هو كالنور المضىء الذى لا يضل فيه السارى ولا يختفى على من يبصر بسببه شىء ، بل ان فيه تأكيد التشبيه يجعله هو النور ، وأن الذين لا يبصرون حقائقه ، وما فيه من علم ، العيب فيهم ، وليس فيه ، والنقص منهم ، وليس

منـه ، واضـافة جعـله نـورا الى الله تعـالى تشريف لـه فـوق تشريف ، وهـو يتفـق مع النسـق الـذى ابتـدأ بـه النص الكريم ، ولـكن مـع انه النـور الـذى يهـدى ـ لا يهتـدى بـه الناس من غير أن يكون ذلك بمشـيئة الله تعالى ، فقال سبحانه من نشاء من عبادنا ، فبين سبحانه سلطانه عـلى القلوب ، وخص بالهداية من شرفه بأنه من عباده تعالى سلطانه ، وقام عدله ، وفى هذا اشارة بيانية الى أن الذى شاء الله تعالى هدايته هـو من خلص نفسه ، وجعلها لله وحده ، وشرف بأنه من عباد الله لا من اخوان الشياطين ٠

ولقد شرف الله تعالى نبيه بأن نسب اليه هداية الارشاد ، وبيان السبيل فهو نور معه نور الكتاب ، ولذا قال تعالى :

« **وانك لتهدى الى صراط مستقيم** » أكد الله تعالى عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان سبيل الحق ، والدعوة اليه ، وانه المستقيم الـذى لا عوج فيه ، ولا اضطراب ٠

فهنا هدايتان أولاهما هداية التوجيه والارشاد وبيـان الحق ، ودعوته وهى للرسل ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فمـن علم واستنار واهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما الله بظـلام للعبيـد والهداية الثانية العليا ٠ وهى امتلاء القلب بالايمان بعد أن سار فى طريقـه وأرشد اليه ، وهذا لمن يشاء الله هدايته من عباده المؤمنين ٠

وقد ذكـر الله تعـالى من بعد ذلك الحـكم العدل باعطاء الطائع جزاءه من ثواب ، وما يستحقه العاصى من عقـاب ، فقال تعالى : « ألا الى الله تصير الأمور » أى واليه وحده مآل الأعمال كلها ، وكل امرىء بما كسب رهين فمن عمل صالحا فله جزاؤه ومن عصى وبقى نال عاقبة ما عمل ٠

ونرى من هذا تآخى المعانى فى الآيات ٠ وتسلسل ما ترمى اليه ، فبين أولا بعث النبى عليه السلام ، واعطاءه الدليل بمعجزة القرآن الذى لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذكر ثانيا الحجـة عـلى صدق القرآن ثم أشار الى انه نور ، وذكر أن النبى عليه السلام عمـله الارشـاد وبيـان الحق والطريق اليه ، وأن الهداية من بعد ذلك ٠

هذا تآخى المعانى ، وكون كل معنى مقدم للذى يليه ، والتالى مبنى عليه ودعامة لما بعده ، أما تآلف الألفاظ فى النغم ، والحروف ، فأمر فوق طاقة البشر ٠

وانه ليتآلف من هذا الكلام صور بيانية للوحى ، والقرآن ونوره وهداية الأنبياء وموضعها ، وهداية الله تعالى ، وثمرتها فى القلوب وكونه لعباد الله المخلصين ، لا لعبدة أهوائهم وشهواتهم ٠

صورة بيانية للطمع والشح ثم الندم

٥٨ ـ تلك صورة لمن سيطر عليهم الشح فذاقوا عاقبته ، ثم تنادوا بالتوبة والتلاوة ٠ قال تعالى :

« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا ، وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ٠ فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون ٠ قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين ٠ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا ياويلنا انا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (١) ٠

سبحان الله تعالت كلماته ، وعن قرآنه ، وعلا بيانه ، ولعل من فضول القول أن أقول ان الآيات تصوير رائع لنفس الشحيح ٠ وحرصه ، وندمه ان ذلك من فضول القول : لأن القرآن كله رائع لا يصل الى روعته كلام مطلقا ، ولا يستطيعه قائل ٠

---

(١) القلم : ١٧ ـ ٣٣ ٠

ان الآيات الكريمة فيها (١) صورة بيانية لنفس الحريص العاقل عن سلطان الله تعالى (٢) وصورة بيانية لغفلة الحريص عن قضاء الله تعالى ، وأن كل شيء عنده بحساب (٣) وفيها بيان لحال المناعين للخير · وما يدور فى نفوسهم (٤) وصورة بيانية للندم كيف يدخل النفوس بعد التنبه · (٥) ثم حال الندم وما يليه من توبة نصوح · (٦) ثم بيان حال الرجاء فى رضا الله تعـــالى ·

وقبل أن نتكلم فى تلك الصور البيانية نقول ان الألفـــاظ ليس فيها نبوة تبدو ، ولو بترجيع النظر كرات ، والتناسق فيها متوافق النغم تفيد برنينها ، وتصل الى القلوب فى عميقها ، والمعانى متآخية تتجــه كلها الى تصـــوير الطامعين أهل الشح ، وكيف يبتدىء بالحـــرص العنيف ، المغـــالى فيــه ، وتغليب الطمع فى كل شيء ، والاستيثاق من تحقق ما يطمع فيه ، كما يصور له الطمع ، ثم يشتد المنع حتى يكون لكل خير ، ثم تكون المفاجأة ·

هذا وان مجال التصوير يظهر فى أن الموضـــوع كله ذكر مثـــلا لـــكل مناع للخير ، لأنه ذو مال وبنين ، ودفعـــه غـــروره ، بمـــا آتاه الله مـــن مال ، ثم كفر به ، واعتدى ، وكانت عاقبته أنه حـــرم مما طغى به وصار يوم القيامة أمام الجزاء الأليم بيد أن أولئك أصحاب الجنة وهى الحديقة المثمرة ، كانت لديهم فرصة الرجاء بعد الندم ، أما هؤلاء فقد فاتت فرصـــة الرجـــاء ولات حين مناص ، ولنذكر بعـــد ذلك ما نستطيع الاشـــارة اليه من النواحى البيـــانية ·

٥٩ ـــ الصورة الأولى صورة الطمع المتغلغل فى النفس الذى ينسيها كل شيء ما عدا ما تطمع به النفس ، فقد قال تعالى : « **انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون** » ·

اختبرهم الله تعالى بالطمع كما اختبر أصحاب البستان المثمر ، ونرى التشبيه هو ما يسمى بالتشبيه التمثيلى ، وهو تشبيه حال الطاغين المعتدين أن رأوهم استغنوا لأنهم ذوو مال وبنين ، فغلبهم الطمـــع ، حتى أوبأهم فى أسوأ الأحوال ، والعناد مع الله تعالى ، بحال أهل الحديقة اذ غرهم الغـــرور

فظنوا أنهم واصلون الى ما يبتغون ، واقسموا على ذلك غير مقدرين عاقبة ، ولا حسابا لما يأتى به الله تعالى · والتشبيه بلا ريب للتقريب ، لا للمساواة ، لأن حال الكفار أشد عتوا وأبلغ غرورا ، وهكذا كل تشبيهات حال القيامة وما وراءها بحال ما يقع ليس للتساوى أو لأن المشبه به أبلغ فى وجه الشبه ، ولكن لتقريب الغائب بتصويره بالحاضر ، ومثل ذلك تصوير المعنويات بالمحسوسات ، وما يكون من جزاء وعقاب هو من المحسوسات ، ولكنه غائب ·

وهنا فى النص نجد تصوير النفس الطامعة ؛ اذ أنها لشدة رغبتها تتصور محل الطمع واقعا لا محالة ، ولذلك أقسموا جاهدين فى قسمهم ليصرمنها ، أى ليقطعنها قطعا يستأصلونها من أدناها ، وهذا اللفظ فى هذا المقام أبلغ من القطع ؛ لأن الصرم قطع من الجذور ، أى هو قريب من القلع ، ولتصورهم استجابة لطمعهم أنهم واصلون أكدوا الصرم باللام ونون التوكيد الثقيلة ، ولشدة الطمع لم يتوقعوا تخلفا قط ، ولذلك لم يستثنوا ، فلم يقولوا ان شاء الله ، أولا ، لأن حرصهم ورغبتهم الجامحة أنستهم الله تعالى · ولأن تطلعهم الى ما تهوى أنفسهم لم تجعل لاحتمال التخلف موضعا فى عقولهم ، وكانت اللهفة والحرص على التنفيذ قد جعلاهم معجلين التنفيذ ، فهم يبكرون به مصبحين غير متلبثين ولا متأخرين لأن القطع أمر محبوب ، لا يرون معه ابطاء ، ولا تريثا ، بل يستعجلون ما يريدون بل ما يهوون ·

وقد صور الله سبحانه وتعالى غفلتهم عما يقدره الله تعالى ، مع أنه متحقق ، فهم يقدرون ويرغبون ، ويستعجلون ، والله من ورائهم محيط ، وقد صورت الآية الكريمة قدر الله تعالى بقوله تعالت كلماته : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » الطائف العارض الذى يعرض ليلا من ريح صرصر عاتية ، أو عواصف تقتلع الأشجار ، وتلقى بالثمار ، وهذا الطائف بأمر الله تعالى ، فكل شئ فى الوجود بارادة الله تعالى القدير ، والصريم الأخشاب المتراكمة ، أو الأشجار القائمة المصروم ثمرها المقطوع منها ما أينعت ، وهذا بلا شك تصور بين ، لما

يجريه الله تعالى فى الأرزاق ، ومهما يقدر الانسان فى كسب الرزق ويحاول التحكم فيه ، فان الله تعالى فوق ما يقدر ٠

ونرى من هذا تصوير ما فى نفوسهم ، وبيـان ما يحيط بهم فى بيـان متماسك في ألفاظه ، متآخ فى معانيه ٠

٦٠ — ولقد صور سبحانه وتعالى صورة الحرص ، ومنع الخـير فى أعنف صوره النفسية ، فقال تعالت كلماته « **فتنادوا مصبحين ، ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليـوم عليكم مسكين** » ٠

أنزل الله بالحديقة ما أنزل وهم لا يعلمون ، فكان حرصـهم على ما هو عليه ، وتعجلهم لجنى الثمار ، كما هو ، وقد صور الله تعالى ذلك بذكر حالهم أنهم تنادوا ، أى نادى بعضهم بعضا مجمعين على ما أرادوا ، أن أصبحوا فى الغد مبكرين على زرعكم وثماركم الذى حـرثتم أرضـه ، وأصلحتم ثمره ، ان كنتم تريدون قطعـه ، وقطف ينعـه ، ويلاحظ أن التعبير بصارمين ، فيـه معنى الارادة الصارمة للقطع الذى لا ريب فيه ٠

وان معنى التعجل والحرص قد أكد بقوله تعالى حكاية عنهم « فانطلقوا وهم يتخافتون الا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » هذه النصـوص تصـور اجتماعا وافتراقا ، فقد اجتمعوا على نية القطع ، واجتمعوا عـلى المسارعة فيه ، واجتمعوا على أمر خبيث لم يعلنوه ، ولكن اتفقوا عليـه فى تخـافت واسرار ، واجتماع عـلى تلك النيـة الخبيثة ، وان كلمة يتخافتون تصـوير لحالهم الحسى ولأمرهم النفسى ، ولمعنى المنع ، فان الامتناع عـن الخير ، لا يكون الا باصرار النفوس ، والتفاهم فى سر ، ولا يكون فى جهر ، فتخافتوا على ألا يعطوا مسكينا ، وعبر عن المنع عن اعطاء المسكين بمنعه من الدخول ، فهم لا يمنعون العطاء فقط ، بل يمنعـونه من الدخـول بنهى مؤكد وباصرار على المنع ، ولو بالدفع أو القهر ، فضلا عن الطرد والنهر ، واغلاق الأبواب واقامة الحراس المانعين ، وأكدوا تنفيذ فكرتهم بما حـكى الله عنهم من تأكيد المنـع بالنون الثقيلة ٠ هذه أحوال اجتماعهم ، أما افتراقهم فهو دخولهم على الحديقة ، متفرقين كل فى جانب منها ، ودل عـلى ذلك قوله فانطلقوا

فهم ذهبوا ليقطعوا ، ويجمعوا كل فى جانب تجمعهم فكرة التعجل ، والتصميم ، والالحاف فى منع المساكين ، وقال تعالى فى تصوير تعجلهم مع سيطرة فكرة المنع عليهم « وغدوا على حرد قادرين » فغدوا معناها اقدموا فى باكورة الغداة . والحرد معناه المنع والتشدد فيه ، والمعنى أنهم أصبحوا قاصدين القطع ، ومعتزمين المنع من حق الفقير بل منع دخوله ، وموضع قادرين هنا هو وصفهم بالقوة على العمل والتنفيذ والمنع بكل الوسائل .

هذا تصوير لا تعرف اللغات تصويرا للحرص والتعجل ، والاستيثاق بالايمان وعدم التردد فيما يعملون ، ونية السوء ، والتخافت فيها ـ مثله ، « ولو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

٦١ ـ ولكن الآيات الكريمات بعد تصوير حالهم هذه فى التعجل والحرص ، لتصوير المفاجأة ، وتنبيه المفاجأة للغافل وايقاظها للضمير النائم ، واثارتها للوجدان الساهى ، فيقول سبحانه فى رؤيتهم لتهدم ما بنوا عليه اشباع طمعهم ، وما حملهم على نية الشر ، فقال تعالت كلماته :

« فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون » .

كانت المفاجأة بمقدار الحرص والطمع . واسترسالهم فى المطامع المادية حتى استأثروا بها ، ولم يعطوا منها حق الفقير المسكين والسائل والمحروم ، واذا كان حرصهم بلغ اقصاه ، فالمفاجأة بالحرمان كانت أشد وقعا ، أصابتهم بالحيرة الشديدة ، والضلال البعيد ، وأول الضلال انهم توهموها غير أرضهم ، فلما استيقنوا أحسوا بضلال آخر معنوى أشد فتكا فى النفوس وتأثيرا فى القلوب ، وهو احساسهم بالضلال المعنوى اذ قدروا ، ولم يدركوا تقدير الله ، وحسبوا أن الأمر اليهم وحدهم ، والله فوقهم ، فلما أدركوا ضلال تفكيرهم قرروا الحقيقة الثانية ، وهى أن الله تعالى قدر حرمانهم ، وما قدره نافذ لا محالة ولذا قالوا كما حكى الله عنهم مؤكدين « بل نحن

محرومون » فالاضراب معناه هنا أنهم ترقوا من حال الضلال المؤكد الى حال الايمان بالحرمان المؤكد ٠

وان قوله تعالى عنهم « **بل نحن محرومون** » بعد « **انا لضالون** » فيه اشارة واضحة الى الأسف والألم المرير ، ألم الضال ، والحرمان من الهداية ، ثم الحرمان المطلق من الثمرات التى طمعوا فيها ، وتخافتوا على ألا يعطوا الفقير ٠

واذا كان قد اجتمعوا على ما كان منهم أولا ، فقد اجتمعوا على المفاجأة والحرمان ثانيا ، ولكن يظهر أن الشر لا يمكن الاجماع عليه دائما ، بل لابد من قائم لله تعالى بحجة ، واذا لم يستمع له قول ابتداء فان قوله سيكون له صدى فى النتيجة بعد أن تتبدى الأمور وتتجلى ٠

وكذلك كانت حال أصحاب الجنة ، فقد كان فيهم رشيد ينبههم الى خطأ ما أزمعوا أن يفعلوه ، وقد حكاه الله سبحانه وتعالى بقوله : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » ٠

الأوسط هو الأمثل ، والوسط فى أوصاف الخير هو الأمثل دائما ، ومن ذلك قوله تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** » (١) وهذا الأمثل عندما رأى حالهم وتدبيرهم وطمعهم ، وما يسرون به وما يجهرون ، وما يتخافتون وما يعلنون لاحظ أنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكان لابد لكى يدركوا صالح أمورهم أن يؤمنوا بالله وأن يذكروه فى أعمالهم ظاهرة وباطنة ، فهم لا ينقصهم الجد فى العمل ، ولكن ينقصهم الايمان ، فقال لهم « لولا تسبحون » أى هل تسبحون وتنزهون الله تعالى ، وتقدسونه ، وتعلمون أنه القاهر فوق كل شىء ، وأنه العليم الحكيم ، وهنا كان فيما حكاه الله تعالى بالتعبير « ألم أقل لكم لولا تسبحون » الاستفهام الداخل على النفى فى معنى الاثبات ؛ لأن نفى المنفى اثبات ، وهو يدل على التوبيخ ، وتذكيرهم بأنهم لم يفعلوا ما فعلوا فاقدين للمنبه المرشد ، فقد أرشدهم الى الطريقة المثلى

---

(١) البقرة : ١٤٣ ٠

والمنهاج الأسلم ، وهو الايمان بالله تعالى وتقديسه وتنزيهه ، والاحساس بأنه الغالب على كل شيء القاهر فوق عباده ·

٦٢ ــ ان المفاجأة مع التذكير ، ووجود الضمير والنفس اللوامة من شأنها أن تحيي موات القلوب ، وخصوصا أنه وجد من بينهم من ربط بين الحرمان الذى فوجئوا به ، والضلال الذى كان من نسيان ربهم ، وحرصهم وطمعهم ، وتفاهمهم على حرمان الضعيف مما أخرج الله تعالى من الأرض كان ذلك كله سبيل الهداية التى تجيء ، ومن القارعة التى تقرع الحس والنفس تنبهوا فعلموا ما ينقصهم ، وأنهم لهجوا فى الدنيا ، ولم يذكروا الله تعالى خالق السموات ، فقالوا فيما حكى الله تعالى عنهم « **قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين** » ·

بعد أن تنبهوا من غفلتهم ، واستأنسوا بالحق من تذكير أمثلهم طريقة استجابت نفوسهم لداعيه ، وعلموا أمرين : علموا أنهم كانوا غافلين عن ربهم ، وعلموا أنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الناس فيما تخافتوا به ، قالوا فى اعلان ايمانهم بالله ، « سبحان ربنا » نقدس وننزه ونسلم أمورنا ، لربنا الذى خلقنا وربانا وهو الحى القيوم القائم على كل شيء · فرجعوا بذلك الى الله تعالى خالق كل شيء ، ولكن لا يكون الرجوع كاملا ، الا اذا تابوا توبة نصوحا ، وأحسنوا التوبة وأول طريق للتوبة الاقرار بالذنب اقرار من يحس بذل المعصية ، وذل الذنب قربه ، كما يقول ابن عطاء الله السكندرى « ان معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا » ولهذا الاحساس بالذنب ، قالوا مؤكدين القول « انا كنا ظالمين » لقد ظلموا أنفسهم بطمعهم وحرصهم ، ونسيان ربهم ، وظلموا الناس بمنع الفقراء من حقهم وان الاحساس بألم المعصية من شأنه أن يجعل كل واحد يلقى تبعة التقصير أو التنبه على غيرهم ، فهم كانوا مجتمعين على طمعهم وحرصهم وتعجلهم ، ولكنهم بعد أن أحسوا بجرمهم أخذ كل واحد يتبرأ من أنه الذى ابتدأ بالدعوة بالمعصية ، وأن الآخر هو الذى دعا فأجاب ، ولذا قال الله تعالى حكاية عنهم بعد أن دخل الايمان قلوبهم وأشربوا حبه « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » كل واحد منهم يلقى على الآخر لوما ، لاكل اللوم ،

فانهم جميعا ملومون لأنهم جميعا · نووا ، وهموا أن ينفذوا ما نووا ،
والتلاوم هنا ليس هو الاختلاف الذميم ، ولكنه من الاحساس الكريم ، اذ
أنهم أحسوا بأن عبء المعصية كاملا ينوء بكل واحد منهم ، فيريد أن يلقى
جزءا منه على صاحب له وان اتفاقهم لا يجيء من غير داع منهم ، فاذا
كان أوسطهم دعاهم الى الخير ، ولم يستجيبوا ، فقد وجد منهم من دعا
الى الشر واستجابوا له ، وكان شرهم متعدد الأطراف ، فكان من كل منهم من
دعا الى ناحية دون الأخرى ، وهنا نجد أن التعبير بالتلاوم لا يدل على الفرقة
والانقسام ، بل انه فى هذا لا ينافى الالتئام ·

وانهم ينتهون من هذا التلاوم الذى ابتدأ بالألم من عبء المعصية ينتهون
بعد التلاوم لفرط احساسهم بالندم الى أن يقولوا « قالوا يا ويلنا انا كنا
طاغين » كان الاقرار بالذنب فى هذه المرة أقوى من الاقرار أولا ، لأنهم
أحسوا بالهلاك الشديد ينزل بهم ، قالوا منادين الويل : « يا ويلنا » أى أيها
الويل النازل باستحقاق أقبل فان ذلك وقتك ونحن موضعه ولا نتزايل عنه
ولا نخرج ، وعللوا الويل الذى يستحقونه بأنهم كانوا طاغين ، والطغيان
دائما يؤدى الى الظلم ، فاذا كانوا فى الآية السابقة قد اعترفوا بالظلم ففى هذا
النص السامى اعترفوا بسببه ، وهو الطغيان ، والطغيان يجعل صاحبه يحسب
أن قدرته ليس فوقها قدرة ، والاحساس بالطغيان يبتدئ من وقت أن يحس
الشخص بأنه استغنى عن معونة غيره ، كما قال الله تعالى : « **ان الانسان
ليطغى أن رآه استغنى** (١) » وقد ظنوا أنهم لا يحتاجون الى معونة أحد ،
وأن الله لا يمنعهم خيرا أوتوه ، وأن الأرض أرضهم والعمل عملهم ،
والكسب كسبهم وحسبوا أن الثمرات آتية لا محالة ·

بعد ذلك اتجهوا خاضعين الى ربهم معتقدين أن الخير بيده ، وأن
لا سلطان الا سلطانه فاتجهوا بالرجاء بعد أن رأوا المنع جهارا نهارا وقالوا
راجين « عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبون » هنا كان
التفويض كاملا ، وان ذلك النص الكريم يفيد فى تفويضهم ثلاثة أمور فى

---

(١) العلق : ٦ ، ٧ ·

أجمل تعبير من الله تعالى عن ضمائرهم الخائفة ، بعد أن خلعوا رداء الطغيان ٠

أولها ـ الرجاء ، والرجاء يتضمن معنى التفويض من ناحية أنهم لا يرجون الا من الله ، ومن ناحية أن كل ما يكون من الله تعالى ـ خير ، فاذا كان نزل بهم ما يكرهون ، فعسى أن يكون الخير فى هذا الحرمان ، كما قال تعالى : « **فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** » (١) ومن الخير أن هذبت نفوسهم ، واذا كان حالهم من قبل حال طغيان وغرور ، فعسى أن يعطيهم الله تعالى بديلا لما منعوه ، ويكون مع الاطمئنان ٠

ثانيها ـ الاتجاه الى الله تعالى مالك أمورهم ، ومربيهم ، والكالىء لهم والحامى ، والشعور بالمساواة مع المساكين فى ربوبية الله الخالق لكل شىء ٠

ثالثها ـ قولهم : « انا الى ربنا راغبون » ولا أحسب أنه يمكن أن تضع كلمة مكان راغبون ، مع الى ، وتجد فى هذا التعبير اشارات بيانية رائعة ؛ أولاها فى تكرار كلمة ربنا للشعور بنعمه سبحانه الظاهرة والباطنة والثانية فى تقديم الجار والمجرور على خبر ان ، فان ذلك التقديم للقصر ، وهو يفيد أنهم لا يرغبون فى مال ولا نشب ، ولا يحسبون شيئا يمكن أن يكون بغير ارادة ربنا ، اذ كانوا قد حسبوا أنهم بجهودهم يصلون ويمنعون الماعون ، ويقسمون ألا يدخلنها مسكين ، ولكنهم الآن لا يتجهون الا الى الله تعالى العلى القدير ، والتعبير براغبون يفيد أنهم يسيرون فى طريق الله تعالى وحده برغبة ومحبة ، فهم يطلبون طريق الله تعالى لا خوفا من عقابه ، ولا رجاء لثوابه فقط ، ولكن محبة لذاته العلية ، فانتقلوا من دركة العصيان الى مرتبة المحبة وطلب الرضوان ٠

٦٣ ـــ ونرى فى هذه الآيات الكريمة المصورة لتلك القصة التى تشتمل على العبرة الواضحة فيها تتلاقى المعانى وكل معنى ردف لما سبقه ، ومقدم

---

(١) النساء : ١٩ ٠

لما يليه فى تآخ بين جزئياته ، وتعانق مع كلياته ، كل جزء من الكلام يوعز لما يليه ، وفيها الألفاظ مؤتلفة فى نغم يهز النفس وتآلف بين الألفاظ مفردة ، وجملا ، وفيها تصوير للنفس الانسانية كيف يدخل اليها الطمع ، ومع الطمع الشح ، واذا سكن الشح قلبا دخل منه الظلم وهضم الحقوق ، وانه لكى ينجو المؤمن من أن يكون ظالما عليه أن يراقب مداخل الشح الى نفسه ، فان سد طرقها اليها ، فقد فاز ، وكان عادلا ، كما قال تعالى فى سورة أخرى : « **ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون** » (١) فان وراء الشح الهلاك ، ووراء السماحة الفوز ٠

وان الآيات تصور لنا حال من يغتر ، ومن يطغيه الاستغناء ، ومن يحرم نعمة الاعتماد على الله تعالى والتفويض اليه ، ثم حاله عندما يفاجأ ، فيجد قدر الله تعالى أمامه يرد عليه طغيانه ، ثم تصور النفس التائبة ، وذلك كلام العزيز الحميد ٠

النفس الفرعونية

٦٤ ــ واذا كانت هذه الآيات التى تلوناها تصور النفس التى تطغى أن رأتها استغنت ، وحسبت أنه لا قدر فوق ما تقدر ، وكيف تفاجأ بقدر الله فتتنبه ، فقد صور الله تعالى فى كتابه العظيم ، النفس التى تطغى ، فتتغطرس فتتحكم فى الرقاب ، وتفرق بين العباد ، فهذه يأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ولا مكان لتوبتها ، اذ تفاجأ ، لأنه لا يكفر ذنوب العباد الا ردها ، ولا سبيل لرد ما فعلوه ، ثم كان فسادهم ، وتضييعهم الناس ، ولذلك يؤخذون بذنوبهم ٠ واقرأ قوله تعالى : « **ان فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح ابناءهم ، ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين** » (٢) ٠

---

(١) الحشر : ٩ ٠

(٢) القصص : ٤ ، ٥ ٠

ولا شك أن نسج الآيات متماسك ، بخيوط دقيقة غير قابلة لأن تنقطع وهى واضحة فى تصوير الحاكم الفاسد كيف يعلو فى الأرض ، وكيف يتحكم ، وقد قال فى صيغة العبارة الباقلانى بالنسبة للآية الأولى :

« هذه تشتمل على ست كلمات ، سناؤها وضياؤها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، ، ورونقها على ما تعاين ، وفصاحتها على ما تعرف ٠

وهى تشتمل على جملة وتفصيل ، وجامعة وتفسير ، ذكر العلو فى الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان ، وسبى النساء واذا تحكم فى هذين الأمرين ، فما ظنك بما دونهما ، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم ، والقلوب لا تقر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد ، وكفت فى التنظيم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره ٠

ثم ذكر وعده بالتخليص بقوله ، « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** » ، وهذا من التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المستانس » (١) ٠

هذا ما ذكره الباقلانى من ناحية التآخى فى الألفاظ والالتحام فى نسجها ، وانك لتجد ذلك التآخى فى سوق العلو الذى تعالى به وهو فى الأرض ، فقال تعالى « علا فى الأرض » فهو علو من فى الأرض ، ولاصق بها ، فليس يعلو الى السماء ، ولكنه مستمر فى الأرض ، فهو استعلاء ٠ وليس بعلو ، والاستعلاء طلب للعلو ، أو الاحساس به ، وليس قائما على اى اعتبار ، فكان ذلك التقابل فى اللفظ من حيث الانسجام ، ومن حيث المعنى فيه دليلا على أنه استكبار وليس علوا فى ذاته ٠

ولكن كيف يستقيم له هذا العلو ، وهو لاصق فى الأرض متنقل فيها ، انما هو المغلو فى الكبر ، وحمل الناس على الاقرار أو السكوت ، أو ظهور

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٩٥ ٠

الرضا وما هم براضين ، لأن أساس الرضا التخير ولا اختيار ، فان لم يكن فلا رضا ٠

ولننتقل من ذلك النص المصور للاستعلاء الكاذب الظالم الى ما سلكه لحمل الناس على السكوت عنه ، أو الخضوع له كارهين وان مردت نفوسهم على الخضوع ، حتى صاروا كالطائعين ، وذلة الاحساس بالتحكم قارة فى نفوسهم حتى اخضعتها ، فجعلتها خانعة ٠ وأظهرتها راضية ، ولا رضا عندها لأنه لا اختيار لها فيما تختار ٠

ذكر سبحانه ما سلكه فرعون كما يسلكه أى طاغية من طواغيت هذه الدنيا الذين يظهرون فى كل زمن ، وفى أرض كأرض مصر ، وناس كناسها ، كما أشار الى أنه عمل على تفريق جمعهم ، وتشتيت أفكارهم ، وصاروا متفرقين فى ذات نفوسهم ولا تجمعهم جامعة حق ، ولا ثورة على ظلم ، بل كان يقول لهم فى استكبار « أنا ربكم الأعلى » ، ويقول فى استنكار « **ما علمت لكم من اله غيرى** » (١) ٠

وقد قال تعالى فيما سلكه « **وجعل أهلها شيعا** » وهنا نجدكلماتثلاثا، كل واحدة منها تنبىء عن قصد الفرقة والانقسام بعد الوحدة والالتئام ، فكلمة جعل هى بمعنى صير ٠ وهى تدل على أنهم كانوا متحدين فى المشاعر والأحساسيس متفقين فى المنازع ، والمطامح والآمال فجعلهم متفرقين منتشرين فى غير اجتماع ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، والكلمة الثانية اهلها فهم كانوا قبلها أهلا ـ أى أنهم كانوا مجتمعين غير منقسمين ، فلكى يعلو عليهم أجمعين فرق جمعهم وشتت شملهم ، فكيف يعلو انسان مهما يكن طاغوته ومهما تكن قسوته وغلظته وحيلته على قوم متحدين مجتمعين ، ولكنه يخذل بينهم ، ثم يملك عليهم ٠

والكلمة الثالثة كلمة شيعة ، فان الشياع يتضمن معنى الانتشار ، وأن يقوى جزء على الآخر يحسب كل جزء منهم أنه أقوى من الآخر ، وأنه لا تربطه

---

(١) القصص : ٣٨ ٠

به رابطة ، ولا يجمعهم به قومية أو رحم ، أو تشابك المصالح ، ودفع المضار ، فاذا كانوا كذلك استعلى واستكبر ، ولا يجد من يرده عن غيه ، ويقمعه فى شره ، فيكون الهلاك ، وتقطع الأسباب ٠

وان النتيجة التى تكون أثرا لذلك ، أن يجعل من طائفة منهم بطانة له ، وجندا يستنصر بهم ويتخذهم أسواطا يضرب بها غيرهم ، ويتحكم فى جمعهم ، ولذلك قال تعالى فى ذكر هذه النتيجة الحتمية التى تتبع التفرق تبعية المسبب لسببة ، والنتيجة للمقدمة : « **يستضعف طائفة منهم** »أى يصور طائفة منهم ضعفاء ، أو يطلب ضعف طائفة منهم ، ويتتبعه ، وهنا اشارة بيانية رائعة لا تكون الا فى القرآن الكريم ، وهذه الاشارة هو أنه ذكر الطائفة المستضعفة ، ولم يذكر الطائفة التى جعل فيها قوته يضرب بها رقاب الناس ، والسبب فى أنه تعالى لم يذكرها موصوفة بالقوة ، لأنها وان لبست لبوس القوة ليست فى حقيقة أمرها ــ قوية فى شىء ، لأنها ليس لها اختيار فيما اختارت ، ولأنها لا تملك من أمرها شيئا بل مسخرة لطغواه ، مرادة له ، وليست بمريدة فيما تفعل ، والقوى هو الذى يفعل ما يريد هو لا ما يريده غيره ، ويعمل ليرضى شهوة نفسه لا ما يرضى غيره وليس هو من تكون ارادته فانية فى ارادة غيره قد لبس جلد النمر ، وما هو اهابه ، واذا كانت الطائفة المستضعفة ايذاؤها بدنى مادى ٠ فهؤلاء الذين ظهروا بمظهر القوة ايذاؤهم معنوى ، وهو فناء انسانيتهم وارادتهم وتفكيرهم ، وكل مكونات الانسان الكامل ، فهم ضعفاء ، وان ظهروا كأنهم الأقوياء ، فجنود السلطان الغاشم لا يعتبرون الأقوياء ، لأنهم أداة طائعة ، وامعات طامعة ٠

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذكر الضعفاء تمهيدا لبيان مظاهر الطغيان الذى يفعله الملوك مع من يتحكمون فيهم بحكم الهون والفساد ، لا بحكم المصلحة والرشاد ، وأنهم يرتكبون أقصى ما تتصوره العقول من تذبيح وتقتيل ، ولذا قال تعالى « **يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم** » وان ذلك شأن الطغيان دائما ، يقتل نخوة الأمة بقتل شبابها ، أو زجهم فى غيابات السجون من غير أمد ، ومن غير حكم ، كما رأينا فى حكم الدكتاتورية فىألمانيا ، وفى ايطاليا ، وهكذا ، وقد رأينا مثل ذلك فى العراق ٠

وقد ختم الله تعالت كلماته بالنص السامى بالباعث على الطغيان والتحكم والاستعلاء · وتفريق الأمة ، فقال : « **انه كان من المفسدين** » أى أن الفساد مستحكم متغلغل فى أطواء نفسه ، **وقد بعثه على جعل الأمة متفرقة** ، وتحكيم طائفة فى طائفة ، فأغرى بينهم بالعداوة والبغضاء ، يحس كل فريق منهم بأنه مظلوم ، وظالمه هو الفريق الآخر ، يتظالمون فيما بينهم ، ويتعادون ، ليتمكن الظالم من ظلمهم والتحكم فى رقابهم ، وأن يقول لهم « **أنا ربكم الأعلى** » ولا ينكر أحد ، ولو فى قلبه ، لأن كل فريق يتهم الآخر بأنه عين عليه ، ويريد النكاية به ·

وقد أكد سبحانه وصف الافساد فيهم بان وبكأن الدالة على أن الفساد كان فى الماضى ، ومستمر فى الحاضر ، وببيان أنه داخل فى ضمن المفسدين فى الأرض اخوان ابليس ، وينطبق عليه قوله تعالى فى شأن الظالمين الذين يمنون الناس الأمانى ويكذبون ويخلفون ، « **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ، واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (١)** » ·

وان هذا الوصف الذى ساقه الله تعالى للوالى الفاسد ، هو وصف فرعون ، ومن استعلى واستكبر ، ووصف لكل طاغية من طغاة الدنيا يمنى الناس بالأمانى ، حتى انه ليصور لهم أنه سيجعل لهم الأرض نعيما ، وخيراتها لبنا وعسلا ، حتى اذا حكم تحكم ، وكان شهوته نظاما ، وهواه حكما ولابد أن يرضى الناس حكومته طوعا أو كرها ، ومن قال له اتق الله قطع عنقه ، أو سلط عليه كلابه الذين جعلوا أنفسهم ملكا له ، يملك رقابهم ، ويظنون أنفسهم الأحرار ، وهم العبيد حقا ·

٦٥ ـــ هذا ما تصوره الآيات فى وصف فرعون وأمثاله من الطواغيت الذين يظهرون فى العصور المختلفة ، واذا لم يتسموا باسم فرعون ، ففيهم

---

(١) البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦ ·

صفاته وفعاله ، وفى أتباعه أوصاف أتبـاعه ، والمستضعفون مأكولون فى عهودهم ، كما هم مأكولون فى عهده ٠

وبعد تصوير الله تعالى طغيان فرعون ، كان من نسق البيان الرائع أن يذكر نهايته ، وأنه اذا وصل الطغيان الى اقصى حده ، كانت النهاية ، ولذا ذكر سبحانه وتعالى فى مقابل ارادته الافساد ، وكونه متغلغلا فى كيانه ذكر فى مقابلة ارادة الله تعالى ، وارادته سبحانه فوق كل ارادة ، ولو كانت طغيان فرعون ، ولذا قال سبحانه فى بيان ارأدته ، « **ونريد أن نمسن عـلى الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** (١) » ٠

ارادة طاغية مغرورة مستكبرة ، وهى ارادة الطغيان ، وارادة كريمة معطية مانحة مانعة من الشر والعيث ، وهى ارادة الله سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه يمن على المستضعفين ، ونجد هنا تعميما فى المن ، فلم يذكر سبحانه وتعالى ما يمن به ، بل كان التعميم ، فهو سبحانه يمن عليهم بالحرية بعـد الاستعباد ، ويمن عليهم بالقوة بعد الضعف ، ويمن عليهم بالعزة بعد الذلة ويمن عليهم بالثمرات بعد الجدب ، وهكذا تتعـدد النعم التى يمن بها سبحانه « **وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها** » (٢) ٠ وكل هذه المعانى هى بعض ماتدل عليـه كلمة نمن ، وخص سبحانه من بين هذه النعم التى يمن بهـا نعمـة كبيرة هى الخلاص من حكم فرعون الى أن يكونوا ائمة ، أى ولاة لأنفسهم لا يملك أحد التحكم فيهم ولا السيطرة ، فكل حـر أمير فى نفسـه ، ويجعل منهم أمراءهم وأولياء أمورهم ، لا يفرض عليهم أمير لا يرضـونه ولا ولى من غيرهم ، وآراؤهم فى حكمهم هى الغالبة فلا يحكمهم متحـكم ، ولا يسير أمورهم متغلب ، فانظر كيف جمعت الكلمة كل هذه المعانى ، وجاءت من بعد ذلك كلمة تدل على كمال ارادته سبحـانه فى هذا الوجود فقال « **ونجعلهم الوارثين** » ونجد أنه سبحانه لم يبين الموروث ، وفيه اشارة الى عموم ما آل

---

(١) القصص : ٥ ، ٦ ٠
(٢) ابراهيم : ٣٤ ٠

اليهم ، اذ أنهم سيخلفونه فى جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ولكن يكون لهم هذا اذا استقاموا على طريقة الحق ، ولم يخرجوا عن جادته ومنهاجه ، وغير ذلك ٠

بعد هذا يبين سبحانه وتعالى أن طغيان فرعون انتهى بالفناء وأن يذوق عاقبة أمره ، كما اغتر أصحاب الحديقة بحديقتهم المذكورة ، فقال تعالت كلماته :

« ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ٠

التمكين كان باعطاء سلطان لهم فى الأرض ، اذا استطاعوا القيام بحق التمكين ، فانه يحتاج الى قوى نفسية عالية وادراك لمعنى العزة والكرامة ، ولم يمردوا على الذلة والمهانة ٠

ثم يبين سبحانه عاقبة الظلم ، وأنه لم يدفع المحذور ، فقال تعالى : **« ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ٠**

لقد كان فرعون وحده ووزيره ، وجنود معهما تابعين غير مستقلين فى فكرة أو ارادة منهم ما كانوا ما يحذرون ، وهو أن يدبر الناس ما ينتقضون به على حكمهما ، أو يقتلوا فرعون ، فقد أراهم رب العالمين ، فكان موت فرعون على ما قدره الله تعالى لموسى عليه السلام ومن معه وهكذا كل طاغية ، يطغى ويستبد ، ويرتكب الفجور فى كل ناحية ، حذر أن تخرج خارجة ، وبعد أن يكون منه وما يكون من مثل ما فعل فرعون ، ثم تكون من بعد كلمة الله تعالى هى العليا ، ويقع المحذور فى وقت لا يملك الرجوع ، كما قال فرعون ، وقد أدركه الغرق ٠ قال : **« آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن ، وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » (١) ٠**

---

(١) يونس : ٩٠ ــ ٩٢ ٠

٦٦ ــــ وبعد ذلك البيان الذى حاولنا به الوصول الى بعض أسرار المعانى القرآنية التى تعلو ولا يعلى عليها ، واليانعة الثمار الدانية القطوف فى أعلاها ، والثروة الخصبة المملوءة حياة فى أدناها • كما قال البليغ العربى القرشى نريد أن نشير اشارة الى ما وصل اليه تفكيرنا فى اجمال ما سبق ، فنجد :

أولا ــ اتساق العبارة فى المقابلة بين العلو المصطنع والالتصاق بالأرض ، الذى يفيد مع هذه المقابلة اللفظية أنه سيطر على الأرض واستمكن فيهاوتحكم حتى ساغ له أن يقول : « **أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى** » (١) •

ثانيا ــ أن التعبير باستضعاف طائفة منهم فيه اشارة الى أن الضعف ليس طبيعيا فطريا ، ولكنه يكون بالاستضعاف وأن كل من يراد على الضعف لا يستسلم فيستضعف ، بل يقاوم ويناضل ، فيموت عزيزا ، أو يمنحه الله تعالى القوة وان الرضا بالذل يؤدى الى الموت ، وطلب العزة يؤدى الى الحياة ، وكما قال خليفة رسول الله أبو بكر رضى الله تعالى عنه : « اطلب الموت توهب لك الحياة » •

وثالثا ــ أن الاستضعاف يؤدى الى الموت لا محالة ، ويكون الموت على نحو لا كرامة فيه ، وصوره سبحانه وتعالى بقوله تعالى :

« **يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم** » فهو موت ذليل فيه خسة الذل ، وقتل النخوة ، أما الموت فى سبيل الكرامة فهو موت عزيز كريم ، ورحم الله الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده اذ يقول : « ان موتا فى سبيل الحق هو عين البقاء ، وحياة فى ذل هى عين الفناء » •

رابعا ــ أن القوة تكون للقوى بتمكين الله تعالى وبمشيئته ، وذلك بأن يهيىء الأسباب ليستبدلوا بضعفهم قوة فيمنحهم الأمن ، وذلك بأن يجعلهم يشعرون بأنهم سادة ، وليسوا عبيدا ، وهذا يتضمنه التعبير بقوله

---

(١) الزخرف : ٥١ •

تعالى «ونجعلهم أئمة» ، أى يجعلهم مسيطرين على أنفسهم ، كما نوهنا فيما ذكرنا من قوله تعالى كما من الله تعالى على بنى اسرائيل اذ جعلهم مالكين لأنفسهم مسيطرين على أمورهم اذ قال تعالى : **واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين** » (١) ومعنى جعلهم ملوكا أنه سبحانه وتعالى جعلهم أحرارا يملكون شئون أنفسهم · ويتولون أمورهم لا مسيطر يسيطر عليهم ·

هذه نظرات الى النص القرآنى الكريم فى بعض شأن فرعون ومآله ، ومن يجرى فى حكم شعبه على طريقته ، ويتحكم فى الرقاب تحكمه ، ونجد فيه جمال اللفظ ، وجمال القصص ، والألفاظ التى تشع منها المعانى كأنها الضياء المتلألىء والماء العذب النمير الذى ينساب فى النفس المؤمنة ، والله سبحانه هو العلى الحكيم ، وكلامه هو النور المبين الهادى الى رب العالمين ·

قوة البلاغة فى الأسلوب من كلمات متآلفة

٦٧ — يقول الخطابى فى رسالته فى اعجاز القرآن فى بيان البلاغة القرآنية : « اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو بوضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى اذا أبدل مكانه غيره ، جاء منه اما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، واما ذهاب الرونق الذى يكون منه سقوط البلاغة ؛ ذلك أن فى الكلام ألفاظا متقاربة فى المعانى ، يحسب أكثر الناس انها متساوية فى افادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك اقعد واجلس وبلى ونعم ، والأمر فى ترتيبها بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبتها » ·

وهكذا يسترسل فى بيان التفرقة بين الألفاظ ، ويضرب الأمثلة فى القرآن ، وفى اللغة فى التفرقة بين الألفاظ التى يزعم أنها تدل على معنى

---

(١) المائدة : ٢٠ ·

واحد يؤديه كل واحد منهـا من غير افتراق فى المؤدى مـع أن المؤدى مختلف متباين ٠

وانـه يذكر أن ألفاظ القرآن مختـارة تدل على أدق معـانيها ، فمثـلا ذكر عن اخـوة يوسف عليه السـلام أنهم قالوا أكله الذئب ، ولم يقـولوا افترسه ، لأنهم لو قالوا افترسه لطالبهم ببعض أثـره ، والأكل افناء الجسـم فى جسم ٠

وان الخطابى ليقول فى بحثه القيم : « اعلم أن القـرآن انمـا صـار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضـمنا أصـح المعانى من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء الى طاعته » ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر واباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعـروف ونهى عن منـكر ، وارشـاد الى محـاسن الأخلاق وزجـر عن مساوئها ، واضعا كل شىء منها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منـه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه » ٠

واذا كانت ألفاظ القرآن ومعانيه لها ذلك المكان الأسمى الذى لا يمكن أن يناهد الى سمائه انسان أو جن ، شرقى أو غربى ، فان فى القرآن مع جمال الألفاظ ورونق الأسلوب ، خاصة لا يصل اليها أحـد فى الألفاظ والاسلوب والمعانى ٠

وقد قسم الخطابى الكلام البليغ الى أجناس ثلاثة ، ومراتبها فى نسـبة التبيان متفاوتة ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية «فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق السهل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه البتة » ٠

وان هـذا الكلام لا يمـكن أن يمر مـن غـير أن نبـدى عليـه ملاحظـة لاحظناها ، انه يفرض أن الكلام البـليغ يتفاوت بتفـاوته فى الجزالة والسلاسة والسهولة ، وهذا يوهم أن القرآن الكريم تتفـاوت بلاغته ، وهذا الزعم باطل ، فالقرآن كله رتبة واحدة فى البلاغة فى المنزلة التى لا يمكن أن يسمو اليهـا

بليغ ، لأن البلاغة أن يكون الكلام موافقا لمقتضى الحـال ، فالعبارات الجزلة القوية تكون فى موضع الانذار ، والعبارات السهلة غير المسترسلة تـكون فى التبشير ، والعبارات المسترسلة فى مواضع التنبيه الى وجوب التفـكير والتدبير ، وكل بليغ فى موضعه ، ولا يختار سواه ، فلا تكون عبارات الانذار كعبـارات التبشير ، ولا تكون عبـارات الدعوة الى التأمل كعبارات التهـديد والتخويف ، هذه ملاحظة أبديناها ، على عبارة الخطابى ، وكان حقا علينا أن نبديها فلا نجعلها تمر بغير تعليق ٠

وان الخطابى قد بين أن القرآن الكريم قد اشتمل على الأجناس الثلاثة فى عبارات قيمة حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصـة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصـاف نمط من الكلام يجمـع صفتى الفخـامة ، والعـذوبة ، وهما عـلى الانفـراد كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليـكون اية بينة ودلالة على صحة ما دعا اليه من أمور دينه ، وانما تعذر على البشر الاتيان بمثله لأسباب ؛ منها أن علمهم بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التى هى ظروف المعانى والحوامل لها غير كامل ، ولا تدرك أفهامهم جميـع وجـوه النظم التى بها يكون ائتلافها ، وارتباطا بعضها ببعض ، فيتوصلون باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها الى أن يأتوا بكلام مثله ، ٠٠٠ وانما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ، ومعنى قائم ، ورباط لهما ناظم ٠

وانا نوافق الخطابى فى أن عدم قدرة البلغاء من الناس على الاتيان بمثل القـرآن من أسبابه نقص علمهم باللغـة ، جـزلها وسهـلها ، وعدم علمهم بالمعانى وأنى يكون علمهم بجوار علم الله تعالى الذى أحاط بكل شىء علما ٠

ونقول من ناحية ثانية : ان البلغاء من الناس يختـلفون جزالة وسهولة واسترسالا ، تبعا لطبائعهم وبيئاتهم وما يتجهون اليه ، فالفرزدق كان يميـل الى اختيار الألفاظ القـوية ، أو الحوشـية ، ويقتحم بذلك الوعر من القـول وقالوا انه كان يحاول أن ينهـج نهج البدويين من الجـاهليين ، وجرير يتخير

السهل العذب من الألفاظ ، وكذلك كان الأمر فى شعراء الجاهلية فامرؤالقيس كان يتخير الوعر الجزل من الألفاظ ، وهو يقيم فى الصحراء العربية ، ولانت ألفاظه لما كرثته الكوارث ، ورحل الى أنقرة ، وهكذا ٠٠ فكان من البلغاء من البشر من غلبت عليهم عذوبة الألفاظ ، ومنهم من غلبت عليه جزالتها وقوتها ، بل وعورتها ، ويختلف الرجل الواحد باختلاف حاله ، وتغير البيئات عليه ٠

هذا فى بلاغة البشر ، أما القرآن فبلاغته من عند الله خالق كل شىء القادر على كل شىء ، والخالق للناس وبيئاتهم ، فكان فى كلامه المبين ، كل اجناس القول ومناهج البيان بلا تفاوت فى البلاغة القرانية ، وان اختلفت ألوان الألفاظ وأجناسها بين جزل قوى ٠ وعذب سهل ، وكلام مرسل ينساب فى النفس انسياب النمير ، وكل فى موضعه ٠

التلاؤم :

٦٨ ـ يقصد بالتلاؤم فى الأسلوب أن تأتلف مخارج الحروف والكلمات كما ذكرنا ، والانسجام فى النغم بينها ، ويعد القاضى عبد الجبار أن تآخى النغم فى الألفاظ والحروف من حلاوة الكلام ومحسناته ، ولكنا نقول انها بالنسبة للقرآن الكريم من تأثيره فى النفوس ، فهو فى القرآن طريق الوصول الى القلوب ، وان نظمه على ماسنبين يسير هو وأسلوبه بألفاظه ومعانيه الى القلوب ليأخذها من طبعها الأرضى ليعلو بها الى الأفق السماوى٠

ويذكر أبو عيسى الرمانى فائدة التلاؤم فيقول : « والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل النفس لمعناه ، لما يرد عليها من حسن الصورة ، وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراء الكتاب فى أحسن ما يكون الخط والحرف وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة ٠ وان كانت المعانى واحدة » ٠

وان الكلام يذاق كما يذاق الطعام ، فكلما كان التنسيق والتلاؤم حسن فى الذوق ٠

وان لغتنا العربية لغة نطق ابتداء ، وصارت من بعد لغة كتابة ، ولم

تنفصل عنها خاصتها ، فهى نطق وكتابة ، ولذلك كان لمخارج الحروف أثر فى فصاحة الكلام · ولاشك أن مخارج الحروف مختلفة منها مايكون فى أقصى الحلق ومنها ما هو من أدنى الفم · ومنها ما هو فى الوسط بينهما ، فالتلاؤم فيها بأن تكون الكلمة حروفها متقاربة المخارج ، والكلمات متقاربة المخارج ليسهل النطق على اللسان ، وتتقبله الأسماع ·

فاذا أضيف الى ذلك التآخى فى المعانى كان التلاؤم الكامل ، والأسلوب الرائع ، وذلك ما جاء فى القرآن ·

٣ ـ تصريف البيـان

٦٩ ـــ اختلف مناهج البلغاء كتابا وشعراء ، كل يجيد منهاجا معينا ويمتاز فيه ، ويكون من الأوساط فى غيره أثر دون الأوساط ، فمنهم من يجيد الوصف ، ويحكى الأشياء لقارئه كأنه يراها ، ومنهم من يجيد القول الوعر العنيف ، ولا يكون منه السهل الميسر ، ومنهم من يجيد شعر الغزل ، ولا يجيد غيره ، ومنهم من يجيد القول الساخر ، ولا يجيد القول الجاد كما نرى فى بعض كتاب العصر ، ومنهم من يجيد الكتابة فى السياسة ، فاذا كتب فى غيرها هان وابتذل ، ومنهم من يجيد الكتابة فى التحليل ، واثارة التأمل ، وهكذا ، وقل من يجيد الدخول الى الكلام البليغ فى أكثر من باب أو بابين ويكونان متآخيين ، غير متناقضين ·

أما القرآن المعجز الذى هو فوق قدر البشر ، فان البلاغة فيه فى كل أبواب القول ، وهى فى كل باب تعلو علوا كبيرا عن المجيدين فى هذا الباب وحده ، ولذلك كان تصريف القول فيه من تهديد وانذار وتبشير ، واثارة للتأمل ، ودعوة للتفكير فى آيات الله تعالى الكونية والقرآنية ، والتفكير فى النفس وفى الحس ، كل ذلك من دلائل الاعجاز وسره ·

ولقد قال سبحانه فى ذلك : « **ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ، وما يزيدهم الا نفورا** » (١) أى أن التصرف لزيادة التنبيه ، وكلما زاد تنبيههم

---

(١) الاسراء : ٤١ ·

بالحق وارشادهم ازدادوا نفورا ، فزادوا كفرا وقال تعالى « **ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس الا كفورا** (١) أى أن الله تعالى صرف فى القرآن بضرب الأمثال وبيان الأحوال ، رجاء أن يؤمنوا ، ولكن سبق الكفر اليهم جعلهم يأبون الايمان بالله والخضوع له ، فزادوا نفورا عن الحقائق كما ينفر المريض السقيم عن الدواء الناجع ، والغذاء الصالح وقال تعالى « **ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شىء جدلا** » (٢) ذكر الله تعالى أنه يصرف القرآن بذكر الأمثال والأحوال ، ولكن الذين سبق الضلال اليهم يجادلون والجدل فى الحق الواضح ، المبين يطمس الحقائق ، ويطفىء النور ، ويختفى نور الحق وسط الأقوال المتضاربة والأهواء المتنازعة ٠

وقال تعالى : « **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا** » (٣) ٠

وقال تعالى : **انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون** » (٤) ٠

وقال تعالى : « **انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون** » (٥) ٠

وقال تعالى : « **وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون**»(٦) أى نصرف الآيات ليفقهوه ويدركوا الحق ان كانوا غير ضالين ، ولم يطمس على قلوبهم وليقولوا درست وتعلمت ويكذبوا ان طمس على قلوبهم ولم يؤمنوا بالحق ٠ كما قالوا يعلمه غيره ، ورد تعالى عليهم بقوله : « **لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين** » (٧) وقال تعالى : « **كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون** » (٨) ٠

---

(١) الاسراء : ٨٩ ٠
(٢) الكهف : ٥٤ ٠
(٣) طه : ١١٣ ٠
(٤) الأنعام : ٤٦ ٠
(٥) الأنعام : ٦٥ ٠
(٦) الأنعام : ١٠٥ ٠
(٧) النحل : ١٠٣ ٠
(٨) الأعراف : ٥٨ ٠

٧٠ ـ وبهذه النصوص الكريمة تبين أن القرآن كان يصرف الآيات بمعنى أنه يتضمن الأمر بالتوحيد والتكليفات الشرعية التى بها صلاح المجتمع وتكوين مدنية فاضلة تحترم فيها حقوق الانسان احتراما كاملا ، بأوجه مختلفة من البيان ، من تهديد وانذار الى تبشير ، وتوبيخ واستنكار ودعوة الى التأمل فى خلق الله تعالى ، وفى الأنفس ، ومن قصص يدركها أولوالألباب لسياق العبر والمثلات ، وهكذا تتنوع أساليب القول ومناهج التأثير ، لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ٠

وان التصريف فى القرآن الكريم على ضربين احدهما ـ فى المعانى ، وثانيهما فى الألفاظ والأساليب ، فأما التصرف فى المعانى ، فان المؤدى فى جملته يكون واحدا ، ولكن يختلف فى دلالته بالنسبة للسياق ، فالقصة الواحدة كقصة نوح تذكر فى القرآن فى عدة مواضع ، ولكن لها فى كل مرة عبرة ، وهذا تصريف فى المعانى وان كانت الألفاظ تختلف أو تتقارب أو تتحد العبارات فى بعض الأحيان ، ولقد قال فى تصريف المعانى الرمانى فى رسالته اعجاز القرآن : « وهذا الضرب من التصرف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التى تظهره وتدل عليه ، وتصريف المعنى فى الدلالات المختلفة قد جاء فى القرآن فى غير قصة ٠ منها قصة موسى عليه السلام فى سورة الأعراف وفى طه والشعراء ٠ لوجوه من الحكمة ، منها التصرف فى البلاغة من غير نقصان ، ومنها تمكين العبرة والموعظة » (١) ٠

٧١ ـ وأول تصريف فى مناحى القول فى القرآن يكون فى السور ، فمنها الطويل التى يجد فيها القارىء أبواب العلم الاسلامى المختلفة من بيان الوحدانية ، وبطلان الوثنية ، وتوجيه الأنظار الى الكون ، وما فيه من دلالة على قدرة ، والأرض وما حوت من كنوز وزروع وثمار ، ومن اتصال الأرض بالسماء بالمطر الذى يكون غيثا يحيى الأرض ، وينبت الزرع ، ويسقى كل حى ، ومن شرائع فيها المصلحة الانسانية وكرامة الانسان ، وتكريمه بالعقل ٠

---

(١) رسالة الرمانى من مجموع الرسائل فى اعجاز القرآن ص ١٠١ ٠

وفيها القصار التى يسهل على القارىء حفظها ، وأن يعيها صدره لما فيها من جمل قصار يسهل وعيها والاعتبار بها ، وذكرها فى صلواته ، وفيها بيان الوحدانية وذكر اليوم الآخر ، وفى بعضها تجد أحكاما شرعية ، مثل قوله تعالى فى سورة الكوثر « **انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الابتر** » ، ففيها ذكر لليوم الآخر ومقام النبى عليه السلام ، ومقام الشانئين الذين عادوه ، وعادوا الحق معه وحكم الأضحية ٠

واقرأ قوله تعالى : « **والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » ، ففى هذه السورة القصيرة جماع الخصال الانسانية التى تصلح الآحاد والجماعات، وهى الايمان الذى يعمر القلوب ، ويوجه الجوارح ، فلا صلاح لانسان أو جماعة الا اذا صلحت القلوب ، وأثمر الايمان العمل الصالح فى الآحاد ، وكانت الجماعة كلها للحق تتواصى عليه وتتعاون ، فما صلح قوم ضاع الحق بينهم ، وتخاذلوا فى نصرته ، وان السبيل الى احتمال أعباء الحق ، هو الصبر ، فان الصبر فيه ضبط النفس ، والابتعاد عن الشهوات وجعلها خاضعة للعقل ، بحيث تكون أمة ذلولا لا سيدا مطاعا وما تخاذل قوم عن نصرة الحق الا لأن الشهوات قد استولت على نفوسهم ، وصار السائد على الجماعة الهوى المطاع ، والشح المتبع ، ولذلك نص الله سبحانه وتعالى على أن الجماعة الفاضلة هى التى تتواصى على الحق ، فلا يذل صاحب حق ولا يعلو أهل الباطل ، وتتواصى على الصبر ، وضبط النفس ، وقدعها عن أهوائها ، وشهواتها ٠

وفى القرآن السور المتوسطة التى ليست بالطوال ولا القصار ، ومنها ما يقرب من الطوال ومنها ما هو قريب من القصار ، وهى مشتملة على جل مقاصد الشريعة الاسلامية فى عبارة موجزة ، مثيرة ، ولكن بوضوح ، ومبينة ، ولكن بايجاز ٠

وكان الله سبحانه وتعالى بذلك التصريف فى السور بين الطويل ، والمتوسط والقصير ، وكلها فى أعلى درجات البلاغة يقدم مائدته الكبرى ، وهى القرآن للناس أجمعين ذوى العلم الذين يتسع علمهم للاحاطة بالسور الطوال وما فيها من علم بالشريعة وما فيها من علم الكون الذى لا يحيط

به من دونهـم ، وهم أوتوا مدارك تسموا اليها ، وتستخرج من كنوزهـا جواهر ٠

وأعطى الذين يشغلهم أسباب الرزق عن الاحاطة قصار السور ، وفيها غناء لا قصور فيه ، بل انه كمال فى كمال ٠

وبين هـؤلاء وأولئـك الذين يطلبون السور المتوسـطة طولا ، وهم الشادون فى العلم الذين لهم من وقتهم ما يمكنهم أكثر ممن كانت لهم قصار السور ٠

وقد يقول قائل هل تقسيم القرآن الى سور قصار وما بينها تنزيل من الله تعالى !

ونقول فى الجواب عـن ذلك : ان ترتيب السـور بوحى من الله تعالى ، وقد بينا ذلك فيما أسلفنا من قول فى جمع القرآن ٠

التكرار فى القرآن

٧٢ ـــ كانت السور منها القصار ، ومنها الطوال ، وان الجميع بترتيب من الوحى الالهى ولم يكن من عمل النبى صلى الله عليه وسلم من غير وحى ، بل هو من توقيف الله تعالى ، ووحيه ، وان وضع الآيات بعضـها بجوار بعض من وحى الله تعالى ، اذ كانت الآية اذا نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها فى مكانها من السـورة التى يعينها بالوحى ٠ النـازل عليه ، والذى كان لا ينى عن الاتصال به فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، وان ذلك من الاعجـاز اذ أن الآيتين المتلاصـقتين مع أنهمـا قد تكونان نزلتـا فى زمنين متبـاعدين ، نجد أن كل واحـدة لقف للأخـرى ، وهما صـنوان متلازمتـان متآخيتان ، وذلك من سر الاعجاز ودلائله ، اذ أن التناسق البيانى بينهمـا متصل ، والمعانى متلاقية ، وكل واحـدة منهما تتم الأخـرى فى الموضوع فى أحيان كثيرة ، وفى التوجيه النفسى ، والتوالد المعنوى بينهما ، بحيث لايتصور القارىء للقرآن الكريم ، أو المستمع لترتيله والمدرك لنغمه ؛ لا يحسب أن بينهمـا فارقا زمنيا فى النزول ٠

وبجوار طول السور وقصرها ، مع الاعجاز فى كلها قد نجد فى القرآن تكرارا ، وهو من تصريف البيان ، لا من الاطناب المجرد ، انما هو لمقاصد ولتوجيه النظر ، ومناسبة المقام ، ولقد لاحظ ذلك الأقدمون الذين تكلموا فى سر الاعجاز ، وقد قال فى ذلك الجاحظ فى كتابه الحيوان :

« ورأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحى والحذف ، واذا خاطب بنى اسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام » ٠

وانا نقدر كلام الجاحظ حق قدره ، وان ذلك واضح فى كثير من آى القرآن ، وان الأعراب الذين يعتمدون على ذاكرتهم لأنهم أميون يناسبهم الكلام الموجز ، وأحيانا يغنى فيهم لمح القول ولحنه واشاراته ، ولكن نلاحظ ثلاثة أمور :

أولها — أنه قال وزاد فى الكلام ، وانا لا نحسب أن هذه الكلمة تتفق مع بلاغة القرآن ولا مقامه ، فليس فى القرآن زائد ، وان أطنب فى القول ، لأن الزيادة تتسم بالحشو ، ومحال ذلك فى أبلغ القول الذى نزل من عند الله تعالى ، ولعله أراد معنى البسط والاطناب ، لا أصل الزيادة ، ولا يمكن أن يكون قد أراد الحشو ، ولكن مع كل نقول هذه العبارة ليست سائغة ٠

الثانى — أن الآيات المكية وقد كان الخطاب لعبدة الأوثان ، فانا نجد فيها بسطا فى القول ، وخصوصا فى الاستدلال من الكون على أن الله سبحانه وتعالى خالقه ، وفى الاستدلال بعجزهم ، والالتجاء اليه سبحانه :

اقرأ قوله تعالى : « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ٠ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لايعلمون ، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ٠ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم

يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ، ان كنتم صدقين » (١) ٠

وان هذا الكلام الكريم لا يمكن أن يكون خطابا لليهود وحدهم ، وانمــا هو خطاب للعرب ، ولم يكن باللمح والاشارة ٠ بل كان بالتصريح والعبــارة ، فلم يكن بالايجــاز ، وان كــان الايجــاز القــرآنى من نوع الاعجاز ٠ بل كان بالاطناب المتسق المبين ، وكان فيه بعض التكرار وهو تـكرار فى موضعه ، لأن التوجيه الى النظر فيما تحت أيديهم هو فى ذاته مقدمة لنتيجة وهى الوحدانية للمعبود ما دامت وحدانية الخالق قد ثبتت بهذا الكلام ، فكان لابد أن تذكــر النتيجة أمام كل مقدمة ، لأنها وحدها دليل ، ولو لم تذكر النتيجة أمــام كل مقدمة ، لكانت النتيجة ثمرة لمجموعهما ، مع أن كل واحدة منها صالحة لأن تكون الوحدانية نتيجة لها ، دون أن تنضم معها غيرها ٠

الملاحظة الثالثة ، وهى مبنية على الملاحظة الســابقة ، أن الايجــاز والاطناب يكون لكل موضعه ، ومقامه ، فلكل مقام مقتضاه الــذى توجــه احوال البيان المعجــز ٠

وقد لاحظنا ان مقام الاستدلال على الوحدانية من المواضع التى يحسن فيها الاطنــاب ، وكلام الله تعــالى اتجــه الى ذلك ، كما رأينــا فى الآيــة السابقة ، وكما نرى فى سورة الرحمن فانها تذكير بنعم الله تعالى ٠ وكل نعمة كفروا اذ استعملوها فى غير موضعها ، وفى أمر الله تعالى ونهيه ، واذا كان جزاء النعم كفرا بالمنعم ، واشراك غيره معه فى العبادة ، فقد قال تعالى فى سورة الرحمن : « **الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا فى الميزان ، واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام فيهــا فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار** »

---

(١) النمل ٦٠ ـ ٦٤ ٠

وخلق الجان من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ، ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ... الى آخر السورة الكريمة .

وهكذا نجد بعد كل نص سام تتبين فيه نعمة الخالق بديع السموات والأرض يكون تذكيرا بنعم الله ، ووجوب شكرها بالطاعة وتجنب المعصية والاقرار بوحدانية المعبود ، والا يعبدوا غيره سبحانه وتعالى ، وفى ذلك اشارة الى أن كل نعمة من هذه النعم ، وبينة من هذه البينات توجب وحدها الشكر ، وتوجب الاقرار بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

قصص القرآن من الناحية البيانية

٧٤ — ومن المواضع التى يحسن فيها الاطناب ، بل التكرار أحيانا قصص القرآن ، ولا نذكره هنا من ناحية أنه من وجوه الاعجاز فى ذاته ، فلذلك موضع خاص من القول ، انما نذكره من ناحية التكرار فيه ، وموضع ذلك من سر الاعجاز ، وبلاغة القرآن التى لا تساميها بلاغة فى الوجود ، وان ذلك التكرار من تصريف القول الذى هو وجه من وجوه البيان القرآنى الذى قصد اليه الكتاب العزيز .

لقد تكررت قصص الأنبياء ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالاطناب احيانا ، والايجاز احيانا ، وذكرت قصة عيسى عدة مرات ، وذكرت قصة ابراهيم عدة مرات ، وذكرت قصة موسى عدة مرات ، وانه يبدو بادى الرأى أن ذلك من مكرور العقول . وفيه التكرار ، فما وجه البلاغة فى هذا التكرار .

اننا اذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن ، ومكانته فى البيان العربى ، نجد أن التكرار فيه له مغزى ، ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص وليس كالروايات القصصية التى تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة .

انما قصص القرآن ، وهو قصص لأمور واقعة ، يساق للعبر واعطاء المثلاث ، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقاوم به النبيون ، ووراءهم كل الدعاة للحق ، فهو

قصص للعبرة بين الواقعات ، لا لمجرد المتعـة من الاستماع ، والقراءة ، ولذلك قال الله تعالى فى آخر قصة نبى الله يوسف عليه السـلام ، **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** » (١) ٠

ولكى يتبين للقارىء الكريم ، أن التكرار بسبب تعدد العبر التى هى المقصد الأول من القصص ، نذكر قصة ابراهيم وقصة موسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فانهما ذكرتا كثيرا فى القرآن الكريم ٠

قصة ابراهيم :

٧٥ ـــ ذكرت قصة ابراهيم فى القرآن عدة مرات ، لتعدد العبر فيها ، وان ابراهيم كان أبا العرب ، فقصصه له مقامة عند العرب ، ونذكر مـن قصصه بعضه لا كله ، فانه ليس هذا مقام ذكره فى القرآن ٠

(أ) أول ما نذكر من قصة ابراهيم ، هو ما يربطه بالعرب ، وما كان شرف العرب به وهو بناء الكعبة ، فقد ذكر هذا البنـاء الذى قـام بـه ، وعاونه فيه ابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وبابراهيم واسـماعيل تشرف العـرب ، بانهم سلالتهما ، وبالبيت الحـرام اعتزوا ، وعـلوا فى العرب ، اذ كان مثابة للناس وأمنا ، وقد قال تعالى فى هذا البناء الذى قام بأمر ربانى :

« **واذ ابتلى ابراهيم ربـه بكلمات فاتمهن ، قال انى جاعلك للنـاس اماما ، قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين ، واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين ، والركع السجود ، واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعـه قليلا ، ثم اضطره الى عذاب النار ،**

---

(١) يوسف : ١١١ ٠

وبئس المصير ؛ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » (١) ٠

ثم بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان استجابة لدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبذلك تتبين الصلة بين الاسلام ودعوة ابراهيم ، فاذا كان العرب يفتخرون بابراهيم عليه السلام ، فهذه دعوته قد استجيبت فى محمد صلى الله عليه وسلم ٠

(ب) نجد بعد هذه القصة قصة النفس البشرية فى نبى الفطرة ابراهيم عليه السلام ، اذ النفوس ولو كانت مؤمنة تتمتع بكثرة الدليل ، لتزداد ايمانا ، وان كان أصل الايمان قائما ، فزيادة البينات تزيد المؤمن ايمانا ، وتزيد الجاحد كفرا وعنادا ٠

واقرأ قصة طلبه زيادة الايمان : « **واذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى ٠ قال أو لم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير ، فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » (٢) ٠**

ومن قبل ذلك فى الذكر كانت قصته مع الملك عندما ناقشه فى اثبات وجود الله وكيف استطاع ابراهيم عليه السلام أن يفحمه اذ هو لا يؤمن الا بالمحسوس اذ قال تعالى : « **ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » (٣) ٠**

---

(١) البقرة : ١٢٤ ـ ١٢٩ ٠

(٢) البقرة : ٢٦٠ ٠

(٣) البقرة : ٢٥٨ ٠

وترى فى قصة ابراهيم والطير أنه صور النفس الانسانية ، ولو كانت نفس نبى مؤمن يدعو الى تكشف المجهول ، وتعرف المستور ، والمؤمنـون يهديهم الله تعالى ، ومن لا يريدون الهداية يتركون فى غيهم يعمهون ٠

وفى قصة ابراهيم مع الملك نجد ابراهيم الأريب يأخذ بالطريق الـذى يحسم الخلاف دون الطريق الذى يحدث لجاجة من غير افحام ، اذ الملك فهم أن القتل امانة وتركه احياء ، فلم يسترسل رسـول الله الفطين الأريب فى تعريف للموت والحياة بل عمد الى ما يفحمه حسـيا ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ٠

ومن هذا نرى أنه ليس ثمة تكرار فى المعانى والعبر والعظات ، وان كان الموضوع فى الأحوال الثلاث يتعلق بابراهيم عليه السلام ٠

(جـ) ولننتقل الى قصة أخرى موضوعها يتعلق أيضا بابراهيم عليـه السلام ، وهو تدرج النفس الانسانية فى الاتجاه الى طلب الحقيقة الالهية ، والايمان بالوحدانية كيف ابتدأ ابراهيم عليه السلام تأمله فى الكون ليتعرف من الموجود سر الوجود ، وعظمة الخالق ، فأول ما استرعاه نجم ساطع تالق ، فحسبه ربه ، ولكن الرب موجود دائما ، فلما غاب نفر مما زعم ، ثم رأى القمر ، فحسبه كذلك ثم رأى الشمس ، وهكذا حتى هدى الى أن سر الوجـود يجب أن يـكون غير هذا كله ، فاتجـه الى الله ، واليك القصـة كما ذكرها القرآن ، وكما وقعت ، قال تعـالى : « **وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخـذ أصـناما آلهـة ، انى أراك وقومك فى ضـلال مبين ، وكذلك نـرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليـه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلمـا رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما افل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال يا قوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه ٠ قـال أتحاجونى فى الله وقـد**

هدان ، ولا اخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون » (١) ٠

ونرى من هذه القصة أنها مغايرة تمام المغايرة لما سبق وان كانت غير معارضة لها ، بل هى متممة ، ولا تكرار فى القصص ، انما الموضوع ، وهو ابراهيم عليه السلام هو المتكرر ، ونرى أنه ابتدأ بنفى عبادة الأصنام على أساس أن البديهة تدعو الى ذلك ، وأن ضلال العقل هو الذى يؤدى الى عبادتها ، ثم أخذ يبين أن طريق اليقين يبتدىء بالشك فى صدق ما تضل فيه الأفهام ، فأخذ يعرض على عقله ما يتصور أن يكون فيه نفع ، فاتجه الى الكوكب السارى ثم الى القمر المنير ، ثم الى الشمس السراج ، فوجد أن كل ذلك يأفل ، ويجرى عليه تغير ، فاتجه الى خالق ذلك كله ، ولذلك يقول بعض العلماء ، ومنهم ابن حزم الظاهرى ان ادراك الله ضرورى اذا استقامت الفطرة ، ولم تركس فى ضلال الأوهام ٠

(د) انتقل سيدنا الخليل من الاهتداء الى الله تعالى الى عمل ايجابى نحو الأصنام دفعه الشباب ونور الله الى أن يحطمها ، وهذا يجىء فى قصص القرآن الكريم ، فيذكر سبحانه أنه عقب أن نال ابراهيم رشده ، وهو فى حياطة الله ، تقدم ليثبت ضلال عبادتها وأنها لا تضر ، ولا تنفع ، فحطمها ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ٠ اذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ٠ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتالله لأكيدن أصنامكم ، بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، انه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به

---

(١) الأنعام : ٧٤ ـ ٨٠ ٠

على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ، فرجعوا الى أنفسهم ، فقالوا انكم أنتم الظالمون • ثم نكسوا على رءوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ، قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين (١) (صدق الله تعالى العظيم) •

هذه قصة من قصص ابراهيم عليه السلام • ذكرها القرآن الكريم فى موضع غير المواضع السابقة ، ولا نرى تكرارا فيها ، واذا كان قد ذكر فى قصة تتبع الكواكب والقمر والشمس الحكم على أبيه وقومه بالضلال ، فقد ذكر ذلك مجملا فى الأول ، أما هنا فقد ذكر المناقشة التى جرت بينهم فى ذلك ، ثم ذكر تدبيره فى حطم الأصنام ، واثبات عجز الأصنام بالدليل القاطع ، ثم نجاته من النار ، فكان بهذا مثبتا بالعمل أنهم لاينفعون ولايضرون، ولما سألوه عما فعل بالأصنام قال متهكما : « بل فعله كبيرهم » ، فأنطقهم بضلالهم اذ نكسوا ثم قالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون وقد أثبت الواقع أيضا أن الله وحده هو الذى يضر وينفع اذ جعل سبحانه وتعالى النار « بردا وسلاما على ابراهيم » •

وهنا لا نجد تكرارا مطلقا ، وان الموضوع واحد ، فهذه قصة إبراهيم ولكن فرقت فى أبواب شتى لأن النسق القرآنى المعجز اقتضى ذلك ، اذ يكون كل جزء مكونا لقصة ذات عبرة مستقلة فى ذاتها ، فهى قصة واحدة الموضوع ، فى قصص متعددة العبر •

(هـ) ولندخل الى جزء آخر من قصة ابراهيم ، ونراه مستقلا غير مكرر ، وهو صلة ابراهيم بأبيه ، وكيف كان حريصا عليه مع رفق الدعوة واحسان البنوة ، وطرق الهداية الرشيدة ، يقول الله تعالى حكاية عن ابراهيم بعد أن صار صديقا نبيا •

---

(١) الأنبياء : ٥١ ــ ٧٠ •

« واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، اذ قال لأبيــه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئا ، يا ابت انى قــد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب مــن الرحمن فتكون للشــيطان وليا ، قــال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم ٠ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ، قال ســلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » (١) ٠

وهنا نجد رفق الدعوة التى تفيض بحنان البنوة فى عباراتها ، وفى نغماتها الهادئة ، وفى معانيها العاطفة ، ولا يمكن أن يوجد فى أى لغة فى أى كلام عبارات تفيض برفق الدعوة ، والعطف ، والرعاية بمثل هذه العبارات لأنها كلام العليم الحكيم العزيز الكريم ٠

وبمقدار ما فى عبارات الابــن من رفق واسترضاء واستعطاف كانت عبارات الأب كما صورها القرآن جفوة ، وكأنها الجنادل تصك الآذان ، ولم يمنع ذلك الابن العطوف من أن يعد أباه بأن يستغفر له ربه ، لأن له مكانة عند الله تعالى « انه كان بى حفيا » ٠

ولكن الله تعالى يخبره بأنه ليس له أن يستغفر لأبيه ، لأن كل امرىء بما كسب رهين ، ولاتزر وازرة وزر أخــرى ، وكل انسان وما قدمت يداه ، ان خيرا فخــير ، ، وان شرا فشر ، وقــد نهى الله تعــالى عن الاســتغفار للمشركين ، وعفــا عن ابراهيم اذ استغفر لأبيــه ولكنــه أمره بالبراءة منــه فتبرأ ، وقال تعالى فى ذلك :

« ما كان للنبى والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى من بعــد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيــه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم » (١) ٠

---

(١) مريم : ٤١ ــ ٤٧ ٠ (١) التوبة : ١١٣ ــ ١١٤ ٠

هذه قصة ابراهيم عليه السلام قبضنا منها قبضة ، لكيلا يتوهم القارىء للقرآن ، أو المستمع لتلاوته أن فيهـا معانى مكررة وألفاظا مرددة ، ومنهـا يتبين أنه لا تكرار قط فيها ، ولكن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء فى مواضع ، لتكون كل عبرة بجوار خبرها فى القصة، ولو اجتمعت فى مكان واحد ، لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية وما تميزت كل عبرة تميزا يجعلها كونا مستقلا مقصودا بالذات ، وبقية الأجزاء التى لم نرطب قلمنا بذكرها لا تكرار فيها بل كل واحدة لها عبرتها ٠

قصة موسى عليه السـلام :

٧٦ ــ قصة سيدنا موسى ذكرت فى القرآن الكريم كثيرا ، لأنه هـو الذى نزلت عليه التوراة ، وفيها المبادىء المقررة فى الشرائع السماوية ، وكثير من أحكام المعاملات فيها لم ينسخ ، بل جلها صدق عليه القرآن الكريم ، كما وصفه الله تعالى اذ قال سبحانه : **«ومصدقا لما بين يدى من التوراة»** (١)٠ ولأنها تبين أحوال اليهود ، ولأن فيها أوصافهم الحقيقية من الشك والتردد فى الحق ، وخذلانه ، وماوسموا به من خنوع وخضوع الى آخر ما ذكره القرآن عنهم ، وكل ذكر لهم يجىء معـه ذكر لنبى مـن الأنبيـاء ، ففيهم تجـارب الانسانية الفاسدة ، وحالهم فى هذه الأيام هى امتـداد لما ذكـره القرآن من أوصافهم ٠

وان المتتبع لقصة سيدنا موسى فى القرآن يجـدها متعددة العبر ، فى جهاده ، وفى قومه ، وفيما لقيـه ، وهو من أولى العـزم من الرسـل الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، ففى كل واقعـة من وقائع حيـاته عبرة ٠ ولا تكرار بالقدر الذى يتوهمه التـالى للقـرآن أو المسـتمع لتـلاوته ، ولنقبس قبسات من ميلاده الى جلاده مع فرعون الطـاغية الذى كان من أغنى ملوك العالمين . وأشدهم طغيانا ، ولسنا نحصى كل المواضع بل نذكر ما يتوهم فيه التكرار من قصد لجديد ٠

---

(١) آل عمران : ٥٠ ٠

(أ) أول ما نتجه اليه هو ميلاده ، وما أحيط به من خوارق للعادات ، فقد قال تعالى فى سورة القصص : « **وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لاتقتلوه عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب ، وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، فرددناه الى أمه كى تقر عينها ، ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون** » (١) .

وفى هذه القصة نجد عدة خوارق للعادات اقترنت بنبى الله موسى عليه السلام فى نشأته . فقد ولد ، فخافت عليه أمه ، اذ أن فرعون اللعين الذى يعد أستاذا لكل طاغية فى الأرض ، كان يرهق بنى اسرائيل ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم لكيلا تكون منهم فى القابل قوة تناوىء حكمه ، وترد طغيانه ، ولكن الله تعالى الهم نفس أمه الصافية ، أن تصنع له تابوتا ، وتلقى فيه فلذة كبدها ، وتدفعه الى البحر ، فكان الوحى أو الالهام صادقا كل الصدق ، مصدقا كل التصديق فالتقطه آل فرعون ليكون المصير والمآل أن ينجو ، وأن تكون رسالته عدوا للشرك ، وحزنا على آل فرعون ؛ اذ أنه سيقاوم فرعون ، ويقتلعه من أرض مصر . وقد وهب قلب امرأة فرعون الرحمة لهذا الملقى فى اليم ، وقد ألهم الله أم موسى أن تتقصاه ، حتى تعرف أنه آل أمره الى بيت فرعون ، ويجىء الأمر الثالث الخارق للعادة ، فيمتنع الرضيع عن المراضع بأمر الله التكوينى ، وتعرف أخته التى تقصت أخباره . فتدلهم — وهى المترقبة المترصدة — على من يكفله ، تدلهم على أمه ، وبذلك يرده الله تعالى اليها ، كما وعد ، وهو أصدق الواعدين ، وقد اقترنت هذه الخوارق

---

(١) القصص : ٧ — ١٣ .

بنشأة موسى ، كما تقترن الخوارق بنشأة كل رسول من رب العالمين ، وقد رأيناها من بعده مقترنة بولادة محمد خاتم الأنبياء ، وآخر لبنة فى صرح النبوة ، مما هو مذكور فى السيرة النبوية العطرة ، وان سورة القصص يرى التالى لها المتتبع للقصة أنها ذكرت بالاجمال ولادته ونشأته فى بيت فرعون الى أن أرسله الله رسولا نبيا ، ولاقى فرعون فى عزمة المؤيد من الله تعالى ، وفيها ختام حياة فرعون ، وما انتهى اليه من غرق فى اليم ٠

ابتدأت بعد نشأته ٠ ببيان أنه فهم طغيان فرعون ، ولظلمه لبنى مصر عامة ، وتخصيصه بنى اسرائيل بظلم خاص ٠ فيقول الله سبحانه : « **ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ٠٠ قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضل مبين ، قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين** » (١) ٠

أدرك موسى بنفاذ بصيرته القدرة على الحكم على الأمور والعلم بمداخلها ، فأعطاه الله تعالى حكمة وعلما وخرج من سجن القصر الى حيث الشعب يتحسس الأمور ، ويتعرف مقتضياتها ، وغاياتها ومآلاتها ، فدخل المدينة فى وقت لا يعلم أهلها أنه من قصر فرعون ، ورأى الاسرائيلى الذى يدل ظاهر الحال على أنه من المظلومين ، يقتتل مع المصرى الذى يدل ظاهر الحال على أنه من الظالمين ، فاستنصر به الذى من شيعته على الذى من عدوه وقتله ولكنه ندم ، اذ قتل قبل أن يتبين ، وتاب الى الله ، واعتزم على الا يعود لمثلها ٠

ولكن تتكرر المأساة ، وتعاوده رغبته الانتصار لمن هو من شيعته ، فينبهه الآخر الى أنه لا يصح أن يكون جبارا فى الأرض ، اذ جاء من شيعته من يستنصر به على مصرى آخر فيعرفه المصرى فينبهه ٠

---

(١) القصص : ١٤ ــ ١٧ ٠

عندئذ يحس الطيب الأمين الذى أراد الله تعالى له أن يكون من المصطفين الأخيار ، بأنه صار فى خطر أن يبطش به فرعون وأعوانه ، وقد جاء النذير بذلك ، « **وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين** » (١) ،

خرج من المدائن الى حيث الأمن والاستقرار ، خرج الى الصحراء ، حيث السماء الصافية ، والنور المشرق ، فتوجه تلقاء مدين ، وارتبطت حاله بشعيب كبير مدين ، وخاطبه الله تعالى من وراء الشجرة ، وقد آنس نارا ذهب ليصطلى هو وأهله بها ، فهداه الله تعالى ، وبعثه الى فرعون وقومه ليلقى الطاغى الأول فى العالم ، وأعطى المعجزة الأولى ، وكانت لأن الله تعالى يخاطبه ، وقد قال الله تعالى لما أتى الى جذوة النار : « **فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين ، وأن الق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ، ولم يعقب ، ياموسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه ، انهم كانوا قوما فاسقين ، قال رب انى قتلت منهم نفسا ، وأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو افصح منى لسانا ، فأرسله معى ردا يصدقنى انى أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا ، فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ، فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، انه لا يفلح الظالمون ، وقال فرعون يأيها الملأ ماعلمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين ، فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى ، وانى لأظنه من الكاذبين ، واستكبر هو وجنوده فى**

---

(١) القصص : ٢٠ ، ٢١ ،

الأرض بغير الحق ، وظنوا انهم الينا لا يرجعــون ، فاخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » (١) ٠

الى هنا بين القرآن حياة الكليم عليه السلام من وقت أن نشأ رضيعا ، وكيف ملأته عناية الله تعالى ، وهو يتدرج ، حتى صار شابا سويا ، قادرا ، ورأى الظلم عيانا ، وصقلته الحاجة الشديدة ، حتى صــاح ضارعا الى ربه « انى لما انزلت الى من خير فقير » فصار من تربى فى ترف فرعــون فى حاجة الى عيش الكفاف ، ووجده فى أن يكون أجيرا لشعيب بمهر احدى ابنتيه ، فالتقى فيه ترف النعمة ابتداء حتى زهد فيه ، لما تأشب حياته فيه من احساس مرير بالظلم فأقبل على الشعب يعيش فى وسطه عيشا مريرا ، ولكنه هنىء ، وحياة لاغبة ، ولكنها فى راحة الضمير والوجدان ٠

عندئذ بدت أرهاص النبوة ، ثم كانت الرسالة ، وشعر بشدة التكليف ، لأنه سيكون فى مواجهة فرعون الذى قتل من قومه نفســا ، والتقى فرعون بطغوائه ، وجهله ، فحسب أن الله فى السماء الدنيا ، وأراد أن يتخذ الأسباب للارتفاع اليه ٠ ومع جهله بالحقائق الالهية استكبر هو وجنده ، فكأن الجند فى جانبه ، والشعب ليس فى جانبه ، أو هو مغلوب على أمره لا يحرك ساكنا حيث يجب أن يتحرك ، ولا يدفع ظلما يجب أن يدفــع ، ثم نزل العقــاب بفرعون وجنده ، فألقوا فى البحر ٠ هذه قصة موسى رضيعا ، فشابا قويا ، فأجيرا فتيــا ، فمبعوثا نبيا ، فمجاهدا مجالدا ، حتى أدال الله تعالى مــن الطاغى المتغطرس ٠

٧٧ ـــ جاء بعد هذا الاجمال تفصيل لما ذكر بالاجمال من الوقائع ، وكان فى التفصيل ذكر للنعم التى أنعم الله بها على موسى ٠

وأول تفصيل كان فى ذكر التاهب للقاء فرعون ، فقــد توقع أنه سيلقى عنتا ، وما ذكر من بعض التكرار فلأنه لابد منه ليقوى موسى على اللقاء ، وليذكر بالنعم التى أنقذته سابقا ، ليعلم أن الله تعالى معه ومؤيده ومنقذه ،

---

(١) القصص : ٣٠ ـ ٤٠ ٠

ذكره بنعمه عليه رضيعا ثم كيف ابتدأ التكليف ، ثم كيف استعان بأخيه ، ثم كيف استعد للقاء الرهيب ، اذ قال : « **رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى ، اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا ، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى** » (١) ثم ذكره بعظم مننه السابقة ليتأكد أن الله تعالى مؤيده بنصره ، وليعلم انه مهما يكن أمر فرعون ، فان الله تعالى لن يمكنه منهما ٠

ثم جاء التكليف بالرسالة ومخاطبة فرعون نتيجة للآيات التى ذكرها أولا ، ثم ذكرها ثانيا ليربط التكليف بها ، وهذا نص التكليف الخطير : « **اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا ، اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه ، فقولا انا رسولا ربك ، فارسل معنا بنى اسرائيل ، ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى** » (٢) ٠

وفى هذا النص دعاهم الى التقدم برقيق القول ارشادا لسبيل الدعوة ، اذ هى تكون بالتى هى أحسن ليلين الطاغى وليسكن النافر ، وقد أبديا لله سبحانه الخوف من أن يطغى ، فوعدهما سبحانه بأنه سيكون معهما ، وقد سبق القول ، بسابغ نعمه ، وصادق وعده ، وكان لابد من ذكر ذلك عند دعوتهما الى ذلك الاقدام الخطير ٠

وقد كانت اجابة فرعون أن سألهما عن ربهما فأجابا قائلا أحدهما ومصدقا من الآخر : « **قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ٠٠٠** » (٣) ٠

---

(١) طه : ٢٥ ــ ٣٧ ٠
(٢) طه : ٤٣ ــ ٤٧ ٠
(٣) طه : ٥٠ ــ ٥٤ ٠

وأخذا يذكران أسباب الهداية مبينين حقـائق الوجود كله ، ولما تقدم موسى له بالعصا التى قلبت ثعبانا مبينا وقال سبحانه وتعالى : « **ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى** » لم يفكر فرعون الا فى سلطانه ومن استرقهم ، فقال : **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ، فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى** » (١) ٠ التقى السحرة وموسى ، ووقعت المعارك بين الحق يؤيده الله ، والسـحر يؤيده البـاطل ، والله يطمئن عبده الرسول وقد رأى السحرة فيقـول له : « **لا تخف انك أنت الأعـلى** » (٢) ٠

وقد كانت نتيجة المعركة بين الحق والباطل أن خر السحرة ساجدين لله ، وهنا تتجلى الحقيقة ، ويتجلى الفداء فى سبيل الحق والطغيان الفرعونى الذى يستكثر أن من المصريين مـن يذعن للحق قبل أن يأذن الطاغوت الأثيم ، وينذر بالعذاب العشير ، وقال : « **آمنتم له قبـل أن آذن لكم ، انـه لكبيركم الـذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم مـن خلاف ، ولأصلبنكم فى جـذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى** » (٣) ٠

وهنا تتجلى قوة الايمان لأنه اذا سكن القلب ، واطمأنت به النفس هان تهديد العباد ولو كان من فرعون ذى الأوتاد ، « **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ، والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انمـا تقضى هـذه الحياة الدنيا ، انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، انه من يأت ربـــه مجرما فان له جهنم لا يموت فيهـا ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فاولئك لهم الدرجات العلا** » (٤) ٠

وينتهى هذا الجزء من قصة موسى وفرعون بانه مقصـد قائم بذاته ، وهو تفصيل اللقاء بين الحق يؤيده الدليل ، وبين الباطل يؤيده الطاغوت ،

---

(١) طه : ٥٧ ـ ٥٨ ٠
(٢) طه : ٦٨ ٠
(٣) طه : ٧١ ٠
(٤) طه : ٧٢ ـ ٧٥ ٠

وفيه قوة الايمان عند المؤمن ، وما جاء من ذكر لآلاء سبق بيان فيها فلكى يتخذ من التأييد الأول والوعد به وصدق الوعد دليلا على صدق الوعد الجديد ، وقد اشتدت الشديدة ٠

الدعوة فى أوساط الشعب

٧٨ ـ سرت الدعوة بين المصريين سريان النور فى الظلمة ، ومع قوة فرعون الطاغية سرت الدعوة بين الشعب ، بل كان من ملأ فرعون نفسه من آمن ، ودعا الى الايمان ، وتجرى المجاوبة فى ربوع مصر حاضرها وريفها ، وفرعون يرعد ويبرق ، ويهدد ، ولا مستمع يستمع ، لأن الحق أبلج ، فالله تعالى يقول عنه : « **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين الا فى ضلال ، وقال فرعون ذرونى اقتل موسى وليدع ربه ، انى اخاف ان يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ، وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من باس الله ان جاءنا ، قال فرعون ما اريكم الا ما ارى ، وما اهديكم الا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن يا قوم ، انى اخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ٠ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم انى اخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ، ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** » (١) ٠

---

(١) غافر : ٢٥ ـ ٣٤ ٠

استمرت المجاوبة بين الذين آمنوا وبين فرعون ، وكان فرعون ومن معه يصدون عن سبيل الله تعالى · والذين آمنوا يدعون الى سبيل الرشاد **« وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار »** الى قوله تعالى : **« ويا قوم مالى ادعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار تدعوننى لأكفر بالله واشرك به ما ليس لى به علم ، وانا ادعوكم الى العزيز الغفار ، لا جرم انما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وان مردنا الى الله ، وان المسرفين هم اصحاب النار ، فستذكرون ما اقول لكم ، وافوض امرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب »** (١) ·

استمرت المجاوبة بين الحق والباطل ، فى داخل الشعب المصرى ، وبين آل فرعون والمؤمن ، ولعله ـ والعلم لله وحده ـ أن الذين آمنوا من آل فرعون وأهل مصر عدد قليل كالذين آمنوا بمحمد من بعد قد كانوا عددا قليلا ، ومن الضعفاء ، فكان لابد من هجرة موسى من مصر ، كما هاجر محمد من مكة الى المدينة ، وكان معه الذين اتبعوه باحسان ، ونالهم ما نالهم من الأذى ·

خروج بنى اسرائيلى وموسى من مصر :

٧٩ ـــ كان اتباع موسى عليه السلام من بنى اسرائيل الذى جاء لاستنقاذهم ، وبعث للدعوة الى الوحدانية أولا ، واستنقاذ المظلومين من الظالمين ثانيا ، فكان لابد من الهجرة ، ومن أراد أن يلحق بهم من المصريين ·

لقد جاء الأمر بالهجرة وأن تكون ليلا ، كما كانت هجرة محمد عليه السلام خفية ، وقد ساق سبحانه وتعالى قبل الخروج قصة الدعوة الموسوية ، وما لاقته من فرعون وشيعته · ليتبين أنه لا أمل فى ايمان غير الذين آمنوا من قبل ، لذلك جاء الأمر بالهجرة كما جاء بعد ذلك الأمر بالهجرة لمحمد

---

(١) : غافر ٣٨ ـ ٤٥ ·

صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى فى ذلك : « **واوحينا الى موسى أن اسر بعبادى ، انكم متبعون ، فارسل فرعون فى المدائن حاشرين ، ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وانا لجميع حذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ، فاتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون ، قال كلا ان معى ربى سيهدين ، فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وازلفنا ثم الآخرين ، وانجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم اغرقنا الآخرين** » (١) ٠

انتهى أمر فرعون بهذا الاغراق ، ولكنه لما أوشك على الغرق جاء اليه الايمان متأخرا ، فكانت المعجزة أن الله أبقاه مثلا للآخرين وان الله سبحانه يقول مفصلا مهلكه من غير تكرار ، وان ذكر المقدمات مفصلا ، قال سبحانه : « **وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى اذا ادركه الغرق ، قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون** » (٢)٠

انتهى فرعون ، ونلاحظ هنا ثلاث ملاحظات :

أولها : أن فرعون كان دائما يذكر جنوده على أنهم الذين يوالونه فى طغيانه ، ويمالئونه فى عدوانه ، وينصرونه ، والشعب لا يذكر فى مقام المناصرة لفرعون ٠

وثانيها : أن الذين آمنوا من الشعب عدد لايكون كثرة تهز ملك فرعون ٠ واذا كانوا كثرة لم يذكروا مع فرعون لأنهم فريسته ، فلم ينصروا بكثرتهم دعوة موسى ، وكانوا كشأنهم فيما يتعلق بملوكهم ان خالفوا الحق نافق منهم من ينافق ، وتملق من يتملق ، والشعب وقف موقف النظارة ، ولذلك كانت الهجرة اذ قل النصير المؤيد ، وكثر العدو المناهض ٠

---

(١) الشعراء : ٥٢ ــ ٦٤ ٠ (٢) يونس : ٩٠ ــ ٩٢ ٠

ثالثها : أن الله تعالى أجرى على يد موسى معجزات تتصل بمصر الزراعية كما ذكر فى سورة الأعراف ، ولقد ذكر فى السورة موسى وفرعون ، وذكرت هنا كما ذكرت فى غيره العصا والسحرة وكررت لأنها المعجزة الكبرى التى تحـدى بهـا ، كما كان القـرآن الكريم يذكر كثيرا فى القـرآن لأنه المعجـزة الكبرى التى جاء بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد اختبر الله تعالى آل فرعون بمعجزات زراعية تتعـلق بالزرع والضرع ، فقال تعالى : « **ولقـد اخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، الا انمـا طائرهم عند الله ولكن اكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقـع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عنـدك لئن كشفت عنـا الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون • فانتقمنا منهم فاغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين** » (١) •

وهكذا توالت المعجـزات حتى بلغت تسعا ، كما قال تعالى : « **ولقـد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم ، فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصـائر ، وانى لأظنك يا فرعـون مثبورا ، فأراد أن يستفزهم مـن الأرض ، فأغرقناه ومن معـه جميعا ، وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسـكنوا الأرض ، فاذا جاء وعـد الآخرة جئنا بكم لفيفا ، وبالحـق انزلنـاه وبالحـق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا** » (١) •

هذه قصة موسى مع فرعون ومع أهل مصر قد ذكرنا جزءا منها ، وهى فى فصول متعددة من أجزاء القرآن الكريم ، ونلاحظ مع بلاغة القصص وقوة تأثيره الذى قد نتكلم عليه من بعد ، انه لا تكرار فى جزء من القصة فلا يكرر

---

(١) الأعراف : ١٣٠ ـ ١٣٦ •   (١) الاسراء : ١٠١ ـ ١٠٥ •

جزء بمعناه فى آيات واحدة ، بل يذكر أيضا بمعناه فى آيات أخـرى ، وان كل جزء من القصة اتجه فى معناه وجزئياته ، وغاياته ومراميه الى مقصـد بل لكل جزء معنى سيق له لم يسق له غيره ، واذا كانت بعض العبارات أو المعانى تكررت ، فان ذلك لبيان المقصد الأصلى من الجزء ، فمثلا رأينا فى لقاء موسى لفرعون ذكرت عبارات النعم وهو رضيع ، وكيف سهل الله سبيل العيش الرغيد ، ليبين له سبحانه أنه معه فى لقاء فرعون ، كما كان مـع أمه فى القائه فى اليم ، ليلقى فرعون وهو رابط الجأش ، وهكذا نجد تكرار بعض المعانى ، لأنها ذكرت فى موضعها الأول مقصودة ، وذكرت فى موضعها الثانى تمهيدا لقصده ، وتثبيتا لمغزاه ، فالتكرار لم يكن لمجرد التكرار ، بل هو تجديد للمعانى ، وليس ترديدا ، والفرق بين التجديد ومجرد الترديد أن الترديد يكون تكرارا لا غاية لها ، أو يكون لمجرد التوكيد ، أما التجديد فى تكرار اللفظ فانه يكون لغاية بعده لا تتم الا به ٠

موسى مع بنى اسرائيل

٨٠ ـــ قد قسمت قصة موسى فى القرآن الى قسمين : أحدهما ما كان وهو فى مصر يجاهد فرعون ويجالده ، وقد أشرنا فيه الى أنه لم يكن تكرار الا لتجديد الأمر ، اذ يكون تمهيدا للمقصد من الجزء لا يتم البيـان الا به ، أو هو مقدمة يتلوها الجزء الذى سيق له القول ، وكان لقصد غير الأول ٠

أما القسم الثانى فهو ما كان بعد الهجرة الى الطور ، وصار موسى مع بنى اسرائيل ، وقد خلصوا من فرعون وجنده ، وفى هذا القسم تلقى الألواح وعلم التوراة ، ولاقى المرارة فيها من بنى اسرائيل وضعفهم وتقليدهم كما لاقى من قبل الجهاد مع فرعون ٠

وفى قصة بنى اسرائيل مع موسى عليه السلام يتبين ما يكون عليه قـوم قد مردوا على الخنوع ، وضـعفت فيهم النفوس ، واستمرءوا الهـون مـن الحياة ، ورضوا بالمكان الدون واستقروا فيه ٠

انتقل بهم موسى عليه السلام الى الطور ، فأرسل الله لهم السلوى والمن طعاما ، وأظل الله تعالى عليهم بالغمام حتى لا تلفحهم شمس الصحراء ، ثم توالت عليهم النعم ، وتوالت خوارق العادات ، ولقد ذكرت الآيات القرآنية فى أول سورة البقرة بعض أخبارهم ، فقال تعالى :

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم ، وانى فضلتكم على العالمين (١) ، واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون ، واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ؛ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، واذ فرقنا بكم البحر ، فانجينا كم ، واغرقنا آل فرعون ، وأنتم تنظرون ، واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده ، وأنتم ظالمون ، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ، واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ٠ واذ قال موسى لقومه ، يا قوم ، انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، انه هو التواب الرحيم ، واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ٠ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ، وظللنا عليكم الغمام وإنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون ؛ واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وستزيد المحسنين ، فبدل الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ٠ واذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ، ولاتعثوا فى الأرض مفسدين ، واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا ، فان لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل

---

(١) هو تفضيل نسبى ، وليس تفضيلا ذاتيا ، وذلك لأن الله اختارهم بقيادة موسى لمقاومة فرعون ، ولأنه فضلهم واختار بعض الأنبياء منهم ، وقد عصوا فأنكروا نعمة الله فاستحقوا سخطه ٠

صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، واذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين • ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين واذ قال موسى لقومه ، ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين • قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى : قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون • قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؛ قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ؛ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون ، قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون • واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ، ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو اشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون » (١) صدق الله العظيم•

وفى هذه النصوص السامية المعجزة المحكمة نجد القرآن الكريم يذكر بنى اسرائيل بأن الله تعالى خصهم بنعم لم يعطها غيرهم ، وأنه فضلهم فى عصرهم بأن جعل منهم الذين يقاومون طاغوتا من أعظم طواغيت الأرض ، وخصهم بكثرة المعجزات التى تجرى على أيدى نبيهم الذى هو من أولى العزم من الرسل ، وأنه سبحانه جعل من ذرية يعقوب أبيهم أنبياء كثيرين ومرسلين ، ومع هذه النعم المتضافرة ، والآيات المتكاثرة يكفرون بالنعمة ويبطرون معيشتهم ، ويتخذون تفضيل الله لهم تفضيلا نسبيا فى عصرهم ذريعة للكفر بالنعمة ، لا لشكرها ، وان الله قد أخذ عليهم الميثاق ألا يعبدوا

---

(١) البقرة : ٤٧ ـ ٧٤ •

غيره ولا يؤمنوا الا به ، ولكن نفوسهم التى مردت علـى التقليد والخنوع للقوى ، سولت لهم أن يعبدوا العجل ، كما كان يعبده المصريون ، وفعلوا ذلك تقليدا ، وخضوعا للأهواء وتركوا وراءهم ظهـريا أوامر الله تعـالى الذى أنقذهم من ظلم فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ، ويستحيى نسـاءهم ويأمرهم الله تعالى بأن يدخلوا متطامنين خاضعين فيحرفون كلام الله تعالى عن مواضعه ، ويمن الله تعالى عليهم بخير الطعام وأطيبه فيأخذهم الالف الى ما دونه ، ويستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنهم خاضعون لأهوائهم غير مستطيبين لرزق ربهم ، ويرون المعجـزة نهارا ، وينعمون بها ، اذ يطلبون الماء فلا يجدونه فيأمر الله نبيـه موسى الكليم بأن يضرب الحجـر بالعصا ، فينبعث اثنتى عشرة عينا ، ويكون لفرقهم الاثنتى عشرة مشاربهم « قد علم كل أناس مشربهم » (١) ٠

ومع هذه النعم المتوالية والآيات البينات الباهرة يأمرهم الله تعـالى بالطاعات ويأخذ عليهم الميثاق ، ويؤكده بأن يرفـع عليهم الطـور حتى يصير كأنه فوقهم تأكيدا للميثاق بالآية التى اقترنت به ، ومع ذلك لا يطيعون عامدين، اذ يتولون معرضين عن ذلك البيان الموثق ، لأنهم قد طبعوا على الجحود ، وكانوا مضرب المثل فيه ، واذا كانت الآيات قد تضافرت بالبيان عليهم ، فان الله تعالى جعل فيهم ومنهم آية بينة تدل على أن الجحود لا ينشأ عـن نقص الدليل ، بل يكون مع تضافر البينات ، فتزيدهم الآيات كفرا وعنادا ٠

وان الله تعالى يأمرهم بيوم السبت لكى يكون لهم راحة واستجماما ، وأن يبتعدوا فيه عن المادة ويعكفوا على أنفسهم يهذبونها ويفطمونها عـن دواعى المـادة ، فيذهب شرههم المـادى ، ورغبتهم فى طلب المادة الى أن يعملوا فيـه شرها وطمعا فيمسخ الله تعـالى نفوسـهم قردة تنزو مثلها ، وخنازير تطلب الخسائس طلبها ٠

« ان الله تعالى يختبرهم فى ايمـانهم بأن يذبحـوا بقرة ، ولكنهم تأثرا بالمصريين وما كانوا عليه من عبادة العجل ، يترددون فى ذبح البقرة فيجادلون

---

(١) سورة البقرة : ٦٠ ٠

فى ذبحها متجاهلين أمرها ، ولو أتوا الى أى بقرة فذبحوها لكان فى ذلك الاستجابة الكاملة ، ولكنهم يثيرون الريب حول الطلب ، سألوا عن حقيقتها ، وعن كونها صغيرة أو كبيرة ، فأجيبوا ، ثم سألوا عن لونها ، فأجيبوا ، ثم سألوا عن كونها متخذة معلوفة للنساء والتوالد ، أم هى ذلول عاملة . فذبحوها وما كادوا يفعلون تقليدا للمصريين وتأثرا بأفكارهم ، وأوهامهم فى دينهم ٠

هذه قصة بنى اسرائيل فى تلقيهم لأوامر الله تعالى ، وما جاء من القرآن خاصا بهم فى عهد موسى عليه الصلاة والسلام فهو لمقاصد أخرى من أجزاء القصة كما ذكرنا فى قصة موسى ذاته ٠

بنو اسرائيل والأرض المقدسة

٨١ — لم يكن بنو اسرائيل فى عهد موسى الا قوما أذلهم الخضوع وضربت عليهم الذلة ، وأرمضتهم الطاعة الذليلة التى كانت رقا أو ما يشبهه ، وقد بدا ضعف نفوسهم فى عهد موسى ، فقد أراد أن يدخل بهم الأرض المقدسة ، فضعفوا ووهنوا ، وتلمسوا لأنفسهم المعاذير ، وما هى الا معاذير المستكين المؤثر للاستكانة ، والرضا من الحياة بأدناها ٠

طلبهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يدخلوها ، ولنسمع الى كتاب الله تعالى يحكى حالهم من الجبن والخنوع والذل ٠

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « **واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون ٠ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه ، فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ،**

قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيهـا ، فاذهب انت وربك فقـاتلا انا ههنا قاعدون · قال رب انى لا املك الا نفسى واخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين · قال ، فانها محرمة عليهم اربعين سنة · يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين » (١) ·

هذا نص القرآن الكريم فى قصة جبن اليهود وتخاذلهم عن أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله سبحانه وتعالى عليهم أن يدخـلوها ، ويجب أن ننبه هنا الى أن المراد أن الله تعالى كتب عليهم أن يدخـلوها ، لا أنـه كتبها لهم ملكا دائما مستمرا باقيـا ، يطالبون بحقـه ، وان ذلك هو مفهوم الكتابة ، ويستفاد من النص الكريم ذلك ، أن النص الكريم ليس فيه أنـه كتبها لهم ، بل كتب فقط عليهم أن يدخـلوها ، اذ يقـول سبحانه عن طلب موسى منهم الدخول : « **ياقوم ادخلوا الأرض المقـدسة التى كتب الله لكم** » فالكتابة التى فرضها الله تعالى هو الدخول وهو واجب وليس بحق ، فلم يكتب لهم أرضا ، بل فرض عليهم أمرا بدليل عـودة الضمير على الدخـول المكتوب لا على الأرض ·

وان منطق الحوادث يوجب عليهم أن يدخلوها ، ليقيموا فيها شـعائر الموسوية ، اذ انهم خرجوا من مصر لعدم صلاحيتها لأن تقوم فيها شرائع موسى ، كمـا لم تصلح مكة ، لأن تكون موطن الشرع الاسـلامى الا بعـد تحطيم الأوثان ، وأن يمنع المشركون من دخولهـا ، لأنهم نجس لا يدخلون المسجد الحرام بعد عامهم ·

وان دخولهم فيها كان لأجل اقامة التوراة فيها ، وجعلها الحـكم الذى لا ترد حكومته ، وما كانت لذواتهم ، فلم تـكن لأنهم بنـو اسرائيل ، بحيث يكون الاستحقاق ذاتيا ، أو ميراثا يرثه الأخـلاف عـن الأسـلاف ، وقـد انتهى عهـد موسى ، وانتهى شرعه ، وحـالت أحوالهم وتغـيرت أمـورهم وليست الأرض ميراثا يؤخـذ ، انمـا الأمـر هو الدخـول لاقامة الشريعة

---

(١) المائدة : ٢٠ ، ٢٦ ·

الموسوية ، وقد نسخت بشريعة محمد ، فصارت الخلافة النبوية الى محمد خاتم النبيين ، فقومه الذين يقيمون شرع الله هم أهلها ، والذين يجب عليهم أن يدخلوها آمنين مطمئنين ، فليست أرض الله ميراثا يورث للذوات ، انما هى مقام الشرع الناسخ لا المنسوخ ٠

ويلاحظ من بعد ذلك أمور ثلاثة قد أشارت اليها الآيات الكريمات :

أولها ــ أن الاسترخاء والضعف النفسى قد أصابهم بسبب ترفهم أولا ، واستضعافهم ثانيا ، وطغيان فرعون فى حكمهم ثالثا ، وبأنهم حرموا حب الفداء ، واذا حرم قوم حب الفداء هانت عليهم أنفسهم ورزقوا الوهن ؛ وكذلك بنو اسرائيل ، فقد خافوا من غير مخوف ، وماتت فيهم النخوة ، كما تدل الآيات الكريمات ٠

وثانيها ــ أن ضعفهم أفقدهم قوة الايمان ، والشك فى حكم الديان ، حتى انهم ليقولون لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ٠ وذلك تهكم يدل على وهن ايمانهم ، كما وهنت نفوسهم ٠

وثالثها ــ أن الأمم لا تتربى الا بتعود خشونة العيش ، كما تعودت نعومته ، وأن تذوق جشبه كما ذاقت حلاوته ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى أنه لا يمكن أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله تعالى عليهم أن يدخلوها فقال سبحانه **«فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض»** ٠

وهذا كما يبدو من الآية تحريم كونى ، أى أنه لا يمكن أن يستطيعوا الدخول الى الأرض المقدسة مقاتلين مجاهدين الا بعد أن يذهب عنهم ذل الوهن ، ويأتى جيل جديد قد ذاق طعم الشدة ، وعلم الحياة نضالا ، ولم يعلمها استكانة وضعفا ، والتقدير بالأربعين ، لا أحسب أنه يقصد به العدد ولكن يقصد به الكثرة التى تنشىء جيلا تربى فى شظف العيش وصلابة الحياة وقسوتها ٠

ولقد أخذ هذه الحقيقة القرآنية ابن خلدون ، وجعل أساس قوة الأمم شدة الحياة وصلابتها ، فانها اذا استرخت أدال الله منها بقوم أولى بأس شديد تربوا فى البداوة ، وذاقوا بأساءها ٠

٢ ـ قصص القرآن لون من تصريف بيانه

٨٢ ــ ذكرنا أن البيان القرآنى فيه تصريف القول على ألوان متعددة متباينة فى حقيقتها متلاقية فى غايتها ، ولا يمكن أن يكون لكلام بشر مع سمو البلاغة ، وبلوغها المقام الذى لا يناصى فى كل أصنافها ، بل لا يمكن أن يبلغ الغاية فى صنف واحد من أصنافها ، وقد ذكرنا ما فى القرآن من اطناب من غير تكرار ، وذكرنا ما يتوهم فيه التكرار فى القصص وبينا أنه لا تكرار يعد ترديدا ولو على سبيل التوكيد ، انما ما يتوهم فيه التكرار انما هو تجديد المعنى لغاية أخرى ومقصد آخر ، وكان الذكر لما يتوهم تكراره فيه كمال المعنى ، ولا يمكن أن يستغنى القول عنه ، انما التكرار المردود يكون فيما لو حذف المتوهم تكراره ما نقصت الغاية ، وما اختل بيان المقصد ، وتكرار القرآن ليس على هذا بل هو تكميل لابد منه ، وتتميم لا يستغنى عنه ، وذلك يكون فى القصص ، وفى الاستدلال بآيات الله تعالى الكونية ، على وحدة من خلق وكون وأبدع ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال ٠

والآن نذكر القصص القرآنى على أنه لون من تصريف البيان القرآنى ، وتغير أشكاله كما ذكر الله تعالى فى القرآن ، « **ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل** » ٠

ان القصص القرآنى فيه العبرة ، وما ذكرت قصة الا كان معها عبرة أو عبر ، وفيها المثلات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم ، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور ، والجبابرة الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد ، والله من ورائهم محيط ٠

وان القصص فيه ايناس صاحب الرسالة المحمدية بأخبار أخوانه من المصطفين الأخيار ، واثبات قوله ، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة ما كانت لتعلم الا لمن شاهد ، وما شاهد أحداثها وهو لا يزال فى بطن الغيب ، كما قال سبحانه وتعالى عقب قصة مريم : « **وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم**

يكفل مريم ، وما كنت لديهم ، اذ يختصمون » (١) · وكما قال تعالى فى قصة موسى عليه السلام ووقائعها ، فقد قال تعالى : « **وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمـر ، وما كنت من الشـاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا ، فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور ، اذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** » (٢) ·

لم يكن محمد مشاهدا الأحداث التى جاء القرآن الكريم بقصصها ، وهى صادقة ، وثابتة فى الصادق من أخبار النبيين فى كتبهم التى يتداولهـا أهل الكتاب ، ولم يتناولها التحريف ·

ولم يكن بمكة مدرسة لاهوت ، بل لم يكن بمكة يهود ، ولا نصـارى الا خمار الحدوا بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اخـذ منـه كـذبا وبهتانا ، فقال الله تعالى ردا عليهم « **لسـان الذى يلحدون اليه اعجمى ، وهذا لسان عربى مبين** » (٣) ·

وكانت مكة بلدا أميـا ، ليس بـه علم ، ولا رياسات ، الا مباريات رياسية فى البيان ، وكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أميا لا يقـرأ ولا يكتب ، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « **وما كنت تتلو من قبـله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون** » (٤) ·

لذلك نقول : ان القصص القرآنى ذاته فيه اعجاز ذكره الكتـاب جاء على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب ، اذ هو النبى الأمى الذى يجدونه مكتـوبا عندهم فى التوراة والانجيل ·

ويتساءل أى تال للقرآن من أين جاء محمد بهذا القصص الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها ، لأنه لم يكن قارئا ، انه من عند الله العزيز الحكيم علام الغيوب ، وبذلك كان القصص الصادق من التحدى ·

---

(١) آل عمران : ٤٤ ·
(٢) القصص : ٤٤ ـ ٤٦ ·
(٣) النحل : ١٠٣ ·
(٤) العنكبوت : ٤٨ ·

التصريف البيانى فى قصص القرآن :

ذكر الله تعالى الحقائق الاسلامية فى القصص ، فلم يكن عبرة فقط ، بل كان بيانا لحقائق الاسلام ، فتجد فيه بيانا لعقيدة التوحيد ، والبرهان عليها جاء فى سياق القصص عن النبيين السابقين ٠ فقد رأيت فى قصص سيدنا ابراهيم عليه السلام ، كيف كانت الدعوة الى التوحيد ، وكيف ابطل عبادة الأوثان بأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنه جعلها جذاذا الا كبيرا لهم ٠ وأنهم ارادوا عقوبته بالحرق بالنار ، فجعلها الله تعالى بردا وسلاما على ابراهيم ٠

واقرأ بعض القصص عن سيدنا نوح الآب الثانى للبشر ، ترى الأدلة على التوحيد بأن تجد فى بعضها أدلة التوحيد تساق للضالين ، ويوجه انظارهم الى الكون وما فيه فقد قال تعالى :

« قال يا قوم انى لكم نذير مبين ، ان اعبدوا الله واتقوه ، واطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم الى اجل مسمى ، ان اجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى الا فرارا ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكبارا ٠ ثم انى دعوتهم جهارا ثم انى اعلنت وأسررت لهم اسرارا ، فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم انهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ، والله انبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » (١) ٠

ألم تر فى هذه النصوص السامية تسلية واضحة للنبى صلى الله عليه وسلم ، اذ فيها بيان ما لقيه نوح ، وكيف كانت الأدلة القاطعة لا تزيدهم الا

---

(١) نوح : ٢ ــ ٢٠

نفورا من الحق وفرارا من اتباعه ، واصرارا على الباطل ، وفى كل ذلك عزاء للنبى صلى الله عليه وسلم لئلا تذهب نفسه حسرات على كفر الكافرين وجحودهم بعد الأدلة القاطعة ٠

ومع هذا العزاء الروحى ، والعبرة التى تريح الدعاة الى الحق ، نجد فى السياق البرهنة على التوحيد وأن الله تعالى وحده هو الخالق ، وأنه بالتالى المستحق للعبادة وحده ، فلا معبود سواه ٠

وسوق الأدلة على التوحيد فى سياق قصة ، يجعله يسرى الى النفس من غير مقاومة ، وتكراره يجعله يخط فى النفس خطوطا ، وتتعمق الخطوط فيكون الايمان ٠

وانك لترى الدعوة الى التوحيد واضحة فى قصة يوسف عليه السلام ، فهو فى السجن يدعو الى التوحيد وعبادة الله وحده ، ويجعل سلواه ، وهو فى السجن الدعوة الى الوحدانية ، وسوق الأدلة ، فالله تعالى يحكى عنه انه يقول لصاحبيه فى السجن : « **قال لا ياتيكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتاويله قبل أن ياتيكما ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ، ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن اكثر الناس لا يشكرون ، ياصاحبى السجن أارباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١)** ٠

انظر الى الاستدلال القيم على أن الواحد الأحد خير من أرباب متفرقين ، يتيه العقل فيهم ، وأنهم لا حقائق لهم تتعلق بالألوهية ، ثم يذكر ذلك عقب أن بين تأويل ما عجز عنه المؤولون من رؤى ، وقال انه قد علمه ربه ٠

---

(١) يوسف : ٣٧ ـ ٤٠

ثم انظر الى هذا القصص وذكر التوحيد يجىء فى أثناء السجن بسبب فرية نسائية افترينها عليه ، ويجىء فى وسط قصة نسوة المدينة ، انه يكون طريفا ، فيكون له تاثير اقوى واشد ٠

٤٨ — وليس القصص القرآنى فيه اثبات أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وبطلان عبادة الأوثان التى هى أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، بل فيها اثبات الوحدانية أمام الذين يدعون ألوهية المسيح عليه السلام ٠

واقرأ قصة عيسى عليه السلام ، فان فيها الدليل على أنه ليس الا عبدا لله تعالى ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : « **ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له مافى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا ، لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا** » (١) ٠

ونرى من هذا أن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ، واثبات بطلان أن الله تعالى ثالث ثلاثة ، وساق الدليل ، وهو أن الله تعالى خالق كل شىء وله كل ما فى السموات والأرض ، وصلة كل مخلوق كمثيله وان اختلف طريق غيره ، فصلة المسيح عليه السلام بالله من حيث الخلق والتكوين كصلته بأى مخلوق سواه ، ولا يؤثر فى هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز ، وأنه رسول من رب العالمين ، وان كانت طريقة تكوينه أنه وجد من غير اب ، فان ذلك لا يجعله الها أو ابن اله ، كما قال تعالى فى مقام آخر فيه اشارة الى قصة عيسى ، اذ قال الله تعالى : « **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون** (٢) ٠

---

(١) النساء : ١٧١ ، ١٧٢ ٠
(٢) آل عمران : ٥٩ ٠

واقرأ قصة أخرى لسيدنا عيسى عليه السلام ، فقد قال الله تعالى :

« وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثيرا منهم والله بصير بما يعملون ، لقد كفر الذين قالوا : أن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار • لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم • أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم الا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر انى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم » (٣) •

وهنا نجد الرد على من يجعلون المسيح الها ، لقد نفى الدعوى من أصلها اذ بين أن المسيح الأمين لم يدعيها ، ولا يمكن أن يدعيها فقد كان هو داعيا الى التوحيد ، نافيا للشرك بربوبية الله ، وأنه كسائر الناس مخلوق وأن الله ربه كما هو رب الناس جميعا ، وبين سبحانه بطلان دعوى الألوهية له ولأمه بأنهما محتاجان ، ويأكلان الطعام كسائر الناس ، والله تعالى غنى لا يحتاج ، وليست له صفة الحوادث من طعام وغذاء ، وبين ثالثا أنه لا يضر ولا ينفع الا باذن من الله تعالى خالقه من غير أب ، وانه من بعد ذلك عبد لا يستنكف ولايستكبر •

ونرى أن نفى التثليث واثبات بطلانه بالدليل ، جاء فى ضمن قصة ، فكان تصريفا فى الاستدلال ، اذ أن سوق الدليل فى ضمن قصة يجعله أكثر سريانا فى النفس ، وانسيابا فى أطوائها •

الحث على المعاملة الطيبة فى القصص :

٨٥ ــ وانه مما جاء فى القصص أن دعوة النبيين عليهم الصلاة وأتم السلام جاءت للخير الى حسن التعامل ، واصلاح الأرض ، وأن اصلاح

---

(٣) المائدة : ٧١ ، ٧٦ •

الأعمال والنفوس ومنع الفساد فى الأرض من أعظم المقاصد فى الشرائع السماوية بعد عبادة الله تعالى ، والايمان باليوم الآخر ، واذا كان ذلك فى ضمن قصة استمكنت فى النفس واتجهت الى مداخلها من غير تعويق من ملاحاة جديدة ، غير ما كان فى عهد النبى الذى ذكرته القصة ٠

اقرأ قصة شعيب عليه السلام ، فقد قال تعالى : « **والى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ٠ وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** » (١) ٠

أما ترى فى هذا النص القرآنى الذى تتضمنه قصة شعيب عليه السلام دعوة صريحة الى ناحية عملية ، تتصل بالاصلاح الاجتماعى ، ومنع الفساد فى الأرض ، والقيام بحق الأمانة فى التعامل ٠

وفى موضع آخر من قصة شعيب نجده يكرر الدعوة ، ثم يبين سبحانه كيف تقاوم دعوة الحق بالاصرار على الشر ، وكيف كان الاصرار عليه الى أن يديل الله تعالى بما ينزل بالعصاة ، وبما يؤدى الى فساد أخلاق الأمة ، لقد قال الله تعالى حكاية لقول شعيب : « **قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ، ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد قال يا قوم**

---

(١) الأعراف : ٨٥ ــ ٨٧ ٠

أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » (١) ٠

ونرى من هذه المجاوبة أنهم يصرون على ما هم عليه ، ويعدون ارشادهم الى الحق فى المعاملة ، تدخلا فى شئونهم المالية ، وكأنهم يظنون أن شئون المال لا صلة له بالتدين ، كما يجرى على ألسنة بعض الذين لا يريدون بالدين الحق وقارا ، ويبين سيدنا شعيب عليه السلام أنه اذ ينهاهم ، هو أول من يتمسك بألا يفعل مانهى عنه ، اذ يقول : **وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه** » وفى ذلك اشارة الى أن من يدعو الى أمر يهدمه ان خالفه فى عمله ، وأن الاستجابة الى الداعى الى الخير تقتضى أن يكون الداعى مستجيبا له وهكذا ، فان الله تعالى يأخذ على بنى اسرائيل ، أنهم يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، فقد قال تعالى « **أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** » (٢) ٠

ميزان العدالة فى الحكم :

٨٦ ــ ويبين الله سبحانه وتعالى بطريق القصص القرآنى ــ لأنه من تصريف البيان ، كما أشرنا ــ أن مقياس الحكم العادل ادراك الحق ، وألا يجعل القاضى أو الحاكم للهوى سلطانا فى الحكم ٠ فان كان الهوى كان الشطط فى الحكم ، ومظنة الوقوع فى الظلم ، وان كان الحاكم لابد أن يكون مدركا للحق فلابد من عنصر العلم ، وابعاد الهوى ٠

واقرأ قصة داوود عليه السلام الذى أعطاه الله الملك والحكمة ، فاقرأ العبارات السامية التالية :

« وهل أتاك نبأ الخصم ، اذ تسوروا المحراب ، اذ دخلوا على داوود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط ، ان هذا أخى له تسع وتسعون

---

(١) هود : ٨٤ ــ ٨٨ ٠ (٢) البقرة : ٤٤ ٠

نعجـة ، ولى نعجة واحـدة فقال اكفلنيها ، وعزنى فى الخطـاب ، قـال لقـد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطـاء ، ليبغى بعضـهم عـلى بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظـن داوود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك وآن له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يا داوود انا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحـكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (١) ٠

هنا نجد القصة عن نبى الله داود عليه السلام تتضمن ثلاثة أمور فى التنبيه على كل واحدة منها تنبيه الى أمثل الطرق للوصول الى العـدل فى الأحكام ٠

أولها : أنه سبق الى الحكم من غير أن يستمع الى كلام الخصم ، فقضى لأحد الخصمين ، قبل أن يستمع الى كلام الآخر فان ذلك مدرجة الظـلم ، بل قد يكون ظلما ٠

ثانيها : أنه لم يكتف بالحـكم فى القضية المعروضـة ، بل عمم الحكم ، والقضاء يكون فى القضية المدروسة ، ولا يتجاوزها ٠

الأمر الثالث ، وهو يفصل التفرقة بين الحـكم الظالم والحكم العادل ، أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة وأمـا الحـكم الظالم فانه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة وان الملوك والحكام المستبدين يـكون مصـدر شرهم أهواؤهم ، فهم يتبعـون أهواءهم فيمـا يحكمون به ، ومـا ينزلونه بالنـاس ، فهم يسـنون النظم تبعـا لأهوائهم « ويطبقونهـا تبعـا لأهوائهم ويجعلون شيعتهم تسارع الى تنفيـذ أهوائهم ، ولا يفهمون المصـلحة الا تابعة لأهوائهم ، فاذا نهى الله تعالى نبيـه داود عن اتبـاع الهـوى وهو خليفـة حاكم ، فانما نهاه عما يؤدى الى فساد الحـكم ، وبهذا يتبين أن حـكم الهوى كان مصدر فساد الحكم فى الماضى ، كما هو مصدر الفساد فى كل الأزمان ،

---

(١) ص : ٢١ ـ ٢٦ ٠

ونذكر ذلك فى قصة من قصص القرآن يزيد المبدأ تبينا وتأكيدا ، وقد بينا أن ذكر أى أمر فى قصة يجعله يسرى فى النفوس ٠ ويدخل الى الضمائر ان كان فيها استعداد للحق ٠

ولا شك أن هذا كله يدل على أن القرآن يصرف فيه سبحانه البيان تصريفا ليكون أقرب الى التأثير والدفع الى العمل ، وليس ذكر القصص للعبرة فقط ، بل هو مرشد وهاد مع ذلك الى أقوم السبيل ، والله أعلم ٠

بيان بعض الأحكام بالقصص القرآنى :

٨٧ ــ من صور التصريف البيانى بالقصص القرآنى بيان ببعض الأحكام الشرعية فان ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها ، لأنها تكون أحكاما متفقا عليها فى كل الشرائع السماوية ، وبيان أنها غير قابلة للنسخ ، وأنها مؤكدة ثابتة ٠ وفى القصة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة ، ولنذكر من ذلك قصة قابيل وهابيل ولدى آدم ٠

فقد قال الله تعالى فيها : « **واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء باثمى واثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ، فأصبح من النادمين** » (١) ٠

هذه القصة تثبت أن الغيرة والحسد يؤديان الى الاعتداء ، وأن ذلك يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض ، وأنه لا علاج للحسد باخراجه من النفوس ، فهو فيها دفين ، نعم انه مرض ، ولكنه مرض لا يمكن أن يكون منه شفاء ، والناس ليسوا سواء فمنهم شقى وسعيد ٠

---

(١) المائدة : ٢٧ ــ ٣١ ٠

واذا كان الأمر كذلك فلا علاج الا ببتر من استكن فى قلبه ان تعدى استجابة له ، والاعتبار فى النظم لصلاح الجماعة ، لا لصلاح الآحاد فقط ، ولذلك قال الله تعالى عقب ذكر قصة ولدى آدم :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » (١) ٠

وانا لنرى هذا القصص المحكم قد ارتبط فيه الحكم بسببه ، فهو فى جزء من القصص ذكر سبحانه ما كان بين الأخ وأخيه من محاربته فطرة الأخوة الرابطة ، وأنه حمل نفسه حملا على ارتكاب جريمته ، اذ هى مخالفة للطبائع السليمة ، ولذلك قال سبحانه وتعالى « **فطوعت له نفسه** » حتى اذا تمت الجريمة رأى بشاعتها فى جثة أخيه ، فأراد أن يواريه فضل ، حتى رأى غرابا يبحث فى الأرض ليوارى جثة غراب مثله ، وعندئذ بدا له جهله وندم اذ رأى غرابا هو أحن على أخيه منه ، وهو أعلم كيف يوارى سوءة أخيه ٠

وما كانت أمور الناس لتترك فوضى ، يجرم من يجرم ثم يندم ، فكانت شرعية القصاص ، لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الحياة فى كل انسان ، ومن قتل نفسا بغير حق فهو على استعداد لقتل غيرها ففى عمله تعريض النفوس الانسانية لاعتداء المعتدين المفسدين ، ومن أحياها بالقصاص من القاتل ، فكأنما أحيا الناس أجمعين ، كما قال تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة** (٢) ٠

وان هذا يدل على أن شريعة القصاص شريعة أزلية خالدة باقية ، وأنها كانت فى الشرائع السابقة ، ولم تخل شريعة من شرائع النبيين الكرام منها ، ولقد ذكرت بحكمتها ؛ ونتيجتها ، وهى احياء للأمة واهمالها اهانة لها ٠

---

(١) المائدة : ٣٢ ٠
(٢) البقرة : ١٧٩ ٠

ولا شك أن ذلك تصريف بيانى قرآنى فى بيان الأحكام ٠

وقد جاءت الأحكام اكثر تفصيلا فى بيان القصاص فى الأطراف مع النفس فى قصص عن بنى اسرائيل ، والتوراة وما جاء فيها ٠ ولنتل على القارىء الكريم ما جاء فى ذلك ، وان كنا سنتلو أكثر مما تلونا من الماضى ، ولقد قال الله تعالى فى وصف بعض بنى اسرائيل فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذين أرادوا أن ينفروا من حكم التوراة فى مجرم ارتكب جريمة لاجئين الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حاسبين أن عنده حكما أخف من حكم التوراة ، لهوى فى نفوسهم ٠ قال تعالى : « **سماعون للكذب اكالون للسحت ، فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين ، انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به ، فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون ، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقها لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الانجيل بما انزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا ٠ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله**

أن يصيبهم ببعض ذنوبهم • وان كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١) •

وترى من هذا النص الكريم بيانا للأحكام الشرعية الخاصة بالقصاص في تفصيل محكم مستقر مقنع ، فهو يجعل القصاص فى الأطراف ، كما هو ثابت فى النفس ، بل انه يثبت القصاص فى الجروح ، ويوثق الأحكام بأنها نفذت فى الانجيل ، اذ جاء الانجيل مصدقا لما بين يديه من التوراة ، ويوثقها بأن القرآن مصدق لما جاء فى التوراة ، ولكن له هيمنة ، وسلطان ، يبقى ما يبقى ، وينسخ ما ينسخ ، وما يثبت أنه نسخ من أحكامها ، فهو منسوخ ، لأن له المهيمنة الكاملة •

وفى القصاص الشريعة باقية • وفى التوراة كما هو فى القرآن جواز العفو عن القصاص ، اذ يقول سبحانه « فمن تصدق به ، فهو كفارة له » • والقصاص ثبت بالقرآن ، فالله تعالى يقول :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف ، وأداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (٢) •

وهكذا نجد ذكر الأحكام الثابتة التى لم يعترها تغيير ونسخ بطريق القصص نوع من تصريف البيان وتثبيت الأحكام •

---

(١) المائدة : ٤٢ ـ ٥٠ •
(٢) البقرة : ١٧٨ ـ ١٧٩ •

أسلوب القصص فى القرآن

٨٨ — قد ذكرنا فى القول السابق ما يختص به أسلوب القرآن من صور بيانية فى ألفاظه فكل لفظ يعطى صورة بيانية ، يناسب المقام الذى ذكر فيه ، ويتجمع من الأسلوب صورة بيانية تكون الصور اللفظية أجزاء فيها ، وان كان لها صفة الاستقلال ، ومن المجموع تتكون صور تصور المعانى ويكون لها أطياف فى اجتماعها وانفرادها ٠

وذلك ثابت فى أسلوب القصص ، كما هو ثابت فى كل أساليب القرآن الكريم من غير تخصيص فيها ، بل كلها درجة واحدة يعجز البشر عن أن يصلوا اليها ، فكل لفظ له اشعاع نورانى يشع منه ، وكل جملة ينبثق منها النور الالهى الذى تنطفىء بجواره كل الأنوار ٠

ومع هذا فالقصص القرآنى باعتباره قصصا فيه أخبار عن أمم ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم وأشخاص يعاندونهم وان القصص يمتاز مع الصور البيانية التى تنبعث من الكلام مجردا ، صور أخرى تصور الأشخاص والوقائع والمشاهد فاذا ذكرت حال شخص صور تصويرا واضحا كأنك تراه وتشاهده ، والعبارات تصور حاله من خوف ، أو حنان ، أو انزعاج أو جحود ، وكأن المعانى صور واضحة فى الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص فى مشهد من مشاهد الذعر ، ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية والأساليب فى تصويرها ٠

ولنذكر فى ذلك بعض ما تلونا من قبل ، لنعيد تلاوة حال أم موسى ، وقد ولدت ولدها ، وهى تعلم أن فرعون يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، وتضطرها الفطرة الملهمة التى كانت بمثابة وحى أو هى وحى لها أن تلقى ولدها فى اليم ، لأنها خير لها أنه يلقى لقدر الله تعالى وقضائه من أن يذبح بين يديها ، وهذا ما نعيد تلاوته ، وما أطيب القرآن فى اعادة تلاوته « **وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه ، فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون**

لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وهم لا يشعرون ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كانت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصية فبصرت به عن جنب ، وهم لايشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون » (١) ٠

ان القصة ترينا صورة أم مضطربة منزعجة خائفة لما أثقلت ألقت حملها ، فاذا اثقال جديد ، انها تريد نجاته ، فيعلوها الاضطراب والخوف والفزع ، واذ الالهام يجيئها بالقائه باليم مع اثلاج قلبها بألا تخاف ، وألا تحزن ، ومن الله تعالى عليها بالاطمئنان بأنه سيعود اليها ، وهكذا يكون الاطمئنان فى موطن الخوف ، والقرار فى موطن الاضطراب ، والسكون فى موطن الهلع ، يغيب عنها فلذة كبدها فيفرغ قلبها ، ويغلب الفزع على الاطمئنان وهى تغالب حال الفزع بحال الاطمئنان الى أن وعد الله تعالى بالاطمئنان ويصطرع الأمران فى نفسها ، يغلب الالهام فتطمئن ، ويغلب الفزع القلبى فتكاد تبدى أمرها ، وتظهر سرها ، ولو علم به أعداؤه وأعداؤها أعداء الله تعالى ؛ ولكن الله تعالى يربط على قلبها بالصبر وهى تصبر ولكنها لا تسكن بل تتحرك بعمل ، فترسل أخته لتتقصى أخباره ، وتتعرف أحواله فترى المعجزة الكبرى ، اذ يمتنع عن المراضع ، حتى يعود الى أمه وتأخذه أخته الى الأم التى تضطرب بين اليأس والرجاء ، بين الأمل الباسم والحرمان الدائم ٠

اقرأ النص القرآنى ، وتراه مصورا لحال تلك الأم الرءوم ، فهل تجد مصورا متحركا أو واقفا يستطيع تصوير هذه الحال ، ولكنه القصص القرآنى المصور الذى نزل من عند الله تعالى ٠

٨٩ ـ ولنعد الى قصة موسى وقد تربى فى قصر فرعون ، حيث الترف والبطر ، وفى جو الغطرسة والسلطان ومن يدعى لنفسه الألوهية ،

---

(١) القصص : ٧ ـ ١٢ ٠

فهل شعر موسى بما يشعر به المترفون المسرفون ، الذين يستعبدون الناس ولكنه فى الوقت ذاته كان يعيش فى أحضان قومه ، حيث كان على كثب ممن يقتل فرعون أبناءهم ، ويستحيى نساءهم فهو البعيد عنهم بحسه القريب منهم بنفسه ، يعيش معهم ، وان جفاهم فى المسكن والاقامة ، ولذلك كان القريب فى قصر فرعون المستانس بمن يؤويهم فرعون ، فيعيش معهم ٠

ولقد بدا ذلك على أكمله يوم أن بلغ رشده ، واستطاع أن يخرج من محبس فرعون فى النعيم ، ويلاقى الحياة التى يلاقيها قومه ، ولقد قص الله سبحانه وتعالى قصصه بعد أن بلغ رشده ، وصار رجلا سويا ، فى أسلوب ينم على الرغبة فى الجهاد وتحمل شدائد الحياة ، فيقول سبحانه فى أحسن قصص مصور « **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها** » (١) ٠

خرج موسى من المحبس ، ودخل المدينة ، وأهلها لا يتوقعون أن يخرج رجل فى ظل القصر ، الى حيث الشعب ، ينازل من ينازل ويسالم من يسالم الى حيث الحياة اللاغبة العاملة ، فكان ذلك مفاجأة ، عبر عنها القرآن بقوله « على حين غفلة من أهلها » ، خرج ونفسه مملوءة غيظا على الذين كانوا أداة فى يد فرعون يسوم بهم الناس عذابا ، فوجد مصريا يقتل واحدا من شيعته فسارع اليه زعمه أنه اليهودى يعتدى عليه ، فاندفع فقتل المصرى ٠

ولكنه وقد استرجع ضميره الذى كان فى غفوة بسبب العداوة المستحكمة بين العنصرين ، وبسبب ما رأى من فرعون ومن معه من جند وأشياع ، وأهل مصر صامتون كدأبهم عندما يرون ظلما عنيفا صارخا يقفون كالنظارة ، لا يتحركون لظلم واقع ، ولا لهم مستحكم مانع ٠

وتكررت المأساة بين اليهودى الذى استنصره بالأمس ومصرى آخر فيقوى صوت الضمير على استغاثة اليهودى ، ويعلم أنه فرعونى ضال كثير الشكاس ، وأن المصرى مظلوم فى معاملته ، ولكنه مع ذلك تغالبه فى نفسه

---

(١) القصص : ١٤ ، ١٥ ٠

مشاعر ، فيهم بأن يبطش بالذى هو عدو لهما ٠ عندئذ نطق المصرى **لائما ،** مذكرا بأنه يريد أن يكون جبـارا فى الأرض ، وما يريد أن يكون من المصلحين الذين يعملون على الاصلاح بين المتخاصمين من غير اضافة اعتـداء الى اعتداء ٠ ويقول له فى عتب لائم « **ان تريد الا أن تـكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين** » (١) ٠

وموسى فى نفس حائرة بين عز الدنيا وقد تركه وراء ظهره ، وجعـل نداءه دبر أذنه ، وبين الحق والعدل والاخلاص وهو الى الثانى يميل ، ومن الأول ينفر ، وبينا هو على هذه الحال يتردد بين ماض مريح ، وجديد يريد أن يخوض فى شدائده ، ليعيش كما يعيش قومه ، فيشاركهم فى ضرائهم ، واذا النذير ينذره : « **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك من الناصحين** » (٢) قضى الأمر ، وانتهت الحيرة ، واستقبل الحياة الجديدة بلأوائها وجها لوجه ، ولنترك القول لكتاب الله تعالى يذكر لنا حاله من بعد ذلك الانذار ٠ اذ نجـد التصوير الذى تعجز عنه كل أدوات التصوير الساكن والمتحرك ، وهو يصور موسى قد أحس بخطر قوم فرعون ، وفرعون ، وآل مصر ، يترقبونه ، فالله يقـول فى كلام مصور للأرواح والأشباح : « **فخرج منها خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين ، ولما توجـه تلقـاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظل ، فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير** » (١) ٠

تصوير للحيرة ٠ فربيب النعمـة خائف يترقب المتتبع ، والمترصد ، ويتوجه من ريف مصر وخضرته الى لفح الصـحراء وجدبها ثم هو يحس

---

(١) القصص : ١٩ ٠

(٢) القصص : ٢٠ ٠

(١) القصص : ٢١ ـ ٢٤ ٠

بالحاجة ، وهو الذى كان يتناول ويرمى ، واذ لفحته الشمس أوى الى الظل ، لا يرجو الا الله ويعلم أن الله تعالى لا يتخلى عنه ·

وانى مهما أحاول من تصوير للقصة بعبارتى ، فلن نصل الى ما يقع فى نفس القارىء اذا تلاها مجردة من غير تعليق عليها ، انها تصور ربيب النعمة فى صورة كأنها المرئية ، وكأنها مشاهدة محسوسة ، وليس أخبارا مكتوبة أو متلوة ·

انه حائر ، فيفاجأ باحدى المرأتين تأتيه تمشى على استحياء ، وهى تدعوه الى أبيها ليجزيه أجر ما سقى لهما ، ويذهب الشاب القوى الى الشيخ الضعيف ، وهنا يرى الشجرة الوارفة ، فى وسط الصحراء ، ويجد الحياة الزوجية ، وراحة الحياة بعد شقائها ، ويذوق طعم الدنيا ، ولم يكن فى بيت فرعون يذوقها ، ذلك أن النعيم معنى نسبى لا يذوقه الا من ذاق الألم فى هذه الدنيا ، والنعيم من غير ألم يرنقه يكون راحة عفنة ، فموسى عليه السلام ، بعد أن نال عيشه بالكد واللغوب ، وعاش بين الرجاء والخوف أحس بطعم الحياة ومعناها ، وتأهب للرسالة ، لأن الرسالة لا تكون الا لمن اصطفاهم الله تعالى ممن ذاقوا طعم الحاجة وعزة الحق ، ولم يترفوا بالنعيم ، وكذلك أمر النبيين والصديقين ، وكذلك كان تاريخ كل الأنبياء ، وخصوصا أولى العزم من الرسل ·

هذا وانا نطالب القارىء أن يقرأ أى جزء من قصة موسى فانك تراه مصورا للموقف الذى يعرض له أبدع تصوير ؛ وكأنك تشاهد . ولا تسمع وتتلو . وانه لهو القصص الحق ·

٩ ـــ وانك اذا قرأت مجادلة المشركين مع نبى من الأنبياء ، كنوح وابراهيم وعيسى · وشعيب وهود ، تحس بأنك تشاهد مشهدا مرئيا ، لا أنك تستمع الى كلام متلو ، فتنتقل أنت وعقلك وجوارحك كلها الى هذا المشهد الكريم الذى يصور عقلية الذين يجادلون ، وما يبذله الرسول ، وما يتحمله فى سبيل اقناعهم ، أو الزامهم كلمة التقوى ، ولايريدونها ، اقرأ مجادلة نوح عليه السلام لقومه ، وهم يجادلون فى الله ، ونوح يريد أن يهديهم بأمر الله

تعالى ، واتل قوله تعالى « **ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ـ ألا تعبدوا الا الله ، انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقوا ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذا لمن الظالمين ، قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال انما يأتيكم به الله ان شاء ، وما أنتم بمعجزين** » (١) ٠

هذا مشهد من مشاهد القول تجد فيه مناقشة قوية بين دعوة الحق ، وجحود أهل الباطل ، وتراه كأنه مصور أمام البصيرة وترى فيه صاحب الحق يدلى بالبينات ، والحق وحده أبلج ، وترى فيه أهل الباطل يتخذون من الحس دليلا على الحق ، وحسهم كاذب ، فيستدلون على أن الدعوة ليست دعوة حق بأن أتباعها الفقراء الأرذلون فى أعينهم الذين يزدرونهم والنبى عليه السلام يجادلهم بالتى هى أحسن ، وهو يسوق البينات ، ولكنهم يتبرمون بدعوة الحق ٠

ولاشك أن العبارات لا تدل على المعانى المقصودة فقط ، بل وضعت الألفاظ ، ومعانيها ، وأطيافها فى بيان مصور يسكن به الخيال والنفس ، كأنه واقع محسوس ، لا قصص متلو فقط ٠

وبعد ذلك بين الله تعالى لنوح أنهم لا يؤمنون ، ولم يبق الا انزال العقاب بهم ، واقرأ صورة العقاب تراه قصصا مجردا ، ولكنه مشهد واضح بين يصل الى درجة المرئى للقارىء المتنبه ٠ اقرأ قوله تعالى :

---

(١) هود : ٢٥ ، ٣٣ ٠

« وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ، ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال : ان تسخروا منا ، فانا نسخر منكم كما تسخرون ؛ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى اذا جاء أمرنا ، وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال ساوى الى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ، قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم » (١) .

ذلك هو بعض قصص نوح عليه السلام من وقت أن يئس من ايمانهم وأخبره ربه العليم الحكيم أنه بلغ الحجة وحقق الرسالة ، وأنه لن يؤمن أحد من قومه لم يكن قد آمن . وأن العقاب نازل لا محالة ، وترى كل نص من نصوص هذا الجزء من القصة مصورا بيانيا لما انزله تعالى ، فترى جزءا يصور كيف أخذ نوح يبنى سفينته ، والقوم ينظرون اليه ساخرين غير عالمين بالعقبة التى تنتظرهم ، والغاية التى قدرها الله تعالى من هذا البناء والخيال يرى الصورة من وراء العبارات كأنها بين يديه حقيقة بالعيان ،

---

(١) هود : ٣٦ ـ ٤٨ .

وليس خبرا من الأخبار ، وان كان يذكر فى أعلى صور القصص المصور ، ثم ترى الايذان بالابتعاد عن موطن الغرق ، وقد فار التنور ، وانى قد أدرك من هذا أنها كانت تسير بالبخار اذ فار التنور فتحركت بعد أن فار ، والله تعالى أعلم بمراده ، وان كان اللفظ دالا ، بل هو مصور لتنور فار فحرك ببخاره ما حرك من آلات تسير السفينة ، وتجرى بهم فى موج كالجبال والقارىء يرى فى هذا صورا تثير الخيال ، وتجعل الخبر مرئيا أو كالمرئى ؛ وان ذكر الموج فى هذا المقام يصور كيف كان السيل عارما ، وأنه لم يكن غيثا حتى لم يبق الا من خرج بالسفينة نجيا ٠

ثم نجد فى ذلك القصص أمرا معنويا مصورا كأنه ملموس ، وهو حنان الأب ، ورفقه بولده ، فقد رأينا فى النبى المجاهد عاطفة الأبوة تعلو ، فينادى ابنه وكأننا نسمع النداء فى مشهد من مشاهد الأبوة ، ثم نجد الابن ، وقد غره غرور الصبا ، والابتعاد عن التصديق ، حتى حسب أنه بمنجاة من الغرق اذ اعتصم بجبل آوى اليه ، وحال بينه وبين أبيه الموج ، فكان من المغرقين والأب تنفطر نفسه ، فتغلبه شفقة الأبوة عن رؤية أمارات الموت ، ويتجه الى ربه باكيا حزينا اذ نجا أهله الا ابنه ، فيقول ، وكأننا من فرط التصوير نسمع أنين الأب ، بعد أن نجا كل من فى السفينة ، وقد استوت فى طريقها وهلك الظالمون ، يضرع الى ربه يقول « ان ابنى من أهلى » ، وكان قد وعده ربه بأن ينجى أهله ، فيقول ان وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، وهنا نجد رب العالمين يبين أنه داخل فى عموم الكافرين ، لأنه كفر ، وأهلك هم الذين آمنوا ، ولم يعارضوك ٠ ويقول سبحانه : « **انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين** » ٠

تعارض العطف مع الواجب ، فتحت قوة العاطفة الأبوية نطق بما نطق فنبهه الله تعالى الى الواجب ، ولم ينبه غافلا ، ولكنه نبه يقظا مؤمنا ضارعا وان كان قد ناجى ربه بصوت البشرية ، فتاب ، وقال « **رب انى أعوذ بك أن أسالك ما ليس لى به علم ، والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين** » ٠

القصص المحق المصور فى أهل الكهف :

٩١ ــــ ومن أروع القصص القرآنى المصور فى صدقه ، وسرد حقائقه قصة أهل الكهف التى هى آية وحدها فى التصوير البيانى القصصى الصادق ، وهى فى كل جزئية تصور الأمر كأنه مرئى بالحس ، لا مذكور بالخبر وحده واقرأ قوله تعالى : « **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، اذ أوى الفتية الى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنــا رب الســموات والأرض لن ندعو من دونه الها ، لقــد قلنــا اذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، واذ اعتزلتموهم وما يعبــدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيــه بالوصــيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ، ولملئت منهم رعبا ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما او بعض يوم ، قالوا ربكم اعلم بما لبثتم ، فابعثــوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحدا ، انهم ان يظهروا عليــكم يرجموكم ، أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا ، وكذلك أعثرنا عليهم ، ليعــلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقــالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم الا قليل ، فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا ،**

ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا ، ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ابصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه احدا » ٠

هذه قصة أهل الكهف ، والرقيم ، وهو الحجر الذى رقم عليه أنه رمز لمأواهم ليكونوا عبرة ، وليكونوا دليلا ناطقا ، على الايمان بالبعث والنشور وان الذين يجحدون بهما يرونهما عيانا فيهم ، اذ بعثهم الله سبحانه وتعالى ، وقد حسبوا أنهم مضى عليهم يوم أو بعض يوم ٠

والقصة الكريمة كما ذكرها القرآن الكريم فى قصصه الحق لها مشاهد تذكر كأنها ترى ، وكأن الانسان يعاين وقائعها ، فى أسلوب قرآنى قصصى تؤخذ منه مغزى القصة فى غير التباس ، ولا ارتياب ٠

المشهد الأول : اواء فتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله تعالى هدى ، وقد فروا من الوثنية الى الوحدانية ، ومن الوثنيين الى جوار ربهم ، وقد ربط الله على قلوبهم ٠ فاستمسكوا بايمانهم ، واعتصموا بربهم ، وكان الايمان قد سكن وعاء القلب ، فربط الله تعالى بالصبر حتى لا يخرج من وعائه الذى استقر فيه ، واطمأن ، فلا يتشعع أمام أى حادث ، وان الايمان اذ سكن واطمأنوا ، كانت رحمة الله تعالى أن ضرب على آذانهم بمعنى أنه خيم عليها ، فأصبحت لا تسمع لغو الحديث ، وانهم اذا أووا الى الكهف قطعهم الله تعالى عن لغو الوثنية وظلم أهلها ، فاجتمع لهم الانزواء عن الناس ، والبعد عنهم بالحس ، فلا يرون الناس ، ولا يسمعون عنهم . وساروا فى غيبوبة كأنهم الموتى ، وليسوا أمواتا ، وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ، وكل ذلك فى تصوير قصصى كأن التالى للقرآن يراهم ، وهم يهرعون الى الكهف يأوون راجين الرحمة والرشاد ، مبتعدين عن الآثام ، وما فى الدنيا ، وقد زادهم الله تعالى ، فجعلهم رقودا ، وهنا نجد الصورة واضحة

---

(١) الكهف : ٩ : ٢٦ ٠

أن ناسا يظن أنهم أيقاظ ، وهم رقود ، وقد بقوا على ذلك سنين عددا تجاوزت ثلاثمائة ٠

والمشهد الثانى : بعثهم ، وقد اختلف الناس فى أمر المدة التى استمروها فى الكهف ، وقد مرت الأجيال ، وهم يحسبون أنهم ايقاظ ، فقد استمروا كما ذكر فى القرآن الكريم ثلاثمائة سنة وزادوا تسعا ٠

ويجىء بعد البعث الكلام فى المدة التى مكثوها ، والسبب فى اختيار مأواهم ، **فقص الله خبرهم بالحق تفصيلا** بعد أن ذكره اجمالا ، لقد قاموا من سباتهم ، وهم يرددون ايمانهم بالله تعالى ، واعتراضهم على أقوامهم ، ويحكون ما كان منهم مع أقوامهم « **هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين** » وأن قومهم اعتزلوهم ، وهم لا يعبدون الا الله تعالى ، ونرى الصورة القصصية واضحة بينة ، هادية مرشدة تصور الملاحاة بينهم وبين أقوامهم ، حتى اعتزلوهم معتصمين بربهم ، مؤمنين به ، وهذا المشهد كل أجزائه واضحة ، حتى انه يصور الكهف ومن فيه وخرجوا منه فى مشهد واضح بين ، هو كالعيان بتصوير القرآن الكريم ٠

والمشهد الثالث : منظرهم وهم رقود ، وحال الكهف ، وصورته ، فهم فى فجوة منه ، يتجهون فيه الى الشمال والشمس تخرج لهم من الشرق يمينا ، وتودع الكون فى غربهم ٠ فالشمس والهواء ، يحيطان بهم ، وذلك أصلح مكان ، اذ يستقبل الشمس فى غدوها طالعة ، وفى غروبها رائحة ، والهواء من البحر يجىء اليهم ، فينعشهم نسيمه العليل ٠ فأسباب الحياة الطيبة قائمة ومهيأة لهم ، وهم رقود ، وان كان الرائى يحسبهم أيقاظا ، والوصف القصصى مصور المكان كأن القارىء للقرآن يراه ، وهو يتلو كتاب الله تعالى٠

وانهم فى هذه المنامة يتقلبون كالأيقاظ الأحياء بارادة الله تعالى وأمره الكونى « **ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال** » ولايترك القرآن الكريم من الصورة المكانية شيئا الا بينه ، وصوره ، فيذكرهم وكلبهم يحرسهم وهو بالوصيد ، وهو فجوة بالجبل الذى فيه الكهف ، فالتصوير القصصى كامل يرى فيه القارىء صورة للمكان ، وكأنها مصورة بصورة باهرة ، وليست كلاما متلوا ، ولكنه كلام الله تعالى العزيز الحكيم ٠

وان المكان فيه رهبة ، وحالهم فيها هيبة ، لـو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ، ولملئت منهم رعبا ٠

المشهد الرابع : الذى تصوره القصة ، وقصص القرآن كله حق لا ريب فيه ، وهو تيقظهم بعد الرقدة ، وحالهم ، وقد رأوا الحيـــاة اللاغيـة التى كانوا عنها غافلين ، وكانوا فيها راقدين ، وأول سؤال توجهوا به ، سألوا به أنفسهم ، كم لبثوا فى منامهم ، وقد سألهم هـذا السـؤال واحد منهم ، فقالوا كأنهم مجمعون لبثوا يوما أو بعض يوم ، ولكنهم كشأنهم لم يتخبطوا ، ولعلهم ظنوا أن المدة أطول من ذلك ، ولذلك قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، وهنا نجدهم اتجهوا الى الحياة يطلبون رزقهم ، ومعهم نقود فضية قـد ضربت منذ تسع وثلاثمائة سنة تكشف للناس عن أمرهم ، وكانوا ككل أهل الايمان أهل تســامح ، فقـد طلبوا من مبعوثهم أن يتلطف ، وألا يشعر بهم أحدا ، حتى لايكون منهم أذى ، ويظهر أنهم بهذه النقود عثر الناس على أمرهم ، وعرفوا حقيقتهم ، وكان الهام الله بذلك ليعرف الناس حقيقتهم وتكون حياتهم فى الكهف ورقدتهم فيه دليلا محسوسا على أن وعـد الله تعالى بالقيامة حق ، ولذا قال سبحانه : « **وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ، قـال الذين غلبوا على أمـرهم لنتخـذن عليهم مسجدا** » وهذه كلها مشاهد فى القصة تعاين فيه أحداثها فى قصص محكم ٠

التصريف فى صور العبارات القرآنية

٩٢ ـــ من أدل شىء على بلوغ القرآن أعـلى درجـات البـلاغة ، تصريف المعـانى والألفـاظ فى كل بـاب من أبواب القول ، وقد أشرنا الى ذلك فى أول كلامنا فى بيـان تصريف الكلام القـرآنى ، وتصريف القـــول يتناول الألفاظ ، وتصريف الألفاظ يتضمن لا محـالة تصريف المعـانى ، لأنـه لا مرادف فى القرآن ، ولا يوجد لفظان يؤديان معنى واحـدا ، من حيث الاحكام والدقة ، ولا يوجد أسلوب يؤدى معنى يؤديه الأسلوب الآخـر ، وان كان يبدو بادى الرأى أن المعنيين يتحدان فى جوهر المعنى ، ولكن عنـد

التأمل فى الاشارات البيانية التى تشير اليها الألفـاظ ، والتى تطيف حولها ، وتشع منها ، تجدها مختلفة ، وان كل تغيير فى العبارات القرآنية عن أخواتها فى مثل موضوعها يحدث تغييرا فى المرامى ، ولحن القـول ، حتى الوقوف والفواصل تؤدى باختلاف نغمها ما لا تؤديه مثيلاتها مما هو فى موضوعها ، وان النغمات القرآنية التى تتخالف أحيانا تـكون كل نغمة فى مقامها تومىء بموسيقاها الى اشارة لا تومىء اليها نغمة أخـرى لآية فى هذا الموضـوع نفسـه ٠

ولنضرب فى ذلك بعض الأمثال فى الاختلاف فى الأسـلوب ، والموضوع واحد ، وتغير المعانى قوة ورفقا ٠ وكل فيما يناسبه ٠

الاستفهام والنفى :

٩٣ ـــ لا شك أن النفى المجرد والنفى بطريق الاستفهام ، كلاهما يدل على أصل النفى ٠ ولكن النفى بطريق الاستفهام اقـوى دلالة فى معنى النفى ، لأن النفى بالاستفهام فيه معنى أن المخاطب سبق الى النفى ، فكان النفى من القائل ، والاقرار به من المخاطب ، اقرأ قوله تعالى فى ادعاء المشركين أن الله تعالى حرم بعض الأطعمة ، فنفى الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله : « **قل هل عنـدكم من عـلم فتخرجوه لنـا ؛ ان تتبعـون الا الظـن ، وان أنتم الا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين ، قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فان شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون** (١) »

ألا ترى أن هذا الاستفهام للنفى ، اذ المعنى الجملى « ما عندكم من علم بأن الله تعالى حرم عليكم ان أنتم الا تخرصون » تتوهمون ما ليس له حقيقة واقعـا ٠

ولا شك أن المجىء بصورة استفهام فيه مزيتان احداهما تنبيه الى انه كان يجب عليهم قبل أن يعتقدوا أن يتعرفوا الدليل الذى يسوغ لهم العلم حتى

(١) الأنعام : ١٤٨ ـ ١٥٠ ٠

لا يقولوا على الله ما لا يعلمون • والثانية ـ أن فى الاستفهام حملا لهم على أن يقروا بالنفى ، وفوق ذلك كله فان سياق الكلام فيــه توبيــخ لهم لأنهم بنوا عقائدهم على أمور باطلة ، لا أساس لها من حق ولا علم ، وان هذا نوع من الاستفهام الذى يراد به النفى يعبر عنــه علماء البلاغة بأنه اســتفهام انكارى ؛ لانكار وقوع موضع الانكار ، وهناك انكار يقال له انكار الواقع ، وهو يكون فى معنى التوبيخ على ما وقع على أنه لا أصل له •

اقرأ قوله تعالى : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق** » (١) • وهذا انكار لما وقع منهم ، وانكار الواقع توبيخ ، ذلك لأن المشركين كانوا يوجبون الطواف عــراة ، وكانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والله سبحانه وتعالى نفى ذلك التحريم الواقع منهم بهذه الصيغة « **قل من حرم زينة الله التى أخــرج لعبــاده والطيبــات من الرزق** » والنفى بصيغة هذا الاستفهام فيه مبــالغة ، لأن فيه اشارة الى أنه لا يســوغ لعاقل أن يكون منــه ذلك التحــريم ، لأنه عمل غير معقول فى ذاتــه ، اذ المؤدى : لا أحد حرم زينة الله من لباس ساتر ، ولا أحد يحرم طيبات الرزق التى لا خبث فيهــا من حيث الحقيقة ، ولا من حيث المعنى ، مادام طـريق الكسب طيبا ، وأن الله لا يأمر الا بالقسط الذى يتفق مع الفطرة ، ولذا قال تعالى من بعد ذلك : « **قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطـن والاثم والبغى بغير الحــق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** » (٢) •

وقال سبحانه من قبل هذه الآيات : « **قــل أمر ربى بالقسط وأقيمــوا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون ، فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين** » (٣) •

---

(١) الأعراف : ٣٢ • (٢) الأعراف : ٣٣ •
(٣) الأعراف : ٢٩ ـ ٣١ •

٩٤ ــ وقد ذكر عبد القاهر فى كتابه دلائل الاعجاز الحكمة فى سبب تسمية الاستفهام بالانكارى ، سواء أكان لانكار الوقوع بمعنى النفى أو لانكار الواقع ، بمعنى التوبيخ ، فقال رضى الله تعالى عنه ٠

« واعلم أننا وان كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا الانكار بالنفى ، فان الذى هو محض المعنى أنه ليتبين السامع ، حتى يرجع الى نفســه ، فيخجل ويرتدع ، ويبين الجواب ، اما لأنه قد ادعى القدرة على فعل ما لا يقــدر عليه ، فاذا ثبتت على دعواه قيل له فافعل فيفضحه ذلك ، واما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ٠ فاذا روجــع فيه تنبــه ، وعرف الخطأ ، واما لأنه جوز وجود أمر لا يجوز مثله ، فاذا ثبت عــلى تجويزه وبخ على تعنته ، وقيل له فأرناه فى موضع وفى حال ، وأقم شاهدا على انه كان فى وقت ، ولو كان يــكون للانكار ، وكان المعنى فيــه مــن بدء الأمــر لكان ينبغى ألا يجىء فيما يقوله عاقل : انه يكون حتى ينكر عليه ، كقولهم أتصعدا بى الى السماء ، أتستطيع أن تنقل الجبال ، أالى رد ما قضى من سبيل ٠

ومؤدى هذا الكلام أن الانكار اذا كان نفيــا لوقوع أمر ، فمؤداه أن الأمر لا يقع ، ولا يعقل أن يقع ، فهو نفى مؤكد ، اذ هو ليس نفيا للفعــل فقط ، بل هو نفى له مع بيان انه لا ينبغى ولا يجوز أن يقــع ، واذا كان الفعل قد وقع فهو توبيخ على الوقوع ، واستنكار له ، كما رأيت فى قوله تعالى : **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق** » (١) ويلاحظ أن الانكار سواء أكان انكارا للوقوع بمعنى النفى أم انكارا للواقع بمعنى التوبيخ ، فان فيه حمل الفاعل على الاقرار بالنفى أو اثبات ما أوجب التوبيخ ٠

٩٥ ــ ومن الاستفهام فى القرآن ما يكون لبيان الاستحــالة ، وهو يقارب فى معناه منفى انكار الوقوع الى حد انه يكون احتمال غير معقول ، ومن ذلك قوله تعالى « **أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى** » ، بمعنى أنك تخلق فيهم بصرا يبصرون به ، وان هذا فيه اســـتفهام انــكارى ، وفيه اســتعارة

---

(١) الزخرف : ٤٠ ٠

تمثيلية ، فقد مثلت حالهم بحال الأصم الذى لا يسمع ، أو فى آذانه وقر ، وبحال من فقد البصر ، وان من يطلب هدايتهم كمن يطلب السمع من الأصم ، أو يطلب الابصار ممن فقد البصر ، فالاستفهام لاستحالة موضوع السؤال وانه لا يقع ·

ومن ذلك أيضا الاستفهام الذى عبر به القرآن عن حال الجاحدين الذين يتوهمون أن الفقراء فى الدنيا لا يمكن أن يكونوا هم أول المهتدين متوهمين أن الفضل بسعة الرزق وكثرة المال ، لا بالتقوى والمسارعة الى الخير ، فالله تعالى يصور حالهم بهذا الاستفهام ، فيقول تبارك وتعالى : **« وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من آلله عليهم من بيننا » (١)** فالاستفهام على مقتضى نظرهم يوجب ألا يكون الله تعالى من عليهم قبلهم ، وذلك من فساد القياس ، اذ قاسوا الفضل بمقياس المادة ولم يقيسوه بمقياس الفضيلة والتقوى والمسارعة الى الخير ·

ومن الاستفهام الذى ينبىء عن استحالة الجواب ، قوله تعالى آمرا نبيه :

« قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ، ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين (٢) » فالاستفهام هنا واضح أنه لبيان استحالة أن يدعو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يدعون من دون الله تعالى ، وان حالهم فى عقيدتهم الباطلة ، كحال من يسير فى بيداء وقد استهوته الشياطين الصارخة فاندفع الى غير هدى حتى تاه فى المهمة القفر ، وله أصحاب ينادونه فلا يستجيب لهم لأن الباطل قد ضرب على قلبه ، ولأن استهواء الشياطين قد غلب عليه ·

---

(١) الأنعام : ٥٣ ·
(٢) الأنعام : ٧١ ·

ومن قبيل الاستفهام الداخل على ما لايجوز التغيير فيه ما جاء على لسان ابراهيم عليه السلام ، وقومه يحاجونه يريدون أن يردوه ، فقد قال تعالى « **وحاجه قومه قال اتحاجونى فى الله وقد هدان** (١) ·

ومن الاستفهام الذى يدل على استحالة موضوعه ما ذكره سبحانه وتعالى من أنه يوجه الى السيد المسيح عيسى عليه السلام يوم القيامة ، اذ يقول سبحانه : « **واذ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن اقول ماليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد· ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم** (٢) » ·

وهنا نجد تلك المجاوبة التى أعلمنا سبحانه وتعالى انها ستكون بينه وبين المسيح عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم كان الاستفهام فيها لبيان استحالة أن ابن مريم قال لهم اعبدونى وأمى الهين من دون الله ولذلك جاءت الاجابة على السؤال باستحالة موضوعه ، وأنه ما كان ولا يمكن أن يكون من عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام ·

٩٦ ــ ومن الصيغ الاستفهامية تلك التى تجىء فى القرآن الكريم ما يكون للافحام ، والرد ، كالرد بالصيغة الاستفهامية ، اذ يقول سبحانه وتعالى عنهم : « **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله واحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، واليه المصير** (٣) » ·

وان ذلك الاستفهام مع دلالته على استنكار قولهم فيه دلالتان أخريان :

---

(١) الأنعام : ٨٠ (٢) المائدة : ١١٦ ــ ١١٨

(٣) المائدة ١٨ ·

احداهما   اعلامهم بأنه سيعذبهم بذنوبهم وأنهم مأخوذون بما يقترفون من سيئات ، وما يجترحون من مآثم ومظالم · الثانية ـ الدلالة على أن عمل الخير له ثوابه ، وعمل السوء له عقابه ، وأن من يقول غير ذلك فهو مبطل، وماكان لهم أن يدعوا محبة الله ، وأنهم منه بمنزلة الأبناء من الآباء ومع ذلك يعصونه ، وينشرون فى الأرض الفساد ·

فهذا استفهام مع ما فيه من أحكام واستنكار يتضمن معانى سامية فيها التهديد لمن يعصى ، والتبشير لمن أطاع ·

وهناك لون من ألوان الاستنكار منصبا على المساواة الظالمة بين الخير الأدنى ، وما هو أعلى منه ، كما فى قوله تعالى : « **اجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين (١)** »

لقد كانت قريش تتنافس على السقاية وسدانة البيت الحرام ، وتسابق الى عمارته ان احتاج الى عمارة ويحسبون أنَّ ذلك يجعل لهم فضلا على الناس ولو كانوا مشركين ، وقد قرر سبحانه أن الايمان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيله ، والتقدم لفداء الحق ونصرته لا يساويه مجرد السقاية والسدانة والعمارة ، ولو كان لبيت الله الحرام الذى هو مثابة للناس وأمن ، فالايمان والعمل الايجابى لنفع الناس وحماية الحق والذود عنه ، هو فى المكانة السامية وقد أتى سبحانه بذلك فى صيغة استفهام انكارى ، وهو منصب على التسوية بين الأمرين ، وهو استنكار فيه توبيخ ، وفيه ابطال للباطل ، واحقاق للحق ، واعلاء لشأن الايمان والجهاد ، وأنه فوق كل شأن ·

ومن الاستفهام الذى يحكى عن المشركين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ما يذكر على سبيل الاستغراب ، وظن الاستحالة · ومن ذلك قوله تعالى

---

(١) التوبة : ١٩

حكاية عن المشركين : « **وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا (١)** »

ومثل ذلك قوله تعالى : « **وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢)** » ٠

وان هذه الاستفهامات هى من قبيل الانكار ، والاستغراب ، فترى المشركين يعلنون انكارهم للبعث ، ويستغربون أن يكون ، يستغربون البعث فى ذاته ، ويقرنون ذلك بحال الذين يموتون من بعثرة أجسامهم بعد أن يصيروا رفاتا ، ويضيفون الى استغراب البعث فى ذاته ما يقررونه فى اعتقادهم من أحوالهم ، يحسبون أنها تبرر الانكار ، أو تزيد الاستغراب ، فيسألون من الذى يبعثهم من مراقدهم ويوهم قولهم أن ذلك غريب ٠

وفى سورة الرعد فى النص الذى نقلناه يستغربون ويتعجبون يبين الله تعالى أن موضوع العجب هو عجبهم ، لأن البعث فيه سر الوجود ؛ اذ أنهم لم يخلقوا عبثا ، واذا كان الابتداء ليس فيه عجب ، فالاعادة ليس فيها عجب أيضا ، فالاستغراب موضوعه استغرابهم هم ٠

وانا نجد فى كل الأمثلة التى ذكرناها فى الاستفهام تصريفا فى القول يوجد جدة فى جملة عن سابقتها ، وانه لو كان النفى أو الاستغراب والتعجب أو الاستنكار والتوبيخ بلغة واحدة ماكان التنويع فى التعبير ، الذى هو ميزة لكل كلام ، فضلا عن أبلغ كلام رأته الانسانية ، لأنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وانه بديع فى نسقه ، فى أعلى درجات

---

(١) الاسراء : ٤٩ ـ ٥١ (٢) الرعد : ٥

من الابداع ، وانه كما قال الكافر الذى سمعه : يعلو ، ولا يعـلى عليـــه ، وانه ذو القطوف الدانية ، والجمال دائما ٠

٩٧ ـــ ومن الاستفهام ما يكون تقريرا للواقع ، وذلك يكون فى الحال التى تستوجب العجب ، أو توجب الاستنكار ، اذ يكون الواقع المقرر مستنكرا ، لأنه ليس من صنيع أهل الايمان،ولا مما تستسيغه الفطرة السليمة،أو تستحسنه الأخلاق الحكيمة ، اقرأ قوله تعالى : « **أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون (١)** »

وان هذا الاستفهام التقريرى الذى يؤكد الرؤية العالمة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان معنى أرأيت ، لقد رأيت الذين يكذبون بالدين ، وان مجىء العبارة بطريق الاستفهام فيه تأكيد لمعنى الرؤية لأولئـــك الذين اتصفوا بهذه الصفات الغريبة التى تتماسك كل صفة مع أختها ، كأنها ملازمة لها لا تفترق عنها ، وكأنها منها ، فالتكذيب بالدين هو صفة الجاحدين،لايؤمنون بالحق ولا يهتدون بهديه ، وأولئك دأبهم النفرة من الناس ، وألا تكون فيهم رحمة بالضعيف ، فهم يقهرون اليتيم ويذلونه ويرهقون ، ويمنعون كل عون ، اذ يمنعون الذكوات التى هى عون الأقوياء للضعفاء ، وهم لا يتذكرون ربهم ، ولا يدنون منه ، حتى فى الصلاة ، وصلاتهم ويل عليهم ، وليست قربة لهم ، وهى محسوبة عليهم على أنها من السيئات ، ولا تحسب لهم على أنهـــا من القربات ، وهم فى أعمالهم يراءون ، والرياء شرك خفى ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ٠

وان موضع الاستفهام هنا لا يغنى عنه التقرير المجــــرد ، لأن مؤدى الاستفهام أن المخاطب قد سئل عن الرؤية مثلا ، فأجاب عنها بالايجاب ، فكان تقرير الواقعة باقرار من المسئول ، فهو تقرير معه التصديق وهو مع ذلك تنبيه

---

(١) سورة الماعون

الى الصفات المرذولة التى اتصف بها أولئك الجاحدون بأصل الدين ، من قهر اليتيم ، ومنع المسكين ، والصلاة الساهية عن معنى القرب الى الله تعالى ، وهم يراءون الناس ويمنعون كل عون حقيقى ٠

ومن الاستفهام التقريرى الذى يثير الانتباه الى الحقائق التى يتضمنها قوله تعالى : « **قل أرأيتم أن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون ، قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك الا القوم الظالمون** (١) »٠

ان هذه الآيات الكريمات فيها عدة استفهامات أولها تقريرى ، وهو تقرير الرؤية كأنهم سئلوا عنها ٠ فأجابوا بالايجاب ، فكان التقرير مؤيدا بالاقرار ، وكان حكما مؤيدا بالدليل ، وهو الاقرار سلطان الادلة والاستفهام كان موضع الاستفهام الأول ، وهو قوله تعالى « **ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم** » وهو استفهام فى معنى النفى ، فهو انكارى ، أى أنه لا اله غير الله يأتيكم فهو يتضمن مع النفى اقرارا من السامعين بأنه لا اله غيره واثارة العجب ممن لا يقرون بهذه الحقيقة فهى موضع البرهان وقد تضمن النص الكريم استفهاما ثالثا لتوجيه النظر الى ما يصرفه القرآن من أدلة مختلفة ، وذلك الاستفهام توجيهى تنبيهى تقريرى ، وهو قوله تعالى : « **انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون** » فقوله كيف نصرف الآيات فيه توجيه النظر الى تصريف للآيات ، وجاء بصيغة الاستفهام لتصوير التصريف فى الآيات التى أنزلها الله تعالى ، أو كانت فى الكون ، وما كان ذلك التصور لها ليتحقق اذا لم تكن الدعوة الى النظر ، ثم الاستفهام الذى يأخذ النظر ليضعه على ذلك التصريف ، ثم كان الاستفهام متضمنا معنى الاستنكار لحالهم ، اذ أنهم مع تصريف الآيات وجعلها فى صورها جديدة تسترعى الالتفات والاتجاه الى ادراكها ، والتنبه لها ، ومع ذلك ــ لكثرة جحودهم ولجاجة الباطل فى نفوسهم ــ

(١) الانعام : ٤٦ ، ٤٧

يعرضون ، ولا تستولى عليهم نفوسهم ، كشأن الفكرة المجددة ، فانها تسترعى الأفهام وتأخذ بالألباب ، ولكنهم عموا ، فلا يجديهم تصريف ، ولا يأخذ بألبابهم تحديد الأسلوب لأنهم معرضون ، انك لا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ٠

وفى النص استفهام تقريرى على منهاج لا يعرف الا فى القرآن ، فانى لم أقرأ كثيرا فى غير القرآن ذلك المنهاج الاستفهامى اذ يقول سبحانه « **أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون (١)** » فالتعبير فى الاستفهام ــ أرأيتكم ــ ليس مشهورا فى الأساليب العربية ، ونجد هنـــا الخطاب تكرر فيه ، فالتاء المفتوحة خطاب ، والكاف خطاب ، التـاء خطاب للمفرد ، والكاف خطاب للجمع ، والتاء متجهة الى مخاطبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والكاف متجهة الى خطاب الجمع ، فاجتمع خطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخطاب الجماعة ، وذلك لأن فى الاستفهام تقريرا لرؤية النبى عليه الصلاة والسلام وتقريرا لرؤية كل المخاطبين بالقرآن الكريم. وكان لابد لاجتماع الخطابين ، خطاب النبى صلى الله عليه وسلم ليقـــرر الواقع وهو علمه عليه السلام ، وتقرير الحقيقة الثابتة للناس أجمعين ، وهى أن عذاب الله الذى يجىء بغتة فى خفاء ، أو جهرة فى وضح النهار لا يهلك الا القوم الظالمون فهو جاء لأجلهم منصبا عليهم ، وهنا أمران يجب التنبيـــه اليهما ٠

ــ أولهما ــ أن الزمخشرى ، ومن حاكاه ، كالبيضاوى وغيره قالوا ان الكاف حرف لتأكيد الخطاب لا موضـــع لها من الاعراب فهى ليســـت ضميرا ، ولكنها من الحروف التى تبنى على غير محل من الاعراب ، وحجتهم أن رأى استوفت المفعولين من غير تقدير الكاف فى موضع الضمير ، ونحن نميل الى أنها ليست زائدة ، لتأكيد الكلام ، وليست حرفا ، ولكنها اسم بمعنى أنفسكم ويكون تأويل القول على هذا أرأيت أنفسكم ، وجمعليشمل كل الناس ،

---

(١) الأنعام : ٤٧

وكل المخاطبين ، وعلى هذا التأويل يكون المعنى أرأيت أيها النبى الناس ، وقد صاروا عرضة لعذابيعم الجميع أم يخص الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الناس وظلموا العقل فضلوا واضلوا كثيرا ، وافسدوا فى الأرض والله لا يحب الفساد .

ـ الأمر الثانى ـ أن قوله تعالى : « **هل يهلك الا القوم الظالمون** » فيه **استفهام انكارى** بمعنى انكار الوقوع ، والمعنى لايهلك الا القوم الظالمون . واقتران الكلام بالوصف يدل على سبب استحقاق الهلاك ، وهو الظلم ، فبظلم منهم هلكوا ، وكان ذلك تأكيدا للنفى بذكر السبب فى أنهم اختصوا بالهلاك .

ومن هذا النوع فى الاستفهام الذى اقترن بتاء الخطاب والكاف ، وكان كلاهما بالمفرد قوله تعالى : « **أرايتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته الا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا** (١) »

والله سبحانه وتعالى يحكى عن ابليس اللعين وهو يخاطب رب العالمين والاستفهام لتقرير الواقع ، لا لنفيه ، والكاف على قول الزمخشرى هى تأكيد لمعنى التأكيد ، ونحن نرجح ذلك ، لأن التاء مفرد والكاف مفرد ، وهو تأكيد لفظى يتوافق المؤكد مع المؤكد فى الافراد والجمع ، أما الاستفهام السابق فمعنى التأكيد فيه بعيد ، للتخالف فى الافراد والجمع ، وهذا النوع من البيان لتصريف القول ، وقد ذكر طبيعة ابليس الفاسدة بأنه سيجعل ذلك الذى كرمه تعالى عليه الهلاك لذريته الا قليلا ، وهذا من غرور ابليس ، ومن يسكن الشيطان قلوبهم ، وهذا كقوله : « **لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين** »

ونلاحظ أن خول الاستفهام على رأى ، مع وجود ضميرى خطاب فى جملة واحدة أو على قول الزمخشرى ضمير خطاب وحرف خطاب ـ هو

---

(١) الاسراء ٦٢ ، ٦٣

استعمال قرآنى ، لا أعرف أن العرب قد استعملوه كثيرا قبل القرآن ، وفيه من معانى الاستنكار أو التنبه أو التعجب فى أبلغ صور · وان هذا من سر الاعجاز ، ودليل على أن القرآن لم يكن علمه البيانى عند العرب من قبله ·

٩٨ ـــ والاستفهام احيانا يكون للتسوية « بين أمرين ، ويكون هذا لبيان وحدة النتيجة والغاية مثل قوله تعالى « **ان الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** (١) » وان اداة الاستفهام فى هذه ليست للاستفهام الحقيقى ، ولا للانكار ولا للتعجب ، ولا لغير ذلك مما ذكرناه مقاصد للاستفهام ، وفى النص القرآنى تأكيد لجحود الذين كفروا ، والاشارة الى انهم سبقوا الى الجحود ، فالأدلة مهما تكن قوية لا تجد مكانا فارغا لتملأه ولكنها تجد قلبا مملوءا جحودا ، فلا سبيل لأن يدخل الحق ، ومن ذلك قوله تعالى : **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** (٢) » ·

فهنا كانت التسوية بين أمرين من حيث الانتهاء الى نتيجة واحدة ، فان الأمر الذى لا يكون ثمة مفر منه ، يستوى فيه الصبر والجزع من حيث ان كليهما لا يدفع المحظور ، وان كان الصبر أجدى لأنه يوجد فى الجملة قرارا ورضا وتقديرا للأمر · كما قال عليه الصلاة والسلام « ان صبرتم أجرتم ، وان جزعتم وزرتم ·

وقد تكون ألف الاستفهام للترديد بين أمرين فى ظاهر القول ، وليست الغاية متحدة ، والعقل يقرر صدق أحدهما فى قوله تعالى : « **ءأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** » (١) فان هذا الاستفهام ليس فيه تسوية بين أمرين فى الحكم أو النتيجة والغاية ، بل المعقول يثبت أحدهما ، وينقض الآخر بدليل من العقل والحس ، فانه لا شك

---

(١) البقرة : ٦ (٢): ابراهيم ٢١
(٢) النازعات : ٢٧ ـ ٢٩ ·

أن الأشد خلقا هو الأكبر حسا ، والأعظم تأثيرا ، والأدق احكاما ، وهو السماء بما يتصف فيها ، واذا كان سبحانه مالك السموات وارض ، وما بينهما ، وما فيهما ، من دابة فهو على ما يشاء قدير ٠

ومؤدى هذا الكلام نفى سلبى وحكم ايجابى ، فأما النفى السلبى فهو أن الانسان ليس أشد خلقا ، وأما الحكم الايجابى ، فهو بيان سلطان الله سبحانه وتعالى القاهر فوق كل شيء ٠

وهذا النوع من الترديد انما يكون دائما لحمل المخاطب على الحكم الصحيح فهو لا يدل على التسوية ، بل يدل على التفرق فى الحكم ولينطقوا بالصواب أو ليلتزموا به ، ان لم ينطقوا ، أو ليفحموا ان لم يسترشدوا وضلوا، وهو استدلال على الحكم ومن ذلك النوع من الاستفهام قوله تعالت كلماته ٠

« **أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم ، وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون ٠ بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ، ومتاعا للمقوين** (١) » ونرى هذه الاستفهامات المتقابلة التى يجيء فيها بين الاستفهامين لفظ م التى تدل على التعادل بالظاهر من اللفظ ، ولكنها ليست متعادلة من ناحية الحقيقة الثابتة فهى مقابلة بين حق وباطل ، للتنبيه على الحق بالدليل والتنبيه بالاستفهام بطريق التقابل ، فاذا كان التقابل بين أن يكونوا هم الخالقين للأنفس فى ظهور الآباء وبطون الأمهات اذ أن الخالق هو

---

(١) الواقعة : ٥٧ ــ ٧٣ ٠

الله سبحانه : فالفطرة والبداهة والحس تقرران الأول فالحكم بلا ريب ينتهى بمقتضى التقابل هو أن الخالق هو الله سبحانه ، وكذلك الأمر فى الزرع ، وكذلك الأمر فى الماء ، وكذلك الأمر فى النار ٠

فهو استفهام ليس على حقيقته ، ولا للانكار المجرد ، ولكنـــه للتنبيه ، والاستدلال على الحق بالاشارة الى البطلان الذى يكون فى الجانب المقـــابل للحق ، فانه اذا بطل النقيض كان الحكم بصحة نقيضه ، فاذا كان التـــردد بين كونهم الخالقين ، والخالق هو الله ، وتأكد بالحس بطلان وصفهم بالخلق فقد ثبتت صفة الخلق لله تعالى ، وبذلك يكون الاستفهام للتنبيه والاستدلال ، كقوله تعالى : « **وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** (١) » ٠

ومن ذلك النوع ما حكاه الله تعالى عن سيدنا يوسف وهو يقول لصاحبى السجن : « **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** » (٢) فان هذا التقابل بين باطل تثبت البداهة بطلانه ، واذا بطل أحد المتقابلين صدق فكان الاستفهام للتنبيه الى الحق مؤيدا بالدليل القاطع ٠

٩٩ ـــ والاستفهام للتنبيه كثير فى القرآن ، وكذلك لاثارة العجب حول ما يدعون من ترهات وأباطيل وبيان وجه غرابتها ولا يمكن احصـــاء ذلك ، واستقراؤه وتتبعه ، ولكن يمـكن ضرب الأمثـــال ، وما يذكر يكون شـاهد على ما لم نرطب ألسنتنا بتلاوته ، ولا أسماعنا بالاستماع له والانصات والتدبر فيه ٠

اقرأ قوله تعالى : **هل أتاك حديث ضـــيف ابراهيم المكرمين ، اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ الى أهله فجاء بعجل حنيذ ، فقـــربة اليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، وبشروه**

---

(١) سبأ : ٢٤ ٠ (٢) يوسف : ٣٩ ٠

بغلام عليم ، فاقبلت امراته فى صرة فصكت وجها ، وقالت عجوز عقيم (١) » الى آخر القصة ، وترى القصة ابتدأت بالاستفهام للتشويق ، وللتنبيه الى الاستماع ، وقد ابتدأت بعبارة فيها اجمال لتكون تمهيدا لما يجىء بعد ذلك من التفصيل ·

ومن الاستفهام الذى للتنبيه الى قدرة الله تعالى ، وهم لا ينكرون الجواب فيكون الاستفهام للاقرار به وتقريره قوله تعالى : **قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانى تصرفون ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فانى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى الى الحق ، افمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع، أمن لا يهدى الا أن يهدى ، فمالكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون (٢) »** ·

ففى الآية الأولى كانت أربعة استفهامات عن الرزق من يرزقه وعمن يملك السمع والأبصار فيسلبهما ان شاء ويبقيهما ، ويردهما أن سلبهما ، وسألهم عمن يخرج الحى من الميت ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فى اجابة هذه الأسئلة ، فجاء الاستفهام الأخير فى هذه محرضا على التقوى ، اذ أن التقوى كانت من نتائج اقرارهم بالاجابة الصادقة عن هذه الأسئلة التقريرية التنبيهية اذ أن العبادة لا تكون الا للخالق وحده ، فالمعبود الذى يستحق أن يكون الها هو الخالق النافع الضار ·

ونرى أن الأسئلة كانت اجاباتها بالايجاب لا بالسلب وبين سبحانه وتعالى ما ترتب على الايجاب باقرارهم الصريح ، وهو أن تمتلىء قلوبهمبتقوى الله تعالى ، فلا تعبد غيره ·

---

(١) الذاريات : ٢٤ : ٢٩ ·　　　(٢) يونس : ٣١ ــ ٣٦ ·

وجاءت بعد ذلك الآيات أسئلة الاجابة فى بعضها بالسلب لأنها خاصة بما يشركون بها عبادة الله سبحانه وتعالى من أوثان ، وغيرها ٠

الاستفهام الأول كان عن شركائهم هل يفعلون ما قرروا أن الله يفعله ، ولسان حالهم أن يجيبوا بالسلب لأنهم يرون أنهم لا يضرون ولا ينفعون ، وسألهم عمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ولسان حالهم يقول الله ٠

وهكذا نرى أن الاستفهام فى كل هذه المقامات فى القرآن كان لاثارة التنبيه الى الحقائق ، واذ انتبهت العقول اتجهت الى طلب الحق فى غير عوج بل بطريق مستقيم ٠

وانى أحسب أنه بعد أن نزل القرآن وأشرب الناس مناهجه ومسالكه ، كان من أجود الطرق التعليمية اثارة الانتباه بالاستفهام تنبيها الى ما يوجه الى التلاميذ من علم ، فكان استفهام القرآن موضحا أقوم المسالك للتنبيه الى الحقائق واثارة الأفهام اليها ، وتفتيح الذهن لتدخل عليه المعانى ، والحقائق العلمية ٠

١٠٠ — وان القرآن سلك فى الاستفهام مسلكا لم نره كثير الاستعمال عند العرب من قبل نزول القرآن ، ولكنه شاع بعد نزوله من غير سمو الى مسلك القرآن ، وهو دخول أداة الاستفهام على حرف النفى ، مثل قوله تعالى **« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١) »** ٠

---

(١) ق : ٦ ـ ١١ ٠

فأنت ترى من السياق القرآنى أن همزة الاستفهام دخلت على لم التى هى حرف نفى ، فالاستفهام دخل على حرف نفى وجاء بينهما فاء هى للدلالة على ان السؤال مرتب على ما كان قبله ، وما قبله كان تعجبا من أمر البعث ، اذ قالوا « ائذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد » ، وأنهم كذبوا بالحق لما جاءهم فكانت الآيات التى وليت الاستفهام ردا على تكذيبهم ، وفيها الدلالة على اثبات ما أنكروا ، فالفاء للدلالة على ترتيب الاستفهام لكنها أخرت عن أداة الاستفهام ، لأن الاستفهام له الصدارة ، فهى مؤخرة عن تقديم فى نسق الترتيب الفكرى ٠

والاستفهام الداخل على النفى مؤداه الحث على النظر ، لأن الاستفهام عن نفى النظر ، وتقرير عدم النظر ، فاذا كان الاستفهام ابتداء يقرر أنهم لم ينظروا ، وفى النظر تعرف لآيات الله تعالى فى الكون ، فالاستفهام وحرف النفى يدلان على الاثبات، وهو هنا طلب النظر ، فكأن المعنى على هذا المنطق المستقيم ثبت أنكم لم تنظروا ، فالواجب أن تنظروا فالاستفهام ابتداء كما يبدو من سياق الكلام يقرر أنهم لم ينظروا ، لأن عدم النظر كان موضع الاستفهام ، ومن المقررات البلاغية أن الاستفهام دائما يدخل على ما يكون موضع شك ، ويقدم فيه ما يكون موضع الشك ، فاذا كان موضع وقوع الفعل ٠ كان الاستفهام مسلطا على الفعل ، مثل قول الموحدين للوثنيين : «**أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا** (٢) » فهنا نجد موضع الاستنكار هو ذات الفعل ، فكان عقب أداة الاستفهام ، واذا كان الفعل قد وقع ، وموضع الشك هو الفاعل ، فانه يجىء وراء الاستفهام ، كقوله تعالى حكاية عن قوم ابراهيم اذ رأوا أصناما جذاذا ، قال الله تعالى عنهم أنهم قالوا له « **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم** » (١) فالفعل ثابت بالعيان أمامهم ، ولكن الفاعل هو الذى يريدون البحث عنه ومعرفته ٠

---

(١) الأنعام : ٧١ ٠ (٢) الأنبياء : ٦٢ ٠

وبهذا المنطق البيانى نرى أن الاستفهام فى هذا النص أفلم ينظروا داخل على الفعل المنفى ، فاذا كانت الهمزة للتنبيه أو التقرير ، أو التوبيخ ، لأنهم لم ينظروا ، وهو الراجح فى نظرى فيكون لانكار الوقوع وانكار الواقع ، واذا كانوا يوبخون لأنهم لم ينظروا ، فالتوبيخ يكون دعوة للفعل ، وحثا على النظر٠

ومن الاستفهام الداخل على النفى ، قوله تعالى فى قصص القرآن عن انبائهم : « **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به ، وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض** » (١) ونجد فى الاستفهام الذى صدرت به الآية الكريمة أن همزة الاستفهام دخلت على (لم) النافية ، فكان موضع الاستفهام عدم اتيان نبأ الذين من قبلهم ، ولو سرنا على ما يقتضيه السياق اللفظى للنص السامى يكون الاستفهام عن عدم الوقوع ومعناه أنه لم يأتكم ، واذا كان الاستفهام للتقرير أو التنبيه فمؤداه أنه لم يأتكم ذلك ، وفى هذا تشويق لمعرفته ، وتوجيه لطلبه ، ولذلك جاء من بعد ذلك النبأ عن الرسل السابقين ، ويكون فى هذا تثبيت الخبر لمن يطلبه مصغيا الى حقائقه، معتبرا بعبره ٠

ولقد جرت بين كتاب علم البلاغة كلمة نفى النفى إثبات ، ويطبقونه على استفهام يدخل على فعل منفى فيكون الاستفهام داخلا على منفى ، والاستفهام نفى ، فيكون نفيا لنفى ، ونفى النفى اثبات ، وان ذلك يسير اذا كان الاستفهام للانكار ، انكار الوقوع ، فيكون انكارا للمنفى فيكون اثباتا ، وقد قلنا انه حتى فى هذه الحال ، لا يخلو الاستفهام من تنبيه ، واقرار بما جاء الاستفهام عنه ، ولكن الاستفهام الداخل على النفى يتضمن الحث على طلب الأمر المنفى

---

(١) ابراهيم : ٩ ـ ١٠ ٠

الذى دخل عليه الاستفهام كما رأيت فى قوله تعالى « **افلم ينظروا الى السماء فوقهم** » كما تلونا من قبل ، وقد يكون الى تلقى علم ما نفى فى حيز الاستفهام كما رأيت فى الآية السابقة ٠

وقد يتضمن الحث على العمل ، والتحريض عليه اذا كان ذلك العمل غير محقق فى الوجود ، أو هناك شروع فى تحقيقه ، وذلك يكون غالبا عند نفى الأمر المستقبل كما نرى فى قوله تعالى : « **الا تقاتلون قوما نكثـــوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول ، وهم بدءوكم اول مرة ، اتخشونهم ، فالله احق أن تخشوه ، ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء** (١) »

ونرى من ذلك أن الاستفهام دخل على النفى ، وهو عدم القتال أو عدم الأهبة له ، والاستعداد للتقدم ، فالمستفهم عنه عدم القتال والاستعداد له وقد وجدت أسبابه ، وتعددت موجباته ، فكان الاستنكار منصـــبا على النفى ، والاستنكار لحال مستمرة ، حث على تغييرها ، واذا كان الاستنكار على ما وقع توبيخا لمن أوقعه ، فالاستنكار لأمر لم يقع بظـــاهر الحال واستصحابها تحريض على تغييرها ، وتوجيه للاتيان بها ٠

وان الاستفهام الذى ينطبق عليه قول بعض الكتاب فى علم البـــلاغة وهو نفى النفى اثبات يكون فى مثل قوله تعالى « **الم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، اليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** (١) » وترى من هذا أن الاستفهام دخل على النفى فكان انكاريا لنفى الوقوع ، فنفى على زعمهم القائل أنه لم يك فى نشـــاته

---

(١) التوبة : ١٣ ــ ١٥ ٠

(١) القيـــامة : ٣٧ ــ ٤٠ ٠

من منى ، أو كانوا عن ذلك فى غفلة ساهين وكانوا فى حاجة الى التذكير ، والاحساس بمبدئهم ، ليعرفوا منتهاهم ، وأن الذى أوجـــدهم من منى يمنى أشخاصا ذكورا وأناثا قادر على اعادتهم ، كما بدأهم يعودون ٠

فالاستنكار لجهلهم هذه الحقيقة ، أو تجاهلهم ، وكأنهم لا يعلمون ، فاستنكر هذا عليهم فكان نفيا مستنكرا لحال التجاهل ٠

ولا شك أن هذا فيه تنبيه ، وفيه لوم على تجاهلهم تلك الحقيقة ، وبيان أنهيجب عليهم أن يعرفوها ، ليكونوا فى تذكر دائم بقدرة الله تعالى فى تدرجهم فى الوجود من أصلاب الآباء الى أرحام الأمهات ، ويعلموا بذلك قدرة الله تعالى على الاعادة ٠

ومن الاستفهام الداخل على النفى الذى من قبيل أن نفى النفى اثبات ، التنبيه الى أن النبى يصنع على عين الله تعالى ، ويتولاه وألا يكون فى يأس من رحمة الله تعالى ٠ ومن ذلك قوله تعالى : « **ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا ، فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب** » (١) ٠

فان الاستفهام هنا لانكار الوقوع ، أى لانكار أن الله تعالى لم يشرح صـــدر النبى صلى الله عليه وسلم ليتلقى الوحى الذى أوحى به اليـــه ، واذا كان الانكار نفيا فالمؤدى للقول : قد شرحنا صدرك ، وكان الاستفهام للنفى ٠

١٠١ ـــ واننا فى ختام هذا البحث من التصريف البيانى فى القرآن نقرر بالنسبة للاستفهام فيه ، أن الاستفهام باب من تصريف القول فى القرآن ، وفيه من أسرار الاعجاز ما فيه ، فمن الاستفهام ما يكون بعبارات تتفق مـــع

---

(١) الانشراح كلهـا ٠

النسق العربى السليم ، ولكنه لم يعرف بين البلغاء قبل القرآن وانى أرى أن اكثر صيغ الاستفهام التى جاء بها القرآن غير مسبوقة قبله ، وان الاستفهام كان يستعمل أحيانا للتنبيه ، وأحيانا للاستدلال ، وأحيانا للتعجب ، وأحيانا ليوجه الأنظار الى الكون وما فيه ، وما يجرى بين الناس ، وان ذلك كله مما يدل على علو القرآن على مستوى ما كان عليه اكبر البلغاء ، وأقواهم سلطانا فى الأسلوب العربى ٠

الحقيقة والتشبيه والاستعارة فى القرآن

١٠٢ ـــ هذا باب من ابواب تصريف القول فى القرآن وضرب الأمثال به ، والحقيقة فى اصطلاحنا ليست مقابلة للمجاز بكل فروعه فقط ، بل هى مقابلة للمجاز والتشبيه والاستعارة ، وهى ضرب من ضروب المجاز ، واذا كان علماء البلاغة يعدون التشبيه من قبيل الحقيقة ، اذ ان أساس الحقيقة فى نظرهم أن يستعمل اللفظ فيما وضع له والتشبيهات التى تكون بادوات التشبيه الألفاظ موضوعة فى مواضعها ، والمجاز الذى يقابل الحقيقة أن تكون الكلمة غير دالة على غير ما وضعت لعلاقة بين المعنى الأصلى ، والمعنى الذى استعملت فيه مع قرينة دالة على هذا ، وعدم ارادة المعنى الأصلى ٠

ذلك هو اصطلاح علماء البلاغة ، ولا غبار عليه ، ولكنا فى مقام الاعجاز القرانى نذكر الحقيقة ـ غير المجاز ، وغير التشبيه ، ونريد الحقيقة المجردة ، أى استعمال الألفاظ فيما وضعت له من غير ذكر مقابلة بين لفظ ولفظ طريق التشبيه الذى يجمل المعانى او يقربها ، أو يأتى بصورة بيانية تلتقى فيهـــا الحقيقة مع اثارة خيال يكون كأطياف الصور ٠

فالحقيقة التى نطلق عليها حقيقة ونحن نتكلم فى القرآن ما تدل عليه الألفاظ فى أصل وضعها من غيرمجاز ولا استعانة بتشبيه ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، ونتكلم هنا فى الحقيقة والتشبيه ، والاستعارة التى هى التشبيه

من غير ذكر أداة التشبيه أو ما يدل عليه · وفى القرآن هذه الأمور كلها مع أنواع المجاز المرسل الذى لم تكن العـــلاقة فيه بين المعنى الأصلى والمعنى المجازى المشابهة بينهما ·

١٠٣ ـــ ان القرآن قد كان فيه التعبير بالحقيقة ، وهنا نجد السكاكى يعتبر التعبير المجازى أبلغ من التعبير عن المدلولات بالألفاظ التى وضعت لها ، وقد يكون ذلك فى غير القرآن ، ولكنه ليس على اطلاقه حتى فى غير القرآن ، أما القرآن فليس فيه جزء أبلغ من جـــزء ولا أبين ، بل كل فى موضعه وفى منهاجه ، بلغ أقصى درجات البلاغة التى لا تسامى ولا تناهد وليس فى طاقة أحد من البشر أن يأتى بمثله ·

ولا شك أن بعض الموضوعات القرآنية لا يكون للمجـــاز أو للتشبيه موضع · بل ان المجاز والتشبيه فيها يخل بالبلاغة فيها حتى فى كلام الناس ، وليس من النثر الفنى فيها التشبيه الا أن يكون للتقريب ·

وان الحقيقة تستعمل فى كثير من مواضع القرآن كالأحـــكام الشرعية التكليفية ، لأن بيانها يحتاج الى أن تكون الكلمة محدودة المعنى ليتم القيام بموجبها ، وتكون الطاعة محدودة المعالم ، لا احتمال فيها ، اذ ان المطالبة بعمل توجب تعيينه بما لا يوجد فيه احتمال لمعنى غير المراد ، ليتم التكليف على بينة وعلم واضح بالمطلوب ·

وكذلك القصص ، فان القصص ذكر لحقيقة ما وقع لتـــكون به العظة الكاملة ، بحيث يتجه التالى للقرآن الى مغازى القصة · ومراميها من غير تزيد ، كما رأينا فى كثير من القصص القرآنى فيمـــا تلونا من قصص نوح وابراهيم وموسى ويوسف من قبله ، فانك ترى فيه الحقائق مجردة الا من بيان وجه العبرة ، ولا تجد للمجاز والتشبيه الا قليلا ·

وكذلك الاستدلال على الوحدانية بالنظر فى الكون وما اشتمل عليه ،

والنظر فى الشمس والقمر والنجوم المسخرات وهكذا ، مما يوجب الاتجاه مباشرة الى الحقائق ·

١٠٤ — وان بلاغة الحقائق التى تذكر من غير استعانة بمجاز أو تشبيه لا تقل عن المواضع التى كان فيها تشبيه أو مجاز بالاستعارة أوغيرها ، فان ذلك يكون لمعان مقصودة ، وغايات أخرى وراء فكرة البلاغة التى هى وصف عام للقرآن كله من غير تفاوت ، لأنها تتعلق بكتاب الله العزيز الذى لا يستطيع أحد أن يتأتى بمثله ، ولو كان معه الجن والانس ، كما قال تعالى : **« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) »** ·

ويقول فى ذلك الباقلانى ، فى كتابه اعجاز القرآن « ان عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين ، على ما يتصرف فيه من الوجوه التى يتصرف فيها من قصص ، ومواعظ واحتياج ، وحكم وأحكام ، واعذار وانذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، وتجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب الأحوال »

وبعد أن يبين اختلاف البلغاء فيما يجددون من أبواب ثم يقصرون فى غيرها فيقول : « وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف والوصف لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا · ولا اسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك تأملنا ما ينصرف فيه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الاعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف وكذلك قد يتفاوت كلام الناس

---

(١) الاسراء : ٨٨ ·

عند اعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا وتبينا . ويختلف اختلافا كبيرا ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه .

ونرى من هذا أن الاجماع على أن القرآن كتاب الله لا تتفـــاوت عباراته (١) لأنه من عند الله الذى لا تفاوت بين الأشياء عنـــده ولا فـــرق فى البلاغة بين ما كانت الحقائق فيه تذكرة مجردة عن التشبيه ، والمجاز .

ولنذكر بعض آيات الأحكام التى تذكر الأحكام مجردة ، اقرأ آية المحرمات قال الله تعالى : « **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ، انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، حرمت عليكم امهاتكم ، وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضـــعنكم وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم وربائبكم فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن ، فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من اصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ، ان الله كان غفورا رحيما ، والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم ، أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فمـــا استمتعتم به منهن ، فآتوهن اجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، ان الله كان عليما حكيما ، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات اخدان ، فاذا أحصـــن ، فان أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت**

---

(١) الاعجاز ٥ ، ٥٦ .

منكم ، وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (١) » ٠

هذه آية من آيات الأحكام لم يستعمل فيها المجاز ، ولا التشبيه ، ومع ذلك هى بالغة من البلاغة حد الاعجاز القرآنى ، فالتآخى بين الألفاظ والمعانى ثابت ، حتى ان كل كلمة فيها حكم ، تومىء الى التى تليها ، مع بيان الحكمة الشرعية ، والتعليل لبيان المحرمات التى حرمها وكانت حلالا فى الجاهلية فى زعمهم ، كزواج من كانت زوجة لأصل من أصوله ، وابتدأ بها سبحانه لما لها من خطر وشأن ، اذ يتبين تحريم ما أحلوا بزعمهم وما يبتدأ به الكلام يكون قوى التأثير ، وقد وصفه سبحانه بأنه فحش فى الواقع ، لأنه أمر غير مألوف فى الطبائع السليمة ، والأخلاق الكريمة ، وأنه ممقوت عند الناس لا يفعله رجل يألفه الناس ، بل يمقتونه ، ولذلك كان يسمى عند العرب (نكاح المقت) ، فمع أن الجاهلية ما كانت تحرمه بزعمها ، كانت تكرهه وتمقته ، ولا يفعله الكرام ٠

ولما جاء النص الكريم بتحريم الأمهات ، وهن الأصول من عل استشرفت النفس لمعرفة حال البنات ، أتحل أم تحرم ، فجاء التحريم فى وقت الاستشراف اليه ، والتطلع نحوه ، فكان البيان وقت الحاجة اليه وكذلك الأخوات وهن أولاد الآباء والأمهات ، والعلاقة بهن تلى العلاقة بالأولاد ، ثم جاء من بعد أولاد الأبوين ، وهن الأخوات ، أولاد الأجداد ، وهن العمات ثم الخالات فكانت كل طائفة ممهدة لذكر التى تليها، تجذبها اليها بمقتضى تداعى المعانى ، كل معنى يدعو أخاه ، وكل واحدة تلتحم مع أختها فى تآلف لفظى ، وتآخ معنوى ٠

ولقد كانت المرضع تعد أما ، كالأم النسبية ، لأن هذه اذا كانت قد حملته فى بطنها ، وغذته من دمها جنينا فتلك قد وضعته فى حجرها وغذته من لبنها رضيعا وأنشزت عظامه ، وأنبتت لحمه ، كما كانت الأولى ، فكان من تداعى

---

(١) النساء ٢٢ ـ ٢٥ ٠

المعانى ، أن يذكر فى ايجاز غير مخل ، الأمهات الرضاعيات من أولادهن ، ومن التقى معه على ثدى واحد ٠

وكان من مقتضى التناسق المعنوى أن تذكر بعد صلات النسب الصلات السببية ، وهى المصاهرة فابتدأ بأمهات الزوجات ، ثم اتجه الذهن بعد تحريم أمهات نسائكم الى الربائب ، لأنه اذا ذكرت الأم تطلعت النفس الى ذكر حكم البنت ، فذكر بعد تحريم أمهات الزوجات ما يتعلق بتحريم بنات النساء ، وهن الربائب ، وذكر حكمة التحريم وهو أنهن فى حجره وكبناته ٠

واذا ذكرت أمهــات الزوجات ، وبناتهن ، وزوجات الآباء ، يـكون لتتميم القول ، ولما يستدعيه قانون تداعى المعانى أن تذكر زوجات الأبناء أهن حلال ، أم لا ٠

وهكذا نرى أن المعانى كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها فى اتساق ونسق جامع ٠

وكل ذلك فى نغم متآخ ، وفى صور بيانية من مجموع القول ، فعندما نقرأ الآيات من أولها الى آخرها ، تجد صورة بيانية ، لأسرة متكاملة ، ليس فيهـــا تقاطع ، بل فيها تراحم ، وتواصل ومحبة ومودة فما كان ذلك التحــريم الا لتكون المودة هى الواصلة فلا يفحش ابن مع أبيه ، ولا يمقت ولد أباه ، ولا يعتدى أب على ابن ٠

وان ما اختص به القرآن من تقابل بين الحقائق فى البيان ، وتوافق فى العبارات من غير منافرة ، ولا معاضلة ، متحقق ثابت لا مجال لانكاره ، وما اختصت به العبارات من اشراق وضياء ، تجده منيرا حول الكلمات ٠

واذا كنا قرأنا آيات الزواج وتكوين الأسرة ، فلنقرأ حكم الله اذا تنافر ودها ، وأصبح التفرق بينهما أمرا لا بد منه ، « **وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته** » فقد قال تعالى :

يأيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبنية ، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر • ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قدجعل الله لكل شيء قدرا ، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم • ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله اليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وان كن أولات حمل ، فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا » (١) •

ونرى من هذه النصوص القرآنية أنها تضمنت أحكاما كثيرة ، تضمنت أحكام الطلاق وأحكام العدة ، وأحكام الرجعة ، وأحوال المعتدات وتضمنت بعض أحكام الرضاعة ، وأحكام النفقات بين الأزواج ، وخروج المعتدات من بيوتهن •

وهنا نلاحظ ملاحظة نفسية قد نبه اليها القرآن الكريم فى ألطف تعبير وأعطف نص وكأنه بلسم لشفاء نفس مجروحة ، قد أرثتها حرقة الألم بسبب الفراق ، ذلك أن الآيات موضوعها الطلاق وهو لا يكون الا اذا تعذر الوفاق ،

---

(١) الطلاق : ١ ـ ٧ •

فالنفوس تكون مضطربة ، واليأس يكون مخيما ، والعلاقات تكون فى حال يائسة ، ولذلك نجد فتح باب الأمل لتلك النفوس التى اعتراها يأس من الحياة الزوجية السليمة ٠ اذ يقول سبحانه بعد وضع الحدود ، وأن من يتعداها يظلم نفسه « **لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا** » (١) ، ثم يبين سبحانه وتعالى العدة ، ويبين أنها فيصل تفرقة ، أو عودة ، وأن المطلوب امساك بمعروف أو تسريح باحسان ، ويذكر أن الأمر قد يكون فى طياته ما يخرج النفوس من مضطرب الخلاف الى متسع الوفاق، فيقول سبحانه ، «**ومن يتق الله يجعل له مخرجا**» (٢) من ذلك المزدحم الذى تعترك فيه الأحاسيس والمشاعر بين عشرة طيبة أو فرقة لا ظلم فيها ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك المقام أيضا « **قد جعل الله لكل شىء قدرا** » (٣) وبعد أن يبين سبحانه وتعالى العدة للآيسة من الحيض ، ومن لم تره ، وهى ثلاثة أشهر ثم يبين عدة الحامل ، بعد أن بين عدة الحائل هنا ، ويقول لنفوس محرجة آسفة حزينة عرفت الحاضر والماضى قد فات ان خيرا وان شرا ، وهى تجهل القابل فهى تجهل ما يطويه ، فيقول سبحانه « **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا** » (٤) ويذكر سبحانه وتعالى وجوب النفقة فى مواضع وجوبها ، وأحوال وجوبها ، والارضاع ، ووجوبه ، ثم يبين مقدار الواجب ، على أن يكون على قدر طاقته ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، « **لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا** » (٥) ٠

وهكذا نجد العبارات القرآنية السامية فيها طمأنة النفس على ما يطويه المستقبل ، فيجعل لهم رجاء بمخرج يخرجهم ، أو يجعل من أمره يسرا ، وان هذا النوع من القول هو الذى يقال عندما تتأزم النفوس ، وتقطع العلاقات بعد

---

(١) الطلاق : ١ (٢) الطلاق : ٢
(٣) الطلاق : ٣ (٤) الطلاق : ٤
(٥) الطلاق :٧

ود كان دائما أوكان يرجى له الاستمرار، ويشترط لتحقيق ذلك الأمر الذى فرج الله به المكروب التقوى والعمل الصالح ، وان هذين اذا تحققا فى تلك الحال طابت النفوس ورضيت بالواقع ان لم يكن منه مناص وغيرته بالايمان ان كان ثمة محل للتغيير ٠

وان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ليعلم الذين يرون أسرة قد ضاقت صدور أهلها حرجا ، واستولى عليها من الحياة الزوجية الصالحة يأس وغلبت شدتها ، وذهب رخاؤها أن يفتح باب الرجاء فيها بعد اغلاق الآمال ، وان يكون ميسرا ، ولا يكون معسرا ، وأن يكون مبشرا ، ولا يكون منفرا ٠

وان تلك النصوص القرآنية السامية تجد فيها البلاغة التى تصل الى أعلى الدرجات فى ذاتها لا فى نسبتها ، فابتدأ الله تعالى الخطاب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم خاطبت المسلمين من بعد مواجهته ، وخوطبوا بالجمع للاشارة الى تكافل جمعهم ، وتضافرهم وتعاونهم على البر والتقوى فى المواطن الحرجة ، والاستعانة بالمشورة والرأى ، وقد أمر بالرفق بالمرأة ، فلا يطلقها الا وهى متصلة بحالة العدة ، لكيلا يرهقها باطالتها ، فتكون بين اليأس والرجاء فى قلق نفسى ، وهكذا استمرت الأحكام الرفيقة تبين الآيات منها حكما بعد حكم٠

وجمال التعبير يشرق دائما ، وحلاوة النغم تنساب فى النفس انسياب النمير العذب ، كما تنطلق الأحكام الى العقل والقلب فى اتعاظ واعتبار واهتداء الى الحق وفى انسجام فكرى ٠

واذا كان سرد الأحكام خصوصا فى موضع دقيق كأحكام الأسرة يكون بادى الرأى فى كلام الناس جافا غير مشرق ، فان ذلك فى كلام الناس ، أما فى كلام الله تعالى فانه مشرق طيب الأعراق ، واضح القسمات فى نغم هادىء يطب للقلوب جفاؤها ، فيذهب ، وللنفوس فتقى الشح ، وهو عظة وهداية وتوجيه الى العدل المطلق المنظم للأسرة فى سلامتها وبقائها ، وفى فصلها وانتهائها ، وسبحان الله العليم الخبير ٠

التشبيه فى القرآن

١٠٥ — انتهينا الى أن التشبيه فى القرآن ليس هو مقياس البلاغة ، لأن البلاغة القرآنية العالية كما تكون فى حال التشبيه والاستعارة والمجاز، تكون أيضا فى الكلام الخالى من كل هذا ، وأخص ما يكون ذلك فى آيات الأحكام ، وقد يكون فى القصص والاستدلال ، وغير ذلك مما نعرض له ، وقد تلونا عليه آيات من آيات الأحكام ، وجدنا فيها النص الكريم فى حقائقه ، وفى بعده عن كل المحسنات البديعية أعلى من كل كلام ، وهو بديع فى ذاته من غير حاجة الى البديع الصناعى ، أو الاصطلاحى ، فانه فوق قدر البشر ، وفوق ما يصطنعه البشر ، وما يصطلح عليه العلماء ، وانه يتعلم منه ، وان كان لا يحاكى ، ويؤخذ منه ، وان كان الوصول الى مقامه غير ممكن ·

ولنتكلم الآن فى تشبيه القرآن ·

لقد ذكر الرمانى فى رسالته النكت فى اعجاز القرآن : « التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حسن أو عقل وان ذلك التعريف يضع المشبه والمشبه به فى مرتبة واحدة ، وانى لا أرى ذلك ، ولا يراه علماء البلاغة الذين جاءوا بعد أبى الحسن الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ـ فانهم يعرفونه بأنه جعل أحد الشيئين فى مقام الشىء الآخر لأمر مشترك بينهما · وهو فى ثانيهما أقوى مظهرا أو أبين مخبرا ، كما تقول على كالأسد فى الشجاعة ، فهو فى الأسد أظهر ، ولا يمكن أن يقال : « ان أحدهما يسد مسد الآخر ، صورة أو معنى » ·

ولنترك التعريف مع رأينا فيه ، ولننظر فى قوله من بعد ، فهو يقول : « وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء ، وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وهو على طبقات فى الحسن ، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما ،

والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه » ويذكر وجـــوه التشبيه وأنواعه فيقول فى ذلك :

« منها اخراج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، ومنهــا اخراج ما لم تجر به عادة الى ماجرت به عادة ، ومنها اخراج ما لا يعلم بالبديهة الى ما يعلم بالبديهة ، ومنها اخراج ما لا قوة له فى الصفة الى ما له قوة فى الصفة ، فالأول نحو تشبيه المعدوم بالغائب ، والثانى تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه اعادة الأجسام باعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء النهار » .

ولا شك أن هذه الوجوه لا تشمل كل أقسام المقسم ، فمن التشبيهات ما ليس بوجه من هذه الوجوه كتشبيه غير الواضح بالواضح كما ترى ذلك فى كثير من الآيات القرانية ، وكالتشبيه الذى يقصد به بيان ما أكنه سبحانه وما خلق وما دبر فهو تقريب بالمغيب عنا الى المعلوم لنا ، وما عند الله أعظم وأكبر ، وقد يكون التشبيه لتقريب المعنى الكلى من المعنى الجزئى أو لتصوير المعنى الكلى فى بعض جزئياته ، كقوله تعالى « **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** » (١) فانه كان عقد المشابهة بين المعنى الكلى ، وهو المعنى الجـــامع الـــذى يوضـــح بـــه الحقـــائق بالأمثـــال التى ضربهـــا وبينها للناس ، ومن ذلك الأمثال التى تضرب لتقريب أصل الخلق والتكوين من عقول المكلفين ، وهكذا وقد يكون هذا يتضمنه مطوى كلامه ، ولكنه غير بين .

ولقد قسم أبو الحسن الرمانى التشبيه بالنسبة للغرض منه الى قسمين : فيقول التشبيه على وجهين تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البـــلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب ، وتشبيه الحقيقة نحو هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت » .

---

(١) الحشر : ٢١ .

ونحن نقول ان ذلك التقسيم يجوز أن يكون بالنسبة لكلام الناس ، أما القرآن الكريم ، فان كل تشبيهاته ، فيها البلاغة وفيها الحقيقة ، والمثل الذى ذكره وان كان فى أعلى درجات البلاغة هو الحقيقة ، فان التشبيه صادق فى الواقع لأن أعمال الذين كفروا هى السراب الذى له واقع ، ولكنه وهم يسيطر بابصار ضال ، فكما أنه لا جدوى والمتعلق به لا يتعلق بأمر واقع ، فكذلك اذا رأوا أن أعمالهم فيها خير يعود عليهم فهم واهمون ، والصفة المشتركة فى التشبيهين هى أن الوهم وهو ما ليس واقعا وتصوروه على أنه واقع ، فقد تصوروا أن أعمالهم حسنة ، اذ زينت لهم أمرا فظنوها أمرا حسنا ، كمن يرى السراب فيحسبه ماء وهو ليس بماء ·

ولذلك نقول ان الوجهين محققان فى كتاب الله تعالى ، ففى التشبيه القرآنى الحقيقة الصادقة ، والبلاغة القائمة المعجزة · وقد أتى بالأمثلة على وجه التشبيه التى ذكرها ، وتبعه الباقلانى فى كتابه اعجاز القرآن ، فلا ضير علينا اذا تابعناه ، كما تابعه من كان عصره على مقربة من عصره ·

١٠٦ ـــ وقد ذكر الرمانى ، وتبعه الباقلانى مثلا للتشبيه الذى شبه فيه ما لا يقع عليه الحس مما يقع بقوله تعالى « **والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا** (١) ·

هذا ما ساقه الرمانى من الآية ، ولنتمه ببيان ما فيها من تشبيه ، فقد قال تعالى بعد ذلك « **ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** » (٢) ·

وقد علق الرمانى على التشبيه الأول فى الآية الأولى ، فقال : « وهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، وان اجتمعا

---

(١) النور : ٣٩ ·　　　(٢) النور : ٣٩ ـ ٤٠

فى بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائى ماء ثم يظهر انه كان على خلاف ما قد رأى لكان بليغا ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد عليه حرصا ، وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الأمنية حصـــل على الحساب ، الذى يصيره الى عذاب الأبد ، نعوذ بالله من هذه الحال ، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف اذا تضمن ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة » ٠

ولم يبين لنا الرمانى ، لماذا كان تعبير القرآن فى التشبيه حيث يرى السراب ، أبلغ من أن يقال يحسبه الرائى ماء » لم يبين بوضوح أوجه ذلك ، ونرى أن قول القائل يحسبه الرائى ماء يفسد التشبيه ، ولا يفيد الحاجة ، لأن النص فيه ما يفيد الرغبة فى طلب الماء وشدة الحاجة اليه ، وذلك محقق فى المشبه ، اذ أن الذين كفروا بآيات الله فى وقت حاجتهم الى عمل صالح يظنون أن عملهم هذا منه وهم محتاجون الى ما يتقدمون به الى ربهم من عمل صالح ، كالظمآن يطلب الماء ٠

وان التشبيه يدل على حيرة الكافرين ، حتى يتوهموا ما لا يقبل الوقوع واقعا وقد أكد حيرتهم ما جاء بعـــد ذلك ، اذ يقول سبحانه وتعـــــالى : « **أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** (١) » ٠

فاذا كان التشبيه الأول شبه حالهم بحال من يتوهمون فى عملهم خيرا ، فيكونون كالظمآن يحسب السراب ماء لحيرتهم ، واضطرابهم وحاجتهم الى الماء ، فالمثل الثانى يصور حيرتهم ، بسبب أنهم فى ظلام دامس فقد شـــبه سبحانه وتعالى حالهم من حيث الحيرة والتباس الأمـــور عليهم ، وانقطاع

(١) النور : ٤٠

الأمل وأنهم يظنون الخير حيث لا مظنة ، أعمالهم بظلمة حالكة فوقها ظلمة مثلها ، وفوق هذه الظلمات سحاب يوجد غمة . فليست أعمالهم خيرا ولكنها شر عظيم عليهم ، وهم يضاعفون من الظلمات بتوالى أعمـــال الشر فيهم ، وسيرهم فى طريق الغى الذى لا حد له ، وقد تكاثف عليهم سوء ما فعلوا .

وخلاصة ما يستنبط من التشبيهين أنهم فى حيرة يطلبون ما ينجيهم فلا يجدونه ، واذا توهموه فى أمر زال الوهم بالحقيقة المبصرة ، وأنهم بســوء أعمالهم فى ظلمات بعضها فوق بعض وهى فى نفوسهم ، وما يحيط بهم ظلمة داكنة لا يجدون بصيصا من الأمل يفتحون أعينهم لرؤيته .

والتشبيهان يعطيان صورتين من البيان ، تدلان على كمال الحيرة وكمـال الظلمة ، فالمثل الأول يعطى صورة عطشان يطلب الماء ، فيتوهمه فى سراب فيجرى وراءه عطشان صاديا ، حتى اذا أجهدته المشقة وبعد الشقة لا يجـد شيئا ، والثانى يعطى صورة لشخص كانت عليه الظلمات توضع واحـدة فوق واحدة ، واذا كانت فيها فرجة يرجو منها الرؤية لا يصل اليه النـور للسحاب الذى كأنه الغمة ، ومن تشبيه الأمر غير المحسوس بالأمر المحسوس، كالمثل السابق فى قوله تعالى : « **مثل الذين كفروا بربهم بريهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد** (١) » .

ويقول الرمانى فى التعليق على التشبيه « فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، فقد اجتمع المشبه والمشــبه به فى الهلاك وعدم الانتفاع ، والعجم عن الاستدراك لمـا فات ، وفى ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة » هذا كلام الرمانى » وهو صدق ، وانى أذوق من التشبيه شيئا بيانيا آخر ، ذلك أن أولئك الكافرين كانوا يحسبون ان أعمالهم

---

(١) ابراهيم : ١٨ .

لها أثر فى الوجود فى زعمهم · ويتوهمون وقوع ذلك وأنهم قدموا ، ولكنهم يفاجئون بريح شديدة فى يوم عاصف ، تبدد ما كانوا عليه من أحلام ، كانوا يتوهمون أن ما لهم فى الدنيا ينفعهم ، فلما جاء يوم القيامة بددت أحلامهم ، فتقدموا عاطلين فى حلبة العمل الطيب وكان ذلك هو الضلال البعيد ، لأنهم زعموا باطلا ، ثم رأوا الحقيقة عيانا وفى ضمن القول عبر عن عملهم بأنه سراب ، أى أنه شىء ليست له قيمة ذاتية بل هو هباء فى ذاته ·

١٠٧ — وقد جاء الرمانى بمثل فيه تشبيه مالم تجر به العادة بما تجرى به العادة ، وهى قوله تعالى فى توثيق الميثـاق على بنى اسرائيل « **واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** (١) » ويقول فى ذلك الرمانى « وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة الى ما جرت به العادة ، وقد اجتمعنا فى معنى الارتفاع فى الصورة ، وفيه أعظم الآيات لمن فكر فى مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به ، ليطلب الخير من قبله ، ونيل المنافع بطاعته » ·

هذا ما ذكره الرمانى فى معنى التشبيه · وهو تشبيه ما لم تجـر به العادة ، الى ماجرت به العادة ، كأن التشبيه كان لغرض تقريب المعنى ، وتصوير الغريب كأنه قريب ، وذلك فى تشبيه الجبل مرتفعا كأنه ظلة ، وهـذا المعنى فى ذاته صحيح ولكنه فيما أعتقد ، لا يصور معنى التشبيه من كـل الوجوه ، لأن رفع الجبل كان لتوثيق الميثاق عليهم ، وحملهم على الأخذ به واثبات قدرة الله تعالى ، والقاء المهابة فى قلوبهم ، فالتشبيه بالظلة للدلالة على الاحاطة وتصويره لهم كأنه نازل بهم واقع عليهم ، ليعرفوا أن ميثاق الله له رهبته وأن عليهم طاعته ، ولذلك قال سبحانه بعد أن رأوا الجبل مرفوعا عليهم

---

(١) الأعراف : ١٧١ ·

وأنه محيط بهم « **خذوا ماآتيناكم بقوة ـ أى بعزم شـــديد ـ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** » ٠

ومن هذا النوع الذى ذكره الرمانى قوله تعالى : « **انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما ياكل الناس والأنعام ، حتى اذا اخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليهـــا أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا ، كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات ، لقوم يتفكرون** » (١) ٠

وقد أخرج الرمانى التشبيه كالآية السابقة فى نظره ، فقال : « قد أخرج ما لم تجر به العادة ، الى ما جرت به العادة ، وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الزينة والبهجة ، ثم الهلاك بعده ، وفى ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر فى أن كل فان حقير ، وان طالت مدته ، وصغير ، وان كبر قدره » ٠

وما ذكره الرمانى حق فى ايجازه ، ولكنـــه ناقص ، ونوضحه بعض التوضيح فنقول ان التشبيه تصوير للحياة ، فان مثلها فى بهجتها ومسراتها ، وهناءتها والسعادة فيها مهما تبلغ من المظهر البهى ، والزينة الباهرة ليس لها بقاء ، وانما مآلها الى الفناء ، كمثل الماء ينزل من السماء فينبت النبـات الذى يأكل منه الناس مستمتعين ، والأنعام والدواب ، وانه اذ يبلغ أقصى زخرفه ونضرته ومتعته ، وامتلاء أهل الأرض بالغرور ، وظنوا أن كل شىء فى قبضة أيديهم جاءهم أمر الله ، فصار النبات هشيما ، والانسان رميما كأن لم يقم أحد بالأمس ٠

وان ما ذكره الرمانى صادق فى ايجازه ، ولكنه لا يصور الصـــورة التى يدل عليها التشبيه ، وهو يريك الحياة كالعروس فى جلوتها ، ثم كالهشيم فى صغاره ٠

---

(١) يونس : ٢٤

ومن التشبيهات التى ساقها الرمانى قوله تعالى : « **انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** » (١) ٠

ويقول الرمانى فى بيان وجه التشبيه ، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة الى ما جرت به عادة وقد اجتمعا فىقلع الريح لهما واهلاكه اياهما وفى ذلك توحد الآية الدالة على عظم القدرة ، والتخويف من تعجيل العقوبة ٠

وان هذا القدر الذى ذكره الرمانى متحقق ، ولكن لا يمكن أن يكون وجه التشبيه هو تشبيه ما لم تجر العادة به بما جرت به العادة فقط ، انما الألفاظ والأسلوب ، وما يثيره من صور بيانية تعلو به عن أن يكون لمجرد اثبات مالا تجرى به العادة الى ما تجرى ٠ انما المقصود من التشبيه فيما نحسب تصوير عذاب الله تعالى ، فالله تعالى أرسل عليهم ريحا شديدة البرد ، فى يوم كله بأس وشدة ، وهو كالنحس عليهم ، طويل فى آلامه ، ومستمر فيها ولو كان الزمن قصيرا ، ثم يصور الله تعالى نزع المشركين من غرورهم واعتزازهم بمالهم وطغوائهم ، وينزعون بعنف شديد لا يقوون فيه على الامتناع ولا الاصرار على البقاء ، كما تنزع مؤخرات وجذور نخل غاصت جذوره فى أعماق الأرض ٠

هذا بريق التشبيه المرعد الذى يصور ما ينزل بالمشركين الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد ٠

ومن التشبيهات التى ذكرها الرمانى على أنها تقرب ما لم تجر به العادة الى ما جرت به العادة ، قوله تعالت كلماته « **فاذا انشقت السماء ، فكانت وردة كالدهان** (٢) » ٠

---

(١) القمر : ١٩ ، ٢٠ (٢) الرحمن : ٣٧ ٠

وقال فى التشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة الى ما قد جرت به عادة ، وقد اجتمعا فى الحمرة وفى لين الجواهر السيالة ، وفى ذلك الدلائل على عظم الشأن ونفوذ السلطان لتنصرف الهمم الى ما هناك بالأمل ٠

وان تصوير التشبيه ، وقصره على ذلك الوجه ، وهو تشبيه ما لم تجر به عادة الى ما يجرى به عادة ربما يكون غير مصور لمعنى التشبيه ، وما يثير من صور ٠

ان التشبيه تصوير لما يقع اذ تقوم القيامة ، فالسماء ذلك البناء الذى تجرى فيه الكواكب والنجوم ، كل فى مساره ، وهى البناء الذى بناه الله تعالى شامخا عظيما ذا بروج صار وردة كالدهان ٠

وفى ذلك تصوير للدنيا اذ تقوم القيامة ، فتكون السماء لينة كالورد الذى يشبه الدهن مبالغة فى ليونته التى تصل الى حد السيولة ٠

١٠٨ ــ ويسوق الرمانى أمثلة أخرى يتبين فيها تشبيه ما لم يعلم الا بالنظر بما يعلم بالبداهة من غير محاولة نظر واستدلال ، ومن ذلك قوله تعالى : « **وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** » (١) ، ويقول فى التشبيه هنا ، « قد أخرج ما لا يعلم بالبداهة الى ما يعلم ، وفى ذلك البيان العجيب بما قد تقرر فى النفس من الأمور ، والتشويق الى الجنة بحسن الصفة مع مالها من السعة وقد اجتمعا فى العظم » ٠

وانا نجد الآية الكريمة فى تشبيهها ليست من قبيل تشبيه ما لا يعلم بالبداهة بما يعلم بالبداهة ، فاننا نرى أن كليهما لا يعلم بمجرد البداهة ، بل يعلم بالنقل المصدق ، فهما سواء فى صلتهما بالعلم الضرورى ، وانما اذا قيل ان المراد تصوير المعقول بما يتصور أن يكون مشهودا محسوسا ،

---

(١) الحديد : ٢١ ٠

والجميع باخبار الله تعالى ، لا بمجرد النظر ، سواء كان الأمر ضروريا أم نظريا • وانا اذا تلونا ما قبل هذا النص وما بعده وهو قوله تعالى : « **سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم (١)** »

ونرى من هذا أن المراد السعة فى النعمة ، وان السعة فى النعمة كالسعة فى المكان ، وهى تدل عليه ، ، والمراد من الكلام كله الحث على طلب مغفرة الله تعالى ، وان الكلام كله يصور الجنة ، بأنها خير الوجود كله ، وأنهـا أوسع ، وانه اذا كانت النار تسع كل المجرمين ، لأن لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم ، فالجنة تسع المتقين الأبرار ، لأنها واسعة عريضة كعرض السماء والأرض •

ومن التشبيه الذى ذكره الرمانى على أنه تشبيه ما لا يعلم بالبداهة الى مايعلم بها قوله تعالى « **مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا** » (٢) ثم قال : وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة الى ما يعلم بالبديهة ، وقد اجتمعا فى الجهل بما حملا ، وفى ذلك العيب لمن ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير ، ولسنا نرى فى الكلام ما يدل على أن المشبه لا يعلم بالبداهة ، والمشبه به يعلم بالبداهة •

ان الذى نراه ليس علم الرواية وعلم الدراية ، انما الذى تتجه اليه الآية الكريمة فى صدرها ونهايتها ، هو تشبيه علم لا يقرنه العمل ، بعدم العلم ، فهم يحملون علما لا ينتفعون به عملا ، بل يعملون بنقيضه ، يحمـلون علم الهداية ولا يهتدون ، كمثل الحمار يحمل أسفارا •

وكان تشبيههم بالحمار الذى يحمل أسفارا وهو غير صالح للانتفاع ،

---

(١) الحديد : ٢١

(٢) الجمعة : ٥ •

وفى التعبير القرآنى اشارة بيانية تبين أن العمل هو ثمر العلم ، ولا يقـال انه قد نال من أخذه من غير عمل ، وذلك قوله تعـالى « **حملوا التوراة ثم لم يحملوها** » ان الله حملهم التوراة علما لأجل العمل ، فعلموها ولم يعملوا بها . فكانوا غير حاملين .

١٠٩ ـ وقد ساق الرمانى من تشبيهات القرآن تشبيهات فيها المشبه يكون أضعف صفة من المشبه به فيلحق به لأنه أقوى صفة منها ، ومن ذلك قوله تعالى « **وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام** » (١) ويقول فى ذلك « فهذا تشبيه قد أخرج مالا قوة له فى الصفة الى ما له قوة فيها ، وقد اجتمعا فى العظم الا أن الجبال أعظم ، وفى ذلك العبرة من جهة القدرة ، فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما فى ذلك من الانتفاع بها ، وقطع الأقطار البعيدة فيها » وان ذلك الكلام حق ، فانه اذا كان الجمع بين المشبه والمشبه به القوة ، فالجبل أقوى ، واذا كان الظهور فالجبـل أظهـر ، ولكن يلاحظ أن المقصود من التشبيه لا يعنى به الرمانى كثيرا ، بل تكون عنايته بالأوصاف الظاهرة ، أو المقاصد القريبة . وان المقصود فى هذا السياق هو بيان سر الله تعالى فى خلقه وتسخيره للانسان ، فانه اذا كانت الجبال والأوهاد وجدها الانسان كذلك ، وهى رواسى الأرض ، وبها ثباتها ، فان الجوارى ، وهى السفن التى تقارب فى علوها وفى قوتها وأثقالها الجبال تجرى على الماء وهو يحملها مع أنه سائل لا صلابة فيه ، وتجرى فيه ، وتنقلهم الى بلد لم يكونوا واصلين اليه بغيرها،فقدرة الله تعالى فيها أظهر ، لأنها منشأة ترى نشأتها، وهى تجرى بأمر الله تعالى ولا يجرونها .

ويضرب الرمانى مثلا فيما يجرى فى المعنويات ، ومن ذلك قوله تعالى : « **أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحـرام كمن آمن بالله واليـوم**

---

(١) الرحمن : ٤٢ .

الآخر » (١) · ثم يقول : « وفى هذا انكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمـارة كحرمة من آمن بالله وكحرمة الجهاد ، وهو بيان عجيب وقد كشفه التشبيـــه بالايمان الباطل والقياس ، وفى ذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالايمان ، وأنه لا يساويه مخلوق على صفته فى القياس · ومثله قوله تعالى « **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** » (٢) ·

ونجد الرمانى فى المثال يأتى بالتشبيه منفيا مستنكرا ، كما أتى به محققا موجها ، فان الاستفهام هنا لانكار الواقع ، فهم قد آثروا أن يكونوا عامرين للبيت ، قائمين بالسقاية والرفادة ، ، وتنافسوا على ذلك زاعمين أن فيـــه الخير كله ، وأنه قد يغنيهم عن الايمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله ، بل يزعمون أنهم بسدانة البيت الحرام ، والقيام على السقاية والرفادة أفضل ممن آمن بالله وجاهد فى سبيله · والحقيقة أنهما لا يستويان ، فالانكار للمشابهة والتساوى بينهما فضلا عن اعتبار السقاية والعمارة أفضـل وأشرف · والله سبحانه وتعالى أعلم ·

هذا ما ساقه الرمانى من وجوه التشبيه ، وقد نقلناها ، كما نقلهـــا الباقلانى لأنها وجوه لها اعتبارها،ولأن فيها ضبطا لأقسام التشبيهات القرآنية، وان كانت غير شاملة لكل الأقسام ، بل انها ذات وجوه شتى ·

ولكنه لم يتعرض الا قليلا لأغراض التشبيهات ومراميها ، وما تصوره من صور بيانية ، وما تتجه من بسط للمعـــانى النفسية ، وتوجيه للحقائق الكونية والروحية ، ووصف للملائكة الأطهار ، والآدميين الأخيار ·

ولنضرب بعض أمثلة لتشبيهات القرآن الكريم التى تجعل فيها المعانى كأنها صور محسوسة لافتة العقول الى الكون وما فيه ، اقرأ قوله تعـــالى فى تشبيه المنافقين وترددهم بين الحق والباطل ، وظهور ضوء الحق ، وعمى بصائرهم عنه فقد قال تعالى :

---

(١) التوبة : ١٩ ·　　　　(٢) الجاثية : ٢١ ·

« **مثلهم كمثل الذى اســـتوقد نارا ، فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون (١) »** ، وترى هنا تشبيه حال المنافق المضطرب بين الحق والباطل ، ولكن يريد الحق تابعا لهواه ، فهـــو يطلبه ليستضىء بنوره ، ولكن ما أن يبدو النور ، حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذى يسيطر على قلبه ، فيضىء النور ما حوله ، ولا يستضىء به ، وهو الذى استوقد النار ، ثم ينتهى أن يصير كالصم الذين لا يسمعون ، لأنه لا يستمع لنداء الحق ويصير كالبكم ، لأنه لا ينطق بالحق الذى يجب عليه أن ينطق به ، وكالأعمى الذى لا يميز بين الأشياء لأنه وقد طمس الله تعالى على بصيرته ، فأصبح لا يميز بين باطل استهواه لفساد قلبه ، وحق قامت البينات عليه ، وفى الحكم عليهم بالصم والبكم والعمى تشبيهات فردية ، وهى تقوم على التشبيه .

والتشبيه فى هذا النص تشبيه حال بحال ، والآية صريحة فى ذلك لأن الله تعالى يقول : « **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا** » أى حالهم كحال الـــذى استوقد نارا ، فهو تشبيه تمثيلى شبهت حال المنافقين ، وأكثرهم من اليهود فى كونهم كانوا يتطلعون الى نبى قد حان حينه ، وأدركهم ابانه ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلما بدا الضوء اضاء من حولهم ، ولم يستضيئوا هم به ، فلم يهتدوا بقول سمعوه ، ولا نطقوا بحق عرفوه ، ولا استرعتهم بينات رأوها فكانوا صما بكما عميا .

وقد ضرب سبحانه وتعالى فى السياق القرآنى مثلا بتشبيه آخر ، يمثل جانبا من جوانبهم ، فقال بعد التشـــبيه الأول « **أو كصيب من السماء فيـــه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف ابصارهم ، كلما اضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، ان الله على كل شىء قدير (١)**

---

(١) البقرة : ١٧ .

(١) البقرة : ١٩ ، ٢٠ .

وفى هذا المثل شبه سبحانه وتعالى حالهم بأمرين : كل واحد منهما تشبيه قائم بذاته ، أولهما : انه سبحانه وتعالى شبه حالهم بحال قوم أصابهم مطر شديد ينصب عليهم انصبابا ، صحبه غمام بعد غمام فيه ظلمة بعد ظلمة وفيه رعد وبرق ، وفيه الانذار بالعذاب الشديد ، فهم فى خوف ووجل يحسبون كل صيحة فيها الموت ، ويجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، وفى هذا تصوير لنفس منافقة ، فهى نفس تائهة فارغة دائما لا تستقر على أمر ، ولا تطمئن على قرار ، فهم فى اضطراب ، لأنهم لا يؤمنون بشىء ، والايمان هو المطمأن دائما . الا بذكر الله تطمئن القلوب ، واذا كان التشبيه السابق يصور حالهم فى طلب الدليل وعدم الأخذ به لغلبة الهوى ، وسيطرة الشهوة ، والجحود الموروث،فهذا التشبيه يصور حالهم من هلعمستمر ، وخوف من غير مخوف ، ولذلك يقول بعض علماء النفس : ان النفاق منشؤه ضعف فى النفوس .

والتشبيه الثانى متفرع عن التشبيه الأول ، وان كان يصلح تشبيها قائما بذاته وهو ما أومأ الله اليه تعالى بقوله « **يكاد البرق يخطف ابصارهم** » . وان هذا تتميم للأول ، وهو أيضا قائم بذاته ، فانه اذا كان الرعد يجعلون اصابعهم فى آذانهم به ، فالبرق الذى يصحب الصيب شديد مفزع له بريق يكاد يخطف ابصارهم ، ولكن كان هو تشبيها لحالهم ، وهى أن المنافق متردد دائما . فالبريق يضىء لهم فيمشون فيه ، ولكن سرعان ما تظلم عليهم نفوسهم فيقيمون حيث هم من نفاق ، ويختم الله تعالى النص القرآنى فى هذا التشبيه المحكم ببيان قدرة الله تعالى وسيطرته عليهم، وأنه سبحانه لو شاء لأفقدهم سمعهم وبصرهم حقيقة ، كما فقدوا سماع الحق استماع انصات ، وادراكه ادراك طالب للحقيقة .

والتشبيه فى هذا المثل كسابقه ، تشبيه تمثيلى ، انه شبه حالهم فى ضعف نفوسهم والبلبال المسيطر عليهم واضطراب أحوالهم بحال قوم أصابهم مطر لم يكن غيثا منقذا ، بل كان مرهبا ومفزعا ، فكانوا فى خوف واضطراب من غمام

مظلم ، وريح عاصف، ورعد قاصف ، وبرق خاطف، وصاروا يجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، فهو تصوير لضعفهموفى التشبيه الثانى الذى هو فرع بالنسبة لما قبله تصوير لفزعهم من البرق ، وتصوير لكون أسباب الهداية بين أيديهم ، وهى فى ذاتها مضيئة ، ولكنها تظلم عليهم فيقيمون على نفاقهم ، ويستمرون فى غيهم ، والله قاهر فوقهم ، لو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ·

١١٠ ـــ وقبل أن نغادر الكلام فى التشبيه الى الاستعارة ، وهى لون من ألوانه لا بد أن نشير الى أمور ثلاثة :

أولها ـ ان التشبيه بلا شك من أسرار الاعجاز ، ويعده الباقلانى من أسباب الاعجاز ، ولكن يعد الكلام فى القرآن من غير مجاز ولا تشبيه بأى لون من ألوانه معجزا بلغ ذروة البلاغة من غير أن تعرف سببا واضحا يدرس على أساسه ، وتتعرف أسرار البلاغة فيه من اشعاعه وليس معنى ذلك أن الاعجاز ليس بيانيا ، بل هو بيانى ، ويبدو ذلك فى تساوق المعانى ، وأخذ الألفـــاظ بعضها بحجز بعض فى احكام قول · ونغم ورنين يكون أحيانا شديدا يصك آذان المنذرين ، وأحيانا كأنه نسيم عليل يحيى النفوس ويشفى أسقام القلوب ، وأحيانا يكون وصفا عميقا لخواطر النفوس ، وما يستكن فى القلوب ، وهذه هى البلاغة فى القرآن التى تعلو عن أن توضحها الأفهام كما يرى ضوء الشمس ولا يعرف كنهه ، وكما تحس بالحرارة الدافئة ، ولا تعرف ماهيتها ، والله على كل شىء قدير ·

الأمر الثانى ـ أن تشبيهات القرآن أيا كان وجهها صـــــور بيانية ، تتضح منها الحقائق الظاهرة ، والمعانى العاطفة ، كأنها أمور محسوسة مرئية، فاذا كان التشبيه بأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة ، فالتشبيه الأول من تشبيهات المنافقين تقرؤه كأنك ترى رأى العين رجـــلا استوقد نارا ، والسين والتاء للطلب ، وهما يدلان على أنه بذل مجهودا فى طلب الضوء ، وعالج الأمور فى طلب الوقود ، حتى وصل اليه بجهد ومشقة،

ولكن ما أن أضاء حتى ثبت أنه لم يكن فى الضوء فائدة له ، فلم ير النور الذى طلبه ، وأصم أذنه عن الحق ، وانقبض لسانه فلم ينطق بحق ، والبيان القرآنى الكريم صور ذلك كأنك تراه ، لا تقرؤه تعالت كلمات الله ٠

والتشبيه بما تضمن من تشبيه فى آخره ، يريك صورة الضعف ، وما يحدثه النفاق فى النفوس من ضعف يجعلها تطير حول كل مطار ولا تطمئن على قرار ، فهى تسير برعونة نحو المطامع ، وتستخذى وتذل وتخنع أمام المفازع ، وقد شبههم بقوم نزل عليهم مطر ينصب انصبابا ، والظلمات قد صارت كسقف مرفوع فوقهم والرعد بهزيمة يزعجهم ، والبرق يخطف أبصارهم ، وذلك تصوير كأنه المرئى ، وتبين لمعنى الخوف والاضطراب الذى يسكن قلوبهم ، ويجعلهم بين خوف يؤرقهم ، ومطامع تحركهم ، والشر يحوط بهم فى كل أحوالهم ٠

الأمر الثالث الذى نجده فى تشبيهات القرآن أننا نجده يقرب المعانى ، ويأخذ من التشبيهات الأدلة المفرقة بين الحق والباطل ، اقرأ قوله تعالى : **« ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا ، فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ٠ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم »(١)**

ونرى أن التشبيه الأول من قبيل التمثيل ، وهو تشبيه حال من يعبد الأصنام إذ يسوى بينها وبين الخلاق العليم ـ بحال من يجعل العبد المملوك الذى لا يقدر على شىء بحال من رزقه الله تعالى رزقا حسنا ، وهما لا يستويان حالا وشأنا ، والنتيجة لا يستوى صنم لا يقدر على شىء بالله تعالى الذى يملك الوجود كله ، وهو على كل شىء قدير ٠

---

(١) النحل : ٧٥ ، ٧٦ ٠

وفى التشبيه الثانى كان التشبيه بين حال المشركين فى تسويتهم بين الله القادر ، والحجر الذى لا يضر ، ولا ينفع ، وحال من يسوى بين رجل أبكم وهو كل ، وبين رجل ينطق بالحكم ويقيم العدل لا يستويان ، فلا تصح عبادة الأوثان وتسويتها بالله ٠

وان الله سبحانه وتعالى يقرب الحقائق بين قوم حسيين بالمحسوسات ، يضرب الأمثال بالتشبيهات لتقريب الحقائق ، وتوضيح الأدلة بما يقربها ، ولو كان ذلك بالأشياء التى يستحقرها المشركون ، وهى فى ذاتها ليست بحقيرة ، ولكنها جليلة ، لأنها من خلق الله تعالى ، ولقد قال الله تعـــالى فى ذلك : **« ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين »** (١) ٠

وبعد فان القرآن غذاء الأرواح ، ومائدة الله للنفوس مختلف ألوانها ، وكلها طيب الثمرات ، نفعنا الله به ، وجعله درعنا فى الأحداث التى تنزل بنـــا نأوى عنده ونركن اليه ، ولا نعشو الا الى ضوئه ٠

الاســتعارة

١١١ ــ الاستعارة ضرب من ضروب التشبيه وتكون العـــلاقة بين المعنى الأصلى للفظ بالوضع الأصلى والمعنى فى الاستعمال المجازى المشابهة ، فاذا قال القائل عن رجل شجاع معبرا عنه بكلمة الأسد ، أو قال عن رجـــل خطيب شجاع انه على بن أبى طالب فان العلاقة تكون فى الأول الشجاعة التى يضرب بالأسد المثل فيها ، وفى الثانى الشجاعة والخطابة ٠

---

(١) البقرة : ٢٦ ٠

وعلى ذلك يكون بين التشبيه والاستعارة اتصال ، وان شئت فقل انهـا طريق من طرق التشبيه أو هى تشبيه فيه مبالغة فان المشبه يدعى فيها أنه فرد من أفراد المشبه به ، ولذلك لا بد فيها من أمرين : أولهما الا تكون ثمة أداة تشبيه كالكاف أو الاستعمال أو أن يكون المشبه محمولا عليه والمشبه محمولا مثلا ، والا يكون المشبه مذكورا باى صورة من الصور ، وثانيهما ـ أن يكون اللفظ الدال على المشبه به لفظا عاما كاسم جنس ، لكى يدخل المشبه فى عمـــوم أفراده بمظهر اللفظ ، كأن يقول تقدم للأعداء أسد له لبد ، فانتقم الله تعالى به منهم ، فان قرينة القول تدل على أنه انسان ، وكانك ادعيت أنه من أفراد الأسد ذلك الرجل الشجاع الذى أطلقت عليه اسم الأسد ٠

وقد عرف أبو الحسن الرمانى الاستعارة ، فقال : وهى تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للابانة ، وهذا التعريف هو فى معنى ما ذكرنا ، غير أنه أشار الى أن الاستعارة نقل اللفظ من المعنى الذى وضع له الى معنى اخر لعلاقة المشابهة بين المعنيين ٠ وهو فى المعنى ادعاء أن لفظ المشبه به اتسع حتى صار عاما ، فدخل فى عمومه المشبه ، ويفرق بين المعنى بالوضع الأول والمعنى بالوضع الثانى بالقرينة ، فهى مانعة من ارادة المعنى بالوضع الأصلى ٠

والاستعارات فى ألفاظ القرآن كثيرة منها قوله تعالى : « **هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فاما الذين فى قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا ألوا الألباب** » (١) ٠

فالتعبير بأم الكتاب تعبير مجازى بالاستعارة ، لأن الأم هى الأصل وهى

---

(١) آل عمران : ٧ ٠

التى تقوم على أولادها ، ويرجعون اليها فى غذائهم وعواطفهم ، فشبهت بها الآيات المحكمات التى هى أصل الدين ومرجعه ، واذا كانت متشابهات ، فهى تفسر بالرجوع الى هذا الأصل ، وهو المحكمات ٠

ومثـــــل ذلك قوله تعـــالى : «**يمحو الله ما يشـــاء ويثبت وعنده أم الكتاب** » (٢) والتعبير مجازى بالاستعارة ، والمراد بالأم الأصل ، وهو الشريعة المتفقة فى كل الديانات ، فينسخ الله تعالى ، ويثبت ، ولكن أصل هذه الشرائع لا يتغير ، وهو الذى بينه الله تعالى فىقوله : « **شرع لكم من الدين ما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب** » (٢) ٠

ومن الاستعارة فى الأفعال قوله تعالى ٠ « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن** (٣) » ٠ فقد شبه سبحانه وتعالى تقديم المؤمنين أنفسهم رجاء ما عنده من نعيم مقيم ، ورضوان من الله أكبر شبه ذلك بمبايعة بينهم وبين ربهم لكمال الالتزام عليهم ، ورجاء ما طلبـــوه من رضوان ونعيم مقيم ، وهى استعارة تمثيلية ، والاستعارة التمثيلية فيها تشبيه حال بحال ، لا تشبيه ألفاظ مفردة يمثلها ، وان المشبه محذوف ، ولذا تحقق كونها استعارة ٠

ومن الاستعارة التعبير عن النفاق بالمرض ، وان ذلك كثير فى القرآن ومنه قوله تعالى فى وصف المنافقين « **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** » (٤) وقوله تعالى « **واذا ما أنزلت سورة ، فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا ،**

---

(١) الرعد : ٣٩ ٠
(٢) الشورى : ١٣ ٠
(٣) التوبة : ١١١ ٠
(٤) البقرة ١٠ ٠

فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فىقلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » (١) ٠

وفى الآيتين الكريمتين نجده سبحانه وتعالى عبر النفاق بالمرض ، وذلك للمشابهة بين مرض الأجساد والنفاق فهو يفسد القلوب ، والعقول والمدارك ، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشلها ، ومعه الوهن دائما ٠

ومن الاستعارات القرآنية التى تعلو الى أسمى مراتب البلاغة ، ولا يصل اليها بيان انسانى ، انما هو بيان القرآن فقط قوله تعالى : « **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٢) ٠**

ففى هذا النص السامى تلاقينا عدة استعارات تبلغ أعلى درجات السمو البيانى ، ولنأت من آخر النص الكريم فآخره كأوله فى اجتذاب النفوس والعقول والمشاعر الى معانيه ومبانيه ٠ أضاف اللباس الى الجوع ، وفىذلك تشبيه بالجوع من اضافة المشبه الى المشبه به على سبيل الاستعارة، فالجوع القائم المستمكن الذى يعم فيه القل ويكثر العدم ، والخوف الذى يفزع النفوس ، ويذهببالاطمئنان ، ويلقى بالاضطراب شبه باللباس السابغ ، لأن اللباس يعم ويكسو الجسم كله ، وكذلك الجوع اذا عم ، والخوف اذا طم ، فانه لا يبقى فى الجماعة أحد لم ينله ، لأن الأزمات الجانحة ، والخوف من عدو داهم لا ينجو منه أحد ، فكان التعبير عن هذه الحالة باللباس ، وفوق ذلك فان اللباس يلتصق بالجسم ويلازمه ولا يفارقه ، وكذلك الجوع والهم والغم والخوف ، وفى ذلك تصوير للأمة أو المدينة اذا عمها البؤس والشقاء وداهمها الخوف من كل ما يحيط بها ٠

وهناك استعارة أخرى ، وهى قوله تعالى « **أذاقها الله لباس الجوع** » فان اللباس يلبس ولا يذاق ، ولكن لباس الجوع والخوف لأنه

---

(١) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ ٠ (٢) النحل ١١٣ ٠

يتصـــل بالنفس ، وبالنعمـــة تزول بعـد أن كفروا بهـــا ، عبر عنـــه بالذوق ، فشبه حال النزول بحال الاذاقة ، للنزول الذى ترتب عليه أن أحسوا بمرارة المذاق بعد أن كانوا فى بحبوحة العيش ، فكان التعبير بأذاق أنسب لهذا المعنى ٠

وهناك استعارة تمثيلية ثبتت من مجموع العبارات ، وهو تشبيه حـال جماعة من الناس كانت مؤمنة مرزوقة فلما كفرت بالنعم فلم تقم بحقها ، ولم تؤد الطاعات ، ولم تنته عن المنهيات بحال قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها واسعا من كل مكان فجحدت نعمة الله تعالى فضاق رزقها ، وبدلت من الأمن خوفا ، ومن الرغد جوعا ٠

١١٢ ــ ومن الأمثلة التى ساقها الرمانى للاستعارة قوله تعالى : « **واشتعل الرأس شيبا** » (١) ويقول فى التعليق على هذا النص الـكريم : أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا النص أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس الا ان الكثرة لما كانت تتزايد تزايدا سريعا ، صارت فى الانتشـــار والاسراع كاشتعال النار ، وله موقع فى البـــلاغة عجيب ، وذلك أنه انتشر فى الرأس انتشارا لا يتلافى كاشتعال النار ٠

وان هذا التعبير لم يكن معروفا عند العرب ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار ، للسرعة ، وللبياض ، وللملازمة ، ولأنه ينتهى بتدمير ما تتصل به ، وتجعل حطامه ترابا ٠

ويسوق الرمانى من أمثلة الاستعارة قوله تعالى : « **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فاذا هم مظلمون** » (٢) ، ويقول الرمانى فى ذلك ٠ نسلخ مستعار، وحقيقته يخرج منه النهار ، والاستعارة أبلغ ، لأن السلخ اخراج الشىء ممـا لابسه ، وعسر انتزاعه منه لالتصاقه به ، فكذلك لباس الليل ٠

---

(١) مريم : ٤

(٢) يس : ٣٧ ٠

هذا ما قاله الرمانى ، ولكن نتصور الاستعارة ، وما تضفيه من معـان على الحقيقة المجردة ، نقول : ان مفردات الراغب الأصفهانى جاء فيها فى مادة سلخ « السلخ نزع جلد الحيوان · وقال تعالى «نسلخ منه النهار» أى ننزعه . ومؤدى هذا الكلام أن المسلوخ المنزوع هو النهار ، وأن الجسم الذى انسلخ منه هو الليل . ولذلك قال تعالى كنتيجة للسلخ « فاذا هم مظلمون » أى أن النزع كانت نتيجته أن صار الناس فى ليل مظلم ، ويكون معنى الاستعارة أن القرآن الكريم شبه فيه النهار بالنسبة لليل باهاب من النور أحاط بالليـل احاطة الاهاب بالشاة مثلا ، فلما نزع منه كان الليل ، والجامع بين السلخ والنزع ، هو الرفع لشيء ملازم محتك ، ولا شك أن الاستعارة ابلغ كما ذكر الرمانى . ولكن ما وجه البلاغة المفضلة ، نقول فيما نحسب ان الاستعارة تدل على أن الذى أحاط هو النهار ، ونسلخ لا تدل على أن أيهما هو المحيط بالآخر ولكن المسلوخ هو النهار ، ان هذا يدل على ان النور بالنسبة للـكرة الأرضية عارض من نور الشمس ، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى دوران الشمس فقال : « **والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العـزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** » (١) ·

ومن الاستعارات الواردة فى القرآن التعبير عن العلم والايمان بالنور وعن الكفر والعناد بالظلمات مثل قوله فى أول سورة ابراهيم «**الر كتـاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النـور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد**» وقد قال فى ذلك الرمانى : « كل ما جاء ذكر من الظلمات الى النور ، فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل الى العلم والاستعارة ابلغ ، لما فيه من البيان بالاخراج الى ما يدرك بالأبصار » ·

وان الظلمات ليست الجهل فقط . بل هى تشمل الجهل والكفر والجحود والعصبية الجاهلية وكل ما يسيطر على الأنفس من غير سلطان من الحق ،

---

(١) يس : ٣٨

ولا العقل ، ولا الاتجاه الى الحق في طريق مستقيم لا التواء فيه ، ولذلك عبر عن الباطل بالظلمات ، لأن له أسبابا متكافئة بعضها فوق بعض والنور واحد ، وهو الحق وطلبه والاذعان له ٠

وان الاخراج من الظلمات الى النور ٠ نقول انه استعارتان ، ان جعلنا الاستعارة في معنى الظلمة ، فاستعير لفظ الظلمة وهي حسية للجهل والكفر ، وتحكم الهوى والجحود ، لأن هذه يحدث منها ضلال في طلب الحق ، كما يحدث الضلال من السير في الظلام ، فكان وجه الشبه الضـــلال في كل ، والايمان مع الاذعان له يبعد عن الضلال بالنور اذ يبعد عن الضلال ، كما يبعد النور عن السير في الطريق الضال ، ويهدى الى الطريق المستقيم ٠ أو نقول ان القرآن الكريم يشبه حال الضالين الذين يطلبون الحق ، ويجدون الهداية ويأخذون بها ، ومع رسولهم الكتـاب المبين الذى يهدى بحال أولئـــك الذين يكونون في ظـــلام دامس لا يهتـــدون معـــه ويخرجون من الظلمة الحـــالكة الى النور فهو تشبيه حال بحال بجامع الحيرة ثم الاهتداء في كل ٠

١١٣ ـــ ويذكر الرماني من الاستعارة البيانية قوله تعالى « **وفي عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** » (١)ويقول في ذلك الرماني العقيم مســـتعار للريح ، وحقيقته ريح ليس بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ ، لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التي لا تأتي بمطر ، لأن ما يقع لأجل حال منافية أوكد مما يقع من حال منافية وأظهر ، والمعنى ان الاستعارة هنا في لفظ عقيم ، لأن العقيم لا يرجى معها خير قط ولا تنتج ، لأن العقم حال تمنع الانتاج ، فعدم انتـــاج الريح بماء ذكـــر سببه ، وهي أنها ليست منتجة بذاتها كحـــال العقيم التي لا تحمل ولا تلد ، والوصف بالعقم مناسب لأنهم توقعوا أن يكون غيثا ، فكان فيها الهلاك ، ولقد بين الله تعالى معنى عقمها في آية أخرى فقال تعالت كلماته

---

(١) الذاريات : ٤١ ٠

« فلما راوه عارضا مستقبل اوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هـــو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم ، تدمر كل شىء بامر ربها ، فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين » (١) ٠

وهكذا نجد الاستعارات البيانية فى القرآن كثيرا وذلك لأسباب كثيرة نذكر منها ثلاثة :

أولها : أن اللغة العربية لا تتسع للمعانى النفسية الساميه فى القرآن ، فانه علم لا تدل على حقائقه الفاظ ذات دلالة معينة وكانت بلغة العرب الذين لم يصلوا هم ولا غيرهم الى الحقائق العلمية والنفسية التى يتصدى القرآن الكريم لبيانها ، وكشف عيون الحقائق فيهـــا ٠ فكان لا بد من الاستعـانة بالاستعارة من الألفاظ التى وضعت للمعانى الحسية لتكشف بهـــا العـلوم النفسية والاجتماعية والعقلية ، ولتقرب المعـــانى الى ذهن الأعـراب ، ومن هم أعلى منهم ادراكا لأنه الكتاب المبين ، وليخرج الأميين الى حيث العلم ، والى الكتاب الذى علم الانسان ما لم يعلم ٠

ثانيها : أن القرآن الكريم فيه الأخبار عن الأمور المغيبة التى وقعت فى الماضى ، والأمور القابلة ، وخصوصا ما يكون فى الجنة وفى النار من عذاب أليم ، فنعيم الجنة فيه فاكهة ونخل ورمان ، وفيها أنهار من عسل مصفى ، وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين ، وهكذا ، ولكن أهى من نوع خمر الدنيا ، وفاكهتها ، لقد ورد عن ابن عباس أنها ليست كخمر الدنيا ، وما يذكر فيها ليس من نوع ما فى الدنيا ، ولا من جنسه ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ٠

ونحن نؤمن أولا بأن نعيم الجنة حسى وعذاب النـــار حسى ، ونؤمن ثانيا ، بأن كل ذلك ليس من جنس ما هو فى الدنيا ، بل هو أعلى وأعظم ،

---

(١) الأحقاف : ٢٥ ٠

فكأن الألفاظ التى تقال عن ذلك مستعارة من الفاظ الدنيا ، ليمكن تقريبها الى النفوس والأشخاص الذين لا يرون الا المحسوس .

ثالثها : أن الاستعارة تثير صوراً بيانية فى الألفاظ والمعانى كالتشبيه ، لأنها تربط بين المعانى بعضها مع بعض وفيهانقل‌الفاظ من معان الى القريب‌منها المتناسب معها ، فوق ما يثيره من أخيلة تحلق بالتالى للقرآن فى أجواء من البيان ، اقرأ قوله تعالى فى تصوير حال من اعتراه الندم ، ولا يجد مخلصا الا أن يعترف قوله « **ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** » (١) .

فالتعبير بقوله تعالى « سقط فى أيديهم » هو استعارة فى الدلالة على الندم ، لأن النادم يحس بالسقوط ، ويحس بأنه هبط ، فشبه القرآن حالهم فى أن الندم برح بهم بمن سقط فى يده وهو دال على سقوطه فيما لا يليق ، فشبه المعنى الخاص بالندم من ألم ، ومن ظهور للخطأ ، أو الاحساس بالخطيئة بمن سقط فى يده دليل اثمه ، ولا يجد مناصا من التخلص من جرمه ، وان الصورة البيانية التى تصورها كلمة سقط ، وتبين حالهم لا يقوم مقامها كلمة ندموا .

ولقد صور سبحانه وتعالى حال أهل الكهف فى أنهم لا يسمعون .

فقال تبارك وتعالى « **فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا** » (٢) فان كلمة ضرب تدل على أن الله تعالى منع السماع ، كأنه غلق عليهم باب السمع ، وضرب عليه ، فلا يفتح سنين عددا ، وذلك يصور حالهم من أنهم لا يسمعون ما يجرى ، والناس يحسبونهم أيقاظا يحسون بما يحس غيرهم ، ولقد قال الرمانى فى معنى الاستعارة هنا ، فقال : « حقيقة معناه ، منعناهم الاحساس بآذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ ، لأنه كالضرب على الكتاب،

---

(١) الأعراف : ١٤٩ .
(٢) الكهف ١١٠ .

فلا يقرأ ، كذلك المنع من الاحساس فلا يحس ، وانما دل على الاحســـــاس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار ، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير ذهاب للبصر فلا يبطل الادراك رأسا ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع الأسماع من غير صمم فى الآذان ، لأنه اذا ضرب عليها دل على عدم الاحساس من كل جارحة يصح بها الادراك ، ولأن الآذان كانت طريقة الى الانتباه ، فلما ضربوا عليها لم يكن سبيل اليه » ٠

ومؤدى هذا الكلام أن الضرب على الآذان يفيد فقد الاحساس المطلق بعمل الله ، وهو غير الضرب على الأبصار ، لأن عدم الابصار لا يقتضى فقــد الاحساس اذ قد يكون غير مبصر باغماض ، ولكن الاسماع لا يفقده مع بقـاء الآلة سليمة الا بفقد الاحساس ، فاذا كان الله تعالى قد ضرب على آذانهم ، مع بقاء الآذان سليمة ، فان ذلك لا يكون الا بفقد الاحساس والله على كل شيء قدير٠

المجـاز والكنـاية

١١٤ ـــ المجاز يعم الاستعارة وغيرها من أنواع المجـــاز ، اذ أن المجاز معناه أن ينقل اللفظ من دلالته على المعنى الذى وضع له الى معنى آخر، لعلاقة بينهما ، مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلى ، مثل قوله تعالى ، « **فليدع ناديه** » (١) فان المكان لا يدعى انما يدعى من يحلون فى هذا المكان ٠ والقرينة الاستحالة ٠ والعلاقة هى المحلية ، أطلق المحل وأريد الحال ، ومثل قوله تعالى « **يجعلون أصابعهم فى آذانهم** (٢) والآذان لا تدخلها كل الأصابع ،

---

(١) العلق : ١٨ ٠

(٢) البقرة : ١٩ ٠

وانما أريد بعضها والعلاقة هي الجزئية أطلق اسم الكل وأريد الجزء • وهكذا •

وتختص الاستعارة من بين أنواع المجاز بأنها مجاز علاقته المشابهة بين المعنى الأصلي ، والمعنى الذي نقل اللفظ اليه وقد كان التقسيم المنطقي يوجب أن نتكلم في استعارات القرآن بعد الكلام في المجاز ذاته ، لأن الكلام في العام يسبق الكلام في الخاص ، اذ أن العام جزءا من الخاص • والخاص جزئي والعام كلي ، ومن المقررات المنطقية أن كل عام جزء لجزئية ويضربون لذلك مثلا بالحيوان والانسان ، فالانسان حيوان ناطق ، فيتكون من جزءين جزء هو الحيوانية ، والثاني النطق بمعنى العقل والادراك ووزن الأمور ، فالحيوان وهو الكلي جزء من الانسان ، وهو النوع الجزئي •

ولكن عدلنا عن منطق التقسيم في التصنيف الى تقديم الجزئي على الكلي أو الى تقديم الاستعارة على عموم المجاز لأن الاستعارة من حيث ان العلاقة فيها المشابهة كانت ضربا من ضروب التشبيه دخل فيه المشبه في عموم المشبه به فكانت المناسبة بينها وبين ما سبقها من تشبيه أقوى من دخولها في عموم المجاز •

وقدمنا الاستعارة لأنها أشهر وأكثر في القرآن ، وأكثر تصويرا لمعاني البيان ، والصور البيانية القرآنية فيها أوضح ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال ، وقد قصر عبد القاهر في كتابه دلائل الاعجاز القول على الاستعارة وما يتبعها من تمثيل وضرب للأمثال ، فقد قال رضي الله تبارك وتعالى عنه •

« وأنا اقتصر هنا على ذكر ما هو أشهر منه (أي من المجاز) وأظهر ، والاسم والشهرة لشيئين الاستعارة والتمثيل ، وانما يكون التمثيل مجازا اذا جاء على حد الاستعارة •

فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء الى اسم المشبه به فتغيره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول

رأيت رجلا هو كالأسد ، فى شجاعته وقوة بأسه سواء ، فتدع ذلك وتقول رأيت أسدا ٠

وأما التمثيل الذى يكون مجازا لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله قولك فى الرجل يتردد فى الشىء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلا ، وتؤخر أخرى، فالأصل فى هذا أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام، وجعل كأنه يقدم رجلا ويؤخر أخرى على الحقيقة ٠٠

وكذلك نقول للرجل يعمل فى غير معمل أراك تنفخ فى غير فحم ، وتخط على الماء ، فتجعله فى ظاهر الأمر كأنه يخط ٠ والمعنى على أنك فى فعلك كمن يفعل ذلك ، ويقول فى الرجل يعمل الحيلة ، حتى يميل صاحبه الى الشىء قد كان يأباه ، ويمتنع منه ، ما زال يفتل فى الذروة والغارب ، حتى بلغ منه ما أراد ، فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان من فتل ذروة وغارب ، والمعنى على أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقا يشبه حاله فيه حال الرجل يجىء الى البعير الصعب ، فيحكه ، ويفتل الشعر فى ذروته وغاربه ، حتى يسكن ويستأنس ، وهو فى المعنى مثل الرجل يقول فلان يقرد فلانا ، يعنى به أنه يتلطف له فعل الرجل ينزع القراد من البعير ليلذ لذلك ، فيسكن ويثبت فى مكانه ، حتى يتمكن من أخذه، وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحوا فيه هذا التمثيل ، ثم لم يفصحوا بذلك ، وأخرجوا مخرجه ، وان لم يريدوا تمثيلا ٠

وان الأمثال كلها من قبيل التمثيل ، وهو من باب الاستعارة ، كما قال عبد القاهر ذلك ، لأن الاستعارة ذات شعبتين ، احداهما أن تكون فى تشبيه شىء بشىء ، من غير أداة كتشبيه الرجل بالأسد ، وتشبيه شيوع الشيب فى الرأس باستعار النار فى وقودها والشعبة الثانية تشبيه حال بحال ، وهو التمثيل ، وهاتان الشعبتان تجريان فى التشبيه الذى يكون بأداة التشبيه ، كما تكونان فى الاستعارة ، اذ أنهما متلاقيان فى المعنى والاختلاف فى طريقة الأداء ٠

ومن الاستعارة التمثيلية ظهرت الأمثال التى تعد من جوامع الكلم ، فهى ليست الا تشبيه حال بحال ، فهى تشبيه حال مضربها بحال موردها ، تقول العرب الصيف ضيعت اللبن ، فموردها أن شيخا طلب يد فتاة فردتها ، وكان الزمان صيفا لكبر سنه ، ثم احتاجت من بعد الى قدر من اللبن عنده ، فقال لها الصيف ضيعت اللبن فصار مثلا ، يضرب لمن يرفض أمرا ، ثم يجىء يطلب شيئا ما كان يحتاج اليه لو لم يرفض ٠

وهكذا ، والأمثال من أبلغ كلام العرب ، لأنها تؤدى معانيها فى أوجز لفظ ، وأروع خيال ٠

١١٥ – وان عبد القاهر يعد طرق التعبير ثلاثة ، الحقيقة ، ويدخل فيها التشبيه على طريق علماء البلاغة ، وقد بينا من قبل أننا نعد الحقيقة مالا يدخل فى عمومها التشبيه ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، والاختلاف لفظى٠

والثانى من طرق البيان المجاز ، وقد أشرنا الى القول فيه ٠

والثالث من الطرق الكناية ، ويعرف عبد القاهر الكناية بأنها : « أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيؤتى به اليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم طويل النجاد ، (أى طويل علاقة السيف) يريدون طويل القامة ، وكثير الرماد يعنون كثير القرى ، وفى المرأة نئوم الضحى ، والمراد أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا فى هذا كله ــ كما ترى ــ معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا اليه بذكر معنى آخر ، من شأنه أن يردفه فى الوجود ، وأن يكون اذا كان ، أفلا ترى أن القامة اذا طالت طال النجاد ، واذا كثر القرى كثر رماد القدر ، واذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ، ردف ذلك أن تنام الى الضحى »٠

ويلاحظ فى الكناية أنه لا مجاز فى المعنى ، واللفظ على ظاهرة بادى الرأى ، ولكن لا يراد ذلك الظاهر ، وانما يراد لازمة وسماه عبد القادر رادفه،

أى أنه يفهم تبعا له ، واللزوم ليس هو اللزوم العقلى دائما ٠ بل قد يكون فى بعض الأحوال لزوما عاديا يجوز أن يختلف ، فمثلا طويل النجاد يلزم عقلا أن يكون طويل القـــامة ، ولكن كثير الرمـــاد ، لا يلزم لزوما عقليـــا أن يـــكون كثير نار القـــــدر ، فقـــد يكون وقـــود النـــار لغيـــر القدر ، ونئوم الضحى قد تكون لأنها مترفة عندها من يقوم بحاجتها ، وقـــد يكون ذلك كسلا ، أومرضا ٠٠٠ الى آخره ، ولكن الكثير فى العادة أن يكون ذلك عن ترف ٠

وقد ذكرنا فى الماضى مكان المجاز ، بكل صوره فى دلائل الاعجاز ، وقد ذكر عبد القاهر مكان الكناية فى الكلام البليغ فقال رضى الله عنه « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصـــاح ، والتعريض أوقع من التصريح ٠٠٠الا أن ذلك وان كان معلوما على الجملة فانه لا تطمئن نفس العاقل فى كل ما يطلب به العلم حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يغلغل الفكر فى زواياه وحتى لا يبقى موقع شبهة ، ولا مكان مسألة » ٠

١١٦ ـــ هذا وان هذه الطرق البيانية من تشبيه واستعارة وســـائر أنواع المجاز ، والكناية ليست فى ذاتها أصل البلاغة ، بحيث اذا وجدت فى أى قول كان بليغا ، انما البلاغة لابد أن تكون متحققة ابتداء فى مادة الكلام وفى موضوعه ، وفى صوره البيانية ، وان هذه طرق تكون جزءا من بلاغة الكلام البليغ ، وليست هى الخاصة التى تجعله بليغا ، ولو لم يكن ذا موضوع ، أو كان موضوعه من سفساف القول ، وغث المعانى ومبتذلها ، انما هى تكون مع أخوات لها فى مثل جمالها ، وجلال موضوعها » ٠

وقد ذكرنا ذلك فى ماضى قولنا فى الاستعارة فى قوله تعالى « **واشتعل الرأس شيبا** » فانا نجد أنه بلا ريب جمالا واضحا فى تشبيه شيوع الشيب فى الرأس باشتعال النار ولكن فى الحقيقة لا نجد الجمال فى هذه الاســـتعارة وحدها ، بل فيها وما معها من نظم ، وتآخ فى الكلمات وقد بين ذلك عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ، فقال فى بيان ان الجمال والجلال انما يكون فى مجموع

القول لا للاستعارة وحـــدها : « انك ترى النـــاس اذا ذكروا قوله تعالى : « **واشتعل الرأس شيبا** » لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف الا اليها ولم يروا للمزية موجبا سواها ، هكذا نرى الأمر فى ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ولا هذه الروعة التى تدخل على النفوس لمجرد الاستعارة ، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه الى الشىء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند اليه ، ويؤتى بالذى هو الفعل له فى المعنى منصوبا بعده مبينا أن ذلك الاسناد ، وتلك النسبة الى ذلك الأول انما كان من أجل الثانى ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم طاب زيد نفسا ، وقر عمرو عينا ، وتصبب عرقا ، وكرم اصلا، وحسن وجها وأشباه ذلك مما نجد الفعل فيه منقـــولا الى ما ذلك الشىء من سببه (١) ، وذلك انا نعلم أن اشتعل للشيب فى المعنى ، وان كان هو الرأس فى اللفظ كما أن طاب للنفس ، وقر للعين ، وتصبب للعرق واذ أسند الى ما أسند اليه كان لأنه سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب وان تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ فتسنده الى الشيب صريحا · فنقول اشتعل شيب الرأس ، والشيب فى الرأس ، ثم ننظر هل تجد ذلك الحسن،«وهل ترى الروعة التى كنت تراها فان قلت ، فما السبب فى أنه كان « اشتعل » اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولم تأت بالمزية من الوجه الآخر فما وجه هذه البينونة ؟ ان السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس الذى هو أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من كل نواحيه وأنه قد اســـتقر به وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شىء أو لم يبق منه الا ما لا يعتد به ، وهـــذا

---

(١) يريد عبد القاهر ان يقول ان الجمال فى اشتعل الرأس شـيبا ليس فى الاستعارة فقط انما هو ابتداء فى التمييز المحول من الفاعل · ففى ذكـر الفعل غير مسند لفاعله بل أسند لما هو فى موضع الفاعل · ثم ذكر بعـد ذلك الفـاعل الحقيقى · وهو الشيب على انه تمييز · وفى التعبير بالتمييـز يدل الفاعل اشارة الى سبب اسناد الفعل · وسبب ذكر الاشتعال ·

ما لا يكون اذا قيل اشتعل شيب الراس ، أو الشيب فى المرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة » ٠

وقد أجاد عبد القاهر فى بيان وجه البلاغة فى الاستعارة مع أردافها من مجموع الكلام ، واذا كانت هى فى ذاتها ، تجمل القول ، فان سر الاعجاز فيها ، وفى مجموع العبارات ٠

وقد ضرب الامام عبد القاهر مثلا آخر مقاربا لقوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » وهو قوله تعالى ٠ « **وفجرنا الأرض عيونا** » (١) فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه فى بيان أن التمييز بعد التعميم ولو من غير استعارة بلاغة معجزة ٠

« ونظير هذا فى التنزيل قوله عز وجل : « **وفجرنا الأرض عيونا** » التفجير للعيون فى المعنى واقع على الأرض فى اللفظ كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس ، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا ، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد صارت كلها عيونا وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها ، ولو اجرى اللفظ على ظاهره فقيل ، وفجرنا عيون الأرض ، أو العيون فى الأرض ، لم يفد ذلك ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد فار من عيون متفرقة فى الأرض ، وانبجس من أماكن منها » ٠

وهكذا يتبين من ذلك الكلام القيم أننا اذا كنا قد ذكرنا التشبيه والمجاز والكناية فليس الاعجاز لها وحدها ، بل لها مع مجموع الألفاظ والأسلوب وتناسق العبارات ، فمن كل ذلك يتكون اعجاز الذكر الحكيم ٠

الكنايات فى القرآن

١١٧ — قد تكلمنا فى التشبيه والاستعارات ، وسائر أوجه المجاز بكلام مجمل ، واقتبسنا شواهد من القرآن ، وان لم تكن كثيرة فانها منيرة ، وان لم يكن فيها استقراء ففيها غناء ٠

---

(١) القمر : ١٢

ولكن لم نتعرض للكنايات فى القرآن بقدر كاف اذا كانت الكنايات كما تدل عبارات اللغويين وعلماء البلاغة هى الدلالة على اللازم عادة أو عقلا ذكر الملزوم ، فكثرة الرماد كما مثلوا يلزمها كثرة الضيفان ، وطول النجاد يلزمه طول القامة ، فان الكنايات فى القرآن كثيرة ، ولكنها تمتاز بارادة اللازم والملزوم ، وفى ذلك كثرة المعانى مع ايجاز الألفاظ ، ولنضرب على ذلك بعض الأمثال نقتبسها من كتاب الله سبحانه وتعالى · يقول الله تعالى فى وصف المتقين ·

« وعبـاد الرحمن الذين يمشون على الأرض هـونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (١) ·

هذا وصف حسى لمشيهم ، ولقائهم يمشون غير مسرعين ، ولا متباهين بل يمشون مشيا هينا لا سرعة فيـه ولا ابطـاء ، واذا خاطبهـم الحمقى ، لا يمارونهم ولا يجادلون ، فان المراء يخل بالوقار ، وملاحاة السفهاء ليست من دأب العقلاء · هذا هو الظاهر وهو المراد ، ولكن المقصود مع هذا هو وصفهم بتقوى الله وخوفه ، والاطمئنان الى عفوه ، فيلتقى الخوف بتكبيـر الذنوب ، مع الرجاء فى العفو والغفران ·

والمعانى الثانية ملازمة للأولى ، فكان المراد ابتداء هو اللازم والملزوم فى ذاته ، ولكن السياق كان للثانى ·

ومن الاشارات الكنائية التى أريد فيها اللازم ، وذكر الملزوم كان للدلالة عليه قوله تعالى : « **الا ان أوليـاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحـزنون(٢)** » فان ذلك الكلام السامى فيه حكم على أولياء الله المخلصين له سبحانه بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وذلك مراد لا ريب فيه ، وذلك يلازمه ان يكونوا قريبين من ربهم ، قد أخلصوا له ، واستحقوا رضوانه ومن يكـون قريبا من حبيبه ، لا يخافه فى مستقبل ولا يحزن فيه على ماض وقع منه ، لأن المحبـة تجعله قريب الرجاء فى الغفران ، والطمع فى الرحمة ، وقد بين سبحـانه

(١) الفرقان : ٦٣
(٢) يونس : ٦٢

الطريق لمحبة الله تعالى ونيل رضوانه ، وهو التقوى ، فقال تعالت كلماته :
« الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة(١) » ٠

ومن كلام الله تعالى فى التنزيل ما جاء عن وصية لقمان لابنه اذ قال تعالت كلماته :

« يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خـردل ، فتكن فى صخـرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبيـر يا بنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، ان ذلك من عـزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير(٢) » ٠

وان هنا عبارتين ساميتين فيهما كناية واضحة ، وقد علمت أن كنايات القرآن تدل على اللازم والملزوم ، ويقصد أن بالعبارة الأولى قوله تعالى:« **انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله** » أنه يراد بها ما تحويه الألفاظ الظاهرة من معان عالية ، وفيها اثبات قدرة الله تعالى باخراج حبة الخردل من صخرة أو فى السموات أو فى الأرض هذا هو ما تدل عليه الألفاظ ، وهناك اللازم لهذا ، وهو اثبات علم الله الذى لا يخفى عليه خافية ، واثبات قدرة الله تعالى الذى لا يعجز عن شىء فى السماء ولا فى الأرض ، ولازم لهذا اللازم ، وهو البعث والنشور ، لأنه اذا كان سبحانه وتعالى قادرا على أن يأتى بالحبة من الصخرة أو من أى جزء فى السماء أو الأرض ، فهو قادر على اعادة ماخلق، ويتلاقى ذلك القول الحكيم مع قوله تعالى **« قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رءوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده ، وتظنون ان لبثتم الا قليلا (٣) »** ٠

---

(١) يونس : ٦٤
(٢) لقمان : ١٦ ـ ١٩
(٣) الاسراء : ٥٠ ـ ٥٢ ٠

العبارة السامية الثانية حكايته تعالى لقول لقمان : « **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض ٠٠٠ الى قوله تعالى ٠٠ ان أنكر الأصوات لصوت الحمير** (١) » فان هذه الأوامر يراد منها ما يدل عليه ظاهر الألفاظ من أنه لا يصغر خده للناس بأن يميله عن شكله ، فلا يقبل عليه بكل وجهه ، ومن أنه يقصد فى مشيه فلا يتباطأ ، ولا يسرع ، بل يسير بتؤدة واطمئنان ، ومن أنه يغضض من صوته ، فلا يتعالى ويتكلم صياحا ، ويراد أيضا معنى لازم لها وهو التضامن والاتصال بالناس رفق ومودة من غير كبرياء والا يغمط الناس حقوقهم ، والا يبطر نعمة الله تعالى ، والا يدلى نفسه بغرور ، لأن الغرور مطية الشيطان ، والسبيل الى العصيان ٠

١١٨ ــ هذا وان الكنايات فيها الاشارة البيانية التى تكون لوازم للعبارات ، ولقد قسم علماء الأصول دلالة الألفاظ القرآنية الى دلالة العبارات، سواء أكانت هذه العبارات تدل بالدلالة الحقيقية من غير تشبيه أو دلالة فيها تشبيه أو فيها مجاز ، بالاستعارة أو غيرها من أنواع المجاز . وبجوار ذلك دلالة الاشارات ، وهى دلالة للوازم ، وانه كلما كانت دلالة اللوازم كانت البلاغة ٠

ولنقبض قبضة من الآيات التى قال الفقهاء فيها ان فيها دلالة على الأحكام بالاشارة ، أى بالكناية أو بدلالة الملزوم على اللازم ، وهى تفهم كنتيجة لازمة للعبارة ، وقد قالوا فى تعريفها ان الدلالة بالاشارة هى ما يدل عليه اللفظ بغير العبارة التى تدل عليها الألفاظ ، ولكنه يكون نتيجة لازمة لما تدل عليه الفاظ العبارة ، ومن ذلك قوله تعالى : « **وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى الا تعولوا** » (٢) ٠

وان عبارة النص يفيد طلب العدالة مع اليتامى ، وافادة اباحة تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، واباحة الدخول بملك اليمين ، هذه أحكام علمت من العبارة نفسها ٠

---

(١) لقمان : ١٨ : ١٩ ٠
(٢) النساء : ٣ ٠

وهناك أحكام أخرى فهمت من لوازم العبارة ، وهى الدلالة بالاشارة التى هى ضرب من ضروب الكناية : الأول وجوب العدل مع الزوجة ، وأن الرجل لا يحل له أن يتزوج اذا لم يعدل مع الزوجة ولو واحدة ، اذا تأكد أنه لا يعدل ، والثانى الذى يدل عليه لازم الآيات أن المساواة بين الأزواج فى الأمور الظاهرة ، كالطعام والمسكن ، والكسوة ، والمبيت ،اذا عدد الأزواج واجبة ، وتدل باللازم أن عليه نفقة زوجته ، وأنه لا يتزوج الا اذا كان قادرا على اعالة زوجته .

وذكروا من الآيات التى تدل بلازم المعنى فيها آية المداينة ، فقد قال تعالى : «**يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب ، كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء ، اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا او كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى الا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح الا تكتبوها ، وأشهدوا اذا تبايعتم . ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم**» (١) .

وان الأحكام التى وردت بهذا النص كثيرة ، لا نريد أن نحصيها ، ولكن ورد فيها أحكام ليست من النص ، ولكنها لازمة للنص ، منها أن المكتوب يكون حجة على من أملاه وخصوصا انه موثق بالشهادة ، وهو حجة لمن أثبت الاستدلال بالكتابة فى المرافعات ويفيد باللزوم بأن السفية أو الضعيف الذى له ولى مال تكون عبارة الولى المالى عبارته ، ويلتزم بما تثبته .

---

(١) البقرة : ٢٨٢

ويفيد ثالثا بأن شهادة المرأة لا تسمع وحدها ، بل تسمع مع أختها التى تشهد معها ، لأن الله تعالى يقول « أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » وذلك يقتضى أن تحضرا معا لتسترشد كل واحدة بالأخرى ان ضلت ، وذلك فهم من مقتضى أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، لأنه لا يمكن أن يكون ذلك الا اذا اجتمعتا فى الأداء ، وسمعت كل واحدة كلام الأخرى ، وذلك بخلاف شهادة الرجل فانه لا بد أن يسمع كل واحد منهما منفردا ، لكيلا يومىء أحدهما الى الآخر ٠

ومن النصوص التى تدل باشارتها وعبارتها قوله تعالى : « **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ، فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلــموا أن الله بما تعملــون بصيـــر** » (١) ٠

قد فهمت الأحكام التى ذكرتها الآية الكريمة بالنص ، وفهم بالاشارة معان أخرى تلازم ما نص عليه كنتيجة له ، وما نص عليه فى العبارة هو ملزوم والثانى لازم له ٠

ومن ذلك أولا ــ أن المولود ينسب الى أبيه لا الى أمه ، لأنه المولود له ، فاللام تفيد ذلك الاختصاص ، وتفيد ثانيا ــ أن المولود لأبيه له عليه شبـــه ملكية ، فمال الولد لأبيه عليه نوع ملك فالولد كسب أبيه ، ولقد صرح بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أنت ومالك لأبيك » ويفيد ثالثا ــ أن الأب لا يشاركه فى نفقة ولده أحد وأن الولد لا يشاركه فى نفقة أبيه أحد ، ويفيد رابعا ــ أن الأصل فى الارضاع أن يكون على الأم ، ويجـــوز الاسترضاع باتفاقهما وأن أجرة الرضاعة تكون على الأب ، وتفيد خامسا ــ أن فصل الولد الذى لا ارادة له على الأم فى رضاعته يكون عن تراض منهما وتشاور ٠

---

(١) البقرة ٢٣٣

وهكذا نجد أسرار البيان القرآنى تتكشف عن طريق هذه اللوازم التى تجىء تبعا للمنطوق ، وتتفاوت فيها الأحكـام من غير أن تكلف الألفـاظ من المعانى اللازمة ما لا تطيق بتكليف التأويل ، وتجىء الأسرار القرآنية العالية التى لا تكون الا لكلام الله سبحانه وتعالى ٠

ومن الآيات القرآنية التى تدل فيها العبارات على معان من الألفاظ ، ثم تجىء لازما لها عن طريق الاشارة كما يعبر الأصوليون ٠ أو الكنايات كما يعبر علماء البلاغة ـ قوله تعالى : « **وأمرهم شورى بينهم**(١) » فان هذا النص الكريم أفاد بالعبارة أن الحكم الاسلامى وادارة الدولة الاسلامية فى اقتصادها ونظمها ، وادارتها تقوم على الشورى ، وهذا ما تفيـــده الآية بالنص ٠

وتفيد مع ذلك بطريق الاشارة ، والنتائج التى تكون ثمرة لهذا النص أو طريقا لتنفيذها ـ أولا ـ أنه لا بد أن يكون اختيار الحاكم أو الخليفة برضا المسلمين فلا تصح الخلافة الا بأختيار المسلمين ورضاهم ، ولذلك كانت البيعة فى الاسلام ، وتفيد ثانيا أنه لا ينفذ حكم أو قانون الا اذا أقرته جماعة المسلمين ، أو الصفوة المختارة منهم ، وتفيد ثالثا أنه لابد من وجود جمـاعة مختارة من الشعب اختيارا أساسه الحرية والرضا ، يكون عملها مراقبـــة الحكام ، والنظر بعين فاحصة فى أعمالهم والا يسن قانون الا برأيهم فكـل هذه لوازم لتحقيق معنى الشورى وتنفيذه ، وتفيد رابعا أن الأعمــال الفنيــة كقيادة الحرب والصناعة ، تكون ثمة تحت رقابة على القائمين بها من صفوة مختارة منهم ، يكون عملها التوجيه ٠

وهكذا تثبت هذه الأمور كنتائج لتنفيذ الأمر بالشورى ٠

وان دلالة العبارات التى يمكن معرفتها بالسنة واللغة هى المفاتيح لمـا تومىء اليه ، فلا يمكن أن تعرف أسرار القرآن الكريم الا اذا عرفت المعانى الأولى ، وان معرفة ما تومىء اليه ألفاظ القرآن من اشارات لا يكون الا بعد

---

(١) الشورى : ٣٨

الدخول الى الساحة العليا ، والارتفاع بالعقل الى المدركات الانسانية ، ولذلك يقول الغزالى رضى الله عنه ان معرفة السنة واللغة هى المفتاح الذى يدخل منه العالم الى علوم القرآن ، وفيه علم كل شىء يتعلق بالشرائع والنفس الانسانية ، وعلاج أدوائها ، واليوم الآخر ، وما أخبرنا به العـــزيز الحكيم علام الغيوب ٠

٤ ـ نظم القرآن وفواصله

١١٩ ـــ تكلمنا فى ماضى قولنا فى وصــف عام لبلاغة القـــرآن وتكلمنا فى ألفاظه ، وبينا بشواهد الآيات أن كل كلمة لها صورة بيانية فى السياق الذى سيقت له ، ثم تكلمنا عن الأسلوب ، وذكرنا مستشهدين بالآيات البينات أن كل كلمة لقف مع أختها ، ويتكون من مجموع الكلمات المتلائمة المتآخية صورة كاملة للبيان تعطيك صورة بيانية ، كل كلمة تعطيك جزءا منها ، مع كونها فى ذاتها صورة بيانية وحدها ، وضربنا لك الأمثال ٠

ثم تكلمنا من بعد على تصريف البيان القرآنى ، فبينا كيف كان التصرف فى الاستدلال على وحدانية الديان ، وبطلان عبـــادة الأوثان ، وكيف كان التنويع فى البراهين التى يسوقها ، والتى تعلو فى دقة الحكـم على الأدلة الخطابية ، وتعلو فى النسق البيانى ، والنغم الموسيقى عن البرهان المنطقى ، مع اشتمالها على أدق معناه ، وان غاير الأشكال ٠

وذكرنا الاستدلال على الوحدانية فى سياق القصص والعبرة ، ثم بينا من بعد ذلك تصريف القول بطريق القصص ، والتصــــوير القصصى للوقائع حتى كأنك ترى المشاهد ، لا أنك تقرأ القصص ٠

ثم تكلمنا فى الاستفهام القرآنى ، وخضنـا فى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والاشارة البيانية لمن يغوص فى علوم القـــرآن الكريم ، ويتعرف أسرار الحقائق التى اشتمل عليها ، سواء أكانت حقائق كونية أو نفسية ، أم كانت تتعلق بنواميس الاجتماع وتربية المجتمعات ٠

ذكرنا ذلك فى اجمال يشير ولا يحيط ، ويوجز ، ولا يفصل ٠

ولكن مع ذلك نرى للقرآن صورة هى فى الاعجاز أبعد مما سبق ، ذلك أنك اذا قرأت القرآن مرتلاً ، أو كاشفا بالصوت مع الترتيل تحس بأنه ليس من نوع الكلام الذى سمعته وتسمعه وتقرؤه ، وانك تميز بذوقك القرآن عند سماعه عن غيره ، فله نظم يعلو عن كلام البشر ، وله نغم أعلى من أن تسميه موسيقى ، يتذوقه كل فاهم ، وان كان لا يستطيع وصفه ولا تعريفه ، ولا بيان سره ، كما يذوق الذائق طعاما طيبا ، ولا يعرف اسمه ، ولا أرضه ، ولا سر طيبه ، ولكنه يحكم بطيبه وان كان تفصيل السبب لا يعرف ٠

وليس ما نقوله هو من قبيل ما فندناه من قبل ، وهو ما سمى بالصرفة فان الصرفة على قول الذين يزعمونها ، عجز عن المحاكاة أو المشابهة بصرف الله تعالى ٠ انما الذى نقوله ، هو الاعجاز من خصائص القرآن البيــانية وغيرها وان كانت البيانية أظهرها ، وهى التى تحدى الله تعالى بها العرب أن يأتوا بمثلهــا ولو مفتريات ، فالنظم والنغم ، والفــواصل ، وما يشبه الموسيقى وان كان أعلى أوصاف ذاتيه ولعلنا نتنزل بالقرآن ان سمينا ما نذكر موسيقى ، فروعة القرآن أعلى ، وذلك سبب من أسباب العجــز ، وهــو غير الصرفة ٠

لقد وجدنا للقرآن حلاوة فى الألفــاظ والأســـلوب والفواصل ، وغير الفواصل ـــ ليست فى غيره ، وهذا ما سميناه النظم تقريبا للفهم ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى ، وهو ما وصفه الوليد بن المغيرة بقوله :

ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما يقول هذا بشر » ٠

١٢٠ ـــ وبعد هذه التقدمة التى نمهد بها للقول ، نقول ان نظم القرآن ليس من أى نوع من أنواع النظم الذى يعرف عند أهل البيان ، فليس نثرا مرسلا ، وليس نثرا مصنوعا ، وليس نثرا فيه ازدواج ، كما أنه ليس نثرا مسجوعا ، وليس فيه فواصل تشبه السجع ، ولكنه شىء غير هــذا ، وغيــر ذاك ٠

ويقول الباقلانى فى كتابه اعجاز القرآن عن بديع نظمه « انه بديع النظم

عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجـز الخلق عنه .
والذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ،
ونكشف الجملة التى أطلقوها » ثم يتكلم عن الاعجاز فى النظم فيقول :

« فالذى يشمل عليه بديع نظمه وجوه :

منها ما يرجع الى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظـوم تنقسـم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالا ، فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وان لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل فيه ، ولا يتصنع له · وقد علمنا القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ، ولا فيه شىء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى أن فيه شعرا كثيرا ، والكلام عليهم يذكر بعد هذا الوضع ·

فهذا اذا تأمله المتأمل ، تبين له بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز ، وهذه خصوصيات ترجع الى القرآن وتميز حاصل فى جميعه ·

وان الباقلانى لا يكتفى بذكر ما بين أن القرآن ليس على الصفة التى امتاز بها بليغ الكلام عند العرب ، بل هو أعلى من ذلك يأتى بأبلغ الشعـر وأبينه وأجود الخطب وأوقعها ، ثم يأتى بأكمل الكتب ، ولا يكتفى بذكر كلام البلغاء ، بل بكلام صاحب جوامع الكلم وهو محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقرر أنه وان كان فوق أى كلام للبشر ، دون كتاب الله ، المعجز بكل ما اشتمل عليه ، وبكل ما فيه من لفظ ونغم وأسلوب ·

ويذكر رضى الله عنه وجها آخر من وجوه الاعجاز فى نظم القرآن وأسلوبه ، فيقول ٠

« ومنها أنه ليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر وانما تنسب الى حكيمهم كلمات محدودة ، وألفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة (قليلة أو كثيرة) يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز ، والتعسف ، وقد كان القرآن على طولة متناسبا فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عز من قائل : « **الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله**(١) » وقوله تعالى « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** (٢) » فأخبر سبحانه أن كلام الآدمى ان امتد وقع التفاوت ، وبان الاختلال ٠

وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذى بدأنا ذكره ، فتأمل تعرف الفضل ٠

وفى ذلك معنى ثالث ، وهو أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، واعذار وانذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وأخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، وتجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور » ٠

---

(١) الزمر : ٢٣

(٢) النساء : ٨٢

ثم يقول رضى الله عنه : وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسفاف فيه الى المرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما تنصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الاعجاز فى جميعها ، على حد واحد لا يختلف ، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا ، ويختلف اختلافا كبيرا ، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ، ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه (١) ٠

ويذكر الباقلانى أن من دلائل الاعجاز تفاوت كلام البلغاء فى الوصل والفصل ٠ والانتقال من معنى الى غيره ، وتقريب المعانى وتبعيدها « وأن القرآن ليس فيه ذلك النقص الذى يعرو كلام البشر ، ويختلف قوة وضعفا فى ضم المعانى وتفريقها ، والقرآن فى ذلك النمط المتسق الذى لا يجارى ٠

١٢١ ـ هذه أمور تقريبية تقرب معنى الاعجاز ، ولا تحده ، وتذكر بعض الأسباب ولا تتقصاها ، انه ككل الأمور التى نحس بها ولا نستطيع تعرف دقائق أسرارها ، فهو كتاب الله الذى يعلم السر وأخفى ، ولكنا نقر بالعجز عن الاتيان بمثله لأننا ندرك علوه ، ولا نعرف الأسباب التى علت به ٠ وليس هذا من الصرفة ، كما ذكرنا ، انما الصرفة أن تعرف قدره وقدرتنا على مثله ، ولكن ننصرف عن ذلك ٠

وان القرآن ليس من قبيل ما اصطلح عليه الناس فى علوم البلاغة ، فليس نثرا مرسلا كما ذكرنا ، لأن النثر المرسل ليس له نغم مؤتلف ، وهو فى قدرة كل انسان بليغ ، وقد تلونا عليك بعض الآيات فى الأحكام الشرعية ، فرأينا

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ٠

ائتلافا فى النغم ، وروعة فى البيان ، لا تجعلانها كلاما مرسلا كسائر الكلام ٠ فانك واجد التآخى بين الألفاظ والتناسق فى الأسلوب ، والمعانى التى تتداعى، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، وكل كلمة تومىء الى أختها ٠

ولنضرب مثلا من الكلام الذى ليس ما يشبه السجع ولا القافية ولا الازدواج ولا الشعر ، اقرأ قوله تعالى :

« ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فانى تؤفكون ، فالق الاصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (١) ٠

انك واجد فى كل كلمة مع أختها اشراقا ، وصورا بيانية ، لقد ذكر سبحانه ، كيف يفلق الحب فيكون زرعا ، اذا أتى حصاده أكل منه الانسان والحيوان ، وازينت به الأرض ، وأتت من كل زوج ، وغير ذلك من الصور والأحياء ثم التعبير بفالق النوى ، وكيف يخرج من النوى الدوحة الباسقة الوارفة الظلال ، والأشجار الدانية القطوف ، واليانعة الثمار ، ثم كيف يعطر الوجود بالرياحين والزهور من هذه النواة اليابسة ، وكيف يخرج سبحانه وتعالى من التراب أحياء ، ومن الحب الجامد والنواة الصلبة غصونا حية ، وزروعا رطبة ، وكيف تدور الحياة الى موت ، فيخرج الميت من الحى وان ذلك مرئى ، وانما ينبت الزرع ويخضر ، ويستوى على سوقه بعد أن يخرج شطأه ، ثم يصير حطاما ٠

ثم بين سبحانه أن الذى فعل ذلك هو سبحانه فى اشارات بيانية ، فيها

---

(١) الأنعام : ٩٥ ـ ٩٨ ٠

استعلاء ، وفيها توجيه بأبلغ ما يكون التوجيه ، ثم كان الختام باستفهام انكارى وتعجب ، لأن الأمر يستدعى التعجب فى ذاته ، ثم ختم الكلام بختام فيه رنات قوية لائمة فى معناها ، ومنبهة للعقول فى نغمها وفى موسيقاها ، ثم جاء بعد البيان عن الأرض وما فيها من زرع وضرع ، وباسقات ـ الى السماء ، وما فيها من بروج وأفلاك ونجوم وشمس وقمر ، وما يصدر عنها من نور وضياء ، وكان الانتقال من الأرض الى السماء بتقريب فى الألفاظ والمعانى ، فعبر سبحانه عن خروج النهار من الليل بالفجر الصادق الذى يشق الظلام ، فقال سبحانه ـ فالق الاصباح ـ وفى ذلك مقاربة فى التعبير بين فلق الحب ، والنوى، وشق النور فى الظلام ، ثم جعل من بعد ذلك نتيجة لهذا الاصباح أن كان الليل سكنا ، ووجه الأنظار الى الشمس والقمر ، فجعلهما سبيلا لحسبان الأيام والليالى والشهور ، ثم ختم النص بما يفيد ان ذلك كله من حكمة الله تعالى العلى القدير ، وهنا نجد المعنى واللفظ يختمان بختام من القول يدل على انتهاء هذا الجزء ومثله فى ذلك ـ ولكلام الله تعلى المثل الأعلى ، كمثل من يصور أجزاء كل جزء منه ناطق وحده متميز بوجوده مع الاتصال الوثيق بما يليه ، وقد كانا على مقربة بعضهما من بعض فى نسق بيانى ، لا هو من السجع ، ولا من الارسال ولا من الشعر ، ولكنه فوق ذلك ، وفيه مزايا كل واحد من هذه الأقسام مع الزيادة التى تجعل الكلام لا يطاول بيانا .

وقد ذكر من بعد ذلك زينة السماء اذ قد زينت بالنجوم كالمصابيح للأرض يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وفى ذلك اشارة واضحة الى بيان نعم الله تعالى فى اليابس والماء ، ففى الأرض زروع وثمار ، وحيوان قد سخرت لبنى الانسان ، ومن البحر تستخرج حلية ، وتأكل منه لحما طريا ، وفى السماء يهتدى بالنجوم فى دجنة الليل ، ويسير فى البحر بالجوار المنشئات كأنها الأعلام .

وختمت الآية الكريمة بما يدل على أن ادراك هذه النعم يحتاج الى علم،

وايمان بالحق ، ولا حياة لعلم بغير ايمان بالحق ، ولا حياة لايمان من غير علم ، فهما متلازمان ٠

ثم بين سبحانه خلق الانسان ، وهو كون قائم بذاته فى ادراكه ببصر وبصيرة ، وفى أصل نشأته ما يساوى أصل الوجود كله ، ولذلك قال سبحانه وتعالى « **وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون** (١) ٠

وان الله ختم الآية الكريمة بما يناسب خلق الانسان الدقيـــق الذى لا يدركه الا نافذ البصيرة ، فقال سبحانه : « **ان فى ذلك لآيات لقوم يفقهون** » فالفقه هو العلم الدقيق العميق الذى يشق الظلام حتى يصل الى الحقيقة ٠

واننا نجد من هذا أن القرآن لا يمكن أن يوصف بأنه نثر ، ولا بأنه مزدوج له فواصل ، ولا بأنه سجع له قواف ولا بأنه شعر ، فليس له أوزان ولا قواف ، بل هو ذو نظم اختص به من كل الكلام ٠

ولوحاولنا أن نعرف سر ذلك النغم وتلك الموسيقى ، وذلك التـــآخى لعجزنا أن نعرفه على وجه التحقيق ، انما نعرف تأثيره فى نفوسنا اذا تهدت ووصلت الى ذوق ذلك الأسلوب ، وذلك أمر يدرك لذوى الألباب ، ولا يعرف سره ٠

وان النظم القرآنى فى تأليفه كله له رنين الموسيقى ، لقد جرى العرب كتابا وشعراء وخطباء على أن يجدوا النغم فى فاصلة سجع أو قافية شعر ، لكن نظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه ، فحروفه متآخيـــة فى كلماته لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر ، وتسكن عندها تطمئن النفوس، والكلمات فى تآخيها فى العبارات تنتج موسيقى ونغما يختص به القرآن وحده وان أى كلام مهما يكن علو صاحبه فى البيان لابد أن يكون متخلفا عن القرآن لا يمكن أن يلحق به ، لأنه كلام الله تعالى وفوق طاقة البشر ٠

---

(١) الذاريات ٢١ ، ٢٢ ٠

ويعجبنى ما كتبه فى هذا الكاتب المؤمن مصطفى صادق الرافعى اذ يقول :
« كان العرب يترسلون فى منطقهم كلما اتفق لهم ، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت الى أن يتفق من هذا قطع فى كلامهم تفى بطبيعة الغرض الذى تكون فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقى ان لم يكن فى الغاية ، ففيه قرب من هذه الغاية .

فلما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه ، فى كلماته ، وكلماته فى جمله ألحانا لغوية رائعة ، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتهـــا هى توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى ان من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته الى ما حسبه نظما موسيقيا ، وطوى عمـــا وراء ذلك من التصرف فى اللغـــة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيبالبيانى ، كأنما فطن الى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، انما هو فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب الا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع » .

التلاؤم :

١٢٢ — ان المعنى الذى ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هو ما سماه الرمانى بالتلاؤم ، أى تكون نغمات الحروف متلائمة بعضها مع بعض فى الكلمة ، والكلمات يتآلف نغمها بعضها مع بعض ، فى الجمـل ، والجمل يتآلف بعضها مع بعض فى القول كله ، لما نرى فى القرآن الكريم ، فان الآية تتضافر ألفاظها فى نغـــم هادىء ان كانت الآية فى تبشير أو داعيـــة الى التأمل والتفكير ان كانت فى عظة ، وتتلاءم نغماتها قوية اذا كانت فى انذار ، أو فى وصف عذاب ، اقرأ قوله تعالى : « **الحاقة ما الحاقة وما ادراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأمـا عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية** » .

«وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية (١) » ·

انك ترى فى هذه الآيات الكريمات ، وهى انذار بما يكون يوم القيامة ، وما يستقبل الذين طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد من عذاب شـــديد يترقبهم ــ ترى فى النغم قوة شديدة قارعة لأسماع الذين يشركون ، ويكفرون بالله تعالى ، ويفسدون ، ويعتدون ، ويظلمون ، ويشترك فى نغمة الترهيب الألفاظ بحروفها ، والجمل بكلماتها ، والخواتم بشدة جرسها ، وقرع الأسماع بها ·

ثم اقرأ فى سورة الضحى نغمات الرحمة الواسعة ، اذ يقول سبحانه :

«والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخـرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، الم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث (٢) »

وانظر الى الآيات الداعية الى التأمل فى الكون ، وما فيه من أمور هادية تجد فيها النغمات الهادئة اللافتة الموجهة من غير قرع للأسماع ، بل بتوجيه للأفهام ، اقرأ فى سورة الغاشية ·

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت ، فذكر ، انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، الا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، ان الينا ايابهم ، ثم ان علينا حسابهم » (١) ·

---

(١) الحاقة : ١ ــ ١٠ · (٢) سورة الضحى كلها ·
(٣) الغاشية ١٧ ــ ٢٦ ·

وانك ترى فى هذا النص المبين قد اجتمع التأمل ذو النغمة الهادئة الموجهة من غير عنف فى جرس يسترعى الأسماع ويصرف الأنظار ، واجتمع الانذار الشديد القوى ، ولم يكن ثمة تنافر بين الانذار الشديد ، والتأمل السديد بل كان الانتقال من مقام الى مقام لا يبدو فيه التباين ، وان كان المقام الثانى انذارا، ذلك لأن الانذار كالثمرة للتوجيه بالنسبة لمن لم تهده الآيات ، وتوجهه النظرات الى الكون وما فيه ٠

وانك اذ تنظر فى وصف الجحيم تجده فى نغم كأنما يخرج منه ريح السموم ، وان وصف الجنة تجده فى نغمة أصواتا حلوة كأنها ريح وريحان لأنها جنة ، واقرأ بعض السورة التى تلونا منها آنفا ، وصفا للجحيم ووصفا للنعيم ، فانك واجد لا محالة الفرق فى النغم ، اقرأ قوله تعالى : « **هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ، ولا يغنى من جوع ـ وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة** » (١) ٠

تجد فى هذه النصوص وصفين لأمرين متباينين ، أولهما وصف الجحيم وأصلها ، وتجد فيه الألفاظ والمعانى والنغم ، كله يلقى بالألم فى النفس ، والخوف من العذاب الشديد ، والمصير العتيد ٠ والثانى وصف النعيم وأهله ، وترى فيها الراحة ، والاطمئنان والقرار ، والسعادة ، ويشترك فى هذا ألفاظ وجمل ومعان ، ونغم حتى كأنك ترى لا تسمع ٠

١٢٣ ـــ وان كان الكلام الذى يتسم بالبلاغة لابد أن يكون فيه التلاؤم، والتلاؤم ضد التنافر ، وعرفه الرمانى ٠ فقال « التلاؤم نقيض التنافر ، وهو

---

(١) الغاشية : ١ ـ ١٦ ٠

تعديل الحروف في التأليف ، والتأليف متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا ، ثم يضرب الأمثلة على التنافر الذى هو ضد التلاؤم، ثم يذكر أن التلاؤم الذى يكون في الدرجة الوسطى هو التلاؤم الذى يكون في كلام البلغاء وأهل الفصاحة من الناس ، أما التلاؤم في الطبقة العليا ، فانه لا يكون الا في القرآن الكريم ، ويقول في ذلك رضى الله عنه :

والمتلائم في الطبقة العليا في القرآن كله وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد احساسا بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد احساسا بتمييز الموزون في الشعر من المكسور ، واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق ، والسبب في ذلك تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما » ٠

ويستفاد من هذا الكلام أنه يرجع السبب في علو التلاؤم في القرآن كله الى التعديل بين الحروف بأن تكون الحروف متلاقية في النطق ، فليس فيها تباعد في المخارج شديد ، بحيث يصعب الانتقال من مخرج الى مخرج ، ولا التقارب الشديد الذى يجعل بعض الحروف يندغم في بعض ٠

وان ذلك ينطبق على النطق ، فالتعديل في المخارج بالبعد عن الاختلاف الشديد أو القرب الشديد ، انما هو يتعلق بالنطق وانك بلا ريب تجد ألفاظ القرآن الكريم وجمله بعيدة عن هذا كل البعد ، بل انه المثل الأعلى في ذلك ٠

وان التلاؤم في ألفاظ القرآن الكريم وجمله وآياته ومواضع الوقف فيه ليس في المخارج فقط ، بل هو فيما هو أعلى من ذلك ، انما هو في النغم ، وجرس القول وموسيقاه ، فلا تجد حرفا ينشز في موسيقاه عن أخيه ، ولا الكلمة عن أختها ، ولا الجملة عن لاحقتها ، والآية كلها تكون مؤتلفة النغم

فى الغرض الذى سيقت له ، فان كان انذارا كان النغم ارعــادا ، وان كان تبشيرا كان نسيما ، وان كان عظة كان تنبيها ، وان كان تفكيرا ، كان توجيها لافتا عما سواه ، وهكذا ٠

وقد قال الرمانى « والتلاؤم فى التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد وذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه فى الأسماع ، وتقبله فى الطباع ، فاذا انضاف الى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الاعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام ، كما تظهر له أعلى طبقــات الشعر من أدناها اذا تفاوت ما بينها وقد عم التحدى للجميع لرفع الاشكال ، وجاء على الاعتبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الاعجاز فقــال عز وجــل : « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ، وادعــوا شهداءكم من دون الله ، ان كنتم صــادقين**، ثم قال سبحانه : **فان لم تفعلوا ولن تفعلوا** » (١) فقطع بأنهم لم يفعــلوا ، وقال تعالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله** » (٢) ولما تعللوا بالعلم والمعانى التى فيه قال عز من قائل : « **فاتوا بعشر سور مثله مفتريات** »(٣) فقد قامت الحجة على العربى والعجمى » ٠

وان هذا يدل على أن العجز لم يكن لأجل المعانى فقط ، وان كانت معجزة فى ذاتها ، ولكن التحدى كان بالألفاظ والأساليب ، لأنهم أمة بليغة ولكنها أمية٠

وقد أدركوا من أول الأمر ما فى الألفاظ من جمال ، وما فى تأليف القول من نسق وانسجام ، وما فى جرسها من نغم ، ولمــا تورط بعض منهم فى أن يحاكوا القرآن ، لم يكن اتجاههم الا الى النغم أرادوا محاكاته فى نغمـــه ، فجاء كلامهم غثا ، ليس فيه نغم ولكن فيه ما يدل على ادراك سقيم ٠

---

(١) البقرة : ٢٤
(٢) الاسراء : ٨٨
(٣) هود : ١٣

الفواصـــل :

١٢٤ ــ يعرف الرمانى الفواصل بأنها حروف متشابكة فى المقاطع توجب حسن افهام المعانى ، ويقول « الفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع ، فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة ، اذ كان الفرض الذى هو حكمة انما هو الابانة عن المعانى التى اليها الحاجة ماسة ، فاذا كانت المشاكل موصلة اليه فهو بلاغة ، واذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة ، ومثله مثل من رصع تاجا ، ثم ألبسه زنجيـا ساقطا ، أو نظم قلادة ، ثم ألبسها كلبا ، وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : « والأرض والسماء والغراب الواقعـــة بنقعاء ، لقد نفر المجد الى العشراء » • وهكذا نجد الرمانى يفرق بين السجع والفاصلة ، بأن الفاصلة بلاغة ، وأن السجع عيب ، وأن الفواصل الألفـــاظ فيها تتبع المعانى ، والسجع الألفاظ فيها مقصودة ، والمعانى تابعة ، ويظهر أنه لم يكن بين يديه الا سجع الكهان ، ولكن أكل السجع كذلك ، وألا يوجد سجع يزيد المعانى قوة ، وتكون فيه المعانى هى المتبوعة ، وليست تابعة ، وأن السجع يزيد المعانى ، ويعطيها قوة ويسهل قبولها ، ويكون بابا من أبواب تأكيدها •

ولذلك خالف الرمانى فى ذلك الكلام الذين كتبوا البلاغة من بعد ، وقبل أن نخوض فيما قالوه ، نقـــرر أن الفرق ، هو بين الفواصل والسجع ، ان الفواصل معناها أن تكون مقاطع الكلام متقاربة فى الحروف كالنون والميم فى قوله تعالى « **الرحمن الرحيم مالك يوم الدين** » وأما السجع فهـــو أن تكون المقاطع متحدة فى الحروف ، ونلاحظ أن الرمانى متأثر فى فكرة السجع بسجع الكهان الذى قصد به اتحاد الحروف من غير نظر الى المعنى ، ومن غير أن تكون المعانى فى ذاتها ذات قيمة ، بل لا يقصدون الا الى رص الكلمات متحرين اتحاد المقاطع •

وأنه عند التحقيق نجد أن الفواصل أعم من السجع ، فهى اما سجع تتحد فيه حروف المقاطع أو مجرد فواصل تتقارب فيها حروف المقاطع ، وذلك رأى ابن سنان فى كتابه سر الفصاحة(١) فهو يقول : ـ الفواصل ضربين : ضرب يكون سجعا ، وهو ما تماثلت فيه حروفه فى المقاطع ، وضرب لا يكون سجعا، وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ، ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين من انه يأتى سهلا طوعا وتابعا للمعانى ، وبالضد من ذلك ، حين يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فان كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة، وحسن البيان ، وان كان الثانى فهو مذموم.

وان هذا الكلام معناه أنه ليس كل فاصلة تكون الألفاظ تابعة للمعانى ، فيكون الحسن والافصاح والاحسان وليس كل سجع تكون المعانى تابعة للألفاظ ، فيكون التكلف ، بل التعميم بالحسن فى غير السجع والقبح فى السجع هو الخطأ ، ولا شك أن فواصل القرآن كلها من البليغ الذى تكون فيه الألفاظ تابعة للمعانى .

وأنه بلا ريب فى القرآن مقاطع تتحد فيها الحروف ، ومقاطع أيضا لا تتحد فيها الحروف ، ولكن تتقارب ، ومن المقاطع التى تتحد فيها الحروف قوله تعالى فى سورة الغاشية « **هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة ،لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة** » (٢) . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : «**والطور وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، ان عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع** » (٣) .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٦٥ .　　(٢) الغاشية : ١ ــ ١٦ .
(٣) الطور : ١ ــ ٨ .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « **والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فاثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا ، ان الانسان لربه لكنود ، وانه على ذلك لشهيد وانه لحب الخير لشديد** » (١) ·

وهكذا نجد اتحاد حروف المقطع ، فى مقطعين أو أكثر ، ثم تتغير الى اتجاه المقاطع فى حرف آخر ، ومن القرآن ما تتقارب فيه المقاطع ، مثل قوله تعالى « **ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أئذا متنا ، وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج ، أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج** » (٢)

اننا لا نجد المقاطع متحدة الحروف ، ولكن نجد أمورا ثلاثة :

أولها ــ تقارب مخارج الحروف فى المقاطع ، فالدال والباء ، والظاء مخارجها واحدة النطق فيها متقارب ، ولا نفرة بينها ·

ثانيها ــ وجود حرف المد قبل الحرف الأخير من كل مقطع ، وهو حرف الياء فى خمسة منها ، وواحد بالواو والوزن فى الخمس الأول منها هو وزن فعيل ·

وبهذين الأمرين كان التقارب فى المقاطع ، تقاربا بينا يجعل نسق القول واحدا ، ولو لم تتحد المقاطع ·

والأمر الثالث هو اتحاد النغم والموسيقى فى كل المقاطع ، فهى كلها مؤتلفة فى حروفها وألفاظها ،وجملها ومقاطعها ، حتى كونت صورة بيانية تجعل كلام الله العزيز فوق كل منال ·

---

(١) العاديات : ١ ــ ٨ (٢) ق : ١ ــ ٦

وقد يكون الكلام فى القرآن خاليا من المقاطع فى بعض الآيات ، ولا ينزل فى نغمه وموسيقاه عن سمته ومستواه الأعلى ، ومن ذلك قوله تعـالى : **« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فىالانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ،فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفـار ، وعد الله الذين آمنـوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » (١) ·**

ومن ذلك كثير من آيات الأحكام مثل آية المواريث ، فالله تعالى يقول : **« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثـل حظ الأنثيين فـان كن نسـاء فوق اثنتين ، فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما · ولكم نصف ما ترك أزواجكم ، ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله اخ أو أخت فلكل واحدمنهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ، تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم » (٢)**

---

(١) الفتح : ٢٩ ·

(٢) النساء : ١١ ــ ١٣ ·

واننا لا نجد فى هذا الكلام الا مقطعين لا يعدان فواصل متقاربة ، ولا فواصل متحدة فى آخرها بحروفها ، انما هو كلام الله المنثور من غير ارسال ، بل النغم متآخ ، والمعانى متلاقية ، والألفاظ متجانسة ، ومتلائمة مع بيـــان للأحكام ميسرا سهلا ، فلم ينزل ذكر الأرقام ، بمرتبة الكلام ، عن حد التلاؤم والتآخى ٠

أفى القرآن سجع ؟

١٢٥ ــ الأمر الذى لا مراء فيه أن القرآن الكريم فيه فواصـــل قد تتحد فيها حروف المقاطع ، أحيانا وقد تلونا فيما مضى من القول آيات بينات فيها من المقاطع متحدة الحروف ، فهل تعد هذه سجعا ؟ اختلفت فى ذلك عبارات كتاب البلاغة فى القديم ٠

ونجد الرمانى يحكم بأن القرآن فيه فواصل ليست من السجع ، وبذلك يعلو القرآن فى نظره عن أن يكون سجعا ، ويقاربه فى ذلك الرأى أو يوافقه الباقلانى فى كتابه دلائل الأعجاز ، وسنعود الى الاستدلال لذلك الرأى ان شاء الله تعالى ٠

ولكن الآن نتكلم فى وجهة نظر الذين أثبتوا أن القرآن فيه سجع وان كان أعلى مما يستطيعه الناس أو يزاولونه ٠

ومن هؤلاء أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين ، فهو يقـــول :

« وجميع ما فى القرآن مما يجرى على القرآن من التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة ، لما يجرى مجــراه من كلام الخلق ، ألا ترى قوله عز اسمه « **والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا** (١) » ٠ قد بان عن جميع

---

(١) العاديات ١ ــ ٥ ٠

أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن :« والســـماء والأرض ، والقرض والفرض ، والغمر والبرض » ومثل هذا من السجع مذموم ، لما فيــه من التكلف والتعسف ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل أندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل : « أسجعا كسجع الكهان، لأن التكلف فى سجعهم فاش ، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه ســـجعا لقال : أسجعا ثم سكت ، وكيف يذمه ويكرهه ، واذا سلم من التكلف ، وبرىء من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليــه من كلامه عليه السلام » ٠

ونرى من هذا أن أبا هلال العسكرى يخالف الرمانى فى أن السجع كله مذموم ، بل منه المذموم الذى يظهر فيه التكلف ، ويرهق الألفاظ والمعانى ، حتى يحاول القائل أن يكون كلامه رصا غير متماسك بملاط من المعانى ٠

ويرى أنه لا مانع من أن يوصف القرآن بأن فيه سجعا ، ولكنه ســجع فى أعلى مراتب الكلام ، بحيث لا يمكن أن يجاريه أحد ، ولا يصل الى علوه أحد من الخلق ٠

وابن سنان فى كتابه سر البلاغة يسمى ما فيه المقاطع متحدة ســجعا ولكن فى درجة العلو القرآنى الذى لا يستطيع أحد أن ينهد فى كلامه اليه ٠

ويسوق نصوصا قرآنية يعدها من السجع منه ما تلونا ، ومنه قوله تعالى: **« والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر »**(١) وقوله تعالى : **« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فاكثروا فيها الفساد (٢) »** ٠

---

(١) الفجر ١ ـ ٥ ٠
(٢) الفجر ٦ ـ ١٢ ٠

ويقول ابن سنان أن نغم السجع كان مقصودا ، فقد حذفت الياء فى يسر، وحذفت الواو ، وذلك صحيح فى اللغة ، ويقول قصد اليه طلبا للموافقة فى الفواصل ·

ويستدل أيضا بقوله تعالى : « **اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** » (١) ·

ويتكلم ابن سنان فى البواعث التى بعثت الذين ينـــكرون أن يكون فى القرآن سجع ، فيحمد تلك البــواعث مع الاصرار على المخالفة فيقـــول : وأظن أن الذى دعا أصحابنا الى تسمية كل ما فى القرآن فواصل ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا ، رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض فى التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيـــــره فى كونه مسجوعا ، وبين مشاركة جميعه فى كونه عرضا وصوتا وكلاما عربيا مؤلفا ، وهذا مما لا يخفى ، فيحتاج الى زيادة فى البيان ، ولا فرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع ·

ويقول فارضا اعتراضا ، واردا عليه ، فاذا قال قائل « اذا كان عندكم أن السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعا ، وما الوجه فى ورود بعضه غير مسجوع ! قيل ان القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم ، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعا لما فى ذلك من أمـــارات التكلف والاستكراه ، والتصنع ، لا سيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعا ، جريا على عرفهم فى الطبقة العالية من الكلام ، ولم يخل من السجع ، لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة التى قدمناها ، وعليها ورد فى فصـــيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عاليا فى الفصاحة ، وقد أخل فيه شرط من شروطها، وهذا هو السبب ، فأورد القرآن مسجوعا ، وغير مسجوع » ·

---

(١) القمر ١ ـ ٢

ونحن لا نفرض احتمال التكلف فى القرآن قط ، لأنه من عند الله تعالى ولكن نقول هكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون هكذا كتابه ، واذا أردنا أن نلتمس حكمة لذلك ، فهى فيما قال سبحانه « **ولقد صرفنا فى هـــذا القرآن للناس من كل مثل** » فتصريف القول فى القرآن ، كان من جماله الذى يعلو على كل البشر ، بأن يكون تصريف القول فيه بسجع أحيانا ان ارتضينا مذهب السجع ، أو الفواصل المتقاربة حروفها فى المقاطع أحياناأو اطلاق الألفاظ فى القرآن ، من غير مقاطع ، مع ملاحظة أن ذلك كله فى أعلى درجات البلاغة التى لا يصل اليها أحد من البشر ٠

وابن الأثير فى كتابه المثل السائر يستنكر قول الذين يذمون السجع ، ويستنكر قول الذين لا يسمون ما فى القرآن من اتحاد المقاطع فى الحروف سجعا ، ويقول فى ذلك :

« وقد ذمه بعض أضحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به ، والا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم ، فانه قد أتى منه بالكثير ، حتى انه ليؤتى بالســـورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن ، وسورة القمر وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة ٠

وترى أنه يستحسن السجع، ويرمى الذين لا يستحسنونه بأنهم لا يجيدونه ونقول انه لا يمكن أن يكون حسنا فى كل الأحوال ، فمثلا بيان الأحـــكام الشرعية فى أى كلام بليغ لا يصح أن تكون سجعا ، ولكل مقام مقال كمـــا يذكر علماء البلاغة ٠

وخلاصة ما يقرره المثبتون للسجع فى القـــرآن أنهم يعتمدون على ما يتلونه من اتحاد الحروف فى مقاطع القرآن ، ويقررون مع ذلك أن سجع القرآن أعلى من كلام البشر ، فليس على شاكلة مثله فى كلام الناس ، لأنه أعلى من كلام الناس ٠

١٣٦ ـــ من هذه النقول التى نقلناها نجد الذين يقررون أن فى القرآن سجعا يعتمدون أولا ـ على نصوص القرآن التى ثبت فيها أو الفواصل المتحدة فى الحروف كثيرة فى القرآن ، وثانيا على أن السجع ليس عيبا فى القول ، ولكنه من محسنات القول ، وقد وقع كثيرا فى كلام العرب الجيد وانه لم يكن سجع الكهان هو السائد فقط ، بل كان من بلغاء العرب من اتجه الى السجع البليغ ، فقد روى عن أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لسيف بن ذى يزن :

« أنبتك الله منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، ونبت زرعه فى أكرم موطن ، وأطيب معدن » ٠

وان الذين نفوا السجع من القرآن قالوا انه مذموم ، وعلى رأسهم الرمانى ، وجاء من بعده أبو بكر الباقلانى ، فنهج ذلك المنهج وسار على ذلك الخط ، ونسبه الى الأشاعرة ، فقال :

« ذهب أصحابنا كلهم الى نفى السجع فى القرآن ، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى غير موضع من كتبه ٠

واذا كان الذين ردوا على الرمانى قد بينوا أن السجع ليس مذموما على اطلاقه ، انما المذموم منه سجع الكهان ، وما كان فيه اللفظ هو المقصود ، والمعنى تابع له ٠

وقد انكر الباقلانى أن يكون فى القرآن سجع ، وما ادعوه من سجع فيه وساقوه ، هو وهم لا أساس له فقال :

« والذين يقدرون أنه سجع هو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع ، وان لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا ، يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ

لا يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون السجع منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع ، كانت افادة السجع كافادة غيره ، ومتى انتظم المعنى نفسه دون السجع كان مستجلبا لتحسين الكلام دون تصحيح » ٠

واننا هنا نجد افتراقا بين الباقلانى وابن الأثير وابن سنان وأبى هلال العسكرى فى تعريف السجع ، فأولئك يعتبرون السجع ما اتحدت فيه ألفاظ المقاطع ، سواء أكان المعنى هو المقصود ، وجاء الاتحاد تحسينا للقول ، أم كان المقصد هو اللفظ واتحاد ألفاظ المقاطع هو المقصود ، وفى الأول يكون السجع محمودا ، وفى الثانى لا يكون لائقا بمقام القرآن الكريم ٠

أما الباقلانى وسائر الأشاعرة ، ومن سلك طريقتهم ، فانهم لا يذكرون السجع الا فى الصورة التى يكون فيها اللفظ مقدما على المعنى ٠

وان الذى دفع الباقلانى الى هذا هو تشبيه السجع بالشعر، فالشعر تقصد فيه القوافى والمقاطع المتحدة فى الألفاظ ثم تكيف المعانى على الألفاظ ليستقيم المقطع ، كما تستقيم القافية ، واذا كان الشعر منفيا فى القرآن بالاتفاق فكذلك السجع الذى ينهج منهجه ، ويتبع طريقته ، وتجىء المعانى تابعة للألفاظ مكيفة بكيفها ، مأخوذة بطريقها ، وان الله تعالى عندما استنكر أن يكون قول شاعر ولا كاهن ، أدخل السجع فى النفى ، وهو السجع الذى يكون فيه المقصد الأول للفظ ٠

وانه اذا كانت الفكرة نفيا أو اثباتا قائمة على الاختلاف فى الاصطلاح ، فانه قد زال الخلاف ، اذ لا مشاحة فى الاصطلاح ٠

وبذلك ننتهى الى الاتفاق على أن القرآن فيه فواصل تتحد فيها المقاطع ولعلوها وسموها فى البلاغة كانت المعانى هى المقصد الأول ، وجاءت الألفاظ بجمالها واشراقها وحسن نغمها ، ورنة موسيقاها تابعة لذلك ، وقد يكون اتحاد

المقاطع فى الحروف من مظاهر الجمال وحسن النغم ٠ وانسجام الموسيقى وفى ذلك قوة التأثير ، بما لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ٠

وعلى ذلك نقول ان من يفسر السجع بأنه الاتحاد فى حروف المقاطع من غير أن يكون المعنى تابعا للفظ يحكم بأن القرآن الكريم فيه سجع فوق قدرة البشر أن يأتوا بمثله ، ومن يقول ان السجع كالشعر يكون المعنى فيه تابعا للقافية والأوزان يكون القرآن الكريم منزها عنه ٠

ونحن نميل الى أن اتحاد المقاطع فى القرآن لا يعد سجعا ، لأننا نرى السجاعين يتجهون الى الألفاظ أولا ، وقد يكون سهلا وحلوا ولكن الاتجاه فيه أولا الى الألفاظ ، وذلك غير لائق بالنسبة للقرآن ٠

١٢٧ — وبذلك يكون الحكم فى أمر اتفق الطرفان المتخاصمان فيه على تقديس القرآن الكريم ، وتنزيهه عن أن يكون مشابها لكلام الناس ، وان كان من جنسه ، ومكونا من حروفه ٠

ونختم الكلام بكلام لكاتبين مؤمنين قال أحدهما فى وصف ألفاظ القرآن ونظمه ، وقال الثانى فى فواصله ومقاطعه ، أما الأول فالباقلانى ، فقد قال :

« ان القرآن سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريبا الى الأفهام ، يبادر معناه لفظه الى القلب ، ويساوق المغزى منه عبارته الى النفس ، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه فى نفسه ، ولا موهم مع دنوه فى موضعه أن يقدر عليه ، أو أن يظفر به ، فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبتذل ، والقول المسفسف يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة ، فيطلب فيه ولكنه أوضح مناره ، وقرب منهاجه ، وسهل سبيله ، وجعله فى ذلك متشابها متماثلا ، وبين مع ذلك اعجازه فيهم » ٠

أما الثانى فهو الكاتب المؤمن مصطفى صادق الرافعى رحمه الله ورضى عنه فهو يقول فى فواصل القرآن ومقاطعه ٠

ما هذه الفواصل التى تنتهى اليها آيات القرآن ؟ ما هى الا صورة تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا ، يلائم الصوت والوجه الذى يساق اليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمد ، وهو كذلك طبيعى فى القـــرآن ٠٠٠ قال بعض العلماء : كثير فى القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين ، والياء والنون، وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك ٠ كما قال سيبويه انهم (أى العرب) اذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك اذا لم يترنموا ، وجاء ذلك فى القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع ٠٠٠ فاذا لم تنته بواحدة من هذه (بالميم والنون والمد) كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة ، وتقطيع كلماتهـــا ، ومناسبته للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه ٠ وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده الا فى الجمل القصار ، ولا يكون الا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو السفير ، أو الصفير أو نحوهما مما هو صروف أخرى من النظـم الموسيقى ٠

وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ٠ ثم لا يجد من النصوص على أى حال الا الاقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره ، ولما وجد أثر يتعدى أهل هذه اللغة الغربية الى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر ، لكان ذلك خللا بينا ، أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن ، وجرس النغمة ، وفى حس الســـمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند الحروف ،

وافضاء بعضها الى بعض ، ولرايت لذلك هجنة فى السمع كالذى تنكره من كل مرئى لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب ما بقى منها الى جهات متناكرة » ٠

وان هذا الكلام يفيد فائدتين : احداهما ــ أن موسيقى القرآن الكريم وتغماته هى التى استرعت أسماع العرب ، واستهوت نفوسهم ، ورأوا لهـــا حلاوة ، وعليها طلاوة ليست من الشعر ، وان علت على أعلى ما فيه ، وليست من نوع كلامهم البليغ وان كانت من جنس كلامهم وأن ذلك التأليف فى النغم والجرس مع علو المغزى ، والمعنى ، واحكام التعبير ، ودقة الاحكام ، لا يمكن أن يصل اليه أحد ٠

وقد يقول قائل هل هذه الأنغام المؤتلفة مقصودة فى ذاتها ، وهى الاعجاز فنقول اننا مهما نحاول فى رد الاعجاز الى اسباب لا نجد سببا واحدا بذاته هو الذى اختص بالاعجاز ، بل تضافرت فى ذلك الأسباب ، وكل واحد منهـــا يصلح سببا قائما بذاته ٠ ولكن نؤكد أن جرس المقاطع والحروف والكلمات والجمل ، والفواصل ، وأبعادها كل هذا فيه اعجاز للعرب عن أن يأتوا بمثلها ٠

وان الدليل على أن جرس الآيات القرآنية بما حوت من حروف وكلمـات هو من الاعجاز أن الله تعالى أمر بترتيل القرآن لا بمجرد القراءة ، فقد قال الله تعالى : « **ورتل القرآن ترتيلا** » وبين سبحانه أن ترتيل القرآن بتعليم من الله تعالى ، فقد قال تعالت كلماته : « **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ٠ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا** (١) » فالله تعالى علم نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم علم أمته ذلك الترتيل ، وليس الترتيل مجرد القراءة ، انما الترتيل قراءة منغمة تنغيما يظهر التناسق فى الحروف والجمل والآيات ويكشف معانيها ، ونغماتها ، وتلك هى موسيقى القرآن ٠

---

(١) الفرقان : ٣٢

الفائدة الثانية التى يفيدها أن اعجاز القرآن لغير العرب هو بنغمه وجرسه الموسيقى ، فان الموسيقى لغة الانسانية ، وتهتز لها كل القلوب ، ونحن نوافقه فى اتجاهه الى أن القرآن معجز للعرب وغيرهم ، ولكن لا نقصر اعجاز غير العرب على الموسيقى وحدها ، بل نقول ان ذات العبارات ، وشرائعه ، والعلم المبثوث فيه ، وكونه من أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ فى بلد أمى ليس فيه معهد ولا مدرسة ـ هذا كله فيه الدلالة على أنه من عند الله تعالى ٠

الايجاز والاطناب فى القرآن

١٢٨ ـــ ان القسمة العقلية للكلام كثرة وقلة بالنسبة لمعناه نحصره فى أربعة أقسام ، أولها الايجاز بأن تكون الألفاظ قليلة والمعانى كثيرة وثانيها التقصير بأن تكون الألفاظ غير كافية للدلالة على المعانى ٠ وثالثها الاطناب بأن تكون المعانى كثيرة ، والألفاظ كثيرة لا حشو فيها ٠ ورابعها التطويل ، وهو أن تكون الألفاظ كثيرة وفيها ما لا حاجة اليه ، وهذه الأقسام الأربعة من الناحية البلاغية متقابلة ، فالايجاز والتقصير متقابلان ، وأولهما باب من أبواب البلاغة ، وثانيهما عى فى القول ، ونقص فى البيان ٠ والاطناب والتطويل متقابلان ، وأولهما بلاغة وحسن أداء ، وثانيهما عى وعيب فى البيان ، يدفع الى الملل والسآمة ، حتى يتبرم به السامع ٠

وقد ذكر الرمانى هذه الأقسام المتقابلة ، كل مع ما يقابله ، فقال : « والايجاز بلاغة والتقصير عى ، كما أن الاطناب بلاغة والتطويل عى ، والايجاز لا اخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لابد فيه من الاخلال ، فأما الاطناب فانما يكون فى تفصيل المعنى ، وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، فان لكل واحد من الايجاز والاطناب موضعا، يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة اليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب ، وعى ، لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل فكان كالسالك طريقا بعيدا ، جهلا منه بالطريق القريب ، وأما الاطناب فليس كذلك ، لأنه كمن

سلك طريقا بعيدا لما فيه من النزهة الكثيرة ، والفوائد العظيمة ، فيحصل فى الطريق على غرضه من الفائدة ، على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب » ٠

وانه يستفاد من هذا الكلام ان الاطناب هو فى زيادة المعـــانى ، لا فى زيادة الألفاظ ، فان اللفظ اذا زاد لا يكون الكلام من الاطناب البليغ المستحسن الا اذا زادت معه المعـــانى ، وذلك يكون بتفصيل القول ، لا باجماله ٠ اقرأ قوله تعالى : « **وما تلك بيمينك يا موسى ، قال هى عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى** (١) » اننا نرى هنا اطنابا حلوا تترطب به الألســـنة والأســـماع ، كان الايجاز أن يقـــول هى عصـــاى ٠ وبقيـــة المعانى تفهم ، ولكن محبة موسى لربه ، ورغبته فى أن يطيل المحادثة ، صرح بما يفهم ضمنا ، وبما يعلمه الله تعالى من غير بيان ٠

واقرأ مرة أخرى ما قاله موسى عليه السلام عندما كلفه ربه أن يقوم بحق الرسالة ، فقد قال راغبا فى حديثه مع ربه : « **رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا ، قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى ، اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى، اذ تمشى أختك ، فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ، وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسى** (٢) ٠

وهنا نجد فى هذا الكلام اطنابا فى خطاب كليم الله تعالى لربه ، فهو لا يكتفى بالملزوم حتى ينطق باللازم ، لأن الخطاب محبب الى نفسه لأنه يخاطب ربه فيسهب فى القول من غير تزيد ٠

---

(١) طه ١٧ ـ ١٨ ٠ (٢) طه : ٢٥ ـ ٤١ ٠

ثم تجد بعد ذلك فى كلامه ايجازا غير مخل ، قد حذف منه ما صرح به فى آيات أخر من قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فذكر أن أخته قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، ولم تذكر أنه حرم عليه المراضع ، وقد عرف هذا من الآيات الأخرى ، وفهم من هذه الآية ، اذ أنه لا يمكن أن يكونوا فى حاجة الى من يكفله لهم ، الا اذا احتاجوا الى ذلك ، وحذف من قبل كلام امرأة فرعون ، وقد فهم ضمنا من قوله تعالى « **والقيت عليك محبة منى** » .

وذكر هنا قتله نفسا ، وطوى ذكر ما كان منه عند ما بلغ رشده ، ورؤيته رجلا من شيعته يستغيثه فأغاثه وقتل الذى من عدوه ، ثم طوى سبحانه وتعالى خبر الائتمار به ليقتله المتآمرون ، ثم خروجه ، والتقاؤه بابنتى شعيب وسقيه لهما ، ومجيء احداهما تمشى على استحياء ، ثم زواجه ، على أن يكون المهر عمله ثمانى حجج أو عشر ، ثم ايناسه بالنار ثم مكالمة الله تعالى ، وقد ذكر كله فى قوله تعـــــالى « **فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر ياموسى ، واصطنعتك لنفسى** » (١) .

وهكذا نجد أن الاطناب لا يكون بكثرة الألفاظ فقط ، بل بكثرتها مع كثرة المعنى ، والايجاز لا يكون بكثرة المعانى فقط ، بل لابد أن يكون فى الألفاظ دلالة واضحة على المعانى الكثيرة ، أو أن تكون هذه المعانى ذكرت فى مقام آخر من القرآن ، فان القرآن الكريم كل كامل لا تنقص معانيه ، ولا تستغلق على قارئيه، وقد يحذف القول فى مكان ، لأنه يفهم بدلالة الأولى فى مكان آخر .

وبين أيدينا فى هذا الباب آيات فى الميراث .

لقد قال تعالى فى ميراث الأولاد : « **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة**

---

(١) طه ٤٠ ـ ٤١ .

فلها النصف » (١) ، ونرى هنا أن النص الكريم ذكر أن ميراث الواحدة اذا انفردت النصف ، وميراث الأكثر من اثنتين الثلثان ، ولم يذكر الميراث اذا كانتا اثنتين فقط ، ولم تزيدا عن اثنتين ، أيكون النصف أم يكون الثلثين ؟

لقد تبين ذلك فى ميراث الأخوات ، فقد قال تعالى : « **يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ، ان امرؤ هلك ، ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم (٢)** » .

وهنا نجد الايجاز المحكم ، فنجد فى الآية الأولى تحذف ما يفهم بالأولى من الآية الثانية ، ويحذف من الثانية كذلك ، فقد ذكرت الآية حكم ما فوق الاثنتين ، ولم تذكر حكم الاثنين ، وهو ما بين فى الآية الأخرى لأنها ذكرت أن ميراث الاثنتين هو الثلثان ، واذا كانت البنت أقرب الى الميت من الأخت فيكون ميراث البنتين بدلالة الأولى ، لأنه اذا كانت الأختان وهما أبعد تأخذان الثلثين ، فأولى أن تأخذهما البنتان الاثنتين ، لأنهما أقرب ، فلا يمكن أن يكون نصيبهن أقل من الثلثين .

والآية الأولى نصت على أن الأكثر من بنتين تأخذان الثلثين ، فلا زيادة عن الثلثين ، فالأولى بألا يزيد عن الثلين نصيب الأكثر من أختين لأن الأكثر من اثنين من ذوى القرابة القريبة لا يزيد عن الثلثين ، فأولى ألا تزيد عن ذلك ذوات القرابة الأبعد .

وأمثال ذلك كثير فى القرآن ، ومنه قوله تعالى « **والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك** (١) » ، وهذه حال المطلقة الحامل

---

(١) النساء : ١١
(٢) النساء : ١٧٦ .

وذلك ايجاز لا تفصيل فيه ، وبينت حال الحامل ، فى قوله تعالى : « **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** » (٢) ٠

١٢٩ — وان الأمر الذى يجب أن نعرفه ونؤمن به ونؤكده ، وهو الذى يليق ببلاغة القرآن التى لا يسامى ، ولا تناهد ، وتتحدى بها الأجيال كلها ــ فى كل اللغات ــ أن الايجاز ليس فيه قصور فى الألفاظ بجوار كثرة المعانى ، وليس فيها ابهام أو عدم وضوح ، بل الألفاظ تكون على قدر المعانى مع كثرتها ، فهى واضحة الدلالة ، كما أن المعانى وفيرة غزيرة مغدقة ٠

وان الاطناب كذلك فان المعانى تكون كثيرة ، والألفاظ على قدرها لا زيادة فيها بحيث لا يمكن الاستغناء عن بعضها والاكتفاء ببعضه ، بل انك لو أردت حذف كلمة ، بل حرف من كلمة لأحسست بأنك قطعت جزءا من الصورة البيانية : فلا تكون الصورة كاملة بدونها ، بل تحس بفراغ فى مكانها لا بد أن يملأ ٠

واذا كان الاطناب مع كثرة الألفاظ على قدر المعانى بحيث لا يستغنى بكلمة عن كلمة ، والايجاز كذلك ، فما الفرق اذن بينهما ، ولم يكن ثمة حاجة لأن يقسم بيان القرآن الى ايجاز واطناب ، وقد اتفق علماء البلاغة على أن فى القرآن الكرم النوعين ٠

واننا نقول فى الجواب ، ان الايجاز والاطناب طريقان للبيان ، كل منهما واف فى موضعه ، يؤدى الغرض الأول فى موضعه ، وهما يتباينان لا يجمعهما الا البلاغة البينة الواضحة ، وكل له مقامه ٠

ولنوضح الفرق بينهما فى الحقيقة ، ثم نوضح الفرق بينهما فى مواضعهما من القرآن الكريم ٠

---

(١) البقرة : ٢٣٨ ٠

(٢) الطلاق : ٤

فالفرق بينهما فى الحقيقة أن الايجاز يكون بحذف كلمة دلت القرائن عليها مع الوفاء فى حذفها ، كالوفاء فى ذكرها ، والباغة تكون فى الحــــذف فى مقام البيان ان كانت الدلالة قائمة ، والقرائن مثبتة ، ويكون فى الحــذف فائدة لا توجد مع ذكر المحذوف كقول الله تعالى عن قول اخوة يوسف لأبيهم : « **واسئل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها وانا لصادقون** » (١) ٠

وان القرية وهى مجموع المساكن والطرقات لا تسأل انما يســـــأل من فيها ، بل يسأل بعض من فيها ، وذلك دليل على أن المسئول هو البعض ، فهنا ايجاز بالحذف ، ولا نقص بذلك الحذف ، بل فيه زيادة معنى ، وهو أن الأمــر شائع عام للجميع ، وكأن كل من فى القرية يعرف حتى البنيان ، والمســـاكن والأسواق ، أى ذلك أمر معروف ، لا موضع للكذب فيه ٠

وحقيقة الاطناب أن المعانى تكون والألفاظ على قدر واحد فى الكثرة ، والألفاظ بناء متكامل لا ينقص منه لبنة ، ولكن الاطناب يكون متجها الى تفصيل الألفاظ فى الدلالة ، فلا يستغنى بلازم عن ملزوم ، ولا بملزوم عن لازم ، ولا بعام عن خاص ، ولا بخاص عن عام ، ولا بدلالة الأولى عن نص اللفظ ، ولا بالاشارة عن العبارة ، بل كل مايقتضيه المقام يجيء فى وضوح كامل ، لا يكتفى فيه بالتضمن ، ولا بالاشارة ولا بالالتزام ، ومثال ذلك فى الحسيات ، وان كان لكلام الله تعالى المثل الأعلى أن تطلب من شخص وصف قصر ، فيصف أبعاده ، طوله وعرضه ، وارتفاعه وزيناته ، ثم يصف الغرفات غرفة غرفة ، ودعائم بناء القصر ، ويسترسل فى وصفه كأنك تراه ، وهذا اطناب يكون له مقامه اذا كان لمن يريد شراءه أو سكناه ٠

وقد يقول فى وصفه أحيانا انه على أكمل صورة لتصور المترفين طلاء وحلية ٠

---

(١) يوسف : ٨٣

ولا شك أن الأول اطناب لا زيادة فيها ما دام غير قاصد الا لبيان ما فيه والثانى ايجاز لا قصور فيه ·

ولنضرب لذلك مثلا سورة الطلاق التى بينت وقت الطلاق ، وما يكون بعده ، وما يجب للمطلقة ، وما يجب على المطلق ، مع الايجاز فى بعض الأحكام التى تشمل حال الطلاق وغيره ·

قال الله تعالى : « **يأيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيـوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله اليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وان كن اولات حمل فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن ، فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتم فسترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا** » (١) ·

وانك ترى فى هذا النص الكريم المعانى الكثيرة ، فهى تكاد تشتمل أحكام المطلقات ، وفيها اشارة الى بعض أحكام عدة المتوفى عنهن أزواجهن ،

---

(١) الطلاق : ١ ــ ٧ ·

وان الألفاظ ليست قليلة ، ومن المؤكد أنه لا زيادة فيها ، بل تخلل الايجاز بعضها ٠

وان أكثر آيات الأحكام فيها ذلك الاطناب الذى لا تزيد فيه الألفاظ عن المعانى ، لأنها تتعرض لما يكلف الله تعالى عباده ، ولابد أن يكون ذلك واضحاً للمكلف كل الوضوح حتى لا يكون فى ذلك موضع ابهام تكون فيه معذرة للمكلف ، بل أنه بيان الله تعالى الشامل الذى لا ابهام فيه ، ولا مظنة لابهام ، اقرأ قوله تعالى فى تحريم الخمر ، اذ أطنب سبحانه ، فقد قال تعالت كلماته : **« يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ٠ فهل أنتم منتهون ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم ، فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين ، ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » (١) ٠**

واننا نرى القرآن الكريم يأتى بالاطناب الذى لا زيادة فيه فى آيات الأحكام كما أشرنا بذلك ، وتلونا من كتاب الله تعالى ، فانك لا تجد أن حكما أصليا يأتى به القرآن يكتفى فيه الاشارة عن العبارة ، وباللازم عن الملزوم ، بل كل ذلك صريح فى القرآن الكريم ، ولكن الفقهاء فى استنباطهم كانوا يأخذون أحكاما من اشارات العبارات وكناياتها ، كما رأينا فيما استنبطوه من قوله تعالى **« وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن »** فانهم فهموا منه أن الولد لأبيه ، وأن له حق التربية ، وأخذ الفقهاء من اشارات العبارات كثيرا فى أبواب الفقه ، وعد ذلك من بلاغة القرآن الكريم ٠

---

(١) المائدة : ٩٠ ـ ٩٣ ٠

وان أخذ الأحكام بطريق الاشارة دون العبارة لا يمنع أنه لم يكتف بذكر اللزوم فى بيان الحكم الأصلى ، وان ذلك ثمرات الحكم الأصلى فهمت منـه ، وأما الأصل فلم يفهم الا بالعبارة الواضحة ٠

هذا ومن مواضع الاطناب الواضح فى القرآن الكريم ، القصص القرآنى فى مواضع العبرة ، وتسلية النبى صلى الله تعالىعليه وسلم ببيان مانزل بالأنبياء السابقين ، وما لاقوا من أقوامهم ، فان الاطناب فى ذلك يزيد قلب النبى صلى الله عليه وسلم تثبيتا وأنسا ، وان القصص فوق ذلك يكون مشتملا على مناقشة الأنبياء السابقين لأقوامهم ، وأدلة التوحيد التى جاءت على ألسنتهم ، وفيه بيان أحوال السابقين ، وما كان يسيطر عليهم وعلى بيئاتهم ٠

وانه من مواضع الاطناب الذى لا يكفى فيه الايجاز بطلان عبـــــادة الأوثان ، ومجادلة المشركين ، ورد مطالبهم من معجزات غير القرآن ، وبينات تثبيت الرسالة سواه ، فان القرآن مشتمل على الكثير منه ٠

ومن مواضع الاطناب توجيه النظر الى الكون ، وما فيه من خـــلق السموات والأرض وما بينهما ، فان هذه مواضع تحتاج الى الاطناب الذى لا تغنى فيه الاشارة عن العبارة ، وفى القرآن الكريم من ذلك ما يدل على عظمة الخالق من مظهر المخلوق ، ودلالة الأثر على المؤثر والموجود على من أنشأه ، والحاضر على الغائب ٠

ومن مواضع الاطناب مناقشة أهل الكتاب ، وبيان انكارهم ، واثبات ماضيهم الذى امتد فى حاضرهم ٠

١٢٨ — ويجب أن ننبه هنا الى أن التكرار ليس من الاطناب ، وهو من الحشو اذا كان فى سياق واحد ، فالسياق الواحد لا يتكرر فيه المعنى ، ولا يتكرر فيه اللفظ ، واذا بدا للقارىء الذى لا يمحص المعانى والحقائق أن فى الكلام القرآنى تكرارا للمعنى ، فان ذلك عند ذوى الفهم السليم تفكير سقيم،

لأن تكرار المعنى له وصف آخر يؤدى فكرة جديدة ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف ميثاق بنى اسرائيل الذى أخذ عليهم وأقروا به ثم أعرضوا عنه ، فقد قال تعـــالى : « **واذ أخذنا ميثـــاق بنى اسرائيـل ، لا تعبـــدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القـــربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للنـــاس حسنا ، وأقيمو الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم الا قليلا منـــكم ، وانتم معرضون ، واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفســـكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون** » (١) ٠

ولقد ادعى بعض الناس أن فى الكلام تكرارا فى المعنى فى موضعين ، وان كان اللفظ لا يتكرر ، ففى الأول يقول تعالى : « **ثم توليتم الا قليـلا منكم ، وأنتم معرضون** » فيدعى بعض الناس أن فى النص الكريم تكرارا ، لأن التولى هو الاعراض ، فما معنى وأنتم معرضون » الا أن يكون تكرارا ، وان النظر العميق يثبت أولا أن التولى هو الانصراف ، والبعد بالجسم ، والاعراض هو الانصراف بالقلب ، فأشبه هذا بقوله تعالى « **فأعرض ونأى بجانبه** » (٢) وفى هذا تصوير حسى للاعراض فهو لم يعرض بالقلب بعدم الاذعان بل قرن المعنى النفسى بالمظهر الحسى ، كذلك هنا قرن الاعراض النفسى بالمعنى الحسى لتصـــوير الأعراض ـ وجعل الحق وراءهم حسيا، ثم قوله تعالى:(**وأنتم معرضون**) حال وفيه معنى توليتم ان كانت بمعنى الاعراض عامة ، وذلك لأن هذه الجمـــلة الحـــالية أى أن الاعراض النفسى عن الحق ، وجحودهم حـــال مستمرة من أحوالهم ، فالحق لا يصل الى قلوبهم ٠

والثانى وهو قوله تعالى « **أقررتم ، وأنتم تشهدون** » فان الذين يدعون التكرار ر فى المعنى يقولون ان الشهادة هنا هى الاقرار ، فما معنى ذكرها بعد الاقرار الا أن يكون تكرارا ٠

---

(١) البقرة : ٨٣ ـ ٨٤ ٠ (٢) الاسراء : ٨٣ ٠

ونقول فى الاجابة عن ذلك أن ذكر « وأنتم تشهدون » بعد الاقــرار ليس تكرارا ، لأن الشهادة هنا ليس معناها الاقرار لأن الاقرار قد يكون عن أمــــر مغيب ، وانما معناها الحضور والرؤية ، والمعنى على ذلك أنكم حضرتم الميثاق وأقررتم على ما فيه ، فهو اقرار موثق لا تستطيعون أن تدعوا الغــــــفلة اذ هو قول وحضور ، فعن أيهما تغفلون ٠

ومن الآيات القرانية التى يدعى فيها التكرار بادى الرأى قوله تعــــالى فى قصة صالح عليه السلام مع قومه ٠

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (١) ٠

وقد قالوا ان هنا تكرارا فى المعنى لأن العثى هو الفساد ، فمعنى لا تعثوا لا تفسدوا ، فكلمة مفسدين تكون تأكيدا للمعنى ، والجواب عن ذلك انه لا تكرار، لأن النبى الأمين نهى عن الفساد ، وعن القصد اليه ، فكلمة مفسدين تدل مع لا تعثوا على عدم القصد اليه ، ومن جهة أخرى فيها ايماء الى أن الافساد وصف لهم ، فعليهم أن يتخلوا عن الوصـــــف ، وهى كذلك تدل على شناعة حالهم ، وفساد جمعهم ، اذ أنه فساد لا صلاح معه ، فهل يقال بعد هذا ان ثمة تكرارا فى المعانى فى أى جملة من آيات كتاب الله تعالى ٠

وانه لا يوجد تكرار لفظى فى جملة واحدة ، ولا فى موضع واحد ٠

وقد ادعى بعض العلماء التكرار فى مواضع فى القرآن وعلله بما لا يتنافى مع اعجاز القرآن الكريم ، بل انه من دلائل الاعجاز ،اذ أن تكرار المعنى

---

(١) الأعراف ٧٤ ٠

الواحد بعبارات مختلفة فى مواضع مختلفة مع جمال الألفاظ والجمل فى مواضعها المختلفة ، كأن يكرر المعنى فى قصة فى سور مختلفة ، وكل عبارة معجزة فى ذاتها ، ويتحدى بها فى نغمها وموسيقاها وألفاظها وجملها ، وعجز العرب عن أن يأتوا بأى عبارة منها دليل على كمال الاعجاز فى جملته وفى أجزائه ٠

ونحن نرى أنه لا تكرار فى عبارات القرآن بمعنى أن يكرر المعنى من غير حاجة اليه بل ذكرنا أنه اذا تكرر لفظ أو معنى ، فانما يكون ذلك لمناسبة جديدة ويكون عدم ذكر ما يدعى فيه التكرار اخلالا ، وذلك مستحيل على كتاب الله تعالى ٠

وقد ضربنا على ذلك الأمثلة من قصص القرآن ، ومن أنواع الاستفهام وذلك فى صدر كلامنا فى تصريف القول فى القرآن ٠

اقسام الايجاز :

١٢٩ — يقسم الرمانى الايجاز الى قسمين : ايجاز حذف ، وايجاز قصر، فيقول رضى الله عنه : « الايجاز على وجهين حذف وقصر والحذف اسقاط كلمة للاجتزاء فيها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام ، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، فمن الحذف ،« واسأل القرية » ومنه « ولكن البر من اتقى » ومنه « طاعة وقول معروف »،ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاء منه فى القرآن كثير كقوله جل ثناؤه ، « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » ومنه قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها » (١) ، كأنه قيل حصلوا على النعيم ، وانما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس فيه تذهب كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذف الجواب فى قولك : « لو رأيت عليا بين الصفين أبلغ من الذكر ، لما بيناه » ٠

---

(١) الزمر : ٧٣ ٠

هذا كلام الرمانى فى الايجاز بالحذف ، ونلاحظ فى ذلك أمرين :

أولهما – أن الايجاز هنا نسبى فى جزء من الكلام ، فقد يكون الكلام فى مقام الاطناب ، ولكن فى جزء منه يكون الحذف ، وذلك موجود فى بعض ما ذكره من أمثلة ، من ذلك قوله تعالى فى آية البر ، فانها مطنبة بالنسبة لبيان المستحقين للبر · فقد قال تعالى « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** » (١) ·

ونرى من هذا أن مجموع الآية فى بيانها لا يعد من قبيل الايجاز ، بل هو اطناب على المعنى الذى بيناه فى الاطناب ·

ولكن ذلك لا يمنع أن فى جزء من الآية الكريمة ايجازا ، وعلى ذلك نقول ان الايجاز هنا نسبى أو جزئى ·

ثانيهما – أن الحذف فى ذاته بلاغة اذ أنه يعطى الكلام قوة ، ويثير الخيال ليتصور المحذوف أعلى من المبين ، وقد بين ذلك فى حذف الجواب فى قوله تعالى : « **وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت بوابها** » ·

ومن ذلك فى معناه الذى يريده قوله تعالى : « **ولو يرى الذين ظلموا ، اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب** » (٢) فان جواب لو محذوف يلقى الرهبة فى النفوس ، وتذهب فيه العقول كل مذهب وتقدير ، ولم

---

(١) البقرة : ١٧٧

(٢) البقرة : ١٦٥ ·

يذكر البلاغة فى ايجاز الحذف فى مثل قوله تعالى : « **واسأل القرية** (١) » وفى مثل قوله تعالى « **ولكن البر من اتقى** » (٢) وقد تظهر بلاغة الحـذف فى قوله تعالى « واسأل القرية » اذ أن فى ذلك اشارة الى شيوع القول فيهـــا ، وأن القرية كلها تكلمت ، ومثل ذلك قوله تعالى : « **فليدع ناديه** » وأما قوله تعالى : « **ولكن البر من اتقى** » فان فيه تزكية للمتقين بجعلهم البر ذاته ، وأن نفوسهم علت وزكت قلوبهم حتى صارت هى ، وفى ذلك فوق هذا تصوير للمعنى قائما بالذين يتصفون ، فيكون محسوسا معلوما فيهم ٠

١٣٠ – ويعد الرمانى ايجاز القصر الذى عرفه بأنه بناء الكلام على تقليل الألفاظ ـ ويعده أغمض من ايجاز الحذف لأن الحذف فيه غامض يحتاج الى العلم بالمواضع التى يطبق فيها ، ويقول : فمن ذلك قوله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة** » (٣) : ومنه قوله تعالى : « **يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو** » (٤) ومنه قوله تعالى : « **وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها** (٥) »٠ ومنه « **أن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس** (٦) » وقوله تعالى : **انما بغيكم على أنفسكم** (٧) ومنه « **ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله** (٨) » وهذا الضرب من الايجاز فى القرآن كثير ٠

وهو المثل الكامل لجوامع الكلم ، وجل كلام الله تعالى عن أن يكون لهمثيل، ونلاحظ أن الأمثلة التى ساقها تتصل بكلام قبلها ، فليست منقطعة ٠ فهى اما أن تكون حكمة أو أعلى من حكمة أو قضية مستقلة مؤيدة الحكم الذى سبقها ،

---

(١) يوسف : ٨٢
(٢) البقرة : ١٨٩
(٣) البقرة : ١٧٩
(٤) المنافقون : ٤
(٥) الفتح : ٢١
(٦) النجم : ٢٣
(٧) يونس : ٢٣
(٨) فاطر : ٤٣

مبينة حكمته ، كقوله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** » فهى ختام آية القصاص ، التى يقول الله تعالى فيها « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء ، فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون (١)** » ·

وترى من هذا أن الآية الكريمة تتميم لآية قبلها ، لأنها بيان للحكمة والمصلحة الكاملة فى القصاص ، ليقدموا عليه غير نافرين لأنه اتقاء لشر مستطير ، واذا كان القصاص فى ذاته أمرا لا تقبل عليه النفوس ، لأنه قتل أو قطع فالمصلحة أعظم من المضرة ولا شك أن الألفاظ قصيرة ، والمعانى التى تنطوى تحتها كثيرة ، وخصوصا أن تنكير كلمة « حياة » يدل على تعظيم هذه الحياة التى تترتب على تنفيذ القصاص ، لأنها تكون حياة آمنة سعيدة لا مزعجات فيها ، وخصوصا اذا كان مع حق القصاص حق العفو من المجنى عليه فانه يربى التواد ، ويحل المحبة والمودة محل البغض والعداوة ·

والآية الثانية التى ساقها الرمانى هى « **انما بغيكم على انفسكم** » ، ونلاحظ أن الرمانى قطعها عن سابقها ولاحقها من لفظ ، اذ الآية هى قوله تعالى: « **فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يأيها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** » **(٢)**

ولا شك أن الجملة التى اختاروها من الآية الكريمة فيها ايجاز القصر الذى يعد من أعلى جوامع الكلم ، ولكن يقطعها عما قبلها وما بعدها وما جاءت فيه من أن الظالمين يدعون الله تعالى ضارعين فى حال فزعهم وخوفهم حتى اذا

---

(١) البقرة : ١٧٨ ـ ١٧٩

(٢) يونس : ٢٣

انوا بغوا وطغوا ، وفى قطع الكلمات عن اخوانها ، قطع للمعنى عما يكنها ويظلها ٠

وقوله تعالى : « **ولا يحيق المكر السيء الا بأهله (١)** » هى فى عمومها وشمولها فيها ايجاز قصر ، ويمكن أن تكون مثلا عاليا يستشهد به فى القول ، ويصدق على كل خب لئيم ، ولكنه قطع الكلام عما قبله وما بعده ، فالآية الكريمة بهذا النص السامى « استكبارا فى الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » وكنا نود أن يأتى بالمثل الطيب فى بيئته من كلمات سابقة له ولاحقة ٠

وقوله تعالى : « **وأخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا** » هو كلام محكم بالغ أعلى ماتصل اليه بلاغة القول ، وهى آية مستقلة ، ولكنها متممة لما قبلها ٠ فهى متممة بالعطف على قوله تعالى : « **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما وأخرى لم تقدروا عليها** »(٢)٠

وقوله تعالى : « **ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس** » (٣) هى حكمة عالية فى ذاتها ، ولكنها مسبوقة ولها لاحقبها يحدها ، فهى جزء من قوله تعالى: « **ان هى الا أسماء سميتموها ، أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** » وان اخراجها عما قبلها وما بعدها يكون اخراجا لها عما يجد أطرافها ٠

وقوله تعالى « **يحسبون كل صيحة عليهم العدو** » وصف كامل لكل جماعة يغلب عليها الخور والجبن ، ولكنها وصف للمنافقين ، واخراجها عما جاءت فيه يعمم معناها ، وهى مخصوصة فى السياق ٠

---

(١) فاطر : ٤٣ (٢) الفتح : ٢٠ ، ٢١
(٣) النجم : ٢٣

١٣١ – وننتهى من هذه النظرات الى الكلمات السامية ، نجدها فى ألفاظها ذات عموم ، ولكن لها فى حيزها خصوص مثل قوله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة** » فهى فى حيزها ، ذات عموم ، لأن كونها حكمة لأحكام مقررة يجعل لها عموما ، ولا يقيدها حيزه ، لأنها منطلقة ، وكذلك مثل قوله تعالى « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » وقوله تعالى « **لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها** » أما الآيات الكريمات الأخرى ، فانها اذا ذكرت منفردة عن اخوانها كانت مثلا من جوامع الكلمة وكان لها العموم ، واذا أخذت مع أخواتها قيدت .

وعلى أى حال ، فان ايجاز الحذف فيها ثابت ، ولا مانع من استعمالها كأعلى مثل سائر ، والله أعلم .

وان الايجاز بغير حذف كلمات كثيرة فى القرآن لا تكاد تخلو منه سورة ، بل جزء من السورة ، بل صفحة من صفحاته النورانية ، وقد قلبنا بعض صفحات فى القرآن فوجدنا العبارات الآتية ، وكلها فيها ايجاز قصر ، ومن ذلك :

١ ـ قوه تعالى : « **كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا ، وهو شر لكم** » (١) فان هذا النص له معان كثيرة شاملة يطبق فى كل أمر يحبه الانسان، وعاقبته وبيئة أو لا يدرى عاقبته ، ولا ما يترتب عليه ، ومثل ذلك قوله تعالى :« **فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** (٢) »

ومنه قوله تعالى : « **ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** »(٣) فان هذا النص الكريم يشير الى المعركة الدائمة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والفضيلة والرذيلة ، وأن سيطرة الرذيلة والشر والباطل فساد فى

---

(١) البقرة : ٢١٦ (٢) النساء : ١٩

(٣) البقرة : ٢٥١

الأرض ومقاومة الخير للشر دفع للفساد ، وفيه اشارة الى أن مقاومة الشر بسلاحه من غير انحدار الى الرذيلة ، رحمة بالناس ، فدفع الشر رحمة ، ورد الاعتداء ، وفى هذه الآية اشارة الى نظرية الحرب الفاصلة ، والسلم الفاضلة٠

٣ ـ وقوله تعالى : « **وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون (١)** » فان هذه الآية تبين وحدة الأمة الاسلامية مع غيرها بأوجز عبـــارة ، فتشمل الوحدة الأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر ، والبادى والحضرى ، وسكان الوبر ، وسكان المدن ، لا تفرقهم الألوان ، ولا الألسنة ، وان التقوى يجب أن تكون لباسهم وشعارهم ، وهى التى تعلى ، ومثل ذلك قوله تعالى فى ايجاز « **انما المؤمنون اخوة** » ٠

٤ ـ ومنها قوله تعالى : « **وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء** »(٢) فهى فى ايجازها اعتذار عما كان من امرأة العزيز ليوسف عليه الســـــلام ، وانها لأحداث كثيرة ، فوق ما فيه من دلالة على معان نفسية تكون فى الوجدان الذى تحكمه شهوات ، الضمير اللائم ، المحاسب الذى يصوره قول الله تعالى « النفس اللوامة » ٠

٥ ـ ومنها قوله تعالى : « **وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم** » فان هذا النص السامى بكلماته القليلة الموجزة ، فيه تصوير لحــــال المشركين الذين ألزمتهم الحجة ، ولكن لم يذعنوا عصبية وعنادا ، ومحافظة على ســـــيطرتهم الغاشمة ٠

٦ ـ ومن ذلك قوله تعالى : « **انا كفيناك المستهزئين** » (٣) وفى هـــذا النص ايجاز فيه ألفاظ قليلة ومعان كثيرة بمقدار جرائم المشركين فى الاستهزاء بالنبى وأصحابه ، ومضايقتهم فى العبادة ، ومنها الطواف بالبيت ، فقد كانوا

---

(١) المؤمنون : ٥٢
(٢) يوسف ٥٣
(٣) الحجر : ٩٥

كلما لقوهم سخروا منهم ، فمعنى كفيناك المستهزئين عاقبناهم على ما فعلوا فى الماضى ، وخضدنا شوكتهم فى الحاضر ، وشغلناهم فى القابل وسلط الله الحق على باطلهم الى آخر ما نالهم فى الدنيا من خزى وما نالهم فى الآخـــرة من عذاب ٠

٧ ـ ومنها قوله تعالى : « **واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** (١) » فان هذا النص قليـل الألفـــاظ فيه معان كثيرة ، لأنه سبحانه يشير الى أن هلاك الأمم انما يكون اذا شاع الفساد بين آحادها وانما يشيع الفساد ممن غلبت أهواؤهم وسيطرت عليهم شهواتهم ، وان ذلك من الذين نشئوا مترفين لا يرون حق الحياة خالصا الا لهم، فيعم الفساد فى الأرض ، وتتقطع الأمة وتتنابز ، وكل ذلك من سيطرة المترفين٠

ومن ذلك قوله تعالى : « **كل امرىء بما كسب رهين** » أى أنه (٢) مجزى بعمله ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، ومثله قوله تعالى : « **وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى** (٣) ومثل قوله تعالى : « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » (٤)

١٣٢ ـــ وان العرب كانوا يميلون الى الايجاز فى القول ، ويعـــدون الايجاز بلاغة ، وذلك لأنهم لم يكونوا أهل قراءة وكتابة ، بل كانوا أهـــل بيان باللسان ، وقد صقلت بذلك كلماتهم وهذبت عباراتهم ، وقد قال الجاحظ ان الايجاز فى القرآن كان عند محاجة العرب الأميين الذين يفهمون القـــول بالكلمات المشيرة غير المفصلة ، والتفصيل من شأن من يعتمد على الكتاب دون اللسان ٠

---

(١) الاسراء : ١٦
(٢) الطور : ٢١
(٣) النجم ٣٩ ـ ٤٠
(٤) الأنعام : ١٦٤

ولقد كانوا يتبارون فى الكلام الذى تدل ألفاظه على معـــــان كثيرة ، وكانوا يعدون من أبلغ كلامهم قول بعض العرب « **القتل أنفى للقتل** » أى من يريد القتل اذا علم أنه سيقتل ، فانه لا يقتل ، ولا شك أن ذلك حق ، وقد اتجه كثيرون من الأدباء والمفسرين الى الموازنة بين ما يعدونه أبلغ قولهم ، وقوله تعالى « **ولكم فى القصاص حياة** » والموضوع أيهما أبلغ وأجمل أداء ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى ٠

وقد عقد الرمانى فى رسالته موازنة بين الجملتين ، وان كانت الموازنة ليست بين متماثلين ، بل ليست بين متقاربين وان كان الموضوع متقاربا فقال :

وقد استحسن الناس من الايجاز قولهم : « القتل أنفى للقتل » وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والايجاز وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحســن تأليفا بالحروف المتلائمة ، أما الكثرة فى الفائدة ففيـــه كل ما فى قولهم : « القتل أنفى للقتل » وزيادة معان حسنة منها ابانة العدل ، لذكره القصاص ، ومنها ابانة القرب المرغوب فيه لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبـــة والرهبة لحكم الله تعالى ، وأما الايجاز فى العبارة فان الذى هو نظير القتل أنفى للقتل « القصاص حياة » والأول أربعة عشر حرفا والثانى عشرة أحرف وانما بعده عن الكلفة بالتكرار الذى فيه مشقة على النفس ، فان فى قولهم القتل أنفى للقتل تكرارا ، غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرار فهو مقصر ، فى باب البلاغة عن أعلى طبقة ، وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود فى اللفظ ، فان الخروج من الفاء الى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة ، وكذلك الخروج من الصاد الى الحاء أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة ، فاجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغ وأحسن وان كان الأول بليغا حسنا » ٠

وهناك وجه لم يذكره الرمانى ، وهو أن كلمة العرب مقصورة على القتل

أما كلمة الله تعالى ، فانها تشتمل القتل والاعتداء على الأطراف ، فتشـمل النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، بل تشمل أيضا الجروح ، فمعناها أشمل ٠ وأمر آخر لم يذكره الرمانى ، وهو أن كلمة القرآن ايجابية وسلبية معا ، فهى ايجابية فى أنها تبين أن ثمة حياة رافهة هادية أمينة بالقصاص ، وفيها معنى النفى ، وهو ألا يكون اعتداء بأى نوع ، أما كلمة العرب فلا تتجاوز المنع ، وهو أن القتل يمنع القتل ٠

وأيضا فان كلمة القصاص فيها معنى المساواة بين الجناية وعقوبتها ، والقتل أنفى للقتل لا تستدعى بظاهر لفظها أن يكون القتل بالمسـاواة ، بل لا تمنع أن يكون القتل اعتداء ، والنص القرآنى السامى الذى لا يسامى فوق كل ما يدخل من معان على كلمة القتل أنفى للقتل ٠

هذا ما بدا لنا من زيادة كلمة القرآن من معان على كلمة العرب ، ولنعد من بعد الى ما قاله الرمانى فى هذا المقام فهو يقول :

« وظهور اعجازه فى الأمور التى نبينها يكون باجماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة فى أعلى طبقة ، لايجازه وحسن رونقه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه ، كقول على رضى الله عنه : قيمة كل امرىء فيما يحسنه فهذا كلام عجيب ، يغنى ظهور حسنه عن وصفه ، فبمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فاذا انتظم الكلام ، حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الاعجاز ، كما وقع التحدى فى قوله تعالى : « **فأتوا بسورة من مثـله** » فبان الاعجاز عند ظهور مقدار السورة ٠

ومؤدى هذا الكلام أن الاعجاز القرآنى ربما لا يبدو فى الكلمة أو الجملة مقطوعة عن سابقتها ولاحقتها ، ولو كانت الجملة ايجازا انما يبدو فى السورة أو الطائفة من القرآن ، ونحن نخالف الرمانى فى ذلك ، فان كلمات القرآن مـع اخواتها لها اشعاع من المعانى يثير الخيال والتأمل فى معانيها ما دامت الجملة

مستقلة في دلالتها ، تأتي بمعان مفيدة ، مثل قوله تعالى « **والصبح اذا تنفس** »(١)
وكقوله تعالى « **والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها** » (٢)
فكل جملة من هذه الجمل لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها ٠

ولقد ختم الرماني كلامه في الايجاز بذكر فضله وخواصه ، فقال رضي الله تعالى عنه :

« واذا عرفت الايجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء في القرآن منه عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان ، والايجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والايجاز تصفية الألفاظ من الكدر ، وتخليصها من الدرن ، والايجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، والايجاز اظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير والايجاز والاكثار انما هما في المعنى الواحد ، وذلك ظاهرة في جملة العدد وتفصيله كقول القائل لي عنده خمسة وثلاثة ، واثنان في موضع عشرة ، وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الايجاز ٠ واذا كان الاطناب في منزلة الأمر بحسن أكثر منها ، فالاطناب حينئذ ايجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه فاطناب فيه ايجاز » ٠

وان الرماني يتجه بهذا الى معان ثلاثة :

أولهما ــ أنه يصف الايجاز بأن فيه تصفية للألفاظ من الكدرة ودرن القول وحشوه ، وأنه البيان عن المعنى بأقل ألفاظ ، وأن المعنى الكثير يكون في أقل مقدار من اللفظ ، وأن المتكلم أو الكاتب يجهد فكره عند الاتجاه الى الايجاز ليأتي بأوجز لفظ يحمل أكبر معنى ، وقد قال امام من أئمة عصرنا في البيان في

---

(١) التكوير :١٨

(٢) الشمس : ١ ــ ٣

كتاب أرسله الى صديق له وأطنب فيه « اعذرنى فى هذا الاطناب فانه ليس عندى وقت للايجاز ، لأنه بالنسبة للبشر جميعا ليس سهلا ، لأن الاطنـــاب ارسال الحقائق ارسالا ، أما الايجاز ، فانه جمع للحقائق فى أقل الألفـــاظ وأجملها ، وأبعدها عن الكدر والدرن ·

ثانيها ـ أن الاطناب نسبى ، فانه اذا كان المعنى كثيرا واللفظ كثيرا ، فانه يكون اطنابا ، واذا كان المعنى الكثير يمكن أن تكون ألفاظه أكثر فان ذلك يكون ايجازا مسببا ·

ثالثها ـ أن كل ألفاظ ذات معان كثيرة ، وقد وضعت على قدرها ، فان كان الواضح قلة الألفاظ مع كثرة المعنى كان الايجاز ، وان كان الواضح الكثرة فى اللفظ والمعنى من غير تزيد ، بل لمقصد ، فهو اطناب ·

والقرآن فى حالى الايجاز والاطناب محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ·

طوال السور وقصارها

١٣٣ ـــ ونحن نتكلم فى الايجاز والاطناب لابد أن نمس موضـــوع السور الطوال والسور القصار · لقد علمت مما قدمناه جمع القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ،واعادة جمع ما كان فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مصحف جامع ، وما أعاد به عثمان جمع ما جمع أبو بكر وعمر ، ونشر نسخ مما جمع فى الأقاليم للمسلمين ·

وقد قررنا فى ذلك أن الاجماع على أن السور رتبت بوحى الهى ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل الى الرفيق الأعلى الا بعد أن قرأه على جبريل عليه السلام بذلك الترتيب وذلك موضع اجماع ، بل موضع تواتر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان ترتيب السور فى المصحف العثمانى كانت بهذا الترتيب الذى نقرؤه ·

وان هذا الترتيب فى آيات السورة الواحدة لم يكن على حسب النزول ، بل كان كما ذكرنا بالوحى فكانت الآية اذا نزلت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال عليه الصلاة والسلام لكتابه وصحابته : ضعوها فى موضع كذا من سورة كذا ، كذلك لم يكن ترتيب السور فيما بينها تابعا لنزول الوحى ، بل كان بوحى توجيهى لوضع السور فى أماكنها ، فاذا كانت السور الطوال فى هذه المواضع من القرآن ، والسور القصار فى هذا الموضع من الطرف الأخير فيه ، فان ذلك بتوجيه من الله سبحانه وتعالى ·

وكان من المستحسن أن نتكلم فى هذا لا فى مقدار البلاغة فيها ، فالجميع سواء ، ولكن من حيث الحكمة ان أمكن أن يؤدى تطاولنا الى معنى ندركه ، فكتاب الله فوق طاقتنا فى ادراك مراميه كلها ، لأنها ارادة الله تعالى ، وهى لا تقبل التعليل ، لأنه لا يسأل عما يفعل ، وعباده هم الذين يسألون ·

ولكن مع ذلك نحاول أن نتعرف حكمة الله تعالى أو ما نراه من أوصاف للسور الطوال وأخواتها القصار ·

اننا نجد فى قصار السور ، وصفين :

أحدهما — أن نظم السور القصار كله يكاد يكون على نسق واحد مؤتلف النغم متآخى الألفاظ متلائم فى نظمه ، اقرأ قوله تعالى : « **والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ، كذبت ثمود بطغواها ، اذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها** » ·

وأنك لترى النغم متحدا ، والفواصل متحدة ، والتلاؤم بين ألفاظها منهاجه واحد ، وكأنها لقصرها لا تتغير فيها الأنغام ولا مقاطع الكلام ·

الثانى ـ من الأوصاف الواضحة فى السور القصار ايجـــاز القصر ، فتجد القصة من قصص القرآن تذكر فى كلمات جامعة ويبعد فيها الأسلوب عن الاطناب فى القصة لحالها فى مواضع من القرآن الكريم ، وكلها معجز ببيانه وبلاغته ٠

اقرأ قوله تعالى : « **والفجر وليال عشر ، والشـــفع والوتر ، والليـل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصــب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد ، فاما الانسان اذا ما ابتـــلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمن ، وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن** » ٠

وترى من هذا كيف كان الايجاز المعجز ، لقد أشار سبحانه وتعالى الى قصة عاد وثمود وفرعون ، وقد وصف طغيانهم كما وصف قوتهم فى صنائعهم، وصلابة أرضهم ، وكل ذلك فى ايجاز ٠

والسور القصيرة كلها فى موضوع واحد ، كما ترى فى قوله تعالى : « **انا أعطيناك الكوثر ، فصلى لربك وانحر ، ان شانئك هو الأبتر** » وكما فى سورة الفيل فى قوله تعالى : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عيلهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل** » وكســورة قريش : «**لايلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هــذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف** » ٠

واننا نرى أن الجزء الأخير فى ترتيب القرآن الكـــريم الذى اختص باشتماله على قصار السور ، والذى يســـهل حفظه على الناشـــئين الذين لا يريدون جمع القرآن فى صدورهم ، قد اشتمل على بيان العقيدة الاسلامية ،

وعلى معاندة قريش ، وعلى جهود البنى صلى الله تعالى عليه وسلم وما لاقاه من عنت فى قومه ، وعلى المبادىء الخلقية الاسلامية وما على أن كل مسلم يتحمل التبعية ، وعلى أصول المبــادىء الاجتماعية ، وفيه اجمال كامل لقصص القرآن الكريم ·

هذا شأن قصار السور وهى جزء من ثلاثين من القرآن الكريم · أمـــا الطوال والمتوسط والأقرب الى الطول والأقرب الى القصر فهو يشــمل نحــو تسعة وعشرين جزءا من ثلاثين جزءا من القرآن ·

وان السور المدنية أكثرها ليس من القصار ، وهو يشتمل على الأحكام التفصيلية للتكليفات الشرعية ، فسورة البقرة والنساء والمائدة فيها كثير من الأحكام الفقهية سواء أكانت فى الأسرة أم فى المعاملات المالية ، أم فى الزواجر الاجتماعية ، أم فى العلاقات الدولية ، وأحكام الجهاد ، وفيها كل ما يتصل بالسلوك الانسانى الذى فرضه القرآن الكريم وبعض التكليفات المتعلقة بالأسرة أو المعاملات المالية جاء فى السور التى بين القصر والطول كسورة الممتحنة وكسورة الطلاق ·

وان السور الطويلة أو القريبة منها مع أنها ليست مرتبة على حســـب النزول بالوحى ، بل هى كما ذكرنا مرتبة بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى عن ربه ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يأمر بوضع الآية عند نزول الوحى فى موضعها من السورة التى أمر بوضعها فيها ·

ومع هذا الترتيب الموحى به الذى لم يكن على حسب النزول نجد السورة كلها مترابطة الأجزاء متصلة، يأخذ بعضها بحجز بعض فى نسق بيانى رائع، وكل آية مرتبطة برباط معنوى وبيانى · فالآية تتبع ما قبلها ، لا فى الموضوع ولكن فى نظام يشبه تداعى المعانى ، فالآيات تثير فى النفس المؤمنة المتبعة خواطر تجىء التى تليها لاشباعها وكأنها تجىء فى وقت الحاجة اليها ، فيكون التناسق

القرآنى فى الألفاظ والأنغام والفواصل والمعانى · وكل ذلك من أسرار الاعجاز الذى لا يمكن أن يكون الا اذا كان القرآن كله من عند الله العزيز الحكيم القادر على كل شىء ، الذى اختار القرآن معجزة صفيه خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ·

القصار وتيسير الحفظ :

١٣٤ — يأمرنا الله تعالى بأن نحفظ ما تيسر من القرآن ، لأنه سبحانه وتعالى قال « **فاقرءوا ما تيسر منه** » وأنه سهل سبحانه وتعالى علينا أن نحفظ المتيسر حفظه من القرآن ، فكانت تلك السور القصار الموجزة فى ألفاظها الغزيرة المعانى فى مؤداها ، وهذا المعنى ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى رضى الله عنه فى كتابه اعجاز القرآن ، ولنترك الكلمة له فقد قال : « ان لهذه السور القصار لأمرا ، وان لها فى القرآن لحكمة ، من أعجب ما ينتهى اليه التأمل حتى لا يقع من النفس ، الا موقع الأدلة الالهية المعجزة ، فهى لم تنل متتابعة فى نسق واحد على هذا الترتيب الذى نراه فى المصحف ، اذ لم يكن أول ما نزل من القرآن ولا آخره : « **قل أعوذ برب الناس** » ثم هى (أى القصار من السور) بجملتها وعلى احصائها لا تبلغ من القرآن أكثر من جزء والقرآن كله ثلاثون جزءا ، وهو يتسع من بعدها قليلا قليلا ، حتى ينتهى الى الطول ، فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول ، فيسره للحفظ بأسباب كثيرة أظهرها فى المنفعة ، وأولها فى المنزلة ، هذه السور التى تخرج من الكلمات الى الآيات القليلة ، والتى هى مع ذلك أكثر ما تجىء آياتها على فاصلة واحدة أو فواصل قليلة ، لا يضيق بها نفس الطفل الصغير · وهى تتماسك فى ذاكرته بهذه الفواصل التى تأتى على حرف واحد أو حرفين ، أو حروف قليلة متقاربة فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور ، حتى يلتئم نظم القرآن على لسانه ، ويثبت أثره فى نفسه ، فلا يكون بعد الا أن يمر فيه مرا ، وهو كلما تقدم وجده

أسهل عليه ، ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى اثبات ما يحفظ ٠٠٠ فهذا معنى قوله تعالى « **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** » (١) وهى لعمر الله رحمة وأى رحمة ٠

واذا أردت أن تبلغ عجبا من هذا ، فتأمل آخر سورة فى القرآن وأول ما يحفظه الأطفال (أى بعد الفاتحة) وهى سورة « قل أعوذ برب النـــاس » وانظر كيف جاءت فى نظمها ، وكيف تكررت الفاصلة ، ، وهى لفظ الناس ، وكيف لا ترى فى فواصلها ، الا هذا الحرف (السين) الذى هو أشد الحـــروف صفيرا ، وأطربها موقعا من سمع الطفل الصغير ، وأبعثها لنشاطه واجتماعه، وكيف يناسب مقاطع السورة عند النطق تردد النفس فى أصغر طفل يقوى على الكلام ، حتى كأنها تجرى معه ، وكأنها فصلت على مقداره ، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته فى أحرفها ونظمها ومعانيها ، ثم انظر كيف يجىء ما فوقها على الوجه الذى أشرنا اليه ، وكيف تمت الحكمة على هـــذا الترتيب العجيب ٠

وهذه السور القصار ، لو لم تكن فى القرآن كلها أو بعضها ما نقصت شيئا من خصائصه فى الايجاز ، ولكن عسى أن يكون الأمر حفظه على غير ما ترى اذا هى لم تكن فيه ، فتبارك الله سبحانه « **ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا** » ٠

ويضاف الى هذه الحكمة فائدة أخرى ، وهى تيسير القرآن ، وأداء الصلاة على العامة ، فانهم لولا هذه السور الصغار لتركوا الصلاة جميعا وانه لا تصح الصلاة (أى كاملة) الا بآيات مع الفاتحة ، وقد أعانت الصـــغار ، ويسرت عليهم ، فكانت على قلتها معجزة اجتماعية كبـــرى » ٠ انتهى كلام الرافعى ٠

---

(١) الاسراء : ٨٢

١٣٥ — واذا كانت ثمة سور طوال وأخرى قصار ، فانه يجب علينا أن نلتفت الى أن هناك آيات تطول ، وآيات تقصر مع أن الايجاز والاطناب يكون فى طوال الآيات وقصيرها ، ففىأثناء الآية الطويلة تقرأ قوله تعالى « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » (١) وهى كلمات ذات معان غزيرة ، فيها حكمة شرع الله وغايته ، وتكليفاته ، وأنها تتجه الى التيسير ولا تتجه الى التعسير ٠

وأكثر الآيات الطوال تكون فى الأحكام التكليفية التى تحتاج الى التوضيح ، ولا يكتفى فيها بالاجمال بدل التفصيل كآية المحرمات فى قوله تعالى « **حرمت عليكم أمهاتكم وأخواتكم ٠٠٠** » الى قوله تعالى : « **وأحل لكم ما وراء ذلكم** » (٢) ٠

ومثل ذلك آية المداينة ، وهى أطول آية فى القرآن فقد قال تعالى : « **يأيها الذين أمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله، والله بكل شىء عليم (٣)** » ٠

---

(١) البقرة : ١٨٥
(٢) النساء : ٢٤ ٠
(٣) البقرة : ٢٨٢ ٠

وقريب منها فى الطول آية المحرمات كما أشرنا ، ومثلهما آيات المواريث ومن الآيات الطوال المبينة للأحكام التكليفية آيات الصوم · اقرأ قوله تعالى :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينـــات من الهـدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على ســفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون ، واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنـــوا بى لعلهم يرشدون ، أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم ، وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصـيام الى الليـل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون (١) » ·

وترى أن الآيات الأخيرة فيها بيان جزء من أحكام الصوم ، ولا تعـــد قصيرة ، بل طويلة ، ومن الآيات الطويلة بعض آيات القصص ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة بنى اسرائيل **« واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعـــام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ، وفومها وعدســها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٢) »** ·

وانا اذ نقول ان بعض الآيات فيها طول ، وبعض الآيات الكريمـــات

---

(١) البقرة) ١٨٥ ، ١٨٧ ·
(٢) البقرة ٦١ ·

فيها قصر ، ليس معناه أن ما فيه طول هو من قبيل التطويل فى الكلام بل هو من قبيل الاطناب الذى لا تجد فيه كلمة زائدة ، ولا تجد فيه عبارة ليس ثمة حاجة اليها ، بل ان الآية التى يكون فيها تطويل قد تجىء فى جملة ما هو من قبيل ايجاز القصر مثل قوله تعالى فى أثناء آية الصوم الطويلة « **يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر** » كما ذكرنا آنفا ٠

وليس المراد بالطويل أن تكون الألفاظ أكثر من المعانى ، بل المراد ما لا يتجاوز حد الاطناب البليغ المستحسن ٠ فالمعانى مع الألفاظ متكافئة وربما كان فيها ايجاز لا اطناب فيها فضلا عن التطويل ، والطول للآية ألفاظا كثيرة ومعان كثيرة ، ربما تكون أكثر من الألفاظ ٠

وان الطول لا يبعد عن حلاوة النغم ، وجمال النسق ، وحسن النظم ، وحلاوته وطلاوته ، ومن الآيات ما يكون قصيرا كما ذكرنا والفواصل متآخية ، والمعانى متكاملة ٠ اقرأ قوله تعالى : « **وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى ، قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ٠ فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى** (١) »

وترى أن هذه الآيات بعضها قصار ، والأخير كان منها طويلا نسبيا ، لأن فيها عتابا ، وطبيعة العتاب لا يكون قصيرا ، ولا يكون بالاشارة ٠

واقرأ قوله تعالى فى هذه السورة « **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون**

---

(١) طه : ٨٣ ــ ٨٧ ٠

الداعى لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا ، يومئـــذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ، ورضى له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ، وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما » (١) ٠

واننا نجد فى الظاهرة القرآنية العالية أن الآيات القصـــار تختص عن غيرها بأن لها خاصة وهو الاعتبار والوقوف عند فواصلها المتقاربة غيـــر المتباعدة ، فتكون وقفة يقضى السكون عندها ، فالجـــواب عن حال الجبـال وهى أوتاد الأرض وبها تتماسك بأمر الله تعالى، بأن الله تعالى ينسفها نسفا ، وفى هذه الوقفة الصامتة يتدبر أمر الله فى نسف الجبال ، ويتخيل ذلك ، فيـــدرك قدرة الله تعالى على الاعادة ، ويتدبر الأرض وقد نسفت جبالها ليس بها علو بتضاريس ، ولا انخفاض بجوار علو ، وهكذا تتبع الآيات القصير والوقوف عند آخر كل آية ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدعوك الى أن تقف لتتدبر وتتفكر ، وتعرف مآلك ، وأنه لا غرابة فى أن تعاد الأجساد يوم البعث والنشور ٠

وان الآيات الطوال تكون فى موضوع يحتاج الى التدبر فى أوله وآخره ، وأخذه جميعا ، كما رأينا فى آيات الأحكام ، وفى بعض القصص الذى يكون التدبر فى مجموعه لا فى آحاده ، وفيه يتلاحق آخره بأوله ، كما رأينا فى النعم التى أفاض الله بها على بنى اسرائيل ، وكيف لاقوها بالكفران والعتو عتـــوا كبيرا ٠

وقد رأينا فى الآيات القصار أن كل آية تصلح وحدها لأن تكون موضع تدبر ، بل يلزم فيها التدبر وان كانت متصلة بما بعدها وثيقة الاتصال ٠

ولننقل عليك بعض الآيات القصار ، من ذلك قوله تعالى فى سورة ص :
« كذبت قبلهم قوم نوح ، وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثـمود وقوم صـــالح ،

---

(١) طه : ١٠٥ ـ ١١١ ٠

وأصحاب الأيكة ، أولئك الأحزاب ، ان كل الا كذب الرسل فحــق عقاب • وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق ، وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ، وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب ، اذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ، ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » (١) •

وهنا نجد الآيات كلها تتلاقى معنى العبرة ، وتثبيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأخبار النبيين ، وما كان من أقوامهم معهم ، وذكرت بعض قصة داود عليه السلام ، وما يتعلق بحكمه ، ومتاعبه من الخصوم ، ثم حكمه وخطاه فيه •

هذا كله معنى متلاحق الأجزاء بعضه يتمم بعضه ، ويتكون من الجميع صورة بيانية تستولى على لب الناظر اليها ، والمتفهم لمعناها ولكن فى الآيات القصار أجزاء كاملة فى ذاتها ، وأن تكون من مجموعها كل كامل غير متقطع فاقرأ من قصة داود عليه السلام أول ما أورد تجد قوله تعالى : « واذكر عبدنا داوود ذا الأيد انه أواب » فهذه صورة كاملة لنبى من أنبياء الله تعالى ، آتاه الله تعالى السلطان القوى المؤيد الثابت القائم على الحق ، وتلك وحدها صورة بيانية تستدعى التدبر فيها وجاء بها القرآن الكريم مفصولة فى الفاصلة عما وراءها

---

(١) ص : ١٢ ــ ٢٥

لأنها وحدها يجب تدبرها ، لاجتماع الدنيا والدين فى رسول رب العالمين فـــلا يحسبن أحد أن الزهد فى الفقر والحاجة ، انما الزهد فى العفة حيث تكون القدرة ، ثم جاءت الآية التى تليها مبينة مقدار قوته تعالى فقال : « **انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق** » فهى له خاضعة ، ثم الطير محشورة ، وهكذا كانت الفواصل معلنة أن ما قبلها يدعو الى تدبره والتفكير فيه ٠

وقد تكون فى الآيات القصار ، آية بين كل آية وأخرى تدعو الى التفكير بصراحة ، كما دعت فواصل الآيات الى التدبر ميزات الفاصلة ، اقرأ قوله تعالى فى سورة الرحمن :

« **الرحمن ٠ علم القرآن ٠ خلق الانسان ٠ علمه البيان ، الشمس والقمـــر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ٠ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** » (١) ٠

هذه نصوص قرآنية من الآيات القصار تجد كل آية منها تدعو الى التدبر والتفكر فيما تدعو اليه وما تدل عليه ، وقد كانت الفاصلة منبهة الى التروى فى معناه ، والتدبر فى مغزاه ، وهى متضامنة مع سابقتها ولاحقتها لتاتى بمعنى كلى جامع ، وصورة بيانية رائعة ٠

وهكذا تكون آيات القرآن ، وألفاظه وجمله ، وكله اعجاز فى اعجـــاز تدل على أنه من اللطيف الخبير العزيز الحكيم السميع البصير ٠

---

(١) الرحمن : ١ ــ ٢١

الاعجاز بذكر الغيب

١٣٦ ــ هذا باب من أبواب الاعجاز ، فيه جزء من القصص ، والجزء الثانى من الأخبار التى يتحدث القرآن فيه عن المستقبل ، فالغيب المذكور فى القرآن نوعان أحدهما غيب مضى ، وهو جزء القصص ، والثانى عن أمور تقع فى المستقبل وكلاهما اعجاز ، أو من دلائل الاعجاز مع البلاغة والبيان ، ومع العلوم القرآنية ، والأحكام التى اشتمل عليها القرآن الكريم ٠

ووجه الاعجاز فى الماضى وقصصه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب ، حتى يعلم بالتلقين علمهم ، وكان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أى طريق كان الا أن يكون علم الفطرة والبيان ، وارهاف أحاسيسهم بالشعر والكلام البليغ ، وتذوق الكلمات، والمعانى ٠

لم يكن عندهم مدرسة يتعلمون فيها ، ولا علماء يتلقون عليهم ، وكانوا منزوين بشركهم عن أهل الكتاب ٠ والمعرفة فى أى باب من أبوابها ، وكانت رحلتا الصيف والشتاء الى الشام واليمن تجاريتين ، لا تتصلان بالعلم فى أى باب من ابوابه ، ولا منزع من منازعه ٠

وجاء القرآن الكريم فى ذلك الوسط الأمى يذكر لهم أخبـــار الأنبياء السابقين ، وأحوال أممهم معهم ، وما حل بالذين كفروا وضــلوا ، وهم يرون هذه الآثار فى الأمم التى تصاقبهم ٠

جاء القرآن الكريم بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار هؤلاء النبيين ، وقد وافق كثير منهم الصادق عند أهل الكتاب من اليهود والنصـــارى ، وما اختلفوا فيه عما جاء فى القرآن ، فان الفحص الدقيق يثبت بطلان تحريفهم ، وصدق القرآن الكريم ، فيما حكاه الله ، فانه علام الغيوب الذى أحاط بكل شىء علمـــا ٠

ولقد ذكر القرآن ذلك الوجه من الاعجاز فقد قال تعالى بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبى الله تعالى زكريا لها : « **ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون (١)** فان هذا النص يشير الى الدلالة على أن القرآن من عند الله ، وعلى **أن ذلك** النوع من العلم ما كان عند العرب ، وليس لهم به دراية ٠

وانه لم تذكر قصة مريم البتول فى التوراة ، ولا الانجيل ولا **رسائل** الرسل قط ، والقرآن الكريم وحده هو الذى بين اصطفاءها ، **وفضلها على** نساء العالمين ٠

ويقول الله تعالى بعد قصة نوح عليه السلام « **تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ان العاقبة للمتقين » (٢)**٠

وفى هذه الآية والتى قبلها اشارة واضحة الى أن هذا النوع **من العلم** ما كان معروفا عندهم وما كانوا يتذاكرون به ٠

وقد قال تعالى فى ذلك أيضا : « **ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** » (٣) فذكر القرآن أدق الأخبار ، **وما** لا يعلمه احد الا الله تعالى ٠

وكان ذلك القصص الحكيم اخبارا بالغيب ، الذى لا يعلمه **الا علام** الغيوب دليلا على أنه من عند الله العزيز الحكيم ٠ وموافقته للصحيح **من اخبار** النبيين دليل على أن القرآن من عند الله ، وأنه ليس حديثا مفترى **وليس أساطير** الأولين اكتتبها ولا يمكن أن تملى عليه ٠ ولا يوجد من يمليها عليه ، **واذا كانوا** قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس فى مكة ، فهو لم يثبت **اتصاله به** ،

---

(١) آل عمران : ٤٤

(٢) هود : ٤٩

(٣) يوسف : ١٠٢

ولسانه أعجمى ، وهذا كتاب عربى مبين ، وفوق ذلك ففى القرآن من صـــادق الأخبار ما لم يكن فى كتب أهل الكتاب المسطورة ، ولا يأتيه الباطل فيما يقول ٠

١٣٧ ــ هذا الاخبار عن الماضى التى يشتمل عليه القرآن الكريم ، وهى فيما احتوت دليل قاطع على أن القرآن من عند الله ، اذ جاء بهـــا أمى لا يقرأ ، ولا يكتب ، كما قال تعالى : « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون** » (١) ٠

وأما الاخبار عن أمور وقعت فى المستقبل كما أخبر القرآن الكريم ، وما كان لأحد أن يعلمها الا من قبل العليم الحكيم اللطيف الخبير ، الـــذى لا يغيب عن علمه شىء فى السماء ولا فى الأرض فهو كثير ٠

ومن ذلك اخبار القرآن عن هزيمة الفرس بعد غلبهم ، فقد قال سبحانه : « **ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ٠ فى بضع سنين** » (٢) ٠

وقد حدث ما أخبر به القرآن ، فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس فى بضع سنين ، وما كان النبى صلى الله عليه وسلم ممن حضر هذه الحرب ، وعرف سبب الغلب ، وما يتوقع من بعده ، وقد تفاءل المشركون من هزيمة الروم ، وهم كتاب ، وعلوا الفرس ، وهم أهل شرك ، وحسبوا من ذلك أن دعوة محمد مآلها الخسران وشأنهم فى ذلك هو شأن الذين يبنون علمهم على الأوهام ، وتخيل ما يحبون ٠

ومن ذلك أيضا ما كان قبيل غزوة بدر الكبرى اذ يقول سبحانه وتعالى : « **واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** » (٣) لقد خرجت قريش بعيرها الذى كانت فيــه ثروة قريش كلهـــا ،

---

(١) العنكبوت : ٤٨
(٢) الروم : ١ ــ ٤
(٣) الأنفال : ٧

وأراد المؤمنون أن يترصدوها مضايقة للكفار ، وأن يأخذوها نظير ما أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ، ولكن أبا سفيان التوى عن طريق يثرب ، ونجا بالعير ، وكان طلب الى قريش أن ترسل جيشا يحمى عيرها ، ويغزو موطن الخطر ، فكانت المعركة ، فهم أرادوا ابتداء العير ، وليست ذات الشوكة ، وأراد الله تعالى الجيش ، وكان ذات الشوكة ٠

وما كانوا يتوقعون النصر على المشركين ، ولكنها حرب الفداء للعقيدة ، لا ينظر فيها الى الاستيلاء ، بل ينظر فيها الى الاستشهاد ، ولكن الله تعالى أخبرهم بالنتيجة قبل وقوعها ، فقال تعالت قدرته : « **سيهزم الجمع ويولون الدبر** » (١) فكان هذا اخبارا بمغيب لم يكن الا فى علم الله تعالى ٠

ومن ذلك اخباره عن اليهود بقوله تعالى « **يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر** »(٢) ٠

ويقول تعالى عن المشركين انهم عاجزون عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » (٣) وقوله تعالى : « **فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة** » (٤) ٠

وهكذا تجد فى القرآن اخبارا عن أمور قابلة ، وتقع كما أخبر ، وصدق فى ذلك كله ، وذلك لا يكون الا من عند الله ، ولا يمكن أن يكون بالتقدير الشخصى أو الحدسى ، فان ذلك يصدق أحيانا ، ويكذب أحيانا ، والأمر هنا كله صدق لا تخلف فيه وكان دليلا على أنه من عند الله العليم الخبير اللطيف البصير ، أودعه كتابه الكريم ٠

---

(١) القمر : ٤٥
(٢) البقرة : ٩٦
(٣) الاسراء : ٨٨
(٤) البقرة : ٢٤

٦ ـ جدل القرآن واستدلاله

١٣٨ ـــ القرآن كل ما فيه معجز ، فايجازه معجز ، واطنابه معجز ، وألفاظه معجزة ، وأساليبه معجزة ، ونغماته ونظمه وفواصله ، كل هذا معجز ، واستدلاله وجدله وبيانه لا يصل الى درجته نوع من الكلام ، وقد ساق الامام الباقلانى طائفة من خطب العرب ، وأهل اللسن ، وأهل الايمان طائفة من أبلغها وأقواها ، ووازن بينها وبين الزام القرآن واقناعه واستدلاله ، فوجد أن الموازنة غير لائقة بذات القرآن ، والفرق بين القرآن ، وكلام أعلى أئمة البيان يجعـــل الموازنة غير مستقيمة ، والفرق بينها وبين القرآن هو كالفـــرق بين الخالق والمخلوق ، لأنه فرق بين كلام الخالق ، وكلام المخلوق ٠

ولعله من الخير أن ننقل تلك الخطبة التى اعتبرها الباقلانى من أعلى ما عرف من بليغ القول ، وهى رثاء على بن أبى طالب كرم الله وجهه لخليفـة رسول الله أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

« لما قبض أبو بكر رضى الله تعالى عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء على باكيا متوجعا ، وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة ٠

رحمك الله أبا بكر ، كنت الف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنسه وثقته ، وموضع سره ، كنت أول القوم اسلاما وأخلصهم ايمانا وأشدهم يقينا ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء فى دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وأثبتهم على الاسلام ، وأيمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سننا وهديا ، ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده ٠

فجزاك الله عن الاسلام ورسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، فسماك فى تنزيله صديقا ، فقال والذى جاء بالصدق،واسيته حين بخلوا، وقمت معه عنده المطاردة حين قعدوا،وصحبته فى الشدائد أكرم الصحبة ، ثانى اثنين ، وصاحبه فى الغار ، والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه فى الهجرة ، وخليفته فى دين الله وفى أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت حين تتعتعـــوا (١) مضيت بنور اذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصـوبهم منطقـــا ، وأطولهم صمتا ، وأكثرهم رأيا ، وأشجعهم نفسا ، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عمـلا كنت للدين يعسوبا (٢) ٠ أولا حين نفر عنه الناس ، وأخيرا حين قفلوا (٣) وكنت للمؤمنين أبا رحيما ، اذ صاروا عليك عيالا ، فحملت اثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمرت اذ خنعوا ، وعلوت اذ هلعوا ، وصبرت اذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك ما لم يحسبوا ٠

وكنت كما قال رسول الله أمن النـاس عليه فى صحبتك ، وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفا فى بدنك ، قويا فى أمر الله ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا فى أعين الناس ، كبيرا فى أنفسهم٠٠

لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لأحد مطمع ، ولا لمخلوق عنـــدك هوادة الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عنـدك ضعيف ذليل ، حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء، أقرب الناس اليك ، أطوعهم لله ، شانك الحق والصدق والرفق ، وقولك حكم وحتم ، وأمرك حلم وحزم ، رأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت

---

(١) التعتعة : فى الكلام التردد من حصر أو عى
(٢) اليعسوب: الرئيس المقدم
(٣) رجعوا

النيران ، واعتدل بك الدين ، وقوى الايمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، وأتعبت من بعدك اتعابا شديدا ، وفزت بالخير فوزا عظيما ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك فى السماء ، وهدت مصيبتك الأنام ، فانا لله ، وانا اليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمثلك أبدا ، فألحقك الله تعالى بنبيه ، ولا حرمنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك ٠

وسكت الناس ، حتى انقضى كلامه ، ثم بكوا حتى علت أصواتهم ٠

١٣٤ ــــ هذه خطبة من عيون البيان العربى ، بل لعلها أبلغ خطبة بعد خطب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ان وضعناها بجوار القرآن أفلت ، كما تختفى النجوم اذا طلعت الشمس ، وأصبحت لا تساوى بجوار القرآن شيئا ، وان الذين يسيئون الى كل كلام بليغ مهما تكن درجته هم الذين يضعونه بجوار القرآن ، وأنى يكون كلام بجوار كلام خالق البشر ، وأنى يكون كلام ابن الأرض بجوار كلام الله فى اللوح المحفوظ ٠

واننا مهما نحاول تعرف أسرار البلاغة فى القرآن ، فلن نصـــل الى كلام محكم ، كمن يحاول معرفة الروح فهى من أمر الله تعـــالى نعـرف مظاهر الحياة منها ، ولكن لا نعرف كنهها ، فنحن نعلم علو القرآن واعجازه وامتيازه ، وأنه لا يحاكى ، ولكن لا نستطيع أن نعرف سر هذه الروعة التى يحسها كل قارىء مدرك ٠

ولعل من التوفيق للباقلانى أن جاء بأبلغ كلام ووضعه بجوار كـــلامه سبحانه ، فبدا بجواره هزيلا ، مهما تكن درجته فى البيان ، وذلك أمر ظاهر ، لم يجىء الاعجاز بصرف ، ولكن بادراك المقام البلاغى للقرآن وان لم يعـرف السر كاملا ٠

ونعود الى ذات الخطبة نجدها صادقة كل الصدق فى وصف أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنها وصلت الى أقصى الغاية فى مناقبه ، وفى مقامه من النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى مواقفه فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومواقفه اذ انتقل عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى ، فقد أنقذ الاسلام عند الصدمة الأولى ، وهى حالة الردة .

والخطبة العلوية هذه فيها وصف للحاكم العادل ، كيف يكون رحيما برعيته مصدر أمن ، لا مصدر ازعاج ، متطامنا لهم ، قريبا منأنفسهم ، لا يطمع القوى فى حيفه ، ولا ييئس الضعيف من عدله .

وقد ذكرنا هذه الخطبة أيضا لنشير الى الينابيع البيانية التى استقى منها القول فى اعجاز القرآن ، وهى أساس لكل كلام محكم .

ومن معرفة بلاغة القول أن نعرف المواضع التى بنى عليها الاستدلال . ونحن هنا نريد ابتداء أن نعرف المنهاج القرآنى للاستدلال ، والأصول التى بنى عليها استدلاله فى نظرنا القصير وان كان فى كل ما يتعلق بالبيان عن المثيل ولا يمكن أن يكون له مثيل .

١٣٥ -- وان رجال البيان فى بيان مناهج الخطب واستدلالها يتكلمون فى الينابيع التى يستقى منها الخطيب أدلته أو براهينه ، ونحن مع اقرارنا بأن منهاج القرآن أعلى من الخطابة ، كما هو أعلى من الشعر والسجع ، نرى أن نستعير من علماء البلاغة كلاما فى مصادر الاستدلال ، ونريد أن نتعرف المصادر الذاتية التى بنى القرآن الكريم استدلاله عليها ، وان كان مقامه أعلى وأعظم ، وهو معجز فى ذاته ، وليس ككلام البشر ، وان بنى على حروف البشر وألفاظهم ، ومن جنس كلامهم .

ويقولون ان الاستدلال الذى يستمد من مصادر ذاتية ، أى تؤخذ من ذات الموضوع ، وهى أشبه بالبرهان المنطقى ، وان كانت أعلى ، هى ستة مواضع

أو ينابيع أولها التعريف أى معرفة الماهية ، وثانيها التجزئة بذكر أجـــزاء الموضوع ، وثالثها التعميم ثم التخصيص ، ورابعها العلة والمعلول ، وخامسها، المقابلة ، وسادسها التشبيه وضرب الأمثال ٠

١ ـ الاستدلال بالتعريف :

١٣٦ ـــ الاستدلال بالتعريف بأن يؤخذ من ماهية موضوع القـــول دليل الدعوى بأن يؤخذ مثلا من حقيقة الأصنام دليلا على أنها لا تصلح أن تكون معبودا ، ومن بيان صفات الله تعالى دليلا على أن يكون وحده المستحق للعبادة ، واذا كان موضوع القول هو الذات العلية تقدست أسماء الله ، فانه يكون الاستدلال على ألوهيته سبحانه ، ببيان صفاته ، وخلقه للكون صغيره وكبيره ، ولا تعرف الذات العلية الا بصفاتها ، ومن ذلك قوله تعالى : « **ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فانى تؤفكون فالق الأصباح، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى انشاكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون، وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون** » (١)

ونجد فى هذا الكلام اثباتا لوحدانيته سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المعبود بحق ، وأنه لا اله الا هو ، وكان طريق الاثبات هو بيان خلقه وتنوعه ، وأنه

---

(١) الأنعام : ٩٥ ـ ١٠٠

وحده الخالق لكل شيء ، واذا كان الله تعالى هو الخالق وحده فهو الاله وحده، وكان التعريف بالله تعالى هو السبيل لاثبات الربوبية له سبحانه ، وقد عرف سبحانه وتعالى بصفاته وأثره سبحانه في الوجود ، لأن الله تعالى لا يعرف الا بصفاته وآثاره في الخلق والتكوين ، لأن معرفة حقيقة ذاته سبحانه وتعالى غير ممكنة في هذه الدنيا ، وان الذي نعرفه أنه سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة الحوادث ، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير ٠

ومما يدل على عظمة الخالق ، واستحقاقه للعبودية ، وقدرته على البعث والنشور التعريف بالمخلوق ، وخصوصا الانسان ، ومن ذلك قوله تعالى : **« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون ، ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وما كنا عن الخلق غافلين » (١) ٠**

ومن هذا نرى أن التعريف بالانسان في خلقه ابتداء دليل على بعثه انتهاء ، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى : ذكر أنه خلقه علقة ومن العلقة مضغة ومن المضغة عظاما ثم كساها لحما ، ثم أماتها ، ومن الطبيعي أن يكون قادرا على الاحياء ، لأن الانشاء على غير الله أصعب من الاعادة ، ولا صعوبة على الله تعالى ، في انشاء ، ولا اعادة ٠

ومن تعريف بعض المحرمات يستبين تحريمها ، والأمر القاطع بالتحريم ، ومن ذلك قوله تعالى في تحريم الخمر : « **يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم**

---

(١) المؤمنون : ١٢ ــ ١٧

عن ذكر الله وعن الصــلاة ، فهل أنتم منهون ، وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، واحذروا ، فان توليتم ، فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين » (١) ٠

ونرى من هذا أن التحريم الثابت بالنص ذكر أوصاف الخمر وبيان ذاتها وما يترتب عليها ، لمعرفة حكمة تحريمها ، فذكر تعريفها بالحد والرسم ، أما التعريف بالحد فبيان ذاتها بأنها مع اخواتها من الميسر ، والذبح على النصب ، هو التعريف بالحد ، وهو ذكر الذات ، بذكر جنسها وفصلها ، وأما فذكر هذا التعريف بالرسم ، فهو ذكر ما يترتب على الشرب من وقوع العداوة والبغضاء والصد عن الصلاة وعن ذكر الله تعالى ٠ فهى لهو لتزجية الفراغ بما فيه الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والانغمار فى اللهو الفاسد ٠

٢ ـ الاستدلال بالتجزئة :

١٣٧ ـــ أن تذكر أجزاء الموضوع ، وبتتبعها يكون اثبات الدعوى ، ومن ذلك أن المقرر الثابت بالبديهة الذى لا مجال للريب فيه الحكم بأن الأثر يدل على المؤثر ، وأن الكون يدل على خالقه ، وأن القوى البشرية والعقــول المستقيمة تقر بأن الخالق لهذا الكون صغيره وكبيره قوة واحدة ، وهى قوة الله سبحانه وتعالى ٠

وقد كان القرآن يذكر ذلك فى آياته الحكيمة أحياناً مجزءا وأحيانا غير مجزأ ، ومن الاستدلال بالتجربة قوله تعالى : « **وقل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا أ اله مع الله ، بل أكثرهم لايعلمون، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أاله مع الله**

---

(١) المائدة : ٩٠ ـ ٩٢

قليلا ما تذكرون ، امن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أاله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أم من يبدأ الخــلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أاله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) ٠

ونرى من هذا كيف كانت التجزئة في مادة الاستدلال ، وان لم تكن الأجزاء كلها مستوفاة مستقراه ، وانه من منهاج الاستدلال يتبين أن كل جزء يصلح وحده دليلا على أن الله وحده هو المنشىء للكون ، والمدبر له ، والقائم على كل شيء ، ولذلك قرن السياق في كل جزء نفى أن يكون اله غير الله معه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ٠

ومن التجزئة أيضا فى الاستدلال قوله تعالى : « **ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين : أو لم ير الذين كفــروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ، وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفان مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، والينا ترجعون » (٢) ٠**

ونجد هنا فى هذه الآية الكريمة تجزئة فى الاستدلال بحيث يعتبر كل جزء دليلا قائما بذاته ، ومن مجموعة دليل كلى على أن كل صغير أو كبير من خلق الله تعالى ، وأنها دليل على وجوده سبحانه وتعالى ٠

---

(١) النمل : ٥٩ ـ ٦٤

(٢) الأنبياء : ٢٩ ـ ٣٥ ٠

٣ ـ التعميم ثم التخصيص :

١٣٨ ـــ التعميم أن تذكر قضية عامة ، وتؤدى الى اثبات الدعوى باجمالها ، ثم يتعرض المستدل الى جزئيات القضية ، فيبرهن على أن كل جزئى منها يؤدى الى اثبات الدعوى المطلوب اثباتها ، أو أنها فى مجموعها تؤدى الى اثبات الدعوى ٠

ومما سبق ذكره يتبين صدق الدعاوى العامة التى هى صلب الدين ، وهى التوحيد ، وأنه تجب اطاعة الرسول ، وأنه لا خضوع الا لله سبحانه ، ومن ذلك قوله تعالى فى المجاوبة بين موسى وفرعون : « **قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ٠ قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** » (١) ٠

ونرى من هذه القضية العامة الكاملة التى تذكر بجوار الله سبحانهوتعالى وهى التى بها يعرف الله سبحانه وتعالى الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه وهو الهادى ، فقال سبحانه كلمـــة جامعة كاشـفة لمعنى الربوبية ، ومع الربوبية العبادة ، وكمال الألوهية ، فقال الله تعالى على لسان موسى « **ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** » فهو سبحانه وتعالى مانح كل شىء فى هذا الكون الوجود ، وهو مانح الهداية لمن اهتدى » ٠

ثم أخذ القرآن الكريم بعد هذا التعميم الجامع يبين جزئيات داخلة فى هذا وذكر من هذه الجزئيات ما ينبه فرعون وأهل مصر وهم أهل زرع وضرع

---

(٢) طه : ٤٩ ـ ٥٥

وختم النص الكريم بما يناسبهم ، وهو نعمة للجميع : « **كلوا وارعوا أنعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى** » .

٤ ـ العلة والمعلول :

١٤٩ ـ أساس الاستدلال الربط بين القضايا التى تصور أجـزاء الحقائق فى هذا الوجود ، بأن يكون وجود بعض الأشياء علة لوجود شىء آخر، وبمقدار قوة الارتباط تكون قوة الاستدلال ، وذلك بأن يكون أحدهما علة للآخر، واذا وجدت العلة كان المعلول ثمرة لوجودها ، وهما متلازمان من الناحيـة العقلية ، أو على حسب مجرى الأمور ، واذا ذكر المعلول ، كان كاشفا لعلته لأن ذكر النتائج مع احدى المقدمتين للدليل يدل على المقـدمة الثـانية ، ولأن المقدمات تطوى فيها ، فاذا ذكر تحريم الخمر ، وحاول العقل أن يتعرف سبب التحريم يستطيع تكشفه من أوصاف الخمر ، فاذا عرف الوصـف المناسب للتحريم استيقن أنه السبب ، وهو يكون وصفا لا يشاركها فيه غيره من المباحثات وفى القرآن كثير ، يكون فيه التعليل جزءا من الدليل الذى يسوقه القـرآن الكريم بتنزيل من العزيز الحكيم ، ولنتل آية اباحة القتال ، فان فيها السبب الذى يبرره ، والدليل الذى يوجبه ، اتل قوله تعالى :

« **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتـدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفـور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** » (١) » .

---

(١) البقرة : ١٩٠ ـ ١٩٣

واننا نجد فى سياق هذا النص القرآنى الكريم أن السبب الذى برر أمر الله تعالى بالقتال أمران أحدهما الاعتداء ، وثانيهما فتنة المؤمنين فى دينهم فاذا زال الأمران لا يكون ثمة مبرر للقتال ، ثم هذا الاعتداء ، وتلك الفتنة دليل الوجوب ، وكذلك نجد الأمر فى الاذن بالقتال اذ كان دليله والمبـــرر له هــو الاعتداء ولذلك قال الله تعالى :

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » (١) ٠

ونرى فى هذه الآيات الكريمة أن العلة الموجبة هى الاعتـــداء واخراج المؤمنين مفتونين فى أنفسهم وأموالهم ، ثم قامت المعلولات الغائية المترتبة على السكوت ، وعدم دفع المعتدين أن يعم الفساد ويسود الشر ، فلولا هذا الدفاع لفسدت الأرض ، ولهدمت المعابد ، ولم تقم الشعائر ، فاتخذ من هذه النتائج المترتبة على ترك المشركين يعيثون مبررة لمقاومتهم ، وموجبة لحربهم ، فكان هذا من قبيل ألاستدلال بالنتائج وهى الغايات الواقعية دليلا على الوجوب ، وان هذه الآيات الكريمات صور سامية لما سنه الاسلام من سنة تتفق مع الطبيعة الانسانية ، وهو ازالة الشر بالعقاب الشديد ومقاومته ، لأن الفضيـــلة فى الاسلام ليست سلبية ، ولكنها ايجابية بين سبحانه على السبيل الايجـــابى لرد الرذيلة ودفع شرها ومقاومته ، فكان الاعتداء على الفضيلة سببا موجبا للقتال ، والقتال فى سبيلها جهاد مثوب ٠

---

(١) الحج : ٣٩ ـ ٤١

٥ ـ المقابلة :

١٤٠ ـ ان المقابلة بين شيئين أو أمرين ، أو شخصين تكون ليعرف أيهما المؤثر فى عمل معين ، واذا ثبت أن التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره ، وقد كان ذلك النوع من ينابيع الاستدلال كثيرا فى القرآن الكريم ، لأن المشركين كانوا يعبدون أحجارا يصنعونها أو مخلوقات لله تعالى خلقها ، وكانوا يعتقدون أن لها تأثيرا فى الايجاد ، أو فى الشر يمنع ، أو الخير يجلب ، فكانت المقابلة بين الذات العلية وبين ما ابتدعوا من عبادة الأوثان ينبوعا للاستدلال على بطلان ما زعموا ، ومن ذلك قوله تعالى :

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الله لغفور رحيم » (١) ٠

هذا هو النص الكريم ، وفيه مقابلة بين المعبود بحق ، وهو الله سبحانه وتعالى خالق السموات ، وهم يؤمنون بأن الله وحده خالق السموات والأرض **« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله »** (٢) وهم يعلمون أن الأحجار التى يعبدونها صنعت بأيديهم ولم تخلق شيئا ، فالقرآن من هذه المقابلة يأتى بدليل يلزمهم ويفحمهم أو يقنعهم ، ان استقامت القلوب ، وان الدليل بالتقابل يصح أن يكون عندما ادعيت الألوهية للخالق جلت قدرته مع المخلوق المصنوع بأيدى العباد ، وبالمقابلة بينهما نجد الخالق يحتاج اليه كل ما فى الوجود ، والمصنوع بأيدى العباد لا ينفع ولا يضر ، فالله وحده هو الاله الحق الذى لا يعبد سواه ، لأنه لا يحتاج لأحد ويحتاج اليه كل أحد **« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »** (٣) ٠

---

(١) النحل : ١٧ ـ ١٨

(٢) لقمان : ٢٥

(٣) الاخلاص ٠

ومن المقابلة التى كانت ينبوعا للاستدلال قوله تعـــالى : « **قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار** » (١) ٠

وان هذا الاستدلال قائم على المقابلة ، فكانت المقابلة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ومن هو القهار القادر على كل شىء وهو الواحد الأحد الذى لا يشبهه أحد ، وكأن المقابلة بين الأعمى والبصير ، ويشمل الأعمى من لا يدرك الحقائق ، والبصير من يدركها ، وبين الظلمة التى تعتم النفس ، والنور الذى يشرق به القلب ، ومن يخلق ومن لا يخلق ، وهذه المقابلات ينابيع الادراك الموجه المسترشد ، والظلام المعتم المحير ٠

وان هذه المقابلات تصلح دليلا مثبتا فى عدة دعـــاوى ، ويكون فى المقابلات الحكم الفصل الهادى المرشد ٠

ففى الدعوى الأولى ادعاء المساواة بين من يملك كل شىء ومن لا يملك لنفسه النفع والضر ، والحكم الذى ينتجه الدليل أنهما ليسا متساويين ، واذا كانت دعوى المساواة فى الألوهية باطلة ، فالحكم بالنفى ، والاله هو الله وحده الذى يملك كل شىء ، وفى ألدعوى الثانية نفى التسوية بين من أدرك الحـــق ، واهتدى ، ومن ضل وغوى ، والأخير كالأعمى ، والأول كالبصير ، فأيهما يهتدى الى الطريق السوى ، ولا شك أن الحكم أن الخير فى المبصر المهتدى ، وليس فى الضال المرتدى ، فالفضل لأهل التقوى ولو كانوا ضـــعفاء يستضعفهم الناس ٠

وفى الدعوى الثـــالثة ادعاء الاشتراك فى الخلق والتـــكوين بالزعم

---

(١) الرعد ١٦ ٠

لا بالحقيقة وهذه باطلة بل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، وبذلك يتحقق الحكم فيما هو صادق واقع ، لا فيما هو مزعوم مختلق ·

ومن المقابلات القرآنية التى دلت على البعث ، وكان فيها رد على أوهام للكافرين وذلك فى قوله تعالى :

« أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ، ولـم يعى بخلقهن بقـــادر على أن يحيى الموتى بلى انه على كل شيء قدير ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، اليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العـــذاب بما كنتم تكفرون » (١) ·

ونرى هنا استدلالا على ان البعث ممكن فى ذاته ، والتصديق به واجب ، لأن الله تعالى أخبر به على لسان نبيه الكريم وفى كتابه المكنون ، اذ جاء به القرآن الكريم ، ودعا اليه محمد الأمين ·

وكان الاستدلال بطريق المقابلة ، وكانت المقابلة بين انشاء الاحياء ابتداء والخلق والتكوين من غير سابق ، وان القدرة فيه كانت ، ولم يعىَ بخلقهن ، وبين الاعادة للأجسام التى خلقت ثم صارت رميما ، وانه اذا كانت قد وجدت ، فالثانية قد تجيء ، وهى تجيء اذ أخبر بها العزيز الحميد ، القـــادر على كل شيء ·

وانه بهذه المقابلة ، بين الانشاء والاعادة ، وبين الخلق من غير أصـــل سابق ، والاعادة ينتهى به ذو العقل الرشيد الى الحكم بأن البعث ممكن فى ذاته ، وأنه واجب الاعتقاد لأن الله تعالى أخبر به ، « **وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد » (٢) ·**

---

(١) الأحقاف : ٣٣ ـ ٣٤

(٢) الرعد : ٥

ومن الآيات الدالة على أن الله تعالى خالق كل شيء ، واعتمدت الدلالة فيها على المقابلة قوله تعـــالى : «**نحن خلقناكم ، فلولا تصـــدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون ، بل نحن محـــرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أن نحن المنزلون ، لو نشاء جعلنـــاه أجاجا فلولا تشـــكرون ، أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشـم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم**» (١) ٠

ونجد من هذه المقابلات بين انشاء الخالق وعجز الانسان ما يدل عــلى أنه هو الذى خلق فهدى ، وأنه العليم بما خلق ، وأنه بهذا المستحق للعبـــادة وحده ، وأنه ليس كمثله شيء وأنه الواحد الأحد ٠

٦ ــ الاستدلال بالتشبيه والأمثال :

١٤١ ــ من ينابيع الاستدلال فى القرآن التى تثبت قدرة الله تعالى ، وصدق ما يطلب الدين الحق ، وما أتى به القرآن التشبيه وضرب الأمثال ، وقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم أنه يضرب الأمثال ويبين الحقـــائق عن طريقه ، وضرب الأمثال باب من أبواب التشبيه ، وهى تضرب كما ذكرنا فى باب التشبيه للغائب لتقريب الحقائق ولتشبيه الغائب غير المحسوس بما يقربه من القريب المحسوس ، ولتوضيح المعانى الكلية بالمشاهد الجزئية ، وللاستدلال بحال الحاضر على الغائب ٠

---

(١) الواقعة : ٥٧ ــ ٧٤

ومن ذلك قوله تعالى الذى ذكر فيه أن المثل يكون لبيان الحقائق ، سواء أكان بالصغير أم كان بالكبير ، فقد قال تعالى :

« ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفـــروا فيقـولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيرا، ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين »(١)

وفى هذا النص يثبت الله تعالى أنه سبحانه يقـرب الحقائق الثابتـــة بالأمثال ، ويأتى بالدليل من بيان الأشياء ،، واستخراج خواصها ، والاثبات بالأدلة عن طريقها ، وان الناس فى تلقى هذه الأدلة فريقان ،فريق آتاه الله قلبا نيرا يصغى الى الحق ، ويأخذ به ، ومنهم من أصاب العناد قلبه ، فاذا قوى الدليل ، فانه يزيد اصرارا ، وامعانا فى الضلال ، فيوغل فيه ، وهذا معنى قوله تعـــالى « **يضـــل به كثيرا ، ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين** » ٠

فهذا النص يفيد أن الله تعالى فى القرآن الكريم يتخذ من الأمثال تبيينا للحقائق ، وتثبيتا ، واقامة للدليل بها ٠

واقرأ قوله تعالى فى بيان عجز الأصنام ومن يعبدونها العجز المطلق ، وقدرته تعالى على كل شىء ، فقد قال تعالى :

« يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، ان الله لقوى عزيز » (٢) ٠

انظر الى الدليل القاطع الذى يثبت بطلان الوثنية ، ويقيم الدليل على الوحدانية ، فان الأوثان ، ومن يتبعونها ، ولو تضافرت كل القوى معها ٠

---

(١) البقرة : ٢٦

(٢) الحج : ٧٣ ـ ٧٤

لا يمكن أن يخلقوا ذبابا ذلك الطير الضعيف أو تلك الحشرة الضئيلة التى يستحقرونها ، ولو أن الذباب سلب منهم شيئا ، لو اجتمعوا مع أوثانهم على أن يستردوه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وهم والذباب سواء فى الضعف وان بدوا أقوياء ، وهذا أضعف خلق الله تعالى فى زعمهم ، فكيف يكون للذين يدعونهم آلهة أمام قوة الله ، وكيف يعبدونهم معه ، وهم لا وجود لهم ولمن يعبدونهم بجواره سبحانه وتعالى علوا كبيرا ، فهذا المثل سيقمساق الاستدلال وكان دليلا قويا ، ان كانوا طلاب حق يلتمسون الدليل عليه ، وان كانوا طلاب باطل ضلوا سواء السبيل ، لا يزيدهم الدليل الا كفرا ٠

ومن الأمثلة الموضحة التى تثبت كمال سلطان الله وأنه وحده القادر ، وبطلان غرور الانسان ازاء قدرة الله تعالى قوله سبحانه :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ، ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه ، وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته ، وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هـــذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ، قال له صاحبه وهو يحاوره ، أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا ، ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة الا بالله ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ، ويرسل عليها حسبانا من السماء ، فتصبح صعيدا زلقا ، أو يصبح ماؤها غورا ، فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا ، هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا ، وخير عقبا » (١) ٠

---

(١) الكهف : ٣٢ ـ ٤٤

وهذا المثل الواقعى التصويرى فيه دليل على اثبات حقيقتين ـ أولاهما أن المغتر دائما يدلى به غروره الى أنه يحكم على المستقبل بما هو عليه فى الحال القائمة ، والقوة الموهومة ، فذو الجنة والنفر ظن أن الحاضر ينبىء عن المستقبل وغره بالله الغرور ، وتعالى من غير علو ، وتسامى من غير سمو، واستقوى من غير قوة ، فجاء المستقبل ، وخيب الأمل وكشف الحقيقة ٠

الحقيقة الثانية اثبات أن الولاية والنصرة لله سبحانه وتعـــالى ، وانه وحده المالك للأمور كلها فى ماضيها ومستقبلها وشاهدها ، وغائبها ٠

فكان المثل دليلا على وباء الغرور ، وان الأمر لله وحده ٠

ومن الأمثال الموجهة الى الحقائق الخلقية والدينية قوله تعالى فى سورة ن « **انا بلوناهم ، كما بلونا أصحاب الجنة ، اذ اقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطـــاف عليهـــا طائف من ربك ، وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم ، ان كنتم صـــارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا ياويلنا انا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبـــون ، كـذلك العذاب ، ولعــــذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** » (١) ٠

سيقت قصة أصحاب الجنة الدنيوية ، وهى قصة واقعية تصويرية ، وهى دليل مثبت ـ أولا ـ لأن الزكاة تطهر المال وتحميه لقوله تعالى « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** » فهى للمال نظافة ونماء ـ وهم قد أقسموا ليصرمنها مصبحين ، وأن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وتثبت ثانيا ـ أن

---

(١) ن : القلم ١٧ ـ ٣٣

العاقبة الحسية تؤثر فى النفس ان كان فيها قابلية للهداية ، وهؤلاء اذا كانت قد ضاعت منهم الثمرات ، فقد عادت اليهم بأعظم العظات ، فما كسبوه من عظة أكثر مما فقدوه من ثمرة ، وثمرات القلوب أطيب من ثمرات تشتهى الأبدان طعمها ، وهى دليل على أن الله تعـــالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وأن الأقدار تحت سلطانه ، ويجريها ، كما يحب وكما يشاء ·

ومن الأمثلة التى تساق مساق الدليل قوله تعالى : « **ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا ، فهو ينفق منـــه سرا وجهرا ، هل يستوون ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثـــلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهـــه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم** » (١) ·

والآيات قبل ضرب هذين المثلين كانت فى الأمر بعبادة الله تعالى وحده والاخبار عن عبادة المشركين من لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، اذ يقـــول سبحانه « **ويعبدون من دون الله مالا يمـــلك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون** » (٢) فجاء سبحانه وتعالى بهذين المثلين ، وهما يبطلان عقيدة الشرك ، وزعم المشركين بأمثلة تقع فى الحياة ، والحكم فيها من البدهيات التى لا ينكرها عاقل ، ولا يختلف فيها فكر عن فكر ، وكل مثل من المثلين دليل قائم بذاته على بطلان الوثنية ، اذ فيه تسوية بين من لا يقع بينهما التساوى ·

أما أولهما فقد ضرب برجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شىء ، لأنه مملوك لغيره ، فهو ليس له مال ، فهل يستوى هذا مع رجـــل مرزوق من الله تعالى رزقا حسنا ، ان التسوية غير معقولة بين من له مال يعطى منه غيره ، أو ينفق منه فى الخير سرا وجهراً ، وبين المملوك الذى لا مال له اذا كانت التسوية غير معقولة فتسوية أولئك المشركين بين الأحجار التى لا تضر ولا تنفع

---

(١) النحل : ٧٥ ــ ٧٦ ·

فى عبادتها مع الله تعالى الرزاق ذى القوة المتين المالك لكل شىء الذى له ملك السموات والأرض أبعد عن كل معقول ، وذلك برهان على بطلان الشرك كله ، سواء أكان اشراك حيوان أو انسان أم كان اشراك حجر ٠

وثانى المثلين أن الله يضرب مثلا برجلين أحدهما أبكم لا يقـــدر على شىء ، وهو كل على مالكه أو ذى قرابة له يتولى أمره ولا يتجه الى جهة ويأتى فيها بخير ، بل ان الطرقات مسدودة أمامه اما من جوارحه المئوفة الناقصـة فهل يستوى مع رجل موهوب فى عقله وخلقه ، وكيانه الانسانى والنفسى يسلك الصراط المستقيم ، يأمر العدل ، ولا يحيـد عن سبيله ، فهما اذن بالبـــداهة لا يستويان ٠

واذا كان هذان الرجلان لا يستويان بداهة ، فأولى ألا تتســـاوى فى العبادة الأحجار مع خالق الكون ، وهادى الخلق ، ومانح النعم ومجريها رب العالمين ٠

ومن الأمثلة التى تدل على أن العبادة الخالصة لا تكون الا لله تعالى وحده، وأنها بغير ذلك لا تكون عبادة ـ قوله تعالى : **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون** » (١) ان هذا المثل التصويرى فيه دلالة على صدق التوحيد ، وفساد الشرك ، فانه سبحانه وتعالى جعل الفرق بين التوحيد والشرك كالفـــرق بين رجل مملوك لعدة أشخاص هم مختلفون فيه كل يريد أن يختص بأكبر حظ منه، وأن يكلف أقل قدر فيه ، وهو فى ذاته ضائع بينهما نفسيا وماديا لا يدرى أيهما يطالبه بحقه ، فهو ضائع لا محالة ، وهو لا يحس بأمن فى هذه الملكية المتنازعة ، وذلك مثل من يعبدآلهة مختلفة تكون نفسه جائرةبائرةغير مستقرة ٠ ولا مطمئنة، فليست كحالها ، مع رجل سلما خالصا لرجل لا يشاكسه أحد فيه ، وهو مستقر

---

(١) الزمر : ٢٩ ٠

يعـــــرف من يخدمه ومن يعتمد عليه ، ومن فوض أمره اليه ، وذلك مثل من يعبد الله تعالى وحده ، فان من يعبد الله وحده تطمئن نفسه ، ويجد المأوى ، ويجد الملجأ والملاذ ، وذلك مثل تهتدى به النفوس الشاردة .

ومن الأمثال التى ساقها القرآن الكريم للاســــتدلال بها على البعث والنشور ، والاماتة والاحيـــاء قوله تعالى : « **أو كالذى مر على قرية ، وهى خاوية على عروشها ، قال انى يحيى هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه قال كم لبثت ، قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير (١)** » .

ان هذه القصة واقعية ، وليس فى سياق القول مما يدل على أنهاتصويرية، والأصل أن تكون حقيقية ، فلابد أن أجزاءها قصة واقعة ، وليست مجــــرد مثل تصويرى ، وهذه القصة معها دليل واقعى على البعث والنشور ، وأنه فى قدرة الله تعالى اعادة الموتى ، فمن أنشأ الكون يحيى الموتى ، وأننا سنموت كما ننام ، ونبعث كما نستيقظ ، فهو مثل واقعى ، لبيان ـ كيف يحيى الله ـ فقد مات الرجل مائة عام ، ثم أحياه الله ، ورأى طعامه لم يتغير ، ورأى حماره حتى حسب أنه نام يوما أو بعض يوم ، والله على كل شىء قدير .

---

(١) البقرة : ٢٥٩

أسلوب جدل القرآن

١٤٢ — ذكرنا فيما أسلفنا من قول بعض ما سلكه القرآن ، وما يعمد اليه من استدلال وما يتخذه من ينابيع ، وقد كانت لاثبات الحقائق فى العقيدة والأحكام وما يقربها به الى العقول حتى لا يكون موضع ارتياب لمرتاب ، يزيل الريب بالحقائق ، ويبدد الأوهام بالأدلة التى تنبه الى حقائق الوجود .

وما كان ذلك للجدل مع المخالفين من مشركين وأهل كتاب فقط ، بل كان لاثبات الحقائق فى ذاتها ، من غير محاجة مع منكر ، ولا مجادلة مع جاحد ، والآن نتكلم فى جدله مع المجادلين ، وقطعه الطريق على الجاحدين .

وقبل ذلك نتكلم فى مقام الاستدلال القرآنى ، سواء أكان فى مقام تثبيت وبيان أم فى مقام جدل مع قوم خصمين .

ولقد لاحظنا فى أدلة القرآن أنها قريبة التناول فى الادراك لكل الناس يفهمها الخاصة ويفهمها العامة ، وان تفاوت الفهم بمقدار الادراك ، وسعة الأفق ، وهى واضحة للجميع ، ولقد قرر ذلك ابن رشد الفيلسوف الفقيه فى كتابه فصل المقال ، فقد قسم الطرق لاثبات صدق القضايا والتصديق بها الى عامة لأكثر الناس بحيث يكون التصديق بها من كل الناس ما داموا قد سلمت عقولهم من الآفات ، ومنها ما هى خاصة بأقل الناس وهى البرهانية ، وجعل الأدلة التى تعم الناس الأدلة الخطابية وتقوم على اثبات الحق بأدلة قطعية ، أو أدلة ظنية ، ولكن بكثير منها ومقارنتها ، واثارة الخيال يجعل السامعين يقتنعون ، ويجزمون ، واذا كانت الأدلة فى ذاتها مجردة عما أحيط بها من عرض ، وأسلوب بيانى وابقاء مؤثر ، واثارة للأخيلة الموجهة ، تكون ظنية ، ولكن آثارها قطعية ، كما نرى فى آثار البلغاء من الخطباء ، والخطابية أعم أنواع الاستدلال فى البيان ، وأكثرها انتاجا ، ودونها فى العموم الجدلية ، وهى ما يكون الاستدلال مأخوذا مما يسوقه الخصم من الحجج ، وهى تعتمد على قوة الاستدلال على الخصم ، ولأن الفلج على

الخصوم لا يكون أمرا مستورا ، بل يكون أمرا له صفة الشياع بين الناس ، ولأنه مأخوذ بحجج المخالف كان مع عمومه وشيوعه أقل من الاستدلال الخطابى الذى يقوم على اثبات الحقائق من غير تقيد بحجة خصم ·

والحجة الخاصة بأقل الناس عند ابن رشد ما يلزم فيه المتكلم بالأقيسة البرهانية ، ذلك لأن هذه الأقيسة مجردة خالية من كل تحسين ، وليست متجهة الى الاقناع وطرائقه من مشاركة وجدانية ، ومن اثارة للمشاعر ، ومن اتجاه الى ما يأمنون من أمور وان التجرد كله لا يكون الا للخاصة الذين يتجهون الى الحقائق من أى تأثير ·

ويقول ابن رشد بعد أن أشار الى الأدلة الخطابية والجدلية والبرهان ، ولأن أكثر الشرع مقصوده الأول العنـــاية بالأكثر من غير اغفال لتنبيـه الخاصة كانت أكثر الطرق المصرح بها فى الشريعة الاسلامية على أربعـــة أصناف : أن تكون مع أنها مشتركة خاصة بالأمرين جميعا أعنى أن تكون فى التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية ، وهذه المقـــاييس هى المقاييس التى عرض لمقدماتها مع كونها مشـــهورة ومظنونة أن تكون يقينية وعرض لنتائجها أن قصدت أنفسها دون مثالاتها ، وهذا الصنف من الأقوال الشرعية ليس له تأويل ، والجاحد لها أو المتأول لها كافر ، والصنف الثـانى أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية · وتكون النتـــائج مثالات للأمور التى قصد انتاجها ، وهذا يتطرق اليه التأويل ، والثالث عكس هذا وهو أن تكون النتائج هى الأمور التى قصد انتاجها نفســـها ، وتكون المقدمات مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية ، وهـذه أيضا لا يتطرق اليها تأويل أعنى نتائجها وقد يتطرق لمقدماته والرابع أن تكون مقـــدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لهـــا أن تكون يقينية حملها وتكون نتائجه مثالات لما قصد انتاجه وهذه فرض الخواص فيهـــا التـأويل ، وفرض الجمهـــور على ظاهرها ، وبالجمـــلة فكل ما يتطـــرق اليه من هذه التأويل لا يدرك الا بالبرهان ففرض فيه ، وهو ذلك التـــأويل ،

وفرض الجمهـــور هو جماعها على ظاهرها فى الوجهين جميعا ، أعنى فى التصوير والتصديق ، اذا كان ليس فى طباعهم أكثر من ذلك ، وقد يعرض للنظار فى الشريعة تأويلات من قبل الطرق المشتركة بعضها على بعض فى التصديق ٠

وان كلام ابن رشد هو فى مقام الأدلة القرآنية من حيث التصور المنطقى والتصديق وما يترتب على قوة الاستدلال من حيث قبول الحكم الشرعى أو الاعتقادى للتأويل ، وعدم التأويل ، ومن حيث قبول الاعتقاد للنظر أو عـــــدم قبـــوله ٠

وخلاصة ما قاله بايضاح أن المقدمات اذا قامت على المشهور أو المظنون ، ولكن بتضافر أنواع الاستدلال ، وتكاثر الطرق ، صـــارت يقينية من حيث النتيجة ، والنتيجة تثبت حقيقة ثابتة ليس لها مثيل ، فان النتيجة لا يصـــح انكارها ، ومنكرها كافر ومحاولة تأويلها كفر ، واذا كانت المقدمات مظنــونة أو مشهورة وليس لها مرادفات ترفعها الى درجة اليقين ، والنتيجة ليســت يقينية ، فالتأويل يجرى فى النتيجة والمقدمة اذا كان له مسوغ أو تعارضت طرائق الاستدلال ٠

واذا كانت المقدمات مشهورة أو مظنونة ، ولكنه بتضافر الأدلة تنتــج يقينيا ، والنتيجة تحتمل عدة صور متشابهة ، فان التأويل لا يدخل فى المقدمات، ولكن يدخل فى النتائج ٠

وقد تكون المقدمات مظنونة أو مشهورة ولا يقين فيها ، ولكنها تنتــج نتيجة واحدة لا مثنوية فيها ، فانها لا تقبل التأويل فى النتيجة ، وتقبل التأويل فى المقدمات ٠

١٤٣ ـــ هذه كلمات ابن رشد ، وذلك بيانها ، وان كانت فى ذاتها غير بينة واضحة المقصد ، ولكن يثار هنا قول ، وهو أيصح أن نقول ان أدلة القرآن خطابية أو جدلية أو برهانية ، اننا لا نستطيع أن نقول انهـــا خطابية ، كما قد يشير الى ذلك ابن رشد ٠

وقبل أن نقطع فى ذلك برأى نذكر تعريف الأدلـــة الخطابية ، كما فى الشفاء لابن سينا ، يقول ابن سينا « ان الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر فى أقسام المنطق ، لأن المقصود من المنطق أن يتوصل الى التصديق ، فان أوقع التصديق يقينا فهو البرهان ، وان أوقع ظنا أو محمولا على الظن فهو الخطابة، أما الشعر فلا يوقع تصديقا لكنه لافادة التخييل الجارى مجـــرى التصديق ، ومن حيث انه يؤثر فى النفس قبضا أو بسطا لكنه لافادة التخييل الجـــارى مجرى التصديق ، ومن حيث انه يؤثر فى النفس قبضا أو بسطا ، عد فى الموصل الى التصديق » ٠

والتخييل عنده كما عرفه اذعان للتعجب والالتذاذ تفعله صور الكلام ٠

ونراه من هذا يضع المنطق والخطابة والشعر فى ثلاث مراتب ، فالأول يتجه الى التعيين ، وهو أعلى مراتب التصديق ، والخطابة تصل الى مرتبة الظن الغالب ، والاتجاه اليها لا يوصل الا الى ذلك ، والشعر يتجه الى ايثار الخيال ، والاعجاب والالتذاذ بصورة الكلام ، ولا يؤدى فى ذاته الى تصديق الا اذا تضمن ما يشبه المنطق ، أو يشـــبه الخطابة فانه يؤدى الى يقـــين أو الى ظن ٠

ولابد لنا من أن نذكر أمرين ثابتين :

أولهما ــ أن الخطابة فى أقيستها لا تعتمد الا على الظن ، ولا تنتـــج الا الظن ، ولكن يجب أن نعلم أن من الحقائق التى تجىء على ألسنة المتكلمين والتى تجرى فى الأسلوب الخطابى ما هو يقين ينتج قطعا ، ولا ينقص القطيعة فيها أنها خلت من صور الأقيسة والأشكال البرهانية ٠ فليست العبرة فى اليقين بالشكل ، انما العبرة بالحقيقة أهى مقطوع بها أم غير مقطوع ، والشـــكل البرهانى لا يمنحها يقينا ، كما أن عدم التمسك به لا ينقص يقينها ٠

وان كثيرا من الأدلة الخطابية تعتمد على أقوى المقدمات الزاما وأشدها

افحاما ، وان المنطق مميز لباطل القول وليس موجدا لليقين بذاته ، فان الأشكال المنطقية أخص خواصها أنها تكشف زور الباطل ٠

وقد يكون الكلام الخطابى مجملا بالأشكال المنطقية فى مقام الرد على حجج الخصوم ، وكشف زيفها ، وبيان وجه البطلان فيها ، وكثيرا ما تستخدم الخطب التى تقوم على المحاجة ، والجدال والبراهين والأقيسة المنطقية لبيان وجه البطلان فى كلام الخصم ٠

الأمر الثانى : أنه لا ينطبق ما يقال فى الخطابة والجدل من أنهما يقومان على الأدلة الظنية على القرآن ٠

ونحن نميل الى أن الاستدلال القرآنى له طريق قائم بذاته ، واذا نظرت اليه وجدت فيه ما امتازت به الأدلة البرهانية من يقين لا مرية فيه ، وما امتازت به الأدلة الخطابية من اثارة للاقناع ، وما امتازت به كل خواص البيان العالى ٠ مع أنه لا يسامى ، وهو معجز لكل الناس عربهم وعجمهم ٠

اسلوب القرآن فى الاستدلال والجدل :

١٤٤ — ان القرآن خاطب الناس جميعا فى أجيال مختلفة ، وأقوام تباينت مشاربهم ، ومن أجل أن نعرف بلاغة القرآن فى الاستدلال والجدل يجب أن نشير بكلمات موجزات الى أصناف الناس ٠

ان طبائع الناس متفاوتة ، ومشاربهم مختلفة ، وأهواءهم متنـــازعة ، ومسالكهم فى طلب الحق متعددة ٠

(أ) فمنهم من يصدق بالبرهان ، ولا يرضيه الا قياس تام أو ما يجرى مجراه ، وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفيـــة وكان لهم من أوقاتهم ما أزجوه فى دراسات واسعة النطاق ، وعلوم سيطرت عليهم ، فسادهم التأمل الفلسفى ، والمنزع العلمى ٠ والمستقرى لأحوال الأمم

المتتبع لشئون الاجتماع يجد أن هذا الصنف قلة فى الناس ، وعددهم محدود بالنسبة لغيرهم ، اذ أن أكثر من فى الأرض قد انصرف الى المهـــن من زراعة وصناعة ، فما كان له وقت يزجيه فى تلك التأملات ، ولهذا أمر الله تعـــالى نبيه أن يدعوه بالحكمة فى قوله تعالى : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن** » ٠

(ب) من الناس من غلب عليه مذهب دينى أو غير دينى قد استأثر بلبه ، وسد مسام الادراك ، اذ استولت عليه نحلة مذهبية فتعصب لها ٠ والتعصب يعمى ويصم ويجعل النفس لا تستسيغ الحق الا بمعالجات عسيرة ، وان باقناع ذلك لا يكون الا بالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعسر علاجا ، وأعز دواء من علاج الأجسام ٠

وهؤلاء لابد لهم من طريق جدلية تزيل ما لبس الحق عليهم ، ويتخذ بها قوة مما يعتقدون ، اذ يلزمهم بما عندهم ، ويفحصهم بما بين أيديهم ، ويتخـذ مما يعرفون وسيلة لالزامهم بما يرفضون ٠

وهذا الصنف من الناس ٠ وان كان أكثر عددا من الأول ليس هو الجمهور الأعظم ولا الكثرة ، الغالبة بين الناس ، ولعله الذى أمرنا الله تعالى بألا نجادله الا بالتى هى أحسن وذلك فى قوله تعالى : « **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن** » ٠

(حـ) أما الجمهور الأعظم من الناس فليسوا هؤلاء ، ولا أولئك ، بل هو فى تفكيره أقرب الى الفطرة ، فيه سلامتها ، وفيه سذاجتها وفيه اخلاصهـا وبراءتها ، وهو لا يخاطب بتفكير الفلاســفة ، ولا يخاطب بمـــا يخاطب به المتفكرون تفكرا علميا ، بل يليق به ما التقى فيه الحق مع مخاطبة الوجدان ،

---

(١) النحل ، ١٢٥

(٢) العنكبوت : ٢٦ ٠

وما اختلطت فيه الحقائق اليقينية بما يجعل الأهواء تابعة لها ، والميول خاضعة، لمناهجها ، وما التقت فيهسياسة البيان وبلاغته بقوة الحق، وليس بما يختص بهأهل المنطق ، ولا ما عليه أهل العلوم الكونية ، انما يخاطب الجمهور الأعظم بالحق، وبما يغذى الفطرة ، وبما يثيرها ويوجهها الى السبيل الأقوم ۰

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التى جاءت للكافة ، وبعث بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للناس جميعا بشيرا ونذيرا ، فلا تقتصر دعوته على قبيل ، ولا على جيـــل ، بل هى لكل الأجيال والقبـــائل والأقوام ، والألوان ، الى أن يرث الله تعالى الأرض ، ومن عليها ۰

١٤٥ ــ لذلك وجب أن يكون القرآن ، وهو الحجة الكبرى فيــه من الأدلة ، والمناهج ما يقنع الناس جميعا على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم ، وتفاوت مداركهم ، ووجب أن يكون أسلوبه الفكرى والبيانى ، بحيث لا يعلو على مدارك طائفة بعد بيان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه الذين تلقوا من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم القرآن ، وبيانه ، ويجـــد العلماء فيه غذاء نفسيا واعتقاديا وخلقيا وصلاحا انسانيا ، بل يصل الجميع اليه ، يجد فيه المثقف بغيته ، والفيلسوف طلبته ، والعامة من الشعوب دواء نفوسهم ، وشفاء قلوبهم ، والحق المبين الهادى لهم الذى يأخذ بأيديهم الى العزة والرفعة ۰

وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته ، والمفكر فى مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل ، وينبه الغافل ، ويرضى نهمة العـــالم ۰ اقرأ قوله تعـــالى : **« أو لم ير الذين كفروا أن الســـموات والأرض كانتا رتقـــا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون »** (١) اقرأ هذا وارجع البصر فيهـا كرتين ألا ترى فيها توجيه الأذهان الى عظيم قدرة الله تعالى وقوة سلطانه على الوجود كله ، وبين سبحانه كيف اخترع وأبدع على غير مثال سبق ، ويثبت

---

(١) الأنبياء ٣٠ ۰

بذلك أنه وحده الأحق بالعبادة ، وان القارىء للقرآن من دهماء الناس يرى فيها علما بما لم يكن يعلم ، قد أدركه بأسهل بيان وأبلغه ، ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث فى نشأة الكون · دقة العلم واحكامه ، وموافقة ما وصل اليه العقل البشرى لما جاء بذلك النص الكريم مع سمو البيان وعلو الدليل فتبارك الذى أنزل القرآن ·

واقرأ قوله تعالى : « **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة · فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون (٢)** » الخ الآيات الكريمات ·

ثم تدبر هذه الآيات البينات تجد أن الأمى يستفيد منها علما غزيرا فوق أنه يعرف منها أن الله سبحانه وتعالى سيبعث الناس يوم القيامة ، فيزداد ايمانا، كما علم ما لم يكن يعلم ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الانسان والدارس للحيوان جرثومة فجنينا ، فحيوانا على ظهر الأرض حيا ، فيرى فيها دقة العلم والتكوين ، وصدق الحكاية ، حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء فى أوربا ، فاعتقد أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم طبيب رأته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أميا لا يقرأ ، ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله تعالى بارىء النسم ·

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله تعالى ، وما فيه من أدلة أنه قريب من الأمى يفهمه ويعرفه ، ويعلم منه علم ما لم يكن يعلم ، يدرك منه ما يناسب معرفته ، ويسمو اليه ادراكه ، وما يدركه منه صدق يقينى لا شبهة فيه ·

---

(٢) المؤمنون ١٢ ــ ١٦

ويرى فيه العالم الباحث حقائق صادقة · ما وصل اليها البحث العلمى الحديث الا بعد تجارب ، ومجهودات عقلية ، وكلما ازداد المتأمل المتبصر فى الآيات التى تتعلق بالكون ازداد استبصارا ، ورأى علمـــا أسمى مما يدركه الانسان بتجاربه ، وأعلى مما يهتدى اليه الانسان بعقله المجرد ·

مسلك القرآن فى سوق الأدلة

١٤٦ ــــ قد شرحنا من قبل الأدلة الخطابية والبرهانية والجدلية ، وقد أشرنا الى أن أسلوب القرآن فوق هذا ، والآن نوضح ما أشرنا اليه من قبل فنذكر بالعبارة الواضحة ، ما ذكرناه بالاشارة اللائحة ·

ان أسلوب القرآن أسمى من الخطابة ، وأسمى من منطق أرسطو ، ومن لف لفه ، تراه قد اعتمد فى مسالكه على الأمر المحسوس أو الأمور البدهيـــة التى لا يمترى فيها عاقل ، وليس فيه قيد من قيود الأشكال المنطقية من غير أن يخل بدقة التصوير ، وقوة الاستدلال ، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج فى أحكام العقل ·

وانك لترى بعض أوصاف الأسلوب الخطابى ، قد أتى فيها بالمثـــــل الكامل فيه ، وهو أعلى من أن يوصف بأنه جاء على منهاج من مناهج الخطابة، وفيه تصريف القول الذى يلقى بجدة فى نفس القارىء والسامع ، فتصريف فنون القول من ايجاز غير مخل ، وحذف كلمات أعلن الأسلوب وجودها وغزارة فى المعانى مع قلة فى الألفاظ واطناب مبين ، بحيث لو حذفت كلمة لاختل بنيان القول ، اذ أن الكلام القرآنى بعضها مع بعض كالبنيان النورانى المرصوص ، ولكل كلمة اشعاع مشرق فيه بحيث لو لم تكن ، يكون جزءا ناقصا من الأطياف للآيات القرانية ·

ثم من قصص حوى أقوى الأدلة فى ذات القصة وما حوت ، وفى الأدلة

التى سيقت فى بيـــــان الأنبياء السابقين لرسالاتهم ، ومجـــادلة المخالفين والمناوئين ٠

ومهما يكن من قول فى استدلالات القرآن الكريم ، فان له منـــاهج فى الاستدلال تعلو على براهين المناطقة ، والأخيلة المثيرة للاقنـــاع ، والأدلة الخطابية ٠

١٤٧ ــــ ونستطيع أن نذكر بعض مناحى القرآن فى الاستدلال من غير احصاء ، بل نذكر بعضها ، وبعضها ينبىء عن غيره ٠

ومن ذلك الأقيسة الاضمارية ، وهى الأقيسة التى تحذف فيها احـــدى المقدمات ، مع وجود ما ينبىء عن المحذوف فهو محذوف معلوم مطوى فى الكلام منوى فيه ، وهذا الحذف يكثر فى الاستدلال الخطابى ، بل يقول ابن سينـــا فى الشفاء « الخطابة معولة على الضمير والتمثيل ، **والضمير هو القيـــاس** الاضمارى ، والتمثيل هو الحاق أمر بأمر لجامع بينهما » ويسمى فى عـــرف الفقهاء ، قياسا فقهيا ، بينما هو فى عرف المناطقة تمثيلا ، لأن فيه مشـــابهة بين أمرين ٠

وقد يقول قائل انك قررت أن القرآن أعلى فى اقنـــاعه واستدلاله من الخطابة والمنطق والشعر ، ومع ذلك تقرر أنه ينهج منهـــاج الخطـابة فى الاستدلال ! !

ونقول فى الاجابة عن ذلك اننا نعلو بمنهاج القرآن عن الخطابة ، وان كان يسلك بعض مناهج الخطابة فى الاستدلال ، وعلو القرآن فى هذه الحـــال بأسلوبه أولا ، فهو كيفما كان من نوع الكلام المعجز ، وثانيا ــ القرآن يعلو عن الخطابة فى أن كل مقدماته ونتائجه يقينية لا مجال للظن فيها ، فان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، فكل ما فى القرآن حقائق يقينية ، ولا ينبع منهـــاجه الا من اليقين ، وقد لام على مخالفيه أنهم يتبعون الظن ، وان هم الا يخرصون٠

ونعود من بعد ذلك الى الاعراض الذى يرد على الخاطر ، وان كان لا يرد على الموضوع ، فنقول : ان الناظر المستقرى لأدلة القرآن يرى أكثرها قد حذفت فيه احدى المقدمات ، ولقد قال الغزالى بحق ٠

ان القرآن مبناه الحذف والايجاز (أى فى شكل الأقيسة) واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله ، لأنه خلق من غير أب: **« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين »** (١) ٠

ولا شك أن المثل الذى ساقه الغزالى ، واضح فيه حذف احدى المقدمات، وواضح المقايسة بين خلق آدم عليه السلام وخلق عيسى عليه السلام ، وانه اذا كان الخلق من غير أب مبررا لاتخاذ عيسى الها فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبررا لاتخاذ آدم الها ، ولا أحد يقول ذلك ٠

واننا نجد أنه قد حذفت مقدمة وبقيت واحدة وكأن سياق الدليل لو فى غير كلام الله تعالى يكون هكذا : ان آدم خلق من غير أب ولا أم ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى الها بسبب ذلك لكان آدم اولى ، لكن آدم ليس ابنا ولا الها باعترافكم ٠ فعيسى أيضا ليس ابنا ولا الها ٠

وان الحذف قد صير فى الكلام طلاوة ، وكسبه رونقا ، وجعل الجملة مثلا مأثورا ، يعطى الكلام حجة فى الرد على النصارى ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعا ينتهون اليه ، وانما خلق من تراب ، فلا عزة الا لله تعالى ٠

١٤٨ ـــ وقد يساق الدليل فى قصة ، وقد ذكرنا من قبل مقام القصص القرآنى فى هذا المقام ونقول ان القرآن اتخذ القصص سبيلا للاقناع والتأثير، وضمن القصة الأدلة على بطلان ما يعتقد المشركون وغيرهم ، وقد يكون موضوع

---

(١) آل عمران : ٥٩ ـ ٦٠

القصة رسولا يعرفونه ويجلونه اذ يدعى المجادلون انهم يحاكونه ويتبعونه ، فيجىء الدليل على لسانه فيكون ذلك أكثر اجتذابا لأفهامهم وأقوى تأثيرا ، وقد يكون مفحما ملزما ان كانوا يجادلون غير طالبين للحق ٠

وانظر الى قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وقصته مع قومه (وقد ذكرناهما فى موضوع القصص) ، فانك ترى فى القصتين أدلة التوحيد واضحة قوية تثبت بطلان عبادة الأوثان ، ولابراهيم من بين الرسل مكانته عند العرب ، اذ هو شرفهم ، ومحتدهم الذى اليه ينتسبون ، وقد كانوا يزعمون أنهم على ملته ، فاذا جاءهم الخبر بتوحيده ومحاربته للأوثان ، وسيق لهم ما كان يحتج به على قومه ، كان ذلك مؤثرا أى تأثير فى قلوبهم ٠

ومجىء الدليل على لسان رسول يقر بفضله المخالفون كابراهيم عند العرب ، وموسى عند بنى اسرائيل ، يعطى الدليل قوة فوق قوته الذاتية ، اذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين ، من جهة قوة الدليل الذاتية ، ومن جهة أن الذى قاله رسول أمين يعرفونه ، فيكون هذا قوة اضافية ، وفوق ذلك فيه الزام وافحام ، اذ أنهم يدعون أنهم أتباعه ٠

وقد يجىء الدليل أحيانا فى قصص القرآن على لسان حيوان فى قصة ، فيكون ذلك غرابة تسترعى الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس ايمانا بالحقيقة ، كما جاء على لسان الهدهد فى سورة النمل ٠ اذ يقول الله سبحانه وتعالى حاكيا عن سيدنا سليمان عليه السلام « **وتفقد الطير ، فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ، الا يسجدوا لله الذى يخرج**

الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » (١) ٠

وترى من هذا أن دليل التوحيد جاء على لســـان الهدهد ، فى أوجــز عبارة ، وأوضح اشارة ألا تراه ينبه الى بطلان عبادة الشمس من دون الله ، لأنها لا تؤثر فى الابداع ، والانسان بذاتها ، وبين أن ذلك هو الضلال للفطرة ، انما من تزيين الشيطان الفاسد الأفكار ، وجعلهم يبتعدون عن حكم الفطرة الانسانية، وهو أن يسجدوا لله تعالى الذى يخرج المخبوء من البذور ، والنوى ، وكل أسباب الوجود ، وهى مختفية عن الشمس وضوئها ، فاذا كان تأثيـــر ظاهرى فى الظاهر الذى خرج من الخبء ، فما يكون تأثيرها فيما هو خبء ، لا تأثير لها فيه لا ظاهرا ، ولا خفيا ٠

قياس الخلف :

١٤٩ ــ قياس الخلف هو اثبات الأمر ببطلان نقيضـــه ، وذلك لأن النقيضين ، لا يجتمعان ، ولا يخلو المحل من أحدهما ، كالمقابلة بين العـــدم والوجود ، والمقابلة بين نفى أمر معين فى مكان معين وزمان معين ، واثباته فى هذه الحال ، فان انتفى بالدليل كان ذلك حكما بوجود نقيضه ٠

فدليل الخلف أن يبطل النقيض ، فيثبت الحق ، وأن القرآن الكريم يتجه فى استدلاله الى ابطال ما عليه المشركون فيبطل عبادة الأوثان ، فيثبت التوحيد ٠

ومن ذلك الاستدلال على التوحيد قوله تعالى : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** » (١) وهنا نجد الاستدلال القرآنى اتجه الى اثبات الوجدان بدليل قياس الخلف ، وتقرير الدليـــل من غير أن

---

(١) النمل ٢٠ : ٢٦ ٠

(١) الأنبياء : ٢٢ ٠

تتسامى الى مقام البيان القرآنى · كما يسوقه علماء الكلام : هكذا : لو كان فى السموات والأرض اله غير الله لتنـــازعت الارادتان بين سلب وايجـــاب ، وان هذا التنازع يؤدى الى فسادهما ، لتخالف الارادتين ، ولكنهما صالحان غير فاسدين ، فبطل ما يؤدى الى الفساد ، فكانت الوحدانية ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، ويسمى علماء الكلام هذا الدليل دليل التمانع ، أى امتنعت الوثنية لامتناع الفساد ، فكانت الوحدانية ·

ومن القياس الذى يعتبر قياس الخلف قوله تعالى : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض** » (١) أى وان ذلك باطل ، فما يؤدى اليه باطل ، وبذلك ثبت التوحيد ·

ومن قياس الخلف قوله تعالى : « **لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا** » (٢) وهذا أيضا من قبيل فرض التمانع الذى يؤدى الى الفساد ، ولا فساد ، فيبطل ما يؤدى اليه ·

ومن قياس الخلف فى اثبات أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى قوله تعالت كلماته : « **ولو كان من عند غير اللهلوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » (٣) واذا ثبت أنه ليس فيه اختلاف ، ولا تضارب فى مقرراته ، ولا عباراته ، فانه يثبت النقيض ، وهو أنه من عند الله تعالى ·

ونرى أنه فى كل هذه الآيات البينات كان اثبات المطلوب بابطال نقيضه ، وقد أشرنا الى ذلك فى كل آية مما تلونا ·

ثم انك ترى مع هذا القياس الذى واجه المخاطبين بابطـــال ما يدعون ليثبت ما يدعوهم اليه الرسول ، معنى ساميا قويا ، وهو مهاجمـــة المخالفين

---

(١) المؤمنون : ٩١ ·
(٢) الاسراء : ٤٢ ·
(٣) النساء : ٨٢ ·

بابطال ما عندهم ، وأنه ليس من القول الذى يقام له دليل ، وان ذلك يوهنهم ، وينهنه من قوتهم ، ولذلك كانوا يشكون من النبى يسفه أحلامهم ، ويصغر من أصنامهم ·

ومع هذا القياس نجد الاضمار للمقدمات ، وابراز أوضحها الذى يومىء الى ما وراءها ، فما يضمره من المقدمات هو المختفى المعلوم ، والظاهر المكتوم ·

السير والتقسيم :

١٥٠ — السير والتقسيم باب من أبواب الاستدلال الكاشف للحقيقة ، الهادى اليها ، وهو أيضا من أبواب الجدل ، يتخذه المجادل سبيلا لابطال دعوى من يجادله ، بأن يذكر أقسام الموضوع الذى يجادل فيه ، ويبين أنه ليس فى أحد هذه الأقسام خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه ، فيبطل دعوى الخصم ·

وقد ذكر السيوطى أنه من أمثلته فى القرآن الكريم قوله تعالى : « **ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم ان كنتم صادقين ، ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين** » (١) ·

وبين السيوطى وجه الاستدلال فقال : « ان الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة ، واناثها أخرى رد الله تعالى عليهم ذلك بطريق السير والتقسيم ، فذكر تعالى : أن الله خلق الخلق مما ذكر زوجين ، ذكر وأنثى ثم جاء تحريم ما ذكرتم عندكم · ما علته ، لا يخلو اما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ،

---

(١) الأنعام : ١٤٣ ـ ١٤٤ ·

أو اشتمال الرحم الشامل لهما ، أو لا يدرى له علة ، وهو التعبدى بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله تعالى اما بوحى وارسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه ، وهو معنى قوله تعالى « **أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا** » ، فهذه وجوه التحريم ، ثم لا تخرج عن واحدة منها ، والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراما ، والثانى يلزم عليه أن يكون جميع الاناث حراما ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معا ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة ، وبعض فى حالة ٠ لأن العلة على ما ذكر تقتضى اطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة (وحى) باطل ، ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت اليهم رسول قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال » (١)

خلاصة الاستدلال على بطلان ما ادعوا من تحريم السائبة والوصيلة ، وبعض الماعز والبقر ، أن الله تعالى العلى الحكيم ينبههم الى أن التحريم يكون لوصف ذاتى فى هذه المحرمات أو لتحريم بوحى أو رسول ، ثم أخذ يبين سبحانه أنه لا يوجد وصف ذاتى فى هذه الأشياء التى يحرمونها فذكر سبحانه أن السبب فى التحريم اما أن يكون فى الذكورة وحدها ، أو الأنوثة وحدها ، أو فيهما مجتمعة ، لا جائز أن تكون فى الأنوثة وحدها ، لأنكم حرمتم ذكورا ، ولأن مقتضى العموم أن تحرم كل أنثى ، وكذلك الأمر فى الذكورة ، لان ذلك يوجب تحريم كل الذكور ، وكذلك اذا كان وصف التحريم ذاتيا فى كل ما تحمل الأنثى وتلد الأرحام ، فان ذلك كان يوجب تحريم كل الأنعام ، وأنتم اختصصتم بالتحريم بعضها دون كلها ٠

واذا لم يكن ثمة وصف ذاتى اقتضى التحريم فهل كان نص من رسول ، أو وحى ، أو من أين جاءكم العلم ، لا شىء من هذا ، وهذا الجزء الأخير

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ٠

كقوله تعالى فى آخر سورة الأنعام « **سيقول الذين كفروا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون(١)** »

التمثيل :

١٥١ ـــ التمثيل أن يقيس المستدل الأمر الذى يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بدهى لا تنكره العقول ، وتقربه الأفهام ، ويبين الجهة الجامعة بينهما ، وان القرآن الكريم قد سلك هذا المسلك على أدق وجه وأحكمه مقربا ما بين الحقائق القرآنية ، والبدائة العقلية وكثير من استدلالات البعث تقوم تقريب البعث وقدرة الله تعالى عليه بما يرون من انشـــاء لذلك الكون البديع ، وما خلق به الانسان وبيان أطواره من أصلاب الآباء الى أرحام الأمهات ٠

اقرأ قوله تعـــالى : « **يأيها النـــاس ان كنتم فى ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقـــة ، وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشـــاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها المـــاء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** » (٢) ٠

ونرى من هذا عقد المشابهة بين ابتداء الخلق واعادته التى لخصها الله سبحانه وتعالى فى قوله « **كما بدأكم تعودون** » وفى هذه الآيات الكريمات بين

---

(١) الأنعام : ١٤٨

(٢) الحج : ٥ ـ ٧

سبحانه وتعالى كيف ابتدأ خلق الانسان من طين ، ثم جاءته الأطوار المختلفة حتى آل الى القبر ثم كيف خلق الأحياء فى الأرض من نبات وحيوان واهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، وان كل ذلك دليل على قدرة المنشىء عــلام الغيوب ، بديع السموات والأرض ، وأنه على ما يشاء قدير ٠

وان هذا النسق البيانى قرب فيه البعيد ، وسهل على الأفهام دخوله ، والله على كل شىء قدير ٠

واقرأ فى هذا النـــوع من الاستدلال قوله تعالى : « **وضرب لنا مثــلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييهـــا الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ، فاذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** » (١)

وتجد فى هذه الآيات الكريمة عقد المشابهة بين ابتداء الخلق واعادته فى أبلغ تعبير وأسلم تقرير وان فى هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القــرآن الكريم قياس ما فى الغيب على المشاهد ، وقياس ما بينه الله تعالى ، وأوجب الايمان به على ما هو واقع مرئى مشاهد ، فيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى ، وأنه المالك لما هو واقع ، والقادر على ما لم يقع الآن ، وسيقع ، كمـــا وعد ، ووعده لا يتخلف ٠

١٥٢ ـــ هذا ويلاحظ القارىء للقرآن التالى لآياته ، المتبصر فى عبره وعظاته ، والدارس لأدلته ـ أن جدل القرآن لا يتجه الى مجــــرد الافحام والالزام ، بل يتجه فى الكثير الغالب الى ارشاد القارئين والمدركين ، والأخذ بأيديهم الى الحق ، وتوجيه النظر الى الحقائق ، وما فى الكون من دلائل على القدرة ، كما ترى فى قوله تعالى :

---

(١) يس : ٧٨ ـ ٨١

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (١) ٠

فترى فى هذه الآيات البيان فيها ليس مجرد افحام الوثنيين ومنكرى التوحيد ، بل فيه توجيه الى الكون ، وما فيه من دلائل القدرة ، وعجائب الصنع وما فيه من سماء زينت ببروجها ونجومها ، والأرض وما فيها من رواسى كأنها تمسكها أن تميد ، وما فيها من نبات يحصد فى ابانه ، وجنات تونع وتثمر فى رقعتها ٠

واقرأ قوله تعالى فى سورة الرحمن : **« الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ، ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة ، والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان »** ٠ الى آخر السورة الكريمة ، وفى هذا ترى الاستدلال القوى متجها الى الارشاد الى ما فى الكون ، وما أنعم الله به على الانسان من علم بما لم يكن يعلم وما علمه من الشمس والقمر ، وما علمه من معاملات كريمة ، وتعاون انسانى مبنى على الفضيلة ، وعلمه كيف خلق الانسان ، وهكذا من استدلال حكيم ، وارشاد وتوجيه وتعلم ٠

---

(١) ق ٦ ــ ١١

وانه اذا اتجه القرآن الكريم الى الالزام والافحام ، لا يلبث أن يأخـذ بيد المعاند الى الحقيقه يبينها واضحة جلية لا ريب فيها ، كمـا ترى فى قوله تعالى رادا على المشركين طلبهم أن يكون الرسول ملكا :

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون (١) »

فانك ترى أن فى ذلك افحاما لهم من ناحيتين : الناحية الأولى أنهم لو أجيبوا الى ما يطلبون لقضى عليهم ما هـددهم الله تعالى به ، ولا ينظرون ، والثانية أنه لا يزول اللبس الذى يلبسون به الحق بالباطل لأنه لو جعله الله تعالى ملكا فى صورة رجل ، وبذلك يجىء الالتباس الذى لبس به عليهم ٠

ومن الاستدلال المفحم الهادى قوله تعالى فى الرد على اليهود ووصفهم: **« الذين قالوا ان الله عهد الينا الا نؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقـربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ، وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » (٢) ٠**

وكما ترى فى قوله تعالى ردا على الذين ينكرون الرسالات الالهية ، فقد قال تعالت كلمـاته : **« وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا ، وهدى للناس » (٣)** ويظهر أن الذين قالوا هذا القول من اليهود ، قالوا لينكروا رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفى هذه الآيات التى تلوناها ترى الالزام المفحم ، والحجة البالغـة ، والفيصل الفارق بين الحق والباطل ، قد أدحضت به حجة الخصوم وأرشدوا

---

(١) الأنعام : ٨ ـ ٩
(٢) آل عمران : ١٨٣
(٣) الأنعام : ٩١

الى المحجة ، ووضعت الصوا والأعلام ، ليسيروا على الجادة بعد أن بددت الظلمات ، وأذهب ضوء الحق ظلام ما موه به الخصوم ، فمن أبى واستكبر بعد ذلك فهو من الأخسرين ، بعد أن أزيلت من أمامه غياهب الباطل ٠

١٥٣ ـــ وعند توجيه الله تعالى نظر المجادل الى الحقائق من غير اتجاه الى الزام من أول الأمر ، أو بعد الزامه وافهامه يكون تصريف البيان ، ومناحى التأثير ، وتكون العبارات التى تخاطب العقل والوجـــدان ، وتمس مواطن الاحساس ، وتتنوع المناهج وتتضافر المعانى وللألفاظ جدتها وطلاوتها ، ومع التكرار أحيانا تزداد الفائدة ، وتكثر الثمرات ،وتنوع الأساليب من استفهام الى تعجب الى تهديد الى اخبار ، ويختلف الاتجاه الى مواضـــع الاستدلال وينابيعه ٠

(ا) فمرة يكون الاستدلال برد المسائل الى أمور بدهية معروفة ، كما أشرنا ، أو حقائق مشهورة مألوفة يخر المجادل أمامها صاغرا كما ترى من ابطال قول من زعم أن لله سبحانه وتعالى ولدا ، اذ يقول سبحانه وتعالى : « **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصـــار ، وهو يدرك الأبصـــار ، وهو اللطيف الخبير** » (١)

ألا ترى أن الاستدلال القرآنى اتجه الى بطلان مدعاهم الى أمر معروف مشهور مألوف لا يمارى فيه أحد وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبـــة ، ولم يدع أحد أن لله تعالى صاحبة ، فبطل أن يكون له ولد ، تعالى الله عمـــا يقولون علوا كبيرا ٠

---

(١) الأنعام : ١٠١ ـ ١٠٣

(ب) وأحيانا يضرب الله تعالى الأمثال ليقرب الحقائق ، ويدنيها ، وقد بينا ذلك وأمثلته عند كلامنا فى ينابيع الاستدلال القرآنى ·

(حـ) وأحيانا يوجه نظر الناس الى المخلوقات ، والى ما فى الكون مما يدل على قدرة الصانع ، وعلم المبدع ، انظر الى قوله تعالى : « **والهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** » (١) ·

وهكذا ، وارجع الى ما قدمنا من مصادر الاستدلال فى القرآن الكريم ·

ويلاحظ أن القرآن الكريم فى الجدل الذى يلزم الخصوم ، ويفحمهم ، يجىء الى الافحام من أقرب الطرق ، وأقواها الزاما ، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن خليله ابراهيم عليه السلام فى مجادلة مدعى الألوهية ، فقد قال تعالى :

« **ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم ، فان الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين** » (٢) ·

وان وسائل أخذ الخصم بأقرب طريق للافحام والالزام كثيرة ·

(أ) منها التحدى كما تحدى الله تعالى كفار قريش بأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وكما تحدى ابراهيم الملك الوثنى ·

---

(١) البقرة : ١٦٣ ـ ١٦٤

(٢) البقرة : ٢٥٨

(ب) ومنها أخذ الخصم بموجب كلامه ، واثبات أنه عليه وليس له ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن المنافقين ، اذ يقول سبحانه وتعالى عنهم : « **لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** » (١) فسلم لهم أن الأعز يخرج الأذل ، ولكن من هو الأعز ، لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ٠

(جـ) ومنها مجاراة الخصم فيما يقول ، ثم التعقيب عليه بما يقلب عليه نتائج قوله ، ومن ذلك قوله تعالى حاكيا عن الرسل مع أقوامهم : « **قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون** » (٢) ٠

فترى من هذا النص السامى أن الرسل سلموا بالمقدمة التى بنى عليها الأقوام رفضهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم « ولكن الله يمن على من يشاء » فكأنهم قالوا لهم ما قلتموه من أننا بشر حق ، ولكن ما تريدون أن تبنوا عليه من اثبات أننا لسنا أنبياء باطل ، لأن الله يمن على من يشاء من عباده ، وهو قد من علينا ، وقدمنا لكم السلطان أى الدليل ، ولا سلطان لنا الا ما يأذن به الله تعالى ٠

١٥٤ — هذه قبسة من نور الذكر الحكيم الذى أضاء الله تعالى به الخليقة لتهتدى الأجيال بهديه ، وتسير على ضوئه ، وتعشو اليه اذا أظلمت ، وعمتها الجهالات ، وتاه الناس فى مثارات الشيطان ٠

---

(١) المنافقون : ٨

(٢) ابراهيم : ١٠ ـ ١١

وما أردنا بذلك البيان احصاء لطرق الإستدلال فى القرآن ، ولا استقصاء لمسالكه فى جدله ، فدون ذلك تنفق القوى ، وينبت الظهر ، ويقصر الشأو ، ولكن أردنا أن يرى الدارس للقرآن الكريم أمثالا عن طرق جدل القـرآن واستدلالاته وكيف كانت أعلى من المنطق فى دقته ، وأن لم تتقيد بأساليب المنـــاطقة ، ولا بأشكال أدلتهم ، ففى أدلة القرآن التقديم والتأخير ، والايجاز والاطناب تبعا لروعة البيان ونسقه وجماله ، وليس تبعا لأشكال البرهان ، وكانت مــــع ذلك أعلى من الخطابة ، وان كان بيانه المثل الأعلى الذى لا يستطيع أن يجاريه الخطباء ٠٠

ولو أن المتكلمين الذين عنوا باثبات العقائد ، والجدل فيها سلكوا مسلك القرآن ، وساروا فى سمته لكان علمهم أكثر فائدة ، وأدنى جنى ، وأينع ثمارا ، ولكنهم سلكوا مسلك المنطق وقيوده ، والبرهان وأشكاله ، فكان علمهم للخاصة من غير أن يفيد العامة ، فان العامة يدركون دقائق القرآن على قدر عقولهم ، ولا يدركون شيئا من أشكال الأقيسة ٠

وقد وازن الغزالى فى كتابه الجام العوام عن علم الكلام بين أدلة القرآن وطريقة المتكلمين ، فقال رضى الله عنه : أدلة القرآن مثل الغذاء ، ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد النـــــاس ، ويستضر به الأكثرون ، بل ان أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا ٠

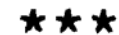
وفى الحق ان الناس لو شغلوا بدراسة القرآن ، وما فيه من اسـتدلال لينهجوا على نهجه ، ويسيروا فى طريقه ، لكان لهم من ذلك علم كثير ، فان القرآن قد اشتمل على مناهج فى الاستدلال والجدل والتأثير تتكشف عن أدق نواميس النفس الانسانية ، وتبين شيئا كثيرا من أحوال الجماعات النفسية

والفكرية وفيها الطب لأدوائها، والعلاج الناجع لأمراضها ، والدواء الشافى لعللها وأسقامها.

وفى مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام النافذ إلى القلوب والحجج الدامغة ، واعتبر ذلك بأثره فى المشركين وأثره فى المسلمين الأولين .

وقد ذكرنا فيما مضى من قولنا أن كل من كان يسمعه من المشركين يناله منه قبس يهتدى به ان آمن ، وإن استمر على جحوده أطفأ الله النور فى قلبه ، وطمس الله على بصيرته ، وكان على ريب فى الأمر ، وتردد ، فكان كل من داناه منهم مس نوره قلبه ، ونال أثره وجدانه ، حتى لقد تناهى زعماؤهم عن سماعه ، لما رأوه من أثره فى قلب كل من سمعه .

وقد كان من أثر القرآن فى المؤمنين الأولين أن عكفوا عليه يرتلونه ، ويتفهمونه ، ويتعرفوا معانيه ومراميه وجعلوه معلمهم الأول ، ومرجعهم اذا اختلفوا ، ومنهل عقائدهم ، يأخذون منه ما يقوى ايمانهم ، ويدفع الشبهات عنهم ويثبت يقينهم ، ولم يعرفوا حجة مع السنة سواه ، ولا محجة غير طريقه وهديه . به يجادلون ، وعن هديه يصدرون ، فاستقام أمرهم ، وحكموا بعدله العالمين .



علـم الـكتاب

٥٠٥ - قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « ويقول الذين كفروا **لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب** » (١) فقد جعل الله سبحانه وتعالى من عنده علم الكتاب وهو القرآن الكريم الذى نزل على رسوله الأمين شهادته بجوار شهادة الله سبحانه وتعالى ، وأى شرف أعظم من شرف علم الكتاب بعد هذا ، وأى مقام أعلى من مقـام علم الكتاب الكريم ، انه اذا مقام عظيم ، وهو مشتق من ذات العليم ، ولابد أن يكون لهذا علم الكتاب خطيرا عظيما ، وأن يكون كبيرا عزيزا ، وأن يكون واسعا بمقدار ما تتسع له طاقة البشر من علوم ، وان العلماء الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله تعالى والملائكة هم العلماء بالكتاب المذكورون ، الفاهمون لمراميه ومغازيه العاملون به ، فقد قال الله تعالى : « **شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة ، وأولو العلم قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم** » (٢) فأولو العلم الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله والملائكة هم أولو العـلم بالكتاب ، وأولو العلم بالكتاب هم العلماء الذين ذكر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخشى الله غيرهم ، اذ قال سبحانه وتعالى « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » (٣) .

هذه مكانة العلم القرآنى ، كما صرحت العبارات السـامية عن الله سبحانه وتعالى ، فما هذا العلم الذى يعلو بصاحبه الى هذا المقـام الأسمى ، والمنزلة العليا ؟ .

نجيب عنه بجوابين : أحدهما فيه اجمال ، والثانى فيه بعض التفصيل .

أما أولهما ـ فنقول انه علم النبوة ، أى علم الرسائل الالهيـة ، فان القرآن الكريم اشتمل فيما اشتمل عليه على لب الرسالة الالهية وهو التوحيد ،

---

(١) الرعد : ٤٣ .　　(٢) آل عمران : ١٨ .
(٣) فاطر : ٢٨ .

وقد قال تعالى فى ذلك « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب** » (١) · وان القرآن ذكر كل الرسالات التى سبقته ، وما لم يذكره بالبيان ذكره بالاشارة الواضحة ، فقال تعالى « **منهم من قصصنا عليك · ومنهم من لم نقصص عليك** » (٢) ، وما لم يذكر قصصه مطوى فى ذكر من قصص ، فالرسالة الالهية واحدة ، والحق واحد · والدعوة اليه واحدة ·

ولقد صرح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن من يحفظ القرآن يحفظ النبوةبين جنبيه ، فقال عليه الصلاة والسلام فيما يروى عنه الحسن البصرى : « من أخذ ثلث القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ ثلث النبوة ، ومن أخذ نصف القرآن وعمل به ، فقد أخذ نصف النبوة ، ومن أخذ القرآن كله ، فقد أخذ النبوة كلها » ويروى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « من حفظ القرآن ، فقد حفظ النبوة بين جنبيه » فالقرآن فيه قبسة علم من الله تعالى ·

ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ان هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن هو حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن رد ، فاتلوه ، فان الله يأجركم على تلاوته ، بكل حرف عشر حسنات » ·

وان هذه الآثار الواردة تدل دلالة قاطعة على أن القرآن حوى علم النبوة كله ، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من علم النبوة الا أحصاها ، وان الله سبحانه وتعالىما فرط فى الكتاب من شىء من علم النبوة ، كما قال

---

(١) الشورى : ١٣ ·
(٢) غافر : ٨٨

تعالى : « **ما فرطنا فى الكتاب من شئ** » (١) مما يتعلق بالشرائع والأحكام وبيان ما يطلب من المكلف ، وما به صلاحه فى الدنيا ، وثوابه فى الآخرة ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ٠

١٥٦ ـــ هذا الجواب مبنى على ما قرره الذين قرأوا القـــرآن من السلف الصالح ، وما نقلوه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بيـــان اجمالى لعلم القرآن الكريم مبنى على أنه تبليغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه ، وأنه التبليغ الخالد الى يوم القيامة الذى تخاطب به الأجيـــال بالرسالة العامة التى تعم الانسانية كلها ، ولا نخص عصرا من عصورها ٠

ولكن لابد من أن نعرض بالذكر ببعض التفصـــيل لما اشـتمل عليه علم القرآن ، وهذا هو الجواب الثانى الذى لا يغنى فيه الاجمال الكلى عن بعض التفصيل الجزئى ٠

وان الذى قرره السلف ، وأجمعوا عليه أن القرآن الكريم فيه علم النبوة كله ، وأن من علمه فقد حوى علم النبوة بين جنبيه ٠

وأول علوم النبوة علم الغيب ، ففى القرآن علم الغيب ، وبيان الغيب ، والغيب هو لب الايمان ، وفيه علم الحاضر الذى يدل على الغيب المستكين ، فيه بيان الوحدانية ، وبراهينها المستمدة من الكون ، واسـتقامة حالة ، والتى يستدل عليها بالآثار القائمة ، وبما خلق الله سبحانه وتعالى ٠

وان العلم بمنشىء الكون هو الفطرة الانسانية التى لا تضل الا بما يسيطر على العقل من أهواء وبما يقف دون الادراك السليم من أوهام ، وبما يحيط بالعقل من غيم يمنعه من الفهم السليم ، فالقرآن يزيل غياهب الضلال ، ويأخذ بالشارد الى حيث الأمن العقلى ٠

وان الفلاسفة يحاولون أن يدركوا المغيب عنهم من حقيقة المنشىء ، ومنهم

---

(١) الأنعام : ٣٨

من ضل فى سبيل ذلك ضلالا بعيدا ، ومنهم من قارب ، ومنهم من باعد ، ولا تجد فى كلام أولئك الفلاسفة ما يهدى للتى هى أقوم ، وما كان عجز الفلاسفة عن أن يدركوا الشىء الأول الا من سيطرة أوهام سبقت ، عكسرت على الفطرة وضللت العقل ، ولنظريات ضالات قد سيطرت عليهم ، وهى نظرية الأسباب والمسببات ، وتوهموا أنها تنطبق على منشىء الوجود ، كما هى ثابتة فى العلة بين الموجودات ، يتوالد بعضها من بعض ، ويكون لكل شىء سبب ، وهو سبب لغيره ، وهكذا تتابع الأسباب والمسببات كل سبب يتبع سببا ، وهو نتيجة لسبب، وتوهموا لهذا أن الأشياء نشأت عن منشىء الوجود نشوء المعلول عن علته ، والمسبب عن سببه ، وتسلسلوا فى الأسباب والمسببات حتى ضلوا ضلالا بعيدا ، وجاءت الأديان السماوية موجهة الأنظار الى الله تعالى خالق السموات والأرض على غير مثال سبق ، وهو المبدع ، وهو الفاعل المختار ، وهو القادر على كل شىء ، لا يخرج عن واسع علمه شىء ، ولا عن محيط قدرته خارج ، يفعل ما يشاء ويختار .

وقرر القرآن تلك الحقيقة التى هى هدف العقول ، وأخرجها من تيه الضلال الى الحق القويم .

وسيقت الأدلة الدالة على ذلك من الكون وتنوعه ، وان المقرر عقلا أن السبب يكون من جنس المسبب ، ويكون كهيئته لا يختلف عنها ، وان الاختلاف انما يكون لأمر آخر لا بمجرد السببية ، فيبين القرآن الكريم تنوع الأشياء وتنوع الأحوال ، اقرأ قوله تعالى :

« ألم تر الى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا ، وهو الذى جعل لكم الليل لباسا ، والنوم سباتا ، وجعل النهار نشورا ، وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيى به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما ، وأناسى كثيرا ، ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ، فأبى أكثر الناس

إلا كفورا »(١) « **وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا ، وحجرا محجورا ، وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا »** (٢) .

وانك ترى من هذه الآيات الكريمة ، بيان تنوع المخلوقات ، ولا شك أن هذا التنوع يتنافى مع كون الأشياء نشأت من المنشىء كما ينشأ المعلول من العلة ، لأن المعلول يجب أن يكون مماثلا للعلة ، غير مختلف عنها ، وهنا نجد اختلاف الموجودات ، من انسان يتفكر ويتدبر ، وحيوان ينعق ، وطائر يطير ، ومن شمس وقمر يسيران بحسبان .

فكان التنوع الذى ذكرة القرآن ابطالا لما يقرره الفلاسفة من نظرية العلة والمعلول ، والسبب والمسبب .

ضاق بهم مسلكهم ، فلم يتصوروا غير ذلك ، ولو نظروا الى الكون ، وما يجرى فيه من أحوال ، لأدركوا بفطرتهم المستقيمة أن المنشىء واحد أحد ، ليس بوالد ولا ولد ، ولآمنوا بقوله تعالى : « **بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة** »(٣) واقرأ قولهتعالى فى التعريف بالذات الالهية :

« **ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله ، فانى تؤفكون ، فالق الأصباح وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى انشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب**

---

(١) الفرقان ٤٥ ــ ٥٠ (٢) الفرقان ٥٣ ــ ٥٤
(٣) الأنعام ١٠١ .

والزيتون ، والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون، وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » (١) ٠

أنظر الى تعريف الذات العلية ، وما تنشئه فى هـــذا الوجود ، وان هذا يدل على الفاعل المختار دلالة قاطعة بتنوعه ، واختلاف مظاهره ، ونوع حياته ، ألا تراه يسقى بماء واحد ، وغذاؤه واحد ، ومع ذلك تتنوع أنواعه ، وتختلف أجزاؤه مما يدل على أنه نشأ بغير العلية ، بل بارادة مختارة حكيمة تفعل ما تريد ، والله يخلق ما يشاء ويختار ٠

وان القارىء الحكيم يرى فيه قدرة الذات العلية ، وارادتها الخلق ، والعقل لا يقبل غير ما جاء ما فيه ، وما يسلكه الفلاسفة من أوهام بالنســـبة للسببية ، يؤدى الى التسلسل الى مالانهاية ، فاذا كان الموجود نشأ من موجود، فمم نشأ الموجود السابق ، والسابق على السابق ، ويتأدى الى ما يستحيل العقل تصوره ، واذا كان هناك موجود تنتهى عنده السلسلة فلماذا يفرض أنه الاله ، ويفرض أنه وجد ما بعده من ارادته ، لا بالعليـــــة ٠ واقرأ الآيات القرآنية فى اثبات الوحدانية فى الذات والصفات ، وفى الخلق والايجاد ، وما ينجم عنهما من وحدة المعبود بحق ، فانك واجد علما كثيرا ، يساير العقل ، ولا يعانده ، لأنه الفطرة المستقيمة التى لم تفسدها نظرية السببية فى المنشىء التى أخذوها من السببية فى الأمور العادية ، وفرق بين واجب الوجود الذى أنشأ الكون ودبره ، وهو القيوم القائم عليه الذى قدر كل شىء تقديرا ، وبين

---

(١) الأنعام : ٩٥ ــ ١٠٤ ٠

تؤالد الأحداث ، والموجودات، وهى لا تكون بغير تقديره وتدبيره سبحانه وتعالى انه فعال لما يريد ٠

١٥٧ — وفى القرآن علم الرسالة الالهية ، والمعجزات التى اقترنت بها ، فهو يبين أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وخص العالم الانسانى بالرسل يرسلهم اليه ، ليسير الناس فى الصلاح بدل أن يسيروا فى الفساد ، وليكونوا فى مودة وسلام بدل أن يكونوا فى حرب وخصام ، وليصلوا ما أمر الله به أن يوصل ، لأن الله تعالى الذى خلق الانسان جعله اما شاكرا واما كفورا، فهيأ للشاكر أسباب شكره ، وجعل الكفور مسئولا عن فعله بعد انذار المنــذر وتبشير المبشر ، كما قال تعالى : « **وما كنا معذبين حتى نبعث رســولا** » (١) وكما قال تعالى : « **وان من أمة الا خلا فيها نذير** » (٢) فما كانت هذه الرسالات الالهية الا لتهدى الناس الى خير الطرق ، ومن يكفر فانما يكون عن بينة لئلا يكون للناس على الله حجة ٠

والقرآن الكريم يبين أن الرسل يكونون من البشر ، ومن أقوامهم ليكونوا أكثر ألفا ، وعندهم علم بهم ، كما قال تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه** » (٣) وقومه هم دعامته الأولى ، فهم الذين يكونون القوة الأولى لدعوته ويكون منهم الحواريون الذين يناصرونه ، ويرعونه حق رعايته ٠

وعندما طلب المشركون أن يكون الرسول ملكا ، رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله تعالى : « **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو انزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون** » (٤)

وان الله تعالى صرح بأن الرسالة للرسل لكى يقوم النــــاس بالحق ، والميزان ، فقد قال تعالى : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب**

---

(١) الاسراء : ١٥
(٢) فاطر : ٣٤
(٣) ابراهيم : ٤
(٤) الأنعام : ٨ ـ ٩

والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز » (١) .

وفي هذا النص الكريم ، بين الله سبحانه وتعالى أن الرسل جاءوا بالكتاب من عنده سبحانه ليقوم الناس بالقسط ، ومن لم يقنعه الدليل ، ولم يهتد بهداية الرحمن ، وبمقتضى الفطرة المستقيمة ، والادراك السليم ، فان الحديد فيه بأس شديد يقمعه من الشر ، ويبعد عن الناس فساده ، وافساده .

والآيات تفيد أيضا أن الله سبحانه وتعالى يبعث الرسل ، ومعهم المعجزات الباهرات الخارقات للعادات التى تثبت أنهم جاءوا من عند الله تعالى ، وأنهم لم يفتروا على الله الكذب ، بل هم جاءوا برسالة ربهم ، ويتحدون الناس أن يأتوا بمثلها ، وهى خارقة لقانون الأسباب والمسببات ، وهى فوق اثباتها لقدرة الله تعالى الفعال لما يريد تثبت رسالة الرسول التى جرت على يديه .

١٥٨ ـــ والقرآن الكريم فيه علم المعجزات بجوار العلم برسالة الله تعالى لخلقه ، ففيه معجزة نوح عليه السلام ، وهى السفينة التى نجا فيها المؤمنون ، وأغرق الله تعالى بعدها الكافرين ، واقرأ قوله تعالى :

« وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا ، فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ، ان ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى

---

(١) الحديد : ٢٥

اركب معنا ولا تكن من الكافرين ، قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » (١) .

هذه بينة من بينات الله تعالى تدل على اصطفائه لنوح أبى الانسانية الثانى ، وتدل أيضا على أن الله تعالى فاعل مختار ، لايتقيد بالأسباب والمسببات التى نعرفها ، بل هو القادر المريد المختار « ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون » .

وجاء هود عليه السلام الى عاد ، فقاوموا دعوته ، وناوءوا رسالته ، وقالوا مفترين عليه كما حكى القرآن الكريم عنهم « قالوا يا هـــود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . ان نقـــول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء ممـــا تشركون » (٢) .

وقد كانت الآية عقابا دمر الله عليهم بريح صرصر عاتية ، وقال الله تعالى فى هذه « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم ،قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين » (٣) .

وقال الله تعالى فى ســـورة الحاقة ، « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » (٤) .

وقد أرسل الله تعالى صالحا الى ثمود ، وقال الله تعالى فيهم : « والى ثمود

---

(١) هود : ٣٦ ــ ٤٤
(٢) هود : ٥٣ ــ ٥٤
(٣) الأحقاف : ٢٤ ــ ٢٥
(٤) الحاقة : ٦

اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو أنشـأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وانا لفى شك مما تدعونا اليه مريب ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله ان عصيته ، فما تزيدوننى غيـر تخسير • ويا قـوم هذه ناقة الله لـكم آية ، فذروها تاكـل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها ، فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب • فلما جاء أمرنا نجينا صالحـا ، والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، ان ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموه الصيحة ، فاصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، الا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود » (١) •

ونجد من هذه النصوص الكريمة أن معجزة صالح التى تحدى بها ،وكانت بها البينة على رسالته هى ناقة كان لها شرب ، ولكل منهم شرب معلوم ، وكان التحدى ليس بأن يأتوا بمثلها ، ولكن كان التحدى بالهلاك ان مسوها ، فعقروها، فأنذرهم الرسول المتكلم عن ربه بأن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة أيام ، وقد صدق الوعيد عليها •

١٥٩ ــ ولننتقل الى المعجزة التى أجراها الله تعالى على يدى سيدنا لوط عليه السلام ، لقد بعثه الله تعالى الى قوم هبطوا فى مفاسدهم الى ما لم يهبط اليه الحيوان ، فأفسدوا الفطرة ، وجاءهم لوط بالطهـر ، ليحملهم على العودة الى الفطرة المستقيمة التى فطر الله الناس عليها ، ولما لم تجـد معهم دعوة الاصلاح ، بل استمروا فى غيهم يعمهون ، أمر الله تعالى نبيه أن يسرى بأهله بقطع من الليل ، واستثنى امرأته من أهله فقد كانت على شركهم وان

---

(١) هود ٦١ ــ ٦٨ •

موعد العذاب النازل بهم بهم الصبح، أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمر الله تعالى جعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود » ٠

وكان يعاصر لوطا ابراهيم أبو الأنبياء عليهم الســـلام ، ولذلك جاءت الملائكة التى ذهبت الى قوم لوط ، وجعلت أرضهم عاليها سافلها ، جاءوا لابراهيم عليه السلام ، وظهر معهم أمر خارق للعادة ، وهو أن تحمل امرأته وهى عجوز ، ولنتل الآيات الكريمات التى أثبتت هذه الحقائق :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط ، وامرأته قائمة ، فضحكت ، فبشرناها باسحق ، ومن وراء اسحق يعقوب ، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا، ان هذا لشىء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ، فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى ، يجادلنا فى قوم لوط ، ان ابراهيم لحليم أواه منيب ، ياابراهيم أعرض عن هذا ، انه قد جاء أمر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود » (١) ٠

ونرى أن خارقا للعادة كان فى أول لقاء بين ابراهيم خليل الله ، وبين ملائكته ، وهو أن تحمل امرأة عجوز قد انقطع حيضها من زوج عجوز٠

وان الله أجرى على يد خليله ابراهيم معجزات كثيرة ، منها مسألة الطير اذ يقول الله تعالى فى ذلك :

« واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبـــل منهن جـــزءا ، ثم ادعهن يأتينك ســـعيا ، واعــلم أن الله عزيز حكيم » (٢) ٠

---

(١) هود : ٦٩ ــ ٧٦
(٢) البقرة : ٢٦٠

ومن أبرز ما أجرى الله على يديه من خوارق للعادات أنه ألقى فى النار ليحرق ، فأطفأها العزيز الحكيم واقرأ قوله تعالى : « **ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ، اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وانا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم ، لعلهم اليه يرجعون ، ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، انه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ، قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ، فرجعوا الى أنفسهم ، فقالوا انكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون ، قالوا حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، ان كنتم فاعلين ٠ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، وأرادوا به كيدا ، فجعلناهم الأخسرين** » (١) ٠

وانك لترى أن خوارق العادات التى تنقض التزام الأسباب والمسببات التى تلزم البشر ، ولكن قدرة الله وارادته ، فوق ما عليه ، وما يجرى من أسباب ومسببات بينهم ٠

وكذلك الأمر بالنسبة لشعيب الذى دعا الى مكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات الانسانية ، اذ يقول كما حكى القرآن الكريم عنه : « **قال يا قوم اعبدو الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم من عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ،**

---

(١) الأنبياء : ٥١ ــ ٧٠

ان كنتم مؤمنين ، وما انا عليكم بحفيظ ، قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، انك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت ، واليه انيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم، ثم توبوا اليه ، ان ربى رحيم ودود ، قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك، وما أنت علينا بعزيز • قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربى بما تعملون محيط ، وياقوم اعملوا على مكانتكم ، انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب ، وارتقبوا انى معكم رقيب ، ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين ، كما بعدت ثمود » (١) •

ونرى من هذا الأمر الخارق للعادة كان صيحة عليهم •

وان الملاحظ أن الخوارق للعادة التى جاءت على يد الأنبياء الذين عاشوا فى البلاد العربية كانت حسية مناسبة للعرب ، وكانت من الناحية التى تناسب الصحراء والبادية ، فمعجزة هود كانت أحجارا من سجيل منضود ، وقد ظنوه عارضا ممطرا ، ومعجزة صالح كانت ناقة غريبة بين أهل النوق فى البادية ، ومعجزة لوط كانت جعل الأرض عاليها سافلها ، ومعجزة شعيب كانت صيحة جعلتهم فى ديارهم جاثمين •

---

(١) هود : ٨٤ ــ ٩٥ •

معجزات سيدنا موسى :

١٦٠ ـــ قصصنا بعض القصص عن سيدنا موسى عليه السلام ، وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وكنا نذكر ذلك بصدد بيان أنه لا تكرار فى قصة موسى لمن تدبر ، وتفكر فى المغازى والمقاصـــــد ، لا فى ظواهر الألفاظ ، والآن نذكر فقط الخوارق للعادات التى جرت على يد موسى عليه السلام ، وهى تسع آيات كما جاء فى القرآن الكريم ، فقد قال تعالى « **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى اسرائيل ، اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك ياموسى مسحورا** » (١) ٠

ولنذكر ان شاء الله تعالى تلك الآيات التى لم تجـــد مع فرعون وقومه الضالين ٠

أولها : العصا التى قال الله تعالى فيها « **فألقى موسى عصاه ، فاذا هى تلقف ما يأفكون** » (٢) وقد نزل موسى ، يباهل بها الســــحرة من قوم فرعون « **قالوا يا موسى اما أن تلقى ، واما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا ، فلمـــا ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين** » (٣)٠

الثانية : أنه يخرج يده من جيبه ، فاذا هى بيضاء من غير سوء ، كما قال تعالى : « **وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء** (٤) وكما قـــال تعالى : « **ونزع يده ، فاذا هى بيضاء للناظرين** » (٥) ٠

---

(١) الاسراء : ١٠١

(٢) الشعراء : ٤٥

(٣) الأعراف : ١١٥ ـ ١٢٠ ٠

(٤) النمل : ١٢

(٥) الأعراف : ١٠٨

الثالثة : أن الله تعالى أخذ آل فرعون بالجدب ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، كما قال تعـــالى : « **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** » (١) ٠

الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة : ما ذكره الله تعالى بقوله : « **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمـــل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين** » (٢) ٠

الآية التاسعة أنهم عندما نزل بهم الرجز الشديد طلبـــوا من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرجز ، كما قال الله تعالى : « **ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشـفت عنا الرجـــز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذ اهم ينكثون** » (٣) ٠

وان لم تجد هذه المعجزات ، مع أنها قارنت حياتهم ، ومست معيشتهم حتى لم يكن لطالب حق أن يرتاب ، ولا لطالب الهداية أن يمترى ٠ عندئذ كانت الضربة القاصمة لفرعون وملئه ، ولذلك قال تعالى : « **فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ، التى باركنا فيها ، وتمت كلمـــة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون** » (٤) ٠

هذه اشارات الى معجزات سيدنا موسى ، وكل خارق للأسباب والمسببات مما يدل بذاته أولا ــ على أن الله تعالى فعال لما يريد ، خلق الأشياءبارادته

---

(١) الأعراف : ١٣٠
(٢) الأعراف : ١٣٣
(٣) الأعراف : ١٣٤ ــ ١٣٥
(٤) الأعراف : ١٣٦ ــ ١٣٧

وقدرته ، ولم تنشأ عنه كما ينشأ المعلول عن علته ، وتدل ثانيا على رسالة موسى عليه السلام وبعثه الى بنى اسرائيل ، وفرعون وقومه ٠

الخوارق التى جاءت على يد سليمان :

١٦١ ـــ كان سليمان حاكما ، ونبيا ، ولم يكن حاكما طاغوتيا ، بل كان حاكما ربانيا ، أعطاه الله تعالى علم الحاكم العادل ذى السلطان غير المسيطر ، وأعطاه علما آخر ، أعطاه العلم بلغة الحيوان ، وسخر له الطير ، وسخر له الجن ، وأوتى علم لغة النمل والطير ، ولنتل ما جاء فى سورة النمل من خوارق كانت مع سليمان ، قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين « وورث سليمان داوود ، وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، ان هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير ، فهم يوزعون ، حتى اذا أتوا على وادى النمل ، قالت نملة ، يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ، وتفقد الطير ، فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون ، وما تعلنون ، الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابى هذا ، فألقه اليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت يأيها الملأ ، انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ٠ ألا تعلوا على وأتونى مسلمين قالت يأيها الملأ افتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى

تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة ، وأولو بأس شـــديد ، والأمـر اليـــك فانظرى ماذا تأمرين • قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وانى مرسلة اليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون، فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير ممـــا آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وانى عليه لقوى أمين، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر ، فانمـــا يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم ، قال نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين • وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ســاقيها ، قال انه صرح ممـــرد من قوارير ، قالت رب انى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (١) •

تلونا هذا الجزء من هذه السورة الكريمة ، وكلها أمور ليست مما يجرى فى عادات الناس ، ولنشر اليها اشارات نوجه فيها الأنظار الى ما اشـتملت الآيات الكريمات فى بيان فوق طاقة البشر •

أولها ـ الأمر الذى لا يعرف ولم يعرف لغير سليمان ، وهـــو أنه عـلم منطق الطير والحيوان ، وهذا يدل على أن غير الانسان ، أمم أمثال الانســان لها منطق ، ولغة ، وان كنا لا نعرفها ، وعرف نبى الله سليمان بعضها ، كمـا قال تعـالى فى كتــابه الكريم : « **وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطيـــر**

---

(١) النمل : ١٦ ـ ٤٤ •

بجناحيه الا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (١) فاذا كان سليمان قد علم منطق بعض الحيوان ، فهو مصداق لقول الله تعالى الخالق الفعـــال لما يريد ٠

وثانيها ــ تسخير الطير له ، فهذا الهدهد كان له من الادراك الربانى ، ما جعله يعرف الهدى من الضلال ٠

وثالثها ــ الاتيان بعرشها بين غمضة عين وانتباهتها ، أو كما عبر القرآن الكريم « **آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك** » وهذا من تسخير الله تعالى لسليمان، ومن العلم الذى أعطاه الله بعض عباده المخلصين ، ونقول ان الآية صريحة فى أن الذى أتى هو عرشها حقيقة ، لا صورته ، كما يقول المتشددين فى المادية ، ومع ذلك اذا كانت هى الصورة فان الخارق ثابت ، وهو أنه أتى به قبل أن يرتد اليه طرفه ٠

وفى قصة نبى الله سليمان عليه السلام خوارق أخرى غير ما جاء فى سورة النمل ، فقد جاء فى سورة سبأ ما نصه : « **ولسليمان الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور ، فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** » (١) ٠

العبرة فى خوارق العادات لسليمان :

١٦٢ ــ أطنبنا بعض الاطناب فى النقل من القرآن الكريم عن خوارق العادات فى عهد نبى الله سليمان عليه الســـلام ، وذلك لأن هـــذا العصر

---

(١) الأنعام : ٣٨ (٢) سبأ : ١٢ ــ ١٤

كانت فيه الفلسفة الأيونية مسيطرة فى آسيا الصغرى وتولدت عنها فلسفة اليونان . وكانت الفلسفة الأيونية قائمة على الأخذ بالأسباب والمسببات ، وتولد المعلول من العلة فى انتظام قائم لا تخلف ، فجاء سليمان عليه السلام ، وقام سلطانه كله على خرق للأسباب والمسببات والقيام على اثبات أن الكون كله بارادة مريد مختار ، لا يفعل الا ما يريد ، ولا يصدر عنه شىء بغير ارادته الخالدة الثابتة ـ فقام سليمان بذلك ، وأجرى الله تعالى تلك الخوارق على يديه ، فأجرى الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر على يديه ، وعلم منطق الطير ، وسمع حديث النمل ، وجاءه عرش بلقيس بين يديه قبل أن يرتد اليه طرفه ، وسخر الله تعالى له الجن ، وكان كل شىء فى حكمه بخوارق العادات ، أو بخرق نظام الأسباب والمسببات العادية التى بنيت عليها نظرية أن المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلة عن معلولها فكانت حياة نبى الله تعالى سليمان فى ملكه تجرى على هدم هذا النظر ، وسخر الله له الريح تجرى بأمره حيث أصاب وكذلك كانت الخوارق للأسباب هى المسيطرة فى معجزات من جاء بعده من الرسل .

معجزات عيسى عليه السلام :

١٦٣ ــ فى هذا العصر الأيونى كان مبعث عيسى عليه السلام ، ووجوده ، ولم يكن علم الطب رائجا عند بنى اسرائيل كما توهم عبارات بعض الكتاب فى العقائد من المسلمين ، بل كان بنو اسرائيل أجهل الناس بالطب كما يقرر علماء تاريخ الفلسفة ، ومنهم رينان الفيلسوف المسيحى .

انما كانت معجزات عيسى لابطال النظرية الأيونية التى تعتقد أن المخلوقات نشأت عن الموجد نشوء العلة عن معلوله .

وكانت ولادة عيسى ابطالا صارخا لهذه النظرية ، فان المعتاد فى الحياة الحيوانية ومنها الحياة الانسانية أن الولد يولد من أبوين ، أب ملقح ببذرة

الوجود ، وأم تتلقى فى رحمها تلك البذرة ، أو الجرثومة كما يعبر العلماء ، أو المنى الذى يمنى كما عبر القرآن ·

فجاء عيسى من غير أب ، وكان ذلك خرقا للأسباب الطبيعية الجارية ، وكان غريبا على مريم البتول ·

واقرأ قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم ، اذ انتبذت من أهلهـــا مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا · قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ، قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا · وهزى اليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا ، فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا · يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (١) ·

هـــذه كلهـــا خوارق تنبىء عن أن الله خـلق الـــكون بارادة سرمدية،

---

(١) مريم : ١٦ ــ ٣٦ ·

وولادة عيسى نفسها أول خارق للعادة ، ولذا قال الشهرستانى ان وجود عيسى ذاته معجزة · وأكدت معجزة الايجاد من غير أب بمعجـــزات أخـــرى ، أو بخوارق عادات أخرى ، أولها الرطب الجنى من النخل بهزه ومناداته لها ، وهو فى المهد ، وحديثه فى المهد حديث الحكماء ، فكل هذه خوارق ، للأسباب والمسببات تدل على أن الايجاد والتصـوير والتربية كلهـــا بارادة الله العليم الحكيم خالق كل شىء ، ومنها الأسباب والمسببات ، تعالى الله علوا كبيرا ·

ومعجزاته عليه السلام من هذا القبيل الذى هو تحـــد حسى للأسباب والمسببات ، فقد قال تعالى بعد أن بعثه رسولا لله رحمة للعالمين : « **ويعلمـــه الكتاب والحكمة والتوراة الانجيل ، ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قدجئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون ، وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك الآية لكم ان كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** » (١) ·

هذه دعوة عيسى عليه السلام ، وفيها البينات الدالة على رسالته ، بمـا هو خرق حسى واضح يرى بالعين ، وليس خفيا يدرك بالمعنى ، هـــو يبرىء الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص الذى عجز الطب الى الآن عن ابرائه وهو فوق ذلك يحيى الموتى باذن الله بالفعل لا بمجرد الامكان كمـــا ادعى بعض المفسرين ، وهو روحانى ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ·

وهل يسير كل هذا على قانون الأسباب والمسببات ، لكى نقول ما يقوله الفلاسفة يجب أن نلغى حكم العقول ، وبدهيات المدارك ·

---

(١) آل عمران ٤٨ ــ ٥١

وقد ذكر سبحانه وتعالى معجزات أخرى فى آخر سورة المائدة ، فقـــد قال تعالى :

« يوم يجمع الله الرسل ، فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا ، ، انك أنت علام الغيوب • اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك ، وعلى والدتك ، اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهـلا ، واذ علمتك الكتـــاب والحكمة والتوراة والانجيل • واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى واذ تخـرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك ، اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين، واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، اذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء،قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين• قال عيسى ابن مريم ، اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وانت خير الرازقين • قال الله انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » (١) •

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمات ذكرت بعض المعجزات السابقة ، وأضافت اليها معجزتين أخريين :

احداهما : أنه ينادى الموتى من القبور فتخرج ، وذلك فى قوله تعالى **« واذ تخرج الموتى »** •

والثانية : أن الله تعالى أنزل عليهم مائدة من السماء •

١٦٤ ـــ ونرى من هذا أن الخوارق للعادات كثرت على يد عيسى عليه

---

(١) المائدة ١٠٩ ـ ١١٥ •

السلام ، وكان وجوده ذاته خارقا للعادة ، اذ ولد من غير أب كما بينا ، وكلها تدل على أن كل شيء في الوجود هو بارادة مختار ، فعال لما يريد ٠

وما كان ذلك الا ابطالا لنظرية وجود الأشياء بالفلسفة التى سادت فى العصر الأيونى ، ثم انتقلت الى اليونان ٠ وأخذت تتسع حتى كانت الأفلاطونية الحديثة التى التقت من النصرانية المحرفة غير المسيحية الأولى فى نظرية العلية فجعلت العقل الأول هو الأب، والعقل الثانى هو الابن ، ثم كانت بعد ذلك الروح القدس المنبثقة من الاثنين أو أحدهما ٠

ووجود المسيح ، وحياته ، وما أجراه الله تعالى من خوارق للعادات ، كانت تحيط بكل تصرفاته ، وأعماله ، كل ذلك كان حججا قاطعة مثبتة أن العالم كله مخلوق بارادة حكيم قادر قهار سميع بصير مريد مختار ٠

١٦٥ ـــ وان قصة أهل الكهف التى أشرنا اليها فى بعض ما قلناه ٠ وقد حدثت بعد المسيحية على ما يبدو من وقائعها كانت فيها ارادة الله ظاهرة فى بيان سر هذا الوجود ، وأن الفاعل له مريد مختار لا يتقيد فى ايجاده لخلقه بأن يكون وجود الأشياء مربوطا بالعلة والمعلول ، بل هو مربوط بارادة حكيم يفعل ما يشاء ويختار ، ولنتلها عليكم ، ولا مانع من تكرار تلاوتها ، ان كنا قد تلوناها هى من قبل ٠

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، اذ أوى الفتية الى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عـــددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم ، اذ قاموا فقالوا ربنـــا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، واذ اعتزلتموهم ، وما يعبدون الا الله ، فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من

رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وتحسبهم أيقاظا ، وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ، ولملئت منهم رعبا ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحـــدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحدا ، انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا اذا أبدا ، وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم الا قليل ، فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا ، ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا ، ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمـــه أحدا » (١) ٠

وان المفسرين والمؤرخين للديانات يقررون أنهم مســيحيون مؤمنـــون بالمسيحية الحق التى جاء بها عيسى عليه السلام ٠ وأنهم فـــروا بدينهم من الرومان الذين أرهقوا المسيحيين الصادقين من أمرهم عسرا ، حتى كان نيرون

(١) الكهف : ٩ ــ ٢٦

اللعين ، كان يطليهم بالقار ، ويشغل فيهم النيران ، ويسيرهم فى موكبه ، وهو فخور مختال بتلك المشاعل البشرية ٠

واذا كان القرآن الكريم ذكر أنهم لبثـوا فى كهفهم ثلاثمـــائة سنين ، وازدادوا تسعا ، فانه يكون ظهورهم ، فى وقت الأفلاطونية ، التى نسخت النصرانية ، والتى دخل فيها قسطنطين بعد أن ابتدأ بالسير بها فى طريق التثليث الأفلاطونى الذى بنى على أساس أن الكون ظهر من الأول ظهور المعلول عن علته ٠

فكانت واقعة أهل الكهف ، وظهورهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، وهى وقت الانحراف المسيحى فى الاعتقاد دليلا قويا على بطلانه ، وعلى بطـــلان الأساس الذى قام عليه ، وهو مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى يقوم على أن الموجودات علة لمعلول ، وليست من خالق مريد قادر ٠

١٦٦ ـــ أطنبنا بعض الاطناب فى ذكر الخوارق التى هى بعض ما جاء فى القرآن الكريم ، وذلك لأمرين : أولهما أن التوحيد الذى هو لب العقيدة الاسلامية ، بل هو اللب فى كل الأديان السماوية يقوم على أوصاف ثلاثة ٠ وحدة الخالق فى انشاء الكون ، ووحدانيته فى ذاته ، فهو منزه عن المماثلة للحوادث ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ووحدة المعبـــود ، وهو الله سبحانه وتعالى ٠

الثانى أن الله تعالى مريد مختار فعال لما يريد ، وأنه أنشـــأ كل ما فى الوجود بارادته وقدرته ولم ينشأ عنه نشوء المعلول عن علته ٠

الثالث ثبوت الرسالة الالهية للمصطفين من خلقه ولا تثبت الرسالة الا بأمره ٠

الأمر الثانى الذى من أجله أفضنا فى ذكر بعض الخوارق ، ولم نضن على القرطاس فيه ، أن بعض الذين يجعلون أمور الدين خاضعة للتجـــارب

ويحسبون أنهم يخدمون القرآن ، يدعون أن رسالة محمد قامت على العقل ، ولم تقم على الخوارق ، وأن القرآن الذى هو حجـــة محمد الكبرى خاطب العقول ، ولم يخاطب بالخوارق ، وجرت عباراتهم بما يفيد أن الاســلام لا يعرف الخوارق ، الى درجة أن بعض علماء اللاهوت المسيحى سألنا هـل القرآن يعارض الخوارق والمعجزات ، فأجبنا سؤلهم بأن القرآن سجل معجزات الأنبياء ، وها نحن أولاء نبين بعض ما فى هذا السجل الخالد ٠

البعث واليوم الآخر

١٦٧ ـــ ان العالم يتنازع فيه الخير والشر ، والشر ربما يتغلب على الخير ، وفى الناس الأخيار والأشرار ، وقد يغلب أهل الشر على أهل الخير ، وعدل الله يوجب أن تكون العاقبة للأخيار ، وأن تكون للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، والله سبحانه جعل الخير والشر لحكمة أرادها ليبتلى الانســان اما شاكرا واما كفورا ، ولم يخلق الانسان عبثا ، ولم يجعله سدى ، بل انه مسئول عن فعله ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ٠

وان ذلك يقتضى ألا تكون هذه الحياة هى الحياة الدنيا وحدها ، بل لابد من حياة أخرى تكون للأخيار الذين لم ينتصر خيرهم فى هذه الحياة ، ولا تكون للأشرار الذين غلبوا الأخيار ظلما واعتدوا وفتنوا الناس فى أمورهم ٠

ولذلك كانت الحياة الآخرة وبيانها من مقاصد الأديان السماوية ، فلا يوجد دين سماوى الا كان الايمان بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب من أركان الايمان ٠

ولذلك جعل القرآن الكريم الايمان بالغيب أول أجزاء الايمان فقد قال الله تعالى فى أوصاف المؤمنين : « **الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصـلاة ،**

ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليـــك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (١) •

وترى أن أول وصف للمؤمنين هو الايمان بالغيب فلا تستولى عليهم مادة الحيـــاة ، ولا يسيطر عليهم سلّطانها ، فان فرق ما بين الايمـــان والزندقة الايمان بالغيب ، فمن حسب أنه لا وجود الا للمادة المشاهدة المحسة ، فهو ليس بمؤمن وليس عنده استعداد للايمان الا من رحم ربك •

وقد ختم الله سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين بقوله تعالى « **وبالآخرة هم يوقنون** » فأوجب الايمان بالآخرة وأكده بتقديم الجار والمجرور ، أى أن الآخرة وحدها هى الجديرة بالايمان ، وأنه لا ايمان الا باليقين الذى لا مجـال للريب فيه ، وان رقى الانسان فى أن تكون حياته غير مقصورة على الدنيا ، لأن التكليف شرف ، وهو يقتضى تحمل التبعات ولا سبيل لتحمل التبعات الا أن يكون ثمة يوم يجرى فيه الحساب والثواب والعقاب •

ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا يؤمنون بلقاء الله تعالى بأنهم الخاسرون « **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة ، قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهـــورهم ألا ساء ما يزرون ، وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون » (٢) •**

نعم خسر الذين لايؤمنون بالآخرة، خسروا انسانيتهم فقد حسبوها عبثا ليس لها غاية ، وخسروا العزاء اذا شقوا فيها ، فان الايمان بالآخرة عزاء روحى لمن يؤمن بها فيتحمل شقاء الدنيا لينال نعيم الآخرة ، وانهم لم يترقبوا اللقاء ، فلم يستعدوا بالعمل الصالح •

---

(١) البقرة : ٣ ــ ٥
(٢) الأنعام : ٣١ ــ ٣٢

وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن الانسان يكون مخلوقا سدى كالهمل ان لم يكن هناك يوم آخر ، حيث قال « **أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** » (١) ٠

١٦٨ ــ ولذلك عنى القرآن الكريم باثبات حقيقة البعث ، وبيان الحال فى الحياة الآخرة وكان خطاب القرآن لقوم لا يؤمنون بالبعث ، ولا يدركون الا الحياة الدنيا ، ويقولون ان هى الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين ٠

وان عقيدة البعث لب الايمان ، وغاية من غايات الرسائل الالهية ، ولذلك تجد القرآن يحتفى ببيان حقيقة البعث ، وتنبيه العقول اليه ، وما من موضع فى القرآن الكريم ، الا ذكر فيه البعث وقيام الدليل عليه ، بقياس قدرة الله تعالى على الاعادة على قدرته على الابتداء ، وأن البعث تكون الحياة الدنيا من غيره عبثا لا جدوى فيها كما قال تعالى : « **أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وأنكم الينا لا ترجعون** » (١) ٠

ولنقبس قبسة من الآيات الكريمة التى تدعو الى الايمان بالبعث ، وتبين أن المشركين فى ضلال ، اقرأ قوله تعالى : « **وان تعجب فعجب قولهم أاذا كنا ترابا أانا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** » (٣) ٠

انهم يعجبون من أنهم بعد أن يصيروا ترابا يخلقون خلقا جديدا ، بل انهم يعجبون من أن تدخل أجسامهم بعد البلى فى أجسام أخرى ثم تبعث ، فيبين سبحانه وتعالى قدرته على ذلك ، فيقول تبارك وتعالى :

---

(١) القيامة : ٣٦ ــ ٤٠
(٢) المؤمنون : ١١٥ ٠
(٣) الرعد : ٥

« **قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رءوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا** » (١) ٠

ولقد يقولون مستغربين « **من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ، انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن ، فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون** »(٢) ٠

وترى من هذا أن الذين ينكرون البعث ينكرون مع ذلك قدرة الله تعالى ، بل ينكرون أصل الرسالة الالهية الى خلقه ، اقرأ قوله تعالى فى سورة ق « **ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج** » (٣) ، ويقول سبحانه : « **أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد** » (٤)٠

وهكذا نرى المتتبع لآيات القرآن يجد مجادلة فى أمر البعث ، فانكار البعث مقترن بالكفر ، ومقترن بانكار الرسل ، والقرآن يرد على المنكرين انكارهم بمنطق العقل والحق ، فان الله خلق السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى يملك الرزق فى السماء والأرض ، وهو الذى أنشأ الحياة والأحياء، وبقياس الغائب على الشاهد يثبت بلا ريب أن القادر على الانشاء قادر على الاعادة ، وأن من أفن الادراك وفساد التفكير ، أن يحسبوا أن ثمة عائقا يعوق المنشىء الأول عن الاعادة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ٠

---

(١) الاسراء : ٥٠ ـ ٥٢ (٢) يس : ٧٨ ـ ٨٣
(٣) ق : ١ ـ ٥ ٠ (٤) ق : ١٥ ٠

يوم القيـــامة

١٦٨ ـــ هو اليـــوم الذى يضطرب فيه الكون ، والشمس تكـــور ، والنجوم تنكدر، والجبال تسير، والعشار تتعطل، ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى: **« اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت ، واذا الوحوش حشرت ، واذا البحار سجرت · واذا النفوس زوجت ، واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ، واذا الصحف نشرت ، واذا السمـــاء كشطت ، واذا الجحيم سعرت ، واذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت »**(١)

وان يوم القيامة يقترن بخروج من القبور والبعث ، كمـــا قال تعالى : **« اذا السماء انفطرت ، واذا الكواكب انتثرت ، واذا البحار فجرت · واذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك ، فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين ، وان عليكم لحافظين كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون »** (٢) ·

وان الله سبحانه وتعالى يسمى يوم القيامة الساعة ، لأنها ساعة الهول الأكبر ، وقد قال تعالى فى وصفها :

« يأيها الناس اتقوا ربكم ، ان لزلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى النـــاس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » (٣) ·

وكما سماها الله تعالى الساعة سماها أيضا الحاقة ، والقارعة ، فقال تعالى : **« الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحـــاقة » ، كذبت ثمود ، وعاد**

---

(١) التكوير : ١ ــ ١٤ ·

(٢) الانفطار : ١ ــ ١٢ ·

(٣) الحج : ١ ــ ٣ ·

بالقارعة » (١) ويقول سبحانه فى وصف الكون وقت هذه القارعة : « **فاذا نفـــخ فى الصور نفخـــة واحدة ، وحملت الأرض والجبـــال ، فدكتـــا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء ، فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (٢) ·**

وقال تعالى فى وصفها بالقارعة : « **القارعة ما القـــارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثـــوث ، وتكون الجبـــال كالعهن المنفوش » (٣) ·**

وعلم الساعة خفى عن الناس ، وعن الأنبياء والمرسلين ، فهى من علم الغيب الذى استأثر به علم الله تعالى ، حتى يسير الناس فى أعمالهم ، وبإرادتهم، ويتحملون تبعة الأعمال ، وقد قال تعالى « **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل انما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون · قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ، الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى الســـوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (٤) ·**

ولقد قال الله تعالى : « **يأيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شـــيئا ، ان وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور · ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (٥) ·**

---

(١) الحاقة : ١ ــ ٤
(٢) الحاقة : ١٣ ــ ١٧
(٣) القارعة : ١ ــ ٥
(٤) الأعراف ١٨٧ ــ ١٨٨ ·
(٥) لقمان : ٣٣ ــ ٣٤

الميزان والحساب

١٧٠ — اذا كان يوم القيامة هو اليوم الذى يبعثر فيه ما فى القبور ، وقد حدثنا القرآن الكريم فى علمه عن ذلك بتفصيل واضح تطمئن اليه العقول والقلوب ، فانه بعد قيام القيامة يكون الحساب على ما قدم المرء من أعمال الخير ، ويحاسب الأشرار على ما قدموا من شر ، ولذلك نجـد النصـــــوص القرآنية تقرر الحساب والميزان ، وان الناس منتهون من بعد الحساب اما الى الجنة واما الى السعير ، اقرأ من سورة الواقعة قوله تعالى :

« اذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، اذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبـــال بسا ، فكانت هبـــــاء منبثا ، وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصـــحاب المشأمة،والسابقون السابقون، أولئك المقربون، فى جنات النعيم،ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ··· الخ » (١) ·

وانه يجيء كل انسان ومعه كتابه فيه حسناته وفيه سيئاته قال تعالى :

« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٢) ويقول سبحانه وتعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ، يوم ندعو كل اناس بامامهم ، فمن

---

(١) الواقعة : ١ ــ ١٦ ·

(٢) الاسراء : ١٣ ــ ١٥ ·

أوتى كتابه بيمينه ، فأولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون فتيـلا ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » (١) ٠

ويقول سبحانه وتعالى بعد وصف يوم القيـــــامة فى ســــورة الحاقة **« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ، انى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشــة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » (٢) ٠**

ويقول سبحانه فى سورة القارعة بعد ذكر يوم القيامة وهوله **« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ماهية ، نار حامية » (٣) ٠**

الجنة والنـــار

١٧١ ـــ فصل القرآن الكريم أحوال أهل الجنة ، وما فيها من نعيم مقيم ، وأحوال أهل النار ، وما فيها من عذاب أليم ، وبين ما يجزى الله تعالى به عباده المتقين ، وما يعاقب به الذين استحوذ عليهم الشيطان ٠

ولنضرب لذلك أمثلة مما ذكره من أحوال الجنة ونعيمها ، فقد قال تعالى :

« مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم » (٤) ٠

---

(١) الاسراء : ٧٠ ـ ٧٢
(٢) الحاقة : ١٨ ـ ٢٩
(٣) القارعة : ٦ ـ ١١
(٤) محمد : ١٥

ويقول سبحانه وتعالى فى وصف أهل الجنة ، وهم فيها « والسابقون السابقون أولئك المقربون، فى جنات النعيم، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، باكواب وأباريق ، وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، الا قيلا سلاما سلاما ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة، انا أنشأناهن انشاء ، فجعلناهن أبكارا ، عربا أترابا ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين » (١)

وقال تعالى فى وصف الجنة ووصف النار : «هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية ، تسقى من عين آنية، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت ، فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، الا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، ان الينا ايابهم ، ثم ان علينا حسابهم » (٢) .

ويقول سبحانه فى وصف الجنة : « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين فيها على فرش بطائنها من استبرق ،

---

(١) الواقعة : ١٠ ــ ٤٠

(٢) الغاشية : ١ ــ ٢٦

وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن اليـــاقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الاحسان الا الاحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام » (١) ٠

١٧٢ ــ وقد ذكر القرآن أوصاف النار التى هى جـــزاء الكافرين ، الذين استكبروا عن أن يؤمنوا بربهم ، واتبعوا اغواء ابليس الرجيم ، ولنذكر بعض أمثلة من أوصاف الجحيم ، يقول الله تعالى :

« ان جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، الا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، انهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا » (٢) ٠

ويقول سبحانه وتعالى : فى جهنم أيضا : **« ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا ان كتـــاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين، الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به الا كل معتد أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا**

---

(١) الرحمن : ٤٦ ــ ٧٨

(٢) النبأ : ٢١ ــ ٣٠

قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم انهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هـذا الذى كنتم به تكذبون » (١) .

ويقول سبحانه فى بعض ما يذوقه الكفار الضالون « **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، انهم كانوا قبـــل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل ان الأولين والآخرين ، لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ، ثم انكم أيهاالضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولاتصدقون** » (٢)

ويقول سبحانه وتعالى فى جزاء اتباع ابليس وذكر ذلك فى أصـــــل عصيان ابليس عندما طلب سبحانه وتعالى منه السجود ، فلم يسجد ، يقول سبحانه وتعالى : « **واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمـــأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك اللعنة الى يوم الدين ، قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، الى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، الا من اتبعك من الغاوين ، وان جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** » (٣) .

---

(١) المطففين : ١ ــ ١٧ .
(٢) الواقعة : ٤١ ــ ٥٧ .
(٣) الحجر : ٢٨ ــ ٤٤ .

وهكذا نرى وصف الجحيم مبثوثا فى القرآن ، لأنه جزاء وفاق على الشر ، ولأن جزاء الاحسان على الاحسان ، كما قال تعـــالى « **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** » (١) ٠

١٧٣ ـــ وان القرآن الكريم قد جمع بين ضفتيه بيـــان العقيـــدة الاسلامية التى لا يسع مسلما أن ينكرها ، ومن أنكرها يقال له : تب كمـا قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ٠

وان العقيدة كلها قائمة على الايمان بوحدانية الله تعالى ، وعدله سبحانه وأنه الفاعل المختار ، وأنه المجازى بالاحسان احسانا ، ويعاقب من يخرج عن الجادة ، ويكون من المفسدين ٠

وبالبناء على عقيدة الوحدانية ، وأن الله تعالى فاعل مختار ، وأنه العادل، كان بعث الرسل ، وكانت المعجزات الخارقات لما يعرفه الناس من الأســـباب والمسببات ، وكان العدل الالهى موجبا أن يكون ثمة بعث ، وحساب ، وعقاب ، وثواب ، وكل امرىء بما كسب رهين ٠

البعث والجنة والنـــار أمور حسية

١٧٤ ـــ يحلو لبعض المتفلسفين من الكتاب فى الماضى أن يقولوا ان البعث والجنة والنار ، والحساب والعقاب والثواب أمور روحيـــة معنوية ، وليست أمورا حسية ، وذلك قد جاء من نقص ايمانهم بالغيب ، وباطل ما يقولون وما يعتقدون فاذا كان البعث معنويا للأرواح ، فلماذا يعجب المشركون من أنهم بعد أن يكونوا ترابا يعـــــودون ، فان عودة الأرواح لا يقتضى أن يكون ذلك الاستنكار ، اذ أن الأجساد التى صارت لا تعود ٠ ولكان الرد عليهم سهلا ، بأن يقال لهم ان أجسامكم لا تعود ، بل أرواحكم هى التى تعود ٠

---

(١) يونس : ٢٦ ٠

واذا كان البعث ماديا بصريح القرآن الكريم ، فان الجزاء يكون الاحياء بأرواحهم وأجسادهم ، والنتيجة المنطقية لهذا أن يكون نعيم أولئك الذين بعثوا من قبورهم ، نعيما لأجسادهم وأرواحهم ، ونعيم الأجساد مادى لا محالة ، ولذلك يجب الايمان بأن نعيم الجنـــة وعذاب النار ماديان ، وليسا معنويين فقط ، لأن البعث حق ، ويجب التنبه الى أن حقائق اليوم الآخر سواء أكانت معنوية أم كانت مادية لا تتسع لها لغتنا ، وأى لغة من اللغات ، لأنها أعلى من مستوى حياتنا ، ونحن نعبر على ما هو من معايشنا ، وفيما هو فى طاقتنا ٠

ولكن تعبير القرآن عن الآخرة وما فيها هو باللغة العربية ، وان كانت أعلى مما يستطيعه البشر ٠

ولذلك كانت تعابير العربية لتقريبها من مألوفنا ، ولكى نتسامى الى معرفة ما ينتظر المتقين من نعيم مقيم ، وما ينتظر العصاة من عذاب مهين ٠

ولقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت » ٠ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عبارات القرآن ، فيما يتعلق بالجنة والنار ، مجازية فى ألفاظها ٠

ولكن مع ايماننا بهذه الحقائق ، يجب أن نقرر أن ما ذكر من رمان ، وعسل مصفى وخمر لذة للشاربين ، هى مما يجوز اطلاق هذه الأسماء عليه ، ولكنه نوع آخر ٠ ليس من جنس الأنواع فى حياتنا هذه ، وان كان لهـــا اسمها ، ولذا وصفت خمر الآخرة بأنهم لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، ولكن فيها لذة للشاربين ٠

هذه كلمات نقولها فى ختام بحثنا عن يوم القيامة ، وما يجرى من بعده من حساب وعقاب وثواب ٠

والقرآن الكريم روضة يانعة مستمرة فيها الحقائق عن الغيب كله بمقدار ما تدركه عقولنا ويقرب الى أفهامنا ، والحقائق كاملة فى غيب الله ، اللهم اكتبنا من الشاهدين ٠

علم الحلال والحرام

١٧٥ ـــ علم الحلال والحرام فى الاسلام مصدره القـــرآن ، وهو الشريعة العملية ، والأحكام التكليفية وما من أمر شرع بالسنة الا كان مرجعه الى القرآن ، فهو كلى هذه الشريعة ، حتى لقد قال العلماء أنه لا يوجد حكم شرعى الا كان له أصل فى القرآن ، والسنة النبوية الكريمة بينته أو شرحته ، ولقد طار بعض الملحدين بهذه الحقيقة ، وزعموا أنه يمكن الاستغناء بالقرآن عن السنة وذلك هو الافتيات على الحقائق ، لأن السنة مبينة القرآن كما قال تعالى « **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** » (١) وكمـــا قالتعالى : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** » (٢) ٠

فاهمال السنة والاقتصار على الكتاب ضلال مبين ، أو تضليل أثيم ،انما هما يتعاونان فى بيان أحكام الشريعة ، والسنة تفصيل لما أجمل الكتاب ، وتوضيح لما عساه لا تدركه الأفهام ٠

أمر الله تعالى بالصلاة ، ولم يذكر أركانها ، ولا شكلها ، وترك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيانها ، فبينها بالعمل ، وقال :« صلوا كما رأيتمونى أصلى » وتضافرت بذلك الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وصـــار العلم بالأركان والكيف من أصول الدين ، والعلم بها ضرورى ، من أنكره فقد أنكر شيئا علم من الدين بالضرورة ، فهو كافر ، وكذلك الأمر فى الزكاة ، ذكرت مجملة وبينها النبى صلى الله عليه وسلم ٠ وطبقها وجمعهـــا ، حتى ان من ينكرها ، يخرج عن الاسلام ٠

١٧٦ ـــ وقد ذكر القرطبى أن من أوجه اعجاز القرآن علم الحلال والحرام فيه ، وقد وافقناه على ذلك تمام الموافقة ، وذلك لأن ما اشتمل عليه

---

(١) النحل : ٤٤

(٢) النساء : ٦٥

القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع واقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة ، لم يسبق به فى شريعة من الشرائع الأرضية ، واذا وزنا ما جاء فى القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الاصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء فى القرآن ، وجدنا أن والموازنة فيهــــا خروج عن التقدير المنطقى للأمور، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية فى تجارب ثلاثمائة سنة وألف من وقت انشاء مدينة روما الى ما بعد خمسمائة من الميلاد ، ومع أنه قانون تعهده علماء قيل أنهم ممتازون ، منهم « سولون » الذى وضع قانون أثينا ، ومنهم « ليكورغ » الذى وضع نظام اسبرطة ٠

فجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه القرآن الذى ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى ، من غير درس درسه ، وكان فى بلد أمى ليس فيــــه معهد ، ولا جامعة ، ولا مكان للتدارس وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الانسانى ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحق به لاحق ٠

وقد كتبنا فى هذا بما فيه بيان للناس (١) ٠ والآن نكتفى بالاشارة الى موضوعات الأحكام من غير اطناب تتميما لأجزاء الموضوع ، والتفصيل فى موضعه بما كتبنا ٠

---

(١) كتبنا فى ذلك رسالتين احداهما بعنوان شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله ، ورسالة الملكية بالخلافة فى الشريعة والقانون الرومانى ، وقد طبعهما مجلس الشئون الاسلامية وترجمهما ٠

العـــدالة

١٧٧ ـــ كل النظم الاسلامية قامت على العدالة ، اذ كانت الشعارات تدعو الى التسامح ولو مع الظالم، ويقول قائلها : استغفروا لأعدائكم، فالاسلام يقول اعدلوا مع كل انسان ولو كان عدوا مبينا · ومكان التسامح فى الأمور الشخصية ، لا فى الأمور التى تتعلق بتنظيم العلاقات الانسانية · ولذا يقول الله سبحانه وتعالى : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون** » (١) ·

ولقد قال العلماء ان هذه الآية أجمع آية لمعانى الاسلام ، ويروى فى ذلك أنه عندما شاعت دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وســـلم فى الأرض العربية ، وتناقلتها الركبان أرسل حكيم العرب أكثم بن صيفى ولده ليسألوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم عما يدعو ، فتلا عليهم هذه الآية « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** » الآية ، فرجعوا الى أبيهم، وذكروا له ما سمعوا ، فقال الحكيم العربى : « ان هذا ان لم يكن دينا فهو فى أخلاق الناس أمر حسن ، كونوا يابنى فى هذا الأمر أولا ، ولا تكونوا آخرا » ·

والعدل ليس موالاة الأولياء ، وظلم الأعداء انما العدالة للجميع على سواء ، والله تعالى يقول مخاطبا أهل الايمان « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** » (١) فالعدالة مع الأعداء المبغوضين كحاله مع الأولياء المحبوبين أقرب للتقوى ·

ويقول سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقســـط ،**

---

(١) النحل : ٩٠

(٢) المائدة : ٨

شهداء لله ، ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا ، فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » (١) ·

وان هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : أولها أن العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات الى الله تعالى ، والعدالة فى كل شىء وفى كل عمل ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : **كونوا قوامين بالقسط** » فى كل أعمالكم ســـواء أكنتم حكاما أم كنتم محكومين ، وأن تكونوا شهداء لله لا لأنفسكم ، ولا لأوليائكم والأقربين منكم ·

الأمر الثانى الذى تدل عليه الآية ، أن الاعراض عن الحكم ظلم ، أو تمكين للظالمين ، فالسكوت عن رد الباطل ظلم ، والمؤمن يجب عليه أن يقـــوم بالحق ، وأن ينصر الحق ، وأن يؤيد الحق حيثما كان ·

الأمر الثالث الذى تدل عليه دلالة صريحة أنه لا طبقية فى الاســـلام بالغنى والفقر ، فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، بل الجميع أمام العدالة سواء ، قال تعالى « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فمـــا الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء** » ·

١٧٨ ـــ ولا تفرقة بين العناصر فى تحقيق العدالة ، فالله ســـبحانه وتعالى خلق الخلق على ألوان مختلفة ، ولكنهم جميعا خلق الله تعالى ، وان اختلاف الألوان والألسنة من آيات الله تعالى الكبرى ، فهو يقول سبحانه في كتابه العزيز الخالد بلفظه وحقائقه ، ومعانيه :« **ومن آياته خلق الســـموات والأرض ، واختلاف الســـنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعـــالمين (٢)** »

---

(١) النساء : ١٣٥

(٢) النحل : ٧١ ·

والجميع عباد الله تعالى ، فلا يصح أن يظلم زنجى للونه ، ولا يحابى أبيض لشقرته ، ولقد صرح بذلك القرآن الكريم، فقال تعالى : « **يأيها الناس اناخلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » (١) ٠

وان هذا النص الكريم ينبىء عن ثلاثة معان سامية توجب المساواة بين الأجناس ، لأن الأصل واحد ، وهو الأم ، والاب ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « كلكم لآدم ، وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » ٠

المعنى الثانى الذى دلت عليه الآية الكريمة أن الاختلاف فى الشعوب والقبائل والأجناس يوجب التعارف ، ولا يسوغ التخالف ، والتعارف يقتضى تعاون أبناء الأرض على استغلال كل ينابيع الثروة فى الأرض ، بحيث يفيض أهل كل اقليم على الآخر يفاضل ما عنده ، من غير بخس ولا شطط ، ومن غير من ، ولا أذى ، ويقتضى المساواة فى أصل الحقوق الانسانية الثابتة من اتحاد الأصل ، ويقتضى العدالة ، ولا يرهق جنس آخر بظلم ، أو أذى أو مضايقة أو استعباد ٠

والمعنى الثالث الذى يدل عليه النص الكريم ، أن الفضل لا يكون بالجنس والعشيرة ، بل يكون التفاضل بالعمل الصالح ، الذى يتقى به صاحبه وجه الله تعالى ، والذى لا يريد به الا النفع العام، ودفعالفساد فى الأرض، فالاكرام ليس باللون ، ولا بالسامية أو الآرية ، انما الاكرام بالعمل لخدمة الانسانية ، وان النصوص القرآنية كلها تدعو الى التراحم بين الناس ، فالله تعالى يقول : **« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث**

---

(١) الروم : ١٣٠

(٢) الحجرات : ١٣

منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » (١) ٠

ونص القرآن على الوحدة الانسانية ، فقال تعالى : « **كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » (٢)**

العدالة الدولية

١٧٩ ـــ والعدالة كما تكون بين الآحاد تكون بين الجماعات والدول فقد قامت العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس العـــدالة ٠ فلا يظلمون شيئا ، ولا يمنعون من خير ، والناس جميعا نسبتهم الى الله واحدة ، لقد كانت الدول حتى التى بلغت شوطا من الحضارة فى عهد نزول القرآن كالفرس والرومان واليونان لا تعترف بأى حق لغير المستوطنين معهم ، فغيرهم يعدون برابرة ، وليسوا منهم فى شىء ، حتى ان الاسرائيليين الذين يعيشون فى حكم الرومان لا يعتبرون رومانيين ، ولا يمنحون هذه الرعوية ، وتلك الجنسية ، باعتبار أن الجنسية الرومانية شرف لا يحـــوزه الا الرومان ، وكذلك كان الفرس ٠

وان من يعيش فى بلد آخر يسترقونه ، حتى ان أفلاطون جرى عليـــه الرزق ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل الاسلام قد ذهب الى أرض الروم فاسترقه قسيس رومانى ، وأظهر عمر الاستسلام ، حتى اطمأن اليه القسيس وخرج معه الى الصحراء فى أرض الشام ، فلوى عمر رقبته ـ وكان قويا فى بدنه ، كما صار من بعد قويا فى دينه ـ وقتله ، وهرب بحريته ٠

جاء القرآن الكريم فحارب التعصب القبـــلى ، والتعصـــب الجنسى ،

---

(١) النساء : ١

(٢) البقرة : ٢١٣

والتعصب الاقليمى ، وجعل الناس كما رأيت أمة واحدة ، لا فرق بين عربى وغير عربى ، كما أشرنا

وقامت بذلك العلاقة الدولية على أسس العدل ، قال تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » (١) وقال جل وعلا « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** » (٢) ٠

وقال تعالى : « **وان عاقبتم ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** (٣) ٠

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن العصبية الجاهلية ، وبالأول كان النهى عن العصبية الاقليمية ، ولقد سئل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ، قال : لا ، وان من العصبية أن يعين قومه على الظلم ٠

وسيكون لذلك شىء من البيان عندما نتكلم عن العلاقات الدولية التى نظمها القرآن ٠

ومهما يكن من ايجاز فى هذا المقام ، فانه يجب أن نشير الى أن شرائع القرآن قسمان عبادات ومعاملات مالية واجتماعية ، وأساس العلاقات المالية والاجتماعية العدالة ٠

---

(١) البقرة : ١٩٠

(٢) البقرة : ١٩٤

(٣) النحل : ١٢٦

الأحكام الفقهية فى القرآن

١ ـ العبادات :

١٨٠ ـــ قد ذكر القرآن الأوامر التكليفية فى العبادات بالاجمال ولم يتعرض لها بالتفصيل كما أشرنا من قبل ، فالصلاة ، تعرض النص القرآنى لها بالأوامر بالتكليف بها ، والغاية منها ، وهو اصلاح النفوس ، وتزكية القلوب ، وتربية الوجدان ، كما قال تعالى : « **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** » (١) وكما قال تعالى فى وجوبها ووجوب الوضوء والاغتسال « **اذا قمتم الى الصلاة ، فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم الى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين . وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا** » (٢) .

وجاء الأمر المؤكد بالصلاة فى قوله تعالى « **حافظوا على الصلوات** والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » (٣) .

وكذلك كان الأمر بالزكاة مجملا ، ولم يبين القرآن شيئا من أحكامها ، ونصابها ومقاديرها ، ولم تذكر الا مصارفها فى قوله تعالى « **انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم، وفى الرقاب، والغارمين وفى سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم** » (٤) .

والحج من العبادات التى لم تبين أحكامها كلها تفصيلا ، بل ذكر القرآن بعضها ، وان لم يكن قليلا ، وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سائرها ،

---

(١) العنكبوت : ٤٥
(٢) المائدة : ٦
(٣) البقرة : ٢٣٨
(٤) التوبة : ٦٠

وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم « خـذوا عنى مناسككم » لقد بين القرآن أركان الحج وأشهره وموقفه ، وهديه ، والنبى عليه الصلاة والسلام فصل واجباته ، وكان بيانه أكثره عملى ٠

ومن العبادات الصوم ، وقد طالب القرآن به اجمالا ، وذكـر وقتـه ، والأعذار التى تبيح الفطر فى الجملة ، وأشار سبحانه الى حكمة اختيار شهر رمضان لفرضية الصوم ، كما قال تعالى : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر ، فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر ، فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العـدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون** » (١) ٠

وهنا يرد على الخاطر سؤال لماذا بينت العبادات بالقرآن اجمالا مع تأكيد طلبها ، والتفصيل فيها ان استثنيت الحج ، كان قليلا ، ولا يمكن أن تقام العبادة على وجهها مع ذلك الاجمال ٠

والجواب عن ذلك أن العبادات هى لب الدين ، وهى قوام اليقين ، وهى ذكر الله الذى به تطمئن القلوب ، وهى التى تربى الضمير وتنيره ، وتقيمه ، وهى التى تربى الضمير الجماعى ، والوجدان الانسانى ، وروح التعاون بين الناس بعضهم مع بعض ٠

والعبادات هى قوام الجماعات ، لأن تكوين الجماعات لا يكون الا بأمر معنوى يؤلف بينهم ، ويزيل النفرة ، وذلك بأن يكون المؤمن ربانيا يتجه الى رب الخلق ، ويسير على ميزان الحق ٠

ولهذه المعانى فى العبادات ، وعموم تطبيقها على كل المؤمنين ، كان لابد من تربية عملية عليها ، وقدوة حسنة فى تنفيذها ، وأسوة من الرسول

---

(١) البقرة : ١٨٥

فى القيام بها ، وأن تتوارث تلك الأسوة الأجيال ، وتكون مع القرآن اتصال الرسالة المحمدية ، ولذلك تثبت أحكام العبادات التفصيلية بسنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المتواترة التى عرفها المسلمون جميعا عن جمع باقية الى يوم القيامة ٠

ولا شىء من العبادات يثبت بالقياس ، بل يثبت بايجاب القرآن ، وعمل الرسول عليه الصلاة والسلام ٠

٢ ـ الكفارات :

١٨١ ـــ الكفارات ، وهى تأخذ جانبين : جانب العقوبة المادية على ذنب ارتكب ، أو خطأ ترتب عليه أذى غيره ، وكان يجب الاحتراس من ذلك، والجانب الثانى فيها معنى التقرب الى الله تعالى بالتوبة مقرونة بذلك الجزاء ، ولقربها من العبادات ذكرناها بجوارها ، وفوق ذلك هى درء لتقصير فى العبادات نفسها ، فهى فى هذه جزء منها ٠

وعلى ذلك نقسمها من هذه الجهة الى قسمين أحدهما تعويض عن التقصير فى بعض العبادات ، أو استعمال الرخص ، أو العجز الكامل عن أداء الفرض، ومن هذا القبيل رخصة الافطار للمريض بمرض مزمن ، والشيخ الفانىوالشيخة اذا عجزا عن الصيام أو كانا لا يصومان الا بمشقة فوق الطاقة ، وقد ثبتت هذه الفدية بالقرآن الكريم ، قال تعالى فيه « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** » (١) أى الذين يبلغون فى صومهم أقصى الطاقة التى لا يمكن المداومة على تحملها ، ولذا قال ابن عباس انها نزلت فى الشيخ والشيخة اذا شق عليهما الصوم ، ومن الفدية التى تعد كفارة لبعض التقصيرات فى العبادات الهدى فى حال عدم القيام ببعض الواجبات التى لا تعد ركنا من أركان الحج ، وقد ثبت ذلك بالقرآن الكريم ، وعمل النبى صلى الله عليه وسلم ومن ذلك كفارة

---

(١) البقرة : ١٨٤

الصيد فى الأشهر الحرم ، وقد ثبتت بالقرآن أيضا ، اذ قال تعالى :«**يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك ، فله عذاب أليم ، يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا ، فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أوعدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ، أحل لكم صيد البحر ، وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ، ما دمتم حرما ، واتقوا الله الذى اليه تحشرون » (١) ·**

وهكذا نرى أن الكفارات هنا ثابتة بالقرآن الكريم ، وهى فى موضوع وهى سد لنقص ، أو لاعتداء فى عمل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه ·

وبجوار هذا النوع من الكفارات التى كانت درءا لنقص أو لرخصة أو لعدم الاستجابة لأمر ، وموضوعها العبادة هناك كفارات أخرى هى فى معنى العبادات فى ذاتها ، ولكنها شرعت لمعنى خلقى أو اجتماعى أو لحقوق العبادات وهذا هو القسم الثانى ·

ومن ذلك كفارة اليمين ، وهى عتق رقبة ، أو اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، وقد ثبت ذلك بقوله تعالى « **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان ، فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم ، واحفظوا ايمانكم » (٢) ·**

ونرى أن هذه الكفارة شرعت لمعنى خلقى ، وهو صيانة الألسنة عن كثرة الأيمان واخلافها ، والتعرض للمهانة ، كما قال تعالى : « **ولا تطع كل حلاف**

---

(١) المائدة ٩٤ ـ ٩٦
(٢) المائدة : ٨٩

مهين (١) » وأيضا ، لكيلا يتخذ المؤمنون يمين الله حاجزا بينهم وبين فعل الخير ، ان حلفوا ، وبدا الخير فى غير ما حلفوا عليه ، فشرع لهم تلك الكفارة تحلة لأيمانهم ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « من حلف على شىء فرأى خير منه ، فليحنث وليكفر » ٠

وان الكفارة ذاتها عبادة بدليل أنها كانت صوما فى بعض أحوالها ٠

ومن الكفارات التى ذكرت فى القرآن علاجا احياء للأسرة ، ولمنع الظلم عن المرأة كفارة الظهار ، وهى كفارة من يحرم امرأته على نفسه ، ويجعلها كأحد محارمه من غير ارادة طلاق ، وما كان لشريعة القرآن أن يترك المرأة المظلومة فريسة لكلمات ينطق بها اللسان ايذاء وظلما ، ولا يترك المتكلم بها من غير عقاب لغوا عابثا ، بل لابد من رد الحق ، وعقاب العابث ، فكانت الكفارة ، وتثبت بقوله تعالى : « **والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد ، فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع ، فاطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم** » (٢) ٠

ونرى أن هذه الكفارة فيها اقامة للحياة الزوجية على دعائم من المودة والأنس النفسى من غير ايحاش ولا اعنات ، لأن النطق بهذه الكلمات وأشباهها يلقى بالجفوة فى قلب الزوجة فلا تطمئن الى زوجها ، ولا الى الحياة الزوجية الكريمة المتوادة ، ولهذا كانت تلك الكفارة محافظة على هذه المعانى ٠

ومن الكفارات التى نص عليها القرآن الكريم كفارة القتل الخطأ ، فان الله أوجب الدية تعويضا لأسرة المقتول وأوجب الكفارة اذا كان القاتل المخطىء من أهل التكليف ، وذلك لتعويض جماعة المؤمنين ، ولتربية النفس على الاحتراز من الخطأ ، والاحتياط له ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك :

---

(١) القلم : ١٠ (٢) المجادلة : ٣ ـ ٤

« ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، توبة من الله، وكان الله عليما حكيما » (١)

وواضح أن الدية لتعويض الأسرة وهى تجب على أسرة الجانى لأسرة المجنى عليه ، وفي وجوبها على أسرة الجانى معنى التعاون الاجتماعى بين الأسرة فى دفع الأذى ، والحمل على المعاونة فى التأديب النفسى ·

والكفارة فيها تعويض لجماعة المؤمنين ، لأنه بقتله لمؤمن قد نقص عدد المؤمنين ، فكان الواجب أن يعوض ما نقص بعتق رقبة مؤمنة ، لأن العتق اعطاء الحرية ، والحرية كالحياة ·

وفى الجملة ان الكفارات كلها التى جاء بها القرآن وبينتها السنة النبوية فيها معنى العبادة ، وفيها صلاح ، وفيها تعاون اجتماعى انسانى ·

فى الأسرة

١٨٢ ـــ قبل أن نتلو الآيات الكريمة التى تصدت لأحكام الأسرة وتنظيم العلاقات بين آحادها ، أو نشير الى بعض تلك الآيات الكريمة لابد أن ننبه الى أمرين :

أولهما ـ ما ذكرناه آنفا من أن العبادات قد ذكرت فى القرآن اجمالا وترك أمر بيانها للبنى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأشرنا الى ما أدركنا حكمته لعلم الله تعالى فى شرعه وبيان أحكامه ·

---

(١) النساء : ٩٢

الأمر الثانى ـ أن الأسرة ذكرت أحكامها تفصيلا من وقت تكوينهـــا بعقد الزواج الى أن يقرر الله تعالى التفريق بالموت ، أو الطلاق ، وذكر أحكام الأسرة الممتدة غير المقصورة على الزوجين ، وما بينته السنة لا يعـد كثيرا بالنسبة لما بينه القرآن الكريم ٠

ثم ذكر القرآن الكريم توزيع المال فى آحاد الأسرة ، وفى الميـــراث ، ويكاد القرآن الكريم يستغرق كل أحكامه فى تفصيل لا اجمال فيه ٠

وهنا يسأل السائل ، لماذا كان التفصيل فى أحكام الأسرة ، ولم يترك أمرها لبيان النبى عليه الصلاة والسلام فقط ، ونقول فى الجواب عن ذلك ان هذه حكمة علام الغيوب ، واننا نتلمس معرفة بعض هذه الحكمة ، راجين ألا نكون داخلين فى النهى فى قوله تعـــالى : « **ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** » (١) ٠

وان هذا بلا ريب من عناية القرآن الكريم بالأسرة ، اذ جاء النص على أحكامها بآيات محكمة ، واذا كانت عناية الاسلام بالعبادات ، جعلت أحكامها عملية يتولى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتربى النفوس عليها بالدربة والتهذيب لا بمجرد التلقين ، فعناية الاسلام بالأسرة كانت بالنص الكامل على نظامها ، لكيلا ينحرف الناس بأهوائهم عنها ، ولكيلا ينكروا تطبيقها ويجعلوا لعقولهم سبيلا للتحكم فى أموالها ، ونظامها ، ولأنها متصلة بالرضا والغضب بين الزوجين والأقارب فكان لابد من ميزان مقرر ثابت يحكم الأهواء ، ويضع الأمور فى مواضعها ٠

وان أحكام الأسرة مؤثرة فى المجتمع وموجهة له لأن الأسرة هى دعامة البناء الاجتماعى يضطرب باضطرابها ، ويقوى بقوتها ، ولأن الاسلام جـــاء

---

(١) الاسراء : ٣٦

لاقامة مجتمع فاضل تربطه المحبة ، وتوثق روابطه المودة ، كانت عنايته بأحكام الأسرة ، وأن تكون مستقرة يتصل فيها ماضى الأمة بحاضرها ٠

ومن الناس من ظنوا أنهم يستطيعون اقامة بناء صالح للأسرة من غير أن يتقيدوا بأحكام القرآن الكريم باسم ما يسمونه « تطور الزمان » يقلبون فيه الأوضاع ، فتضطرب الموازين ، ومن الناس من يبالغون فى اعطـــاء المـرأة حقوقا لا تقتضيها فطرتها ، ولا النظام الاجتماعى ، ويحسبون أنهم يســيرون بالجماعة الى الأمام ، وهم يرجعون بها الى الوراء ، حيث تفسـد الطبائع وتخالف الفطرة ٠

ولقد يقول بعض علماء الاجتماع ان النشأة الأولى فى جاهلية الانسان كان فيها السلطان على الأولاد للمرأة كأنثى الحيوان ، أو أكثره ، حتى اذا عرف البيت ، وانتظمت العلاقة بين الرجل والمرأة ، وكان لكل واحد منهما ، ما هيأته الفطرة له ، فالمرأة ترأم الأولاد ، وتقوم على رعايتهم ، والأب يكدح ويعمل ليوفر لهم الرزق ٠

والآن يحاولون أن يقلبوا لأمور ، ويضعوها فى غير مواضعها حتى لقد قال بعض المفكرين اننا لو سرنا خطوات بعد ما ابتدأنا السير فيه ، وأوغلنا ، فستعود الأمور الى سيطرة المرأة على البيت ، ويكون الرجل غير مستقر فى بيت ، ويكون نظام المسافدة ٠

من أجل هذا فيما ندرك وعلى قدر ادراكنا نص القرآن الكريم على أحكام الأسرة بالتفصيل ، حتى لا يتهجم المنحرفون ليشرعوا لأنفسهم ما لم يشرع الله ويفسدوا الفطرة ٠

ولقد كان سبحانه وتعالى بعد ذكر بعض أحكامها يقول جــــل شأنه : **« تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار»(١)**

---

(١) النساء : ١٣

ومن ذلك قوله تعالى بعد بيان المواريث : « **يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم** » (١) .

١٨٣ ـــ وأحكام الأسرة التى تعرض لها القرآن تبتدىء من وقت انشاء الزواج أو التفكير فيه ، فأوجب الاعلان فى الزواج ، فقال تعالى « **ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ، ولكن لا تواعدوهن سرا الا أن تقولوا قولا معروفا ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم** » (٢) .

وبين سبحانه وتعالى فى كتابه أن المهر واجب على الرجـــل ، لأن كل الواجبات المالية على الرجل ، حتى لا تبتذل المرأة فى كسب المال فتتدلى الى الهاوية ، وقد قال تعالى فى ذلك : « **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شيء منه نفسا ، فكلوه هنيئا مريئا** » (٣) وقرر أن المرأة مستحقة للمهر كاملا بالدخول بها . وقد قال تعالى فى ذلك :

« **وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا** » (٤) .

واذا لم تتم بينهما عشرة زوجية ، وكان تفرق قبل الدخول ، فان المرأة لا تحرم من المهر حرمانا كاملا ، بل يبقى لها نصفه ، ولأن الرجل لم تقم بينهما حياة زوجية يشتاران عسلها ، فانه يسقط عنه النصف وذلك ما قاله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ، اذ يقول جل من قائل : « **لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وان طلقتموهن من**

---

(١) النساء : ١٧٦ .
(٢) البقرة : ٢٣٥ .
(٣) النساء : ٤
(٤) النساء : ٢٠ ـ ٢١ .

قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، ان الله بما تعملون بصير » (١) ٠

والقرآن الكريم بين من يحل الزواج منهن ، ومن لا يحل بالنص ، وبعض البيان كان مستغلقا على بعض الأفهام ، فبينه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، اقرأ قوله تعالى :

« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ، انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ٠ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ، ان الله كان غفورا رحيما ، والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم ، وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من الفريضة ، ان الله كان عليما حكيما ، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات أخدان ، فاذا أحصن ، فان أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم ، يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم » (١) ٠

---

(١) البقرة ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ٠ (٢) النساء : ٢٢ ـ ٢٦

ولأن الاسلام يريد مجتمعا فاضلا طاهرا ، لا تشيع فيه الفاحشة ، أباح تعدد الزوجات الى أربع فقط ، وقد كان من قبله الى غير عدد محدود ، كما ذكرت التوراة فقال تعالى :

« **وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا** » (١) أى لا تظلموا ٠

وشرط اباحة الزواج فى الأحوال كلها العدالة ، سواء أكان الزواج الأول أم الزواج الثانى ، ولقد أجمع الفقهاء على أن من تأكد أنه سيظلم امرأته ان تزوج يكون آثما لأن الزواج حينئذ يكون موصلا للظلم فيأخذ حكمه ، ولكن الزواج لا يبطل ، وليس للحاكم أن يقرر بطلانه ، أو يمنعه ، لكن اذا وقع الظلم بالفعل كان للقاضى أن يفرق بينهما ان طلبت الزوجة ذلك ٠ وذلك لمقام النهى فى قوله تعالى : « **ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا** » (٢) ٠

١٨٤ — والاسلام اذ جعل دعامة العلاقات الاجتماعية الأسرة فقد دعمها القرآن بوصاياه الحكيمة التى يأثم كل الاثم من خالفها ، وتجانف لاثم فى العلاقة الزوجية ٠

أولا : أمر الأزواج بالعدل وحسن المودة ، والعشرة الطيبة التى تقرب القلوب وتدنيها ، ولا تنفرها وتجنبها ٠ فقال تعالى : « **وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن ، فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** » (٣) ٠

وقال تعالى : « **فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف** » (٤)وقد تلونا ذلك آنفا ٠

---

(١) النساء : ٣ (٢) البقرة :٢٣١

(٣) النساء : ١٩ (٤) البقرة ٢٣١

وأمر سبحانه وتعالى ثانيا : كلا الزوجين أن يعمل على اصلاح الآخر ، ان بدا منه اعوجاج ، فيقول سبحانه فى القرآن العظيم « **ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء التى لا تؤتوهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما ، وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا ، فلا جناح عليها أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وأن تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين الناس ، ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل، فتذروها كالمعلقة ، وأن تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما ، وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته · وكان الله واسعا حكيما** » ·

وأمر ثالثا : بعلاج نشوز الزوجة ، وعلاج نشوزها ان لم يتمسكنا من الاصلاح بينهما من غير اطلاع غيرهما عليهما الا أن يكون من أهل الخير أو الجيران الصالحين ، فقال تعالى :

« **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا** » (١) ·

وأمر سبحانه وتعالى فى القرآن رابعا : اخراج حكمين ان كان الشقاق متوقعا ، ويخشى استمراره ، فقال تعالى :

« **وان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ان يرد اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا** » (٢) ·

---

(١) النساء : ٣٤

(٢) النساء : ٣٥

والاسلام وزع واجبات الحياة الزوجية بين الزوج والزوجة توزيعا عادلا يتفق مع الفطرة من غير ظلم للمرأة ، ولا ارهاق ولا اذلال لها ، فجعلها قوامة على البيت تديره وتدبره ، وتربى ثمرة الزواج ، وعلى الرجل الانفاق ، ولقد قال تعالى فى ذلك « **أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضـــاروهن لتضيقوا عليهن ، وان كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن ، فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتم ، فترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق ممـا آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا** » (١) ٠

١٨٥ — ولقد تعرض القرآن الكريم لثمرات الزوجية ، وهى الأولاد ، وقد تعرض لبيان حالها ومدة الحمل ، والرضاع ، وحال الأم فى حال الحمـــل ، فقال تعالى : «**ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعـــته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ أشـــده ، وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك ، وانى من المسلمين** »(٢) وان القرآن الكريم بين وقت ارضاعه وعلى من تجب ، وعلى نفقة الولد ، وعلى من تجب ، فيقول سبحانه وتعالى :

« **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير** » (٣) ٠

---

(١) الطلاق : ٦ ـ ٧

(٢) الأحقاف : ١٥ ٠

(٣) البقرة : ٢٣٣

ولقد عنى الاسلام بالمحافظة على الأولاد ، اذا فقـــــدوا آباءهم ، وهم اليتامى ، وعنى منهما بأمرين ٠

أولهما : المحافظة على أموالهم ، فيقول سبحانه وتعالى : « **ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن** » (١) ويقول سبحانه وتعالى : « **وآتوا اليتامى اموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم الى أموالكم ، انه كان حوبا كبيرا** » (٢)٠ولحرص الاسلام على أموال اليتامى من أن تتبعثر أو أن تذهب ، نهى الأوصـــــياء عن أن يعطوهم أموالهم قبل أن يدربوهم على ادارة أموالهم ، فقال تعالى : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها ، واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا ، وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكـل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم ، فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حســيبا ، للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه ، أو كثر ، نصيبا مفروضا ، واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ، وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ، ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** » (٣) ٠

هكذا نجد القرآن الكريم حث على المحافظة على أموال اليتامى ، ونظمطريق المحافظة عليها ، بعد أن تسلم اليهم ٠

الأمر الثانى الذى حث عليه القرآن الكريم بالنسبة لليتامى أنه منـــــع

---

(١) الأنعام : ١٥٢ ٠

(٢) النساء : ٢ ٠

(٣) النساء : ٥ ـ ١٠ ٠

قهرهم ، واذلال نفوسهم ، لكيلا تكون لهم عقد نفسية تحـــول بينهم وبين الاندماج فى الأمة ، ولذلك أمر الله نبيه بألا يقهر يتيما ، فقال تعـــالى : « **فأما اليتيم فلا تقهر** » (١) ٠

وقد أمر المؤمنين الصادقين أن يضـــموا اليتامى الى أسرهم ، ويكونوا كأولادهم ، حتى لا يشعروا بذل اليتم ، فقد قال تعالى « **ويسألونك عن اليتامى ، قل اصلاح لهم خير ، وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم** » (٢) ٠

وعنى الاسلام باليتامى لكيلا ينشئوا نافرين من الجماعة فيكون منهم المشردون ، وقطاع الطرق ، ويكونون حربا على أمنهـــا ، فيكونون ذئاب الجماعة ، وهم ان أحسنت تنشئتهم يكونون قوة عاملة ، نافعة ٠

وكذلك الأمر فى كل مسكين أذلته الحاجة وقهره الفقر ، فانه يكون قوة ان أكرم وعاملا هداما ان قهر ومنع ، وهؤلاء هم العقبة ان لم يكرموا ، ولذلك قال الله تعالى:« **فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا، وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة** » (٣) ٠

وكما أوجب الاسلام رعاية اليتامى ، والقيام على شئون الأولاد ، وتربيتهم على المودة والرحمة والنزوع الاجتماعى أمر الأولاد باكرام الوالدين ، والاحسان اليهما ، ولو كانا كافرين ، ولذلك نرى ، ان الأمر بالاحســـان الى الوالدين يقترن بالأمر بعبادة الله وحده ، ومن ذلك قوله تعالى : « **واعبدوا الله و لاتشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا** » ٠

---

(١) الضحى : ٩
(٢) البقرة : ٢٢٠
(٣) البلد : ١١ ــ ١٧ ٠

ويذكر الله تعالى وصايا لقمان لابنه : « **واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير ، وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم ، فانبئكم بما كنتم تعملون** » (١) ٠

ولقد حرص القرآن على الوصية بالوالدين عندما يصيبهما الضعف ، ويكونان فى حاجة الى النظرة الرفيقة الطيبة ، فيقول سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : « **وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما** » (٢) ٠

وهكذا يربى القرآن الكريم الأسرة ، ويقيمها على دعائم من المودة ، والرحمة ، ورعاية القوى للضعيف ورحمة الكبير بالصغير ، واكرام الصغير للكبير ٠٠

انهاء الحياة الزوجية غير الصالحة :

١٨٦ ـــ تقوم الحياة الزوجية فى الاسلام على أساس المودة الواصلة والرحمة بين الزوجين ، وتنشئة الأولاد على نزوع الرحمة والتآلف ، والائتلاف بالمجتمع ، وقد أشار الله تعالى الى ذلك فى قوله تعالى : « **ومن أياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة** » (٣) ٠

---

(١) لقمان : ١٣ ـ ١٥
(٢) الاسراء : ٢٣
(٣) الروم : ٢١

ووصف سبحانه وتعالى العلاقة بين الزوجين بقوله تعالى : « **هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن** » ، وأثبت أن التزاوج للانسال والرحمة بين الناس ، فقال تعالى فيما تلونا من قبل : « **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا** » (١)

واذا كانت العلاقة الزوجية تقوم على المودة والتفاهم ، لا على المباغضة والتنافر ، فانه اذا تنافرت القلوب ، وأصبحت غير قابلة للالتئام ، فان بقـــاء هذه الحياة ليست فى صالح الأسرة ، ولا فى مصلحة المجتمع المتواد المتراحم، ولقد عالج القرآن الكريم كما رأيناه هذه الحالة عندما تنشعب القلوب،فاذا لم يجد علاج بينهما ولا علاج من ذويهما ، فان الانهاء أولى من الابقاء ، ولذلك قال تعالى فيما تلونا ، « **وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته** » (٢) فعندئذ يكون الطلاق أمرا غير محظور ٠

ويلاحظ أنه عند الطلاق الذى يكون بيد الرجل عندما تحل البغضاء محل المودة أنه لابد من تحقيق أمور ثلاثة :

أولها ـ التسريح يكون باحسان من غير مشاحة ، ولا معاندة ، فقد تلونا من قبل قوله تعالى : « **واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا** » (٣) ٠

والاحسان يوجب أن يعمل على أن تكون نفسها طيبة بانفاق مال عليهـا ويكون متعة طلاق لها ، وقد أوجبها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون** » (٤) ٠

---

(١) النساء : ١
(٢) النساء : ١٣
(٣)البقرة : ٢٣١
(٤) البقرة : ٢٤١ ـ ٢٤٢ ٠

ولقد أوجب الشافعى وأحمد بمقتضى هذه الآية المتعـــة لكل مطلقة مدخول بها ٠ وذلك نص كتاب الله تعالى ٠

الأمر الثانى الذى أوجبه القرآن الكريم أن يكون الطلاق رجعيا ، بحيث يكون للمطلق الحق فى أن يرجع زوجه اليه قبل انتهاء عدتها ، وهى فى الغالب تقدر بنحو ثلاثة أشهر تقريبا ، هى مقدار ثلاث حيضات ، وقد ثبتت الرجعة بقوله تعالى : « **والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ، ان أرادوا اصلاحا، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم ، الطلاق مرتان ، فامســـاك بمعروف ، أو تسريح باحسان** » (١) ٠

وان هذه الآيات الكريمات صريحة فى أن الطلاق يكون رجعيا ، وأن الأجل للرجعـــــة هو ثلاثة قروء أى ثلاث حيضـــات ، ولكن تحتسب الطلقـــة من ضمن ثلاث الطلقات التى يملكها ، وان الرجعـــة تثبت فى الطلاق الأول والثانى ، أما الثالث فلا رجعة فيه ٠

ولقد قالى تعالى فى ثبوت الرجعة أيضا : « **يأيها أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فاذا بلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليـــوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخــرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا** »(٢)٠

---

(١) البقرة : ٢٢٨ ــ ٢٢٩
(٢) الطلاق : ١ ــ ٣

وهذه الآيات تدل على ثلاثة أمور : أولها ــ أن الطلاق لا يكون الا رجعيا ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله تعالت كلماته : « **لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا** » وأن الطلاق حيث يمكن الرجوع من حـــدود الله التى لا يجوز أن **يتعداها المكلف** ٠

وثانيهما ــ أن الاشهاد على الرجعة واجب حتى تكون المرأة على علم بالرجعة ، وحتى تشتهر بين الناس اعادته الحياة الزوجية ، ولأن شرط صحة الزواج الشهادة ، فيكون شرط اعادته الشهادة أيضا ٠

وثالثها ــ أنها لا تخرج من بيت الزوجية ، ولا يخرجها منه ٠

وذلك هو الأمر الثالث الذى قررنا أن القرآن أوجبه ٠

الخلع :

١٨٧ ـــ واضح من هذا ان الرجل اذا نفر من زوجته ولم يكن سبيل لازالة نفرته كان له أن يطلق فى الحدود التى بيناها ٠ ومع الواجبات التى أوجبها القرآن ، فاذا نفرت المرأة من عشرة الزوج ، فهل تبقى مع هذه النفرة، التى حاول الزوجان، وذووهما ازالتها ، فلم يستطيعوا، هنا تجلت العدالةالتى قررها الله تعالى فى قوله تعالى : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » (١) فكما أن الرجل له أن يوقع الطلاق اذا نفر من زوجته وتأكدت النفرة ، وشدد فى أن يكون الطلاق رجعيا ٠ لأنه عسى أن تكون النفرة لأمر عارض وقد زال ، فهـــو أحق بامرأته ٠

اذا كان الأمر كذلك فى الطلاق عند نفرة الرجل ، فانه يفرض أن هذه النفرة قد تكون منها ، وتكون العشرة مباغضة ، ومع المباغضة العنت ، لذلك شرع الخلع ، وكان الخلع بالاتفاق بينهما ، وقد يكون بحكم القاضى أن ترافعا اليه ٠

---

(١) البقرة: ٢٢٨

ولماذا كان الخلع فى حال نفرة المرأة ؟ الجواب عن ذلك أن الرجـــل ينفق فى سبيل الزواج مالا ، وقد يكون كثيرا ، وذلك بحكم القرآن ، وقد يكون كل ما يملك ، ويستقبله زواج آخر يقيم به حياة زوجية ، بدل هذه الزوجية التى أبغضت فيها المرأة ، ولا يمكن العشرة مع بغضها ، فكان لابد من أن يأخـــذ ما أنفق أو بعضه ٠

وهذا هو الخلع ، وقد شرعه الله سبحانه وتعالى بقوله : « **ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فان خفتم ألا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله ، فأولئك هم الظالمون** »(١) ٠

الطلاق ثلاث مرات :

١٨٨ ــ شرع الله الطلاق ثلاث مرات ســـواء أكان بايقـــاع الزوج منفردا ، أم كان باتفاقهما فى الخلع ، أو بحكم القاضى ، فاذا وقعت الطلقات الثلاث بثلاث مرات ، فانها لا تحل له الا بعد أن تتزوج زوجـــا غيره بزواج شرعى صحيح على نية البقاء ، لا على نية التوقيت ، ثم طلقت من بعد لأمـــر عارض أو توفى عنها زوجها ، فان لهما أن يتزوجا من بعد ، ذلك ما بينه سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته ، وتسامت أحكامه « **فان طلقها ، فلا تحل له من بعد ، حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها ، فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون** » (٢) ٠

وكان تحريمها بعد الطلقة فى المرة الثالثة ، لأنها تدل بعد التجربة على أن الحياة لا تستقيم بينهما على ما هما عليه ، من أخلاق ، أو تنافر ، فكان لابد من تجربة تكون شديدة عليهما ان كان ثمة محل للصلاح ، أو احتمـــال له ٠

---

(١) البقرة : ٢٢٩
(٢) البقرة : ٢٣٠

وكانت تلك التجربة أن تتزوج آخر ٠ فان كانت الاساءة من جانبها كانت عشرة الآخر مهذبة أو مقررة لما كان منها ، وان كانت الاساءة من جانبه ، فانه يراها فى أحضان رجل آخر ، فيثير ذلك أسفه على ما كان منه ٠

فان انتهت التجربة ، وتلاقيا من بعد ، كان ذلك بعد تهذيب فى تجربة شديدة ٠

العـــدة :

١٨٩ — اذا تم الافتراق بين الزوجين سواء أكان المفرق هو الموت أم كان المفرق هو الطلاق ، فانه لابد من عدة تنتظر المرأة فيها ، فلا تتزوج زوجا آخر ، استبراء لرحمها من مظنة الحمل ، واحدادا على الزوج الســـابق وليتمكن الرجل فيها من مراجعة نفسه اذا كان الطلاق رجعيا ٠

واذا كانت المرأة حاملا ، فالعدة تكون بوضع الحمل ، لقوله سبحانه وتعالى : « **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** » (١) سواء أكان الفراق بالطلاق أو الخلع ، أم كان بالموت ، ورأى ابن عباس وعلى رضى الله عنهمـا أن تكون العدة بوضع الحمل بشرط مرور أربعة أشهر وعشرة أيام ، اعمـــالا لآية العـــدة « **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة اشهر وعشرا** » (٢) ٠

وعدة المطلقات ثلاث حيضات لما تلونا من قوله تعالى : « **والمطلقـــات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** » (٣) والقروء الحيضات ٠

واذا كانت المطلقة قد بلغت سن اليأس ، وقد يئست من الحيض ، أو لم تر الحيض أصلا فعدتها تكون بثلاثة أشهر ، وقد نص على ذلك القــــرآن الكريم فى قوله تعالى : « **واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر ، واللائى لم يحضن** » (٤) ٠

---

(١) الطلاق : ٤
(٢) البقرة : ٢٣٦
(٣) البقرة : ٢٢٨
(٤) الطلاق : ٤

ولابد قبل ترك الكلام فى العدة كما ورد منها فى نصوص القرآن الكريم لابد من التنبيه الى ثلاثة أمور : أولها : أن العدة بالنسبة للمطلقات انمـــا تكون لمن دخل بها ، وذلك لقوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات، ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها** » (١) ٠
أما المتوفى عنها زوجها فانها تعتد عدة الوفاة ، ولو لم يدخل بها ، لأن النص الكريم « **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا** » لم يفرق بين مدخول بها وغير مدخول بها ٠

الثانى : أن المطلقة تبقى فى بيت الزوجية في مدة العدة ، ولا تخرج منه ولا يجوز اخراجها ، وقد تلونا فى ذلك قوله تعالى : « **لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة** » (٢) ٠

والمتوفى عنها زوجها صرح القرآن بأنها تبقى فى بيت الزوجية حولا لا يجوز للورثة وأولياء الميت أن يخرجوها منه ، وذلك بصريح القرآن الكريم ، فقد قال سبحانه وتعالى : « **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصـــية لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج ، فان خرجن ، فلا جنـاح عليكم فيمـا فعلن فى أنفسهن من معروف ، والله عزيز حكيم (٣)**

فهذا النص الكريم يدل على أن المتوفى عنها زوجها لها أن تبقى فى بيت الزوجية الذى مات به الزوج حولا على أن يكون ذلك متاعا وحقا ، فـــلا يجوز اخراجها ، لأنه يكون انتزاعا لحقها ، ولكن يجوز لها أن تخرج ، وان ذلك بلا ريب حفظ للمرأة من الضياع ، وصيانة لحرمة الزوج المتوفى ٠

الأمر الثالث : أن النفقة الزوجية تبقى فى العدة ، لقوله تعالى : « **وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن** » والحمل لا يعرف الا بعـــد الولادة ، فيفرض وجوده فى كل معتدة من طلاق ، وخصوصا أن قوله تعالى : « **لينفق ذو سعـة**

---

(١) الأحزاب : ٤٩ (٢) النساء : ١٩
(٣) البقرة : ٢٤٠

من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » (٢) هو عام للحامل والحائل على سواء ·

تنبيهـــان :

١٩٠ ـــ يلاحظ أن المرأة فى الزواج لها حقوق ، وعليها واجبات ، وأن الزواج لا يفرض عليها من وليها ، بل لابد من اختيارها ورضاها فى أصل العقد وفى المهر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم فى المهر ، فقال تعـالى : **«وأحل لكم ما وراءذلكم أنتبتغوا بأموالكم محصنين غيرمسافحين،فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » (٢)** ·

ومنع القرآن الكريم بصريح اللفظ عضل المرأة بمنعهـا من الزواج ، أو تزويجها بمن لا تريد . قال تعالى : **« واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فـــلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليـــوم الآخر ، ذلك أزكى لكم وأطهر ، والله يعـلم وأنتم لا تعلمون » (٣)** ·

والتنبيه الثانى أن المرأة تأخذ نصيبها كما يأخذ الرجل نصيبه من المال مع التفاوت قال تعالى **«للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، نصيبا مفروضا »(٤)**

وان هذا النص الكريم فوق دلالته على وجوب توقير ميراث النساء يدل على أن ذمة المرأة منفصلة عن ذمة الرجل ، سواء أكان زوجا أم كان أبا أو أخا أو قريبا بأى درجة من درجات القرابة ·

---

(١) الطلاق : ٧
(٢) النساء : ٢٤
(٣) البقرة : ٢٣٢
(٤)النساء : ٧

الأسرة فى الاسلام ممتدة

١٩١ ــ هذا لفظ استعرناه ممن يكتبون فى علم الاجتماع فى هــذه الأيام ، فهم يقسمون الأسرة الى قسمين ، قاصرة وممتدة ، ويقصدون بالقاصرة الزوجين ، وأولادهما ، ويقصدون بالممتدة ما يشمل ذوى القربى جميعا من أصول وفروع ، وحواش قريبة وبعيدة بحيث يشمل الأقربين وغيرهم ٠

وقد جاء الاسلام منظما العلاقة بين النوعين ، والقرآن فى محكم آياته تعرض لأحكام الزوجين والأولاد ولم يترك أحكام بقية ذوى القربى ، وقد حث بالنسبة لذوى القربى الذين يشملون الأسرة القاصرة أو الممتــدة على مراعاة الرحم ، وذكر الواجبات اجمالا بالنسبة لصـــلة الأرحام ، فأوجب مراعاة هذه الصلة التى أوجدتها الفطرة ، مهما تشعبت الفروع ، وتكاثرت ، فقـــال الله سبحانه وتعالى : « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** » (١) وجعل سبحانه وتعالى من أقرب القربات الى الله تعالى اعطاء ذوى القرابة بسبب القرابة فقال تعالى : « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والســائلين ، وفى الرقاب ، وأقام الصــلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهــــدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** » (٢) ٠

ونرى أنه سبحانه وتعالى جعل من أول أبواب البر اعطاء ذوى القربى بسبب القرابة ، لا لفقرهم ، ولا لحاجتهم ، ولكن صلة لهم ، وابقاء لحبل المودة فى القربى أن يبقى ٠

---

(١) الأنفال : ٧٥

(٢) البقرة : ١٧٧

والوصية بأولى القربى كثيرة فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : « **وبالوالدين احسانا وذى القربى** »(١) ، وقوله تعالى فى قسمة الميراث : « **واذا حضر القسمة أولو القربى ، واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولا معروفا** » (٢) ، وقوله تعالى : « **قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى** » (٣) فالمودة فى القربى أجر يعطيه العبد لربه . وهكذا نجد نصوص القرآن .

١٩٢ — وقد ذكر القرآن الكريم حقوقا وواجبات متبادلة فى القرابة ، نذكر منها ثلاثة :

أولها — أن الدية فى القتل الخطأ تجب على الأسرة ، وتعطى الأسرة ، فهى تجب على الأسرة بمعناها الممتد ، وقد قال تعالى : « **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة، ودية مسلمة الى أهله، الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة** » (٤) .

وبهذا نجد وجوب التعاون بين الأسرة بمعناها الممتد ، فهى تتعاون فى غرم الجرائم تدفعه ، وفى تعويضها تأخذه ، ولذلك لا يجب الا اذا كانت الأسرة مؤمنة ، أو كان بينها وبين المسلمين ميثاق تجب بمقتضاه الديات ، ولا تسقط الا اذا كان من قوم عدو للمؤمنين ، فان الدية تكون اعانة لهم على الاعتداء .

ثانيها — أن الله أوجب للفقير العاجز عن الكسب نفقة على قريبه الغنى

---

(١) البقرة : ٨٣

(٢) النساء : ٨

(٣) الشورى : ٢٣

(٤) النساء : ٩٢ .

وقد ذكر القرآن الكريم ذلكفى قوله تعالى : « **ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تاكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت اخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ، ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعا أو أشتاتا ، فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون** » (١) ٠

ونجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى القرآن الحكيم أنه لا اثم على من يأكل فى بيوت هؤلاء عند الاحتياج ونفى الاثم يشير الى أنه حق ، اذ أن تناول الحقوق لا اثم فيها ٠

وقد يقال ان ذلك لم يكن مقتصرا على القرابة ، بل ذكر الصديق ، فدل على أن الحق ليس سببه القرابة ، ونقول ان ذلك الحق سببه العجز ابتداء ، ولذلك ذكر فى أول الآية ذوى العجز عن الكسب ، فكان الكلام كله فى أهل العجز ، ولكن الأخذ كان للقرابة ابتداء ، فان لم تكن له قرابة يلزمها الشرع، كانت المودة التى توجبها الصداقة مبررا للأكل ، وان كان لا يلزم الصديق بذلك قضاء ، فانه يجب عليه دينا ويأثم فيما بينه وبين الله ، ان كان قادرا ، ومع ذلك يترك صديقه يتضور جوعا ، ولذلك كانت المؤاخاة ٠

وفى ذلك ارشاد خلقى اجتماعى حكيم لواجبات الأصدقاء نحو أصدقائهم ٠

الحق الثالث حق الميراث :

ولذلك بعض التفصيل ، فقد ذكره القرآن مفصلا ٠

---

(١) النور : ٦١

الميــراث

١٩٣ ـــ تولى القرآن الكريم بيان الميراث بالتفصيل ، ولم يكن فى السنة النبوية تفصيل لمجمل فى القرآن ، ولكن فيها تطبيق لأحكامه ، وتوضيح لما عساه يستغلق على بعض الأفهام ، أو لما يحاول به بعض الناس من انحراف عن أحكام القـــرآن ، وتأثر ببعض أحكام الجاهلية ، كحــــرمان النساء من الميراث ٠

والآن نتلو أكبر آية فى بيان المواريث ٠ وهى قوله تعالى :

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نســاء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة ، فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس ممـــــا ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولـــد ، وورثه أبواه ، فلأمه الثلث ، فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعـــد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضــــة من الله ان الله كان عليما حكيما ، ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم ، ان لم يكن لكم ولد ، فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وان كان رجـــــل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت ، فلكل واحـد منهما الســـدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضــــــار وصـــية من الله ، والله عليم حليم ، تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنــــات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيهـــا وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين » (١) ٠

---

(١) النساء : ١١ ـ ١٤ ٠

في هـــذه الآيات الكريمـــات بين الله تعالى ميراث الأولاد والأبوين ، والزوجين ، وميراث أولاد الأم ، فالكلالة هنا أولاد الأم ، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم تطبيقه لأحكام القرآن في الميراث ٠

وهناك كلالة أخــرى ، وهي كلالة الاخوة والأخـــوات الشقيقات أو لأب ، وقد بينها الله سبحانه وتعالى بقـــوله : « **يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلالة ، ان امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهـــو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثــل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم** » (١) ٠

ولا ننسى قوله تعالى « **وأولو الأرحام بعضـــهم أولى ببعض في كتـــاب الله** » (٢) ، فانها كما تدل على المودة بين أولي القربى تدل على أولوية الميراث أيضا ٠ ولذا اقترن بها قوله تعالى « **في كتاب الله** » ٠

وبهذا نرى أن القرآن الكريم تولى الأحكام في الملكية بالخلافة الاجبـارية بعضه بالتفصيل وبعضه بالاجمال الذي يغني عن التفصيل ٠

وقد كان عمـــــل النبي صلى الله عليه وسلم تطبيق أحـــكام الكتاب ، ولنضرب لذلك مثلا ، أن عبد الله بن مسعود سئل عن بنت وأم وأخت شقيقة فجعل الأخت الشقيقة قائمة مقام الأخ الشقيق تأخذ الباقي ، وقال ذلك قضاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وطبق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى : « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** » (٢) فقرر صلى الله تعـالى عليه وسلم أنه بعد أن يستوفي أصحاب الفروض فروضهم ، ولم يكن أب أو ابن أن الميراث

---

(١) النساء : ١٧٦
(٢) الأنفال : ٧٥

يكون لأقرب رجل ذكر ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « فان بقى بعض أصحاب الفروض ، فلأقرب رجل ذكر » ، ولا شك أن ذلك الحـــديث النبوى تطبيق دقيق ، لقوله تعالى « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتـــاب الله** » فالأولوية تقتضى أن يكون الأقرب أحق بالميراث ، أو بما يبقى منه ·

وقد ثبت بالسنة أن المتوفى اذا ترك بنتا وبنت ابن مات أبوها · فان البنت يكون لها النصف ، ولبنت الابن السدس تكملة للثلثين اللذين يكونان للبنات ، فاذا أخذت البنت الواحدة النصف ، فانه لا يذهب باقى الثلثين ، بل يكون لبنت الابن ، لأنها بنت للمتوفى مجازا ، وذلك تطبيق للنص القرآنى ·

وقد ثبت أيضا أنه اذا كان للمتوفى أم ، وأخت شقيقة استحقت النصف فقط ، وهناك أخت لأب ، فانها تأخذ السدس تكملة للثلثين ، حتى لا يذهب ما فوق النصف ، وذلك بتطبيق رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله تعالى : « **فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك** » ·

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم تولى أحكام الميراث بالتفصيل فى أصحاب الفروض ، والعصبة فى الأولاد والآباء وبالاجمال فى باقى الأحكام ، والسنة النبوية طبقت القرآن ، وكانت بيانا للناس ·

ما يلاحظ على توزيع القرآن العادل :

١٩٤ ـــ يلاحظ على ذلك التوزيع العادل الذى تولاه القرآن ما يأتى:

أولا : أنه جعل للنساء ميراثا · ولم يكن العرب فى الجاهلية يعطون للنساء ميراثا ، وانه فى سبيل تكريم الأمومة ، وقرابتها جعل لأولاد الأم ميراثا لا يقل عن السدس ، ولا يزيد على الثلث ، وجعلهم يستحقونه بوصف أنهم كلالة · أى لا يوجد ميراث بأصول وفروع ، ومع ذلك جعلهم يرثون مع وجود الأم ·

ثانيا : أن يكون الميراث للأقرب فالأقرب ، لأن العبرة فى استحقاق الميراث أن يكون لمن يعد وجودهم امتدادا لحياة المتوفى فى الوجود ، ولذلك كان أكبر الأسرة حظا فى الميراث الأولاد ، وأولادهم الذين ينتسبون اليه ٠

ومع أنهم أكثر الأسرة حظا فى الميراث لا ينفردون به ، بل يشاركهم فيه الأبوان والزوجان ، وانهم ليشاركونهم بمقدار قد يصل الى النصف أو الى قريب منه ٠

وان مشاركة غيرهم هو لمنع تركيز المال فى ورثة بأعيانهم ، فالأبوان اذ يأخذان مع الأولاد الثلث يكون من بعدهما لأولادهما ، وهم غالبا اخوة المتوفى، فيكون الاشتراك فى المال بدل الانفراد ، واذا لم يكن أب فقد يأخذ اخوة مع الأولاد ان كانوا اناثا ٠ وبذلك يتبين أن كون الميراث للأقرب لا يمكنه من الاستئثار بالتركة وحده ٠

والثالث : مما يلاحظ فى الميراث مقدار الحاجة ، فكلما كانت الحاجة أشد كان قدر الميراث أكبر ، ولعل ذلك هو السر فى أن نصيب الأولاد كان أكبر من نصيب الأبوين مع أنه من المقرر شرعا أن للأبوين فى مال أولادهما نوع ملك ، كما ورد فى الحديث « أنت ومالك لأبيك » ، ولكن حاجة الأولاد الى المال أشد لأنهم فى غالب الأحوال ذرية ضعاف يستقبلون الحياة ، ولها تكليفاتها المالية ، والأبوان يستدبران الحياة ولهم فضل من المال ، فحاجتهما الى المال ليست كحاجة الذرية الضعاف،وفوق ذلك ما يرثانه يكون لأولادهما٠ ولا يكون منه لهذه الذرية الضعاف ٠

وان ملاحظة الأكثر احتياجا هى التى جعلت نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ، وذلك لأن التكليفات المالية على الذكور ، وتكليفات الرجل المالية أكثر من تكليفات المرأة ، فهو المطالب بنفقة المرأة نفسها ، وهو المطالب بنفقة الأولاد ، واصلاح حالهم وهو الذى يمد الأسرة بكل حاجاتهم ، وانالفطرة الانسانية هى التى جعلت المرأة قوامة على البيت ، والرجل كادحا عاملا

لتوفير القوت ، فكانت قاعدة أن العطاء فى الميراث على قدر الحاجة موجبة لجعل حق الرجل أكبر من حق المرأة ، فالأخ يحتاج الى المال أكثر من أخته ، وان ملاحظة الحاجة هى العدل ، والمساواة عند تفاوت الحاجة هى الظلم ، فأولئك الذين يطالبون بمساواة المرأة فى الميراث مع الرجل لا يطلبون المساواة العادلة ٠

والرابع : أن الشارع الاسلامى كما لاحظنا فى ميراث الأولاد اتجه الى التوزيع بين الأقارب بدل التجميع ، فهو لم يجعل وارثا يستبد بالتركة كلها ، لم يجعل الميراث للولد البكر ، دون غيره ، ولم يجعل التركة كلها للأولاد دون الآباء ، ولم يجعل يد المورث مطلقة يختص بتركته من يشاء ، ويحرم من يشاء،بل جعل نظام الميراث اجباريا فى ثلثى التركة ، ووزع الثلثين من التركة ، بين عدد من الورثة ، والصورة التى يختص بالتركة فيها واحد فقط نادرة ، وهى تكون حيث يقل الأقارب ، وفى هذه الحال تكون ثمة وصية للأقارب غير الوارثين ، على ما سنبين فى الوصية ان شاء الله تعالى ٠

واذا انتقل الميراث الى الحواشى كالأخوة والأخوات ، والأعمام ــ يوزع بينهم من غير أن يستبد بعضهم بالميراث كله ، بل من غير أن تستبد قرابة دون قرابة ، فاذا كان هناك أشقاء واخوة لأم كان الميراث للجميع ويكون للأخوة الثلث ٠

وهكذا نجد الميراث فى القرآن الكريم ، وفى بيان السنة للقرآن وتطبيقه نجد الميراث يتوزع ولا يتجمع ، وان التجمع فى وارث واحد يكون فيه بلا ريب ظلم للباقين ، ولا يكون المال دولة بين ناس من الأسرة ، والآخرون محرومون محدودون ، بل لا يكون المال فى الأمة كلها دولة بين الأغنياء ، والحرمان للباقين ٠

١٩٥ ــ ان من المقررات الشرعية أن الميراث يدخل ملكية الوارث فى الثلثين جبرا عنه ، وبغير ارادة المورث ، بل بارادة الله سبحانه وتعالى ،

ويسمى التوريث الخلافة الاجبارية ، وهى تكون فى ثلثى التركة ، ويقولون أيضا ان الثلث يكون للوصية ، وقد فرض القرآن الوصية ، بل ان صيغته فى التحريض كانت صيغة ايجاب ، فقد قال تعالى : « **كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ، فمن بدله بعد ما سمعه ، فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم ، فمن خاف من موص جنفا أو اثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم** » (١) ٠

وان هذا النص يستفاد منه جواز الوصية ، بل وجوبها عندما تكون فى موضع بر بأن تكون فى الأقربين ، فهى سد لما عساه يكون فى توزيع الميراث من حرمان بعض ضعفاء الأقارب من الميراث ، اذا لم يكونوا فى نظام التوزيع ، فهى فى وضعها بجواز الميراث تكميل لأحكامه ٠ فقد تكون الأخت الفقيرة لا يصل اليها الميراث لوجود الأبناء ، فكانت الوصية التى كتبها الله تعالى فى الثلث سدا لخليتها ٠

وانه تمقتضى هذا النص تكون الوصية واجبة لفقراء الأقارب غير الوارثين ، وذكر الوالدين لأنهما قد يكونان غير وارثين ، لاختلاف الدين ، كما كان الأمر فى صدر الاسلام، اذ كان الرجليكون مشركا والمرأة كذلك، وولدهما قد هداه الله تعالى الى الاسلام ، فيكون عليه أن يوصى لهما ، لأن ذلك من الاحسان ، والمصاحبة لهما بمعروف ، كما قال تعالى : « **وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا** » (٢) ٠

ومن العلماء من قال : ان نصيب الأبوين من الميراث ان كان قليلا تصح الزيادة عليه بالوصية ، وكذلك الأقربون من الورثة ان كان نصيب أحدهم

---

(١) سورة البقرة : ١٨٠ ــ ١٨٢
(٢) لقمان : ١٥

ضئيلا ، لا يسمن ، ولا يغنى من جوع ، جاز زيادته بالوصية من الثلث ٠ وذلك ما تفيده الآية ، وقوله تعالى بالمعروف معناه بالأمر المعقول فلا يزيد القادر ذا المال على ماله ، ولكن يعطى الضعيف ذا الحاجة الذى لم يأخذ شيئا من الميراث ٠

ودلت الآية الكريمة على جواز التدخل فى الوصية اذا كان فيها ظلم للورثة بالميل الظالم أو كان فيها اثم كالوصية لخليله ، أو الوصية لحانة ، فانه يجوز فى هذه الحال الدخول للاصلاح وتحويل الوصية الى خير ، ولذلك قرر بعض الفقهاء أخذا من هذه أن ابطال الوصية الظالمة ، أو اصلاحها بحكم القضاء جائز ٠

ومن التابعين من قرر أن الميت اذا ترك الوصية لأقاربه الضعفاء غير الوارثين ، كانت لهم وصية ، وأوجبها ابن حزم ، والله سبحانه وتعالى يعلم المفسد من المصلح ٠

١٩٦ ـــ هذا هو نظام الملكية بالخلافة جعله القرآن اجباريا فى الثلثين كما بينت السنة ، وجعله اختياريا للوارث فى الثلث ، وأوجب أن يكون فى غير اثم ، وأنه يجب ابطاله ان كان اثما ٠

واختص القرآن الكريم الأقارب الضعفاء الفقراء بايجاب الوصية لهم بالمعروف ، وقد وضحنا ذلك آنفا ٠

واذا وازنا نظام الملكية بالخلافة بأى قانون من قوانين العالم فى الماضى والحاضر ، ما وصل الى العدالة فيه نظام مهما يكن احكامه ٠

ولقد تضافرت كلمة القانونيين من علماء الغرب الذين اطلعوا على الشريعة أن أعدل نظام للملكية بالخلافة هو نظام الاسلام ، فكل نظام للتوريث غير نظام الاسلام ظالم أو ناقص ، وبذلك يعترف كل دارس منصف ٠

وان هذا النظام جاء به القرآن الكريم ، ونادى به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى لم يدرس على معلم · ولم يكن الا فى بلد أمى ، ليس فيه معهد ولا جامعة ، أفليس هذا دليلا قاطعا على أنه من عند الله تعالى ·

١٩٧ — وقد يقول قائل أطلت فى ذكر نظام الأسرة فى القــرآن ، وربما يكون ذلك خروجا عن الكلام فى القرآن الى الكلام فى الأسرة ·

ونقول فى الجواب على ذلك ، اننا نتكلم فى علم الكتاب ، فمهما نتكلم فى الأسرة ، فاننا نتكلم فى موضوع علم القرآن الذى علمنا الله تعالى اياه ، واننا لم نأت بكل ما جاء فى القرآن عن الأسرة ، ولكن اكتفينا ببعض ما جاء ليكون دليلا على ما وراءه واشارة لما بعده ·

وقد ذكرنا الأسرة فى القرآن ، وتكاد كل أحكامها تكون ثابتة بالقرآن الكريم ، والسنة مبينة لبعض ما يحتاج الى بيان كلفظ القروء فى قوله تعالى : « **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** » (١) · فالسنة هى التى بينت أن القروء هى الحيضات على أصح الروايات فى السنة ·

ولقد قررنا من قبل ما نتلمسه حكمة لتصدى القرآن لكل أحكام الأسرة ·

ونقول الآن ان أحكام الأسرة فى الاسلام كانت موضع تهجم من بعض الذين ليس للدين حريجة فى صدورهم من الرجــال والنســـاء ، فأرادوا أن يجعلوا الأسرة الاسلامية خاضعة لما سموه تطورا ، وما تطورهم الا تجانف لناحية المسيحية ، فالمسيحية فى زعمهم تحرم تعدد الزوجات ، والمسيحية فى زعمهم تمنع الطلاق ، فيجب أن تكون الأسرة فى الاسلام تمنع التعدد ، وتمنع الطلاق (٢) وهكذا دفعهم التقليد ، والاسلام يجعل للرجل قوامة على المرأة ، وهم لا يريدون ذلك ، ويريدون أن يكون البيت فوضى وهكذا ·

---

(١) البقرة : ٢٢٨

(٢) وقد كتبنا بحثا فى بيان أن التعدد كما جاء فى القرآن ، والطلاق أمثل نظام لتكوين أسرة فاضلة نشر فى السنة الخامسة عشرة من مجلة القانون والاقتصاد ·

ولقد وصل بهم الانكار لحقائق الاسلام أن تهجموا على نظام الميراث ومنهم من يتمرد عليه ، اتباعا لأهوائهم ، ونحن نقول لهم دعوا التقليد الأعمى ، ودعوا التفكير الأعوج واعلموا أن الأمـــر فى ذلك أمر القــــرآن ومن علم غير القرآن فقد كفر ، فان تمردتم باسم التطوير ، وهو عمى التقليد فاعلموا أنكم على شفا جرف من الكفر ، لأن من أنكر أحكام القرآن أو من خالفهـــا جاحدا ، فهو كافر ، فكونوا كما تشاءون ، فان كنتم مؤمنين فخذوا بالقرآن ، وان كنتم غير ذلك « فلكم دينكم ولى دين » ٠

الزواجر الاجتماعية

١٩٨ ـــ هذا هو القسم الرابع من الأحكام التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، وقد شرع القرآن من العقوبات الرادعة ما تتطهر به المجتمعـــات من الرذيلة ، وتتجه ناحية الفضيلة ، ويتحقق الخير فى كل مظاهر الحياة خاليـــا من أدران الشر ٠

والعقوبات فى الاسلام قسمان : عقوبات مقدرة ، وعقوبات غير مقدرة والعقوبات المقدرة تعد أعلى العقوبات فى نوعها ، وغير المقدرة تعـــد دون الأعلى ، وقد تولى القرآن الكريم بيان أكثر العقوبات المقدرة ، والعقـــوبات غير المقدرة ترك تقديرها للقاضى أو ولى الأمر ان رأى أن تقيد القضـــــاة ، فالاسلام يذكر الحد الأعلى للعقوبة وترك للقاضى تقدير ما دونها على ما قررنا ٠

والعقوبات المقدرة قسمان : قسم فيه حقوق العباد واضحة ، كالقصاص، وقسم كان لحماية المجتمع من شرورة ، وحق العباد ليس فى وضوح الأول ٠

وفى الأول كان للمجنى عليه أوليائه حق العفو ، كما سنبين ٠ أما الثانى فلا عفو فيه ، لأنه حق الله ٠

وأول نص فى العقوبات التى كانت لحق العبد أو حق العبد فيها أوضح

من غيره من عقوبة القصاص وهى عقوبة تومىء اليها الفطرة ، لأن العقوبة مساوية للجريمة ، ومن جنسها ، وقد نص عليها فى القرآن فى عدة آيات ، منها قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدىبعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** » (١) ٠

وفى هذه الآية نجد القصاص فى الأنفس ، وآية أخرى تعمم القصاص فى الأنفس والأطراف ، بل الجروح ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك مبينا ما كان فى التوراة ، وهو فى الشرائع السماوية كلها : « **انا أنزلنا التوراة فيهـــا هدى ونوريحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحباربما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون** » (٢) ٠

وهذه الآيات الكريمات تدل ــ أولا ــ على أن القصاص شريعة النبيين أجمعين ، طبقه النبيون على الذين هادوا ، وطبقـــــه من بعدهم الربانيون والأحبار ، ويطبقه أهل الايمان من أمة محمد كما قال سبحانه وتعالى : «**وأنزلنا الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنـــا منــكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** » (٣)٠

---

(١) البقرة : ١٧٨ ــ ١٧٩ ٠ (٢) المائدة : ٤٤ ــ ٤٥

(٣) المائدة : ٤٨

وان هذا النص الكريم يدل ـ أولا ـ على وحدة الشرائع السماوية فيما يتعلق بالقصاص ، فهو شريعة عامة ، مشتقة من الفطرة الانسانية ، فهى عقوبة طبيعية لا مراء فيها ٠

وتدل ثانيا على أن القصاص كما يقع فى الأنفس ، لأن فيه حياة الجماعة حياة آمنة مطمئنة ، يقع أيضا على الأطراف ، لأن فيه حفظ سلامة الانسان ومنع التشويه ، اذ أن التشويه الانسانى يكثر اذا لم يكن عقاب رادع يجعل الجانى عندما يقدم على جريمته يتوقع أن يقع عليه مثلها ، وذلك أمنع للجريمة ، كما قرر بعض علماء القانون الذين درسوا النفس الانسانية فى الآحاد والجماعات ٠

وتدل ثالثا ـ على أن الجروح يجرى فيها القصاص ما أمكن ، وقد استنبط من هذا بعض الفقهاء أن القصاص يجرى فى اللطم والضرب بالسوط وغيره ٠

وتدل رابعا ـ على أن الترغيب فى العفو ابعادا لأحن القلوب ،وتقريبا للنفوس ، ولذلك اعتبر العفو فى موضعه من غير تشجيع للجريمة صدقة ، وقال سبحانه وتعالى : « **فمن تصدق به فهو كفارة له** » ٠

وان القصاص فى موضعه احياء للنفس المجنى عليها، واحياء للجماعة، وهو القضاء على الأحقاد والضغائن المستكنة فى القلوب ، ان لم يكن سبيل لردعها ، فقد قال تعالى بعد أن اعتدى قابيل على أخيه هابيل شفاء لغيظه وحسدا وحقدا : « **من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها ، فكأنما أحيا الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون** » (١) ٠

وان هذا يدل على أن القصاص احياء للنفوس ، وتهذيب للجماعة ٠

---

(١) المائدة : ٣٢

١٩٩ — وان القصاص فيه حفظ للنفس ، فان حفـــظ النفس يقتضى حفظ الأطراف وحفظ كل الأجزاء ، وهو حق للعباد لأنه عقوبة اعتداء مباشر عليهم ، ولذلك كان قابلا للعفو ، كما ذكرنا وكما تلونا ٠

وأما حقوق الله أو حقوق المجتمع ، كما يجرى التعبير فى هذا الزمان ، فان العقوبة المقررة فيها تختص بخاصيتين احداهما : انها حماية للفضيلة ، وحماية للمجتمع من أن تتغشاه الرذائل ، والخاصية الثانية أنها غير قابلة للعفو ، لأنها اصلاح ليس فيه أى معنى من معانى الانتقام أو شفاء الغيظ ، كما هو الحال فى الدماء ، ولأن اقامة الحـــدود عبادة ، وهى العقـــوبات المقررة للمجتمع فيعد عبادة ، فاذا كان العفو فى القصاص يعد أحيانا صدقة كما عبر القرآن الكريم ، فاقامة الحدود من ولى الأمر القائم على رعاية مصالح المجتمع ، واقامة الفضائل ومحـــاربة الرذائل تعد عبـــادة ، بل هى أعلى العبادات بالنسبة له ، وأى عبادة أعلى من تطهير المجتمع من الشر ٠

وان الحدود شرعت محافظة على المصالح المقررة الثابتة ، وهى المحافظة على النفس وأمنها ، والمحافظة على النسل والمحافظة على العقل والمحافظة على المال ٠

وأشد الحدود تكون لأقصى أنواع الاعتداء ، وهو الاتفاق على الجرائم التى يكون فيها اعتـــداء على النفس وعلى المـــال ، بل وعلى الأعراض والعقول ، وهو ما يسمى حد الحرابة ٠

والحرابة اتفاق طائفة من المجرمين على الخروج على الجماعة بارتكاب مفاسد من أنواع الاعتداء المختلفة من قتل أو اغتصاب أموال ، وارتكاب جرائم اخرى كما قرر الامام مالك فى تفسير معنى الحرابة ، وقد ســـماهم القرآن الكريم محاربين ، لأنهم يحاربون الأمن والنظام بقوة يدرعون بهـــا وقد قال الله تعالى فيهم : «**انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو**

ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم • الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » (١) •

ونلاحظ فى النص الكريم أمورا ثلاثة :

أولها ــ أن الآية الكريمة سمتهم محاربين لله ورسوله ، ذلك لأنهم يحاربون أحكام الشرع ، وينتقضون على الحكم المنفذ لأحكام الله تعالى ورسوله الحكيم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسماهم ساعين فى الأرض بالفساد ، لأن معاندة الشرع ، والاخلال بأحكامه ومحاربة الفضائل ، وازعاج الناس ، وقطع الطريق عليهم هو عين الفساد •

وثانيها ــ أن العقوبة هى التقتيل أو القتل والصلب ليكونوا عبرة لغيرهم ، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو تفريق جمعهم ، ونفيهم من الأرض بابعادهم حيث لا يستطيعون أن يجتمعوا •

وقد قرر مالك من بين الفقهاء أن ولى الأمر مخير فى هذه العقوبات يختار منها ما يناسب حالهم •

ثالثها ــ ان الجريمة الأساسية فى اجتماعهم واتفاقهم مع قوة تمكنهم من جرائمهم ، فان تابوا من تلقاء انفسهم ، فقد ذهب أصل الجريمة وهو الاتفاق الجنائى ، والخروج بقوة لتنفيذه ، وما داموا قد تابوا فقد عدلوا عن الارتكاب ، وهو جريمة مستمرة ، فاذا انهوها ، لا تستمر عقوبة الحد •

ولكن يحاسبون على ما ارتكبوا قبل التوبة ، وللفقهاء كلام طويل فى هذا وفى توزيع العقوبات على الجرائم فليرجع اليه فى كتب الفقه ، ففيها ما يشفى غله الصادى المتطلع •

ومن الناس من يلهجون باستغلاظ هذه العقوبة ، ويحسبون آثمين أنها ليست انسانية وأولئك ينظرون الى العقوبة ، ولا ينظرون الى الجناية ، ويرحمون

---

(١) المائدة : ٣٣ ــ ٣٤ •

الجـــانى ، ولا يرحمون المجنى عليه ، والمجنى عليه هنا الجماعة ، أولئـــك يخرجون بقوة واتفاق ، لا ليقيموا حقا أو يخفضوا باطلا بل لمجرد أذى الجماعة وينتهكون كل حرمة ، يقطعون الطريق على السابلة ، ويزعجون الجمـــاعة ، فلابد أن تكون العقوبة كفاء لما يرتكبون ورادعة ، والعدالة الانسانية توجب المساواة بين مقدار الجريمة ومقدار العقاب ، وكلما عظمت الجريمة كان لابد من عقوبة تناسبها ، وكما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « **من لا يرحم لا يرحم** » وذلك هو منطق العدل ، ومنطق العقل ·

ولو أن تلك العقـــوبة عوقبت بهـــا العصابات المخـربة التى لا تبقى على شى الا انتهكت حرماتها ، ولها ميزانية من السرقات تبلغ أحيانا ميزانية الولاية أو الدولة التى تكون فيها « **فاعتبروا يا أولى الأبصار** » ·

٢٠٠ ـــ وان الجريمة التى تقترب من جريمة الحرابة ـ جريمة السرقة بيد أنهما يفترقان ، فالسرقة أخذ المال فى خفية من حرز مثله ، بينما الحرابة أخذ المال بقوة لا يلاحظ فيها الاختفاء ، ولكن يلاحـظ الأمن من الاســـتغاثة واجابة المستغيث ، فهى فى خفاء عن المجتمع ، لا فى خفاء عن صاحب المال ، ويفترقان فى أن هذه جماعية تخرج بقوة تقـــــاوم قوة الدولة ويفتــرقان فى أن الحرابة تتعدد فيها أنواع الجرائم ، والسرقة لا تتعـــدد فيهـا أنواع الجرائم ، ولذلك تتعدد فيها العقوبة ·

ويتفقان فى أمرين أحدهما أن فى الجريمتين افزاع الناس وازعـــاج الآمنين ، فلا يأمن أحد على نفسه أو ماله ويتفقان أيضا فى أن التوبة تقبـل من قطاع الطريق ، قبل القدرة عليهم ، وتقبل فى السرقة على قول كثيرين من الفقهاء وهذا يتفق مع نص القرآن الكريم ·

وعقوبة السرقة نص عليها فى قوله تعالى : « **والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، واصلح ، فان الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم** » (١) ·

---

(١) المائدة : ٣٨ ـ ٣٩

وقد اشترط فى التوبة فى هذه الحال أن يصلح ، لا أن يتوب بلسانه ، ولا شك أنه اذا سرق من بعد التوبة فانه تقطع يده ٠

ولهذا التشابه بين السرقة والحرابة قالوا ان الحرابة هى السرقة الكبرى وتلك التسمية صحيحة ، وان كان معها جرائم القتل ٠

وقد يقول الذين يرحمون المجرم ، ولا يرحمون الآمن معترضين على ذلك متعللين بأمرين :

أحدهما ـ أن العقوبة ليست متكافئة مع الجريمة مهما يكن نصاب السرقة ، فهل تقطع يد فى سرقة عشرة دراهم أو ربع دينار كما قال الامام مالك، ويرددون قول أبى العلاء ٠

يد بخمس مئين عسجد وديت   ما بالها قطعت فى ربع دينار

والثانى ـ أن العقوبة فى ذاتها غليظة تكثر من المشوهين الذين تقذى الأعين برؤيتهم ٠

ونجيب عن الأمرين ، فنقول فى الاجابة عن الأمر الأول ، انه ليس التساوى بين العقوبة فى الحدود بين الفعل والعقاب ، انما التساوى بين العقاب ، وآثار الجريمة ، فبالنسبة للسرقة لا يكون التساوى بين المال الذى سرق ، وبين قطع اليد ، انما ينظر الى الافزاع وازعاج الآمنين فى سرقة تقع فى حى أو قرية ، فكم من حراس يقومون ، وكم من مغالق يحترس بها من السارقين ، فجريمة السرقة ليست آثارها واقعة فقط على المسروق منه بل تتعداه الى كل من يكونون معه فى الحياة ٠

والجواب عن الأمر الثانى أن هذه العقوبة لا تقع الا اذا كان التكرار اذ أنه اذا سرق ابتداء وتاب وأصلح ، فانه لا يسرق ، فلا تقطع يده ٠

وان قطع يد واحدة تمنع السرقة ، فلا يكون ثمة من بعد ما يوجب القطع، وهنا دولة عربية تقيم حد السرقة ، لا تقطع فى العام يدا أو اثنتين فالقطع يمنع سبب القطع ٠

وفوق ذلك ، فان القطع لا يكون الا حيث تنتفى الشبهات . فالشبهات تسقط الحدود وان عدد السرقات التى تنتفى فيها الشبهات ، ويجب فيها الحد يقدر بنحو خمسة فى الألف من السرقات التى تقع ، ومن الشبهات التى اعتبرها السلف أن يكون السارق فى حال جوع أو مظنة جوع ، كأن يكون ثمة مجاعة ، فانه لا يقاوم الحد للشبهة ، كما فعل الامام عمر عام المجاعة .

وعلى ذلك يستغلظون عقوبة السرقة فى الحدود التى بينا أن يبينوا لنا كم من السرقات قطعت فيها أيدى نساء ورجال لأجل الوصول الى غاية السارق، وكم من النفوس أزهقت فى السرقات بالاكراه أو فى اخفاء الجريمة وعدم معرفتها .

انكم ان وازنتم بين هذه الجرائم التى ترتكب فى سبيل السرقة وجدتم أن قطع اليد لا يساوى فى عدده عشر معشار هذه الجريمة ، واعتبر ذلك بالبلاد التى طبقت حد السرقة ، فان الأيدى التى تقطع فى البلاد كلها لا يتجاوز ان تواضعنا عدد أصابع اليد .

لقد عجزت القوانين عن علاج جريمة السرقة ، فهلا نستعين بحكم الله تعالى ، ولكن آفة الجماعات فى هذه الأيام أولئك الذين تذهب أنفسهم حسرات على المجرمين ، ولا ننظر نظرة عطف على الذين كانوا فريسة للعابثين والمجرمين ، وذلك فساد منطقى غريب ، ومع ذلك يعدون أنفسهم اجتماعيين ؛

الاعتداء على النسل

٢٠١ ــ أوضح جريمة فى الاعتداء على النسل جريمة الزنى ، فانها اذا شاعت فى قوم ضعف نسلهم ، وانحدروا الى الفناء ، كما رأينا فى أمم حاضرة ، وجماعات ماضية .

وقد تعرض القرآن الكريم لبيان هذه الجريمة وعقوبتها ، أو بالأحرى

لبيان هذه العقوبة مع التعرض الاجمالى للجريمة ، مفصلا العقوبة ، فقد قال تعالى : « **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فان تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما ، ان الله كان توابا رحيما** » (١) ٠

وان هذا النص الكريم دل على أمور ثلاثة :

أولها ــ أن الشهادة على الزنى لا تكون الا بأربعة ، فلا تصح الشهادة بما دون ذلك ، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى فى حد القذف « **والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة** » (٢) ٠

ثانيها ــ أن الرجل والمرأة اذا ارتكبا الفاحشة ، وهى الزنا فى الآية الأولى والثانية ، كان لابد من عقوبة مناسبة ، اذا لم تكن توبة يكون معها اصلاح أمورهم ، وانهم ان كرروا لا تقبل التوبة ، وكذلك قرر كثيرون من الفقهاء كما قيل فى السرقة ٠

الثالث : أن النساء يختصصن بعقوبة لا تمنعها التوبة ، وهى أن يمسكن فى البيوت حتى الوفاة أو يجعل الله لهن سبيلا بالزواج ، وهذه فى الحقيقة ليست عقوبة ، ولكنها صيانة وحمل على التوبة ، فان كان منهن من بعد فاحشة كان الايذاء ٠

وقد ذكر هنا الأمر بالايذاء مجملا ، وفصل فى سورة النور ، فقال تعالى : « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما**

---

(١) النساء : ١٥ ــ ١٦

(٢) النور : ٤

طائفة من المؤمنين ، الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » (١) ٠

وان هذا النص يدل على ثلاثة أمور ، أولها ــ أن عقاب الزانى والزانية مائة جلدة قوية شديدة رادعة لا رأفة فيها ٠ وثانيها ــ ان هذا العقاب الشديد الرادع يكون علنا يشهده طائفة من المؤمنين ٠ ثالثها ــ أن الزانى الذى يعلن زناه لا يرضى به الا زانية أو مشركة، وأن الزانية لايرضى بالزواج منها الا زان أو مشرك ، وأنه من المحرم على المؤمنين أن يتزوجوا من الزناة ، ومفهوم النص أن ذلك التحريم ان لم تكن توبة ٠

عقوبة العبد على النصف من الحر

٢٠٢ ــ هذا التقدير للعقوبة فى الزنى انما هو على الأحرار من الرجال والنساء ، أما العبيد والاماء فعقوبتهم نصف هذه العقوبة ، فلا يجلدان الا خمسين جلدة ، وقد ثبت ذلك بنص القرآن الكريم بالنسبة للاماء وثبت بقانون المساواة بين الرجل والمرأة أن العبد تنصف عنه العقوبة ، وهذا نص القرآن الكريم الحكيم ، اذ يقول سبحانه وتعالى : « **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله اعلم بايمانكم بعضكم من بعض ، فانكحوهن باذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات اخدان ، فاذا احصن ، فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم ، يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم » (٢) ٠**

---

(١) النور : ٢ ــ ٣

(٢) النساء : ٢٥ ــ ٢٦

وأن هذا النص يدل على أن الأولى بالمؤمن ألا يتزوج الا حرة ، ولا يتزوج امة الا اذا عجز عن الزواج بالحرة ، حتى لا يعرض أولاده للرق ، وأن الاماء أولى بهن مالكهن يدخل بهن ، فيكون أولاده منها أحرارا ، وتعتق هى بولدها من مالكها ، فيكثر الأحرار ٠

وتدل الآية ثالثا على أن الأمة المتزوجة عقوبتها خمسون جلدة ٠

وبمقتضى المساواة فى الأحكام كما أشرنا تكون عقوبة العبد أيضا منصفة كعقوبتها ٠

ونظرة صغيرة فى الموازنة بين شريعة القرآن ، وشريعة الرومان ، لقد كان الرومان يضاعفون عقوبة العبد ان ارتكب جريمة ويخففون العقوبة على الحر ، فهم يقولون ان العبد اذا زنى بحرة يقتل ، وأما الشريف الرومانى فانه اذا زنى يغرم غرامة بسيطة ، فمنطقهم الظالم يسير سيرا عكسيا تصغر العقوبة عندهم بكبر المجرم وتكبر بصغره، أما الاسلام فانه ينظر فى الأمر بمنطق مستقيم ، فالجريمة تكبر بكبر المجرم ويكون العقاب على قدرها وتصغر بصغر المجرم ، ويكون العقاب على قدرها ، وذلك لأن الجريمة هوان وان الهوان يسهل على الضعيف ، اذ لا قوة نفس تعصمه وتنهاه ، وان العبد والأمة فى ذل وهوان ، فالجريمة منهما قريبة ، فيعذران ، ويخفف عليهما العقاب ، وذلك هو منطق العدل المستقيم ، وهو شرع الله العظيم ٠

حد القذف :

٢٠٣ ــ القذف هو رمى المحصنات والمحصنين بالزنى ، من غير دليل مثبت ، بل بمجرد الظن الواهم ، أو الايذاء الآثم ، وفى ذلك تهوين للجريمة واشاعة للفاحشة فى الذين آمنوا ، ولذلك كان العقاب الصارم على من يقذف ، ويرمى المحصنين والمحصنات من غير تثبت ولا تحرج ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك مبينا له بعد حد الزنى : « **والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا باربعة**

شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئـــك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم »(١) ٠

وهذا النص السامى دل على أمور ثلاثة : أولها أن الرمى بالزنى لابد أن يكون ثابتا بشهادة أربعة من الشـــهداء ، والا عد قذفا باطلا ، وكان له عقوبة قاسية ، وهو الجلد ثمانين جلدة ، وهى عقوبة مادية لا هوادة فيها ٠

ويدل ثانيا على أن هناك عقوبة أدبية أو تبعية كما يقول علماء القانون ، وهو ألا تقبل لهم شهادة أبدا ، لأنهم دنسوا ألسنتهم بقول أفحش البـــاطل ، فيعاقبون على ذلك بألا يقبل منهم قول فى قضاء ، والتأييد يقتضى أن التـوبة لا تسوغ سماع شهادتهم ٠

ويدل ثالثا على أن التوبة تقبل عنـــد الله اذا تابوا وأصلحوا ، وذلك لا يمنع نزول العقاب الأصلى والتبعى ، لأن التبعى أبدى ٠

وان هذه العقوبة لمنع اشاعة الفاحشة ، لأن الاتهام بالزنى وخصـوصا للأبرياء يسهل ارتكابه ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك : « **ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة** » (٢) ٠

ولقد ضرب الله سبحانه وتعـالى مثلا للذين آمنوا بحـال أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعـــالى عنها ، وهى الطاهرة بنت الطـــاهرة ، وزوج أطهـــر من فى هذا الوجـــود ، تطاول المفترون عليهـــا بالافك ، وقال الله تعالى فيهم « **ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنـــون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذا لم يأتوا بالشهداء ، فاولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة،**

---

(١) النور : ٤ ــ ٥
(٢) النور : ١٩

لسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ،ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ، ان كنتم مؤمنين ، ويبين لكم الآيات ، والله عليم حكيم » (١)

هذا توجيه عظيم لمن يســـمع افكا على طاهر من الطاهرين ، أو طاهرة بينة الطهارة ، فأول واجب على المؤمن اذا سمع افكا أن يظن خيـــرا بالمؤمن ويجعل حال الصلاح هى الظاهرة ، وهى الحاكمة ، فان كان ممن يظن الظنون فعليه أن يتثبت حتى يجىء الدليل ، وهو أربعة شهداء ، ليكون الدليل مقابلا لظن الخير بأهل الايمان ، فان لم يكن الدليل كان على المؤمن أن يقول هـــذا بهتان عظيم ، وانه لا يسوغ لمؤمن أن يتلقى قولا يرمى من غير دليل ، ولا تثبت، ثم يزيد الظن به ، فيقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويحسبونه تسلية ، وأمرا هينا وهو عند الله عظيم ٠

وفى هذا النص السامى بيان للمستهينين الذين يشيعون القول الفاسد ، وما ينبغى أن يكون عليه المؤمن ، وان الاسلام يريد جماعة طاهرة عفيفـــة لا يسودها الا الكلام الطيب النزيه العف ٠

اللعـــان :

٢٠٤ ـــ جاء رجل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يبثه شكواه ، **ويقول** : « ان الرجل يجد الرجل مع أهـــله ، فان قتله قتلتموه ، وان تكلم ضربتموه ، وان سكت على غيظ ، اللهم بين ، فكان اللعان ٠

وهو يكون فى حال رمى الرجل زوجته بالزنى ، فقد جعل الله تعـــالى حكما خاصا ، مخصصا لمن يرمى أى محصنة غير زوجته ، لأنه لا يمكن أن

---

(١) النور : ١١ ــ ١٨

يرمى زوجته الا وهو فى عذر غالبا ، فكان اللعان للتثبت من الواقعة التى تتضمن الوقوع فى الفاحشة من الزوجة ، وقد بين الله تعالى اللعان بقوله تعالت كلماته :

« والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ، ان كان من الصادقين . ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم » (١) .

والشهادة هنا هى الحلف بالله تعالى ، لأن الحلف فيه اشهاد لله سبحانه وتعالى ، فالرجل يحلف أربع مرات أنه صادق فيما رماها به من الزنى ، أو نفى الولد ، ان كان الرمى بعدم نسبة الولد اليه ، ويتضمن ذلك الرمى بانها حملت به من زنى ، فاذا حلف هذه المرات الأربع ، حلف الخامسة بأن يحلف بالله أن لعنة الله تنزل به ان كان من الكاذبين .

والمرأة ينزل عليها العقاب ، وما حده القرآن الكريم ، فتحلف أربع مرات انه لمن الكاذبين ، وتحلف الخامسة بأن عليها غضب الله ان كان من الصادقين .

وان التحالف ان تم على هذا الوجه رفع عن الرجل عقوبة القذف ، وهو ثمانون جلدة ، وعن المرأة عقوبة الزنى ، ولقد حكم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك .

ولكنه صلى الله تعالى عليه وسلم فرق بينهما فرقة أبدية ما داما على هذه الحال ، لأن الحياة الزوجية تقوم على المودة ، والمودة تقتضى الثقة بين الزوجين ، وبعد هذا الترامى ، وتكذيب كل واحد لصاحبه ، ذهبت الثقة

---

(١) النور : ٦ ــ ١٠

ولا مودة مع فقد الثقة ، فلا يتحقق معنى الزوجية الذى نص عليه فى كتـابه الكريم « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم** مودة ورحمة » (١) ولا تراحم بين زوجين يشك أحدهما فى صاحبه ، ولا يطمئن اليـــه ٠

٢٠٥ ــــ وان ما ذكرناه من نصوص القرآن فى الزنى والقذف واللعان ، يتجه بالمؤمن الى أن يكون طاهرا نزها عفيفا ، ويتجه بالجماعة الاسلامية الى أن تسودها الفضيلة ، فلا تترامى برفث القول وفسوقه لأن فسوق القول يؤدى الى فعله ، والترامى بالفاحشة يؤدى الى ارتكابها ٠

وان الرذائل لا تنمو الا فى أجواء فاسدة ، والفضائل لا تخبو الا فى أوباء الرذائل ٠

ولعل فساد مجتمعاتنا الحاضرة سببه الترامى بالفحشـــاء صراحة ، أو بلحن القول اذ يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

الخمـــر

٢٠٦ ــــ ذكرنا حدودا أقيمت لحفظ النفس والمال ، وحدودا أقيمت لحفظ النسل وحفظ البيئة الاجتماعية ، والآن نذكر ما يفسد العقل ، وقد ترك الله سبحانه لنبيه تقدير العقوبة لها وان كانت الجريمة قريبة من جريمة القذف ومن جنسها ، ولذلك فهم فقيه الصحابة على كرم الله وجهه عقوبتها من عقوبة القذف وقد جاءت النصوص القرآنية مشيرة الى مضار الخمر ، وأنها شراب مذموم ، وجاءت بالنهى عنها ، وأول آية نزلت مشيرة الى أنها أمر غير حســـن قوله تعالى :

« **ومن ثمرات النخل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حســـنا ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » (١) ٠

---

(١) النحل : ٦٧ ٠

وقد كان ذلك النص متضمنا استهجانا لها ، وهو استهجان ببيان أنهـا شيء غير مستحسن في ذاته ، فهو مقابل للأمر المستحسن ، و المقابل للمستحسن لا يكون الا مستهجنا ٠

وكان ذلك أول تنبيه للعرب باستهجانها ، لأنهم كانوا يألفونها فى جاهليتهم، ويتفاخرون بشربها كما يفعل أهل الجاهلية فى هذا الزمان الذى نعيش فيه ٠

وهذه الآية نزلت فى مكة ، فلما كانت الهجرة ، وأشرب المسلمون حب الاسلام أشار القرآن الى ما يوجب تحريمها ، فقال تعالى : « **يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما** » (١) ٠

وقلنا ان هذا النص السامى يوجب تحريمها ، لأن كل أمر غلبت مضاره على منافعه يوجب العقل أن يحرمه الانسان على نفسه ، لأنه ما من شيء الا فيه نفع نسبى ، وضرر نسبى ، والعبرة بما يغلب ، ولكنه ليس تحريما صريحا ، ولذلك بعد هذا النص كان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ٠

وان النفس العربية كانت قد ألفت شربها ، وتعودته ، فلابد من تربيـة تخلع هذه العادة غير الحسنة فجاء النص الآخر الكريم ليربى النفس على البعد عنها ، فقال تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** » (٢) ٠

وانه لا يتصور ايمان من غير صلاة ، فالصلاة أمر محتوم ، وقد نهى عن أن يقربها ، وهو سكران ، حتى يعلم ما يقول ، والعلم بما يقول هو العـلم

---

(١) البقرة : ٢١٩ ٠

(٢) النساء : ٤٣ ٠

بما ينبغى قوله ، ومالا ينبغى ، ونتائج القول ، وتحرى الصدق ، وكل هـــذا لا يكون الا من ذوى وعى كامل مدرك لحقائق الأمور ، وغاياتها ، ولا يكون ذلك الا اذا كان على بعد من الشرب بوقت طويل ، وقال سبحانه وتعـــالى لا تقربوا الصلاة ، ولم يقل لا تدخلوا فى الصلاة ، لأن النهى عن المقاربة أبلغ من النهى عن الدخول ٠

واذا كانت الصلوات خمسا موزعة فى النهار وزلفا من الليل ، فانه لابد أن يكون على صحو كامل من قبل الفجر حتى لا يقرب صلاة الفجر ، وهو لا يعلم ما يقول ، ولابد أن يكون فى صحو قبل الظهر ، ولابد أن يكون الصحو مستمرا الى العصر ، لقرب ما بينهما ، ومثل ذلك المغرب والعشاء ، وبذلك يذوق المسلم حلاوة البعد عنها ، كما تعودها من قبل ، وهى شراب غير مرىء ٠

فكان ذلك النص الكريم تربية للنفس المؤمنة ، وعلاجها لترك امر مذموم ألفوه بأمر حسن عرفوه وذاقوا حلاوته ٠

ولم يجد عمر المدرك بنور الله فى ذلك بيانا شافيا ، لأنه يرغب فى نهى قاطع ، لا تردد فيه ٠

ولقد نزل بعد ذلك الأمر الحاسم القاطع الناهى نهيا لازما فقال تعالى :

« يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر ، والأنصـــاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقـــع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله . وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (١) ٠

وقد قال علماء البلاغة ان قوله تعالى « **فهل أنتم منتهون** » هى أبلغ صيغ النهى ، ويجدر بنا هنا أن ننبه الى أمرين ٠

---

(١) المائدة ٩٠ ــ ٩١

أولهما ـ أن أهل الجاهلية فى هذا العصر يقولون انه لم يكن ثمة نص على النهى مثل قوله : «لا تشربوا » وان ذلك القول التــافه كان غير جـدير بالالتفات اليه ، ولكن كثر ترداده ، فحق علينا البيان فنقول :

ان النص الكريم شدد فى النهى من وجوه كثيرة ـ أولها ـ أنه قرن الخمر والميسر بالعبادة بالذبح على النصب ، وتلك قرينة التحريم فى ذاتها ·

وثانيها ـ أنه وصفها بأنها من عمل الشيطان ، وأنها رجس ، أى أمر قذر فى ذاته ، فهى ضارة ، ولا تتقبلها النفس الفطرية . ومضارها الجسمية معلومة لكل مدرك أريب ·

وثالثها ـ أنه طالب باجتنابها ، والاجتناب يقتضى البعد عنها ، وعن مجالسها ، وعن شاربيها ، وذلك أبلغ من قولك : لاتشربها ·

ورابعها ـ أنها تدفع الى العداوة والبغضاء ، وهما أمران مفسدان ، مقوضان لبناء المجتمع ·

وخامسها ـ أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والصلاة فرض لازم هو شعار الاسلام ، والصد عنه أشد الأمور فى الاسلام فهــو حرام ، فكل ما يؤدى اليه يكون حراما مثله ، لأن ما يفضى الى الحرام يكون حراما ·

وسادسها ـ قوله تعالى ، « فهل أنتم منتهون » ، وقد قلنا انها أبلغ صيغة فى النهى عن الفعل ·

الأمر الثانى ـ الذى يجب التنبيه اليه هو أن الخمر كل ما يخـــامر العقل ، ويستره ، ويمنعه من الادراك المستقيم ، ســـواء أكان النىء من ماء العنب ، أم كان المطبوخ منه ، وسواء أكان من العنب أو البلح ، أو غيرهما ·

وعندما نزل ذلك النص القاطع فى التحريم أراق الصحابة كل ما عندهم من أدنان الخمر ، ولم يكن فيها النىء من ماء العنب ، بل كانت كلها أنبذة بلح

فكل شراب من شأنه أن يسكر أو يؤدى الى السكر يكون حراما سواء أكان نبيذ العنب أو التفاح أو البلح أو البصل أو نىء القصب ، وسائر ما يخترعه ابن الانسان ليفسد عقله ، وسواء أكان سائلا أم كان جامدا ·

ولقد عرضنا لهذا الأمر لأن بعض الفقهاء الكبار ظن أن الخمر هى النىء من ماء العنب اذا غلا واشتد وقذف بالزبد ، فتعلق به الجاهلون ، وحسبوا أنه يبيح الأنبذة ، وهو يعلم أنها مسكرة ، وطاروا بذلك القول ، ليستبيحوا الخمر ويبيحوها ، ونقول ان ذلك الامام الجليل قد أخطأ ، وما كان عليهم أن يقلدوه فى الرأى ليتمكنوا من شربها ، بل كان عليهم أن يقلدوه فى فعله ، فقد قال رضى الله عنه وعفا عنه : « لو غرقت فى الفرات على أن أتناول قطرة من هذه الأنبذة ما تناولتها » ·

٢٠٦ ـــ وان القرآن اذ شدد فى تحريم الخمــر ، فانه يعتبر ارتكابها جريمة تستحق العقاب ، ولكن ليس فى القرآن نص على عقوبة لها ، وفيه نص على جريمة هى فى كثير من الأحيان نتيجة لها ، فان السكران لا يدرى ما يقول فينطق برفث القول وبالفسوق وهى جريمة القذف ، ولقد قال على بن أبى طالب فى الارتباط بين الجريمتين قال فى عقوبة الشرب : « اذا شرب افترى ، فيحد حد الافتراء ، وهو حد القذف » ·

وقد ترك تقدير العقاب بالنص الصريح ، أو بالعمل المبين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال ف الشارب « اذا شرب فاضربوه ، فان عـــاد فاجلدوه ، فان عاد فاقتلوه » ·

وقد قيل له عليه الصلاة والسلام اننا بأرض برد نستدفىء بالخمر ، فقال عليه الصلاة والسلام « لا تشربوها » فقال القائلون انهم لا يستطيعون ، فقــال عليه الصلاة والسلام « فقاتلوهم » ·

البغى

٢٠٧ ــ جريمة البغى تعرض القرآن الكريم لبيانها ، والبغى معناه الخروج عن طاعة الامام العادل بقوة لتـــأويل تأولوه ، فيشــترط لتحقق جريمة البغى ثلاثة شروط :

أولها ــ أن يكون الامام عادلا ٠

وثانيها ــ أن يكون البغاة لهم قوة تعسكر مناوئة لحكومة الامــام ٠

وثالثها ــ أن يكون خروجهم لاقامة العدل لا لمجرد الخروج ، والمحاربة والسعى فى الأرض بالفساد ، وبذلك يفترقون عن قطاع الطـــريق ، لأن قطاع الطريق يخرجون على الحاكم من غير تأويل للافساد ، وانتهاك حرمات العباد ٠ وقد كانت عقــوبة أهل البغى قتــالهم من غير أن يكفروا من غير أن يعتبروا محاربين ، بل يقاتلون حتى تفل شوكتهم ، وأن على المؤمنين أن ينصروا الامام العادل ٠

وهذا نص ما جاء فى كتاب الله تعالى خاصا بذلك : « **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت ، فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** » (١) ٠

ويستفاد من هذا النص الكريم أنه قبل القتال يجب العمــل على رأب الصدع بجمع القلوب المتفرقة ، وتحرى أسباب التقاتل بين الطائفتين ، فان

---

(١) الحجرات ٩ ــ ١٠ ٠

أمكن ازالة أسباب الخصام ، فانه بهذا يستقر السلام ، وان تبين الظلم من احدى الطائفتين كانت الباغية ، وحل قتالها ، وكان القتال فرضا كفائيا على المؤمنين ، يعاونون العادل ، ويدفعون الآثم ٠

وتدل ثانيا على أن القتال له غاية ، وهو أن تعود الى أمر الله تعالى ، ويستقيم أمرها على جادة العدل ٠ فلا يؤسر منهم أسير ، وبالتالى لا يسترق منهم ، ولا تنهب أموالهم ، ولا يجهز على جريحهم ٠

وتدل ثالثا على أنها ان عادت الى صفوف المؤمنين تعامل بالعدل ، ولا تعامل بالانتقام ، فليست بينها وبين الحاكم خصومة ، انما بينهما الأخوة الجامعة ، ولذلك عقب ذكر العقوبة بقوله تعالى : « **انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** »(١) ٠

وقد ذكر حكم البغاة مجملا ، ولم يكن بغى فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن الخروج على حكمه كفر ، وليس ببغى يكون أساسه التأويل ، فلا تأويل ، وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صريح ٠

وكذلك لم يحدث بغى فى عهد أبى بكر ، بل حصلت ردة ، وكفر ، وكذلك لم يحصل بغى فى عهد الفاروق ، وفى عهد عثمان كان بغى ، ولم تكن مقاومة للبغاة ، حتى قتل الشهيد ذو النورين رضى الله عنه قتلة فاجرة ، وفى عهد على فارس الاسلام ، والمجاهد الأول بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان البغى ، بشروطه ٠

فقد خرج الخارجون على الامام العادل على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وزعموا أن لهم تأويلا ، بدعواهم أن الذين أيدوه هم قتلة عثمان ٠

وتصدى على رضى الله عنه لمقاومتهم ، بعد أن حاول رتق الفتق ، واصلاحه بالموعظة ، حتى أردوه على القتال ، وخرجوا اليه فى صفين ٠

---

(١) الحجرات : ١٠

ثم خرج الخوارج من بعد ، وهم أشد البغاة تطرفا فى بغيهم ، وكان القتال بين أهل العدل ، وأهل البغى ، ويلاحظ أن عليا رضى الله عنه لم يجرد سيفه للقتال مهاجما الا بعد أن قتل معاوية عمار بن ياسر ، عندئذ تجرد على ، وهجم بجنده لأنه علم أنهم بغاة حقا ، اذ قال عليه السلام لعمار تقتلك الفئة الباغية ، ولا نريد أن نخوض فيما قاله الفقهاء ، فاننا نذكر الحكم من غير تفصيل ٠

المعاملات المالية

٢٠٨ ــ اشتمل القرآن الكريم على بيان الحلال والحرام فى الأموال وطرق كسبها ، لكن بيانها كان اجماليا ولم يكن تفصيليا كالأسرة لأن المعاملات مختلفة فى تفصيلها وطرقها ، ويجمع أحكامها قواعد عامة تعرض القرآن لبيانها ٠ وذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيانه فيها ٠

وأول ما أمر به القرآن بالنسبة للمعاملات عدم أكل أموال الناس من غير أساس من التعامل المشروع أو الانتاج مما أخرجت ، ومن التحويل فى الصناعات المختلفة ، فقد قال تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ٠ الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ٠ ولا تقتلوا أنفسكم ٠ ان الله كان بكم رحيما » (١) ٠

وان هذا النص يدل على أمور ثلاثة : أولها ــ النهى عن أكل مال الناس بالباطل أى بغير حق موجب ٠ وثانيها ــ أن أساس التعامل بين الناس هو التراضى فيما أباح الله تعالى به ٠ وثالثها ــ أن أكل الناس بالباطل وشيوعه مثل شيوع الرشا والربا ، وغيرهما من المعاملات الفاسدة التى تتضمن فى ذاتها أكل الأموال بالباطل يؤدى الى ضياع قوة الأمة ، وقتل روح التعاون فى الجماعات ، ولذا كان قوله تعالى :**«ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما »**

---

(١) النساء : ٢٩

ولقد صرح القرآن الكريم بالنهى عن الرشوة ، وخصوصا رشوة الحكام التى تذهب بالثقة ، وتفسد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وتجعل أمور الناس فوضى ، فقد قال تعالى : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون** » (١) ٠

وان هذا النص الكريم يدل على حرمة الرشوة ، وقد سماها فى موضع آخر السحت ، ويدل على أن الرشوة أكل لأموال الناس ، وافساد للحكم ، وضياع للعدل ، وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام فى أن الأصل للعلاقة بين الناس ، وهو مراعاة العدالة ٠

وقد ذكر القرآن أن من أسباب ضياع اليهود ٠ وفساد الحكم فيهم السحت ٠ وقد قال تعالى فيهم : « **سماعون للكذب أكالون للسحت ٠ فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المقسطين** » (٢) ٠

ومن أكل المال بالباطل تطفيف الكيل أو الميزان أو تقدير الأشياء بأى نوع من التقدير فقد قال تعالى : « **ولا تقربوا مال اليتيم حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** » (٣) ٠

وقال تعالى : « **ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا ان كتاب الفجار لفى سجين وما أدراك**

---

(١) البقرة : ١٨٨

(٢) المائدة : ٤٢

(٣) الأنعام : ١٥٢

ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به الا كل معتد أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (١) ٠

وترى من هذا الوعيد الشديد للذين يطففون ، الذين يظلمون النـاس فى الكيل ٠

وقد يقول قائل لماذا اختص القرآن من بين المعاملات المادية ايفــــاء الكيل والميزان بالذكر ٠

ونقول ان الوفاء فى الكيل والميزان صورة حسية لعـــدالة المؤمن فى المعاملات ، ويتحقق فيها بالحس معنى قوله عليه الصلاة والسلام « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ٠

فالأمر بوفاء الكيل والميزان أمر بالعـــدالة النفسية والأدبية فى كـل العلاقات الانسانية ٠ وقد اهتم القرآن بذلك ٠

٢٠٩ ـــ وان الاسلام لحرصه على أن يكون التعامل على أساس سليم من العدالة ، والرضا الصحيح ٠ أمر بكتابة الديون والعقود ، والاشهاد عليهـــا لكيلا تكون مشاحة ، والمشاحة تؤدى الى المنازعة ، بله أكل أموال الناس بالباطل ، ولذا قال سبحانه :

« يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمـــه الله فليـكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليـــه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمـــل هو فليملل وليـــه بالعـــدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ٠ فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن

---

(١) المطففين : ١ ـ ١٤ ٠

ترضون من الشهداء ، أن تضل احداهما ، فتذكر احداهما الأخـــرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد، وان تفعلوا فانه فسوق بكم،واتقوا الله ، والله بكل شيء عليم ٠ وان كنتم على سفر ، ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، فان أمن بعضكم بعضا ، فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم » (١) ٠

هذا نص شامل من نصوص القرآن الكريم معجزة هذا الوجود وهو يدل على أمور :

أولها ـ لزوم كتابة الدين ، وأن تكون هذه الكتابة يتولاها كاتب عـدل مأمون تحريف القول ، أو تغييره وأن على هذا الكاتب أن يجيب اذا دعى الى الكتابة ، والكتابة مطلوبة فى كل الأحوال سواء أكان الدين صغيرا أو كبيرا بشرط أنه مقدار يدخل فى معنى عرفا ٠

ثانيها : ان الذى يملى الدين هو من عليه الدين ، فان كان ضعيفا لا يدرك العقود ، أو سفيها لا يحكم التصرف ، أو كان لا يستطيع أن يملى لضعف فى بيانه ، أو فى تغيير : يملى ولى يختاره ٠ أو يكون مختارا له من قبل القضاء المهيمن أو الشرع ٠

ثالثها : أنه لا يستثنى من الكتابة الا التجارة الحاضرة التى تدار بين التجار ، كألا تكون سلعة عند تاجر ، فيأخذها من جاره ٠ أو متعامل معه على أن يرسل اليه الثمن لهذه التجارة الحاضرة ان باعهافلتسهيل التعامل استثنيت من الكتابة ٠

---

(١) البقرة ٢٨١ ـ ٢٨٣

رابعها : أنه اذا كان الدائن والمدين على سفر ، ولم يجدوا كاتبا ، فان الرهان التى تقبض تقوم مقام الكتابة فى الاستيثاق من وفاء الدين ٠

خامسها : أنه لا بد من الشهادة بأن يكون ثمة شاهدان يحضران الاملاء ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان على أن يكونوا جميعـــا من العـــدول ، والشهادة لأجل الأداء عند الارتياب أو المشاحة، ولذلك قال الله تعالى : «**أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى** » أى عند الأداء ٠

هذا تفصيل محكم جاء فى محكم التنزيل ، واذا علمنا أن مشاحات الناس أكثرها فى المداينات والمبايعات ، سواء أكانت فى داخل الاقليم ، أم فى أقاليم علمنا لماذا عني القرآن الكريم المنزل من عند الحكيم العليم بالمداينات والعقود تلك العناية ٠

وان تعجب فاعجب من قول كثيرين من الفقهاء أن الأمر هنا للارشاد لا للالزام ، وعجبنا من أن يتصوروا أن ذلك التفصيل ارشاد ، وليس حكمـا تكليفيا ٠ والله أعلم بكتابه ٠

الربا فى القرآن : :

٢١٠ ــــ من وقت البعث المحمدى ، والاسلام لا يرى التعامل بالربا علاقة مالية صالحة ، بل انه فى الآية التى نزلت بمكة كان فيها استنكار ، وعده عملا غير صالح اقرأ قوله تعالى فى سورة الروم المكية :

« **وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال النـــاس ٠ فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ٠ فأولئك هم المضعفون** » (١) ٠

وهذا النص يفيد أن الربا لا يرضى عنه الله ٠ وان كان فيه زيادة فهى زيادة آثمة ، واذا كان المتعاملون يريدون أن يتضاعف مالهم فسبيل ذلك هو

---

(١) الروم : ٣٩ ٠

اعطاء شطر من المال للسائل والمحروم ، فان المال ينمو بذلك وتكون الزيادة خيرا لأن ذلك السبيل هو التعاون وجاءت من بعد ذلك فى المدينة الآيات المحرمة للربا تحريما قاطعا حاسما • منها قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** » (١) •

والربا المذكور هنا ، وفى الآية التى تلوناها من قبل ، وفى الآية التى سنتلوها من بعد هو الزيادة فى الدين نظير الأجل ، فليس هو الدين ذاته ، انما هو الزيادة ، ونذكر هـــذا تصحيحا لفهم بعض الذين يبيحون الربا أو بعضه ، فقد قال قائل منهم عفا الله عنه ان المحرم هو ما زاد على ضـــعف الدين • وسارع الى تصديقهم بعض القانونيين الذين يؤمنون بما فى هذا الزمان أكثر من ايمانهم بالقرآن •

والوصف بالمضاعفة للزيادة فى هذا الزمان هو لبيان ما يؤدى اليـــه الربا • اذ تتضاعف الزيادة مضاعفة كثيرة : وفى ذلك ما فيه من ارهـــاق المدين • وقبح حال الدائن • وأكله المال بالباطل من غير عمـل ولا كد • ولا تعرض للخسارة •

ولقـــد نزلت آية فى تحريم الربا تحـــريما لا يقبل أى تأويل • ولو كان فاســـدا • كالذى قيـل فى معنى الربا فى الآية السابقة ، فقد قال الله تعالى : « **الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا • وأحل الله البيع وحرم الربا • فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف • وأمره الى الله • ومن عاد فأولئـــــك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم • ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات• وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم • ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون • يأيها الذين آمنوا**

---

(١) آل عمران : ١٣٠ ــ ١٣٢ •

اتقوا الله · وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين · فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله · وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون · وان كان ذا عسرة فنظرة الى ميسرة · وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون ، واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»(١)

هذا نص صريح قاطع فى التحريم ·

٢١١ ـــ ولكن قوما ممن تعلموا علم الاسلام لم يأخذوا بظاهر معناه · بل لأنهم عودوا المناقشة اللفظية فى الألفاظ · والقاء ظـــلال من الابهام على معانيها الواضحة البينة · وقد لانت نفوسهم · وأخذوها لحكم الزمان لا لحكم القرآن · وكأنهم تعلموا ليخرجوا الكتاب على غير مخارجه ، ويتأولوه بغير متأوله ، ومرنوا على ذلك ، وأضلوا كثيرا بعد ضلالهم ·

أاذا جاءك رجل وقال لك أشك فى أن هـــذه الشمس التى هى السراج المنير هى الشمس المذكورة فى القرآن أتصدق له قولا ، أم تحســب لكلامه وزنا · أم تجعله فى ظل العلماء المشتغلين بالدراســات الاسلامية أيا كـــان لونهم ، وأيا كان زيهم ·

ان رأيت ذلك ففى المتفيهقين من الذين يتكلمون فى القرآن وعلوم الاسلام من قال ان عمر قال « ان للربا تسعة وتسعين وجها » ثم يردفون ذلك بأن يقولوا ان لفظ الربا فى القرآن كان غير معروف لعمر · فكيف يكونواضحا لدينا · كبرت كلمة تنطق بها أفواههم التى أثمت بالقول فى كتاب الله تعالى بغير علم ·

من هؤلاء تجدنا مضطرين لأن نشرح معنى كلمة الربا ، وان كنا نقول ان الشمس التى نراها هى التى فى القرآن ·

يقول أبو بكر الرازى الشهير بالجصاص فى كتابه أحكام القرآن ان

---

(١) البقرة : ٢٧٥ ـ ٢٨١ ·

الربا قسمان ربا لغوى يعرف من اللغة · وهو ربا القرآن ·وهو ربا الجاهلية وهو أن يزيد فى الدين فى نظير الزيادة فى الأجل · والقسم الثانى هو الربا الاصطلاحى وهو الذى جاء فى الحديث « الذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد · والتمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد · والبـر بالبر مثلا بمثل يدا بيد · والشعير بالشعير مثـلا بمثـل يدا بيد · والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد · فمن زاد أو استزاد فقد أربى » · فهذا النـوع من التعامل سماه النبى صلى الله تعـالى عليـه وسلم ربا ، فكان ربا بمعنى الاصطلاح · وهو الذى فيه الوجوه الكثيرة ·

أما ربا القرآن فهو ربا الجاهلية · وهو الذى قال فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع : « ألا ان ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس بن عبـد المطلب · فان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ·

والربا الجاهلى معروف وهو الزيادة فى الدين فى نظير الأجل ، فان سدد فى عام كانت الزيادة واحدة ، وان لم يسدد ضاعف الزيادة ، وهكذا مما نراه فى المصارف فى هذه الأيام ·

ولكن الذين يثيرون الشك حول الشمس والقمر المذكورين فى القرآن يثيرون الشك فى ربا الجاهلية · فيقولون ، ليس ربا الجاهلية هو الربا الذى يكون فى القروض الاستغلالية ، لأن المقترض يستغل الدين فيكتسب فيـكون من عدلهم المزعوم أن يجعلوا للدائن سهما محدودا فى الدين سواء أخسر المقترض أم اكتسب ، ويقصرون ربا الجاهلية على الربا الذى يكون فيـه قرض استهلاكى يقترض المدين ليدفع حاجات ضرورية ، ويكون الربا فى هذه الحال منافيا للمروءة والخلق الكريم ، ذلك تأويلهم الذى لا سند له من نص ، أو قياس معقول ، ولكنه تفكيرهم الذى يخرجون به عن حدود النص ·

٢١٣ — ان التأويل بتخصيص لفظ عام فى القرآن يكون بتخصيص من القرآن نفسه ، أو بتخصيص من المفسر الأول للقرآن وهو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكل تخصيص لعام القرآن الكريم من غير ذلك يكون حكم الهوى فى القرآن . ويكون ردا على صاحبه ، ولفظ القرآن عام يعم فى الربا فى القرض الاستهلاكى والاستغلالى على سواء ، وهذا فوق أن ذلك التأويل الشاذ عند علماء الشريعة فيه مصادمة للنص القرآنى ، من غير دليل ، فان النص القرآنى فيه ما يدل على بطلان ذلك التأويل الذى دفع اليه الهـــوى ، والحال التى كانت عليه البلاد الحجازية تناقضه ۰ والحوادث التى كانت فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تقاومه لما يأتى :

أولا — أن المشركين قالوا مقالة أولئك الذين يحكمون هواهم فى القرآن ذلك أنهم برروا أكلهم الربا بأن شبهوه بالبيع ، وقال الله فيهم « **ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا** » ومؤدى كلامهم أنهم يعتقدون مشابهة بين ما يكسبه المقترض بالبيع والشراء ، والاتجار فى الشام وفارس ، بما يأخذه المرابى من ربا ، أى أنهم يقولون انه بعض مما يكسبه المقترض بالبيع والشراء ۰ وهو جزء منه ۰ فرد عليهم بأن البيع حلال ، لأن الكاسب بالبيع يتحمل كســـبا وخسارة ۰ وحرم الربا لأنه الكسب من غير تعرض للخسارة ۰ وبذلك يكون الكسب من البيع طبيعيا ۰ والكسب بالربا يكون غير طبيعى لأن النقد لا يلد النقد ۰

وثانيا — قوله تعالى : « **فان تبتم فلكم رءوس أموالكم** » فان التعبير عن الدين برأس المال انما يكون فى المال المتخذ للاستغلال ۰ ولا يقال رأس المال للمال المتخذ لاستخدامه فى الضرورة ۰ فكان هـــذا دليلا من النص يفيــد أن التحريم وارد فى القرض الاستغلالى ابتداء ۰ والاستهلاكى تبعا ۰ ذلك أن النص بعمومه يحرم كل زيادة ۰ لأن أى زيادة تنقض التوبة وتكون ظلما ۰

وثالثا — أن أحوال أهل مكة والطائف تجعل القرض للاستغلال هـــو

الغالب بينهم وأن القرض للاستهلاك لم يكن شائعا بينهم · فقد كان أهل مكة وما حولها تجارا · ينقلون بضائع الروم الى الفرس عن طريق الشام واليمن· وينقلون بضائع الفرس الى الروم عن هذه الطريق أيضا · ولذلك كانت لهم رحلتان تجاريتان احداهما رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام · كما قال تعالى « **لايلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** » (١) ·

واذا كانت مكة والطائف بلدين تجاريتين ، فلابد أن نتصور أن منهم من كان يتجر بنفسه بائعا مشتريا ، ومنهم من كان يتجر بطريق غيره ، فيعطى لمن يتجر بنفسه على أن يكون الربح بينهما بنسبة معلومة ، والخسارة تكون على صاحب رأس المال ، كما كان يفعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مال خديجة بأمانة الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ومنهم من كان يدفع المال الى غيره على أن يكون له كسب محدود مما يؤول الى التاجر ، كسب التاجر أو خسر ، وقد روى ذلك من معاملات قريش ، فقد كان ذو المال يدفع المال الى التاجر على قدر من المال هو الربا · فان سدد أخذ رأس المال مع الزيادة ، وان لم يأخذه أبقى المال وضاعف الزيادة ولذلك أثر عن الربويين أنهم كانوا يقولون للمدين ادفع أو ضاعف والمراد مضاعفة الزيادة ·

وقد قال أصحاب السيرة فى مقدمات غزوة بدر أن قريشا كلها خرجت بكل مالها للتجارة حتى حلى النساء · فأرادها أهل الحق كما صادروا من أموال المؤمنين · فاستنفر أبو سفيان قريشا ، وخرج الجند لحماية العير ، فكانت الغزوة ، ولابد أن يكون فى هذا المال ما كان من مال التاجرين ، وما كان من مال غيرهم أخذ للتجارة وما كان ديونا مأخوذة ليستغلها المدينون ·

---

(١) قريش : ١ ــ ٤ ·

ورابعا ـ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى تحـــريم ربـــا الجاهلية وأول ربا أبدأ به ، ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، ولا يتصور من العبــاس رضى الله عنه أن يكون عربى محتاجا لقـــدر من المـــال فى أموره الضرورية ، فيأبى الا أن يقرضه ربا ، وهو الذى كان يسقى الحجيج فى موسم الحج نقيع الزبيب والتمر ٠

وخامسا ـ أنه لوحظ فى بعض أخبـــار العــــرب أن الأثرياء كانوا يقترضون ، فكان أبو جهل عليه دين لرجل ليس من قريش وما طله ٠ فاستعان بقريش لتحمله على الوفاء ٠ فسخروا منه ، وأشـــاروا عليه بأن يســـتعين بمحمد بن عبد الله ورسول الله ، فأعانه ٠ فقد قال الرسول القوى الأمين ٠ بعد أن صك الباب صكة أرعدت مفاصله : أد للرجل دينه ، فأداه صـــاغرا غير كابر ٠

ويروى أن بنى المغيرة قد استدانوا من ثقيفة قبل أن يسلم الفريقان فلما جاء القرآن بالنهى عن الربا ، وأنه موضوع ، اختلف الدائن الثقفى مع المدين من بنى المغيرة ، أيحتسب من رأس المال ما أخذ من ربا من قبل التحريم أم لا يحتسب ٠ أراد المدين أن يحتسب ، وأراد الدائن ألا يحتسب ، فاحتكموا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحكم بينهم بمقتضى النص القرآنى ٠

وان بنى المغيرة لم يكونوا فقراء ، بل كانوا قوما من الأثرياء ، وفيهم من قال الله تعالى فيه « **ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممـــدودا وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا** » (١) ٠

ومنهم من يدعى أن النبوة لا تكون الا فى رجل ثرى عظيم فى منظره ، وقال سبحانه وتعالى عنه « **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** » الآيات (٢)

---

(١) المدثر : ١١ ـ ١٤   (٢) الزخرف : ٣١ ٠

واذا كان ما بين الأغنياء من تقارض بزيادة · فدعوى اخراج القـــرض الاستغلالى من نطاق الربا دعوى باطلة ، وهى تدل على أن القائلين أخضعوا حكم القرآن لحكم الزمان · فضلت مداركهم ، وزاغت قلوبهم « **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة · انك أنت الوهاب** » (١) ·

وسادس الأمور التى تثبت أن ربا القرآن يعم القـــرض الاســـتغلالى . والقرض الاستهلاكى أن العرب فى حياتهم البدائية كانوا يقومون على أدنى معيشة من المادة · فما كانت لهم مطالب متعددة · وما كانوا يحتاجون الى جهاز لابنة يجهزونها ، ولا لأنواع من الأطايب يطلبونها · بل يكتفون بالقليل ، وهؤلاء لا يكون فيهم قرض للاستهلاك أبدا · ان تعدد ألوان المطالب التى قد تضطر للاقتراض لقضائها ، وليد حياة متحضرة ، ولم يكن هنا خضارة عند أهل البادية ·

ولذا نقول ان ربا الجاهلية ، وهو الربا المحرم فى القرآن يكاد ينصب على قرض الاستغلال ابتداء · والثانى يجىء من عموم النص ، وفى التعـــاون بالزكاة غنى عن الاقتراض للاستهلاك ·

شيوع الربا :

٢١٤ ـــ لقد شاع التعامل بالربا ، حتى صار يسيطر على النظام الاقتصادى ، ويقول اقتصاديو هذا الزمان كيف يسوغ ترك التعامل بالربا وهو قوام الاقتصاد الحاضر ·

ونقول : ان هذا الزمن هو الذى تحققت فيه نبوءة رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ يقول : « يأتى زمان على الناس يأكلون فيه الربا ، قيل الناس كلهم يا رسول الله · قال من لم يأكله ناله غباره » ·

---

(١) آل عمران : ٨

وان الذين أدخلوا هذا النظام فى كل قارات العالم هم اليهود ، وأذكر منهم آل روتشيلد ، الذين وزعوه فى القارات ، ونشروه ، وسيطروا به على العالم الاقتصادى ، وكان الربا سبيلا للاستعمار فى البـــلاد الاسلامية ، وخصوصا العربية ٠

ومهما يكن مصدر الربا ، ومهما يكن الذين أشاعوه ، فاننا نقــــرر حقيقتين :

أولاهما ــ أن تحريم الربا ليس بسبب خلقى ، حتى يقصر التحريم ، على القروض الاستهلاكية ، كما يتوهم بعض المتفقهة ، انمـــا الأســاس فى تحريمه اقتصادى ، فالاسلام يدعو الى نظام اقتصادى يقوم على منع الربا ، لأن الربا من شأنه أن يجعل رأس المال منتجا من غير عمل عامل ، بل من غير تحمل لتبعة العمل ، واذا ساد وجدت طائفة من الناس يتخذون التعطل سبيلا ويأكلون ثمرات غيرهم من التجار والزراع والصناع ، ولقد قرر المحققون من الذين درسوا الاقتصاد الحقيقى أن الكسب بالانتظار لا ينمى الأمة اقتصاديا ويفسدها اجتماعيا ، اذ أن الكسب بالانتظار لا ينتج ، انما الذى ينتج هو الذى يعمل زارعا ، أو تاجرا ، أو صانعا ، وانك اذا درست ما أحله الله تعالى وما حرمه من المكاسب ، تجد أن المكاسب التى أحلها الاسلام ، هى التى تزيد ثروة الأمة ، وتنمى انتاجها أو تنفع الناس ، والمحرم من المكاسب ما لا ينمى ثروة الأمة ولا ينفع الناس ، ولا شك أن الكسب بالربا ليس فيه تنمية للثروة ، ولا عمل لنفع ، انما الذى يكون منه هذا هو المقترض ، فبأى حق يأخذ المتعطل منه ثمرة عمله من غير تحمل لخسارة ان كانت ٠

الحقيقة الثانية ــ ان التعامل فى الاسلام يقوم على أساس التعاون ٠ وأن يفيض ذو المال على من لا مال عنده ويتعاونا على الاستغلال بأن يكون ثمة مشاركة فى الكسب والخسارة ، ولذلك كانت المضــــاربة الشرعية ، أو ما يسمى شركة مساهمة ، ومعناها أن يدفع المال لمن يستغله على قسمة الربح

بينهما ، بأسهم شائعة ، كالثلث والربع ، على أن تكون الخسارة على صاحب رأس المال ، وهو المبدأ الذى تقوم عليه الشركات المساهمة • وان هذا النوع هو الذى يتفق مع مبدأ التعاون الذى دعا اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :
« **وتعاونوا على البر والتقوى • ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** » (١) •

وهذا غير الربا لأنه استغلال من جانب المرابى ، والعمل على غيره من غير أن يتعرض للخسارة ، وهو يؤدى الى التنابز •

وقد قرر المجددون من علماء الاقتصاد أن سبب الآفات ، التى تقع هو من نظام الفائدة ، وان ذلك النظام سبب بقائه مع فساده ، وادراك الناس لهذا الفساد أنه لا يوجد نظام يحل محله •

٢١٥ ــ وأخيرا نقرر أن النظام الاقتصادى فى الاسلام لا يقوم على الربا ، بل انه يناقضه ، لأنه يجعل صاحب رأس المال يكسب من غير عمل ، ومن غير تعرض للخسارة •

وان الذى يلاحظ أن العالم الآن يحكمه نظامان :

أحدهما ــ يجعل رأس المال كاسبا دائما ، من غير أن يقوم صاحبه بعمل يتحمل تبعاته ، ويؤدى به خدمة عامة تنفع الناس ، وتمد الجماعة بالخير فعملهم فى الحياة أن يملكوا رأس المال وغيرهم يعمل ويستغله كاسبا ، وخاسرا ، ثم يجىء اليهم المال رزقا رخيصا ، ليس مكسوا بجهد عامل •

وثانيهما ــ نظام يلغى رأس المال ، ويجعل العمل وحده هو طريق فى مصنع يصنع ، أو فى حقل يزرع ، أو أى عمل ينفع الجماعة •

والنظامان يتناحران ، وقد يؤدى التناحر الى أن يأخذ بعضهما من الآخر قليلا أو كثيرا ، أفلا يتسع الوجود الانسانى فى ذلك المضطرب لنظام

---

(١) المائدة : ٢

يحترم رأس المال على أن يعمل فيه صاحبه يكسب من حلال وينتج ما ينفع الناس ، فيكون نعم المال الصالح فى يد العبد الصالح ، ويمنع أن يكون كسب لأى مال من غير أى عمل وتحمل الخسارة ، أى أنه يمنـع الكسب بالزمن ، انما يكون الكسب بالعمل ، وبرأس المال الذى يعمل فيه صاحبه ·

ذلك هو نظام الاسلام الذى سينتهى اليه العالم ان عاجلا أو آجلا ·

ولو أن الذين يعملون فى الاقتصاد من المسلمين يؤمنون بالقرآن كايمانهم بنظم هذا الزمان لكانوا الدعاة الى اقتصاد القرآن · وعساهم يفعلون ·

العلاقات الدولية فى القرآن

٢١٦ ــ القرآن يذكر أن الانسانية كلها أمة واحدة · ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك :

« كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » (١) ·

وان النصوص القرآنية تدل على وحدة الانسانية فى خلقها وأصلها ، فالله تعالى يقول :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منهـا زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام، ان الله كان عليكم رقيبا » (٣) ·

---

(١) البقرة : ٢١٣

(٢) النساء : ١

فالرحم بين بنى الانسان موصولة ، واذا كانت الألوان مختلفة والألسنة مختلفة ، والأجناس متباينة ، فان الأصل واحد ، ويجب أن تكون العلاقات مبنية على الأصل الموحد ، لا على التخالف الظاهر · ويجب أن تبنى الأمور على الجذع لا على الغصون المتفرعة ·

ولقد حد الله تعالى فى كتابه الكريم حدود العلاقة الانسانية ، فقال سبحانه وتعالى : « **يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم · ان الله عليم خبير** » (١) ·

فبهذا النص يبين القرآن الكريم أن العلاقة التى يجب أن تكون السائدة التعارف ، والتعارف تكون معه المودة ، والتعاون واقرار السلام ، واحياء التراحم ·

٢١٧ ــ واذا كان التعارف هو الأصل الجامع للشعوب والقبائل والأجناس ، فالاسلام لازم من لوازمه وهو الأساس لكل تعارف · فلا تعارف يوجب المودة مع الخصام والتناحر ، والتحارب ·

ولذلك كان الأصل فى علاقات الدول بعضها مع بعض أو بعبارة أدق العلاقة بين المسلمين وغيرهم فى السلم لا الحرب، فالمسلم ينظر الى من يخالفه نظرة الود الراحم ، لا العداوة القاطعة · ولذلك يقول سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم** » (٢) ·

واذا قامت الحرب بين المسلمين المؤمنين بالقرآن ، فان الاسلام يتشوف للسلم يبتغيه ، ولا يريد الاستمرار فى مذبحة بشرية ، فان مالوا للسلم أجابهم

---

(١) الحجرات : ١٣

(٢) البقرة : ٢٠٨ ــ ٢٠٩

المسلمون ، ولو كانوا يتوقعون الخديعة ، ما دامت لم تظهر أماراتها . ولذلك يقول سبحانه وتعالى : « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هـــو الذى أيدك بنصره ، وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم** » (١) .

وقد تربت النفس المؤمنة على المحبة ، فكانت تكره القتل والقتال الا أن يكون ذلك جهادا ، ولذلك قال تعالى : « **كتب عليكم القتــال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شــيئا ، وهـــو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » (٢) وكان القتــال بالجهاد لدفــع الشر وتعميم الخير ، لأن الاسلام يدعو الى الخير ، والى الفضيلة ، وفضيلة الاسلام ايجابية وليست سلبية ، فهى تدافع الرذيلة ولا تستسلم .

واذا كان الوجود يتنازع فيه الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، فانه لابد من دفاع الخير . لقد أراد الاسلام للناس المحبة ، ولكن أراد ابليس لهم البغضاء ، فكان لابد من النزاع بين مبدأ المحبة والبغضاء، والا بدفع الشر ساد الفساد ، وعمت الرذائل ، لذلك شرع مبدأ الجهاد لدفع الشر ، ومنع الفساد ، ولقد قال الله تعالى : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** » (٣) .

لذلك شرع الجهاد فى الاسلام . وأول الجهاد كان عقب الاعتداء وفتنة المسلمين وايذائهم ليرجعوا عن دينهم ، عندئذ أذن الله تعالى بالجهاد وأوجبه، فقال تعالى : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ،**

---

(١) الأنفال : ٦١ ــ ٦٣

(٢) البقرة : ٢١٦

(٣) البقرة : ٢٥١

الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا • ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » (١) •

ولقد قال تعالى آمرا المؤمنين بالقتال : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين • واقتلوهم حيث ثقفتموهم • وأخرجوهم من حيث أخرجوكم • والفتنة أشد من القتل • ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه • فان قاتلوكم فاقتلوهم • كذلك جزاء الكافرين • فان انتهوا فان الله غفور رحيم • وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة • ويكون الدين لله • فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (٢) •**

ويقول سبحانه وتعالى مبينا أن القتال لأجل الاعتداء ، وأنه ينتهى بنهايته : **« قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير ، وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » (٣) •**

فما كان السبب ليستبيح دماء المخالفين لأجل المخالفة ، بل يستبيحها ، لأنهم استباحوا دم أهله ، ولأنهم أرادوا حمل المؤمنين على تغيير دينهم ، وفتنوهم فى ذلك ، والفتنة كما قال تعالى أشد من القتل •

٢١٨ ــ ولأن الاسلام فى مشروعية الحرب هو دفع الاعتداء ، والفتنة فى الدين ، فان الاسلام أباح الهدنة اذا أرادها المخالفون ، وحسنها ، ودعا اليها ، وقال تعالى فى ذلك وقد أذن بالقتال العام :

---

(١) الحج : ٤٠

(٢) البقرة : ١٩٠ ــ ١٩٣

(٣) الأنفال : ٣٨ ــ ٤٠

« **وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فان تبتم ، فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، الا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليـــكم أحدا ، فأتموا اليهم عهـدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين** » (١) ٠

وفرض الاسلام هدنة اجبارية على المسلمين ان التزم بها المخالفون ، وهى ألا يكون قتال فى الأشهر الحرم ، وهى ذو العقدة ، وذو الحجة ، والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ٠

وواجب ألا يبتدىء فيها المسلمون قتالا ، الا أن يكون امتدادا لقتـــال والسكوت يضر ٠ ولقد قال تعالى فى ذلك : « **ان عدة الشهور عنـــد الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ٠ ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ٠ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ٠ واعلموا أن الله مع المتقين** » (٢) ٠

ولا قتال فى الأشهر الحرم ، ما دام المخالفون يحترمونها ، فان انتهكوها فلا يصح لأهل الايمان أن يظلموا فيهن أنفسهم ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك « **الشهر الحرام بالشهر الحرام ٠ والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقـــوا الله ٠ واعلموا أن الله مـــع المتقين** » (٣) ٠

ويقول سبحانه وتعالى « **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ٠ وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام ٠ واخراج أهـــله**

---

(١) التوبة : ٣ ــ ٤
(٢) التوبة ، ٣٦
(٣) البقرة : ١٩٤

منه أكبر عند الله · والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم · حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منـــكم عن دينه فيمت وهو كافـــر · فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة · وأولئك أصحاب النار هم فيهـــا خالدون » (١) ·

والاسلام اذ يقر الهدنة والعهود والمواثيق كما تلونا من كتاب الله ، يحترم هذه المواثيق ما احترمها المخالفون المناوئون واستقاموا عليها ·

٢١٩ ـــ ولا يبيح الاسلام القتل ولا القتال بالنسبة لمن يريد السلام · والله تعالى يقول فى ذلك « **يأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحيـــاة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا » (٢) ·**

ولقد أمر القرآن الكريم أن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله ، ولمـــن لهم به صلة · ولذا قال تعالى « **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء · فـــلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله · فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم · ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلـــوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم · فان اعتزلوكم · فلم يقاتلوكم وألقوا اليهم السلم · فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم · ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها · فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم · وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » (٣) ·**

---

(١) البقرة : ٢١٧
(٢) النساء : ٩٦
(٣) النساء ٨٩ : ٩١

ان هذا النص يدل ـ أولا ـ على ضرورة احترام المواثيق · وكف القتال عن أهل الميثاق · والذين له بهم صلة قومية · ويكون سلمهم سـلما لهم · وحربهم حربا ·

ويدل ثانيا ـ على أن الذين يكونون ذوى صلة بقوم بينكم وبينهم عداوة، وحصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، أى أنهم لم يريدوا أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم ، ومع قومهم على المؤمنين ، فهؤلاء لا يقاتلون ·

ويدل ثالثا ـ على أن الذين يترددون فى موقفهم فهم يريدون السلامة لأنفسهم بمداهنة قومهم الذين يقاتلونهم ومداهنة المؤمنين ، فهؤلاء يحكم عليهم بالواقع ، فان لم يقـاتلوا المؤمنين فـلا سبيل عليهم ، والا كان قتالهم حقا بذلك الموقف البادى ·

وان هذا التقسيم يدل على أن القرآن الكريم يقـرر نظرية الحيـاد · ويحترم المحايدين · فلا يرفع عليهم سيفا · فالناس على ذلك فى نظـر القرآن الكريم ثلاثة أقسام :

محاربون للمسلمين ، وهؤلاء يجب قتالهم لرد اعتـدائهم · والأخـذ بالنواصى والاقدام من غير هوادة · وهؤلاء هم المعتدون بالقتال أو بفتنـة المؤمنين كما قال تعالى : « **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين** » (١) ·

والقسم الثانى أهل الميثاق الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق عدم الاعتداء· وهؤلاء يحترم ميثاقهم بل يمتد احترام الميثاق الى الذين لهم به صلة · بحيث يكون سلمهم واحدة وحربهم واحدة ·

والقسم الثالث المحايدون الذين لا يكونون مع المؤمنين ، ولا مع أعدائهم

---

(١) التوبة : ١٤

واقعا · لأنه ما دام الأصل فى العلاقات هو السلم الا اذا حـــدث ما يوجب القتال · فمن لم يكن منهم ما يوجبه فانه لا سبيل لأحد عليهم ·

وقد فهم بعض الذين لا يدرسون المسائل دراسة فاحصة مستقرية أنــه لا موضع للحياد فى الفقه الاسلامى وذلك كلام من لم يمحص الحقـــائق لأن القرآن الكريم كما ترى جعل للحياد موضعا · وهم الذين يعتزلون الحرب مع المسلمين أو ضدهم · فقال لا سبيل عليهم · فكان الحياد ثابتا بنص القرآن الكريم ·

٢٢٠ ــ واذا تلونا بعض آيات القرآن الكريم التى فتحت باب القتـال جهادا فى سبيل الله نجدها صرحت بأن القتال كان للاعتداء من غيرنا بطريقتين: قتل المؤمنين والاعتداء عليهم ، واخراجهم من ديارهم · والثانى بفتنتهم فى دينهم ، كما قال تعالى : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** » (١) أى كل انسان يعتنق ما يعتنق لا رقيب على قلبه الا الله تعالى ، فلا اكراه فى الدين · ولا فتنة فيه ·

وهنا يسأل سائل ألم يبح القرآن القتال الا دفاعا ، أو ردا للاعتداء ، ولم يبح الهجوم ، ونقول فى الجواب عن ذلك ان القرآن صريح فى أنه لا يباح القتال مع من ألقى السلام ، وبذلك يكون من المؤكد أن الاسلام لا يبيح الهجـــوم على الآمنين الذين يلقون السلام وان ذلك حق لا ريب فيه لأنه لا يباح الهجوم على من لا يعلن العداوة على المؤمنين ولكن هل يمنع الهجوم مطلقا ؟ وللجواب على ذلك نقول :

ان الذى استنبط من صريح الآيات التى تلوناها أننا لا نحارب الا من اعتدى علينا أو فتننا عن ديننا ، ومن الفتنة فى الدين أن يمنع المتـــدين من اقامة شعائر دينية ، وأن يحال بين الحق والدعوة اليه ·

---

(١) الأنفال : ٣٩

انه فى هذه الحال يكون القتال ، ولكن يزاد عليها اذا قامت العداوة التى ابتدأها غير المؤمنين بالاعتداء على المؤمنين ، ومحاولة غزوهم فى ديارهم ، أو فتنتهم فى دينهم ، فانه عندئذ قتال يتعين العدو المترصد الذى لا يألو المؤمنين الا خبالا ويود عنتهم ، وارهاقهم ، فلا يكون الاقتصار فى الحرب على الدفاع بأن ينتظر المؤمنون حتى يهاجمهم الأعداء ، وقد بدت عداوتهم وأعلنوها صريحة لا ابهام فيها ، انه كما قال بطل الجهاد على بن أبى طالب (ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا) ٠

وبذلك نفسر قولنا ان المؤمنين ما قاتلوا الا ردا للاعتداء بمثله أو توقفه ولقد تلونا الآيات التى تنهى عن قتل من لا يعتدى علينا ٠ ومن يعتزل قتالنا ، ومن يلقى علينا السلام ٠

واذا ظهر الاعتداء ، وما يسكت عنه الا للاستعداد لمثله ٠ كان القتـــال مشروعا بكل ضروبه لهؤلاء الأعداء بالهجوم على مآمنهم ٠ وبالقصـــد الى مكامنهم ٠ ولذلك يقول الله تعالى : « **فاذا انسلخ الأشهر الحرم ٠ فاقتـــلوا المشركين حيث وجدتموهم ٠ وخذوهم واحصروهم ٠ واقعدوا لهم كل مرصد ٠ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم** »(١)

« **وان أحدا من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ،ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المقسطين ٠ كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ٠ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ٠ فصدوا عن سبيله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ٠ لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ٠ وأولئك هم المعتدون (١)** ٠

---

(١) التوبة : ٥ ٠
(١) التوبة : ٦ ــ ١٠

ويقول تبارك وتعالى : « **ألا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم · وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة · أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم · وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين · ويذهب غيظ قلوبهم · ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم** (١) ·

وترى من هذا النص أن الأساس هو الابتداء بالاعتداء · فاذا ابتدأ الاعتداء وجب القتال بكل ضروبه دفاعا وهجوما ، بل ان خير الدفاع ما كان هجوما · ولا سبيل لانهاء القتال مع المعتدين الا باحدى خصال ثلاث : اما الاسلام ، وأن يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويكونوا اخوانا ، واما بالعهد يعاهدونه ، ويوفون به ، فما استقاموا فالعهد قائم ، والا فانه ينطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى « **واما تخافن من قوم خيانة · فانبذ اليهم على سواء** » (١) · واما الاستسلام · وأن يخضعوا لأهل الايمان ·

وقد قال تعالى فى ذلك :« **يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم · ويثبت أقدامكم · والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم** » (٣) ·

ويقول سبحانه : « **فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم · فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد · واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم** » (٤) ·

٢٢١ — وننتهى من هذا التتبع الى حقيقتين ثابتتين : احداهما — أن محاربة المؤمنين لأى قوم لا يكون الا عند اعتدائهم باخراج المسلمين من ديارهم ، أو ايذائهم فى دينهم · ومن الايذاء أن يمنع الدعاة الى الايمان

---

(١) التوبة : ١٣ ـ ١٥
(٢) الأنفال : ٥٨
(٣) محمد : ٧
(٤) محمد : ٤

من أن يلاقوا الشعوب ، ويعرفوهم بالحق ، من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، لأنه لا اكراه فى الدين ولكن بعد أن يتبين الحق من الباطل ، والغى من الرشد ، وذلك لقوله سبحانه وتعالى : « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى (١)** ٠

الحقيقة الثانية أنه اذا كان الاعتداء بأى ضرب من ضروبه ، فان باب الجهاد يفتح دفاعا وهجوما وغزوا والتقاء ، لا يمنع مانع الا ما توجبه الفضيلة٠

وقد فهم بعض الناس أن القتال فى الاسلام لا يكون الا دفاعا ، ولا يكون هجوما ، وذلك خطأ ٠ والحق أن القتال لا يكون لقوم الا اذا اعتدوا ، فان كان الاعتداء حل قتالهم دفاعا وهجوما ، وهم فى الحالين المعتدون الا أن يتوبوا أو يعاهدوا ويستقيموا ٠

وليس قتال المؤمنين ليكون باب الدعوة الى الاسلام مفتوحا بعد اعتداء من المؤمنين ، بل هو رد للاعتداء ، لأن القتال لأجل الدعوة لا يكون الا بعد أن يرسل المؤمنون دعاة للايمان ، فان أجاب بعضهم ، ولم يضطهد فى اعتقاده فانه لا قتال ، ومن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وان اضطهد كان الاعتداء بالفتنة ، فوجب القتال ردا للاعتداء بمثله ٠

وقد جاء الاسلام فى عصر الملوك المتجبرين الذين كانوا يؤذون رعاياهم ، فكان منهم الاضطهاد لكل من تبلغه الدعوة ويؤمن ، وما أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الجيوش الى الشام الا بعد أن اضطهدوا الروم المسيطرون المسلمين الذين أسلموا فى الشام وقتلوهم ، وما حارب الذين جاءوا من بعده الفرس الا لأن كسرى حاول أن يرسل من يقتل النبى صلى الله عليه وسلم ٠

ويلاحظ منْ يتلو آيات الأمر بالقتال أن فيها النهى عن الاعتداء ٠ فالله

---

(١) البقرة : ٢٥٦

تعالى يقول : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » (١) ·

والاعتداء المنهى عنه قسمان ــ أحدهما ــ الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين وهم الذين ما جعل الله عليهم سبيلا ·

ثانيهما ــ الاعتداء فى القتال فيقتل من لا يقاتل ، فيقتل مثلا الشيوخ ، والنساء والذرية ، فان هذا اعتداء فى القتال منهى عنه ، ولذلك يقول الله تعالى: « **فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتـــدى عليكم ، واتقـــوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** (٢) ·

وان من مقتضى هذه التقوى ألا يقاتلوا من لا يقـــاتل ، وألا يقطعـــوا الأشجار ، وألا ينتهكوا الأعراض ، وألا يستبيحوا الأموال بغير حقها ·

ويلاحظ أن القتال فى الماضى كان لا يتجاوز معسكر الحـكام والجيـوش والعلاقة بين المسلمين وشعوب الملك أو الرئيس القاتل قائمة ، كأنه لا حرب والسلام قائم ·

انما الحرب لمن يحادون الله ورسوله ، اذ يقول اللهتعالى : « **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم** » (٣) ·

وأولئك الذين يحادون الله ورسوله هم الذين حاربوا المسلمين ، وأعلنوا العداوة وأخذوا يتربصون بهم الدوائر لا يرقبون فيهم الا ولا ذمة ·

وما عدا هؤلاء فان السلم هى العلاقة الدائمة والمـــودة ان وجـــدت مقتضياتها ، وقد نص القرآن الـكريم على ذلك ، فقال تعـــالى : « **لا ينهاكم**

---

(١) البقرة : ١٩٠
(١) المجادلة : ٢٢
(٣) البقرة : ١٩٤

الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم ، وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم ، فأولئك هم الظالمون » (١) ٠

فالمودة موصولة ما لم يكن الاعتداء ، اذ عسى الصلة أن تعود حتى بين الأعداء ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم** » (٢) ٠

العلاقة فى السلم والحرب

٢٢٢ ــ الاسلام هو دين الوحدانية ٠ ودين الوحدة الانسانية ٠ وقد تلونا من قبل الآيات القرآنية التى تقرر الوحدة الانسانية بين الناس أجمعين ورأينا أنه بمقتضى هذه العلاقة يكون الأصل هو السلم ، ولكن الناس مختلفون أجناسا وقبائل وألسنة وأقاليم : وتلك آيات الله تعالى فى الأرض ٠ فقد قال تعالى : « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ٠ ان فى ذلك لآيات للعالمين** » (٣) ٠

وقد نظم الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم هذه العلاقة على أساس المساواة ٠ كما صرحت الآية الكريمة :« **يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** » (٤) والمساواة أساس التعارف ٠ كما أن التعارف يقتضى المودة والتعاون فى كل أمور الحياة ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ٠

---

(١) الممتحنة : ٨ ــ ٩
(٢) الممتحنة : ٧
(٣) الروم : ٢٢
(٤) الحجرات : ١٣

والعدالة أساس العلاقات الانسانية ، كما قال تعالى : « **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا** » (١) ٠

ويقول سبحانه وتعالى فى العلاقة الانسانية العامة :« **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون** » (٢) والأمر بالعدالة عام فى قوله تعالى : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** » (٣) ٠

وان العدالة توجب المعاملة بالمثل ، فان اعتدوا قاومنا الاعتداء ٠ وقد قال تعالى فى ذلك : « **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ٠ ولئن صبرتم لهو خير الصابرين** » (٤) ٠

ومع أن الله تعالى أمرنا برد الاعتداء بمثله فى قوله تعالى « **فمن اعتدى عليكم ٠ فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** » أمرنا بالتقوى ، فقال سبحانه « **واتقوا الله ٠ واعلموا أن الله مع المتقين** » (٥) ولذلك يجب علينا عند المعاملة بالمثل أن نستمسك بالفضيلة ، فان الفضيلة هى القانون العام فى كل معاملة انسانية ، فاذا كان العدو يقتل الذرية لا نقتلها ، وان كان ينتهك الأعراض لا ننتهكها ، وان كان يخرب ديار الآمنين لا نخربها ما وسعنا ذلك ٠ وهكذا ٠

وان الاسلام قرر مبدأ الوفاء بالعهد وشدد فيه القرآن ٠ فقال تعالى « **أوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا** » (٦) ٠

---

(١) النساء : ١٣٥
(٢) المائدة : ٨
(٣) النحل : ٩٠
(٤) النحل : ١٢٦
(٥) البقرة : ١٩٤
(٦) الاسراء : ٣٤

ولقد قرر القرآن الكريم أن الوفاء بالعهد فى ذاته قوة ، فقال تعـــالى : **« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعـد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينـكم أن تكون أمة هى أربى من أمـة انما يبلوكم الله به ، وليبينن لـــكم يوم القيـــامة ما كنتـم فيـــه تختلفون ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشـــاء ولتسألن عما كنتم تعملون • ولا تتخذوا أيمانكم دخـــلا بينكم فتـزل قـدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا الســـوء بما صـــددتم عن سبيل الله • ولكم عـــذاب عظيم »** (١) •

وان هذا النص الكريم يدل على أربعة أمور :

أولها ـ أن نقض العهد يؤدى الى الزلل ، ومع الزلل الضياع ، فهـــو ليس حكمة ، ولا تدبيرا ، ولكنه خطل •

وثانيها ـ أن العهد الذى يوثق بيمين الله أو باشهاد الله تعالى عليه هو عهد الله اذ اتخذ الله كفيلا ، فمن ينقضه فانما ينقض عهد الله تعالى الـــذى وثقه بكفالته •

وثالثها ـ أن العهد فى ذاته قوة ، والتزامه قوة ، ولذا شبه من ينقضه بحال الحمقاء التى تغزل غزلا وتفتله ، ثم تنقضه أنكاثا أى أجزاء صـــغيرة فالعهد يثبت السلم ، وفى السلم قوة وقرار ، والنقض ازالة له •

ورابعها ـ أنه لا يصح أن تكون سعة الأرض ، وزيادة السلطان سببا فى الغدر ، ولذلك قال سبحانه وتعالى فى بواعث الغدر أن تكون أمة هى أربى من أمة أى أوسع أرضا ، وأكثر عددا ، وأقوى سلاحا ، فلا يصح أن يكون التوسع باعثا للغدر ، لأنه يؤدى لا محالة الى الضعف •

---

(١) النحل : ٩١ ـ ٩٤

وهذا التشدد فى الوفاء بالعهد لأنه فى ذاته عدالة ، ولأن العهد فيه حد للحقوق ، وخصوصا اذا كان بين متكافئين ، ولا يصح أن يكون الاستعداد وأخذ الأهبة سببا فى ذاته للنقض ، ولكن اذا قامت أمارات تدل على أن استعداد المعاهد وأهبته نذير خيانة ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم كما قال الله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم** » (١) • وفى هذه الحال يطبق قوله تعالى : « **واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين** » (٢) •

واذا كان هناك ما يجب الاحتياط له فانه يكون عند عقد العهد ، فلا يصح الاطمئنان الى عهد من عرفوا بالخيانة • فان العهد معهم نوع من الاغترار ، ولذلك كان يجب تعرف حال الطرف الذى يعاهده قبل العهد • ولذلك حذر الله تعالى من العهد بعض المشركين الذين يقول سبحانه فيهم : « **كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون** » (٣) •

٢٢٣ ـــ هذا ما أردنا أن نقتبسه من آى الذكر الحكيم فى أحكام الحلال والحرام ، وما نقلنا كل ما اشتمل عليه القرآن العظيم • ولكن نقلنا مايرى التالى للقرآن المقتبس من نور ، وما فصلنا الأحكام التى تعرضنا لنقلها من كتاب الله ، فان تفصيلها يحتاج الى نقل ما جاء فى السنة ، وما اختلف الفقهاء فى ظل النور القرآنى فى دلالة بعض الألفاظ ، فانالكلام فى ذلك يخرجنا عن مقصدنا • وهو الاشارة الى علم الكتاب الكريم الذى يدل على اعجازه • والله سبحانه وتعالى الهادى الى سواء سبيل •

---

(١) النساء : ٧١
(٢) الأنفال : ٥٨
(٣) التوبة : ٨

علم الكون والانسان فى القرآن

٢٢٤ — القرآن الكريم الكون فيه قد تكرر ذكره ، لأنه كما بيننا اتخذ من خلق كل من فى الوجود دليلا على من أنشأه ، فكان بمقتضى النهج النورانى لابد أن الكون وما فيه من خلق عظيم يدل على منشئه وحده سبحانه وتعالى ، ولا تكاد تجد سورة من القرآن مكية كانت أو مدنية خلت من ذكر الكون ، وما يتصل به .

وان ذلك فيما نحسب يوجه نظر الانسان الى أنه جزء صغير من هذا الكون ، ليربطه به ، وليتعرف أسراره ، وأحواله ، وليعرف أنه وهو الصغير قد سخر الله تعالى له هذا الكون الكبير ، ولقد قال تعالى « **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** » .

وان ثمة حقائق مذكورة فى القرآن يستبصر بها كل متعرف لهذا الكون دارس له ، فالله تعالى يقول : **ومن آياته خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم اذا يشاء قدير** » (١) .

وفى القرآن الكريم ما يومىء الى محاولة الانسان الارتفاع فى الفضاء، فالله تعالى يقول : « **يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان ، فبأى آلاى ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ، ونحاس ، فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** » (٢) .

واقرأ آيات القرآن فى السحاب ، وارساله ، وأحواله ، فانك تجد توجيها الى ما لم يكن الناس من قبل يتجهون اليه ، ودلت المشاهدات على أنه واقع ،

---

(١) الشورى : ٢٩

(٢) الرحمن ! ٣٤ ـ ٣٦ .

اقرأ قوله تعالى فى وصف السحاب « **ألم تر أن الله يزجى سحابا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعـــله ركاما ، فترى الودق يخـــرج من خــــلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقة يذهب بالأبصار** » (١) ٠

وترى من هذا تشبيه السحاب الذى أزجاه الله تعالى بالجبال ، وهـــذا لا يبدو للسائر على سطح الأرض ، ولا للواقف على آكامها ومرتفعاتها وما كان ذلك معلوما عند العرب ، ولكن الذى يرتفع فوق السحاب فى الطـائرات التى تقطع أجواز الفضاء يرى السحاب جبالا ٠

وان هذا بلا شك نوع من العلم بالكون فوق ما فيه من دلالة على اعجـاز القرآن ، اذ أن ذلك الوصف لا يمكن أن يكون من محمد ، لأنه لم يرتفع حتى يكون فوق السحاب ، فلابد أن يكون الوصف بعلم الله تعالى ، والكلام كله من عنـده سبحانه وتعالى ، لا من عند محمد ٠

وأنت ترى أوصافا كثيرة للأرض والسماء لا تكون الا من الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، أو لا يعلم علوم الكون وما يجرى فيه ، وما كانت معروفة عند العلماء فى عصر نزول القرآن ، كالعلم بطبقات الأرض والسماء ، ذكرها القرآن والباحثون لا يزالون دائبين فى البحث عنها ، وعلمهم يصدق بالقرآن ، اقرأ قوله تعالى : « **الله الذى خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما** » (٢) ٠

واقرأ قوله تعالى « **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى الى السماء، فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم** (٣) وقوله تعالى :

---

(١) النور : ٣٤ ٠
(٢) الطلاق : ١٢
(٣) البقرة : ٢٩

« تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحيـاة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر ، هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » (١)

واقرأ قوله تعالى **« ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » (٢) ٠**

وترى النص الكريم يفرق بين الشمس والقمر ، فيجعـــل الشمس هى السراج الذى يضىء ، والقمر نورا مقتبسا من غيره ، وهو الشمس ٠

واقرأ قوله تعالى : **« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيهـــا سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » (٣) ٠**

ويقول سبحانه وتعالى فى خلق السموات والأرض ، وأدوار خلقهن **« ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (٤) ٠**

ولقد بين القرآن أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا ، وأن الأرض انفصلت عن السماء وتكونت فيها القشرة الأرضية ، وكان عليه الماء ، ومنه كانت الأحياء التى خلقها الله تعالى ، واقرأ فى ذلك :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهمـا ، وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد

---

(١) الملك : ١ ــ ٤
(٢) نوح : ١٥ ــ ١٦
(٣) الفرقان : ٦١ ــ ٦٢
(٤) الأعراف : ٥٤

بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتنا معرضون » (١) ٠

وترى أن النص الكريم صريح فى أن السموات والأرض كانتا كونا واحدا ، وفصل الله تعالى جزءا منه وهو الأرض ، وكانت فيها هذه الحياة التى يحياها الحيوان والطير فى السماء ، والسمك فى الماء ، والزرع فى الفيحاء ٠

واذا كان العلماء اليوم يقررون أن الكون ابتدأ خلقه بالسديم ، وهو يشبه الدخان ، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك ، وقبل أن يعلموا ، فقال الله تعالى فى خلق السموات والأرض : « **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » (٢) ٠**

ونقف وقفة قصيرة عند هذه الآيات البينات ، فنرى الله سبحانه وتعالى بين لنا أن الأرض خلقها فى يومين ، واليوم هنا كما أشرنا من قبل ليس هو اليوم الذى نعرفه ، انما هو الدور فى التكوين ، وهو كونها من السموات رتقا ، وهذا دور،ثم انفصالها وهذا دور ثان، ودوران آخران للأرض جعل فيها رواسى عالية ، وهى الجبال ، وخلق فيها الماء وما تبعه من خلق للأحياء من حيوان ونبات ، فكانا أربعة أدوار ٠

ويبين سبحانه أن السماء والأرض كانتا دخانا ، وهو ما نحسب أنه السديم الذى يقوله العلماء ٠

---

(١) الأنبياء : ٣٠ ـ ٣٢
(٢) فصلت : ٩ ـ ١٢

٢٢٥ — وان القرآن الكريم فيه اشارات بينات الى علم الـــكون ، ونعتقد أن الذين درسوا علوم الكون فى السموات والأرض وما بينهما لو تتبعوا آيات القرآن الكريم التى تعرضت لذكر الكون لوجدوا حقائق كثيرة مما وصل اليه العلم الحديث قد تعرض لها القرآن بالاشارة الواضحة كثيرة مما وصل تفصل ، وهى فى كلتا الحالين صادقة كل الصدق بينة لمن يطلب الحقـــائق الصادقة • وان بضاعتنا فى علوم الكون محدودة لا تسمح لنا بالخوض فى كلام تفصيلى فى هذا ، وقد رأينا كثيرين من العلماء المخلصين المحققين قــد تعرضوا لهذا ، فمنهم من بين طبقات الأرض ، كما أشار القرآن ، ومنهم من بين غير ذلك •

ونحن نرحب ببيانهم ، ولكن لابد من ملاحظتين :

الملاحظة الأولى : أنهم يحاولون أن يحملوا القرآن نظرياتهم ، وعليهم أن يفهموه كما تبين ألفاظه ، وكما تومىء اشاراته ، وذلك لأنهم أحيانا يحمـــلون القرآن مالا يحتمل ، ويرهقون ألفاظه بالتأويل ، وأحيانا يأتون بنظريات لم تكن قد حررت من بعد من الشك ، والنظر ، وقد تتغير ، ولا يصـــح أن يبقى القرآن تتردد معانيه باختــلاف النظـريات ، بل ان الواجب أن ندرس ما فى القرآن على أنه حقائق ، فما وافقه من العلوم قبلناه •

الملاحظة الثانية : أن ندرس الكون فى القرآن على أنه حقائق ثابتـــة هى مواضع التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن ، فلا تجعل حقائق موضع نظر ، بل ان الايمان بالقرآن يوجب الايمان بكل ما اشتمل عليه ولا يصح لنا أن نترك ظاهر القرآن ونتجه الى تأويله الا أن يكون الظاهر يقبل التأويل ، وتكون حقائق العلم الثابتة تقتضى الأخذ بالتأويل الذى يحتمله القرآن من غير تعسف، ولا خروج بالألفاظ الى غير معانيها •

واننا بهذه الدراسة العميقة المسلمة بحقائق نفتح مغاليق فى العلم ، ونتكشف الحقائق الكونية بهداية من القرآن ، على أنه المرشـــد لها ، وليس التابع ، ولا الخاضع ، وكتاب الله تعالى هو كتاب الحق ، والصدق والعلم لأنه من عند الله الذى لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض ، وهو كتاب الوجود ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ·

الانسان فى القرآن

٢٢٦ ـــ ذكر الله سبحانه وتعالى خلق الانسان من طين ، وخلق الجن من نار ، وقد بين ذلك فى أصل الخليقة ، وقد ذكر الله تعالى فى آيات وســـور مختلفة وكلها سيقت بالبيان المتناسق فى موضعها وموضوعهـــا ، ولنذكر من غير اختيار آيات كريمات فى موضع منها ، قال تعالى فى سورة البقرة :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيهـا من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم · قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب الســـموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغـــدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو · ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » (١) ·

---

(١) البقرة : ٣٠ ـ ٣٦

وان هذا النص الكريم يبين ثلاث حقائق كانت مع الانسان :

(أولاها) أنه أوتى استعدادا لعلم الأشياء أى علم الكون وما فيه ، لأن الله تعالى سخرها له ، ولا يتحقق ذلك التسخير الا اذا أودع الله تعالى نفسه القدرة على العلم بها ، ولذلك أنبأ الملائكة بأسمائها ·

(الثانية) أن فى طبيعة الانسان الاستعداد للاغراء ، ومن هذه الناحية جاء ابليس ، فأغرى أبوى الانسان بالأكل من الشجرة ، وقد نهاهما الله تعالى ، ولكنهما تحت تأثير ذلك الاغراء نسيا نهى الله كما قال تعالى فى وصف آدم أبى الخليقة « **فنسى ، ولم نجد له عزما** » (١) ·

الحقيقة الثالثة : أن آدم نزل هذه الأرض ، وقد تلى كلمات الله تعالى ليكون للفضيلة ، ويستمسك بها ، ولكن كان معه فى الأرض ابليس يغرى ذرية آدم ، ويغويها ، كما قال تعالى عنه « **لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين** » (٢) ·

هذا بيان الله تعالى فى ابتداء خلق الانسان ·

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك خلق الانسان بالتناسل ، فقال تعالى :

« **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين** » (٣) ·

ويقول سبحانه وتعالى : « **انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، انا هديناه السبيل اما شاكرا ، واما كفورا** » (٤) ·

ويقول تعالى فى خلق النفس الانسانية فى الانسان « **ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها** » (٥) ·

---

(١) طه : ١١٥
(٢) ص : ٨٢ ـ ٨٣
(٣) المؤمنون : ١٢ ـ ١٤
(٤) الانسان : ٢ ـ ٣
(٥) الشمس : ٧ ـ ٨

ويقول سبحانه في القوة المدركة في الانسان التي بهـا يكون التكليف ، والحساب والثواب والعقاب « **أيحسب الانسان أن يترك سـدى • ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منـه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ».(١) •

ويذكر سبحانه وتعالى خلق القوى الانسانية في القرآن ، فيقول تعالت قدرته « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » (٢) •

ويذكر سبحانه في كتابه الكريم أدوار الانسان فيقول تبـارك وتعالى : « **والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم بعـد علم شيئا ، ان الله عليم قدير ، والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فمـا الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء افبنعمة الله يجحدون، والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا،وجعل لكم منأزواجكم بنينوحفدة، ورزقكم من الطيبات • أفبالباطل يؤمنون • وبنعمة الله هم يكفرون** » (٣) •

وذكر الله خلق الانسان ، وما عهد اليه من تكليفات في ثنايا القـرآن الكريم ، وقد ذكر الكون على أنه مسخر للانسان يكشف منه أسرار الوجود التي يكون في طاقته أن يعلم بها ، ويذكر خلق الانسان ، وما أودعه الله تعالى من قوى ليعبد الله تعالى وحده •

ويذكر سبحانه وتعالى أنه بمقتضى ذلك التكوين النفسي والعقـلي وكل القوى التي خلقها سبحانه وتعالى قد أخذ عليه عهدا أن يكون ربانيا لله سبحانه وتعالى : « **واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين،**

---

(١) القيامة : ٣٦ ـ ٤٠
(٢) النحل : ٧٨
(٣) النحل : ٧٠ ـ ٧٢

أو تقولوا انما أشرك اباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » (١) ٠

وبذلك يبين سبحانه أن المواهب الانسانية التى خلقها الله فى الانسان عهد بينه وبين ربه ، فان استجاب لفطرته ، ارتفع ، وان خالف واتبع الشيطان هوى ، وبين سبحانه وتعالى كيف يهوى فيقول سبحانه بعد الآية السابقة :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم وكانوا يظلمون ، من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (٢) ٠

النفس الانسانية فى القرآن :

٢٢٧ ـــ اذا اتجه التالى للقرآن الى دراسة النفس الانسانية من خلال آياته ، فانه بلا ريب فى مكان فسيح للدراسة ، يعطى مجموعة من المعلومات الحقيقة المصورة للنفس فى ايمانها ٠ وفى فجورها ٠ ويمكن أن يجد الانسان فيها قواعد علمية تكشف عن نواميس النفوس « وما تتأثر به ، وما تتجه اليه فى ايمانها ٠ وفى انحرافها ٠ ولنتجه الى بعض هذه المعانى فى كتاب الله تعالى، ولا ندعى أننا نستطيع الاحاطة بها علما ، والا احصائها ، ولو بالتقريب فان ذلك يحتاج الى تفرغ لا قبل للأخذ به الا أن يكون ممن يعنون بدراسته ،

---

(١) الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٤
(٢) الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٩

أو من المتخصصين فى علم النفس · ولنضرب بعض الأمثال ، وكثير منها فى قصص القرآن وبعضها فى شرح أحوال المؤمنين · وأحوال الكافرين ·

(ا) من هذه الأمثلة أن النفس التى تسارع الى الاعتقاد من غير دليل سابق ، ولا فحص لقول لاحق من شأنها أن تقع فى الخطأ · واذا أصرت بعد البيان كانت فى ضلال · وأصابها الصمم عن الحقائق · والعماء عنها : اقرأ قوله تعالى : « **تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين · وما وجدنا لأكثرهم من عهد · وان وجدنا أكثرهم لفاسقين** » (١) ·

ان الذى وهبه الله الهداية لفهم القرآن الكريم بعباراته واشاراته تبدو بين يديه الحقيقتان الآتيتان :

أولاهما ـ أنه سبحانه وتعالى يقرر أنه ليس من شأن الذين سارعوا الى التكذيب من غير أن يفحصوا ويدرسوا ـ وأن يؤمنوا ، لأن الايمان يقتضى قلبا مذعنا لما يأتى به الدليل ، لا أن يكون سابقا بالحكم قبل الدليل ، وقد أشار سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله تعالت كلماته : « **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** » وواضح أن العلة فى سد باب الايمان هو مسارعتهم بالتكذيب من غير برهان ، ومن يكذب بالبرهان لا يؤمن بما جاء به البرهان ·

الحقيقة الثانية ـ أن المسارعة بالتكذيب تؤدى الى تغليق القلب عن أن يصل اليه النور · وبتوالى التكذيب من غير دراسة للأدلة يكون منع الهداية ، ولذلك يقول الله تعالى : « **كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** » (٢) أى بهذه الحال ومثلها يطبع الله تعالى على قلوب الكافرين ، ويتحقق فيهم قول الله تعالى « **صم بكم عمى فهم لا يعقلون** » (٣) ·

---

(١) الأعراف : ١٠١ ـ ١٠٢ (٢) الأعراف ١٠١
(٣) البقرة : ١٧١

(ب) ولننتقل الى مثل آخر من كتاب الله ، وانه المعين الذى لا ينفد فى دراسة النفس الانسانية ، ذلك المثل هو قوله تعالى : « **ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا** » (١) ٠

فهذا النص الكريم يبين لنا قاعدة فى النفس ، يسترشد بها المربى والمهذب ، والذى يحاول معالجة النفوس المريضة ، اذ يعرف سبب المرض فيطب له ٠

اذ يبين الله سبحانه وتعالى ، أن الذين أعرضوا عن الوقوف يوم التقى الجمعان ، سبب توليهم أنهم أصابتهم ذنوب ، وان الذنب يسهل الذنب ، والمخالفة تجر المخالفة ، وأنه لأجل الطب لهم لابد أن يعالج الذنب الأول بالحمل على الاقلاع عنه ، وقد يكون ظهور مغبته السيئة علاجا له ، ولذلك قال الله تعالى : « **ولقد عفا الله عنهم** » ، لأنهم أدركوا سوء ما كان لهم ٠

(حـ) ومن هذه الأمثلة ما قرره الله تعالى من أن النفس غير المؤمنة لا تنضبط ، ولا تستقر على حال ، والنعمة تبطرها وتطغيها ، والنقمة تؤئسها وتشقيها ، ولا ضبط ولا انضباط ، ولا علاج لذلك الا بالصبر : اقرأ قوله تعالى : « **ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه ، انه ليئوس كفور،ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور ، الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** »(٢) ٠

وان هذه الآية الكريمة تشير الى أن ذلك الفرح الطاغى فى حالة ، واليأس المميت فى وقته مرض انسانى ، وان علاجه الصبر ، لأن الصبر ضبط النفس ، فلا تنزعج للألم ، ولا تطغى بالنعم ٠

---

(١) آل عمران : ١٥٥

(٢) هود : ٩ ـ ١١

(د) ولقد بين الله تعالى أن سلوك غير الحق هو اتباع للظن غير الناشىء عن دليل ، بل عن الهوى ، وقد قال تعـــالى فى ذلك : « **ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، ان يتبعـــون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا** » (١) ٠

فهذا النص الكريم يبين مرض النفس التى تضل ، ويذهب بها الضلال الى متاهات من الباطل ، وذلك المرض هو الوهم ، فهم يتوهمون ثم يهوون ثم يظنون ، وليس عندهم دليل يكون علما ، بل عندهم أوهام وظنون ، وان دارس علم النفس التربوى يجد فيه بابا من أبواب التربية العقلية بأن يباعد بين الناشئة والأوهام ٠

(هـ) ومن الأمثلة لبيان أحوال النفوس بيان أحوال النفوس التى لا تفكر الا فى دائرة نفعها أو ضرها ٠ ومن شأن هذه النفوس أن تكون اثرة متقلبة ، لا تذعن للحق ولكن تذعن لنفعها وضررها ٠

اقرأ قوله تعالى : « **واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبــه أو قاعدا أو قائما ٠ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنـــا الى ضر مســه ٠ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** » (٢) ٠

وهذا تصوير للنفس التى فقدت الايمان ، وحرمت الخير ، ولا تفـــكر الا فى محيطها ، وهى بلا ريب غير الذين قال الله تعالى فيهم « **ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة** » (٣) ٠

(و) ولنكرر مثلا ذكرناه فيما تلونا من قبل ، ونذكره هنـا من ناحيـــة البيان النفسى فيه ، وهو مثل ولدى آدم ، فالله تعالى يقول : « **واتل عليهم نبـأ**

---

(١) النجم : ٢٧ ـ ٢٨
(٢) يونس : ١٢
(٣) الحشر : ٩

ابنى آدم بالحق، اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ماأنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين • فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين • فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى ســـوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين • من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (١) •

هذه الآيات البينات فيها كشف عن النفس المؤمنة المطمئنة الراضية ، وكشف عن النفس الحاسدة الحاقدة •

(ا) وهى تدل على أمور نفسية تصور مصـــدر الشر والخير ، فالنفس المؤمنة تعرف الأمور على وجهها وتدرك الحق ، وما أوجبه ، فهى ترد سبب قبول القربان الى التقوى والخوف من الله •

(ب) والنفس التقية هى التى تمتلىء بذكر الله وتستشعر خوفه دائما ، وأن الاعتداء انما يكون حيث يختفى الخوف • ويظهر الطغيان ، ولذلك علل عدم رد الاعتداء الذى بادره به أخوه بأنه يخاف الله رب العالمين وأن القتل انما هو جريمة فى حق من خلقهم الله تعالى ، وهو ربهم •

(حـ) وتشير الآية الى النفس منطوية على الخير ، وان الشر عارض لها، ولذارد المؤمن التقى قول أخيه وتهديده بالقتل بقوله « **ما أنا بباسط يدى لأقتلك** » وفى هذا اشارة الى النفس التى لم تدنس بشر ليس من شأنها أن تبسط يدها بالقتل •

---

(١) المائدة : ٢٧ ـ ٣٢

(د) والآيات تدل على أن الحسد هو أساس الاعتداء ، فلو انخلع من القلوب ما كان شر ولا اعتداء فى الأرض ٠

(هـ) وتدل الآيات أيضا على أن الاعتداء بالأذى ليس هو الأصل بالنفس الانسانية ، فهو عندما اتجه الى قتل أخيه عالج نفسه ليحملها على مطاردته فى قتله ، ولذا عبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته « **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين** » لأنه خسر أخاه وخسر نفسه ، فأفسدها ٠

(و) وتدل ثالثا على أن رؤية المعتدى عليه ، والاعتداء قائم يبعث على الندم، والآيات من بعد ذلك تبين أن أساس الكثير من الجرائم هو الحسد ، فلو اجتث من النفوس ما كان اعتداء ، ولكن الله تعالى يبلو به الناس ليعلم الخير والشر ٠

ولا شك أن الدارس للنفس الانسانية يجد فى القرآن معينا لا ينضب ، ولو أن الناس عكفوا عليه لوجدوا فيه أعظم مصدر للدراسات النفسية والاجتماعية٠

قصة يوسف فى سورته :

٢٢٨ ــ ان المتتبع لقصص الأنبياء فى القرآن يجد أنه يتجه الى بيان دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الذى يذكر خبره بالتوحيد ، ومنع الاشراك بالله ، والاصلاح ودفع الفساد ، وكيف لاقى قومه دعوته ، وما احتج به من أدلة، وما ساق لهم من براهين ، وأنواع المعجزات المختلفة التى أمد الله تعالى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يقص خبره ، وما آل اليه أمر الأقوام الذين دعاهم الى الهدى والى طريق مستقيم فأبوا واستكبروا ، هذا شأن القصص القرآنى الذى يسوقه الله تعالى فى كتابه ، ولكنا نجد ذلكتختلف فى قصة نبى الله يوسف عليه السلام ٠ حتى يتوهم القارىء لها أن نبى الله يوسف ما كانت له دعوة يدعو اليها ، ولا قوم يخاطبهم حتى تهجم المنحرفون يقولون زورا من القول ٠

ولكن الدارس للسورة الكريمة يجد أنها طراز آخر من القصص ، وفيها كشف عن النفس فى ناحية من نواحيها ، ودراسة لها فى علاقتها بالمجتمع الذى تعيش فيه ، اذ هو توجهها ، وان الدارس لها يجد فيها بيانا للأسرة فى علاقاتها بعضها ببعض مع علاقة الآباء بالأبناء ، وعلاقة الأبناء بعضهم مـــع بعض وعلاقات أبناء العلات ، كيف يختصمون وكيف يجتمعون ، وما يؤدى الحسد بين أبناء العلات ، بسبب ما تثور به النفوس المئوقة ، وكيف تتصور ما ليس واقعا على أنه واقع · ثم ما يؤدى اليه الاندفاع بدافع الحسد المقيت ·

ولنبتدىء بايجاز القول فى القصة من أولها · كان يوسف وأخوه الشقيق من أم غير أم سائر الأخوة ، والأب الحانى يعقوب · يرى كل أولاده فى منزلة واحدة ، ولكنه بنظره العميق الشفيق يرى فى الأخوة الكبار نظـــــرات الى الصغيرين مالا يطمئن به فيعمل على ألا يكون منهما ما يثير ، ويؤجج النظرات الماقتة ، يرى يوسف رؤيا صادقة « **انى رأيت أحـــــد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** » ، فيخشى الأب الحانى أن يؤرث ذلك عداوة اخوته فينهاه : « **لا تقصص رؤياك على اخوتك ، فيكيدوا لك كيدا** » ·

ولكن الحسد يوهم الكبار أن أباهم يؤثر يوسف وأخاه بمحبته لمـــــا يكون من فضل عطف على الصغير من الايثار · « **قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة** »· وهنا يصل الحسد الشيطانى الى غايته : « **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين**»·
ولكن الشر لا يكون موضع اجماع ، فلم يكن اجماع على قتله بل « **قال قائل منهم لا تقتلوه ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين** » ارتضى الاخوة ذلك الحل الذى ينزل من القتل الى ابقائه فى الجـــب وهـــو صغير لا يعلم مآله ، ولكنهم يحتالون ليأخذوه من أبيه برضاه ، « **قالوا ياأبانا مالك لا تأمنا على يوسف ، وانا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون** » ، ولكن الأب الكريم بالهام الأبوة يتوجس خيفة على ولده ، ويخشى عليه السوء ، ولكنه يخفى فى نفسه سوء الظن بهم · أو لا يكون سوء ظن ،

ويذكر أنه يحزن اذا غاب عنه مستوحشا بغيبته ، فيقول : « **انى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وانتم عنه غافلون** » • أخذوه ونفذوا ما دبروا وألقوه فى غيابة الجب ، ولكن نفس يوسف ألهمهـــا الله بأنه سيكون الأعلى ، وسينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، عادوا الى أبيهم يبكون ، قالوا « **انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب** » وأحسوا فى أنفسهم بالظنة تعرو أباهم ، فقالوا ، « **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب** » ، ولكن الأب بفراسته وبالهام الأبوة ما صدقهم • بل قال لهم : « **بل سولت لكم انفسكم أمرا فصـــبر جميل والله المســـتعان على ما تصفون** » •

٢٢٩ ـــ هذه قصة ساقها القرآن الكريم لا لمجرد الاتعاظ والعبرة فقط، بل فيها كشف عن النفوس يجد فيها الدارس النفسى مكانا للفحص يهديه اليـــه كتاب الله تعالى •

(ا) فهى أولا : تبين أن علاقة أبناء الأعيان ، وهم الأشقاء لا تماثلها علاقة أبناء العلات وهم الاخوة والأخوات من الأب من غير الأم ، وتصـــور الغيرة الشديدة التى تكون بين الأبناء ولو كانوا كبارا ما داموا فى ميعـــة الصبا ، وأن هذه الغيرة تدفع الى الحسد ، والحسد يدفع الى البغضـــــاء ووراء البغضاء •• الجريمة •

(ب) وهى أيضـــا تصـــور لنـــا أن الأبوة الشفيقة توحى بالتظنن ، وبالاحتراس ، فقد تظنن نبى الله تعالى يقوب عليه الســـلام فى أن قصص يوسف على أخوته خبر الرؤيا قد يدفع الى أن يكيدوا له كيدا ، ولذا أوصـــاه بألا يخبرهم بها وتظنن عنـــدما أرادوا أن يخرجوا به ، ولكنـــه لم يتمكن من منعه عنهم •

وأنه اذ لم يتمكن من منعه عنهم أبدى مخافته من أن يأكله الذئب ، وقد

كانت منه هذه الكلمة ، وكأنها كانت توجيها لهم ليبدو العـــــذر الذى يعتذرون به ، فجاءوا واعتذروا بأن الذئب أكله ، فمن كلامه ابتدعوا قولهم ابتداعا ٠

(جـ) ولكنهم جاءوا أباهم عشاء يبكون ، فما سر هذا البـــكاء ؟ ذلك أنهم اذ فعلوا فعلتهم كان فيهم بقية من شفقة فكان هذا البكاء ، كما ندم أحد ابنى آدم عندما قتل أخاه ٠

(د) وان يعقوب عليه السلام لم يصدق كل التصديق قولهم ، بل لم يصدق مطلقا ، واستعان بالصبر الجميل ، وهو الصبر من غير أنين ، وجدير أن يكون من النبيين ٠

ولا شك أن فى هذا كله توجيهات نفسية لمن يتدبر ويعتبر ، ويستبصر ، وكان حقا على الذين يدرسون مجتمع الأسرة أن يجعلوا من هذا مثابة للدرس يدرسونه ، ويبنون عليه ، ويسترشدون به ٠

وان قصة أسرة يوسف لم تنته عند هذه النهاية ، بل ان الاخوة من بعـد سيلتقون ، وسيتعاتبون أو يتلاومون ، ولقد وصل يوسف عليه السلام فى علوه الى أن مكن من عرش مصر ، فقـــد مكن الله تعالى له فى الأرض يتبوأ منهـا حيث يشاء ٠

جاء اليه اخوته فعرفهم ، ونسى بما أنعم الله به عليه مساءتهم ، ولعله استأنس بلقائهم ولم يستوحش ، ولكنـــه طلب أخـاه شقيقه ، وقال لهم ، **« ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ، قالوا سنراود عنهأباه وانا لفاعلون»** ولكن شفقة الأخوة ، وشفقته بأبيه وقومه تغلب طلبه ، فيجعل بضاعتهم فى رحالهم وهم لا يعلمون ، فكانت ثمة محبة الأخوة ، ومحبة الشقيق ٠

رجعوا الى أبيهم ، وفى هذه الحال كانوا صادقين **« قالوا يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون »** ولكن ذكراه الأليمة تتحرك ،

فيقول : «**هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين** » ٠

ثم اكتشفوا من بعد ما جهله عليهم يوسف الصديقفتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت اليهم ، « **قالوا هـــذه بضـاعتنا ردت الينـــا ونمير أهلنـــــا ونحفظ أخانا ٠ ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير** » وفى هذه المرة كان يعقوب عليه السلام أحرص من المرة الأولى ، فأخذ موثقا ليأتينه به الا أن يحاط بهم ، فآتوه موثقهم ٠

وتحركت الشفقة الأبوية عليهم جميعا ، وخشى عليهم العين ، فقال عليه السلام لهم : « **يا بنى لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، أن الحكم الا لله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون** » ٠

دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم ، والتقوا بأخيهم ٠ وآوى يوسف اليه أخاه ، وفاضت نفســـه اليه قائلا له :« **انى أخـــوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون** » ٠

وأراد أن يبقى أخاه فلما هموا بالرحيل ، وضع المكيال المصرى فى رحل أخيه ٠ « **ثم أذن لهم مؤذن أيتها العير انكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ، قالوا نفقـــد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض ، وما كنا سارقين ، قالوا فمـــا جزاؤه ان كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد فى رحلة فهـــو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين فبدأوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه** » ثم وجده فى وعاء أخيه ، وبحكمهم أخذ أخـــاه وأبقاه عنـــده وتحركت فيهم الحال التى كانوا فيهـــا عندما رموا بيوسف فى الجب ، وقالوا : « **ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل** » وبذلك ثارت فى نفوسهم الغيرة القديمة ، واذا كانت فى أول أمرها قد دفعتهم الى القتل ، أو السير فى سبيله ، فقد دفعتهم هــــذه المرة الى الكذب ورمى

البرىء بالسرقة ، فأسرها يوسف فى نفسه ، ولم يبدها لهم ، فقال أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون ، فأحسوا بالتبعة عند لقاء أبيهم ، وأرادوا أن يتشفعوا بحال أبيهم الشيخ • فقالوا : « **ان له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه أنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ، انا اذا لظالمون** » • يئسوا من أن يعودوا بأخيهم لأبيهم الشيخ ، وتعرضـــوا للظنون التى لها فى ماضيهم ما يؤيدها ، وهموا بالعودة ، ولكن كبيرهم كان احساسه بالتبعة أشد من سائرهم فقال لهم « **ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ، ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق ، وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسئل القرية التى كنا فيها ، والعير التى اقبلنا فيها ، وانا لصادقون** » • عادوا الى أبيهم وقالوا ما لقنهم اياه أخوهم الكبير الذى تخلف عنهم استحياء من لقاء أبيه ، ولكن الأب الشيخ لم يطمئن الى ما قالوا، وقال لهم « **بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل** » •

وان الأمر اذا تأزم كان من لطف الله بعباده أن يفتح نافذة من الأمل فى وسط التأزم فكانت تلك النافذة ، وقال نبى الله الشيخ : « **عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ، انه هو العليم الحكيم** » وفى وسط هـــذه الحال استيقظ الماضى فتذكر ابنه المفقود يوسف الذى لا يعلم حاله ، أهو حى يرزق أم ميت قبر ، وقد برح به الحزن ، ويقول الله تعالت كلماته فى وصف حاله : « **وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم** » رأوا أن أباهم لا يزال يذكر يوسف ، ولا ينى عن ذلك حتى يتلف جسمه أو يموت ، وصارحوه بذلك ، فقال الشيخ الجريح القلب : « **انما أشكو بثى وحزنى الى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون** » •

وفى وسط هذه الغمة عادت اليه بارقة الأمل كما عادت أولا ، فقال بحنان الأب الشفيق : « **يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيئسوا من روح الله لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** » •

استجابوا لطلب أبيهم وذهبوا يبحثون ، وان مكان الأخ معروف عندهم ، وأما الأخ الذى غيبوه ، فهم لا يعلمون حاله ولا مآله ٠

ذهبوا الى المكان الذى تركوا فيه الأخ الأخير ، فدخلوا على عزيز مصر « يوسف » وقالوا « **يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، ان الله يجزى المتصدقين** » ٠

هم جاءوا للبحث عن أخيهم ، ولكنهم جعلوا المدخل اليه أن يقولوا انهم جاءوا ببضاعة مزجاة ، وهنا نجد يوسف الصديق يحن الى جمع الشمل بعد اذ تفرق ، فيقول لهم علانا ، معتذرا عنهم اذ فعلوا ما فعلوا جاهلين ٠ يقول الأخ المحب لاخوته : « **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون** » وهنا تلهمهم عاطفة الأخوة الحبيبة الى أنه يوسف ، وان تغيرت الأحوال ، واختفت سيم الطفولة وبدت سمة الرجولة : « **قالوا ائنك لأنت يوسف ٠ قال أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا ٠ انه من يتق الله ويصبر ٠ فان الله لا يضيع أجر المحسنين ٠ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين** » ٠٠

وهنا تظهر الأخوة المحبة المتغاضية عن الاثم من الجاهلين ، فيقول الكريم ابن الكريم ، « **قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** » ٠

وقد علم حال أبيه وطب لعلاجه ، وقال :« **اذهبوا بقميصى هذا ، فالقوه على وجه أبى يرتد بصيرا واتونى بأهليكم اجمعين** » ٠

كان الأب العطوف يحس ، وهم فى الطريق اليه بأن ريح يوسف تهب نحوه « **فلما أن جاء البشير القاه على وجهه ، فارتد بصيرا ، قال الم اقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى ، انه هو الغفور الرحيم** » ٠

ولا نقف طويلا عند ارتداد البصر الى نبى الله يعقوب عليه السلام

بعد أن ابيضت عيناه من الحزن أهو بسبب الفرحة الشديدة ، أم هو خارق للعادة ، وما ذلك بغريب على الأنبياء ، ونحن نميل الى الثانى ، فان يوسف عليه السلام كان متأكدا ، ولم يكن متظننا له ٠

جاءت الأسرة الى مصر حيث سلطان يوسف عليه السلام ، والتقت على المحبة ، بعد أن فرقتها غيرة الجهل ، « **فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ،ورفع أبويه على العـرش ، وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقا ، وقـد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البـدو من بعـد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ، ان ربى لطيف لما يشاء ، انه هو العليم الحكيم** » ٠

٢٣٠ ــ لم نتتبع قصة الصديق نبى الله يوسف من وقت أن رموه فى الجب ، وأردنا أن نربط بين أجزاء الأسرة لنعرف مقدار ما يتبين من القرآن من حال النفوس فى ميعـة الشـباب وجهالته ، وما يكون منهـا بعـد أن تسكن عواصف الغيرة ، وتتوافر بواعث الرحم ٠

ذهب اخوة يوسف الى أبيهم عشاء يبكون ، ورجحنـا أن يكون بكاء حقيقيا ، وليس كدموع التماسيح كما يقولون ، وقلنا انها انفعالة الرحم ، وان لم يكن لها أثر عملى ، اذ كانوا يستطيعون أن يعودوا ، ويستنقذوه من الجب الذى ألقوه فيه ٠ ويظهر أنهم كانوا بين عاطفتين متضاربتين : عاطفة الرحم الجامعة ، والغيرة الملحة الباعثة على البغضاء ، فذرفت عيونهم بالعاطفـة الأولى ، وأقعدتهم الثانيـة عن أن يزيلوا ما فعلوا ، وما ارتكبوا فى حق أخيهم ٠

ونترك أولئك الاخوة فى حيرتهم ، واضطراب عواطفهم ، ولنتجـه الى الأب المكلوم الذى فقد ولده ، فانا نلاحظ فيه ثلاث عواطف ، كل واحدة تجرى على لسانه ٠

أولاها ـ ألم الفراق الذى أصاب نفسه ، لقد كان ولده الحبيب المقــرب الصغير ، والصغر ذاته يجلب المحبة ويجلعه أكثر قربا ، وآثر بالمحبة من غير أن يفقد من أولاده محبته ، فالحب الأبوى يقبل الاشـــــتراك ، ولــكن فى تفاوت بالسن ، وبالقرب ، وبالخلق ، وبالمخايل التى تدل على الانفراد بمزايا دون غيره ٠

والثانية ـ أن الذين كرثوه بهذه الكارثة التى هدت كيانه ، وجعلت عينيه تبيضان من الحزن ، هم أولاده ، وأفلاذ كبده ، فلا يمكن أن يكونوا أعداءه ، ولايمكن أن يبغضهم ، لأن بغضهم يكون ضد الفطرة ، وتلك حال لا يصبر عليها الا أولو النفس القوية التى هى نفوس الأنبياء والصديقين ، وفى الموقف الذى وقفه الشيخ من احساسه بالألم من أولاده ، مع احساسه بعاطفته مجـــال للدرس والتحليل ، وجه القرآن الكريم اليه أنظار الدارسين والفاحصين ٠

الثالثة ـ أن يعقوب عليه السلام كان فى قلبه احساس عميق بأنه سيلقى ابنه فى المستقبل ان لم يكن فى القريب العاجل ، ففى البعيد الآجل ، فهو اذ يتهم أبناءه ، ويقول لهم : « **بل سولت لكم أنفسكم أمرا** » يقول أيضا صابرا « **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** » ويقول وقد غاب عنه ابنه الثانى بعد أن تباعد الزمان ، وأن يكون قد غمى على الموضوع النسيان : « **بل سولت لكمأنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ، انه هو العليم الحكيم** » ٠

وان ذلك الاحساس الكريم الذى يتغلغل فى النفس المؤمنة موضع تحسن دراسته ، وتعرفه ، ولا شك أن هذا ليس من خواص الأنبياء ، بل طبيعة فى النفوس المؤمنة الطاهرة الملهمة من غير وحى ، انما هو الصفاء النفسى ٠

وان قصة اخوة يوسف مع أخيهم وأبيهم وموقف أبيهم ، وهو الخامل للأسى من غير أن يقف من أبنائه موقف تنبيه للواجب الذى يتخذ عندما تصـــاب

الأسرة ، فيكون على كبيرها أن يجمعها ولا يفرقها ولا يذهب به فرط محبتــه وأساه ، الى تبديل المحبة بالعداوة ٠

٢٣١ — نعود الى الأولاد الذين آذوا أخاهم ، ولجت بهم الغيرة ، لقد اعتراهم الندم ابتداء وان لم يظهر له أثر عملى ٠

ولكنهم علموا مقدار خطئهم عندما بلغوا أشدهم ، أدركوا مقــــدار ما فقدوا من أخ ، وان لم يكن كاحساس أبيهم بل احساسهم تشوبه بقايا الغيرة وقد تبينت عندما أحسوا بأن أخاهم الثانى تسبب فى تأخير بضاعتهم ٠

وان الغير كما نرى فى كلامهم تثير النفس ، فلا تندفع الى البغضاء فقط ، بل الى الكذب ، ولكنهم على كل حال كانوا فى كبرهم يغلب عليهم حنان الأخوة، ولشد ما كانت فرحتهم عندما علموا أن عزيز مصر هو أخاهم ، وقد قالوا وهم فى طريقهم « **نمير أهلنا ونحفظ أخانا** » ٠

ان قصة يوسف فى أسرته هى قصة أسرة ، فرقت الغيرة بعض عناصرها ، فكانت حكمة الأب الحانى هى التى منعت المأساة من أن تسير الى غاية من الضلال ، بل وقف بها فى أقصر حدودها ، وهى تبين كيف تعود المحبة بسيادة العقل ، وفعل السن ، واثارة المودة ٠

وفى ذلك درس حكيم للأسر التى تصاب بمثل هذه ، وفيه أيضا دروس نفسية عميقة لمن يطلبها ٠

المجتمع المصرى فى عصر يوسف :

٢٣٢ — ألقى يوسف فى الجب ، وصارت **حياته عرضـــة لكل مفترس** ٠ وقد ذكرنا آخذين مما تلونا أنه لم تصبه رعدة الخـــوف ، وألقى فى قلبـــه الاطمئنان ، وألهمه الله تعالى أنه ناج ، وأنه سينبىء اخوته بأمرهم ، فى وقت يكونون فيه فى البأساء ، وهو فى السراء ، ويكون هو العزيز بعنـــاية الله تعالى وهم الأذلاء ٠

ولم يمكث فى الجب طويلا ، بل جاء جماعة ممن يسيرون فى الصحراء ، وألقـــوا فى الجب دلوهم ليستنبطوا ماء ، فرأوا غلاما استبشروا به ، وكان فى ذلك الزمن وما قبله وما بعده يفـــرض الرق على كل غريب ، حتى جاء الاسلام فألغى هذا وغيره ، وقد أخذوه بضاعة ، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، ولم يكونوا راغبين فى بقائه ٠

وقد توسم الذى اشتراه من مصر فيه الخيـــر ، وقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وبذلك ربى فى كلاءة ربه كما صـــنع من قبله موسى ، اذ ألقاه اخوته فى الجب حسدا وايذاء ، كما ألقت أم موسى ولدها وقد وضعته فى التابوت حرصا أو فرارا به من الموت ٠

وبهذه المحبة التىأضفاها الله على من اشتراه مكن الله ليوسف فى الأرض، وألهمه الحكمة ٠ وعلمه تأويل الأحاديث والرؤى ٠ ولـــا بلغ أشده أتاه الله تعالى حكمة وقدرة على الحكم على الأشياء والأشخاص ، وصبرا وادراكا ٠

آل أمره الى أن يكون فى بيت حاكم مصر ، وأن يكون خازن أسراره ، ومتصلا بامرأته ، على أن يكون خادما خاصا ٠

وهنا نجد القرآن فى تلك القصة الواقعة يصور لنا نفس المرأة المتـرفة الفاكهة فى العيش والنعيم ٠

رأت على القرب منها فتى جميلا ذا فتوة وقوة ، فراودته عن نفســـه ، وغلقت الباب ونادت طبيعته البشرية ، قالت له أقبل ، ولكنه فى خلق النبوة يقول لها «معاذ الله ، انه ربى أحسن مثواى » ، فالخلق يمنعه والوفاء يصده ٠

ولكنها أخذت فى الاغراء ، وأرادت أن توقظ فيه الغريزة ، ولعلها أيقظتها ولكن غلبه نور الهداية على الغريزة الدافعـــة ، اذ رأى نور الحق ، وهو نور ربه ٠

وفى هذه الصورة الواقعة صورة الحياة المترفة كيف تفسد النفوس ،

وكيف يغرى بالرذيلة وجود الخدم الأقوياء فى خدمة ذوات الخدر ، وكيف تكون الارادة الصابرة كابحة للغريزة الجامحة وحائلة بينها وبين الشر ·

تلك حال جديرة بالدرس على ضوء القرآن ·

وتجىء من بعد تلك المعركة بين الهوى الجامح ، والحكمة والارادة القوية هو يذهب الى الباب فارا من الرذيلة ، وهى تذهب وراءه تجره اليها ، وتكون المفـــاجأة لها ، وسرعان ما تكشف عن خلق المرأة وهو مسارعتها الى اتهام البرىء اذا لم تحقق رغبتها ، بل شهوتها ، فتستعدى عليه زوجها وتثير فيه الحمية ، لقد وجد سيدها لدى البَاب الذى يتسابقان اليه ، هو ليفــــر وهى لتشده اليها ·

« **قالت ما جزاء من أراد بأهلك ســـوءا الا أن يسجن أو عذاب اليم** »، شكت ظلما ، وحكمت ظلما ، ولكنه حكم ليس فيه الموت ، لأنها ترجوه لها بعــد ذلك ·

ولكن يوسف يدفع التهمة الكاذبة بالقول الصــادق « **قال هى راودتنى عن نفسى** » ·

صارت القضية موضع نظر ، وقد وجد الشاهد الحسى الذى يشـــهد له ، فقد قد قميصه ، وقت الاستباق الى الباب ·

فاستشهدا بذلك الشاهد ، فقال الحكم الذى حكم « **ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين** » ، لأنه يقد وهو مقبل عليهـا ، وهى تدفع عن نفسها ، « **وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصـــــادقين** » فرأوا القميص قد من دبر ، فهو كان يفر وهى تجذبه بشد قميصه ، « **فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم** » ·

عرفت البراءة · وأن يوسف كان فريسة كيد النساء ، وتلك حال يوجه القرآن الكريم اليها لدراستها ·

وهنا نجد السيد يبدو متسامحا ٠ ولعله وجد معذرة لها فى جمال يوسف وكماله ٠ فاكتفى بأن قال « **يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين** » ٠

ونجد فى هذا الموقف توجيها للدراسات النفسية فى المرأة وفى الرجل العقيف . وفيما ينبغى ملاحظته فى داخل البيوت وأكنانها ٠

اذا خرج الخبر عن اثنين شاع ، ولو تواصوا بالأسرار ، فان الخبر قد شاع فى المدينة ٠ وتناولته جماعات النساء ٠ وانهن ليهمهن أمر الحب والمحبين « **وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين** » ٠

شاعت الأقوال فى المدينة ، وتناولته الجماعات ٠ وعلمت امرأة العزيز بما يقلن ٠ وما يدبرن وينشرن من أقوال ، وهى تعلم قلوبهن ، وما يستهو بهن٠

أعدت لهن متكئا ولعله كانت وليمة اذ أعطت كل واحدة منهن سكينا ٠ وقالت اخرج عليهن « **فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن حاشا لله : ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم،قالت فذلكن الذى لمتننى فيه** » وأعلنت هواها ، ورغبتها الشديدة ، واصرارها ، وقد رأتهن يعذرنها : « **وقالت لئن لم يفعل ما آمره به ليسجنن وليكونن من الصاغرين** » وهنا نجد النفس المؤمنة تقاوم طغيان المرأة وتحكمها فيقول « **رب السجن أحب الى ممـــا يدعوننى اليه ، والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين** » ٠

تشايع القول وكثر ، وصارت امرأة العزيز قالة الجماعات ، فكان لابد أن يستر الموقف ، وستره فى الجماعات الظالمة ، أو الجماعات المتسترة تكون على المظلوم دائما ، ولا تكون على الظالم أبدا ٠ وذلك أن يسجنوه تخفيفـــا للشائعة ، أو توجيها لها لغير أهلها «**وبدالهم من بعد ما رأوا من الآيات ليسجننه حتى حين** » ٠

٢٣٣ — هذه قصة فيها تكشف النفوس عن خبيئاتها ، وهى توجيهات لتالى القرآن الكريم الى حقائق النفوس ، رجالا ونساء أتقياء وفجارا ٠

دخل يوسف ، فى حياة جديدة ، بعيدة عن كل مظاهر الزينة وبهجتها ، واذا كان الشاب الغلام ردف النعمة بعد أن ذاق البـلاء ، ابتداء ، فقد جاءه البلاء مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة ينزل الى الضعفاء ويعاشرهم ، ويتصل بنفوسهم ، وعلمه الله تعالى تأويل الرؤيا ٠

يدخل معه السجن فتيان « **قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا ، وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين** » وهنا تبدو خوارق العادات والدعوة الى الله على يد نبى الله يوسف عليه السلام يقول : « **لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبـل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنـون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ، ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولـكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحـد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر ، فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين** » ٠

لاشك أن علم يوسف من غير معلم ، وتأويله للأحلام من غير ملقن ، بل بالالهام المجرد من خوارق العادات التى تجرى على أيدى الأنبياء ٠

خرج السجين الناجى من السجن ، وصار ملازما للملك ، ولكن فرحة الخروج والاتصال أنسته زميله فى السجن فزادت المدة ليزداد تعلما من أحوال

الناس ، حتى وجد حاجة الملك الى من يؤول رؤياه ، فتذكر صاحبهعند الحاجة اليه ،وهذه كلها أحوال نفسية ينبه القرآن اليها ، وكان تأويل الرؤيا ، والتنظيم الاقتصادى الذى استلهمه يوسف الصديق من الرؤية ، ولنذكر الأمر كما جـاء فى القرآن : « **وقال الذى نجا منهما وادكر بعـد أمة أنا أنبئكم بتـأويله ، فأرسلون ، يوسف أيها الصديق ، أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سـبع عجاف وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعـلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصدون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** » ٠

كان ذلك التأويل الصادق مصحوبا ببيان الترتيب الاقتصادى سببا فى أن الملك رغب فى الاسـتعانة به ، قال ائتـونى به ، فامتنـع السـجين الأبى عن الذهاب حتى تثبت براءته ، « **فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، ان ربى بكيدهن عليم** » فعـرف الملك حالهن ، فسألهن « **ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه ٠ قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ، ان ربى غفور رحيم ، وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قـال انك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم** »٠

٢٣٤ ــ هذه وقائع وقعت من وقت أن دخل يوسف السجن الى أن خرج منه مستوليا على خزائن يديرها بحكمته ، ويسير نظامه بارادته ، وتعلمه من ربه ، وهو نبى يوحى اليه ٠ وكل واقعة من هذه فيها تنبيه الى ناحية من نفس الانسان ، وارتباطه بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فدخوله السجن لكمـال خلقه ، وكمال جسمه ، وما كان حوله ، وما يفعله الحكام ليدرءوا عن سمعتهم ، ما ينالها من سوء أساسه صادق ، ويكشف فيه عن نفس المرأة وسيطرة العاطفة

عليها ، وكيف دفعتها عاطفتها فى موقفها الأول من مراودته ، ثم ما كان من اصرارها بعد أن أخذت المعذرة المســـوغة من النســـوة ، ثم ما كان من عاطفة المحبة التى انتقلت من مراودة الى اعتراف ، والى استغفار ٠

وفى الحقيقة ان الدارس الذى يريد معرفة أطوار النفوس ، وما يعروها، سواء أكانت نفوس رجال أم نفوس نساء يجد فى القرآن معينا لا ينضب من الحقائق النفسية التى تكون محور دراسته ٠

ولكنا لا نريد أن يطبقوا ما يعلمون من علم النفس على القرآن ويحملوا ألفاظه مالا يحتمل ، ولكن أن يجعلوه مرشدا يحكم على عملهم ، لا أن يكون عملهم الحكم عليه ، والله سبحانه وتعالى هو الموفق والهادى الى ســـواء **السبيل** ٠



تفسير الكتاب

٢٢٣ ـــ كان بعض أساتذتنا ـ رحمهم الله ـ يرى أن القرآن الكريم لا يحتاج الى تفسير الا فى بعض الألفاظ الغريبة على القارىء ، فانه يستعين عليها بالمعاجم تبينها ، أو بالأحرى تقربها للقارىء ، والا بعض آيات الأحكام والمجملات المبينة بالسنة ، فانها تفصلها وتوضح بالعمـــل والقول مراميها وغايتها ، وما عدا ذلك ، فانه بين لا يحتاج الى بيان ٠ الا أن يكون متشابها لم يعرف بيانه بسنة ثابتة السند فان هذا لا تفسير له ، ومن الحق أن يقول فيه التالى لكتاب الله سبحانه وتعالى : « **آمنا به كل من عند ربنا** »، كما قال تعالى فى الراسخين فى العلم « **يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولو الألباب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب** » (١) ٠ هذا نظر أستاذنا الكبير بلل الله تعالى ثراه ٠

ولا شك أن قول هذا له سند من القرآن الكريم ، فقد وصف بأنه مبين أى بين ، والبين لا يحتاج الى تبيين ، ووصف آياته بأنها بينات ، فقـــد قال تعالى : « **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخـــرجهم من الظلمات الى النـــور باذنه ويهـــديهم الى صراط مستقيم** » (٢) ٠

وقال تعالى : « **الر تلك آيات الكتاب المبين** » (٣) ٠

وقال تعالى : « **الر تلك آيات الكتاب ، وقرآن مبين** » (٤) ٠

وقال تعالى : « **وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل بهالروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** » (٥) ٠

---

(١) آل عمران : ٧ : ٨
(٢) المائدة : ١٥ ـ ١٦
(٣) يوسف : ١
(٤) الحجر : ١
(٥) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥

وقال تعالى : « **طس تلك آيات القرآن ، وكتاب مبين** » (١) ٠

ويقول جل شأنه : «**واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا** » (٢)

وقال تعالى : « **ولقد أنزلنا اليكم آيات بينات** » (٣) ٠

وان هذا كله يدل على أن القرآن بين ، وكيف يحتاج الكلام البين الى من يبينه ، أنه يبين نفسه ، وهذا بخلاف المجمل من آيات الأحكام ، فانه قد جاء النص ببيان أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فقد قال تعـــالى : « **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** » (٤) ٠

٢٣٥ — هذه نظرة خاطرة لأحد شيوخنا ، ولعل الذى دفعـــه الى ذلك القول ما تورط فيه بعض المفسرين من نقل اسرائيليات قد تفســد المعنى الذى يبدو بادى الرأى من الآيات الكريمات ، وان بعض كتب التفسير التى تأخذ ذلك المأخذ ، وتتجه الى الاكثار من القصص ، والأساطير الاسرائيلية تضع ستارا كثيفا بين الآية الكريمة ونورانيتها المشرقة ، فهو رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم خيرا يريد أن يجد التالى للقرآن الاشراق والنور من غير حجب يحجبها من روايات ما أنزل الله بها من سلطان ٠

وان لذلك القول وجاهته ، وانك بلا شك لو تتبعت أكثر آيات القـــرآن الكريم التى لم تتعرض للأحكام العملية ، تجدها واضحة بينة ، وان استبهمت علينا بعض الكلمات لبقايا العجمة فينا ، فان المعاجم تحل لنا اشكالنا ، وهـــو لعيب فينا وليس لابهام فى القرآن ينافى وصفه بأنه مبين ، وآياته بينـــات ٠

---

(١) النمل : ١
(٢) الجاثية : ٢٥
(٣) النور : ٣٤
(٤) النحل : ٤٤

واذا كان ثمة موضع للتفسير ، فانه يكون بتوجيه الأنظـــار لأسرار القرآن البيانية ، والمرتبة العليا البلاغية التى لا تناهد ، ولا تسامى ، وليس فى قوة أحد من البشر أن يأتوا بمثلها ٠

وان الزمخشرى حاول ذلك فى تفسيره ، ووصل فى كثير من الآيات الى توجيه القارىء الى الأسرار البلاغية ، ونهج من بعده من سلك ذلك المسلك، وحاول محاولته ٠

ونحن نرى أن هذه محاولات ناجحة فى جملتها ٠ وفى كثير من آيات الكتاب ، ولكنا لا نحسب أنها وصلت الى الغاية أو أدركوا نهايته ، فانه كتاب الله العزيز الحكيم ، ولا تتناهى معانيه ، ولا يحاط بكل مغـــازيه ، وان تلك المحاولات مفاتيح للنور ، ولكنها ليست النور ٠

٢٣٦ ــ بعد هذه المقدمة التى لابد أن نذكرها لنعرف مدى الجهود التى تبذل ، والغاية التى تغيا عند محاولة التفسير ، وان كنا نؤمن بأن القرآن كتاب مبين ، لا يحتاج الى بيان ، ولكنا نحتاج ان كان فى قدرتنا الى أن نتعرف أسرار بلاغته ٠ وموضع فصاحته ، ونقارب ، ولا نحد ، ونسدد وان كنـــا لا ندرك ، ولا تصيب سهامنا ، ولا نصـــــل الى حال يكون معهـــا يقين بأن ما وصلنا اليه هو سر الاعجاز ، وغاية البيان ٠

وبجوار الذين قالوا ان القرآن مبين بذاته لا يحتـــاج الى من يبينه ، ويفسره كان من يرى أن القرآن يتعبد به ، ويتلى تلاوة ، ولا تتعرف معانيه الا بتعريف من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولا شك أن ذلك القول غريب ، ولكن وجدناه فى كتب المعتزلة ، وجدنا القاضى عبد الجبار يذكره فى كتابه المغنى ، ويستدل على بطلانه فيقول : « الذى قدمناه الآن يدل على فساد قولهم » أى أننا لا نطلبُ دلالة القرآن ، لأناقد

بينا أنه يقع منه تعالى على وجه يدل على المراد كوقوعه من أحدنا اذا تكامل على شرط دلالته ألا يصح منه تعالى أن يخاطب به وهو موضوع لفائدة الا وهو يريدها ، والا كان فى حكم العابث ، وقد ذكر شيخنا أبو هاشم رحمه الله أنه لو كان كذلك لوجب ألا تنفصل حاله ، وهم عرب بين أن يكون عربيـــا أو أعجميا ، لأنه اذا لم يكن معنى يستدل به عليه ، أو به وبغيره ، فلا فرق بين كونه على هاتين الصفتين ، وبين أن يكون الكلام من المخاطب بهذه الصفة » أى أنه اذا لم يكن له دلالة ، فلا فرق بين أن يكون عربيـا أو عجميـا من يقرؤه .

ثم يقول : « ولا خلاف بين المسلمين أن القرآن يدل على الحـــلال والحرام ، والكتاب قد نطق بذلك ، لأنه تعالى قال : « **أو لم يكفهم أنا أنزلنـــا عليك الكتاب يتلى عليهم** » وقال تعالى : « **أفلا يتدبرون القرآن** »(١) وقال تعالى « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » (٢) وقال تعـــالى : « **ونزلنا عليـك الكتـــاب تبيانا لكل شىء** » (٣) وقال تعالى : «**هدى للناس** » الى غير ذلك مما بين به أنه يفيد ، فكيف يصح مع ذلك ما قالوه » (٤) .

ويفهم من هذا الكلام أن ثمة من الناس من يرى أن القرآن للتـــلاوة والتعبد بتلاوته ، وقراءته فى الصلاة ، كما يفعل الأعاجم الذين لا يعرفون العربية ، وانه يسوق الأدلة لبطلان هذا القول فيقول : « وبين شيوخنا انه لو لم يكن له معنى لا يكون معجزا ، لأن اعجازه هو بما يحصل من المزية والرتبة فى قدر الفصاحة ، ولا يكون الكلام فصيحا الا بحسن معناه وموقعه واستقاضه كما لا يكون فصيحا الا بجزالة لفظه ، ولو أن واحدا من المتكلمين ألف الكلام

---

(١) النساء : ٨٢ .
(٢) الأنعام : ٣٨
(٣) النحل : ٨٩
(٤) الجزء السادس عشر من كتاب المغنى ص ٣٥٦ .

المهمل جملة ، وتكلم بها من غير مواصفة لم يعد من الكلام الفصيح ، كما لو كان فى معناه ركاكة لم يكن منه ، وكما لو رك لفظه لم يعد فى ذلك ، فكيف لمن أقر أنه معجز أن يزعم أنه لا معنى له ، وأنه لا فائدة منه »(١) ·

هذا كلام القاضى عبد الجبار ، ولولا نقله لهذا الكلام ما تصورنا أن يوجد من يقول ان القرآن لا يطلب معناه ، وأن القصد منه التعبد بالتلاوة فى الصلاة ، وخارج الصلاة ·

ولعل الذى دفع هؤلاء الى ذلك القول ان صح نقله أنهم يتوقفون خشية أن ينحرف بهم الفكر ، فيصرفوا معانى القرآن الى غيرها لانحراف فى التفكير ، أو تزيد عليه ، فرأوا أن يكتفوا بالتلاوة والتعبد بها واقفين عند ذلك ، حتى لا يقولوا على الله بغير علم ·

ومهما يكن مقصدهم فان ذلك الرأى اذا قاله قائل لا يؤخذ به ، ولا نعلم أحدا قاله الا ما تعلمنا من المغنى ·

٢٣٧ — ان القرآن مقصود بمعانيه ، وبتلاوته ، وترطيب الأسماع به ، وبالتعبد به وبألفاظه ، فكل ما اشتمل عليه مقصود لذاته ، لا بالتبعية لغيره ، فهو مأدبة الله تعالى ·

وقد يقول قائل اذا كان القرآن بينا ، وانه لكذلك فما مكان التفسير فى ذلك ، لأن التفسير لا يكون الا عند حاجة للتبيين ، والقرآن الكريم ، كما تلونا من قبل كتاب مبين ، وقرآن مبين ، وبلسان عربى مبين، وهل يستغنى عنه·

ويبدو لى أن العربى الذى لم تلو لغته برطانة غير عربية ، ويفهم العربية لا يحتاج الى تفسير الا فيما يتعلق بآيات التكليف العملى والأحكام العملية وما يستنبط من القرآن وأنها لتتفاوت فى ذلك تفاوتا كبيرا ·

---

(١) الكتاب المذكور ص ٣٥٧ ·

ومهما يكن فان التفسير علم يدرس ، وهو مفيد ، وهو قائم منذ عهد التابعين الى اليوم ٠

وله بلا ريب فوائده ، وله غاية ان سلك المفسر الطريقة المثلى ، وأن جعل المفسر مرامى القرآن هى المقصودة ، ولا يتجه بكتاب الله الى تحريف المعانى ، والانحراف عن المقاصد ، وانه لابد من التفسير لأمور كثيرة :

(أ) العمل على ربط معاني القرآن بما ورد فى السنة الصحيحة من بيانه ، وفى ذلك استعانة بالمبين للقرآن وهو الحديث ، ووضعه فى مواضعه ، حتى لا تضل الأفهام فى فهم معانى الأحكام ، ولأن بعض ألفاظ يشترك بين عدة مدلولات والسنة النبوية هى التى تحدد المدلول المراد ٠

(ب) وان الذين يقرءون القرآن ليسوا جميعا فى مستوى العربى الذى يدرك معانى الألفاظ بمجرد استماعها ، ومن الألفاظ ما فيه بعض الغرابة حتى على بعض العرب ، بل بعض كبارهم ، ولقد روى أن عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين لم يتعين عنده معنى لفظ « أبا » فى قوله تعالى : « **وفاكهة وأبا** » (١) فقد سال عن معنى الأب ، واستكثر رضى الله تعالى عنه على نفسه ألا يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ القرآن ٠

هذا عمر رضى الله عنه يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ كتاب الله تعالى ، فكيف تكون حال من دونه من الصحابة علما ، وكيف تكون حالنا نحن الذين دخلنا العربية وفينا العجمة التى غلبت الفصحى فى كل مكان ٠

(حـ) ولابد من بعد ذلك من تفسير يترجم الى اللغات غير العربية ، أو يفسر القرآن ابتداء بغير العربية على أنه تفسير فسره واحد ، أو اشترك فيه جماعة ، ويكون المترجم هو التفسير الذى يذكر معنى القرآن على وجهة نظر المفسر ، لأن القرآن أعلى كلام بليغ فى الوجود ، والكلام البليغ لا يمكن

---

(١) عبس : ٣١ ٠

ترجمته من لغة الى لغة محتفظا ببلاغته ، لأن البلاغة تتضمن اشارات بيانية ، ونعمات فيها موسيقى ، وحلاوة ألفاظ ، وتآخيها ، وجمال أسلوبه ، وتساوق معانيه ، ولا يتوافر لأحد من الناس أن ينقل كل الصفات البيانية والبلاغية للألفاظ القرآنية ، وقد حاول فى اللغة الفرنسية بعض العلمـــــاء الأوربيين المتخصصين في العربية ترجمة القرآن برتبته البلاغية ، فقضى فى محاولةترجمة آية مدة طويلة وانبت دون ذلك ٠

(د) وأن القرآن الكريم له عدة قراءات متواترة ، وكل قراءة قرآن ، وهى متلاقية فى معانيها ، وليست يقينا متضاربة ، بل ان بعض القراءات تزيد معانى عن القراءة الأخرى ، أو ترجه معناها فى اتساق محكم دقيق لا خلل فيه ، بل لا يتصور قط أن يكون فيه خلل ، وان التفسير المحكم هو الذى يذكر ذلك التلاقى ٠ فمثلا قوله تعالى :« **لقد جاءكم رسول من أنفســـكم** » (١) فقد قرئت بضم الفاء ، وهى تدل علىأن الرسول عليهالصلاة والسلام من العرب أنفسهم ، وليس غريبا عنهم ، وقرئت بفتح الفاء ، وهى تـــدل على أنه من أعلاهم نسبا وخلقا ومكانة وشرفا ، وبضم القراءتين يكون المعنى أن الرسول علية الصلاة والسلام من أعلى العرب ٠

هذه بعض الأسباب التى توجب أن يكون للقرآن تفسير ، وان كان بينا مفهوما ، وهناك وجه للتفسير لابد من الاشارة اليه ، وهو بيـــان الأسرار التى تضمنتها ألفاظ القرآن ، وتضمنها علم الكتاب من غير ارهاق للألفاظ ، ولا اعنات لمعانيه ٠

وان من كتب التفسير ما حاول الكاتبون لها بيان الأسرار البلاغية فى بعض ألفاظ القرآن كالزمخشرى كما أشرنا ، ومن جاء بعـــده من المفسرين الذين نهجوا منهاجه وزادوا عليه ، وقالوا فى آيات مثل قوله ، وثمة آيات لم يتعرض لبيان أوجه البلاغة فيها ٠

---

(١) التوبة : ١٢٨ ٠

مناهج التفسير :

٢٣٨ — ان المناهج فى التفسير تختلف باختلاف ما يستعين به المفسر من مصادر التفسير ، وان الذى يمكننا أن نحصيه من مصادر التفسير للقرآن أربعة : (أولها) المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، (ثانيها) المأثور من أقوال الصحابة الكرام ، وتلاميذهم الذين اتبعوهم باحسان ، ونقلوا تفسيرهم ، كمجاهد الذى نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ، (ثالثها) اللغة، اذ هى فى ذاتها أداة التعبير ، ولا يمكن الاستغناء عنها فى أى منهاج من مناهجه ، فهى لا تعد مصدرا مستقلا ، اذ هى تدخل فى كل المصادر ٠

(رابعها) الرأى وهو يعتمد ابتداء على اللغة ، وعلى مصادر الشريعة ومواردها ومراميها ، وغاياتها وأسرار القرآن ، وتعرف وجوهه ٠

ولا شك أن اللغة هى الأساس الأول لكل هذه المصادر ، ولا نقصد باللغة ما تومىء اليه المعاجم فقط ، فان تفسير النبى صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون مخالفا للعربية ومعانيها ، لأنه العربى الذى ينطق بجوامع الكلم ، وليس فى الكلام العربى ما يكون أصدق مصدر للاستعمال العربى الصحيح من اقوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

٢٣٩ — ولننتقل من بعد الى الكلام فى المصادر الثلاثة الأخرى ٠

فأولها — وهو أعظمها السنة لأنها الشارح الأول للكتاب الكريم ، وان أحكام الحلال والحرام لا تفصيل لها الا فى السنة ، وهى المصدر الوحيد لها، ومن خالف تفسير السنة للحلال والحرام فى القرآن ، فهو من المفترين على القرآن الكريم ٠ ويكون داخلا فى نهى قوله تعالى « **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب** » (١) ٠ وذلك لأن هذا القسم من القرآن الكريم تكفلت به السنة النبوية ، لأن هذا من تبليغ الرسالة

---

(١) النحل : ١١٦ ٠

المحمدية وهو معناها ، ومن يعارضها انما يعارض تبليغ الرسالة النبوية ، ويفترى على الله الكذب ، فكل ما فى القرن من أحكام فقهية سواء أكانت تتعلق بالعبادات أم كانت تتعلق بتنظيم المجتمع الانسانى الذى يبتدىء بالأسرة ، ويتدرج الى الجماعات ثم الأمة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المسلمين بغيرهم من الأمم فى السلم والحرب ـ كل هذا بيان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو حجة علينا يجب اتباعه ٠

والصحاح التى بين أيدينا فيها بيان الأحكام الشرعية بيانا كاملا كما وردت فى السنة ٠

هذا ويجب التنبيه الى أن الاتجاه الى تفسير القرآن من غير اعتماد على السنة والاستعانة بها فى هذا الباب خروج على الشريعة ، فقد قال الله تعالى : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** » (١) والذين يتركون السنة زاعمين أنهم يأخذون بالقرآن يهجرون القرآن والسنة معا ، ويحاربون تبليغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه ٠

ويلاحظ أن السنة قسمان سنة متواترة رواها جمع عن جمع حتى تصل الرواية الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا النوع من السنة يجب الأخذ به فى بيان الأحكام ، وبيان معانى العقائد التى اشتمل عليها القرآن الكريم لأنها ثابتة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسند قطعى لا شبهة فيه ، والعقائد لا تثبت الا بدليل قطعى الدلالة وقطعى السند ، ولذلك يقول الشافعى لن يخالف الأحاديث المتواترة ، ويسميها أحاديث العامة يقال له « تب » ٠

والقسم الثانى أحاديث الخاصة كما يسميها الشافعى رضى الله تعالى عنه، وهى التى لم يبلغ سندها حد التواتر ، ويسميها علماء السنة أحاديث الآحاد ،

---

(١) الأحزاب : ٣٦ ٠

ولو رواها اثنان أو ثلاثة مادام رواتها لم يبلغوا حد التواتر التى يؤمنتواطؤهم على الكذب ٠

وهذا النوع من الأحاديث يعمل به فى تفسير الآيات التى تتعلق بالأحكام، لأنها تفيد غلبة الظن بالنسبة للصدق ، وقد ثبت ذلك عن الصحابة رضى الله عنهم ، ولأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرسل رسله الى الأقاليم آحادا ، ولا يرسلهم جماعات ٠

ولا يلزم الأخذ بأحاديث الآحاد فى تفسير الآيات التى تتعلق بالعقائد من ضرب الأمثال ، وذكر أسرار الكون من خلق السموات والأرض ، ومن سير الشمس والقمر ، وخلق السموات والأرض ، وتسخير الرياح ، والأنهار والبحار ، وغير ذلك ، فان ما يتعلق بذلك وكل ماورد فيه من السنة أخبار آحاد أو رواتها غير ثقات لا يعتبر حجة فى تفسير القرآن وفهمه ، بحيث يجب الأخذ به ، ومخالفته تكون مخالفة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه من الثابت أن ما يجىء فى السنة مخالفا للمقررات العلمية القاطعة ، ويكون من أحاديث الآحاد يرد وتبطل نسبته الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس معنى رده تكذيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما معنى رده أنه لم تصح نسبته الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق ، ونقول مقالة الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم التى رددها الشافعى ، وهى قوله (أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى ، اذا قلت فى القرآن ما لم أعلم) ٠

وان دراسة الآيات الكونية للعقل والاستقراء والتتبع ، مقامه فى ادراكها ، ما لم تخالف نصا قرآنيا أو حديثا نبويا متواترا ، وليس فى الأحاديث المتواترة ما يعارض هذه الدراسة قط ، والله أعلم ٠

وهنا أمر آخر يتعلق بالقصص القرآنى ، ونقول فيه ان القرآن يفسر بعضه بعضا فى هذا القصص ، وما يجىء من السنة من زيادة على القرآن فى

هذا يقبل منه ما لا يناهض القرآن ، وما يزيد يقبل ما دام السند صحيحا وليس ثمة ما يرده سندا أو متنا ، ولا يجب الايمان بالزيادة بحيث يكفر من ينكرها ، ما دامت أحاديثها لم تصل الى مرتبة التواتر · ولكن ما لم يكن مطعن فيهـا يؤخذ بها على أساس الاطمئنان اليها ·

هذه هى السنة ، وهى تعد المرتبة الأولى فى تفسير القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ·

٢٤٠ ـ أما المرتبة التى تلى مرتبة السنة فهى أقوال الصحابة فى فهم معانى القرآن الكريم ، فكلامهم فى هذا له اعتبار فى فهم الكتاب العزيز لما يأتى:

(أ) أن الصحابة هم الذين سمعوا القرآن الكريم ابتداء ، وهم الذين شاهدوا وعاينوا ، وتلقوا التفسير عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان ما يبهم عليهم يسألون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عنه ، ويروى عن ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه ، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان كلما تلا عليهم طائفة من الآيات تولى تفسيرها لهم ، فكان تفسيرهم أقرب الى السنة ، بل يعده الكثيرون من السنة ، ما دام لا يمكن أن يكون للرأى فيه مجال ·

(ب) انهم الذين شاهدوا أسباب النزول ، وعلموا فى أى موضع نزلت آى الكتاب الكريم ، وأسباب نزولها ، ولا شك أن أسباب النزول طريق معبد لفهم الكثير من الآيات الكريمات ، لأن أول ما ينطبق عليه المعنى للآية القرآنية هو ما كان سببا لنزولها ، ثم يعمم الحكم بعموم اللفظ ، جريا على قول الفقهاء فى محكم قواعدهم (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ·

(ج) وان الصحابة أعلم الناس بمعانى الألفاظ القرآنية لأنهم من العرب ، ومن أعلم الناس بلغة العرب ، وما يكون غريبا بالنسبة لنا ، لا يكون غريبـا بالنسبة لهم ، والألفاظ معروفة معانيها لهم ·

وان المتتبع للمأثور عن الصحابة فى تفسير القرآن الكريم يرى الرائى بادى النظر أنه قسمان :

أحدهما ـ ما اعتمد فيه على المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا يكون سنة نبوية وتفسيرا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا مجال للريب فى نسبته اذا كان السند الى الصحابى صحيحا ، وذلك فى تفسير الآيات التى ليس للرأى فيه مجال ، فتفسيرهم يكون حديثا اذا نسبوه مرفوعا للنبى عليه الصلاة والسلام ، ويكون موقوفا اذا لم يسندوه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا يمكن أن يكون للعقل فيه مجال ، ولا يمكن أن يقولوا فى موضع لا مجال للعقل فيه الا بقول المبلغ صلى الله تعالى عليه وسلم ، آخذين بقوله تعالى :« **ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** » (١) ٠

والقسم الثانى ما يكون للرأى فيه مجال ولا يسندونه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل هو مجرد الرأى منهم وانهم فى هذا قد يختلفون ، وذلك فى بعض الأحكام الفقهية التى لم يرد فيه نص من الكتاب ببيان الحكم ، ومن ذلك قولهم فى عدة المتوفى عنها زوجها اذا كانت حاملا ، فقد اختلف فى تفسير آيات العدة الصحابة ، ففريق منهم ، وعلى رأسهم على بن أبى طالب أعمل الآيتين الواردتين وهما قوله تعالى : « **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا** » (٢) ، والآية الثانية هى قوله تعالى فى سورة الطلاق « **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** » (٣) فقال هذا الفريق من فقهاء الصحابة انها تعتد بأبعد الأجلين أى تعتد بوضع الحمل اذا كان بعد مضى أربعة أشهر وعشر ، وتعتد بالأشهر اذا كان وضع الحمل قبل انتهاء المدة ٠

---

(١) الاسراء : ٣٦ ٠
(٢) البقرة : ٢٣٤ ٠
(٣) الطلاق : ٤

وقالت طائفة أخرى ، وعلى رأسهم عبد الله بن مسعود انها تعتد بوضع الحمل ، أخذا بعموم اللفظ « **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** » لأنه يشمل المتوفى عنها زوجها الحامل ، كما يشمل المطلقة ٠

واجتماع فقهاء الصحابة على رأى فقهى يكون حجة ، وكذلك اذا لم يرد عنهم فى تفسير الآية التى تتعلق بالحلال والحرام الا رأى واحـــــد ، واذا اختلفوا جاز للفقهاء المحبذين أن يختاروا من آرائهم ، ولا يخرجون عنها ٠

٢٤١ ــ وان الموضوعات التى أثرت عن الصحابة آراء فيها مختلفة من حيث قوة الأخذ برأى الصحابى فيها ٠

وأولها ما يتعلق بالحلال والحرام ، وقد علمت القول فيه ، اذا كان مبناه الرأى ، والقبول المطلق اذا لم يكن للرأى فيه مجال ٠

ومهما يكن الأمر بالنسبة لآيات الأحكام، فان أقوال الصحابة وأعمالهم تتبع فى فهم الآيات الخاصة بالحروب والصلح ، والمعاهدات والأمان ، وأحكام الذميين والمستأمنين ، وجمع الغنائم وتوزيعها ، وفرض الخراج والجزية ٠

وكان عهد الفاروق عمر رضى الله عنه عهدا خصبا لبيان الأحكـام الشرعية فقررت فيه المبادىء الاسلامية المستفادة من القرآن ، وتعد معينـــا للفقهاء استقوا منه آراءهم فى نظم العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب ، وقد استقاها هو من فهمه لكتاب الله تعالى ، وادراكه لمراميه٠

ولذلك نجد كتب السير أخذت من ذلك المعين ، فكتـــاب الخراج للامام أبى يوسف ــ الأصل الذى اعتمد عليه هو عمل عمر رضى الله عنه الذى نفذ ويفهمه من القرآن الكريم ٠

وكذلك الامام محمد بن الحسن الشيبانى فى كتابه « السير الكبير » قد أخذ أكثره من عمل الصحابة ، وخصوصا عمل عمر الذى استنبطه من القرآن الكريم ٠ ويعد كتاب السير الكبير أول كتاب ألف فى القانون الدولى الذى

يقوم على قواعد العدل والرحمة ، والكرامة الانسانية ، وكذلك كتاب السير للأوزاعى ، وغيره من الكتب كان اعتمادها على ما عمل به الصحابة آخذين ذلك من فهمهم لمرامى القرآن الكريم ·

ومن الموضوعات التى أثر عن الصحابة أقوال فيها فى تفسير القرآن وفهم معانيه آيات القصص فى القرآن الكريم ، وليس المروى عنهم فى ذلك كثيرا ، والصحيح النسبة اليهم رضى الله عنهم قدر ضئيل ·

وذلك لأنهم ما كانوا يعنون الا بما له أثر عملى يتعلق بالحلال والحرام وما له أثر فى أعمالهم ، وتنظيم جماعتهم واقامة الحق ، والعدل فى الأرض ·

وكانوا يعتمدون فى فهم القصص القرآنى على السنة الصحيحة ، وعلى تفسير القرآن نفسه لبعضه ، وكانوا يكتفون بما جاء فى القرآن والسنة ، ولا يزيدون عليه ، لأنه هو الصحيح ، ولا يحاولون أن يعرفوا ما عداه ·

ولكن لما دخل فى الاسلام اليهود والنصارى ، وبثوا فى المسلمين ما عندهم من قصص وأساطير ، وجد بين المسلمين من يعنى بالقصص غير مقتصر على القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وظهر ذلك فى آخر عصر الخلفاء الراشدين ، ولم ينظر الصحابة الى ذلك نظرة راضية أو متغاضية ، بل نظروا اليه نظرة غير متساهلة ، لما قد يجر اليه من نشر أساطير ما أنزلها الله ، وربما أوجدت غياما على معانيه ·

لقد ظهرت فى آخر عصر الصحابة طائفة من التابعين سموا القصاص ، وقد جاء على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وأخرج أولئك القصاص من مسجد الكوفة ، وكانوا قد انتشروا فى العراق ، فكان رضى الله عنه يمنعهم الا اذا التزموا فى قصصهم ما اشتمل عليه القرآن ، وما صح فى السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ·

ويروى أنه دخل المسجد ، فأخرج كل من فيه من القصاص ، ووقف عند

الحسن البصرى ، فــراه لم يخـــرج فى قصصه عن القرآن ، والدعــوة الى هدايته ٠

ومن الموضوعات التى أثر عن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم كلام فى الكونيات التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، وعده الرواة التى نسبوه اليهم تفسيرا للآيات الكونية ، ونقول فيه انه لا يؤخذ به على أنه حجـــة الا اذا كان صريح كلام الله تعالى ، أو قد ثبت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسند قطعى ، أما ما يقال فيما عدا ذلك مما يتصل بالكون ، وخلق الله تعالى ، فان خالف علما قطعيا لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالكون ، فانه يرد الى صاحبه ٠

التابعون والاسرائيليات :

٢٤٢ ـــ التابعون هم تلاميذ الصحابة الذين نقلوا الى الأخـــلاف أقوالهم فى التفسير ، وان ما ذكر على أنه أقوال للتابعين عن الصحابة فيمــا يتعلق بالأحكام الفقهية مقبول النقل ، ويعتبر نقلهم عن الصحابة حجة عنــد أكثر الفقهاء على ما قررنا فى اعتبار أقوال الصحابة حجة ٠

ولكن التابعين اذا قالوا فى الحلال والحرام مفسرين للقرآن برأيهم ، فانا اذا استثنينا أحمد بن حنبل وبعض المالكية ، فان باقى الأئمة لا يعتبرون قولهم حجة فى ذاته ، انما يكون ما أيده من دليل هو الحجة ٠ ويقول فيهم أبو حنيفة . اذا آل الأمر الى الحسن وابراهيم ، فهم رجـــال ونحن رجال ٠

ولكن الكلام فى القصص والكونيات ، وبعض ما يتعلق بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم دخله الاسرائيليات ، وكثرت فى كتب التفسير وتجاوزت الحد ، وردد بعض التابعين كثيرا من الاسرائيليين ٠

بل ان بعض الصحابة نقل عن الاسرائيليين ، فانه يروى أن عبد الله

ابن عمرو بن العاص أصاب في واقعة اليرموك حمل زاملتين من كتب أهـل الكتاب (١) .

ولا يمكن أن يكون كل ما في هذه الحمولة صحيحا عن أهل الكتـــاب الذين تمسكوا بالتوراة أو الانجيل من بعدها ، ولا نعلم على وجه اليقين أكان ابن عمرو بن العاص لا يختار منها الا ما يوافق الكتاب والسنة الصحيحة ، أمْ كان يتجاوزها الى مالا يناقضهما ، أم يسير وراء ذلك .

ولكن من المؤكد أن ما في الزاملتين لا بد أن تناقله التابعون ، وليســوا جميعا ممن يلتزمون ، ولا يسرفون فلا يمكن أن نقرر سلامة ما يأخذون .

ولقد توقف العلماءفي قبول الاسرائيليات التي راجت حول التفسير في قبولها ، وقد قسموها الى ثلاثة أقسام : القسم الأول ما علم صـــدقه ، لأن القرآن يوافقه ، ولا تجافيه ألفاظه المحكمة ، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنه بسند صحيح ما يوافقه ، وهذا بلا شك لا يكذب ، ولكن لا نجــد فيه غناء عن السنة ، ولا نجده يسد حاجة وخللا لو لم يوجد لا تسد ، ولذلك نرى الأولى ألا يلتفت اليه ، لأن السنة والقرآن يغنيان ، وسدا للذريعة لا يعتمد عليه ، لأن قبول بعض المروى عن اليهود الذي لا زيف فيه ، يســهل تقبل الزيف ، وهو الأكثر ، وهو الذي تعمدوا به أن يفسدوا علينا أمر ديننا ، واذا كانوا لا يستطيعون تحريف القول فيه عن مواضعه ، فانهم يجدون في التفسير طريقا لافساد العقول حول معاني القرآن الكريم .

القسم الثاني ما ثبت كذبه بيقين ، وهو يناقض معاني القرآن الكريم ، ويخالف الصحيح المتواتر من السنة ، أو يخالف منطق الاسلام ، وان هذا يرد بالاتفاق .

---

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٢٦ طبعة دمشق سنة ١٩٢٦ .

وان المستقرىء لكتب التفسير المشتملة على الاسرائيليات يرى أن أكثر مادس فيها من هذا القبيل ٠

القسم الثالث الذى لا يأتى بما يخالف النصوص القرآنية ، ولا الأحاديث النبوية ، ولكنه فى جملته أخبار تحتمل الصدق والكذب ، ويقـــول ابن تيمية فى هذا القسم لا نؤمن به ولا يمكن أن يكون فيه فائدة اسلامية ، ومن ذلك ما يذكرون حول أسماء أهل الكهف ، ولون كلبهم ، ومن ذلك أيضا وصـف عصا موسى (١) ٠

---

(١) رسالة مقدمة التفسير المذكورة ٠

تفسير القرآن بالرأى

٢٤٣ ـــ ذكرنا من مصادر التفسير اللغة ، والسنة ، والصحابة مع تلاميذهم التابعين ، وما دخل عصر التابعين من اسرائيليات دخلت التفسير وتناقلتها كتبه مع تمحيص أحيانا ، وسكوت فى كثير من الأحيان ٠

والمرتبة الرابعة فى التفسير تفسير القرآن الكريم بالرأى ، أى بالنظر المجرد الذى لا يخالف اللغة، بل يستعين بمناهجها، ولا يخالف السنة بل يعتمد على الصحيح من أسانيدها ان صحت عنده ، ولا يناقض تفســـير الصحابة المأثور ، ولا أسباب النزول التى صحت بسند صحيح ٠

والتفسير بالرأى على هذا النحو تضاربت فيه أقوال العلماء ، فبعضهم توقف ، ومنع أن يفسر القرآن بالرأى ، بل لابد لبيانه من علم السنة ، ومنـــه علم الصحابة ، وما يجتمع عليه التابعون ٠

وقد ناصر ذلك الرأى وشدد فى التمسك به شيخ الاسلام ابن تيمية ، فهو يقول : « تفسير القرآن بالرأى فحرام » ٠

ويستدل على ذلك بأخبار منسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم وبأخبار عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم ٠

(أ) ومن ذلك ما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال : « من قال فى القرآن بغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » ٠

ويعد ابن تيمية أن من يفسر القرآن برأيه يقول بغير علم ، ونحن نقول أن الحديث خاص بمن لم يؤت أدوات التفسير من علم باللغة ، ومصـــــادر الشريعة ومواردها ومرامى الاسلام وغاياته ، والعلم بأساليب البيان ، والعلم بجملة المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الذى يقول بغير علم أما من أوتى علم اللغة والبيـــان وعلم الآثار وعلم الاسلام فانه اذا قال فى

التفسير معتمدا على رأيه ان لم يكن نص يعارضه ، فان الخبـــر لا ينطبق عليـــــــه ٠

(ب) ومن ذلك أيضا ما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من أخذ فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » ٠

ولقد قال الترمذى فيه انه غريب ، وقد تكلموا فى بعض رواته ، فليس سنده سليما ، ومتنه غريب ٠

(حـ) ومن ذلك ما يروى عن كبار الصحابة من نهيهم عن القول فى القرآن الا اذا كانت سنة صحيحة يستأنسون بها ، ورميهم بالتكلف من يحاول علم كل ما فى القرآن ، ومن ذلك ما روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال : (أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى اذا قلت فى القرآن ما لم أعلم) ٠ وقد روى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم أنه قال : (كنا عند عمر بن الخطاب وفى ظهر قميصه أربع رقاع ، فقرأ « وفاكهة وأبا » فسأل بعض الحاضرين « ما الأب » ثم عدل عن السؤال وقال ان هذا هو التكلف فما عليك ألا تدريه) ٠

وان النـاظر الى ماروى مستندا لرسول الله صلى الله عليـه وسلم بعضه ضعيف لا يصلح أن يكون حجة ، وبعضه لا يدل على منع الاجتهـــاد بالرأى فى فهم القرآن ان لم تكن سنة مسعفة ، وما روى عن أبى بكر انمـــا يدل على أن الممنوع أن يقول فى القرآن بغير علم ، وعمر رضى الله تبارك وتعالى عنه أراد أن يضرب الأمثال للناس بأن يبين لهم ان القرآن بحر عظيم عميق مملوء بالمعانى ، فلا يصح لأحد أن يدعى أنه تقصاه وعـــرف أطرافه ، وخشى أن يظن أحد يحاول ذلك عندما سأل عن معنى كلمة (الأب) فعـــدل عن السؤال ٠

ونحن لا نرى فيما ساقه ابن تيمية جزاه الله تعالى عن الاسلام خيرا ما يدل على المنع ، ولكن يدل على وجوب الاحتياط فى فهم القرآن ، وأن يكون

بين يديه من دلائل العلم وبيناته ما يجعله يقول عن بينة ، ولا ينطبق عليه النهى فى قوله تعالى : « **ولا تقف ما ليس لك به علم** » (١) ٠

واذا كان ابن تيمية قد عد التفسير بالرأى منهجا مهجورا أو يجب أن يهجر ، فعلى أى شىء اعتمد ! انه اعتمد على أربعة مصادر :

أولها ــ القرآن ، اذ أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فهو يبين أحيانا فى موضع ما أجمله فى موضع آخر ، ويوضح أحيانا فى موضع ما ، يبدو بادى الرأى أنه مبهم فى موضع آخر ، ويجمع آيات القرآن بعضها على بعض اذا تصدت لموضوع واحد يستطيع القارىء المتفهم أن يفهم بعض القرآن ببعضه ٠

وان ذلك بلا شك نوع من الرأى والاجتهاد ، ولكن ابن تيمية لا يمنعه بل يوجبه كخطوة أولى ٠

وثانيها ــ السنة ، اذا لم يستطع القارىء أن يفهم القرآن من القرآن ، فانه يتجه الى السنة كما أسلفنا تحقيقا لقوله تعالى : « **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** » (٢) ٠ وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ألا انى أوتيت علم الكتاب ، وأوتيت مثله معه » ٠

وثالثها ــ ما قاله الصحابة فى تفسير القرآن ، كما ذكرنا من الأسباب فى موضعه ٠ وقد روى أن عبد الله بن مسعود قال : « والله الذى لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت » ٠

ورابعها ــ أقوال التابعين فى التفسير بتعرف ما قالوه نقلا عن الصحابة ٠

---

(١) الاسراء : ٣٦

(٢) النحل : ٤٤

وتتعرف فى هذا ـ السنة بكل طرائقها ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو المبلغ للرسالة والمفسر للقرآن لا يمكن أن يترك شيئا من القرآن قابلا للبيان ، ولم يبينه ٠

٢٤٤ ـــ هذا منهاج المتوقفين الذين يرون أن تفسير القرآن بالرأى غير جائز ، وانما يعتمد فى بيان القرآن على السمع وحده ، اما عن الرسول أو عن صحابته أو عن تلاميذهم ، وان الخروج عن هذه الدائرة خلع للربقة ، وتهجم على القرآن الكريم بغير علم ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يترك للقرآن من غير بيان ٠

وان هذا الكلام ينطبق كل الانطباق على الذين لا يعرفون أن السنة بيانا للقرآن ولا يأخذون به بل يتركونه ٠ وان مثلهم فى هذا كمثل الذين يعزلون الحكم الشرعى الثابت بالنسبة ، ويتركونه نسيا منسيا ٠

وانه فى آيات الأحكام يجب الاتجاه إلى السنة إبتداء ولا يتجه الى غيرها الا على ضوء منها وتعرف لأمراء الأحكام ، وغاياتها منها ، واذا كان ثمة رأى فعلى ضوئها وبقبس من نورها ٠

وان الذين أخذوا فى تفسير القرآن بالرأى فى مقابل الذين توقفـــوا سلكوا مسلك الفقهاء الذين أخذوا بالقياس إن لم يجـــدوا فى الموضـــوع نصا ، فهم لا يتركون السنة ، ولكن يأخذون بالرأى إذا لم يجدوا سنة مفسرة ، وهم لا يقتصرون على الأخذ فى غير موضع السنة ، بل إنهم عند وجـــود السنة لا يناقضونها ، ولا يغايرونها ، بل يأخذون بها ويسيرون فيما وراء ما ثبت بالسنة الى ما تدل عليه الألفاظ من اشارات بيانية ، ويحـــاولون أن يتعرفوا من وراء ذلك الأسرار البلاغية فى القرآن الكريم ٠

ولذلك كان هذا المسلك مسلك الذين حاولوا تعرف أعجاز القـــرآن ، وعلى رأسهم الامام جار الله الزمخشرى ومن قبله كان الامام الطبرى عندما كان يبدى رأيه بعد أن يسرد من الروايات الصحيح والسقيم ٠

والامام حجة الاسلام الغزالى كان ممن سلكوا ذلك المنهاج ، واثبت بالأدلة العلمية أن التفسير بالرأى من غير مناقضة للسنة ، جائز ، ويستدل على ذلك :

أولا ـ بأن القرآن فيه كل علوم الدين ، بعضها بطريق الاشارة ، وبعضها بالاجمال ، وبعضها بالتفصيل الذى يفتح الباب للفكر المستقيم ، والاستبصار فى حقائقه ، وذلك لا يكفى فيه الوقوف عند ظواهر الآيات ، ولا ظواهر أقوال السلف ، بل لابد من التعمق من غير تكلف ، واستخراج المعانى ما دامت لا تخالف المأثور ، وهناك أمور وراء المأثور ، يسير المفسر على ضوء المأثور ، ولقد قال عبد الله بن مسعود : « من أراد علم الأولين والآخرين ، فليتدبر القرآن » وان ذلك لا يكون بغير التعمق فى الفهم ، من غير تكلف ، وتعرف الغايات بالاشارة والمرامى ٠

وثانيا ـ أن القرآن الكريم فيه بيان صفاته تعالى وأفعاله ، وذكر ذاته القدسية ، وأسمائه الحسنى ، وان فهم ذلك مع التنزيه عن المشابهة للحوادث يحتاج الى تدبر وفهم من غير الوقوف عند الظواهر ، وجمع بين المؤتلف ونفى للقول المختلف ٠

ثالثا ـ أنه قد وردت الآثار تدعو الى الفهم والتدبر فى معانى القرآن ، فقد قال على كرم الله وجهه « من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، وذلك لا يكون الا بالتعمق فى الفهم » ٠

ورابعا ـ ان عبارات القرآن الكريم تدعو الى التعمق فى الفهم ، فقد قال تعالى : « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** » (١) ويقول مفسرو السلف ان الحكمة هى فهم القرآن ، واذا كان الله تعالى قد وصف فهم القرآن بأنه خير

---

(١) البقرة : ٢٦٩ ٠

كثير ، فانه سبحانه وتعالى يدعو القادر على ادراك هذه الحكمة لينال من علمها خيرا كثيرا ٠

وخامسا ــ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعا لابن عباس رضى الله تعالى عنهما بالفقه فى القرآن ، فقال عليه الصلاة والسلام « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » وليس التأويل الا التفسير العميق الذى يتعرف به القارىء ما وراء العبادات من معان دقيقة عميقة ، ولو كان كل علم التفسير مأثورا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم علمه التأويل » ٠

وان الغزالى لا يكتفى بسوق ما تؤدى اليه الأدلة من جواز التفســـير بالرأى ، بل يتجاوز فيقول ان المأثور من التفسير بالسنة قليل لا يشمل القرآن كله ، ويذكر أن : ما يؤثر عن الصحابة فى التفسير ، انما هو رأيهم ، وعلينا أن نتبعهم باحسان ، فنجتهد فى تفسير القرآن مثل اجتهادهم من غير معارضة، ولا مناقضة ٠

ثم ان الصحابة فيما بينهم قد اختلفوا ، وكذلك التابعون من بعدهم ، واختلافهم دليل على أن بعض هذه الأقوال بالرأى لا محالة ، ويجوز أن يكون بعضها بالسمع ، ولكنه غير معروف ، ولو كان واجبنا أن نختار من أقوالهم عند اختلافهم ، فالاختيار أساسه الترجيح بالرأى بقبول بعضها ورد بعضها وذلك فى ذاته أشد من الأخذ بالرأى ابتداء ما دام غير معارض للمأثور ٠

٢٤٥ ــ هذا ما ساقه الغزالى من أدلة فى جواز الفهم بالرأى الذى لا يعارض السنة ، ولا يتزيد عليها بما يخالفها ٠ وان أدلته مستقيمة منتجة لما يقول ، بيد أن قوله ان المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى التفسير محدود وقليل ، انما هو فى غير الحلال والحرام ، أمـــا ما يتعلق

---

(١) البقرة : ٢٦٩ ٠

بتفسير القرآن فى الحلال والحرام ، فان ما ورد عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك كثير وليس قليلا ، لأنه بيان الشريعة ، وتبليغ رسالة الله ، اذ أن التكليفات لابد أن يبينها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يتركنا الا وقد بين ما يجب على المكلفين فعله ، وما يجب عليهم تركه ، اما بالنص عليه ، واما بذكر ما يدل على أصل الشرع الذى يقاس عليه ، وتناط به الأحكام ، وتقام عليه مصالح الأنام ، وأحاديث الأحكام أكثرها فى تفسير الآيات المتعلقة بالأحكام ، وأكثر الأحاديث المروية فى هذا المقام ثابتة بسند صحيح تبنى عليه الأحكام بالتحليل والتحريم .

٢٤٦ ـــ والغزالى وغيره من العلماء الذين سوغوا تفسير القرآن بالرأى ، بل ان عبارتهم تومىء بوجوبه فى غير موضع الأثر المروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسند صحيح ، هؤلاء قد منعوا التفسير بالرأى فى موضعين يكون الرأى فيهما مذموما :

أول هذين الموضعين أن يفسر القرآن بهواه ، أو أن يحاول حمل الآيات على مذهبه أو رأيه بأن يكون له فى موضوع الآية رأى معين ، وله ميل له بطبعه ، فيتأول القرآن على وفق لأيه ليحتج به ، ولو لم يكن له ذلك المذهب ما كان يظهر له ذلك التفسير ، وانه ليتجه ذلك الاتجاه ، ويؤول ظاهر الآية لتساير مذهبه ، وينزلها من علياء بيانها الى حيث رأيه .

وأحيانا يفعل ذلك غير قاصد حمل الآية على مقتضى رأيه ، ولكن امتلاء عقله وقلبه بهذا الرأى يجعله يتجه اليه غير قاصد مجرد ترجيح مخيلته،ويلبس عليه الأمر فيظن ما قاله ظاهرا ، وما هو بظاهر .

فهذا بلا ريب تفسير بالرأى مذموم ، ويكون من المنهى عنه ، لأن القرآن الكريم فوق الآرأء والمذاهب وليس خاضعا لها .

وانه من نوع تفسير القرآن بالهوى لا بالرأى المبنى على النظر الخالص لوجه الحقيقة .

الموضع الثانى ـ الذى يكون فيه التفسير بالرأى مذموما ـ يكون فى المسارعة الى تفسير القرآن بظواهر الآيات ، والاقتصار على هذه الظـواهر من غير تعرف للمنقول فى موضوعها ، ومن غير مقـــابلة الآيات بعضهـــــا ببعض ومن غير تعرف للعرف الاسلامى الذى خصص بعض الألفاظ العربية ، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من القرآن من حمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، ومن غير ادراك مواضع الاضمار والحذف والتقـــديم والتأخير ، وغير ذلك من الأساليب البيانية القرآنية المعجزة ٠ فان ذلك يكون مذموما ، لأنه تفسير بالرأى من غير ادراك لمعانى الألفاظ فى عرف الاسلام ، وبغير مؤهلات ، واجتهاد فى الفهم من غير التسلح بأدواته ، وحينئذ يكون الخطأ ، ويكون السقط ٠

فهذان هما الموضعان اللذان يذم الرأى فيهما ٠

وفى الحق أن هذا ليس تفسيرا بالرأى المجرد ، انما هو من الهوى أو التهجم ، والتهجم على مالا يحسن ، والعمل فيما لا يتقن ، وذلك قبيح فى كل شىء ٠

الظاهر والباطن

٢٤٧ — يدعى بعض فرق الشيعة أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن الباطن له باطن حتى يصل العدد الى سبعة بواطن وأن معرفة القرآن معرفة صحيحة كاملة لا تكون الا بمعرفة هذه البواطن ، وليس علمها عند كل انسان ، بل أوتى العلم بالبواطن كلها الامام المعصوم ، والأصل أن علم هذه البواطن كلها كان عند النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أودعها من بعده على بن أبى طالب ، وعلى أودعها عند موته الامام من بعده ، وهكذا توالت النفوس فى أخذ هـذه الوديعة اماما عن امام حتى وصلت الى الامام المستور المغيب ٠

وقد تولى القاضى عبد الجبار ادحاض ذلك الرأى ، وبين أنه لا أساس له من العقل ولا النقل ، فقال عن هذا الرأى ، حكى ذلك عن قوم من الأوائل ، لأنهم زعموا أنه ينطبع فى النفس مثل المدركات ، فيعرفه المدرك على أن هذه الطبقة خارجة عن حد من يناظر ويتكلم ، لأنها تبنى أمرها على الحيل ، وانما تقع المناظرة من أهل الديانات ، دون من يجعل من يبتدئه ويعيده مبنيا عـلى الخديعة والاستشكال ، والتوصل الى استباحة المحذور ، ويرى أن المذاهب كلها واحدة وان الواجب أن يظهر لكل فرقة ما يقرب به اليها ، ولا ينفـــر بالمخالفة الى سائر ما يحكى عنهم ، ولو بنوا الأمر على طريقة النظر ما أقدموا على هذا القول مع وضوح فساده ، ولكنهم توصلوا بذلك الى الاحتيال على الناس ، فقالوا ان القرآن له ظاهر وباطن ، وتنزيل وتأويل ، وان الأثر قد ورد بأن تنزيله مفوض الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتأويله الى على رضى الله عنه ثم الى سائر الحجج (أى الأئمة) وأنه لابد من معرفتهم ليصح أن يعرف مراد الله تعالى ، فجعلوا ذلك طريقا الى القدح فى الاسلام والدين، لأنه مبنى على القرآن والسنة ، فاذا أخرجوا من القرآن يعرف به شىء وكذلك السنة وجعلوهما ظاهرين ، وجعلوا المرجع الى الباطن الذى لا يعلم الا من جهة

الحجة (الامام) ولا حجة فى هذا الزمان فقد سدوا باب معرفة الاسلام ، وطعنوا فيه ، فعظمت مضرتهم (١) ٠

ويسوق بعد ذلك عبد الجبار الأدلة على بطلان ذلك المذهب ، وإن كان لا يحتاج بطلانه الى دليل ، ويناقش القول الذى قالوا ، لأنه يلغى اعتبار الألفاظ ، وعلى فرض بقائها يجب أن يكون علم الامام مبينا لها وان قولهم هذا يؤدى الى أن يلتبس أمر القرآن على الأمة ، لأن الامام مستور ، وأن القول بأن له باطنا ، لا يعرف للناس مناف لقول الله تعالى فى وصفه الله تعالى للقرآن بأنه هدى للناس وبأن فيه تبيان كل شىء ، وأن الناس مأمورين بالتفكر فى آياته ، وتدبره وهكذا ٠

وفى الحق ان ذلك الكلام لا موضع له من النظر ، وقد حكيناه ليتبين أوهام أولئك الناس التى لا سلطان لها من حجة أو برهان ، ولكنها مخاوف الشيطان ٠

٢٤٩ ــــ ويجب هنا أن ننبه بأن بعض العلماء يقولون ان للقرآن ظاهرا وباطنا ، لا بهذا المعنى ، بل بمعنى أن القرآن يحوى من العلم ما يخفى على بعض الناس ، فأولئك لهم ظواهر الألفاظ ، أما ما عدا هذه الظواهر مما تشير اليه من علم ، فانه لا يعرفه الا خواص العلماء ، والراسخون فى العلم ، ولا تناقض بين الظاهر والباطن ٠

فالغزالى يسلم بأن للقرآن ظاهرا يفهمه كل قارىء للقرآن يعلم بأساليب البيان العربى ، مطلع على المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وله باطن عريق يفهم من الاشارات البيانية ، وما وراء الألفاظ من معان علمية لا يدركها الا الراسخون فى العلوم المختلفة ٠

---

(١) المغنى جـ ١٦ ص ٣٦٤ والذين يقولون لا فرق بين المذاهب والديانات بعض الصوفية الذين يدعون الوصول الى الحقيقة ، ولعلهم من أصل باطنى ٠

والغزالى على هذا ينتهى الى أنه لا يصح الاعتماد على العقل وحده فى فهم القرآن ، بل لابد من الاستفادة بالنقل ، ويصح الأخذ بالنقل فى الأحكام الشرعية ، بل يجب الأخذ به ، وفى غيرها من النصوص تكون الطريقة المثلى أن يعتمد على النقل والعقل معا ، فان ظاهر القرآن لابد فى معرفته من نقل اللغة والسنة ان كانت سنة صحيحة ٠

وفى ظل النقل الصحيح ان كان ، وفى كل الدلالات اللغوية للألفاظ والأساليب البيانية ، والعرف الاسلامى لألفاظ القرآن يعمل العقل فى استخراج معانى القرآن الكريم ، المتسعة الأفق البعيدة المدى ، وفى القرآن آيات كثيرة توجه العقل الى عمق الحقائق الكونية والنفسية ، وكلما تفتح العقل ، وأدرك ظواهر كونية ادراكا صحيحا وجد فى القرآن ما يشير اليها ، وانه كلما اتسع أفق العقل البشرى فى فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقرآن الكريم ٠

ولعل ذلك هو الذى أشار اليه بعض الصحابة فى أقوالهم مثل قول أبى الدرداء فيما نسب اليه « لا يفقه حتى يجعل للقرآن وجوها » ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا » وليس الباطن المذكور فى ذلك النص الباطن الذى لا يعلمه الا الأئمة كما يدعى الشيعة ، انما الباطن هو الاشارات البيانية الى الحقائق الكونية والنفسية ، وغير ذلك من المعانى التى تدركها العقول ، ويصل اليها العالم ذو البصيرة المنيرة الذى آتاه الله تعالى نفاذ عقل واستقامة فكر ٠

٢٤٨ ــ والغزالى يقول المعنى الذى يؤخذ من ظواهر الألفاظ العربية . ويثبت بعضه من السماع عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصحابة هو الطريق للمعنى العميق الذى يدركه الناس كلما تقدم العلم ، واطلعوا على

ظواهر الكون وكشفوا من خواصه ما كان مجهولا ، ولا سبيل لمعـــرفة تلك المعانى العميقة الا بالمعانى الظاهرة المكشوفة ٠

ويقول الغزالى فى ذلك ما نصه : « النقل والسماع لابد منه فى ظاهر التفسير أولا ، ليتقى موضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتتبع للتفهم والاســـتنباط ، واستخراج الغرائب التى لا تفهم الا بالسماع ، ولا مطمع فى الوصول الى الباطن قبل امكان الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر ، فهو كمن يدعى البلوغ الى صدر البيت قبل مجاوزة الباب ، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم ، وهو لا يفهم لغة الترك ، فان ظاهر التفسير يجرى تعلم اللغة التى لابد منها للفهم » ٠

والمعنى الباطن الذى يقصده الغزالى هو تحرى الدقائق التى تكون فى مطوى الألفاظ القرآنية ، والأسرار التى لا يدركها الا العلماء الراسخون فى الاسلام ، والعـــلوم المختلفة ، كل بمقدار طاقته العلميـــة ، بعـد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحـــذف واخبار ، وعموم ، وخصوص ، واطـلاق وتقييد ، وان ذلك واضح من كلامه وضوحا بينا ، فهو يقول فى معــــانى القرآن :

« انما ينكشف للراسخين فى العلم من اسراره بقــــدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجـــردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى من درجـــة الى درجة أعلى منها ، فأما الاســـتيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مدادا والأشجار اقلاما ، فأسرار كلمـــة الله عز وجل لا نهاية لها ، فمن هذا الوجه يتقارب الخلق فى الفهم ، بعد الاشتراك فى معرفة ظاهر التفسير ، وظاهر التفسير لا يغنى » (١) ٠

---

(١) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ٠

٢٤٩ ــ هذه اشارات الى مناهج التفسير تكلم فيها العلماء . وعندى أنه لا يمكن الاستغناء عن الآثار فى فهم آيات الأحكام ، أما ما عــــداها فان العقل له فيه مجال كبير بشرط ألا يهيم على غير نور من الشرع · ولابد لكى يكون التفسير بالعقل مقبولا من ثلاثة شروط :

أولها ـ العلم باللغة علما سليما لكى يدرك معانى التصريف البيانى فى القرآن ·

وثانيها ـ ألا يخالف المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ يكون مخالفا للمبين الأول للقرآن وهو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

والشرط الثالث ـ ألا يتعصب لفكرة أو مذهب ، ويخضع القرآن لمــا يتعصب له ، فيكون تفسيره خاليا من تأثير الهوى ، والله أعلم ·



ترجمة القرآن

٢٥٠ ـــ أجمع العلماء على أن القرآن هو اللفظ والمعنى ، وان من خالف ذلك يعد قد خالف فى أمر عرف من الدين بالضرورة ، وليس المعنى وحده يعد قرآنا ، لأن التحدى كان باللفظ والمعنى ، ولما تحداهم الله تعالى طالبهم أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وواضح أن التحدى هنــــا باللفظ ٠

وان جبريل عليه السلام نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلمبلسان عربى مبين ، ولقد وصف القرآن الكريم بأنه عربى ، فقال تعالى « **انا أنزلناه قرآنا عربيا** » وقال تعالى : « **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** » فالقرآن بلفظه ومعناه عربى ، ولا يصح أن يقال عن كتابة بعض معانيه بغير العربية انها قرآن ٠

ومع وضوح هذه الحقيقة البدهية التى لا تختلف فيها العقول عند أهل الايمان ، ولا تتباين فيها الأنظار ، وجد من الناس من ادعى أن معانى القرآن قرآن ، وأنه على هذا الاعتبار تجوز ترجمة القـــرآن الكريم على أن يكون المترجم قرآنا له كل خواص القرآن ، ويتعبد به كما يتعبد بالقرآن الذى نزل به جبريل بلسان عربى ٠

بل وصل التهافت فى القول الى أن يدعى بعض الذين لا حـــرج على ألسنتهم ولا على قلوبهم أن يقول ان الذى نزل به جبـــريل على النبى عليــه الصلاة والسلام هو المعنى فقط ٠

وذلك كله هراء من القول ، وانحراف عن الدين ، أوخروج عنه ٠

وفى وسط ذلك المضطرب كان من بين الذين يتجنـون على القـرآن من ادعى أن الامام الأعظم ابا حنيفة النعمان يرى أن القرآن هو المعنى فقـــط ، وبنوا على هذا جواز ترجمة القرآن عند أبى حنيفة رضى الله تعالى عنـه ،

واكرم مثواه ، والأصل الذى بنوا عليه دعواهم أنه رأى فى صدر حيـــاته طوائف من الفرس قد دخلوا فى الاسلام ، وقد علموا العربيــة ، ولـكن ألسنتهم لم تطـوع للنطق بها من غير رطانة أعجميـة ، بل كانت تتلوى فى مخارج الحروف العربية ، كما نجد اليوم الأعاجم الذين يعلمــون اللغـة العربية ، ولا تطاوعهم ألسنتهم فى النطق السليم بها ، فسوغ أبو حنيفة لهؤلاء أن يقرأوا معانى الفاتحة بلغتهم الفارسية ، وقد روى فى هذا أن أهل فارس فى عهد الصحابة قد صعب عليهم مخارج الحروف العربية ، فطلبوا الى سلمان الفارسى أن يعبر لهم بالفارسية عن معانى الفاتحة ففعل ، حتى لانت ألسنتهم وقرأوا القرآن باللغة العربية ، وقد اشترط أبو حنيفة لجواز ذلك إلا يكون الشخص مبتدعا بهذا العمل ، أى أنه يترك القراءة بالعربية مع القدرة على النطق الصحيح بها ، واخراج الحروف من مخارجها ، ليقرأ معانيه بلغـة أخرى فارسية أو اوربية ٠

وقد روى عن أبى حنيفة أنه رجع عن هذا الرأى ، روى هـذا نوح ابن أبى مريم الجامع ، وهو الذى رجحه الأكثرون ، وان النظرة التاريخية الفاحصة تجد ترجيح هذه الرواية له سبب واضح ، وهى تساير الحقيقـة التاريخية ، وهو أن أبا حنيفة الفقيه المدرك ، قرر جواز قراءة المعـانى بالفارسية على أنها دعاء مقارب للفاتحة فى معانيه ، فلما لانت الألسنة ، ودخل الناس من أهل فارس وغيرها فى دين الله أفواجا أفواجا ، ورأى أن المبتدعين هم الذين يتخذون القرآن مهجورا وهم الذين يستبيحون تلك الرخصة التى رخصها ، حرم ما كان قد استحسن ٠

٢٥١ — ومهما تكن الفتوى من الناحية التاريخية فان الفقهـاء اختلفوا فى أصل هذه الفتوى أمؤداها أن أبا حنيفة اعتبر الترجمة دعاء ، وليست قرآنا ، أم أنه اعتبرها قرآنا ، وهل مؤدى ذلك أن يكون أبو حنيفة قد اعتبر القرآن هو المعنى دون اللفظ ٠

ونقول فى الاجابة عن هذا السؤال ان من المقطوع به أن أبا حنيفـــة لم يعتبر القرآن الذى نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو المعنى فقط ، فذلك ما لم يقله أحد من أهل الايمان ، لأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أقرأه جبريل اللفظ ، ولم يوح اليه بالمعانى وحدها ، اقرأ قوله تعالى مـــع ما تقدم « **لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه** » (١) ٠

فهل بعد هذا النص القاطع يستطيع أحد أن يدعى على أبى حنيفة الورع التقى أنه يقول ان الذى نزل على محمد ، وتلقاه عن جبريل الأمين ، وهو روح القدس هو المعنى فقط ، ان ذلك غير معقول ٠

وبقى السؤال الأول هل يمكننا أن نفهم من هذا أن أبا حنيفه أقر قراءة القرآن بغير العربية ممن يعرف العربية ، ولا يجيد اخـــراج الحـروف من مخارجها ، أنه يعتبر المعنى ذاته قرآنا مع اقراره بأن الذى نزل على محمد اللفظ والمعنى ٠

نقول ان الأكثرين من الفقهاء المتقدمين والمتأخرين يقولون ان أبا حنيفة اعتبر المترجم مجزئا للصلاة فى الحدود التى رسمناها فى دور من أدوار اجتهاده الفقهى ، ولكنه لا يعده قرآنا قط ، ولذا لم يقل انه تجب سجدة التلاوة بالجزء المترجم اذا كان فى معنى آية لها سجدة تلاوة ، وأجاز أن يمس غير المتوضىء الجزء المترجم ، ولا حرج عليه ، وتقرأ الحائض النفســـاء المعنى المترجم ، ولا اثم فى ذلك ،لأنه ليس قرآنا ٠

ولذلك يقول الأكثرون من فقهاء المذهب الحنفى ان ما قرره أبو حنيفة ان هو الا ترخص للذين لم تقوم ألسنتهم تقويما عربيا سليما ، فســـوغ لهم

---

(١) القيامة : ١٦ ـ ١٩

أن يقرءوا المعانى حتى تقوم ألسنتهم ، وعلى أنها دعاء ، لا على أنها قرآن ولم يعرف عنه قط أنه سوغ ذلك فى غير الفاتحة ٠

وعلى هذا لا يجوز لأحد أن يبنى على ما روى عن أبى حنيفة جواز ترجمة القرآن الى لغة من اللغات على أن يكون المترجم قرآنا ، ومهما يكن ، فان الرأى الذى ينسب الى أبى حنيفة قد رجع عنه ، وهو خارج عن رأى الفقهاء أجمعين ، فلم يسوغ أحد قراءة معانى الفاتحة بالفارسية أو غيرها ، بل أجازوا الدعاء لمن لا يعرف العربية ولم يجد من يأتم به ليغنيه عن القراءة ٠

وتكرر القول بأنه رجع عنه ، وقلنا انه الذى يتفق مع السياق التاريخى، اذ أن أبا حنيفة عاش سبعين سنة ابتدأت سنة ٨٠ وانتهت سنة ١٥٠ والمعقول أنه رأى الألسنة الفارسية لم تقوم ، فسوغ لهم من قبيل الرخصة الدينية فقط أن يقرءوا المعانى لسورة الفاتحة على أنها دعاء حتى تقوم ألسنتهم ، فلما رأى الألسنة قومت ولانت واستقامت ، وخشى البدعة ، اذ يجد المبتدعة السبيل لبدعتهم ، فرجع عن رأيه ، ولا يصح الاعتماد على رأى رجع عنه صاحبه ٠

٢٥٢ ـــ ولو تركنا فتوى أبى حنيفة ، وقد علمنا من الفتوى أنه لم يعتبر ترجمة القرآن قرآنا لها قدسية القرآن يجب أن نتجه الى موضوع الترجمة فى ذاته ، ولكى نقرر الحق فيه يجب أن نجيب عن هذه الأسئلة الثلاثة ٠

السؤال الأول : أيمكن ترجمة القرآن ٠

السؤال الثانى : أتسوغ الترجمة على أن الترجمة قرآن أو ليست بقرآن٠

السؤال الثالث : ما السبيل لتعريف غير المسلمين بالقرآن ، واطلاعهم على معانيه ٠

وانا نجيب عن هذه الأسئلة جملة : ان ترجمة القرآن غير ممكنة ، وقد تصدى لذلك العلماء الأقدمون ، فقرر ابن قتيبة وغيره من العلماء أن كل كلام بليغ لا يمكن ترجمته ببلاغته من لغة الى أخرى ، ذلك أن الكلام البليغ له معنيان مجتمعان : أحدهما أصلى ، وهو المقصد الذى انبنى عليه الكلام وما سبق له من قصة أو حكم أو عظة ٠

والثانى بلاغى ، وهو اشارات الكلام ومجازاته ، وما يثيره من صور بيانية ، وما يحيط به من أطياف ، كالتى تحيط بالصور الحسية ، وبهذا كله تعلو الرتب البلاغية ، ويسمو البيان ٠

وبتطبيق هذه القاعدة على القرآن الكريم ٠ وهو فى درجة من البلاغة لا ينهد اليها أى كلام انسانى قط ، فان ترجمته مستحيلة على أن يكون قرآنا فيه كل خواصه البلاغية ٠

ولذلك قال العلماء الأقدمون بالاجماع ، انه لا يمكن ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية ، والمعانى البيانية اللاصقة لها ، فما فيه من أوامر ونواه وأخبار وقصص يمكن ترجمته ، فيترجم أصل النهى والأمر ، ووقائع القصة ، ولكن العبارات التى سبق بها القول وما فيه من صور بيانية ، واشارات تعلو بالكلام الى أسمى المنازل حيث لا يكون له شبه ولا مثيل ، فان ذلك لا يمكن ترجمته ٠

ولقد قال الشاطبى فى هذا المعنى بعد أن قسم معانى الكلام البليغ الى معانى أصلية ومعان خادمة هى ما تشير اليه المجازات والتشبيهات والاشارات البيانية ، ومطويات الكلام ومراميه البعيدة ، قال بعد هذا التقسيم : « اذا ثبت هذا لا يمكن من اعتبر هذا الوجه أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام الأعاجم فضلا عن أن يترجم القرآن ، وينقله الى لسان غير عربى الا مع فرض استواء اللسانين فى اعتباره عينا ، فاذا ثبت

ذلك فى اللسان المنقول اليه مع لسان العرب أمكن أن يترجم أحــــدهما الى الآخر ، واثبات مثل ذلك بوجه بين عسير جدا » ٠

ونزيد على الشاطبى أنه اذا توافق اللسانان فانه مع بعد ذلك لا يوجد فى اللسان الآخر من تكون عبارته كعبارة القرآن المعجـــز للبشر أجمعين الذى ان اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثـــله لا يأتون ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ٠

وقد نفى ابن قتيبة امكان ترجمة القرآن على الوجه الثانى ، أما الوجـــه الأول فقد قال فيه : « فأما عن الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهة صح تفسير القرآن ، وبيان معناه للعامة ، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الاسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة على صــــحة الترجمة بالمعنى الأصلى » (١) ٠

وبهذا يتبين أن ترجمة القرآن غير ممكنة ٠

ولا تسوغ ترجمة القرآن ، واعتبار هذه الترجمة قرآنا ، فان ذلك يؤدى الى أن يحفظ القرآن من التحريف والتبديل بل يعتريه ما اعترى التـــوراة والانجيل من تحريف وتبديل ، فالأناجيل ضاع أصلها العبرى ، ولم يبق الا ترجمتها اليونانية ، أو بالأحرى ترجمة بعضها ، والسبب فى ذلك هو ترجمتها من العبرية ، وهكذا يكون القرآن الكريم لو سوغنا ترجمته ، ولكن الطريق مسدود ابتداء لأن الترجمة غير ممكنة ، فكان القرآن محفوظا « **انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون** » (٢) ٠

٢٥٣ ـــ وهنا يرد أمران منبعثان من السؤال الثالث الذى ذكرناه ، وهو كيف نوصل علم القرآن الى أهل الألسنة الأخــرى ، ذانكم الأمـــران

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٠
(٢) الحجر : ٩

أولهمـــا أن كثيرين من الأوربيين والأمريكان وغيرهم ، والمغـــرضون فيهم أكثر من طالبى الحقائق ـ كتبوا معانى القرآن بغير العربية وسموها قرآنا وحرفوا فيها الكلم عن مواضعه ، والأجانب يعتبرونها قـــرآنا ، ومن الواجب أن تصحح هذه التراجم بترجمة صحيحة سليمة للقرآن الكريم ترد الحق الى نصابه ٠

والأمر الثانى : أن عند بعض الأوربيين والأمريكان نزعات تتجه بهم الى تعرف القرآن وما يشتمل عليه ، وان كثيرين من الشرقيين المسلمين لا يعرفون معانى القرآن وان كانوا غير فاهمين لما يتلون ٠

ومن الواجب أن نعرف المسلمين بمعانى القرآن معجزة الاسلام ، ومنهم من يحفظه كله ، وكلهم يحفظون بعضه ليصححوا صلاتهم ، وان هؤلاء من حقهم على المسلمين الذين يجيدون العربية ، ويفهمون لغتهم أن ينقلوا اليهم معانى القرآن ليفهموا معنى ما يتلون من كتاب الله تعالى ٠

ونقول بالنسبة لهؤلاء الأعاجم من المسلمين انهم يتلون القرآن الكريم ، ومن السهل أن يكتب لهم فى هامش المصاحف التى بأيديهم معانى الألفـــاظ القرآنية ، فيقرأون القرآن ، ويستطيعون أن يفهموه ، وقد فعل كثيرون منهم ذلك ، وما يكون بالهامش لا يعد ترجمة ، بل يكون تفسيرا للمفسر ٠

وأما بالنسبة لغير المسلمين الذين يريدون أن يعرفوا ما فى القرآن ، ونحن نقرر أن من الصد عن سبيل الله تعالى ألا نطلعهم على ما فى القرآن من تكليف وعظات وارشاد ، ولكن السبيل الى ذلك ليس ترجمة القرآن ذاته ، فان ذلك متعذر ، لأن القرآن له معان رائعة تختلف فى ادراكها على الوجه الأكمل للعقول ، وكل عقل يدرك منها بمقدار ثقافته ، وما يدلى به من حبال المعـــرفة وطاقة الفهم ٠

وانما السبيل هو الاتجاه الى أحد أمرين ، اما بيان المعانى الأصلية

التى اشتمل عليها القرآن مبينة بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يعرفون حقائق الاسلام ويستضيئون بنور القرآن ٠

والاتجاه الثانى : أن يفسر القرآن تفسيرا موجزا مختصرا موضحا لمعانى الآيات ، وأن يتولى كتابة هذا التفسير جماعة علمية معروفة بانها من اهل الذكر ، ويذكر التفسير منسوبا اليهم ، ومسمى بأسمائهم مضـــافا اليها ، ويترجم ذلك التفسير على أنه ترجمة تفسير فلان ، وفلان ، وأن نحتاط عند النشر ذلك الاحتياط لكيلا يفهم أحد أن هذه الترجمة هى القـــرآن ، أو هى معانى القرآن ، بل يشار الى أنها ترجمة لمعـــانى القرآن على ما ذكره وفهمه أولئك المفسرون ، ، فان معانى القرآن على الحقيقة لا يعلمها كاملة الا منزل القرآن ، ومن نزل عليه الفرقان ، ومن بعد يدرك كل عالم بمقدار طاقته ، وان القارىء المتفهم للقرآن الطالب لمعانيه يجد أمامه نورا ، كلمـــا قوى بصره واستفادت بصيرته ، وكلما علا ادراكه علا فهمه للقرآن ، وعلم منه ما لم يكن يعلم ، وفهم من بعض أسرار اعجازه ما لم يكن يفهم من قبل ٠

وأنه لكمال الاحتياط يجب أن يكون النشر بحيث لا يفهم أنه ترجمة لآى القرآن مباشرة ، بل يكون الطبع على الوجه الآتى :

(أ) يطبع المصحف فى وسط الصفحة وترقم اياته بأرقام افرنجية ، ويكتب حوله تفسير كل آية مرقما برقمها الذى رقمت به الآية ، بحيث يكون القرآن مكتوبا بلغة القرآن ، والتفسير مكتوبا باللغة العربية ٠

(ب) يكتب تفسير باللغة التى ترجم اليها التفسير مرقما بالأرقام التى رقمت بها آيات المصحف ، وبحيث يفهم القارىء غير العربى أن ما يقرأه هو ترجمة تفسير للقرآن ، وبحيث يفهم تفسير كل آية من رقمها الذى رقمت به فى المصحف ، وفى التفسير ، وان هذا النظام الفـــكرى ، والطابعى يحقق مقاصد ثلاثة :

أولها ـ وضع تفسير موجز باللغة العربية يمكن طبعه مع المصحف من

غير ترجمته ، وذلك مقصد سليم مطلوب فى ذاته ، يسهل على القارىء العربى فهم القرآن ، وهو يتلوه أو يستمع الى من يتلوه ، وبذلك تتحقق العظة ، ويتحقق الاعتبار ، ويكون الانتفاع كاملا لمن يعرف العربية ٠

ثانيها ـ أن يقرأ القارىء الأعجمى القرآن الذى يحفظه من غير أن يفهم ، وبايجاد التفسير بلغته يتمكن من فهم القرآن ، ويسهل عليه ذلك أن يعرف العربية ان اتجه الى معرفتها ، لأنه حفظ كثيرا من عباراتها القرآنية وفهم معناها ، وقد نفذت ذلك فعلا بعض البلاد الاسلامية ، فالايرانيون قد كتبوا تفسيرا للقرآن باللغة الفارسية طبع فى هامش المصحف الشريف ، وكذلك فعل الأفغانيون ، والباكستانيون ٠

ولو كان التفسير العربى الذى تكتبه طائفة من أهل الذكر ، ترجم الى لغات أولئك لكان العمل أسلم وأتقن وأجدى ٠

المقصد الثالث ـ الذى يحققه ذلك العمل الجليل هو تصحيح ما سموه تراجم للقرآن فى اللغات الأوربية ، وبيان وجه الخطل فيها وابطال التحريفات لمعانيه الجليلة ، فان بعض الذين تولوا الترجمة لم يكن مقصدهم العلم لذات العلم ، بل كان مقصد الكثيرين منهم تشويه معانى القرآن الكريم ، وفوق ذلك فان الأوربيين يجدون السبيل لرؤية القرآن ، فان أرادوا أن يمشوا فيه مخلصين أدركوه ، وآمنوا به واهتدوا ٠

وان قصدوا الى النور بعيون ضالة ، وقلوب مريضة ، ونفوس أركست فى الهوى ، فلن يزدادوا الا عمى ، قال تعالى « **فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » ٠

هذا هو العمل الذى نعتقد أنه العمل السليم الذى يحقق كل المقاصد من غير أن يتعرض القرآن لعبث العابثين ولهو الضالين ٠

وانا نعتقد بل نوقن أن الله حافظ كتابه فى الانتهاء ، كما حفظه فى الابتداء ، انه عليم قدير ٠

الغنـــاء بالقرآن

٢٥٤ ـــ تلونا من قبل قوله تعالى : « **لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه** » (١)

هذا النص الكريم يدل على أن تلاوة القرآن بتوجيه من الله تعالى ، لأنه سبحانه وتعالى يقول : « **فاذا قرأناه ، فاتبـــع قرآنه** » أى اذا تلونا عليـــــك القرآن ، واستحفظته ، فاتبع القراءة التى علمك الله تعالى ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى « **فاتبع قرآنه** » أى اتبع طريقة القرآن التى قرأناه ، ولا تبتعد عنها ، فان القرآن يراد به القراءة أحيانا كما قال تعالى : «**وقرآن الفجـــر ان قرآن الفجر كان مشهودا** » (٢)

والقرآن فى أصله كتاب كريم مبين ، وعبر عنه سبحانه وتعالى بقرآن ايماء الى أنه كتاب نزل بنصه وبطريقة قراءته ، وبذلك لا يستحفظ باقيـــــا فى الأجيال بمجرد الكتابة ، بل بالقراءة وحفظه فى الصدو متلوا بما عـــلم الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنبى عليه الصلاة والسلام فى تلاوته ، انما يتلو بتعليم من الله تعالى فى مده وغنه ، وتشديده ، وتسهيله ، فانه اذا نزل على النبى صلى لله تعالى عليه وسلم نزل متلوا ٠

وعلى ذلك تكون القراءة الكاملة للقرآن الكريم هى القراءة التى التزمها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه وتعليمه ، ولذلك يقول العلماء ان القراءة سنة متبعة ، لا يصح لمؤمن أن يحيد عن طريقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقـــد علم النبى أصحابه هذه القراءة كمــــا علمه ربه ، وعلم الصحابة تلاميذهم من التابعين تلاوة النبى عليه الصلاة والسلام ، وتواترت قراءة النبى الكريم ، كما تواتر القرآن الكريم فكان محفوظا بطريق تلاوته ،

---

(١) القيامة : ١٦ ــ ١٩

(٢) الاسراء : ٨٧

كما كان محفوظا بذاته ، بل ان الفصل بين طريقة التلاوة ، وذات القرآن الكريم فصل بين متلازمين ، وان السلف الصالح ، والخلف من بعـــدهم ما كانوا يعتمدون على المكتوب فى استحفاظ القرآن الكريم ، انما يقرأ طالب القرآن على مقرىء يقرئه ، ولا يعتمد على مكتوب كتب ، لأن المكتوب قد يجـرى فيــه التصحيف والتبديل، أما ما حفظ فى الصدور فانه لا يعروه تغيير ولا تبديل،ولا تحريف ٠

ولقد أمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يرتل القرآن ترتيلا فقال تعــالى : « **ورتل القرآن ترتيلا** » (١) ولقد نسب سبحانه وتعالى الترتيل الى ذاته العلية فقال تعالى : « **ورتلناه ترتيلا** » ٠

ولقد وضع العلماء المقاييس والضوابط التى تميز الترتيل المطلوب فى تلاوة القرآن الكريم ، ولم يتركوا الأمر فرطا بل وضعوا ميزانا يميز الترتيل المطلوب عن القــــراءات البعيدة عن الترتيل ، وهو علم التجــويد ، وعلم القراءات ، ففى هذين العلمين يتميز المنهاج المطلوب فى الترتيل عن غيره مما يبتدعه الناس ٠

٢٥٥ ـــ ولقد كان التابعون تلاميذ الصحابة يتبعون فى قراءة القرآن الترتيل الذى تعلموه من الصحابة كما أشرنا ، وهو الترتيل الـــذى قـرأ به الصحابة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الترتيل الذى علمه الله تعالى لنبيه ، فكان السند متصلا اتصالا وثيقا ، وتواترت القـــراءة ، تواتر القرآن كما نوهنا ٠

ولكن حدث فى العصر الأموى ، وهو عصر التابعين ، ومن امتـــد به الأجل من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أن دخل الغناء الفارسى ، وتشايع ذلك الغناء بألحانه ٠

---

(١) المزمل : ١٤

ويظهر أن هذا الغناء تسامى بألحانه الى القرآن الكريم ، فالتوت بعض الألسنة عن الترتيل المتبع فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن كان حيا من المعمرين من الصحابة اســـتنكر ذلك · يروى فى هذا عن زياد النميرى أنه جاء مع بعض القراء الى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له اقرأ ، فرفع صوته ، وطرب ، وكان رقيـــع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه ، وكان على وجهه خرقة سوداء ، فقال يا هذا ما هكذا كانوا يقرءون ، وكان اذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه ·

وان هذا الخبر عن ذلك الصحابى الجليل يدل على أمرين :

أولها ـ أن التطريب بالقرآن برفع الصوت وخفضه مسايرة لنغم أو نحو ذلك ما كان فى الترتيل الذى تلقاه الصحابة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

والثانى ـ أنه يدل على ذلك التطريب بقراءة القـــرآن قد حدث فى العصر الأموى بعد أن دخل الغناء الفارسى ، فهو بدعة ابتدعت ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، وذلك فوق أن القرآن لابد أن يرتل ترتيلا ، وذلك ليس ترتيل القرآن ، والقراءة كما قلنا سنة متبعة ·

وان التلاوة الحق كما حد العلماء حدودها ، وقرروا مقياسها فى علم يدرس قد ذكر القرآن خواصها ، وهى فى آثارها فى نفس القارىء ، وفى نفس من يسمعها ، وفيما تدل عليه من منزلة القرآن ، ومكانته فى هذا الوجود ·

فالله تعالى يقول فى مكانته « **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا** » (١) أى أن هذا القرآن له قوة فى النفوس وفى الوجود ، بحيث أنه يمكن أن تسير به الجبال ، أو تكلم به الموتى أو تقطع به الأرض ، فله فى النفس كمال الرهبة ، وله كمال التأثير ،

---

(١) الرعد : ٣١

وله فى الآذان جمال التعبير · فلو كانت الجبال تسير أو الأرض تقطع ، أو الموتى يسمعون القرآن فانه يكون لقراءة القرآن ، فهل يتاتى هذا التاثير مع تلوى الألسنة والأصوات بنغماته يترنح بها القارىء ذات اليمين وذات الشمال، والآهات تتعالى ، ويكون المكاء والتصدية ·

والقرآن وصفه الله تعالى بانه ذو الذكر ، واقسم به تعالى ، فقال سبحانه وتعالى : « **والقرآن ذى الذكر** » اى القرآن الذى يصـــحبه ذكر الله تعالى ، وهو الذى تطمئن به قلوب المؤمنين ، كما قال الله تعالى : « **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » وسمى القرآن ذكرا فقال جل وعلا : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ، فهل تلوية الأصوات والنبرات بغير الترتيل المنزل من عند الله تعالى يكون الذكر لله تعالى ، والاتعاظ بقرانه أم هى النغمات بين التطرية ، والتعلية ، هى التى تهتز لها النفوس طربا ، وتعلو بها الأصـــوات اعجابا بالمغنى وعجبا ·

والقرآن قد وصف الله تعالى المؤمنين عند تلاوته ، فقـــال تعـــالى « **اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** » (١) فهل تكون التلاوة للمؤمنين الذين سمعوا القرآن تكون بهذه الأصوات الذى تحدث الضجات المتوالية ·

ويصف الله تعالى القرآن الكريم فيقول عز من قائل : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم ، ويبشر المؤمنين** » (٢) ·

ويبين سبحانه وتعالى قوة تأثير القرآن فى قلوب المتعظين ، وفى قلوب من يتفهمونه فقال تعالى « **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله**»(٣) فهل يرى أى مدرك للمعانى القرآنية أن ذلك يتفق مع التغنى والتطريب الذىيصنعه قراء العصر، ان القارىء يكون مشغولا بالطرب عنمعنى

---

(١) مريم : ٥٨
(٢) الاسراء : ٩
(٣) الحشر : ٢١

القرآن وهدايته وعظاته فلا يتدبره ، ولا يدرك معناه ، ويكون على القلوب اقفال بما يحدثه التغنى ، والتطريب ، والاجتهاد فى اثارة النفوس لا لتتعظ ولكن لتضع ستارا بينها وبين ما فى القرآن ٠ والله تعالى يصف القـــرآن الكريم بقوله تعالى : « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثـــانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد** » (١) ٠

وان هذه الآيات التى تلوناها قبسة من نور القرآن الكريم ، وهى تدل على أنه ليس شعرا يتغنى به ، ويتنزل على لحون الأعاجم قديمها وحديثها ، ولكنه كتاب هداية للعظة ، والاعتبار ، وتوجيه النفوس ، وكل تطريب بالألحان قديمة وجديدة هو الهاء عن ذكر الله تعالى ، وابعاد عن مراميه ومغازيه ، فتكون النفس مشغولة بالنغم الملهى عن معنى القرآن ومرماه ٠

٢٥٦ ـــ واننا لا نبعد بهذا الكلام عن حقيقة مقررة ثابتة ، وهى اتباع السلف فى التلاوة ، وهى تنتهى فى أصلها الى منزل القرآن الـكريم الذى جعله حجة وبرهانا ومعجزة ، وقال سبحانه وتعالى فيــه : «**قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » (٢) كما تلونا من قبل ٠

فكل مخالفة لمنهاج السلف الصالح فى التلاوة ، مخالفة لما أمر الله تعالى به فى قوله تعالى : « **ورتل القرآن ترتيلا** » ولكن وردت آثار عن الرســـول صلى الله تعالى عليه وسلم يوهم ظاهرها جواز التغنى بالقرآن ، والتطريب به ، والترجيع فيه وكان لنا وقد تلونا ما تلونا أن نحكم بعم صحة نسبتها الى الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ذلك يكون اذا كانت تدل قريبا أو بعيدا على جواز الغناء الذى نراه الآن من بعض القـــراء ، وعلى

---

(١) الزمر : ٢٣ ٠
(٢) الاسراء : ٨٨ ٠

ما يريده الذين لم يعرفوا بأنهم أرادوا للاسلام وقارا ، بل يريدونه بورا ، أو كما يبدو فى كتاباتهم ، والله عليم بضمائرهم ٠

ولكنا اذا تفهمنا هذه الآثار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعن صحابته رضوان الله تعالى عليهم ، وما ترمى اليه ، ان صحت النسبة ، وجدنا أننا لسنا فى حاجة الى رد صحيح السند منها ، لأن متنه لا يخالف الترتيل الذى جاء به رب القرآن ورب محمد ، ورب العالمين ٠

١ ـ لقد روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيما رواه عنه البراء بن عازب « زينوا القرآن بأصواتكم » ٠

٢ـ وأخرج مسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ٠

٣ ـ ولقد كان عليه الصلاة والسلام يسره أن يسمع القرآن من أبى موسى الأشعرى ، حتى روى أنه قال فى سرور بقراءته : « لقد أعطيت مزمارا من مزامير داوود » وأنه سمعه النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستطاب ما يسمعه من صوته وأبو موسى لم يشعر ، فلما شعر قال : « لو أعلم أنك تسمع لقراءتى لحبرت لك تحبيرا » ٠

٤ ـ وروى عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن ، وغنوا به ، واكتبوه ، فوالله انه لأشد تفصيا من المخاض من العقل » ٠

٥ ـ قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الفتح فى مسيرته سورة الفتح على راحلته فرجع ، والترجيع فى القراءة ترديد الحروف ٠

هذه الأخبار واردة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى فى ظاهرها تدل على جواز التغنى بالقرآن والترجيع فيه والتطريب به ، وقد طار بهذه الآثار أولئك الذين يروجون قراءة القرآن بألحان الأعاجم ، وكان لنا أن نردها لمخالفتها المتواتر عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

فلننظر اليها فهل تؤدى فى مدلولها الى جواز اتخاذ القـــرآن سبيلا للتطريب فى عصرنا ، لتحدث القراءة طربا ولا تحدث عظة واعتبارا ، وخشية من الله ، واحساسا من المؤمن بأن الله تعالى يخاطبه بهذا القرآن ٠

ولننظر فيهـــا خبرا خبرا نتعرف ما يدل عليـــه فى ظاهره ، وفى حقيقته ٠

أما الخبر الأول : وهو ما نسب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه قال : « زينوا القرآن بأصواتكم ، فانه لا يفسر بظاهره ، لأن القرآن زين بذاته ، ولكن المتأمل يرى أن القراءة المرتلة التى يلاحظ فيهـــا المأثور من القراءات ، وملاحظة المعانى فيها ، فيرتفع الصوت فيها نسبيا فى آيات التهديد والانذار ، ويخفضه نسبيا فى آيات التبشير ، ويقرأ قراءة المتأمل فى الآيات الكريمة الداعية الى التفكير ، فان هذا بلا شك موافق للترتيل الذى أخذناه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومصور للمعانى القرآنية من غير أن تكون القراءة صياحا نمطيا ، ومن غير أن تكون تلحينا أعجميا ، ولينا فى الالقاء لا يسوغ ٠

وانا نحسب أن تزيين القراءة لا يكون الا بالترتيل ، فالتزيين فى كل شىء بما يناسبه ، وذلك واقع فى المعنويات كما هو واقع فى الحسيات ، والأشياء والأشخاص ، ولا شك أن القراءة تكون بما يناسب معانى القرآن ، وموضع العظة والاعتبار والتأمل فيه ، ولا يمكن أن يفسر التزيين بالتلوى فى الحروف والكلم ، فان ذلك شين ، وليس بزين ٠

ولنرجع الى تفسير البراء الذى روى هذا الخبر ، فقد قال فى تفسيره له زينوا القرآن بأصواتكم ، أى الهجوا به ، واشغلوا به أصواتكم ، واتخذوه شعارا وزينة ، وقيل ان معناه الحض على قراءة القرآن ٠

وان هذين التفسيرين ، وان كانا غير ما فسرنا به الخبر ، يتلاقيان مع

تفسيرنا ، ولا ينافرانه ، وهما يتفقـــان مع غيره من الأحاديث فى هـــذا الباب .

٢٥٧ — ولننظر فيما أخرجه مسلم من قول للنبى عليه الصـــلاة والسلام اذ قال « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقد فسره بعض العلماء بأن التغنى هنا تحسين الصوت بقراءة القرآن ، بأن يعود لسانه النطق السليم من قراءة القرآن باخراج الحروف من مخارجها ، واتباع الترتيل المحكم عن النبى عليه الصلاة والسلام فى المد والغن والادغام ، والفصل والوصل ، والوقوف فى موضع الوقف ، ووصل القراءة فى مواضع الوصل ملاحظا المعـــانى ، ومدركا ما يقرأ ، وهذا يتلاقى مع ما روى عن ابن عمـر أنه قال : حسـنوا أصواتكم بالقرآن ، وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « زينوا أصواتكم بالقرآن » .

ولا شك أن الوهم الذى دخل على الذين يقرءون القرآن بألحان الأعاجم ، والذى استنكره أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الحديث هو العماد الذى يقوم عليه عمل هؤلاء ، ونحن لا نرى فيه ما يؤيد كلامهم .

ان التغنى مصدر غنى يغنى تغنية ، وهو فيما أعتقد غير الغناء ؟ لأن الغناء القصد الى اسماع غيره ليطرب ، ويتطرب لا ليتعظ ويعتبر ، أما التغنى فهو استمتاع المتكلم ممـــا يتكلم به مترنما بالنطق ، مستحبا له مسـتلحما ، مستطيبا للكلمات ذواقا لها ولمعانيها ، ولننزل من مرتبة القرآن السامية الى منحدر الشعر ، فان انشاد الشعر من الشاعر استمتاع بالألفـــاظ ، ورنة الموسيقى فى الشعر ، يهتز بها مترنما ، يفعل ذلك ولو لم يسمعه أحد ، ولو لم يقصد الى سماع أحد ، وكذلك المؤمن القارىء للقرآن يتذوق ألفـاظه ، ويدرك الصور البيانية التى تصدر عن أساليبه ، ويخشع لما يشتمل عليه من

عظات وعبر ، ويحس بأن الله تعالى يخاطبه ، وتعتريه روحانية من الألفاظ ونغمها وجلال معانيها ·

هذا هو التغنى الذى نفهم أنه خاصة من خواص المؤمنين ، ويفعله الصديقون ، وليس منه ما نسمعه الآن من القراء الذين يطربون ، ويرجعون الحروف ، ويلوون بها الألسنة ، فان هذا غناء وليس مجرد تغنى ، وان هذا النظر يتلاقى مع بعض الروايات ، فقد روى أبو سعيد الخدرى فى قوله عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال : كانت العرب تولع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها ، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجيراهم مكان الغناء فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أى يشبع نفسه بحسن ترتيله وتلاوته ليكون هو الذى يستمتع به من كلامهم ·

وقد روى سفيان بن عيينه عن سعد بن أبى وقاص ان تغنى هنا بمعنى استغنى ، وان بعض المعاجم يفسر التغنى بمعنى الاستغناء ، فقد جاء فى الصحاح تغنى الرجل بمعنى استغنى ، فمعنى النص الشريف ، ليس منا من لم يستغن بالقرآن عن أساطير الأولين ، واقاصيص القصاصين ·

وقد أنكر الشافعى تفسير التغنى فى الحديث بالاستغناء ، وتابعه فى ذلك ابن جرير الطبرى ، وقال الطبرى ان التغنى هو حسن الصوت بالترجيع ، وهذا التفسير يتلاقى مع قولنا الذى أسلفناه ، وهو التمتع بحلاوة الألفاظ القرآنية ، ورنين أساليبها بترجيع بعض الجمل والكلمات من غير قصد الى التطريب ، وايقاظ المشاعر بغير نغم القرآن ، بل بنغم الألحان الذى يمنع ذكر الله تعالى ، والخشوع الذى وصف الله القرآن به اذ قال سبحانه وتعالى : « **مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم** »(١) ·

---

(١) الزمر : ٢٣

ومهما تكن الأقوال فى معنى التغنى ٠ فمن المتفق عليه بين الموسعين ، والمتمسكين كابن المسيب ومالك وابن حنبل ، وغيرهم ، أن القراءة بالألحان والتطريب والغناء لا تجوز لأنه يخل بمقام القرآن ويوجه الناس الى الطرب بالألحان بدل الاستفادة بمواعظ القرآن ، وهدايته ، وتعرف أحكامه ، وما فيه من أدلة التوحيد ٠ وأحوال الأقوام مع الرسل السابقين ٠

وانه يجب فهم التغنى على ضوء قوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى ضوء ما عرفناه من قراءة النبى عليه الصلاة والسلام وترتيله الذى علمه الله تعالى اياه وعما اثر عن السلف الصالح ٠

ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « أحسن الناس صوتا من اذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى » فهل هذا يتفق مع التلوى بالألفاظ ، وعدم مراعاة المعانى ، وانما تراعى الألحان ، والناس فى طرب بسماعها ينصتون اليها ويطربون ، ولا تنالهم الخشية من خطاب الديان لهم بالقرآن الكريم ، كلام الله تعالى بيانه ٠

٢٥٨ — ولننتقل بعد ذلك الى حديث أبى موسى الأشعرى وثناء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى بعبارات مختلفة منها هذه العبارة التى قالها بعد أن عبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم باستحسانه بقراءته، فقد قال رضى الله تعالى عنه للنبى عليه الصلاة والسلام « لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبرته لك تحبيرا » والتحبير التزيين ، وهو كما قلنا فى كل شىء بما يناسبه ، فالذى يناسب القرآن الكريم الترتيل المصور للمعانى القرآنية المربى للخشوع ، والعظة والاعتبار ، والذى يجعل المعانى القرآنية تنساب فى النفوس ٠

وقد رويت عبارة أبى موسى الأشعرى بنص آخر يوضح الرواية الأولى ، ولا يخالفه ، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: « انى لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحسنت صوتى بالقرآن ، وزينته ورتلته » ٠

فهذه الرواية تدل على أن التحبير والتحسين كان فى الصوت ، لا فى القرآن الكريم ، وان ذلك التحسين كان فى دائرة الترتيل ، ولا شك أن حسن الصوت ، اذا اقترن بالترتيل ، ولم يتخالفا ، ولم ينحرف القارىء الى الحان الأعاجم ، والى الغناء وتطريب السامعين ليتمايلوا يمينا وشمالا ، ويقرنون ذلك بآهات مهوشة ، تشبه المكاء والتصدية كما كان أهل الجاهلية ٠

ولننتقل من بعد ذلك الى ما روى عن عقبة بن عامر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن وغنوا به واكتبوه » ٠

وقد قالوا انه صحيح السند ، وان التغنى المذكور فى الحديث السابق ، هو مصدر غنى ، وقد فسرنا التغنية فى الحديث بأنها ليست الغناء الذى يقصد به القارىء أن يعتبر القرآن أغنية يطرب بها السامعين ، انما التغنى عمـــل نفسى للقارىء التالى للقرآن ، بأن يشبع الكلمات ، ويستمتع بها ، وينغمها ، ويراجع فى كلماته متذوقا لها ، مدركا لكل معانيها ، متفهما ، محبا للقرآن ، غير متململ ، ولا متكلف ، وقد شرحنا ذلك من قبل ٠

وكتابة القرآن الكريم أمر مطلوب ، وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يملى على الكتاب ما حفظ من ربه ، وما أن انتقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى الا كان القرآن الكريم كله مكتوبا مسطورا ، ومحفوظا ومرتلا متلوا ، تلاوة نبوية ٠

وان الأمر بالكتابة لا يدل على الاستغناء بها ، فانه ان حفظ الحروف والكلمات لا يروى الترتيل الذى نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كان لابد من الاقراء على مقرىء ليحفظ المتواتر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى علمه ربه الترتيل ، كما تواتر القرآن المحفوظ ، وكما قال تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون** » (١) ٠

---

(١) الحجر : ٩

٢٢٩ ـــ من هذا كله يتبين أن القراءة الصحيحة تكون بترتيل القرآن الكريم ، لما علمه الله تعالى لنبيه فى قوله تعالت كلماته « **فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه** » (١) ٠

وان الاعتبار فى القراءة التى يكون فيها التزيين يثبت بأن يمتلىء قلب القارىء بالخشوع ، ويلقى به فى نفوس السامعين ، فهذا هو القياس المستقيم، ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما روينا من قبل : « أحسن الناس صوتا من اذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى » ٠

وان قراءة القرآن لا تجوز الا باخراج الحروف من مخارجها ، والمد فى موضعة ٠ والغن فى موضعة والوصل حيث يقتضية المعنى ٠ والوقف حيث يوجبه المعنى كذلك هو الترتيل ٠

ولقد روى حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اقرءوا القرآن بلحون العرب ، وأصواتها ، واياكم ولحون أهل الفسق ، ولحون أهل الكتاب ، وسيجىء بعدى قوم يرجعون القرآن ترجيع الغنـــاء والنوح ، لايجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم ، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » رواه الترمذى فى نوادر الأصول من حديث حذيفة ٠

ولقد سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مؤذنا يطرب ، ويردد فى الحروف ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الأذان سهل سمح ، فاذا كان اذانك سمحا سهلا ، والا فلا تؤذن » رواه الدارقطنى فى سننه٠

واذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد منع الغناء فى الأذان ، فاولى ثم أولى أن يمنعه فى القرآن ، فهو كتاب الله تعالى وخطابه ، وهو الذى رتله ، كما صرح بذلك ، اذ قال فيما تلونا من قبل:« **ورتلناه ترتيلا** » (٢)

---

(١) القيامة : ١٨ ــ ١٩ ٠

(٢) الفرقان : ٣٢ ٠

ويظهر أن مصر من قديم الزمان حملت بدعة القرآن بألحان الأعاجم ، فقد قال القرطبى فىكتابه أحكام القرآن بعد أن بين أن الترديد ، حيث يكون على مقتضى المعنى ، وما يومىء اليه النص القرانى ، قال : « فان زاد على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام،كما يفعل القراء بالديار المصريةالذينيقرءون أمام الملوك والجنائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ، ضل سعيهم ، وخاب عملهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتـــاب الله ، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى التنزيل ما ليس فيه جهلا بدينهم ، ومروقا عن سنة نبيهم ، ورفضا لسير الصالحين فيه من سلفهم ونزوعا الى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فهم فى غيهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، وانا لله ، وانا اليه راجعون ، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون » ٠

وان العدوى قد انتقلت من مصر الى البلاد العربية ، وما زالت العدوى تسرى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

اللهم اغفر لنا ولا تؤاخذنا بما فعل ، ويفعل السفهاء منا ، وألهمنـــا المحافظة على قرآنك الكريم من عبث العابثين ، ولهـــو اللاهين ، وافتراء المفترين ، انك أنت وحدك الحافظ لكتابك ، وانه لمحفوظ ان شئت رب العالمين ٠

((تم بحمد الله تعالى وعونه))

بيان ما اشتمل عليه الكتاب

القسم الأول

نزول القرآن

٤٧ ـ قراءات القرآن

القسم الثانى

٥٩ ـ اعجاز القرآن

٧٣ ـ سر الاعجــاز

٨٦ ـ وجوه الاعجاز

١٢٤ ـ الأسلوب القرآنى

١٥٥ ـ تصريف البيان

١٥٩ ـ التكرار فى القرآن

١٦٢ ـ قصص القرآن من الناحية البيانية

١٨٧ ـ قصص القرآن لون من تصريف بيانه

٢٧٩ ـ نظم القرآن وفواصله

٣٢٧ ـ طوال السور وقصارها

٣٣٩ ـ الاعجاز بذكر الغيب

٣٤٣ ـ جدل القرآن واستدلاله

٣٦٤ ـ أسلوب الجدل فى القرآن

٣٨٩ ــ علم الكتاب

٥٨١ — ترجمة القرآن

— الغناء بالقرآن

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٢٧
الترقيم الدولى ٦ ـ ١٢٥ ـ ٣٠٦ ـ ٩٧٧

دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩



دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩